

رواية

ليف تولستوي

البعث

مكتبة بغداد

ترجمة: صياح الجهم





رواية

Author: Лев Николаевич Толстой

Title: Resurrection

Translator: Sayah Al jhayem

cover designed by: Majed Al Majedy

P.C.: Al-Mada

First Edition: 1984

Second Edition: 2016

المؤلف: ليف تولستوي

عنوان الكتاب: البعث

ترجمة: صياح الجهم

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الاولى: 1984

الطبعة الثانية: 2016

Copyright © Al-Mada

جميع الحقوق محفوظة



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد: حي ابو نواس-محلة 102-شارع 13-بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street-Building 141 www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول info@daralmada.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار al-madahouse@net.sy ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

ليف تولستوي

البعث

ترجمة : صياح الجهم

صدرت الطبعة الأولى عام ١٨٩٩



مقدمة

تشهد سنوات ١٨٨٠ على أزمة تولستوي الكبرى، الدينية والفنية. ذلك أن مؤلف «آنا كارينينا»، في بحثه الدؤوب عن المطلق، يدخل صراحةً في نزاع مع الكنيسة الرسمية. بل إنه ينفصل عنها ويغدو كالمتشيع الذي يشبه بعض الشبه أتباع المانوية وبعض الهوسيين^(١) في العصر الوسيط، مقتنعاً حتى التعصب بأنه هو وحده القادر على فهم المعنى الحقيقي للإنجيل، وأنه هو وحده المالك لسر التعليم الذي كان يريد أن ينشره في العالم بأسره، وللناس جميعاً. وحين يجعل تولستوي، على هذا النحو، من التبشير الديني والأخلاقي، بل من الدعاوة الدينية والأخلاقية هدفاً له، فإنه يخضع عقائد الكنيسة، والدولة، والعلوم، والفنون على وجه الخصوص، لنقد لا هوادة فيه. إن ضرباً من الروسوية^(٢) المتشددة لا تُريه في الفن إلا عنصراً مفسداً للأخلاق بعد أن فقد وحيه الديني القديم، ورمى إلى تمجيد الجمال والشهوة وحدهما دون غيرهما. ومن هذه الزاوية البالغة الضيق لا يتردد في إدانة الآداب بمجموعها فيزري على شكسبير وبوشكين

١. طائفة دينية.

٢. نسبة إلى روسو.

ويتبرأ من عمله الأدبي الذي يجده مسرفاً في الترويج للجمال بل وسطحياً. ولم يعد يطمح إلا في تأليف قصص واعظة أو تعليمية، موجهة إلى عامة الشعب، جديرة بأن توقظ لدى الناس مشاعر الحب المتبادل، وغفران الخطايا المتبادل. عمل أدبي جديد لا زخرفة فيه، عمل خال من التزويق، وتهذيبي جوهرياً، ذلك هو الهدف الذي كان عليه أن يبلغه منذئذ.

وهو يُنتج إذن في هذه المرحلة طائفة من القصص سيُطبع معظمها في «الوسيط». وأهم من ذلك بكثير في نظره الأبحاث ذات الطابع الديني والاجتماعي: «اعترف» (١٨٧٩ - ١٨٨٢)، «نقد علم اللاهوت العقائدي» (١٨٨٠)، توافق الأناجيل الأربعة وترجمتها» (١٨٨١)، «ديني» (١٨٨٣)، «ماذا ينبغي أن نفعل» (١٨٨٤). وأبحاث أخرى كان صداها كبيراً في روسيا وخارج روسيا. على أن القريحة الأدبية لديه لم تنضب: فهو يكتب للمسرح، وبعض مسرحياته، بالرغم من «اتجاهها» لا يُعوزها التشويق من الوجهة الدرامية وحدها، بل إنها تشهد هنا وهناك على «مهارة المعلم» مثل «سلطان الظلمات» (١٨٨٦). وأخيراً ففي أثناء هذه السنوات الشديدة، يؤلف «البعث» هذه الرواية العظيمة التي تحتل، بحق، مكانها إلى جانب «الحرب والسلام» و«آنا كارينينا».

تعود بذرة هذا العمل إلى عام ١٨٨٧. وهي تُولَد من حدث واقعي. كان لتولستوي آنذاك علاقات ممتازة مع النائب العام «أناطول فيدوروفتش كوني» (١٨٤٠ - ١٩١٨). وهو حقوقي شهير، ذو فكر متحرر، ونزاهة خلقية عظيمة، وأفضل ممثل للحقوقين الروس

من جيل ١٨٦٠. ولقد أوتي موهبةً أدبية حقيقية، فنشر مرافعاته كما نشر مذكراته، ولاقت نجاحاً كبيراً. وهو الذي قصّ ذات يوم على تولستوي واقعة مؤثرة من حياته القانونية: زاره شاب من المجتمع الراقي أراد أن يسلم ظرفاً مختوماً إلى إحدى السجينات. وأبت الإدارة عليه ذلك، فقصد النائب العام «كوني» يطلب عونه. اهتم كوني بالأمر وعلم أن تلك السجينة مومس اسمها «روزالي أوني»، وأنها محكومة بسبب سرقتها مائة روبل. لكن كان وراء ذلك قصة طويلة: لقد كانت «روزالي» فلاحاً صغيرة يتيمة اشتغلت خادمة لدى سيدة ثرية دلتها. فأغراها ابن تلك السيدة -وهو الشاب الذي قصد النائب العام- وحملت منه، وما لبثت أن طردت من البيت وغرقت شيئاً فشيئاً في الدعارة. وإذ اتهمت ذات يوم بالسرقة، أُحيلت إلى المحكمة التي كان بين محلفيها ذلك العشيق القديم، فحكم عليها بالسجن. وعندما تعرّف العشيق تلك الفتاة التي أغواها قديماً، عضّه الندم لأنه دفعها على طريق الهلاك، وعرض عليها الزواج ليكفّر عن خطيئته. لكن البائسة أصيبت بالتيفوس الذي كان يفتك بالسجن حينئذ، وماتت في المشفى، قبل أن يتم الزواج.

تأثر تولستوي بهذه القصة الحقيقية، والأخلاقية على نحو شديد العمق. وإنما اشتد تأثره لأن حدثاً مشابهاً وقع له أثناء شبابه الذي بعد العهد به. ونحن نملك بهذا الصدد شهادة ثمينة من كاتب سيرته «بيريوكوف». فقد روى «بيريوكوف» بالفعل أن الكاتب ابن الثمانين قد أسرّ إليه في آب ١٩١٠ قبيل موته قائلاً: «أنت لا تكتب عني إلا ما هو حسن. وهذا غير صحيح وغير تام. يجب أن تقول أيضاً ما هو سيء. وأنا إذ أحدثك حديثي لكاتب سيرتي، أرجوك أن تُثبت في

سيرتي بعض الأحداث وهي، أولاً، صلتني بفلاحة من قرיתי قبل أن أتزوج. ويمكن أن نجد إشارة إليها في قصتي «الشيطان»، وثانياً الجريمة التي ارتكبتها بحق الوصيفة «ماشيا» التي كانت تقطن في بيت عمتي. كانت عذراء وأغويتها. فطُرِدَتْ وسقطت. «وعندما نقبل بين ما رواه بيروكوف وحبكة «البعث»، فسوف نرى كل ما يدخل في العلاقة بين نيكليودوف وكاتيوشا من سيرة ذاتية. ويقول كاتب سيرته أيضاً: «وهكذا نستطيع أن نفسّر شغف تولستوي بهذا الموضوع، وذلك الاندفاع الذي أراد به أن يُنهي وينشر هذه الرواية، حتى قبل القصص التي كان قد بدأها». كانت «جريمته» تُثقل كاهله، وكأنه أراد أن يكفر عنها، وهو يعترف بها علانية.

هناك وقائع أخرى: ففي أواخر القرن الثامن عشر ظهرت طائفة دينية في سهوب روسيا الجديدة التي استُولى عليها قبل فترة وجيزة، والتي دعت كاترين الثانية إليها المستوطنين من جميع البلدان؛ ومن بين الذين دعّتهم الألمان والفرنسيون. لقد أنشأت قرى روسية نظاماً دينياً شديد الصرامة وربما كان ذلك بتأثيرات مينوئية^(٣): كانوا ينبذون العبادة، والطقوس جميعاً، وعبادة الصور، بل وكل تنظيم كنسي. كانوا يأبون أن يكونوا خدّاماً للدولة، وكانوا يأخذون أخذاً حرفياً بالوصية: «لا تقتل» فيرفضون أداء الخدمة العسكرية. كانوا يجتمعون على حدة ليقروا الإنجيل ويرتلوا المزامير، وكانوا يعيشون حياة مستقيمة وفاضلة، تُلهبهم نفحة صوفية من الحب الأخوي. وقد أطلق عليهم «دوكوبوري» أي: «أبطال الروح» أما هم فكانوا يسمّون أنفسهم:

٣. مينوئية: نسبة إلى مینون وهو مؤسس طائفة دينية.

«المسيحيين الروحانيين» وجرت عليهم معارضةهم للدولة سلسلة من الاضطهاد، في بادئ الأمر، ثم هُجِّروا، في أواخر ملك الاسكندر الأول، إلى القوقاز حيث امتزجوا بالسكان الدخلاء، فلم يستطيعوا أن يؤثروا في السكان الروس. وأعفوا من الخدمة في الجيش، وأوكلت إليهم حراسة الأحراج. وهكذا قضوا، طوال أكثر من نصف قرن، حياةً وادعة، يعيشون مما جنت أيديهم، ويضعون أموالهم معاً في عهدة أحد مرشديهم الروحانيين الأجلاء. لكن الإدارة في زمن الردة الرجعية -نحو ١٨٨٥- أعادت الكرة لتفرض عليهم الخدمة العسكرية من جديد. فقبلت فئة منهم، وقاومت فئة أخرى. عند ذاك نُفي الزعماء إلى شمال روسيا وجُنِّد المعارضون في أفواج تأديبية، وعوقبوا معاقبة شديدة. وتستولي على الذين بقوا في القوقاز ردةً من التعصب؛ ففي سنة ١٨٩٥ تصمم ثلاث قرى على إحراق جميع الأسلحة التي كانت في حوزتها (من المعلوم أن جميع الفلاحين، في القوقاز، بلد اللصوصية، كانوا يحملون السلاح)، وعلى قطع صلاتها بالحكومة، وعلى رفض الخدمة العسكرية ودفع الضرائب. ولقد أُحرقت تلك الأسلحة في ليلة ٢٩ حزيران بشكل احتفالي، وعلى ترتيل المزامير، وتعتبر السلطات ذلك العمل كأنه مقدمة للعصيان وترسل القوزاق ضدهم. وبعد أن فتكوا بهم فتكاً ذريعاً، طُرِدَ أربعة آلاف من بيوتهم وُفِرُّوا في القرى الدخيلة، وألقي بزعمائهم في السجن.

يلاحظ «بيريوكو»: «يمكن القول، بهذا الصدد، أن هذه الانطلاقة للروح الفوضوية تعود، في معظمها، إلى تبشير تولستوي الذي ظهرت في «الوسيط» كتاباته الأخلاقية المنحى، وهي كتابات نشرها في القوقاز أحد أنصار تولستوي المتحمسين -الأمير دميتري كيلكوف-

فأقبل عليها «الدوكوبور» يلتهمونها التهاماً. أما تولستوي الذي كان قد قابل، في الشتاء المنصرم، بعضاً من زعمائهم، وفرح إذ رأى فيهم أناساً قريين جداً من قناعاته الخاصة، فإنه تأثر تأثراً عميقاً واغتاض غيظاً شديداً من جراء هذه الحملات التي كان ضحيتها هؤلاء المؤمنون الصادقون والتي بدت له كأنها ترمي بروسيا قرنين إلى الوراء، إلى عصر الملك الشمس، وإلى فسخ منشور «نانت». وأرسل أمين سره «بيريوكوف» ليتحرى الحقيقة في المكان نفسه. فكتب هذا الأخير مقالة طويلة ملأى بالسخط المتأجج عنوانها: «اضطهاد المسيحيين في روسيا في عام ١٨٩٥». وبما أن المقالة المذكورة لم يمكن لها بطبيعة الحال أن تظهر في روسيا، فقد ترجمها تشير تكوف ونشرت في «التايمز» في لندن، ونقلتها صحف أخرى، وتركت أثراً عميقاً.

عند ذاك أصدر «بيريوكوف» و«تشير تكوف»، في لندن أيضاً، كراسة عنوانها «إلى النجدة» ذيلها تولستوي بملحق. وقد بذل الكاتب نشاطاً هائلاً لمساعدة «الدوكوبور» وكرّر نداءاته في روسيا وفي الخارج - وعلى وجه الخصوص في الولايات المتحدة حيث سارعت أكثر من طائفة - ومنها طائفة الصاجيين - إلى تقديم الدعم المعنوي والمادي.

في شباط ١٨٩٨، تلقى «الدوكوبور» إذناً بالسفر إلى كندا، هذا البلد العظيم الغني بالأراضي العذراء والذي لم يكن يعرف آنذاك الخدمة العسكرية الإلزامية. كان عددهم سبعة آلاف. وبعد أن باعوا كل ما يملكون لم يستطيعوا أن يجمعوا سوى ثلاثمائة ألف روبل. وكان يلزمهم سبعمائة ألف للسفر وحده. عند ذاك لم يكتف تولستوي

بأنه تدخل وكتب سلسلة من الرسائل لشخصيات مرموقة، أو بأنه وجه نداءات عامة إلى الإحسان، بل إنه قرر الخروج على خط السلوك الذي اختطه لنفسه بصفته مؤلفاً - وهو ألا يجني مالاً من مؤلفاته - وعجل بإنهاء «البعث» ليخرجه بأسرع ما يمكن، وليبيعه لمصلحة «الدوكوبور». وعرض عليه الناشر «الفرد ماركس»، في بطرسبرج، مبلغاً لا يُصدّق وهو ألف روبل عن كل صفحة مطبوعة، وذلك لكي تصدر الرواية في مجلته «نيفا»^(٤) وإذ عجل تولستوي عمله، أخذت الرواية تظهر منذ شهر آذار ١٨٩٩ في مجلة «نيفا» (على أن تحذف منها مقاطع فرضت الرقابة حذفها) وأخذت تظهر بنصها الروسي الكامل في الوقت نفسه، في لندن، برعاية تشيرتكوف، كما تُرجمت إلى عدة لغات. وقبض تولستوي مبلغ ثلاثين ألف روبل صبّها كلها في المال المجموع من أجل هجرة «الدوكوبور» على كندا. وعندما جُمع المبلغ المطلوب بفضل مساعدات شتى، أبحر المسيحيون المضطهدون إلى جزيرة قبرص أولاً، ومن قبرص إلى كندا حيث استطاعوا أن يستأنفوا مجرى حياتهم الملهمة والعاملة، وإن لم يخل ذلك من خصومات مع السلطات الكندية، لأنهم كانوا يرفضون أن يخضعوا للزواج المدني وأن يسجلوا المواليد الجدد.

لكن تولستوي استطاع أن يكون مسروراً، فقد أمكنه أن يُنجز تلك المهمة العظيمة التي فرضها على نفسه؛ بل إن تلك المهمة أتاحت له أن يُنهي عملاً أدبياً واسعاً كان سيظل لولاها ناقصاً، قابلاً في أدراجه.

٤. عمل الرسام ليونيد باسترناك والد الكاتب المعروف رسوماً للرواية أعجبت تولستوي كثيراً.

وهكذا، فإن رواية البعث مرتبطة بصراع الكاتب ضد تعسف النظام الرجعي، وضد التعصب السياسي والديني، وضد القضاء الإنساني، وهو قضاء أعمى في الغالب، وضد نظام العقوبة ونظام النفي، وباختصار ضد شتى تنظيمات الدولة. لكن إيمان المؤلف قد صيغ هذه المرة صياغة روائية قوية، حتى أنه كتب إلى تشير تكوف قبل إنجاز الرواية: «أنا مشغول بالبعث، ولا أعلم إن كان هذا شيئاً حسناً أم سيئاً، فأمل أن أعرض في هذه الرواية الكثير من الأشياء الهامة. ولذلك أراني مندفعاً؛ ويبدو لي أحياناً أنها ستحتوي على الكثير مما هو حسنٌ ومما هو ضروري، وأحياناً أخرى أنني انسقت وراء الهوى». إن هذا الكتاب الذي كُتب فعلاً بهوى، تحت وطأة الأحداث، قد يذكر، من خلال بعض السمات، آنا كارينينا. وإن كانت ألوانه أكثر قتامة وأشد مأساوية، ففي «آنا كارينينا» نجد ليفين الذي يمثل تولستوي ذلك الزمان، يعارض بقوة مجتمعاً تبين فيه علامات الانحلال، مستنداً في هذه المعارضة إلى طبقة الفلاحين الفقراء، وإلى حاملي العقيدة المسيحية البسطاء، ويكاد يتوصل إلى ذلك التوازن بين جو الحياة العائلية الهادئ، في أحضان الطبيعة، وبحته المستمر عن المثل الأعلى. لكن تولستوي، بعد ربع قرن من الزمان، وبعد أن تمرّس بالتجارب الدينية والأخلاقية التي نعرفها، يبدو معادياً بصراحة لكل شكل من أشكال تنظيم الكنيسة أو الدولة، ويدخل في حرب مكشوفة معهما. أما الناطق الجديد باسمه «نيكليودوف» فهو مثل ليفين، موضوع بين عالمين: عالم العهد القديم الذي بلغ غاية الانحطاط هذه المرة، وعالم الفلاحين الذي يمزج به تولستوي المنفيين والمحكومين بالأشغال الشاقة الذين أثار مصيرهم شففته. واللوحة التي يقدمها منذ الآن عن الطبقة

التي في السلطة لوحة سلبية تماماً. إن ذلك مبالغ به أحياناً لكنه قوي: القضاة الذين يؤدون عملهم وهم لا يفكرون إلا في لذاتهم الصغيرة، المحلفون الضيقو الفكر الذين يرتكبون خطأ مميتاً في حكمهم، عضو مجلس الشيوخ «المادي» الذي يرفض العمل على نقض الحكم، لأنه يأبى كل تظاهر بالشعور الديني، الوزير القديم الذي تحرر من أبسط قواعد الأخلاق، المحامي الشهير الوقح الذي لا يهتمه شيء سوى المال، الأمير «كورتشاغن» المنحط الذي لا توحى ابنته، بفساتينها المكشوفة الصدر، سوى «العار والإشمئزاز». لوحات كثيرة لا سبيل إلى نسيانها، لقد صرّح تشيرتكوف بعد قراءة الرواية: «إنها عمل فني رائع، وأقلّ الأشياء إثارة للاهتمام هو ما يتّصل بالعلاقات بين «نيكليودوف» و«كاتيوشا»، وأكثرها أسراً للنفس الأمراء والجنرالات والفلاحون والسجناء والمفتشون. فالمشهد في منزل الجنرال المناجي للأرواح الذي يقود حصن «بترس وبولس»، أعدت قراءته وفي نفسي رعشة لفرط ما هو جيّد، والسيدة كورتشاغن على كرسيها؛ والفلاح، زوج فيدوسيا! الفلاح يقول: إن الجدة «مؤثرة» لكن ريشة تولستوي هي المؤثرة، في الحقيقة».

العمل، منذ بدء الرواية، واحدٌ ومركّزٌ، والنظر إلى التباين البدئي بين نهوض الأمير الغني «دمتري» وعالم المساكين الفقراء الذين يُجَرّون إلى القضاء. وعندما يتوب «نكليودوف» عن خطيئته، عن جرمته التي ظلت بدون عقاب، فإنه سيتحوّل داخلياً وسيجذبه عالم القاع ذاك وسيكشف فيه كائنات أفضل من المجتمع القديم الذي أدانه وأكثر إنسانية منه. والتناقض بين العدالة الاجتماعية، الإنسانية وبين العدالة الإلهية - التي تأمر بالغفران حتى سبع وسبعين مرّة - هو الذي

يكون فكرة الرواية الأصلية. إن تولستوي يكتشف، بواسطة بطله، عالماً يجهله كلياً حتى تلك اللحظة: عالم الثوار الذين يرسم لهم صوراً حية تنمّ على الإعجاب بما لديهم من روح الإنكار للذات، والتضحية.

على أنه لا يبلغ حدود آتٍبشير بالثورة، ففي الفصل الأخير، يقتنع «نيكليودوف»، وهو يعيد قراءة الإنجيل، أن الحب المسيحي هو الذي يمكن أن يجدّد العالم، أما ما يستنكره بلا تحفّظ فهو مجتمع زمانه، مجتمع «أواخر القرن» الذي يرفّ فوقه ظلّ «بوييدونوزتوف» المشؤوم -المتمثّل هنا في ملامح توهوروف- ذلك الرجعي البليد، والمستشار الرئيسيّ للإسكندر الثالث ولينقولا الثاني الذي وضع الكنيسة في خدمة الدولة وحدها ليس غير، وأوحى بالجملة المأساوية التالية: «يجب أن تجمّد روسيا قليلاً لكي لا تتعفن». وهنا يغدو صوت تولستوي بغية الاحتجاج، رهيباً.

إن «البعث» منتشرة اليوم في جميع أرجاء الإتحاد السوفيّاتيّ باعتبارها مرافعة ضدّ العهد القديم، ولاشكّ أن هذه الرواية تحتوي على الكثير من الصفحات المعتمدة، القاسية، لكنها تحتوي أيضاً على صفحات أخرى تفيض بالغنائية مثل استذكار ليلة الفصح، تلك الليلة العفيفة التي عاشها تولستوي، من غير شك، والتي تعود إلى ذاكرة «نيكليودوف»، بجمالها الشفاف.

الكسندر. ف. سولوفيف

القسم الأول

«حينئذ تقدّم بطرس وقال له: يا سيّد، كم مرة يخطئ أخي إليّ وأغفر له؟ إلى سبع مرات؟ فقال له يسوع: لا أقول لك، إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرّة سبع مرّات»

متى ١٨ : ٢١ - ٢٢

”ما بالك تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك؟... والخشبة التي في عينك لا تنتبه لها“.

متى ٧ : ٣

”من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر“

يوحنا ٨ : ٧

”ليس تلميذ أعظم من معلّمة، كل تلميذ كامل يكون كمعلّمه“

لوقا ٦ : ٤٠

عبثاً كان مئاتُ آلاف البشر المزدحمين في حيّز صغير، يذلّون
جهدهم ليشوّهوا الأرض التي يعيشون عليها؛ عبثاً كانوا يسحقون
ترابها بالحجارة لكي لا يَنْبُت فيها شيء؛ عبثاً كانوا يقتلعون حتى
أصغر قشة من عشب؛ عبثاً كانوا يملّؤون الهواء بدخان البترول
والفحم؛ عبثاً كانوا يقطعون الأشجار؛ عبثاً كانوا يطردون الحيوانات
والطيور: لقد كان الربيع، حتى في المدينة، ما يزال هو الربيع، فقد
كانت الشمس تسطع؛ وأخذ العشب الذي عادت إليه الحياة ينمو من
جديد، لا على مرجات الشوارع العريضة فحسب، بل على أرصفة
الشوارع؛ ونشرت أشجار البتولة والصفصاف والكرز البري أوراقها
الرطبة الأرجة؛ ونفخت أشجار الزيزفون براعمها التي أوشكت
أن تتفتّح؛ وشرعت غربانُ الزرع وعصافير الدوري والحمام تبنى
أعشاشها بابتهاج؛ وكان النحل والذباب يدوّي على الجدران، وقد
فتّنه أن يجد مرة أخرى دفء الشمس البديع. كان كل شيء غارقاً في
البهجة: النباتات والطيور والحشرات والأطفال. الناس وحدهم ظلّوا
يَخْدَعون ويَتَعَبون ويعذّبون الآخرين. الناس وحدهم كانوا يرون أن
ما هو هام ومقدّس ليس صبيحة الربيع هذه، ولا هذا الجمال الإلهي

للكون، الجمال الذي خُلِقَ من أجل فرح جميع الكائنات الحيّة والذي يُهيئُها جميعاً للسلام والوحدة والمحبة؛ بل إنهم كانوا يرون المقدّس والهام ما اخترعوه هم أنفسهم ليسيطر بعضهم على بعض.

وهكذا، ففي مكتب السجن الإقليمي، لم يكن سحرُ الربيع ومباهجه التي مُنحها البشر والحيوانات، هي ما يُعتبر هاماً ومقدّساً بل كان الهام والمقدّس أن مستخدم هذا المكتب تلقوا عشية البارحة، ورقةً مختومةً ومرقّمة تُخطرهم بوجوب نقل ثلاثة متهمين، رجل وامرأتين، كلٌّ على انفراد، في صباح ٢٨ نيسان الساعة التاسعة، إلى قصر العدل، لمحاكمتهم فيه. ووفقاً لهذا البلاغ دخل الحارس العجوز، في ٢٨ نيسان في الساعة الثامنة صباحاً، إلى ممرّ قسم النساء، وهو ممر مظلم وبتن. وسرعان ما أقبلت عليه، من الجانب الآخر من الممر، المشرفة على قسم النساء، وهي امرأةٌ عذراء عذراء، رمادية الشعر، تلبس سترة ذات كُمّين طويلين مُزيّنين بالأشرطة، وتلفّ قامتها بنجاد أزرق.

سألت:

— أجنّت تطلّب «ماسلوف»؟

وسرعان ما اتجهت، بصحبة الحارس، إلى أحد الأبواب العديدة التي تفتح على الممر. أدخل الحارس مفتاحاً ضخماً في قفل الباب، فصرّ الحديد صريراً، وانشق الباب، وخرجت منه رائحة نتنة أخبث من رائحة الممر..

صرخ الحارس الذي أعاد إغلاق الباب:

- ماسلوفاً! إلى قصر العدل!

ووقف جامداً ينتظر المرأة التي ناداها.

على خطوات من هذا المكان، في فناء السجن، كان بوسع المرء أن يتنفس الهواء النقي المنعش الذي حمله نسيم الربيع من الحقول، لكنّ الهواء في ممر السجن كان مُرهقاً وموبوءاً؛ كان هواءً أفسدته القذارة والرطوبة والعفونة، هواء لا يمكن لأحد أن يتنشقه دون أن يجتاحه، في الحال، حزن كئيب. تبيّنت المشرفة على القسم بنفسها من ذلك، وإن كانت قد تعودت هذا الهواء الموبوء. فما إن عادت من الفناء، ودخلت الممر حتى استبد بها الإحساس بالغثيان والنعاس.

كان الاضطراب شديداً، وراء الباب، في غرفة السجينات، كانت تُسمع الأصوات والضحكات ووقع الأقدام العارية.

صرخ الحارس العجوز وهو يشقّ الباب مرة أخرى:

- هيا، أسرع!

بعد لحظات خرجت من الغرفة بعجلة امرأة شابة، قصيرة، لكنها رشيقة القوام، كانت ترتدي سترة رمادية فوق قميصها وجبتها البيضاءوين. أما قدماها المغطاتان بجوربين من القماش فقد انتعلتا حذاء ضخماً من أحذية السجينات. وكان يلفّ رأسها منديل أبيض برزت منه بعض خصل الشعر الأسود الذي جعّده بعناية. وكان وجهها كله مشوباً بذلك الشحوب الخاص الذي لا نراه إلا على وجوه الذين أقاموا زمناً طويلاً في مكان مغلق. لكن ذلك أبرز إبرازاً أشدّ بريق

عينها الكبيرتين السوداوين اللتين كان في أحدهما شيء يسير من الحول، وهو بريق يتناقض مع ذلك الشحوب الكامد للجلد. وقفت المرأة وقفة مستقيمة، وصدرها العريض بارز إلى الأمام.

عندما بلغت الممر حنت رأسها قليلاً، ثم حدّقت في عيني الحارس العجوز؛ ثم استعدت لفعل ما ستؤمر به. وما إن هم الحارس بإغلاق الباب حتى انشقّ من جديد وطلع منه وجه متجهّم. مجعّد لامرأة عجوز بيضاء الشعر عارية الرأس. وأخذت هذه العجوز تحدث «ماسلوف» بصوت منخفض. لكن الحارس ردّها إلى الداخل وأغلق الباب. حينذاك دنت «ماسلوف» من كوة محدّثة في الباب بدا من جهتها المقابلة، على الفور، وجه المرأة العجوز. وسمع صوتها المبحوح من خلال الكوة:

— على الأخص، لا تكثري الكلام، أصري على هذه النقطة. هذا كل ما يلزم!

فهمت «ماسلوف» متعجبة، وهي تهزّ رأسها:

— ياه! هذه النقطة أو تلك، كله واحد! لن يقع لي أسوأ مما أنا فيه الآن!

قال الحارس العجوز هازئاً ومزهاوً بالنكتة التي خطرت له:

— لاشك أنه واحد لا اثنان! هيا، اتبعيني؛ امشي!

اختفى رأس المرأة العجوز من الكوة، وتقدّمت «ماسلوف» في

الممر، ماشية بخطوتها الخفيفة خلف الحارس العجوز. هبطا السلم الحجري بحذاء حجرات قسم الرجال الموبوءة والصاخبة، ومنها كانت العيون المستطلعة ترقب مسيرتهما من خلال كوى الأبواب. وأخيراً وصلا إلى مكتب السجن. وكان فيه جنديان. بندقية كل منهما على كتفه، ينتظران السجينة ليقتاذاها إلى قصر العدل. وكتب كاتب المحكمة شيئاً على ورقة مُشربة برائحة التبغ. ومد الوثيقة إلى الجندي الذي دسّها في قفا كمّ معطفه. وبعد أن غمز رفيقه بطرف عينه وبشيء من الخبث وهو يشير إلى «ماسلوف»، جاء فوقف إلى يمينها، بينما وقف الجندي الآخر إلى يسارها. وبهذا الترتيب خرجوا من المكتب، وعبروا فناء السجن الخارجي، واجتازوا الحاجز وبلغوا بلاط شوارع المدينة.

كان الحوذيون، وباعة الدكاكين، والطباخات، والعمال والمستخدمون يقفون عند مرور الموكب ليتأملوا السجينة بفضول. وفكّر كثيرون وهم يهزّون رؤوسهم: «إلى مثل هذا المقام يُوصل سوء السيرة! أما الحياة الكريمة كحياتنا فهي أجدى نفعاً! «ووقف الأولاد أيضاً. لكن فضولهم كان ممتزجاً بالرعب. فبعد لأي كانوا يطمئنون إلى الفكرة التالية وهي أن مع هذه المجرمة حراساً يحرسونها يمنعونها من إيذائهم. وتقدم فلاح يبيع الفحم في الشارع، ورسم علامة الصليب، وأراد أن يعطي السجينة كوبيكاً. فاحمرّت السجينة خجلاً، وخفضت رأسها، وهمست ببضع كلمات غير واضحة.

كانت «ماسلوفاً تبذل وسعها لتسير بأسرع ما تستطيع، بعد أن فقدت عادة المشي، وإذ أثقل قدميها حذاء السجن الضخم، فكانت تلاحظ كل من ينظر إليها في الطريق، دون أن تحرّك رأسها، وهي

سعيدة بأن ترى نفسها موضعاً لمثل هذا الإهتمام. كانت تتنشق بلطف الهواء الربيعي، لدى خروجها من الجو الموبوء الذي تركته، وعند مرورها أمام مخزن يبيع الطحين، وترتع قربه الحمائم، مسّت بقدمها حمامة زرقاء، فطارت الحمامة ولا مست أذن السجينة، فأحسّت على خدّها بريح جناحيها. تبسّمت، لكنها ما لبثت أن تنهدت حين ارتدّت فجأة إلى الشعور المؤلم بوضعها.

× × ×

كانت قصة السجينة «ماسلوف» من أشد القصص ابتذالا. لقد كانت ابنة سفاح لفلاح، وكانت تساعد أمها على العناية ببقرات مزرعة تملكها عانسان إقطاعيتان. كانت الفلاحة غير المتزوجة تضع طفلاً كل عام. وكما يقع غالباً في مثل هذه الحالة فإن الأطفال ما كانوا يولدون حتى يُعمّدوا ثم تُقلع أمهم عن إرضاعهم. كانوا يجيئون إلى هذا العالم دون أن تطلبهم؛ لم تكن بحاجة إليهم، وكانوا يضايقونها في عملها. ونتيجة لذلك فسرعان ما كان يموت هؤلاء الأطفال المساكين من الجوع. خمسة أطفال ماتوا على هذا النحو. أما الطفل السادس الذي حملت به من غجري عابر سبيل فقد كان بنتاً. لم تكن هذه الميزة لتمنع من أن يصيبها ما أصاب إخوتها الذين سبقوها لولا أن المصادفة قادت إحدى العانستين إلى الإسطل لتوبخ خادوماتها بصدد القشدة التي اشتمت فيها رائحة البقر. وفي الإسطل، كانت الأم ممددة على الأرض وبجانبها مولود جميل مليء بالحياة وبالعافية. وبّخت السيدة خادوماتها لأنهن أهملن القشدة أيضاً لأنهن آوين، في الإسطل، امرأة على وشك الوضع. لكنها عادت فطابت نفسها، لدى رؤية الطفل، بل لقد عرضت نفسها لتكون اشبينةً له.

عمّدت الطفلة إذن، ثم أخذتها الشفقة بها، فأعطت الأم شيئاً من الحليب وبعض النقود لكي تطعم الصغيرة، وهكذا ظلت الطفلة على قيد الحياة، ولذلك سمّتها السيدتان: «المُخلّصة».

كان عمر الطفلة ثلاث سنوات عندما مرضت أمها وماتت. وبما أن جدّتها الراحلة رأت فيها عبئاً عليها، فقد حملتها السيدتان إلى القصر. كانت بعينيهما السوداوين الكبيرتين طفلة بالغة الحيوية واللطفة، واستمتعت السيدتان برؤيتها بينهما. كانت صغرى الأختين وأكثرهما رأفة تُدعى «صوفيا ايفانوفنا»: اشبينة الطفلة أما الكبرى «ماريا ايفانوفنا» فكانت أميل إلى إظهار القسوة. كانت صوفيا ايفانوفنا تلبس الصغيرة، وتعلّمها القراءة، وتحلم بأن تجعل منها فتاة مثقفة. أما ماري ايفانوفنا فكانت تقول: إنه يجب أن تجعل منها خادمة، وصيفةً جميلةً، ولذلك كانت تبدو متشددة. كانت تُلقِي أوامرها عليها، وتضربها أحياناً، عندما يسوء مزاجها. وبفعل هذا التأثير المزدوج غدت الطفلة، حين كبرت، نصف وصيفة ونصف سيّدة حتى أن الاسم الذي أطلق عليها كان يتلاءم مع هذه الحالة الوسيطة. فلم تُدعَ «كاتكا» ولا «كاتيانكا»، بل كاتيوشا^(٥). كانت تخطط، وترتّب الغرف، وتنظف بالحوّار الصور المقدسة، وتقدم القهوة، وتُغنى بالغسيل الخفيف، ويُسمح لها أحياناً بمرافقة سيدتيها، والقراءة لهما.

طُلبت للزواج مرات، لكنها رفضت. كانت تشعر أن الحياة ستغدو

٥. كاتكا، كاتيانكا، كاتيوشا: كل من هذه الأسماء تصغير كاترين. في كاتكا شيء من التحقير، وفي كاتيانكا شيء من التعجب، أما كاتيوشا فهو أقل تحبباً.

صعبة عليها إذا اقترنت بعامل أو بخادم، بعد أن نعمت بحلاوة العيش مع سيدتيها.

عاشت على هذا النحو حتى السادسة عشرة. وعندما دخلت في السابعة عشرة، قَدِمَ إلى بيت السيدتين ابن أخيهما وكان قد قضى من قبل صيفاً كاملاً عند عَمَّتَيْهِ عشقته فيه الفتاة دون أن تعترف بذلك لأحد حتى ولا لنفسها. كان ذلك الشاب العظيم الثراء ضابطاً. وكان هدف زيارته الجديدة أن يستريح بضعة أيام، في طريقه، قبل أن يمضي مع فوجه إلى محاربة الأتراك^(٦). وفي اليوم الثالث، في عشية سفره، أغوى كاتيوشا. وسافر في اليوم التالي بعد أن دسّ في يدها ورقة بمائة روبل وبعد ثلاثة أشهر من سفر الشاب أيقنت أنها حامل.

منذ هذه اللحظة، بدا لها كل شيء عبئاً ثقيلاً عليها. وانصرفت إلى الوسائل التي تُتيح لها الإفلات من العار الذي ينتظرها، وصارت تخدم سيدتيها على مضض وبتهاون.

لم يطل الأمر بالسيدتين لتلاحظا ذلك. ووبختها ماريا ايفانوفنا مرة أو مرتين، لكن السيدتين رأتا نفسيهما مضطرتين في نهاية الأمر إلى «الانفصال عنها» -بحسب تعبيرهما الأنيق- وهذا يعني أنهما ألقتا بها خارج البيت. عند خروج كاتيوشا من بيتهما اشتغلت وصيفة لدى أحد مفوضي الشرطة، وكان رجلاً تجاوز الخمسين أخذ منذ الشهر الثاني يغازلها. وفي ذات يوم بدا أشدّ مراودة من عادته، فنعتته

٦. زيارة نيكليودوف هذه تقع إذن في نيسان عام ١٨٧٧. في الوقت الذي أعلنت فيه الحرب، وتقع أحداث الرواية بعد ثماني سنوات أي في عام ١٨٨٥.

بالفاظظة والحقارة ودفعته عن نفسها بقوة حتى سقط على الأرض. فطُردت بسبب وقاحتها. كان وقت الوضع يقترب فلم يكن بوسعها أن تبحث عن عمل آخر. ولجأت بالأجرة إلى منزل عمّة لها، أرملة تدير حانة، وتعمل قابلة بين الحين والحين. وتمّ الوضع دون كبير ألم. لكن القابلة التي جاءت من عند امرأة مريضة في القرية حملت إلى كاتيوشا حمّى النفاس. أما ابنها، وكان صبياً صغيراً مريضاً أيضاً، فقد أرسل إلى ملجأ لم يكديصل إليه حتى مات، حسب أقوال المرأة التي أخذته.

أما من حيث ثروة كاتيوشا فكان كل ما تملكه مائة وسبعة وعشرين روبلاً: سبعة وعشرين ربحتها من عملها، ومائة الروبل التي أعطاه إياها مُغويها. وعندما خرجت من بيت القابلة، بقي معها ست روبلات. كانت عاجزة عن الاحتفاظ بالمال: كانت مبدّرة على نفسها، وفضلاً عن ذلك فقد كانت تعطي كل من يطلب منها المال. فالقابلة أخذت منها أربعين روبلاً أجرة السكن عن شهرين؛ وذهب خمسة وعشرون روبلاً لتفسير الصبي إلى الملجأ. وابتزت منها القابلة أيضاً أربعين روبلاً كقرض لتشتري بها بقرة؛ أما العشرون روبلاً الباقية فقد أنفقتها كاتيوشا دون أن تعرف كيف، في شراء أشياء لا فائدة منها، وفي شراء الهدايا. وهكذا فعندما شفيّت ألفت نفسها صفر اليدين من المال، ومضطرة إلى البحث عن عمل. ووجدت ذلك العمل لدى أحد حراس الأحرار. كان متزوجاً، لكنه فعل منذ أول يوم ما فعله مفرّض الشرطة، أخذ يغازل خادمتة. وحاولت هذه. منذ البداية، أن تتخلص من ملاحظاته، لأنها كانت حريصة على الاحتفاظ بعملها. لكنه كان أكثر تجربة ومكراً منها، وكان، على الخصوص، السيد الذي يستطيع

أن يأمرها بما يشاء. وبعد أن ارتقب اللحظة المناسبة، ارتمى عليها وامتلكها. ولم تلبث زوجته أن علمت بالأمر. وذات يوم، فاجأت زوجها وحده في الغرفة مع كاتيوشا، فضربت الخادمة على وجهها حتى آدمته، وصرفتها دون أن تدفع لها أجرها.

عند ذاك اتجهت كاتيوشا إلى المدينة، إلى منزل عمه لها كان زوجها مجلداً. كان وضع هذا الزوج حسناً فيما مضى، لكنه حين فقد زبونات، غدا سكيراً ينفق في الحانة كل ما يقع بين يديه من مال. أما الزوجة فكانت تملك مغسلاً تتيح لها أرباحه الهزيلة تغذية أولادها والإنفاق على زوجها السكير. وعرضت على كاتيوشا أن تعلمها مهنتها. لكن الفتاة ترددت، حين رأت الحياة الشاقة التي تعيشها العاملات الغاسلات عند عمتها. وآثرت أن تتقدم بطلب إلى أحد مكاتب الاستخدام لتلمس فيه العمل كخادمة. في هذه المرة، ذهبت إلى منزل أرملة تعيش مع ولديها الشابين. لكن بعد نحو أسبوع من دخولها هذا البيت، أخذ الابن الأكبر، وهو طالب في السنة السادسة، طرّ شارباه، يهمل دروسه ليغازل الخادمة الجميلة. فألقت الأم الغلطة كلها على كاتيوشا وطردها.

لم تجد كاتيوشا عملاً جديداً. وذات يوم صادفت في مكتب الاستخدام الذي رجعت إليه سيدة يداها العاريتان محمّلتان بالخواتم والأساور. وما أن علمت السيدة بوضعها حتى أعطتها عنوانها ودعتها إلى المجيء إليها. وذهبت «ماسلوفاً» إليها. فاستقبلتها تلك السيدة أحسن استقبال، وقدمت لها الكثير من الحلوى والنيذ الحلو، وأرسلت خادمتها إلى المدينة ومعها رسالة.

وفي المساء رأت كاتيوشا رجلاً طويل القامة. ذا شعر طويل أشيب، ولحية دبّ فيها الشيب، يدخل الغرفة ويجلس بجانبها ثم أخذ يتفحصها ويمارحها وعيناه تلتمعان. وعلى شفثيه ابتسامة. فأخذته السيدة وانتحت به برهة في الغرفة المجاورة. واستطاعت كاتيوشا أن تسمع هذه الكلمات: «إنها ماتزال غضة، وهي تأتي مباشرة من الريف». ثم دعته السيدة وقالت لها: إن هذا السيد الكهل كاتب وأنه يملك الكثير من المال، وأنه سيعطيها كل ما تطلب لو استطاعت أن تنال إعجابه. والواقع أنها أعجبه، وأن الكاتب قد نقدها خمسة وعشرين روبلاً، ووعدوا بأن يراها كثيراً. وسرعان ما أنفقت كاتيوشا ذلك المال. فقد أرسلت جزءاً لعمتها الغسّالة هو أجرة إقامتها عندها؛ أما الباقي فقد اشترت به فستاناً وقبعةً وأشرطة، وبعد بضعة أيام، أعطاهما الكاتب أيضاً خمسة وعشرين روبلاً، ودعاها إلى أن تقيم معه في غرفة مفروشة.

وفي الغرفة المؤثثة التي استأجرها الكاتب لها، تعرفت «ماسلوفاً» بموظف في متجر، وهو فتى مرح يسكن في الفناء نفسه. فأولعت به واعترفت بذلك للكاتب الذي تخلى عنها من فوره. أما الموظف الذي وعدوا بالزواج فقد سافر فجأة إلى «نيجنى»، دون أن يقول لها شيئاً، وفي نيته أن يهجرها. وكان بודהا لو تعيش وحدها في هذه الغرفة المؤثثة. لكن ذلك لم يُسمَح لها: ذلك أن مفوض الشرطة صرّح بأنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا طلبت البطاقة الصفراء، وخضعت للكشف الطبي.

حينئذ عادت كاتيوشا إلى منزل عمتها. وعندما رأتها هذه ترتدي فستاناً حديثاً، وقبعةً جميلة، ومعطفاً من فرو. استقبلتها باحترام، ولم

تجروء أن تعرض عليها الاشتغال في مغسلها. ومنذ ذلك الوقت رأت أنها ارتقت إلى طبقة عليا من طبقات المجتمع. وكذلك فإن «ماسلوف» نفسها، لم يكن ليخطر لها أن تشتغل في مشغل للغسيل. غاية ما كانت ترضى به أن تقيم موقتاً في غرفة عمتها. كانت تنظر بشفقة مشوبة بالاحتقار إلى حياة الأشغال الشاقة التي تحياها، في المشغل، الغاسلات، وهن ينهكن أنفسهن بفرك الغسيل وكيه، في درجة من الحرارة تبلغ الثلاثين، والنافذة مفتوحة شتاء وصيفاً. في هذه الفترة التي وصلت فيها كاتيوشا إلى أقصى الفاقة. وأعيائها أن تجد حامياً واحداً لها، التقت قوادة تصطاد الفتيات لبيوت الدعارة.

كانت «ماسلوف» قد تعودت التدخين منذ زمن طويل. وفوق ذلك فإنها أخذت تدمن الشرب شيئاً فشيئاً، في الفترة الأخيرة من علاقاتها مع الموظف التاجر. كانت الخمر تجذبها لأنها لذيدة الطعم فحسب، بل لأنها تلهيها عن واقعها، وبدون خمر كانت تحس بالغم، وبالعار في الغالب، وكذلك حرصت تلك القوادة على دعوتها إلى مأدبة هي وعمتها؛ ثم عرضت عليها، بعد أن أثملتها، أن تدخلها إلى بيت فخم، أفضل بيت في المدينة، وزينت لها ضروب الرفاهية وفنون المزايا في تلك الحياة التي ستحياها فيه. كان على ماسلوف أن تختار بين أمرين؛ إما أن تختار عمل الخادمة المذل، فتعاني لجاجة الرجال وتنخرط في بغاء سري وموقت؛ وإما أن تختار وضعاً مضموناً وهادئاً، هو البغاء العلني الذي يحميه القانون ويكافأ عليه بسخاء. فاختارت الأمر الثاني بطبيعة الحال. وبدا لها أنها تنتقم بذلك من الأمير مغويها، ومن الموظف التاجر، ومن جميع الرجال الذين أساءوا إليها. لكن ما أغراها على وجه الخصوص بهذا الاختيار، وهذا هو السبب الأساسي.

لقرارها، كان الفكرة التالية وهي أنها تستطيع أن تأمر لنفسها بجميع الفساتين التي تحبها، كما أكدت لها تلك المرأة القوادة. الفساتين المخملية والحريرية المحببة. والحريرية الخالصة وفساتين الرقص التي تكشف عن الكتفين والذراعين. وعندما تخيلت ماسلوفاً نفسها وهي ترتدي فستاناً من الحرير الأصفر الباهت المَقُور، والمزخرف بالمخمل الأسود، لم تستطع أن تصمد، ووقعت العقد. وسرعان ما أمرت القوادة بعربة وأخذتها إلى بيت «كيتايفا» الشهير.

منذ هذا اليوم بدأت، بالنسبة إلى ماسلوف، تلك الحياة، حياة الحرق المستمر للقوانين الإلهية والبشرية، وهي حياة تحياها مئات آلاف النساء اليوم، لا بإذن السلطة الشرعية الحريصة على راحة الرعية فحسب، بل بحمايتها الفعلية أيضاً. إنها حياة مخزية، فظيعة، تُفضي بتسعة أعشار هؤلاء النسوة إلى التقهّل والعجز، وإلى الموت المبكر، بعد آلام مبرحة.

في الصباح وأثناء القسم الأكبر من النهار، هناك النوم الثقيل بعد متاعب الليل. وبين الساعة الثالثة والرابعة استيقاظ مُتَعَبٍ، في أغطية السرير المندّسة، وجرعات من المياه المعدنية ومن القهوة، وتمش في الغرفة بالقميص أو بالملئزر أو بثوب النوم، ونظرات إلى الشارع من النافذة ذات الستائر المغلقة، ومشاجرات رخوة بين النساء؛ ثم الاغتسال والتزين وخنق الجسد في مشدّ مسرف الضيق واختيار الفستان، والخصام مع صاحبة البيت بهذا الصدد، ودراسة الأوضاع أمام المرأة، وطلاء الخدين بالمساحيق، وتكحيل الرموش بالكحل؛ والموسيقى والرقصات والحلوى والخمر والتبغ، ومعاشرة الفتيان، والرجال الناضجين، والمراهقين، والشيوخ العاجزين، والمتزوجين؛ والعزّاب، والتجار والسماصرة، والأرمن واليهود والتتار، والأغنياء

والفقراء، والأصحاء والمرضى، والمخمورين والصالحين، والمتوحشين وأبناء الطبقة الراقية، والعسكريين والموظفين والطلاب، ورجال من جميع الفئات والأعمار والطباع. وصرخات وسخریات وضحكات وموسيقا، وتبغ وخمر، وخمر وتبغ وموسيقا، من المساء حتى الفجر. في الصباح وحده، الحرية والنوم الثقيل. وهكذا في كل الأيام، من أول الأسبوع إلى آخره. ثم في آخر الأسبوع، الكشف الطبي، في مكتب الشرطة حيث يجهد رجال آخرون، هم موظفون في الدولة بشباب الأطباء، وقورون وقساءة حيناً، ومستهزئون حيناً آخر، يجهدون في إذلال ذلك الإحساس بالحياء الذي وهبته الطبيعة كوقاية، لا للجنس البشري وحده، بل للحيوانات أيضاً. كان هؤلاء الموظفون يستعرضون النساء، ثم يعطونهنّ بعد ذلك شهادة تسمح لهنّ بمتابعة الحياة نفسها أثناء الأسبوع الآتي. أو هكذا إلى ما لا نهاية، شتاءً وصيفاً، في أيام الأعياد الكبرى. وفي أيام العمل على السواء.

عاشت «ماسلوف» هذه الحياة طوال سبع سنوات، وغيّرت البيت مرتين، واضطرت مرة إلى الإقامة في المستشفى. وفي غضون السنة السابعة - وكان عمرها حينئذ ستة وعشرين عاماً - وقع الحادث الذي استوجب أن تُقاد الآن إلى محكمة الجنايات، بعد سجن وقائي دام عدة أشهر، بصحبة كائنات مهنتها السرقة والقتل.

× × ×

حين دنت ماسلوفاً مع مرافقيها من قصر العدل، في نهاية المسيرة الطويلة، كان الأمير «دميتري إيفانوفتش نيكليودوف»، وهو نفسه الذي أغواها من قبل، يستيقظ في سريره الكبير ذي النوابط، والمغطى بلحاف ناعم من الريش. كان يرتدي قميص الليل، وهو قميص من قماش هولندي مغصّن بأناقة على الصدر، ويتكى على مرفقه بفتور، ويفكر، وهو يشعل سيجارة، بما فعله البارحة وبما سيفعله هذا اليوم. وعادت إليه ذكرى سهرة البارحة التي قضّاها في منزل آل كوراغين. كانا زوجين ثريين جداً، محترمين جداً، أشاع الناس جميعاً بأنه سيتزوج ابنتهما. دفعته الذكرى إلى التنهد. وبعد ذلك رمى لفافته، ومدّ يده نحو علبة فضية لتناول لفافة أخرى، لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك، ورفع بشجاعة جسده المتثاقل، وأخرج من السرير قدميه البيضاءوين اللتين تناثر عليهما الشعر، واحتدى بهما خفيه. ثم غطى كتفيه العريضتين بمبذل حريري ومضى بخطاً ثقيلة وسريعة إلى حجرة الاغتسال المجاورة. وهنا شرع ينظف أسنانه المرصّصة في عدة مواضع، بعناية وبمسحوق خاص؛ ثم شطفها بسائل طبي معطر؛ ثم دنا من مغسلة المرمر وغسل يديه بصابونة معطرة، مجتهداً على

الخصوص في تنظيف أظافره وفركها. وعندما انتهى من ذلك، فتح ماء المغسلة بقوة، وغسل وجهه وأذنيه وعنقه. وحينئذ انتقل إلى حجرة ثالثة أقيم فيها طقم الرشاشات: فأنعش دفق الماء البارد جسده القوي العضلات والممتلئ شحماً. وبعد أن جفف جسمه بمناشف اسفنجية، بدّل قميصه، واحتذى حذاءً لماعاً كالمرآة، وجلس أمام المرأة، وأخذ يمتشط بمجموعتين من الفراشي، مشط أول الأمر لحيته السوداء، ثم مشط شعره الذي غدا نادراً في أعلى رأسه. كانت كل الأدوات التي استخدمها لزيتته: الثياب الداخلية والخارجية، الحذاء ربطة العنق، الدبايس، أزرار الأكمام، كل ذلك كان من الصنف الأول، كان شديد البساطة، جذاباً للنظر، بالغ المتانة وباهظ الثمن.

انتهى نيكليودوف من ارتداء ملابسه، دون عجلة؛ ثم قصد إلى قاعة الطعام، وهي غرفة طويلة اشتغل ثلاثة رجال أشداء، في تلميع أرضيتها الخشبية، عشية البارحة. وفي هذه القاعة صوان ضخم للسفرة من السنديان، ومائدة لا تقل ضخامة عنه، وهي طاولة من السنديان أضيفت إليها وصلة: وعليها مسحة رسمية، بقوائمها الأربع المحفورة والمتباعدة، محاكية شكل قوائم الأسد. وعلى هذه الطاولة المغطاة بغطاء ناعم ومنشئ، ومزّين بعقد ضخمة في زواياه، وُضعت غلاية فضية مليئة بالقهوة الأرجة، وسكرية فضية، ووعاء للقمشة وسلّة تحتوي على أرغفة صغيرة طازجة، وعلى الخبز المحمص والبسكويت. وأخيراً وضع بقرب الشوكة والسكين، بريد الصباح: الرسائل والصحف وكراس من «مجلة العالمين».

كان نيكليودوف يستعد ليفضّ بريده، عندما دخلت قاعة الطعام

من الباب الذي يطلّ على البهو، امرأة بدينة، متوسطة العمر وهي، في ثياب الحداد، وعلى رأسها قبعة من الدنتيلا. كانت هذه هي «أغرافينا بيتوفنا» وصيفة الأميرة العجوز، أم نيكليودوف التي ماتت قبل زمن في هذا البيت. وقد بقيت الوصيفة قرب الابن بصفتها مدبرة لشؤون البيت.

أقامت أغرافينا بيتروفنا في الخارج، عدة مرات، إقامات طويلة مع أم نيكليودوف: كان لها مظهر السيدة وطرائقها. وقد سكنت في منزل آل نيكليودوف منذ الطفولة وعرفت دميتري إيفانوفتش، عندما لم يكن سوى الطفل «اماتينكا»:

— طاب يومك، يا دميتري إيفانوفتش!

— طاب يومك، يا أغرافينا بيتروفنا!

ثم استفهم نيكليودوف بلهجة المزاح:

— ما الجديد؟

قالت أغرافينا بيتروفنا وهي تمد رسالة وتبتسم ابتسامة ذات مغزى:

— هذه رسالة لك، حملتها وصيفة كور تشاغين منذ زمن طويل، وهي ماتزال تنتظر عندي.

أجابها نيكليودوف وهو يتناول الرسالة:

— حسناً، سآتي في الحال.

لكنه رأى ابتسامة أغرافينا بيتروفنا فاردّ وجهه.

كانت ابتسامة أغرافينا بيترفنا تعني أنها تعلم أن الرسالة تأتي من
الأميرة الشابة كورتشاغين، وكانت تظن أن سيدها سيتزوج بها. لكن
هذا الافتراض لم يكن يروق لنيكليودوف.

— قولي للوصيفة أن تنتظر!

غادرت أغرافينا بيترفنا الغرفة بمهابة، ولم تنس، قبل خروجها أن
تعيد فرشاة منسيّة على الطاولة إلى موضعها.

فض نيكليودوف المغلف المعطر وفتح الرسالة المكتوبة على ورق
سميك رمادي بخط دقيق وغير منتظم:

«قياماً مني بالمهمة التي أخذتها على عاتقي وهي أن أكون مذكرةً
لك، فإني أذكرك بأنه ينبغي لك في هذا اليوم، ٢٨ نيسان، أن تكون
بين محلفي محكمة الجنايات. وبالتالي، فسيكون من المستحيل عليك
أن تذهب معنا ومع كولوسوف لرؤية معرض اللوحات كما وعدتنا
أمس بخفتك المعتادة. إلا إذا شئت أن تدفع لمحاكمة الجنايات غرامة
ثلاثمائة الروبل التي تأبأها على جوادك. تذكرت ذلك أمس، بعد
ذهابك، فلا تنس!»

بر. م. كروتشاغين

وعلى الصفحة الأخرى كتب:

”تقول لك أُمي إننا ننتظرك على العشاء، فتعال بدون إبطاء في أية
ساعة شئت“.

م. ك

قطب نيكليودوف بين حاجبيه. لقد كانت هذه البطاقة تمة
للحملة التي شرعت بها قبل شهرين من حوله. الأميرة كورتشاغين،
لثحكم لفة بالحبائل التي يغدو من الصعب فكها. ومن جهة أخرى،
فضلاً عن ذلك التردد الذي يشعر به، أمام الزواج، الرجال الذين بلغوا
سنّ النضج وتعودوا العزوبة، وامتنعوا، فوق ذلك، على الغرام، كان
هناك أيضاً دافع آخر يمنعه من إعلان رغبته في الزواج، حتى لو صمّم
على ذلك الزواج. هذا الدافع لم يكن له علاقة بكون نيكليودوف
قد أغوى كاتيوشا قبل ثماني سنوات ثم هجرها: وهو أمر لم يكن
يحبّ التفكير فيه. وعلى كل حال فلم يكن يخطر بباله أن ذلك يحول
دون زواجه بالأميرة الشابة. لقد جاء امتعاضه من أن له علاقات سرية
مع امرأة متزوجة؛ والحقيقة أنه قرر، ومنذ أمد قريب، أن يفصم هذه
العلاقة، لكن عشيقته أبت أن تعترف بذلك الفصم.

كان نيكليودوف خجلاً جداً مع النساء؛ ولقد أوحى ذلك الخجل
إلى "ماريا فاسيليفنا"، وهي زوجة أحد مارشالات النبلاء، بالرغبة في
إخضاعه. فجرّته، بالفعل، إلى علاقة كانت تغدو من يوم إلى يوم أكثر
استغراقاً له، وأشدّ ثقلاً على نفسه. في البدء، لم يستطع نيكليودوف
أن يقاوم الإغراء، ولم يستطع، فيما بعد، عندما أحس بأنه آثم تجاه
عشييقته، أن يعزم على قطع علاقاته بها دون أن ينال موافقتها المسبقة.
أما هي فبدلاً من أن توافق قالت له: إنه لو هجرها الآن وقد ضحّت له
بكل شيء، فلسوف تقتل نفسها.

كان في بريد نيكليودوف، هذا الصباح، رسالة من زوج عشيقته؛
عرف الأمير ذلك من الخط والخاتم. فاحمرّ خجلاً وأحس بانتفاضة

القوة التي يحسّها دائماً عند دنوّ الخطر، لكن انفعاله هداً عندما فتح الرسالة. ذلك أن زوج "ماريا فاسيلييفنا" مارشال النبلاء في المقاطعة التي فيها أعظم أملاك أسرة نيكليودوف، كتب إلى الأمير ليلّغه أن جلسة استثنائية للمجلس الذي يرأسه ستُفتح في نهاية أيار؛ وهو يرجوه، أن يحضر بكل تأكيد، ويشارك فيها لكي يسانده، لأن النقاش سيتناول مسألتين خطيرتين، قضية المدارس ومسألة الطرق بين القرى. وهو يتوقع معارضةً شديدة من الحزب الرجعي في هاتين المسألتين.

كان هذا المارشال، بالفعل، متحرراً؛ وكان يناضل مع بعض المتحررين من شاكلته، ضد الرجعية التي أخذت تنزع إلى تدعيم ذاتها في عهد الاسكندر الثالث. وكان هذا النضال يستأثر به بحيث لم يبق لديه وقت ليرى أن امرأته تخدعه.

تذكّر نيكليودوف قلقه القديم؛ تذكّر كيف تخيّل ذات يوم، أن الزوج اكتشف كل شيء، فهياً نفسه للمبارزة، ونوى أن يطلق النار في الهواء. واستعاد في فكره مشاحته مع عشيقته، عندما انتابها اليأس ووثبت إلى الحديقة وجرت إلى المستنقع لتغرق نفسها فيه. وفكّر في نفسه: "لا أستطيع أن أذهب إلى تلك الجلسة في هذا الوقت، ولا أن أباشر شيئاً قبل أن يأتيني جوابها". وكان قد كتب إلى عشيقته رسالة حاسمة يعترف فيها بأنه مذنب، ويصرح بأنه مستعد للتكفير عن ذنبه، لكنه أنهى الرسالة قائلاً: إن علاقتهما يجب أن تنتهي إلى الأبد، وذلك لخيرها هي. وعلى هذه الرسالة كان ينتظر الرد الذي لم يأت. بدا له عدم الرد فألاً حسناً. فلو أن عشيقته لم ترضَ بالقطيعة لكتبت إليه منذ زمن بعيد، أو لجأت هي نفسها، كما فعلت ذلك من قبل.

ولقد سمع أن أحد الضباط يغازل ماريا فاسيلييفا؛ فألمته الغيرة من هذا المنافس، لكن ذلك أفرحه، في الوقت نفسه، إذ منحه الأمل بإمكان الانعتاق من هذا الكذب الذي ثَقُلَ عليه.

رسالة أخرى وجدها نيكليودوف في بريده آتية من الوكيل الرئيسي لأملاك أمه التي آلت إليه تركتها منذ بعض الوقت. كتب إليه هذا الوكيل يخبره بأنه يجب أن يتوجه إلى أملاكه ليحصل على إثبات حقوقه في الإرث، وينظّم إدارة الأملاك المذكورة: فإما أن يفعل ما فعلته المرحومة الأميرة في حياتها، وإما أن يفسخ العقود ويستردّ من الفلاحين جميع الأراضي التي استأجروها، وهو ما نصّح به الوكيل أمه من قبل. وكان الوكيل يؤكد في رسالته أن الاستثمار المباشر لهذه الأراضي أكثر نفعاً بما لا يُحصى، ويعتذر عن التأخر بإرسال الرّيع ومقداره ثلاثة آلاف روبل هي حصة الأمير: وسيُرسل إليه هذا المبلغ في البريد المقبل. ومرّد هذا التأخر أن الوكيل يجد أعظم المشقات في تحصيل المال من الفلاحين الذين بلغت بهم قلة الوجدان حدّاً اضطرّوه إلى استخدام القوة ليدفعوا ما عليهم.

سرّت هذه الرسالة نيكليودوف وساءته في الوقت نفسه، لقد سرّ إذ أحسّ بنفسه مالكاً لثروة أعظم من الثروة التي امتلكها حتّى الآن، ولكنّه تذكّر، من جهة أخرى، حين تحمّس في مطلع شبابه، بما في الشباب من كرم وعزم، لنظريات سينسر وهنري جورج الاجتماعية، إنه لم يفكّر فقط في أن الأرض لا يمكن أن تكون غرضاً للملكية الفردية، ولم يعلن ويكتب عن ذلك فقط، بل إنه أعطى الفلاحين ملكية صغيرة ورثها عن أبيه، وذلك لكي يطابق بين أفعاله ومبادئه.

والآن بعد أن جعل منه موت أمه ملاكاً كبيراً، ألقى نفسه بين خيارين: إما أن يتنازل عن جميع أملاكه كما فعل قبل عشر سنوات عندما تنازل عن مائتي هكتار ورثها عن أبيه؛ وإما أن يضع يده على أراضيه فيعترف بذلك على نحو ضمني وصريح بأن المبادئ التي دافع عنها قديماً خاطئة وكاذبة.

كان الاختيار الأول مستحيلاً، بالنسبة إليه، من الناحية الفعلية، لأن أملاكه هي كل ثروته. والعودة إلى الخدمة أمر لم يكن ليقدّم عليه؛ فقد أَلَفَ حياة الفراغ والترف كثيراً حتى غدا عاجزاً عن التفكير في الإقلاع عنها. ثم إن التضحية لا جدوى منها. ذلك أن نيكليودوف لم يعد يجد في نفسه لا قوة القناعة ولا العزم اللذين صاحباه في شبابه.

لكن الاختيار الثاني وقوائمه أن يتنكّر صراحةً للمبادئ النزيهة والكريمة التي طالما افتخر بها بدا له مستحيلاً أيضاً.

ولذلك كانت رسالة الوكيل مبعثاً لاغتمامه.

× × ×

عندما انتهى نيكليودوف من فطوره، انتقل إلى مكتبه، كان يريد أن يقرأ، في الدعوة الموجهة إليه، ساعة الجلسة في قصر العدل، وكان عليه أيضاً أن يرد على الأميرة كورتشاخين، وعبرَ مشاغله الذي عُلقت فيه على الحامل لوحة شرع برسمها، والذي تدلّت على جدرانهِ دراسات شتّى. إن هذه اللوحة الذي مازال يشتغل فيها منذ سنتين دون أن يتمكن من إنجازها، ودراساته، وتخطيطاته وبكلمة واحدة إن حالة مشغله ابتعثت فيه الإحساس المتزايد بعجزه عن التقدم في فن التصوير، والشعور بنقصان موهبته. وكان، في الحقيقة، يعزو ذلك الإحساس إلى الإرهاق المفرط لذوقه الفني؛ لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في أنه قد ترك الجيش، قبل خمس سنوات، لاعتقاده أنه اكتشف في ذاته موهبة الفنان. ولذلك كان أقرب إلى الاكتئاب عندما دخل مكتبه الواسع المغطى بالمذهبات والممتلئ بوسائل الراحة الفاخرة. واقترب من مكتب كبير مليء بالأدراج المُعنونة، ففتح درجاً كُتب عليه «عاجل»، ووجد فيه البلاغ الذي يبحث عنه. كان هذا البلاغ يُنبئ أنه عليه الحضور إلى قصر العدل في الساعة الحادية عشرة. ثم أغلق نيكليودوف الدرج، وجلس، وبدأ رسالة ليشكر الأميرة على

دعوتها، وليقول لها إنه يأمل أن يستطيع المجيء للغداء بعد الظهر. لكنه مزق الرسالة بعد أن كتبها، كانت لهجة الرسالة أكثر ألفة مما ينبغي، ومزق الرسالة الثانية أيضاً: كانت مسرفة البرودة، بل كانت خالية من التهذيب، ودقّ الجرس، فدخل الغرفة خادم كبير السن، وقور الهيئة. حليق الوجه، يلبس وزرة من القطن الرمادي.

— اثنتي بعربة!

— وقل للمرأة التي تنتظر إنني أشكر الأميرة وأني سأحاول المجيء. وفكر نيكليودوف: «هذا غير لائق، لكنني لم أوفق في الكتابة! على كل حال، سوف أراها اليوم».

ارتدى ثيابه وخرج إلى سطح الدّرج، فكانت العربة التي تُقلّه عادةً والتي غُلّقت عجلاتها بالمطاط، تنتظره.

قال له الحوذي الذي استدار نحوه نصف استدارة:

— ما كدت تخرج، مساء البارحة، من عند الأمير كورتشاغين حتى وصلت. قال لي الخادم: «قد خرج قبل هنيهة»:

فكر نيكليودوف: «حتى الحوذيون أنفسهم يعرفون علاقتي بآل كورتشاغين». ومثلت أمامه، مرة أخرى، تلك المسألة: وهي أن يعلم إن كان ينبغي أن يتزوج الأميرة الشابة أم لا، ولم يتوصّل إلى البتّ في هذه المسألة، لا بهذا الاتجاه ولا بذاك.

كانت تؤيد الزواج حجتان. أولاً إن الزواج، فضلاً عما يوفّره من

راحة في المنزل، يُبعد عنه شذوذ حياته الجنسية، ويؤمن إمكان حياة كريمة وأخلاقية؛ ثانياً وعلى وجه الخصوص، كان نيكليودوف يأمل أن تهب العائلة والأولاد حياته هدفاً، بعد أن غدت الآن بلا هدف. أما ضد الزواج فقد كان هناك، من جهة، ذلك النوع من الخوف الذي يوحى به إلى العزّاب المسنين احتمال فقدانهم حريتهم؛ وهناك أيضاً من جهة أخرى، ذلك الخوف اللاواعي من الخفايا التي تحتوي عليها طبيعة المرأة.

الحجة الأولى المؤيدة للزواج بميسي («ميسي» هو اللقب الذي كانت تُلقب به الأميرة الشابة كورتشاغين في حياتها الخاصة، والتي كان اسمها الحقيقي ماري) هو أن الفتاة تنتمي إلى عائلة كريمة وأنها، في كل الأشياء، بدءاً من زينتها حتى طريقتها في الكلام والمشي والضحك، تختلف عن عموم النساء، لا بشيء استثنائي بل «بتميزها». لم يكن نيكليودوف يجد كلمة أخرى غير «تميز» لندل على تلك الصفة التي كان يُكرها إلى أقصى حد. والحجة الثانية هي أنها كانت تقدّره أكثر من غيرها، وتفهمه أكثر من غيرها؛ ولكونها كانت تفهمه، أي تقرّ بمزاياه الرفيعة، فقد وجد في ذلك الدليل القاطع على ذكائها وصحة حكمها، لكن كان هناك حجج خطيرة ضد الزواج بميسي: الحجة الأولى هي أن باستطاعة نيكليودوف، على الأغلب، أن يعثر على فتاة أكثر «تميزاً» منها؛ والثانية أن ميسي صارت في السابعة والعشرين ومن المحتمل أنها أحبت رجالاً آخرين. وهذه الفكرة كانت تعذب نيكليودوف، فلم يكن غروره ليرضى أن تكون هذه الفتاة قد أحبت، حتى في الماضي، أحداً غيره. ولا ريب أنه لا يستطيع أن يطلب من الفتاة أن تعرف مسبقاً أنها ستلتقيه ذات يوم؛

لكن مجرد التفكير بأنها أحبّت غيره كان إذلالاً له. وهكذا فإن الحجج التي تؤيد الزواج وتنقضه كانت متساوية. وكان نيكليودوف يشبه نفسه، في شيء من الدعابة، بحمار «بوريدان». لكنه ظل مع ذلك شبيهاً بحمار «بوريدان» فلا يدري نحو أي من حزمتي القش يتجه.

وفكر في نفسه: «ثم إنني مادمت لم أتلق رداً من «ماريا فاسيلييفنا» ولم تنته تلك القضية، فمن المستحيل علي أن ألتزم شيئاً».

سرّه هذا الإحساس بضرورة تأجيل قراره. وقال في نفسه أيضاً، بينما كانت عربته تجري دون ضوضاء على إسفلت فناء قصر العدل: «سأفكر في ذلك فيما بعد». وقال وهو يمر قرب حارس قصر العدل: «القضية الأساسية الآن بالنسبة إلي هي أن أوّدي واجبي الاجتماعي بالعبارة التي أعالجُ بها كل شيء. ثم إن هذه الجلسات شائقة جداً في الغالب».

× × ×

عندما دخل نيكليودوف قصر العدل، كانت الممرات تعجّ بالحركة. كان الحراس يركضون وهم يحملون الأوراق، وكان آخرون يمشون بخطى رصينة وهادئة، وأيديهم خلف ظهورهم. وكان الحُجاب والمحامون ووكلاء الدعاوى يتمشّون ذهاباً وإياباً؛ أما أصحاب الطلبات والمتهمون الطلقاء فقد انزروا بتواضع قرب الجدران، أو ظلّوا جالسين في مقاعدهم ينتظرون.

سأل نيكليودوف أحد الحراس:

- أين محكمة المقاطعة؟

- أية محكمة؟ الجنائية أم المدنية؟

- أنا محلّف.

- إذن، محكمة الجنايات! كان يجب أن تقول ذلك فوراً. اذهب إلى اليمين ثم إلى اليسار، الباب الثاني.

سار نيكليودوف في الممرات.

أمام الباب الذي أشار إليه الحارس وقف رجلان وهما يتحدثان. كان أحدهما تاجراً ضخماً الجسم، ولا شك أنه أكل وشرب بوفرة؛ استعداداً للقيام بمهمته، فبدا في أبهج حالاته الذهنية؛ وكان الآخر وكيلاً تجارياً من أصل يهودي. كانا يتحدثان عن سعر الأصواف عندما اقترب منهما نيكليودوف وسألهما إن كان هذا هو المكان الذي يجتمع فيه المحلفون.

— نعم، يا سيدي، هو بعينه.

وأضاف التاجر الباش وهو يتسم ويغمر بعينه.

— لاشك أنك محلف أيضاً، أحد زملائنا؟

وبعد أن ردّ نيكليودوف بالإيجاب تابع قائلاً:

— حسناً! سنعمل معاً!

وأضاف وهو يمدّ يده العريضة للأمير:

— باكلاشوف. من الجمعية التجارية^(٧) الثانية. ومع مَنْ لي شرفُ

الحديث؟

سمّي نيكليودوف نفسه ودخل قاعة المحلفين.

همس اليهودي:

٧. كان أغنى التجار في المدينة يشكلون الجمعية الأولى والجمعية الثانية.

— هذا الذي كان أبوه ملحقاً بالإمبراطور.

واستخبر التاجر:

— ولديه ثروة؟

— إنه واسع الثراء.

في غرفة المحلفين الصغيرة، اجتمع حوالي اثني عشر شخصاً من جميع الفئات، كلهم وصلوا قبل قليل، كان بعضهم جالساً وبعضهم يتمشى ذهاباً وإياباً. وقد أخذ يفحص بعضهم بعضاً ويتعارفون؛ كان بينهم عقيد متقاعد، في بزمته؛ وكان بعض المحلفين الآخرين يلبسون السترة الرسمية أو السترة القصيرة؛ محلف واحد فقط كان في ثيابه العادية. كثير منهم تركوا أعمالهم ليؤدوا مهمات المحلفين. ولم يكفوا عن الشكوى من ذلك، وبالرغم من ذلك فقد ارتسم على وجوههم الرضا الممتزج بالإفتخار، والشعور بأنهم يؤدون واجباً اجتماعياً.

بعد أن انتهى هذا الفحص الأول، تجمّع المحلفون دون أن يعمّقوا علاقاتهم. ودار الحديث عن الطقس، وعن قدوم الربيع المبكر، وعن الدعاوى المسجلة في الجدول. وبادر عدد كبير من المحلفين إلى التعرّف بالأمير نيكليودوف؛ ولا شك أنهم رأوا في ذلك التعرّف شرفاً عظيماً لهم. ووجد نيكليودوف ذلك طبيعياً ومشروعاً، كدأبه دائماً. ولو أنه سُئل لماذا يعتبر نفسه أسمى من معظم الناس لعجز عن الإجابة، لأن حياته، ولاسيما في الآونة الأخيرة، لم يكن فيها ما يستحقّ التقدير. كان، في الحقيقة، يتكلم الفرنسية والإنكليزية والألمانية بطلاقة؛

وكانت ملابسه الداخلية والخارجية وربطات عنقه وأزرار أكمامه تأتيه دائماً من أشهر المخازن، وكانت أغلى مما هو موجود؛ لكنه هو نفسه ما كان يزعم أن ذلك كله صفة كافية لتجعل منه كائناً أسمى، على أنه كان يشعر شعوراً عميقاً بسموه، ويعتبر مظاهر التكريم التي يخصصه الناس بها كأنها واجبة الأداء. وكان غياب ذلك التكريم يجرحه وكأنه إهانة.

مثل هذه الإهانة كانت تنتظره في غرفة المحلفين بالضبط، فبين المحلفين كان رجل يعرفه، اسمه بطرس غيراسيموفتس - لم يعرف نيكليودوف قط اسم عائلته - كان مريباً لأولاد أخته. وقد أنهى بطرس هذا دروسه وأصبح في الوقت الحاضر أستاذاً في معهد ثانوي. كان نيكليودوف يجده ثقيل الظل بسبب دالته، وضحكه الذي ينم على الإعجاب بالذات، وسوء تصرفاته، وهيئته «المبتذلة» كما كانت تقول ابنة أخت «نيكليودوف».

قال للأmir وهو يتقدم نحوه على وجهه ضحكة عريضة:

- آه! وأنت أيضاً، جاء بك الحظ! ألم تسع إلى إعفاء نفسك.

أجاب نيكليودوف بجفاف:

- لم يمرّ ببالي قط أن أسعى إلى إعفاء نفسي.

تابع المربي كلامه وهو يضحك ضحكاً أشد:

- عظيم! هذه صفة حسنة من صفات الشجاعة المدنية، سترى

كيف ستألم من الجوع! ولا سبيل إلى النوم أو الشرب!

وفكر نيكليودوف:

«ابن الكاهن هذا لن يلبث طويلاً حتى يخاطبني بضمير المفرد!»
وأسبغ على وجهه تعبيراً حزيناً كأنه علم قبل هنيهة، بموت أحد أقربائه،
فأدار ظهره لبطرس غير اسيموفتش ليقترّب من جماعة تشكّلت من
حول شخص طويل القامة، حليق الوجه، عظيم الوقار، منهمك في
رواية قصة ما. كان يتحدث عن دعوى تحكم فيها المحكمة المدنية،
ويتكلم كمن يعرف بعمق القضية برمتها مسمياً القضاة والمحامين
بأسمائهم. وقد أفاض في الحديث عن الوجهة الغريبة التي وجّه بها
الدعوى محام شهير من بطرسبرج، فبفضله أيقنت سيدة عجوز بأنها
ستخسر دعواها مع أنها هي صاحبة الحق. وهتف:

— إنه عبقرى، ذلك المحامي!

كان الحضور يصغون إليه بانتباه، فأراد بعض المحلفين أن يبدوا
رأيهم، لكنه كان لا يلبث أن يقاطعهم، وكأنه كان وحده يعرف بدقة
حقيقة الأمر.

كان على نيكليودوف أن ينتظر طويلاً في غرفة المحلفين، مع أنه
وصل متأخراً إلى قصر العدل: ذلك أن أحد أعضاء المحكمة لم يكن قد
وصل بعد؛ وكانوا ينتظرونه ليفتتحوا الجلسة.

× × ×

أما رئيس محكمة الجنايات فقد وصل إلى قصر العدل مبكراً. كان رجلاً طويلاً وبديناً، له سالفان طويلان وخطهما الشيب. وكان، وهو متزوج، يعيش حياة ماجنة، وكانت امرأته تفعل مثله: كان مبدؤهما ألا يضايق أحدهما الآخر. وفي صباح هذا اليوم بالذات، تلقى الرئيس بطاقة من مربية سويسرية عملت قديماً في بيته، وهي تمر الآن بالمدينة قاصدةً إلى بطرسبرج، تقول فيها: إنها ستنتظره بين الساعة الثالثة والساعة السادسة في فندق إيطاليا. ولذلك كان مستعجلاً ليبدأ ولينتهي جلسة اليوم بأسرع ما يمكن حتى يتسنى له لقاء «كلارا» في الساعة السادسة، تلك الشقراء التي بدأ معها مغامرة غرامية في الصيف الماضي.

حين دخل مكتبه، أغلق الباب بالمفتاح، وتناول من درج الخزانة الأسفل ثقالة الحديد، وقام بعشرين حركة إلى الأمام وإلى الخلف، وعلى الجانب، وإلى الأعلى وإلى الأسفل. وبعد أن فعل ذلك ثلاث مرات متوالية طوى ركبتيه طياً خفيفاً وهو يرفع الثقالة فوق رأسه.

وفكر وهو يقرص بيده اليسرى التي يلتصق فيها خاتم ذهبي، العضلة

البارزة في ذراعه اليمنى: لا شيء يُكسبنا النشاط مثل الإغتسال بالماء والرياضة. وكان يتأهب أيضاً للقيام بتمرين «الطواحين» - إعتاد أن يقوم بهذين التدربيين قبل كل جلسة طويلة - عندما اهتزّ الباب. كان وراءه من يحاول فتحه. فبادر الرئيس إلى إخفاء الثقالة وفتح الباب. قال:

- معذرة.

دخل الغرفة أحد قضاة المحكمة. كان رجلاً قصير القامة، مقرّن الكتفين، حزين الوجه، يضع على أنفه نظارة ذهبية. وهتف بصوت نحيل:

- حسناً! لقد حان الوقت!

أجاب الرئيس وهو يرتدي بزّته:

- أنا جاهز. لكن «ماتيو نيكيتش» لم يحضر بعد!

فوافقه القاضي قائلاً:

- في الحقيقة، لقد بلغت به قلة الوجدان حدّاً بعيداً.

وجلس على أحد المقاعد، وهو بادي الإمتعاض، وأشعل لفافة.

وقعت بين هذا القاضي، وهو رجل دقيق للغاية، وبين زوجته مشاحنة، هذا الصباح، كأسوأ ما تكون المشاحنة، لأنها أنفقت مال الشهر بسرعة فائقة. وطلبت سلفة فرفض: ومن هنا المشاحنة. وأعلنت

المرأة أنها لن تعدّ العشاء في هذه الشّروط، ومضى القاضي إلى عمله وهو يخشى أن تنفّذ تهديدها، لأنه يعلم أنها قادرة على كل شيء. قال في نفسه وهو ينظر إلى الرئيس، هذا الرجل الضخم الذي يشعّ عافية وطيب مزاج، والذي بسط مرفقيه وأخذ يملس يديه البيضاءوين الشعر السميك والحريري في سالفه الطويلين ليرتبهما على جانبي ياقته المزيّنة بأشرطة، قال في نفسه: «أذهب وعش بعد ذلك حياتك المستقيمة التي لا غبار عليها. هو مرح دائماً، راضٍ دائماً، أما أنا فليس لي سوى المتاعب».

في هذه اللحظة، دخل كاتب المحكمة، يحمل وثائق طلبها منه الرئيس.

قال الرئيس وهو يشعل لفافة:

— أشكرك. وبأية قضية سنبدأ؟

أجاب الكاتب:

— بقضية التسميم، في رأيي، إلا إذا شئت أن تغيّر الترتيب.

قال الرئيس:

— حسناً، ليكن، فلنبدأ بالتسميم.

قال ذلك وهو يقدر أن هذه القضية ستكون قضية بسيطة جداً يمكن أن يبتّ فيها قبل أربع ساعات مما يتيح له أن يذهب للقاء السويسرية. وسأل أيضاً الكاتب الذي هم بالخروج:

- و«بريف»، هل حضر؟

- نعم، أعتقد.

- إذن قل له إننا سنبدأ بقضية التسميم.

كان «بريف» وكيل النيابة الذي سيمثل الاتهام في جلسة الجنايات هذه.

صادفه الكاتب في رواق المحكمة حاني الرأس، محلول السترة، حاملاً محفظة الأوراق تحت ذراعه، وهو يمشي بخطى حثيثة، بل وهو يكاد يركض، ضارباً الأرض بعقبه، محرّكاً ذراعه بحركة محمومة.

سأله الكاتب وهو يحاذيه:

- ميشيل بيتروفيتش يسأل إن كنت مستعداً؟

- بالطبع! أنا دائماً مستعد. وبأية قضية سنبدأ؟

- بقضية التسميم.

- ممتاز.

الحقيقة أنه لم يكن يجد ذلك «ممتازاً» في شيء: ذلك أنه قضى ليلته يقامر في مقهى، مع شباب آخرين، وأوصلوا رقيقاً إلى بيته، وشربوا كثيراً، ولعبوا حتى الساعة الخامسة صباحاً، ثم ذهبوا لمعاشرة النساء في ذلك البيت الذي عاشت فيه «ماسلوف» قبل ستة أشهر. وهكذا

لم يتّسع الوقت لو كـيل النيابة كي يلقي، ولو نظرة خاطفة، على ملف قضية التسميم التي سينظر فيها. لم يكن الكاتب يجهل ذلك، فأوحى عن قصد إلى الرئيس أن يبدأ بهذه القضية التي لم تتسنّ لو كـيل النيابة دراستها. لأن الكاتب كان متحرراً، إن لم نقل راديكالياً، وذلك لم يكن يمنعه من أن يعمل في القضاء، وأن يطمح إلى منصب و كـيل نيابة. أما «بريف» فكان محافظاً ومتحمّساً أشد التحمّس للنزعة التقليدية، شأنه شأن معظم الألمان الذين يعملون في روسيا بصفّتهم موظفين. كان الكاتب يحسده على منصبه ولا يحسّ بأية مودّة تجاهه.

وسأله الكاتب:

— وقضية «السكوبتسي»؟^(٨)

أجاب الوكيل:

— لقد أعلنتُ أن ذلك غير ممكن في غياب الشهود. وسأكرّر ما قلته أمام المحكمة.

— وما أهمية ذلك؟

وكرّر الوكيل:

— غير ممكن.

٨. السكوبتسي: أعضاء شيعة منشقة كانت تقوم بالخصاء الإرادي من أجل بلوغ القداسة.

وجرى إلى مكتبه وهو يحرك ذراعه.

كان يؤجل قضية «السكوبتسي» لا بسبب غياب بعض الشهود الذين لا قيمة لحضورهم، بل لأن تلك القضية، إذا ما نُظر فيها، في مدينة كبيرة معظم محلفيها من الطبقات المثقفة، قد تنتهي بالبراءة. لذلك اتفق مع الرئيس على نقل القضية إلى محكمة مدينة صغيرة تكون هيئة المحلفين فيها مشكّلة بأغليبتها من الفلاحين، ويكون الحصول على الإدانة، من ثمّ، أسهل.

على أن الحركة في الرواق عظمت أيضاً. وتجمع الجمهور، على الخصوص، في قاعة المحكمة المدينة حيث سيُفصل في قضية من تلك القضايا التي اعتاد الناس أن يقولوا عنها: «مثيرة للاهتمام»، وهي القضية نفسها التي كان يتحدث عنها بكثير من الكفاية، في قاعة المحلفين، ذلك الشخص الوقور. ومؤدّاها أن رجلاً من رجال القانون الماهرين استولى على ثروة سيدة عجوز دون أدنى حق أو قانون أخلاقي، لكن بطريقة قانونية حصراً. كانت شكوى تلك السيدة محقّة كل الحق. وكان القضاة على علم بذلك، وأكثر علماً منهم كان رجل القانون ومحاميه؛ لكن هذا المحامي تصوّر مرافعة بالغة الحذق بحيث تخسر تلك السيدة حتماً دعوها.

في اللحظة التي أراد فيها كاتب المحكمة أن يدخل مكتب الرئاسة رأى تلك السيدة التي انتزعت منها ثروتها طبقاً للأصول الواجبة، تمر أمامه بالضبط في الرواق. كانت امرأة جسيمة، تضع على رأسها قبعة مزينة بورود ضخمة. خرجت من قاعة الحضور وهي تبسط يديها

القصيرتين والربلتين ثم تسحبهما إليها مرّدة دون انقطاع «ماذا سينجم عن ذلك؟ أرجوكم، ماذا يعني...؟ ومضت فتهاكت على مقعد لم يلبث أن جاء محاميها إليه، وسرعان ما أخذت تروي له قصة معقدة جداً ولا صلة لها بقضيّتها. تأمل المحامي ورودَ قبعتها ووافق برأسه، ولعله لم يكن يصغي إليها.

وفجأة انفتح باب صغير، وخرج منه رجل القانون الشهير الذي عمل بحيث غدت تلك المرأة ذات القبعة المزينة بالورود بلا مورد، وبحيث حصل خصمُها، وهو ينتهك القانون، على مائة ألف روبل مقابل عشرة آلاف روبل أجرة المحامي، خرج ذلك الرجل وهو أعظم ما يكون إشراقاً، ورضاً عن الذات، عارضاً مقدمة القميص المنشأة فوق صدره مفتوحة على طولها. التفتت جميع العيون باحترام إلى المحامي. وأدرك هو ذلك، فكان كل شخصه كأنه يقول: «من فضلكم، أيها السادة، اعفوني من مظاهر إعجابكم!»

× × ×

وأخيراً وصل «ماتيونيكيتش»، القاضي الذي كانوا ينتظرونه. وسرعان ما رأى المحلفون حاجب المحكمة يدخل القاعة التي اجتمعوا فيها، وكان رجلاً قصيراً، هزياً، طويل العنق، غير متسق في مشيته. وكان، على كل حال، رجلاً طيباً، درس في الجامعة، لكنه لم يكن يستطيع أن يحتفظ بمركزه أينما كان ذلك المركز لأنه كان يشرب. وقبل ثلاثة أشهر أمّنت له كونتيسة كانت تهتم بأمراته ووظيفة حاجب في قصر العدل. واستطاع أن يستمر فيه حتى الوقت الحاضر، وهو أمر فرح به كما يفرح من المعجزة.

سأل وهو يضع نظارته الأنفية لينظر إلى المحلفين:

— حسناً! أيها السادة، هل الجميع هنا؟

أجاب التاجر المرح:

— هم هنا، بلا شك، على ما يبدو لي.

وتناول من جيبه قائمة، وأخذ يقرأ الأسماء، وهو ينظر بين كل

إسم وإسم إلى وجوه المحلفين، تارة من خلال نظارته وتارة أخرى من فوقها.

— مستشار الدولة. ا. م. نيكليودوف؟

أجاب الشخص الوقور الذي يعرف جيداً خفايا الدعاوى جميعاً:

— أنا!

— العقيد المتقاعد إيفان سيميونوفتش إيفانوف؟

أجاب الرجل الذي بالبزة:

— هنا!

— تاجر الجمعية الثانية بطرس باكلاشوف؟

صرخ التاجر المرح وهو ينقل ابتسامة طليقة على كل من حوله:

— حاضر! أنا مستعد!

— ضابط الحرس، الأمير دميتري نيكليودوف.

قال نيكليودوف:

— أنا!

وهنا انحنى الحاجب بمزيج من الاحترام واللفظ وكأنه يريد أن يميّز نيكليودوف من سائر المحلفين. ثم تابع تلاوته للأسماء:

– النقيب يوري دميتريفتش دنشكو؟ التاجر غريغوري ايفيموفتش
كوليشوف؟

وهكذا دواليك. كان جميع المحلفين حاضرين ماعدا اثنين.

هتف الحاجب وهو يشير إلى الباب بحركة محرّضة:

– والآن، أيها السادة، تفضلوا بدخول قاعة المحكمة!

تحرك الجميع للخروج من القاعة، وكل منهم يتنحّى بأدب كي
يسمح لزميله بالمرور.

كانت محكمة الجنايات تنعقد في قاعة كبيرة، متطاولة الشكل،
تتصدّر لها منصة لها ثلاث درجات. وفي وسط المنصة وُضعت طاولة
مغطاة بقماش أخضر، مزركش بأهداب قائمة الخضرة. وخلف الطاولة
ثلاثة مقاعد لها مساند عالية من السنديان المحفور وُضعت تحت
صورة مذهبة الإطار. وكانت هذه الصورة ذات الألوان الصارخة
تمثل الإمبراطور بثيابه الرسمية، والوسام الأكبر حول عنقه، وقد
تباعدت رجلاه، ويده على مقبض سيفه. وفي الزاوية اليمنى رافدة
مذبح تحتوي على صورة للسيد المسيح مكللاً بالشوك، وتحتها مقرئ
مع منبر صغير مخصص للنائب العام الإمبراطوري. وإلى اليسار، في
الصدر طاولة الكاتب، وفي الأمام، على مقربة من الجمهور، حاجز
من الخشب حول مقعد المتهمين. كان المقعد خالياً كما كانت المنصة
خالية أيضاً. وإلى يمين المنصة، في مواجهة مقعد المتهمين، طائفة
من المقاعد عالية المساند، تنتظر المحلفين، وفوقها رُتبت طاولات

المحامين. أما القسم الآخر من القاعة الذي يفصله حاجز عن المنصة، فكان مكوّناً من مقاعد متدرجة تعلو حتى تصل صدر القاعة. في الصفوف الأربعة الأولى من هذه المقاعد، جلست أربع نساء يلبسن كالعاملات أو الخادمات، ويصحبهن رجلان ربما كانا أيضاً عاملين. كانت هذه الجماعة متهيّبة بدون شك، من عظمة المنصة وزخرفها، لأنها كانت تتحدث بصوت خفيض وباستحياء.

ما إن أدخل الحاجب المحلفين وأجلسهم حتى تقدّم إلى وسط المنصة، وأعلن بصوت مرتفع جداً يرمي إلى إلقاء المزيد من الرهبة في نفوس الحضور:

— محكمة، أيها السادة!

نهض الجميع، ظهر القضاة على المنصة يسبقهم الرئيس بسالفه الجميلين، وخلفه جاء القاضي المتجهّم الوجه، الذي ازداد تجهّماً بعد لقائه أخا زوجته قبل الجلسة، فقد أخبره أن أخته أعلمته أنه لن يكون هناك عشاء في البيت، هذا المساء، وأضاف وهو يضحك:

— ماذا نصنع؟ سنضطر إلى العشاء في الحانة.

أجاب القاضي المتجهّم الذي ضاق صدره:

— لا أرى ما يضحك في ذلك!

كان القاضي الثالث، ماتيونيكيتش» الذي يصل متأخراً أبداً، كان رجلاً طويل اللحية، ذا عينين كبيرتين، جميلتين، مدوّرتين، تحتها

جيوب منتفخة. وفي هذا الصباح، فرض عليه طبيبه حمية جديدة تضطّره إلى التأخر في منزله فوق المعتاد، فقد كان يتقدّم على المنصة وهو بادي الانشغال. والواقع أنه كان منهمكاً جداً. كان من عادته أن يتنبأ، بشتّى وسائل المصادفة، عن أجوبة لأسئلة يطرحها على نفسه. وفي هذه المرة، قال لنفسه: إنه إن كان عدد الخطوات التي سيقطعها من باب مكتبه إلى مقعده ينقسم على ثلاثة. فمعنى ذلك أن هذه الحمية الجديدة ستشفيه من التهاب قصباته. بيد أن كل ما ساره كان ستاً وعشرين خطوة، لكنه لجأ إلى الغش في آخر لحظة، فسار خطوة صغيرة فوقها وبلغ مكانه وهو يعدّ الخطوة السابعة والعشرين.

كانت وجوه الرئيس والقاضيين، وهم منتصبون فوق المنصة، بريّهم الرسمي ذي الياقات المزركشة بالذهب، منظرًا من أعظم المناظر هيبةً. وكان القضاة أنفسهم يشعرون بذلك. فثلاثتهم بادروا إلى الجلوس وهم يغضّون أبصارهم بتواضع، وكأنهم ارتبكوا من جرّاء عظمتهم. وعلى الطاولة الخضراء أمامهم، وُضع شيء مثلث الشكل^(٩) يعلوه النسر الامبراطوري، ومحابر وأقلام وأوراق بيضاء وكمية وافرة من الأقلام المختلفة الأحجام، المبرّية حديثاً.

خَلَفَ القضاة، دخل وكيل النيابة. وتقدّم هو أيضاً نحو مقعده، بأسرع ما يمكن، وهو يحمل محفظته تحت إبطه، ويحرّك ذراعه. وما إن جلس حتى استغرق في قراءة إضبارة، مستفيداً من كل دقيقة ليحضّر مرافعته. كانت هذه المرة الرابعة فقط التي يرافع فيها في الجنايات. كان

٩. هذا الشيء هو مرآة العدالة.

طموحاً، يحلم أن ينجح في منصبه، ويرى من الضروري، لكي ينجح، أن يحصل على إדانة في جميع القضايا التي يشارك فيها. ولقد رتب الخطة العامة للمرافعة التي سيلقيها في قضية التسميم. لكن كان عليه أن يلم بوقائع القضية نفسها لكي يدعم أدلته ويغنيها.

أما كاتب المحكمة الجالس في أقصى الجزء المقابل للمنصة، فبعد أن رتب أمامه جميع الوثائق التي ينبغي عليه قراءتها، أخذ يطالع مقالة في جريدة ممنوعة تلقاها عشية أمس وقرأها مرة أولى. كان يريد أن يحدث القاضي ذا اللحية الطويلة عن هذا المقالة، لعلمه أنه يشاركه الرأي في السياسة. لكن قبل أن يتحدث عنها أراد أن يكون عنها فكرة واضحة جداً.

x x x

بعد أن نظر الرئيس في أوراق الدعوى، ألقى بعض الأسئلة على الحاجب والكاتب. وحين تلقى منهما رداً بالإيجاب، أمر بإدخال المتهمين:

وفي الحال، فُتح باب في صدر القاعة، ودخل منه دركيان على رأس كل منهما قبعة من وبر، وقد شهما سيفيهما. وظهر خلفهما المتهمون الثلاثة: أولاً رجل أحمر الشعر تغطي وجهه بقع حمراء، ثم المرأتان. كان الرجل يرتدي بزّة السجناء وهي أطول منه وأعرض كثيراً. كان يشدّ ذراعيه على جسمه لكي يمسك بالكمّين اللذين كانا سيغطين يديه لولا ذلك. وكانت عيناه متشبّتين بالمقعد الذي كان يمر بقربه وكأنه لا يرى القضاة ولا الجمهور. وبعد أن دار حوله جلس، ورفع بصره إلى الرئيس وأخذ يحرك شفّتيه، وكأنه يهمس بشيء.

المرأة التي تلتها واللابسة ثوب السجينات ربما كانت في الخمسين. كانت تلفّ رأسها بمنديل السجينة، وكان وجهها الذي غشيه شحوب رمادي، لا يُنبئ إلا عن شيء عادي جداً، لولا غياب الحاجبين والرموش

غياباً تاماً. بدت شديدة الهدوء، وعندما وصلت إلى موضعها، علق فستانها بمسمار، فحسبته بأناة وعناية وأصلحته وجلست.

المتهمة الثالثة كانت «ماسلوف»

عند دخولها اتجهت إليها أنظار جميع الحاضرين في القاعة، وظلت محدّقة في هذا الوجه الشاحب ذي العينين السوداوين اللامعتين، وفي صدرها البارز المرتفع. الدركي نفسه الذي كانت تمر من أمامه نظر إليها حتى جلست. عند ذاك فقط، استدرك الأمر، وكأنه أحسّ بالخطأ، وأخذ يحدّق في النافذة التي أمامه.

انتظر الرئيس جلوس المتهمين قبل أن يلتفت إلى كاتب المحكمة. وبدأت الإجراءات العادية: تفقّد المحلفين، والوكلاء، تطبيق الغرامة على الغائبين، النظر في الأعذار التي قدّمها هؤلاء الغائبون، استبدال غيرهم بهم. وبعد ذلك رجا الرئيس الكاهن أن يؤدي المحلفون القسم أمامه.

كان هذا الكاهن شيخاً قصيراً، وجهه منتفخ، بلون الشمع. كان يرتدي جبّة بلون القرفة، ويضع صليباً ذهبياً معلقاً بسلسلة لم ينقطع عن تقلبيه على صدره الذي ثبت عليه أيضاً وسام صغير. رفع ببطء قدميه المنتفختين، وسار نحو المقرأ القائم أمام الصورة المقدسة. فنهض المحلفون وساروا إلى اللحاق به.

بدأ هذا الكاهن خدمته الكهنوتية منذ سبع وأربعين سنة. وهو يأمل أن يحتفل بيوبيله الذهبي بعد ثلاث سنوات، كما فعل منذ

وقت قريب رئيس كهنة الكاتدرائية. وقد أُلْحِقَ بالمحكمة منذ بناء قصر العدل، وكان يفتخر بأنه حلّف عشرات آلاف الأشخاص اليمين القانونية، وبأنه ما يزال يعمل، في شيخوخته، من أجل خير الكنيسة والوطن، وخير أسرته أيضاً التي ينوي أن يترك لها، إضافةً إلى منزله رأس مال لا يقلّ عن ثلاثين ألف روبل في سندات مثمرة. ولم يخطر بباله أنه قد يُسيء وهو يحلّف الناس على الإنجيل أمام المحكمة. وبدلاً من أن يتخرج، فقد أحبّ هذه الوظيفة التي أتاحَت له، في الغالب، معرفة شخصيات مرموقة، وهكذا كان سعيداً جداً هذا اليوم، بلقائه محامي بطرسبرج الشهير الذي ضاعفَ من احترامه له علمُه بأن دعوى واحدة قد درّت عليه عشرة آلاف روبل.

عندما وصل المحلّفون إلى قرب الصورة المقدسة، حَنَى الكاهن جانباً رأسه الأصلع الذي تكلّله شعرات رمادية، وأدخله في فتحة الصدر الكهنوتية المطلّخة بالشحم. وبعد أن رَتَّب بيده شعره الوسخ، التفت إلى المحلّفين، وقال:

— ارفعوا اليد اليمنى وضمّوا أصابعكم هكذا!

قال ذلك ورفع يده الربلة، وطوى أصابعه كمن يريد أن يتناول تنشيق عطوس:

— والآن ردّدوا معي: أقسم أمام الإنجيل المقدس وصليب سيّدنا المحيي أن أكون في الدعوى التي...

وهنا توقّف وخاطب شاباً بدا عليه أنه سيرخي يده:

— لا تُخفّض يدك!

واستأنف ببطء مع وقفاتٍ بعد كل جزء من الجملة. -في الدعوى التي...

الشخص المهيب ذو السالفين الجميلين والعقيد المتقاعد والتاجر وبعض المحلفين حافظوا على أيديهم مرفوعة وعلى أصابعهم مطوية كما أراد الكاهن بالضبط. والبعض الآخر، بدوا كمن يفعلون ذلك بدون اندفاع، وعلى نحو متردد. كان بعضهم يرددون بصوت عال جداً صيغة القسم بضرب من الهيجان وكأنهم يقولون:ؤكد ذلك وسأحافظ عليه من أجل الجميع وضد الجميع. وكان آخرون يهمسون القسم همساً ويتريثون في إلقائه بعد الكاهن، ثم لا يلبثون أن يسرعوا ليدركوه وكأنهم خافوا من تريثهم. لكنهم جميعاً كانوا يشعرون بشيء من الضيق، ماعدا الكاهن العجوز. الذي كان على قناعة لا تنزعزع بأنه يؤدي عملاً بالغ الأهمية والنفع.

بعد القسم، طلب الرئيس إلى المحلفين أن يختاروا رئيساً للهيئة التحكيم. وفي الحال، نهض المحلفون، مرة أخرى، واتجهوا إلى قاعة المداولات حيث بدأ معظمهم التدخين واقتراح أحدهم انتخاب الشخص المهيب رئيساً فبادر الجميع إلى الموافقة. ثم عادوا إلى المحكمة بعد أن رموا سجاثرهم. وأعلن الشخص المهيب لرئيس المحكمة أنه هو الذي انتُخب، وعاد الجميع إلى أماكنهم على المقاعد ذات المساند العالية.

تابعت الإجراءات مجراها بسرعة لا تخلو من طابع احتفالي. إن هذه الشرعية وتلك الشكلية كانتا تبتّان في الجميع إحساساً ساراً ناجماً عن

شعورهم بأنهم يؤدون واجباً اجتماعياً عظيماً الجدية والأهمية. وكان نيكليودوف يشاركهم هو أيضاً هذا الشعور.

عندما جلس المحلفون، وجّه رئيس المحكمة كلمة إليهم ليرشدتهم إلى حقوقهم وواجباتهم ومسؤوليتهم. وكان لا يني يغيّر وضعه، وهو يتكلم. فتارة يلتفت إلى اليمين وتارة إلى الشمال، وحيناً يستند إلى مقعده أو ينحني إلى الأمام، وحيناً آخر يسوي بين الأوراق على الطاولة، ويرفع قاطعة الورق أو يعبث بأحد الأقلام.

كانت حقوق المحلفين، بحسب ما قال لهم، تتلخّص في أنهم يستطيعون أن يَسْتَجوبوا المتهمين بواسطة الرئيس، وأن يفحصوا وثائق الإثبات. أما واجباتهم فتتخصّر في أن يحكموا وفق الحق لا وفق الظلم. وأما مسؤولياتهم فتأمرهم بالمحافظة على سرّية المداولات، وتمنعهم من الاتصال بالآخرين، وإلا تعرّضوا لصرامة القانون.

استمع المحلفون إلى هذه الخطبة بانتباه خاشع. وكان التاجر الذي فاحت منه رائحة الخمر وجهه في أن يتجشأ دون أن يحدث صوتاً، يوافق بهزّ رأسه على كل جملة.

× × ×

ما أن فرغ الرئيس من كلمته حتى التفت إلى المتهمين.

- سيمون كارتنكين، قف!

فوثب سيمون بعصبية؛ وكانت عضلات وجهه ترتجف بسرعة متزايدة.

- اسمك؟

أجاب المتهم بِنَفْسٍ واحد وبصوت صارخ، فبدا وكأنه هياً أجوبته سلفاً:

- سيمون بيتروفتش كارتنكين

- وضُعْكَ؟

- فلاح؟

- أية حكومة وأية مقاطعة؟

- حكومة «تولا»، مقاطعة كابريفنو، ناحية كوبيانسكي، قرية

بوركي.

— عمركَ؟

— أربعة وثلاثون عاماً، وُلدت سنة ألف وثمانمائة...

— دينكَ؟

— «نحن من» الديانة الروسية الأرثوذكسية.

— متزوج؟

— لم نتزوج قط.

— مهنتك؟

— نشتغل في أروقة فندق «موريتانيا»

— هل حوكمت من قبل؟

— لم نُحاكَم قط، لأننا كنا نعيش قبل...

— أَلَمْ تُحاكَم من قبل؟

— الحق، لا، كما أن الله حق!

— هل تلقيت صورة من قرار الإتهام؟

— تلقيناها.

— اجلس.

وتابع الرئيس وهو يتوجّه إلى إحدى المرأتين:

— ايفيميا إيفانوفنا بوتشكوف!

لكن سيمون ظل واقفاً فحجب المرأة.

- اجلس، يا كارتنكين!

لكنه ظل واقفاً؛ ولم يجلس إلا عندما حنى الحاجب رأسه وفتح عينيه القاسيتين، وأمره بصوت هامس ومأساوي أن يجلس. حينذاك جلس المتهم بالسرعة نفسها التي نهض بها، وتلفّع بمعطفه وأخذ يحرك شفتيه.

التفت الرئيس إلى كبرى المرأتين، وهو يتنهد من العياء، كما يتنهد رجل عيل صبره لأن عليه أن يردّد دائماً الشيء نفسه، وسألها:
- اسمكِ؟

سألها دون أن يرفع بصره إليها ودون أن ينقطع عن النظر إلى ورقة أمسكها بيده. ولقد ألف هذا الإجراء ألفة عظيمة حتى أنه كان يستطيع، لكي يكون أسرع، أن يهتم بشئين في آن واحد.

كان عمر «بوتشكوف» ثلاثة وأربعين عاماً. وضعها: عاملة في المدينة. مهنتها: خادمة في فندق موريتانيا نفسه. لم تُحاكم من قبل. بلُغت صورة الاتّهام. كانت تجيب عن أسئلة الرئيس بجرأة مثيرة، كأنها تريد أن تقول: «حسناً! نعم، أنا «إيفيميا بوتشكوف»، بلُغت صورة الاتّهام، وأنا أفخر بذلك، ولا أسمح لأحد أن يضحك مني!». وحالما انتهت استجوابها عادت إلى الجلوس دون أن تنتظر الإذن بالجلوس.

تابع الرئيس استجوابه وخاطبَ برفقٍ بالغِ المرأة الأخرى:

- اسمكِ؟

وحين لاحظ أن «ماسلوفاً ظلت جالسة» قال لها بلهجة لطيفة:

— يجب أن تقفي. ما اسمك؟

فهمست بسرعة:

— اسمي «ليوبوف».

في هذه الأثناء، أخذ نيكليودوف الذي وضع نظارته يتأمل المرأتين وهما تُستجوبان، وفكر، وقد تسمّرت عيناه على وجه المتهمة:

— هذا غير ممكن! إنها تُدعى «ليوبوف» ليس الاسم واحداً! لكن ماهذا الشبه العجيب!

أراد الرئيس أن ينتقل إلى سؤال آخر، لكن القاضي ذا النظارة همس في أذنه بضع كلمات أدهشته، فالتفت إلى المتهمة وسألها:

— كيف، ليوبوف؟ أنتِ مسجلة باسم آخر!

فلزمت المتهمة الصمت.

وسألها القاضي ذو النظارة:

— أسألك عن اسمك الحقيقي؟ اسم المغمودية!

— كنتُ أدعى قديماً «كاترين».

قال نيكليودوف في نفسه: «هذا غير ممكن». لكن الشك قد زائله.

إنها هي ربيبة عمّتيه بدون شك، هي الفتاة التي أحبّها قديماً والتي أغواها في لحظة من لحظات الجنون، ثم هجرها، وطردَ ذكرها ذاتها من ذهنه. كانت هذه الذكرى تؤلمه أشدَّ الإيلام، وتُذلّه أشدَّ الإذلال، وتُريه أنه، وهو الفخور باستقامته، قد تصرّف بجبن ودناءة مع هذه المرأة.

نعم، كانت هي بعينها! ولقد تبَيَّن الآن بوضوح على وجهها تلك الخاصيّة الخفية التي تميّز وجهاً عن جميع الوجوه الأخرى، وتجعل منه شيئاً متفرداً، خاصاً، لا شبيه له. وبالرغم من شحوبها المرّضيّ، ومن هزالها، فقد عثر على تلك الخاصية في جميع ملامحها، في الفم، في العينين اللتين كان فيهما شيء من الحول، في الصوت، وعلى الخصوص في النظرة البريئة والساحرة، وفي ملامح وجهها الحلوة، وفي هيئة شخصها كله.

أنبها الرئيس، لكن برفق، لفرط ما كانت جاذبيتها جارفة:

— كان ينبغي أن تقولي ذلك على الفور.

أجابت ماسلوفاً:

— أنا ابنة غير شرعية.

— لا قيمة لذلك؛ ما اسم اشبيتك، كيف سمّوك؟

— ميخايلوفنا.

تساءل نيكليودوف وهو يحبس أنفاسه:

— ماذا عساها ارتكبت؟

وتابع الرئيس:

— ما اسم عائلتك؟ ما اللقب الذي لُقِّبَته؟

— سُجِّلْتُ باسم أمي، ماسلوف.

— وضعك؟

— عاملة في المدينة.

— دينك؟ أرثوذكسية؟

— أرثوذكسية.

— مهنتك؟ ما المهنة التي مارستها؟

فلم تجب «ماسلوف».

وأصرَّ الرئيس:

— ما المهنة التي مارستها؟

— كنتُ في أحد بيوت البغاء.

سأل القاضي ذو النظارة بصرامة:

— في أي بيت؟

فردَّت ماسلوف:

— أنتم أنفسكم تعلمون في أي بيت كنت.

وبعد أن حوِّلت عينيها لحظة، عادت لتحَدِّق في الرئيس وصعدت

الحمرة إلى وجهها.

كان في تعبير وجهها شيء خارق للعادة. وكان في كلماتها وفي

النظرة السريعة التي لَفَّت بها الحضور شيء رهيب جداً، ومؤلم جداً

حتى إن الرئيس أطرق رأسه. وساد القاعة للحظة صمتٌ قطعت
قهقهةٌ آتية من الجمهور، قهقهة تلتها كلمة «صه» قالها أحد الحضور.

رفع الرئيس رأسه وسألها، مستأنفاً استجوابه:

— أ لم تُحاكمي من قبل؟

قالت ماسلوفا بصوت خفيض، وهي تتنهد:

— لا.

— هل بُلغتِ صورة عن قرار الإتهام؟

— نعم.

— اجلسي!

رفعت ماسلوفا حاشية ثوبها كما تفعل النساء اللواتي هن في لباس
الإحتفال عندما يرفعن ذيول أثوابهن؛ ثم جلست، وأدخلت يديها
في كمّي سترتها، دون أن تحوّل عينيها عن الرئيس، وعاد إلى وجهها
هدوءٌ وشحوبه.

بدأت بعد ذلك المناداة على الشهود الذين خرجوا من القاعة،
وعلى الطبيب الخبير الذي لحق بالشهود إلى الغرفة التي سينتظرون
فيها ريثما يتم استدعاؤهم.

وأخيراً نهض كاتب المحكمة، وبدأ تلاوة قرار الإتهام. كان يقرأ
بصوت مرتفع ومتميز، لكن قراءته كانت شديدة السرعة حتى إن
كلماته لم تشكل سوى ضجيج أصم، متصل، منوم.

كان القضاة يتململون على مقاعدهم، وقد بدا عليهم نفاذ الصبر
طلباً لانهاء التلاوة، وأجهد الدركي نفسه ليخفي ثأؤبه.

لم يكفّ كاتنكين وهو في صف المتهمين، عن تحريك شفّتيه؛ وبدت «بوتشكوف» هادئة تماماً، وهي تردّ، بين الحين والحين، شعرها إلى ما تحت المنديل، وظلت ماسلوفا جامدة، وعيناها محدّقتان في الكاتب. تنهّدت مرتين أو ثلاثاً، وغيّرت وضع يديها.

كان نيكليودوف الجالس في الصف الأول بين المحلفين، على مقعده العالي المسند، ينظر إلى ماسلوفا دون أن يرفع نظارته. لقد كان يجري في نفسه تطور عميق وموؤلم.

× × ×

كان قرار الإتهام مدوّنًا على النحو التالي:

في السابع عشر من شباط اتصل مدير فندق موريتانيا الكائن في هذه المدينة، برجال الشرطة وأنبأهم بالموت المفاجئ لأحد زبونات الفندق المذكور، المدعو فيرابونت سميلكوف، وهو تاجر سبييري من الجمعية التجارية الثانية. وأثبتت شهادة طبيب الدائرة الرابعة أن موت سميلكوف يعود إلى توقّف القلب الذي سبّبه الإفراط في المشروبات الروحية. وقد دُفن جثمان سميلكوف بشكل نظامي في اليوم الثالث بعد الوفاة. على أن مواطناً وزميراً لسميلكوف، هو التاجر السبييري تيموخين الذي وصل إلى بطرسبرج، في اليوم الرابع بعد الوفاة المذكورة، واستعلم ظروف موت سميلكوف، قد أعرب عن ارتياحه في أن يكون هذا الموت طبيعياً، وعن اعتقاده بأنه مات مسموماً على يد الجناة الذين استولوا على خاتمه الماسي وعلى مبلغ كبير من المال كان بحوزته ولم يُذكر في القائمة التي حررت بعد وفاته. ونتيجة لذلك صدر الأمر بالتحقيق الذي أظهر مايلي:

١- لقد كان في حوزة سميلكوف مبلغ ثلاثة آلاف وثمانمائة روبل

تسلّمها من أحد مصارف المدينة بمعرفة مدير فندق موريتانيا وأيضاً بمعرفة الوكيل الرئيسي للتاجر ستاريكوف الذي اتصل به سميلكوف عند وصوله إلى المدينة، ومع ذلك فلم يوجد، بعد موته، في حقيبته وفي محفظته سوى مبلغ ثلاثمائة واثنى عشر روبلاً وستة عشر كوبيكاً.

٢- إن سميلكوف قضى، عشية موته، يوماً بأكمله مع البغي ليوبكا (كاترين ماسلوف)، التي جاءت مرتين إلى غرفته.

٣- إن البغي المذكورة ليوبكا سلّمت لرئيسة البيت الذي تعيش فيه خاتماً ماسياً كان يملكه التاجر سميلكوف.

٤- إن خادمة الفندق، ايفيميا بوتشكوف، وضعت في المصرف التجاري، في اليوم التالي لموت سميلكوف، مبلغ ألف وثمانمائة روبل، كحساب جار.

٥- إن خادم الفندق، المدعو سيمون كاتنكين، قد سلّم البغي ليوبكا، بحسب أقوالها، مسحوقاً ونصحها بأن تضيفه إلى الخمرة التي سيشربها سميلكوف، وهو ما فعلته «ليوبكا» بحسب اعترافها.

وعندما استجوب القاضي المحقق البغي الملقبة «ليوبكا» بصفتها متهمة، صرّحت بأنه بينما كان التاجر سميلكوف في بيت البغاء حيث كانت «تشتغل» -حسب تعبيرها- أرسلها التاجر المذكور سميلكوف إلى الغرفة التي يشغلها في فندق موريتانيا لتأتيه بالمال منها، وأنها، بعد أن فتحت حقيبة التاجر بالمفتاح الذي أعطاها إياه، أخذت منها أربعين روبلاً كما أمرها. وصرّحت بأنها لم تأخذ شيئاً من المال غير هذا،

وهو ما يشهد به سيمون كارتنكين وإيفيما بوتشكوف اللذان فتحت بحضورهما الحقيبة وأغلقتها.

وفيما يتعلق بتسمّم سميلكوف، صرّحت البغي ليوبكا أنها عندما عادت مرة ثانية إلى غرفة التاجر سميلكوف، صبّت في كأس الكونياك الذي كان سيشربه، مسحوقاً سلّمها إياه سيمون كارتنكين، لكنها كانت تعتقد أن هذا المسحوق مجرد مُنوم. وقد وضعت له كي ينام التاجر وتنصرف هي بأسرع ما يمكن. وأضافت أنها لم تأخذ مالا قط، وأن سميلكوف نفسه هو الذي أعطاهم الخاتم، بعد أن ضربها ليمنعها من الانصراف.

وعندما استجوب القاضي المحقق «إيفيما بوتشكوف» وسيمون كارتنكين بصفتهم متّهمين صرّحا بما يلي:

أفادت إيفيما بوتشكوف أنها لا تعلم شيئاً على الإطلاق عن اختفاء المال، وأنها لم تدخل غرفة التاجر، وأن ليوبكا وحدها هي التي دخلت. وأكدت أنه إذا كان قد سُرّق مبلغ من التاجر فلا بد أن ليوبكا هي التي أخذته، عندما جاءت إلى الغرفة ومعها مفتاح الحقيبة (عند هذا الموضع من تلاوة قرار الاتّهام انتفضت ماسلوف وفتحت فمها كأنها تريد أن تصرخ، واستدارت نحو بوتشكوف). وعندما سُئلت عن مصدر ألف وثمانمائة روبل أودعتها المصرف، صرّحت بأن هذا المال كسبته، أثناء الاثنتي عشرة سنة الماضية هي وسيمون الذي توشك أن تقترن به.

أما سيمون كارتنكين فقد اعترف، حين استُجوب، بأنه سرق

مبلغاً كبيراً من المال بالتواطؤ مع «بوتشكوف» وبإيعاز من ماسلوف التي أعطاها التاجر مفتاح حقيقته، وأنه اقتسم المبلغ مع ماسلوف وبوتشكوف. واعترف أيضاً بأنه أعطى ماسلوف مسحوقاً لتزويد التاجر. لكنه أنكر، في استجواب ثان، أية مشاركة في سرقة المال وفي تسليم المسحوق، ملقياً الذنب على ماسلوف. وعندما سُئل عن المال الذي أودعته بوتشكوف المصرف، أجاب هو أيضاً أن هذا المال قد أذخراه معاً أثناء اثنتي عشرة سنة في الخدمة، وأنه ثمرة ما يعطيه النزلاء من حلوان.

وأظهر تشريح جثة التاجر سميلكوف، وقد تم وفقاً للقانون، وجود كمية من السم في الإمعاء.

ثم سرد قرار الاتهام أقوال المتهمين عندما وُجِّهوا بعضهم ببعض، وشهادات الشهود وهلّم جزاً. وانتهى القرار على النحو التالي:

وبناء على ما تقدّم، فإن سيمون كارتنكين، فلاح، عمره أربعة وثلاثون عاماً، وايفيميا ايفانوفنا بوتشكوف، عاملة في المدينة، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً، وكاترين ميخايلوفنا ماسلوف، عمرها سبعة وعشرون عاماً، متهمون بأنهم سرقوا معاً، في ١٧ كانون الثاني ١٨٨٠، مبلغ ألفين وخمسمائة روبل من التاجر سميلكوف، وأنهم بعد ذلك اعتدوا عمداً على حياة سميلكوف المذكور، بغية إخفاء آثار السرقة، بأن سقوه سمّاً ونتج عن ذلك موته.

هذه الجرائم نصت عليها الفقرتان ٤ و ٥ من المادة ١٤٥٥ من القانون الجزائي: وبناء عليه يُحال سيمون كارتنكين، فلاح، ايفيميا

بوتشكوف وكاترين ماسلوف، عاملتان في المدينة، إلى المحاكمة في محكمة المقاطعة التي تجتمع بصفتها محكمة للجنايات وبمعاونة المحلفين.

عندما انتهى كاتب المحكمة من تلاوته: رتب الأوراق التي تلاها، وجلس وملس يديه شعره الأسود الطويل. تنهد جميع الحضور ارتياحاً. فقد أحس كل منهم إحساساً مفرحاً بأن كل شيء سيتضح، وأن العدالة ستنتصر، بعد أن أخذ التحقيق مجراه منذ الآن. نيكليودوف وحده لم يكن يساوره هذا الإحساس. وظل يفكر بارتياح في الجريمة التي أمكن لماسلوف أن ترتكبها، وهي التي عرفها قبل عشر سنوات، بريئة وفاتنة.

× × ×

عندما فرغ الكاتب من تلاوة قرار الاتهام، التفت الرئيس نحو كارتنكين، بعد أن أخذ رأي معاونيه، وملاحح وجهه تقول: «الآن سنعلم كل شيء بأوثق السبل، حتى أتفه التفاصيل». وصاح وهو يميل إلى اليسار:

— سيمون كارتنكين.

نهض سيمون كارتنكين، وردّ كمّي معطفه، وتقدّم بكل جسده، دون أن يكفّ عن تحريك شفّتيه.

— أنت متّهم بأنك سرقت من حقيبة التاجر سميلكوف مبلغاً من المال يخصّصه، بالتواطؤ مع ايفيميا بوتشكوف وكاترين ماسلوف، وبأنك حصلت على الزرنيخ وحرّضت كاترين ماسلوف على أن تدسّه في شراب التاجر سميلكوف، وهو ما فعلته، وكان من نتيجته موت سميكوف.

واختتم الرئيس كلامه، وهو يميل إلى اليمين، بقوله:

— هل تعترف بأنك مذنب؟

— هذا غير ممكن، لأننا يجب أن نخدم الزبونات...

— ستقول هذا فيما بعد، هل تعترف بأنك مذنب؟

— هذا غير ممكن. أريد فقط...

وكرر الرئيس بصوت هادئ لكنه صارم:

— ستقول لنا ذلك فيما بعد. هل تعترف بأنك مذنب؟

— هذا غير ممكن، لأن...

ومرة أخرى التفت الحاجب فجأة نحو سيمون كارتنكين ليوقفه عن همسه المأساوي.

غير الرئيس موضع مرفقيه، وعلى وجهه تعبير يعني أن هذا الجزء من القضية قد انتهى، وخاطب ايفيميا بوتشكوف قائلاً:

— ايفيميا بوتشكوف، أنت متهمة بأنك سرقت من التاجر سميلكوف، بالتواطؤ مع سيمون كارتنكين وكاترين ماسلوف، مبلغاً من المال وخائماً، وبأنك، بعد اقتسام السرقة بينكم أنتم الثلاثة، شاركت في تسميم التاجر سميكلوف بالزرنيوخ الذي مات به. فهل تعترفين بأنك مذنب؟

احتجّت المتهمة بصوت قاس وجريء:

— لست مذنب في شيء! بل إنني لم أدخل الغرفة... وبما أن هذه القذرة هي التي دخلت الغرفة، فهي وحدها، بدون شك، التي ارتكبت كل شيء.

قال الرئيس بصوته الهادئ والثابت، مرة أخرى:

— ستقولين لنا ذلك فيما بعد، وهكذا فأنت لا تعترفين بأنك مذنبه.

— لم أسرق مالاً، ولم أدرس سماءً، ولم أدخل الغرفة. ولو كنتُ دخلتها لألقيتُ بها إلى الخارج!

— ألا تعترفين بأنك مذنبه؟

— كلا!

— هذا حسن.

التفت الرئيس بعد ذلك إلى المتهمه الأخرى:

— كاترين ماسلوف، أنتِ متهمه بأنك، بعد أن جئت إلى غرفة في فندق موريتانيا ومعك مفتاح حقيبه التاجر سميكلوف، قد سرقتِ من الحقيبه مبلغاً من المال وخاتماً...

قطع الرئيس حملته ليصغي إلى ما همس به في أذنه القاضي الجالس على يمينه، لقد نبّهه هذا القاضي إلى أن أحد أدلة الإثبات المسجل في القائمة، وهو القمقم، غير موجود على الطاولة. فأجابه الرئيس همساً:

— سنرى ذلك بعد قليل.

وتابع جملته وكأنها درس حفظه عن ظهر قلب:

— ... قد سرقتِ من تلك الحقيبه مالاً وخاتماً، ثم اقتسمت ناتج

تلك السرقة مع شريكك، وبأنك قدّمت، بعد أن عدت إلى الفندق مع التاجر سميكلوف، الكونياك المسمّم. فهل تعترفين بأنك مذنبه؟

أجابت المتهمه على الفور:

— لست مذنبه في شيء. وما قلته منذ البداية أقوله الآن: إني لم آخذ شيئاً، على الإطلاق! أما الخاتم فهو الذي أعطاني إياه!

— ألا تعترفين بأنك مذنبه لسرقتك ألفين وستمائة روبل؟

— لم آخذ شيئاً، كما قلت لك، لا شيء سوى أربعين روبلاً!

— وكونك دسست مسحوقاً في كأس التاجر سميكلوف، ألا تعترفين بأنك مذنبه في ذلك؟

— هذا أعترف به. لكنني كنتُ أعتقد، كما قيل لي، أن هذا المسحوق يصلح للتنويم، ولا ضرر منه. أمّن الممكن أن أسمّم أحداً. ها إن...

قاطعها الرئيس، ولعله كان راضياً عن النتائج التي حصل عليها:

— حسناً! اروي لنا الآن كيف جرت الأمور، إرو لنا كلّ ما تعرفينه، إن اعترافاً صادقاً يمكن أن يخفّف من وضعك.

ظلت ماسلوفاً شاخصةً بعينيها إلى الرئيس، فلزمت الصمت وقد احمرّت خجلاً؛ وكان جلياً أنها تبذل جهدها لتتغلب على استحيائها.

— هيا! اروي لنا كيف جرت الأمور!

قالت ماسلوفافجأة:

- كيف جرت الأمور؟ حسناً! جاء التاجر ذات مساء إلى البيت الذي أشتغل فيه، وجلس بجانبى، وقدم إليّ خمرًا...

سكت مرة أخرى، وكأنها نسيت تسلسل الأحداث، أو كأن ذكرى أخرى مرّت ببالها.

- حسناً! ثم ماذا؟

- ماذا بعد ذلك؟ بقي، ماذا أقول، ثم رجع!

في هذه اللحظة نهض وكيل النيابة قليلاً، واتكأ بتكلّف على احد مرفقيه. فسأله الرئيس:

- أتريد أن تطرح سؤالاً.

وبناء على رده الإيجابى، أفهمه الرئيس بحركةٍ منه أنه يستطيع الكلام.

سأل وكيل النيابة بفخامة دون أن يحوّل عينيه إلى ماسلوفاف:

- السؤال الذي أوّد طرحه هو التالي: هل كانت المتّهمة تعرف سيمون كارتنكين من قبل؟

بعد أن طرح سؤاله زمّ شفّتيه، وقطّب بين حاجبيه. وكرر الرئيس السؤال. كانت ماسلوفاف تلقي على وكيل النيابة نظراتٍ مرتاعة. واعترفت:

- سيمون؟ نعم، كنت أعرفه.

– أود أن أعلم قوامَ تلك العلاقة بين المتهمة وكارتنكين. هل كانا يتقابلان كثيراً؟

أجابت ماسلوفاً وهي تنقل نظرةً حيرى من النائب العام إلى الرئيس وبالعكس:

– ما قوام علاقاتنا؟ كان يقدّمني إلى الغرباء في الفندق. لكن هذا لا يُسمى علاقة!

وتبسّم وكيل النيابة تبسّم رجلٍ ينصب شركاً هيّاه منذ زمن بعيد.
وقال:

– أود أن أعلم لماذا كان كارتنكين يقدّم ماسلوفاً وحدها للغرباء.
ولا يقدم غيرها من البنات؟

أجابت ماسلوفاً وهي تنظر حولها بذعر.

– لا أدري! وكيف أدري؟ كان يقدّم مَنْ يشاء.

فكّر نيكليودوف الذي استقرت عليه لحظة عينا المتهمة: «تري، هل عرفتني؟» وأحس بدمه كله يتدفق إلى وجهه. لكن ماسلوفاً لم تميّزه عن المحلفين الآخرين، وحطّت نظرتها المرتعبة على النائب العام.

– وهكذا فالمتهمة تُنكر أن لها علاقات حميمة بكارتنكين؟ ممتاز؟
ليس لدي ما أسأل عنه غير ذلك.

سحب وكيل النيابة مرفقه عن الطاولة، وأخذ يكتب، أو على

الأصح أخذ يتظاهر بذلك، لأنه اقتصر على تمرير ريشته فوق حروف قرار الإتهام، فقد لاحظ أن النواب العامين والمحامين كانوا يدونون دائماً، بعد كل سؤال يسألونه، ملاحظات ترمي إلى سحق الخصم.

في هذه الأثناء، تحدث الرئيس والقاضي ذو النظارة بصوت خفيض. فإذا الرئيس يستدير نحو المتهمه ليسألها:

— ثم ماذا جرى بعد ذلك؟

أعلنت ماسلوفاً، وقد استعادت شجاعتها حين أدركت أن العلاقة صارت مع الرئيس وحده:

— أقبل الليل فصعدت إلى غرفتي، وجاءت «بيرتا» لتقول لي: «انزلي، فها هو ذا تاجرك يعود» ما كنت أريد النزول، لكن صاحبة الدار أمرتني بالنزول. وهو... (عاد صوتها قلقاً بعد قولها «هو») وهو كان هناك، في قاعة الاستقبال، يسقي جميع السيدات؛ أراد أن يطلب مزيداً من الخمرة، لكن لم يبقَ معه نقود. حينئذ أرسلني إلى غرفته في الفندق، ودلّني على موضع المال، وكم ينبغي أن آخذ منه، فذهبت...

كان الرئيس يواصل كلامه بصوت خفيض مع جاره، لم يصغ إلى ما قالته، لكنه أراد أن يثبت سماعه له فرأى لزماً عليه ترديد آخر كلمات ماسلوفاً:

— ذهبت؟ ثم ماذا؟

قالت:

- وصلت إلى الفندق، وفعلتُ كل ما أمرني به وكما أمرني. أخذتُ أربع ورقات حمراء من فئة العشرة.

وتوقفتُ أيضاً، وكأن خوفاً مفاجئاً هاجمها، ثم استأنفت:

- لم أذهب وحدي إلى الغرفة، وإنما دعوتُ سيمون ميخايلوفتش. وأضافت وهي تشير إلى بوتشكوف:

- ودعوتُها هي أيضاً.

شرعت بوتشكوف تقول:

- إنها تكذب! بالنسبة إلى الدخول، أنا لم أدخل...

لكن الحاجب أوقفها.

أكدت ماسلوف، وهي مقبضة الحاجبين، ودون أن تتطلع إلى ماسلوف:

- إنما أخذتُ الأوراق الأربع الحمراء بحضورهما.

وتدخل وكيل النيابة:

- أود لو أعرف إن كانت المتهمة قد رأت، وهي تتناول الأربعين روبلاً، كم كان في الحقيقة من نقود.

- لم أعدّها. رأيت أنه لم يكن فيها سوى نقود من فئة مائة روبل.

- وإذن فقد رأت المتهمة أوراقاً مالية من ذات مائة روبل، ليس عندي شيء آخر أسأل عنه.

وسألها الرئيس وهو ينظر إلى ساعته:

- وحينذاك جئتِ بالمال:

- نعم، جئتُ به.

- ثم ماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك أخذني التاجر إلى غرفته.

- طيب. كيف أعطيته المسحوق؟

- صبيته في كأس، وحملته على شربه كله.

- لماذا؟

لم تجب، واكتفت بأن تنهدت بعمق وبقوة.

وواصلت بعد صمت:

- أبى أن يدعني أذهب. تعبتُ من البقاء معه. خرجتُ إلى الممرّ وقلت لسيمون ميخايلوفتش: «ليته يدعني أنصرف! أنا متعبة». فأجابني سيمون ميخايلوفتش: «نحن أيضاً تعبنا منه، لنعطه مسحوقاً ينوّمه وتستطيعين الانصراف بعد ذلك». أنا، ظننت أن المسحوق لا ضرر منه. فأخذته لأصبّه في كأسه. وعندما رجعتُ إليه كان مضطجعاً في مخدعه. وفي الحال طلب إليّ أن آتيه بالكونياك. عند ذاك، أخذتُ عن الطاولة زجاجة الشمبانيا الفاخرة، وملأت كأسين، كأساً لي وكأساً

له. وفي كأسه سكبتُ المسحوق... ظننتُ، أنا، أن المسحوق للتنويم، وأنه سينام؛ ما كنتُ لأضع المسحوق في كأسه لو كنتُ أعلم... مهما يكن الثمن.

سألها الرئيس:

— كيف تسلّمتِ الخاتم؟ متى أعطاك إياه؟

— عندما وصلتُ إلى الغرفة أردتُ الانصراف، فضرّيتُ على رأسي، وكسر لي مشطتي، فأخذتُ أبكي، عند ذاك، نزع خاتمته من إصبعه وأهدانيه لكي لا أنصرف.

في هذه اللحظة، نهض وكيل النيابة مرة أخرى، واستأذن في طرح بعض الأسئلة. قال أولاً:

— أود أن أعلم كم قضتُ المتهمّة من الوقت في غرفة التاجر سميكلوف.

وكأنما استولى على ماسلوف رعب جديد، فأجابت بسرعة شديدة، وهي تنقل نظرتها القلقة من الوكيل إلى الرئيس:

— لا أذكر. بعض الوقت.

— آه! وهل نسيّتِ المتهمّة أيضاً، إن كانت قد دخلت مكاناً آخر في الفندق، بعد خروجها من عند التاجر سميكلوف؟

فكرت ماسلوف لحظةً، وأجابت:

- دخلتُ الغرفة المجاورة، التي كانت خالية!
- سألها وكيلُ النيابة وقد استدار بجسده كله ليخاطبها مباشرة:
- ولماذا دخلتها؟
- كان ذلك لأصلح ثيابي ولأنتظر العربية.
- هل دخل كارتنكين الغرفة أيضاً مع المتهمّة، نعم أم لا؟
- دخلها هو أيضاً.
- ولماذا دخلها؟
- بقي شيء من الخمر في الزجاجَة فشرّبناه معاً.
- هل كلّمتُ المتهمّة سيمون، وفيّمْ؟
- احتدّت ماسلوفا فجأة، واحمرّ وجهها، وقالت بسرعة:
- تسألني إن كنت قد تكلمتُ؟ لم أقل شيئاً، وما جرى قلته، لستُ أعرف شيئاً غيره، افعلوا بي ما تشاؤون، أنا بريئة، هذا كلّ ما عندي.
- أبلغَ وكيلُ النيابة الرئيس:
- لم يبقَ لدي ما أسأل عنه.
- وبعد ذلك أخذ يسجّل، في ملخّص خطابه، أن المتهمّة اعترفت
بذهابها إلى الغرفة الخالية مع سيمون.
- تلا ذلك صمتٌ.
- أليس لديك ما تضيفينه؟
- فكرّرت ماسلوفا:

— قلتُ كل ما ينبغي أن أقوله.

وجلسْتُ وهي تنهد.

على أثر ذلك، دوّن الرئيس بعض الملاحظات، واستمع إلى رأي همسه في أذنه أحد معاونيه، وأعلن تعليق الجلسة لمدة عشر دقائق، ونهض بسرعة وخرج من القاعة.

المعاون الذي كلمه هو القاضي ذو اللحية الطويلة، والعينين الواسعتين والوديعتين. لقد قال للرئيس: إنه يحسّ باضطراب طفيف في معدته، وأعرب عن رغبته في تناول منعش. ولهذه الغاية، علّق الرئيس الجلسة.

سرعان ما نهض الرئيس والقاضيان والمحلفون ليلجؤوا إلى قاعة المداولات. ثم تفرّقوا وقد استولى عليهم إحساس سار بأنهم أتموا جزءاً عظيماً من واجبهم المقدس.

دخل نيكليودوف قاعة المحلفين ومضى ليجلس قرب النافذة.

× × ×

نعم، كانت هي كاتوشا بعينها.

أخذ نيكليودوف يستعرض في ذاكرته الظروف التي عرفها فيها.

عندما رآها لأول مرة، كان قد أنهى سنته الجامعية الثالثة. كان مقيماً عند عمّتيه يحضّر رسالته بأناة. لقد كان من عادته أن يقضي الصيف مع أمه وأخته في القصر الذي تملكه أمه، في ضواحي موسكو. لكن أخته تزوجت في هذه السنة؛ وسافرت أمه للاستشفاء بالمياه المعدنية في الخارج، ولم يستطع نيكليودوف أن يرافقها، إذ كان عليه أن يُعدّ رسالته. فقرّر إذن أن يقضي الصيف عند عمّتيه حيث ظن أنه يجد الهدوء الضروري لعمله؛ فلا شيء يمكن أن يلهيه عندهما؛ كانتا تحبانه كثيراً، وكان هو أيضاً يحبهما كثيراً، ويقدر بساطة حياتهما التي ظلت على النمط القديم.

كان إذ ذاك في حالة حماسية، حالة الشاب الذي يرى بأم عينه، لأول مرة، جمال الحياة كله وأهميتها كلها، مدركاً في الوقت نفسه خطورة المهمات الملقاة على عاتق الإنسان. في هذه السن، يظن المرء

أنه يستطيع العمل على تحقيق تلك المهمات تحقيقاً مباشراً. فينذر نفسه لذلك، وهو ممتلئ لا بالأمل وحده، بل وأيضاً باليقين في الوصول إلى أعلى درجات الكمال كما يتخيله. لقد قرأ نيكليودوف قبل بعض الوقت، آراء سبنسر وهنري جورج الاجتماعية، وكان الإنطباع الذي تلقاه قوياً، ولا سيّما أن المسائل التي عالجها هذان المؤلفان كانت تمسه مباشرة، لأن أمه كانت ملاكة لممتلكات واسعة. لم يكن لأبيه، في الحقيقة، ثروة، لكن أمه حملت عند زواجها مهراً بنحو عشرة آلاف هكتار من الأرض عاد معظمها إليه فيما بعد. وها هو ذا يكتشف، للمرة الأولى، ما في نظام الملكية الخاصة للأرض من قسوة وظلم.

ولما كان، بطبيعته، من أولئك الذين تكوّن التضحية التي تتم باسم أوامر الضمير، متعة حقيقية بالنسبة إليهم، فقد قرر أن يتنازل عن ملكيته للأرض وأن يمنح الفلاحين كل ما يملكه، أي الملكية الصغيرة التي ورثها عن أبيه. وبهذه الروح نفسها تصوّر رسالته. لقد اختار لها الموضوع التالي: «الملكية العقارية».

كانت الحياة التي عاشها. في الريف، عند عمته، منظّمة كأحسن ما يكون التنظيم. كان ينهض مبكراً جداً، منذ الساعة الثالثة صباحاً، في بعض الأحيان، ويمضي ليستحم، قبل طلوع الشمس، بماء النهر الذي يجري عند سفح الهضاب، ويعود إلى البيت العتيق خلال المروج التي لم تزل مبلّلة بالندى. وبعد الفطور، كان يشتغل في رسالته تارة، وتارة أخرى يخرج، بدلاً من أن يقرأ ويكتب، ليهيم عبر الحقول حتى الساعة الحادية عشرة. وكان يقضي قيلولته، قبل الغداء، في ركن من البستان؛ وأثناء الطعام كان يسليّ عمّته ويسحرهما بمرحه الذي

لا ينضب، ثم يمتطي جواده أو يتنزه في زورق صغير، ثم يستأنف قراءته في المساء، أو يبقى في صالة الاستقبال مع عمتيه، يتعلم منهما بالورق لعبة النجّاحة. وطالما عصاه النوم، في الليل، في ضوء القمر على الخصوص. كان فرح الشباب بالحياة، الفرح الكامن فيه يؤرّقه، فيمشي في الحديقة حتى الفجر، مرخياً العنان لأحلام يقظته.

وهكذا كانت حياته هادئة وسعيدة، طوال الشهر الأول من إقامته في منزل عمتيه ولم ينتبه قط للفتاة التي كانت تحيا عندهما نصف ربيبة ونصف وصيفة، الفتاة الرشيقة والساحرة كاتيوشا ذات العينين السوداوين. كان نيكليودوف الذي تربى في كنف أمه، ما يزال يحتفظ، وهو في التاسعة عشرة، ببراءة الطفل الطاهرة. لم يكن يحلم بالنساء إلا من أجل الزواج. أما النساء اللواتي لا يستطعن الاقتران به فما كان يعتبرهن نساء، بل مجرد مخلوقات لا تثير شعوره.

في هذا الصيف بالذات، وفي عشية عيد الصعود، جاءت لزيارة عمتيه امرأة من الجوار يصحبها أولادها، وفتى رسّام هو صديق ابنها. بعد الشاي نظّم الشابان سباقاً على مرج يمتدّ أمام المنزل، قد حُصد عشبه مؤخّراً، وقد دُعيت كاتيوشا لتشارك في اللعب، وجاء وقت كان على نيكليودوف أن يركض معها. كان يستمتع بالنظر إليها، شأنه شأن الناس جميعاً، لأنها كانت فاتنة، لكن لم يخطر بباله أن علاقات أكثر خصوصية ستقوم بينه وبينها.

كان عليهما أن يركضاً يداً بيد، حسب قواعد اللعبة. وكان على الرسّام أن يحاول اللحاق بهما. وفكر الرسّام، وهو من أصل فلاحي:

«أوه! سأجد مشقة في اللحاق بهما!» مع أنه كان سريع الجري بساقيه،
ساقى الفلاح القصيرتين، الملتويتين قليلاً، والقويتين العضلات. صاح
ليعطى إشارة البدء، وهو يضرب يداً بيد ثلاث مرات:

— واحد! اثنان، ثلاثة!

دنت كاتيوشا من نيكليودوف، وهي تبتسم، وأخذت يده بحركة
قوية، أخذتها بيدها الصغيرة، الخشنة، وانطلقت إلى اليسار، فسمع
حفيف تنورتها المنشأة.

كان نيكليودوف، هو أيضاً، سريع الجري وبما أنه كان حريصاً ألا
يدركه الرسام، فسرعان ما سبق كاتيوشا. وعندما وصل إلى أطراف
المرج، التفت ورائه، ورأى أن الرسام يلاحق الفتاة، لكنها نشطت
فأفلتت منه وأخذت تبتعد عنه أكثر فأكثر نحو اليسار. وكان هناك
أيكة من الليلك اتفقوا أنه لا يجوز الركض ورائها. لكن كاتيوشا
أسرعت إليها لكي لا تلمسك، ورأى نيكليودوف، وهو شريكها في
اللعبة، لزماً عليه أن يلحق بها.

نسي أن قرب الليلك حفرة مليئة بالقرّاص، وتعثّر فسقط فيها
وآذى يديه شوكة، وبلّله ندى المساء؛ وسرعان ما نهض وهو يضحك،
ووثب وثبة فإذا به خلف الليلك.

انطلقت كاتيوشا أمامه، دون أن تكفّ عن الضحك بعينيها
الملتومتين مثل حبتين من التوت مبلّتين، ومدّ كل منهما يده للآخر.

سأله وهي تصلح بيدها خصلاً من شعرها تفلّلت من جدائلها.

— لا بد أن شوك الليلك قد وخزك، كما أقدر؟

كانت تضحك وهي تلهث، وترفع بصرها إليه.

أجاب نيكليودوف:

— ما كنت أعلم أن ها هنا حفرة!

كان يتسم دون أن يرخي يدها من يده. وقرب وجهه من وجهها، دون أن يعلم كيف. فلم تبعد كاتيوشا عنه. شدّ يدها بيده، بقوة أكبر، وانحنى عليها وقبلها على شفتيها.

فهتفت الفتاة متعجبة:

— هيه! ماذا فعلت!

خلّصت يدها من يده، وتراجعت خطوات إلى الوراء، وهي تركض. وعندما وصلت إلى أجمة من الليلك الأبيض، قطعت غصنين مزهرين وقربتهما من وجنتيها الملتهبتين؛ ثم حركت ذراعها، وجرت لتلحق باللاعبين الآخرين.

منذ هذه اللحظة، تغيّرت العلاقات بين نيكليودوف وكاتيوشا، فقد وجد الشابان نفسيهما في وضع جميع الفتيان والفتيات الأبرياء والمتجاذبين.

كان يكفي أن تدخل كاتيوشا الغرفة، أو أن يرى نيكليودوف وزرتها البيضاء لكي يستضيء الكون، عنده، بالشَّمس، فبداله كل

شيء آنذاك أكثر إثارة وبهجة وأهمية. وغدت الحياة فرحاً بالنسبة إليه. وأحسّت، من جهتها، بالإحساس نفسه. لم يكن وجود كاتيوشا يفعل في نيكليودوف هذا الفعل فحسب بل إن مجرد التفكير في وجود كاتيوشا كان يملؤه سعادة. وكانت الفتاة تشعّ بالسعادة لمجرد تفكيرها في أنه موجود. وإذا صادف أن تلقى نيكليودوف رسالة من أمه تحمل إليه الغمّ، أو إذا لم يتقدّم في عمله، أو إذا أحسّ بنوبة من ذلك الحزن المبهّم الذي يُصيب جميع الشباب، فقد كان يكفيه أن يفكر في كاتيوشا حتى تتلاشى جميع آلامه.

كان عمل كاتيوشا، في البيت، كبيراً. لكنها كانت تعمل بسرعة. وكانت تحب أن تقرأ، في أوقات فراغها. وقد أعارها نيكليودوف روايات دستوفسكي وتورغنيف التي فرغ من قراءتها. وأعجبه «الهدوء»^(١٠) لتورغنيف، أكثر من أي شيء آخر.

كانا يتبادلان بضع كلمات، عدة مرات في اليوم، عندما يلتقيان في الممر، أو على سطح الدرج، أو في الفناء. وأحياناً، كان يلتقيان في غرفة «ماتريونا بافلوفنا»، وصيفة السيدتين العجوز. كانت كاتيوشا تنام عندها، وكان نيكليودوف يذهب أحياناً ليشرب الشاي معهما. كانت محادثاتهما بحضور ماتريونا بافلوفنا من أمتع ما يكون، في حين أنهما لو بقيا وحدهما لشقّ عليهما الحديث إذ ذاك تعبّر عيونهما بلغة أبلغ من الكلمات، وتتجمّد شفاههما، وإذا بالشابين يجتاحهما إحساس بالضيق فيبادران إلى الافتراق.

١٠. قصة لتورغنيف نشرت في سنة ١٨٥٤.

استمرت هذه العلاقات الجديدة طوال الوقت الذي بقي فيه نيكليودوف عند عمتيه. ولقد لاحظت العمتان ما بين الشابين، فأقلقهما ذلك، ورأتا من واجبهما أن يخبرا، في رسالة، أم الشاب، زوجة أخيهما. كانت العمة ماريّا ايفانوفنا تخشى أن يكون بين نيكليودوف والفتاة عشرة؛ خشية باطلة، لأن نيكليودوف أحب الفتاة حباً بريئاً كافياً لأن يعصمه من السقوط، ويعصمها هي أيضاً. لم يكن عازفاً عن امتلاكها الجسدي فحسب، بل إنه لم يكن يقبل بالتفكير في إمكان ذلك.

بيد أن مخاوف صوفيا ايفانوفنا الحاملة كانت مسوغة أكثر من غيرها. فقد كانت تخشى أن يعمد نيكليودوف، بطبعه العنيد الذي لا ينثني عن عزمه، إلى الزواج بالفتاة، إذا ما أحبها، ذات يوم بالرغم من أصلها ومن وضعها. ولو تبين نيكليودوف حبه لكاتيوشا، وحاول أحدهم إقناعه بأنه لا يستطيع أن يقرن مصيره بمصيرها، فمن المحتمل أنه، بما عُرف به من استقامة، سيتزوجها ليثبت أن ليس من داع يدعو إلى عدم الزواج. بمن يحب، مهما يكن وضعها. وبما أن عمتيه لم تكاشفاه بمخاوفهما، فقد سافر نيكليودوف وهو يظن أن عواطفه نحو كاتيوشا لا تأتي إلا من فرحهما المتبادل بالحياة. وعند سفره، جمدت كاتيوشا على سطح الدرج قرب عمتيه، وأخذت تحدّق فيه بعينيها الجميلتين السوداوين الممتلئتين بالدموع. وأدرك نيكليودوف أنه أضاع هنا شيئاً جميلاً جداً، نقيّاً جداً، شيئاً لن يلقاه بعد الآن. فانتابه حزنٌ عظيم.

همس إليها من خلف قبة صوفيا ايفانوفنا المخرّمة، وهو يهمّ بالصعود إلى العربة:

– وداعاً، يا كاتيوشا، وشكراً على كل شيء.

فردّت بصوتها الرقيق، الملائف وهي لا تكاد تمسك دموعها التي
فاضت بها عيناها:

– وداعاً، يا دميتري ايفانوفتش.

وهرعت إلى البهو تأوي إليه لتتمكن من البكاء بحرية.

× × ×

مرت ثلاث سنوات دون أن يرى نيكليودوف كاتيوشا فيها، وعندما لقيها، بعد هذه السنوات الثلاث، أثناء توقّفه في منزل عمّتيه، وهو ذاهب ليلتحق بفوجه - لأنه عُيّن، منذ فترة وجيزة، ضابطاً في الحرس - كان قد أصبح رجلاً مختلفاً كل الاختلاف عن ذاك الذي كانت له قديماً مع تلك الفتاة علاقات غرامية ساذجة.

كان، فيما مضى، شاباً أميناً، نزيهاً، مستعداً دائماً لبذل ذاته في سبيل ما يعتقد أنه الخير؛ أما الآن فلم يعد سوى أناني، ماجن، لا يُعنى بغير ملذاته؛ كان العالم، فيما مضى، يبدو له لغزاً، وكان يبذل وسعه في حل ذلك اللغز بحماسة فرحة. أما الآن فقد غدا كل ما في العالم بسيطاً وواضحاً عنده، وبدا كل شيء له خاضعاً لشروط الحياة الشخصية. كان قديماً يعدّ الإتحاد بالطبيعة وبأولئك الناس الذين عاشوا وفكروا وأحسّوا قبله، بفلاسفة الماضي وشعرائه، يعدّ ذلك مهماً وضرورياً. أما الآن فهو يعدّ الاتحاد برفاقه والتقيد بالعادات الاجتماعية لطبقته هو المهم والضروري. كان قديماً يرى في المرأة كائنًا غامضاً، ساحراً، يأتي سحرها من غموضها، أما الآن فالمرأة، كل امرأة - باستثناء أهله ونساء

أصدقائه - لها في عينيه معنى دقيق جداً ومحدد جداً: لم تعد المرأة، بالنسبة إليه، سوى أداة للمتعة التي شعر بها والتي أعجبت به بين جميع المتع. كان قديماً لا يحتاج إلى المال: كان لا يكاد ينفق ثلث النفقة التي تعطيها إياه أمه؛ كان بوسعه أن يتخلى عن تركه والده وأن يمنحها الفقراء؛ أما الآن فلم يكن يكفيه ألف وخمسمائة روبل يتسلمها من أمه؛ وقد جرت بين الأم وابنها بهذا الصدد استفسارات مزعجة.

إن هذا التحول الشديد العمق الذي تمّ فيه، جاء ببساطة من أنه كفّ عن قيادة نفسه، وأنه أخذ يتبع الآخرين. ذلك أن حياته وهو يقود نفسه، كانت تضطّره إلى اتخاذ قرارات، لا في منفعة شخصه الأناني المنقطع للذة وحدها، بل ضد مصالحه الخاصة، على الأغلب. أما حياته وهو منقاد للآخرين، فلم تكن توجهه إلى أن يقرّر شيئاً، لأن كل شيء مقرر سلفاً، ولمنفعته الشخصية. وأكثر من ذلك، فهو حين كان يقود نفسه، كان يتعرّض دائماً لاستنكار الناس، بينما كان واثقاً من أنه سيحظى بشيء الناس الذين يعاشرهم عندما يتبع الآخرين.

وهكذا فعندما كان مهتماً بالحقيقة، وبمصير الإنسان، وبالغنى والفقير، حكم كل الذين يحيطون به على اهتماماته بأنها مخافية للعقل، ومضحكة في الغالب. وكانت أمه وعمته يسمينه بشيء من التهكم الرقيق: «فيلسوفنا العزيز». أما عندما أخذ يقرأ الروايات ويروي القصص المأجنة، ويحكى التفاصيل حول الهزليات التي يمثلها المسرح الفرنسي، كان الجميع يثنون عليه ويجدونّه ساحراً. وفي الوقت الذي اعتقد فيه أن من واجبه التخفيف من حاجاته والسير بها إلى الاعتدال فلبس سترة من السنة السابقة، وامتنع عن شرب الخمر، اتهمه

الجميع بأنه يسعى إلى التفرّد، من جراء الغرور. أما عندما كان ينفق على ملذاته أكثر مما عنده من المال، عندما كان يصيد، أو يقيم المآدب الفخمة، كان الجميع يستحسنون عمله. ولما أراد أن يزين مكتبه زينة فخمة باذخة، بادر كل واحد إلى إهدائه الأشياء الثمينة. وعندما التزم العفة وأعرب عن نيته في البقاء عفيفاً حتى الزواج، ارتعدت أسرته كلها خوفاً على صحته؛ وأمه، أمه التي كانت مجرد فكرة زواجه بكاتيوشا تملؤها رعباً، ابتهجت حين علمت أنه انتزع سيدة فرنسية من احد رفاقه. وأخيراً، عندما وهب نيكليودوف الفلاحين الملكية الصغيرة التي جاءت من أبيه، لأنه كان يرى امتلاك الأرض ظلماً، أربع قراره أسرته. وقد جرّ عليه ذلك لوم من حوله وسخريتهم التي لا نهاية لها: وظلوا يردّدون عليه: إن الهبة التي قدمها للفلاحين أفقرتهم بدلاً من أن تغنيهم. ذلك أنهم أنشؤوا في قريتهم ثلاث حانات. وأقلعوا عن العمل تماماً. لكن عندما دخل نيكليودوف الحرس، وفتح له المجتمع الأرستقراطي ذراعيه، فأخذ ينفق الكثير من المال حتى رأت أمه نفسها مضطرة إلى اقتطاع المال من رأسمالها، غضبت الأميرة العجوز قليلاً، لكنها اغتبطت في أعماق قلبها، لأنها رأت من الطبيعي ومن العدل أن ينال الشباب نصيبهم من اللهو؛ فضلاً عما شعرت به من حبور وهي ترى ابنها يتلهى مع أولئك الصحاب اللامعين.

في الأوقات الأولى، كافح نيكليودوف هذه الطريقة الجديدة من الحياة. وكان هذا الكفاح صعباً جداً عليه، لأن كل ما عدّه خيراً، عندما كان سيد نفسه، اعتبره الآخرون شراً ومخالفاً للعقل. وبالعكس، كل ما بدا له شراً بدا لمن حوله ممتازاً بحيث استسلم نيكليودوف، في نهاية الأمر، وكفّ عن كونه سيداً لوجوده، متبنياً وجود الآخرين. وقد شقّ

عليه هذا التنازل في البدء، لكن هذا الانطباع الأول لم يدم طويلاً. وبدأ يدخن، ويشرب الخمر، وانتهى به الأمر إلى الإحساس بعزاء حقيقي لدى تفكيره بأن ليس عليه بعد الآن أن يشغل باله بآراء الآخرين.

منذ ذلك الوقت، استسلم كلياً، بما أوتي من طبيعة متأججة، لهذه الحياة الجديدة التي يحياها كل من حوله. ولقد خنق في نفسه ذلك الصوت الذي كان يطلب شيئاً مختلفاً، خنقاً تاماً. هذا التغير حدث فيه لدى وصوله إلى بطرسبرج؛ وبلغ غايته لدى دخوله فوج الحرس.

الحياة العسكرية، على العموم، تُفسد أخلاق الرجال. فهي تعودهم الحياة الفارغة، أو على الأصح، هي تحرمهم ذلك النشاط الطبيعي جداً والنافع جداً، بالنسبة إلى الكائن البشري، وهي تعفيهم من الواجبات العامة، وتمجّد، بالمقابل، قيماً اصطلاحية مثل شرف الفوج، والبزة، والعَلَم، في حين أن سلطة البعض التي لا حدود لها يقابلها خضوع عبودي للآخرين.

لكن عندما يتلاقى فساد العسكرية التي تُبيح العنف والقتل، والفساد الذي يحدثه الغنى ومصاحبة العائلة الإمبراطورية، كما هو الحال بالنسبة إلى أفواج الحرس المختارة، والمؤلفة فقط من الضباط الأغنياء والنبلاء، عند ذاك سيدفع هذا الفساد الناس إلى درجة من الأنانية لا يمكن، في الحقيقة، تجاوزها.

ألقي نيكليدوف نفسه في هذه الظروف، منذ أن دخل الحياة العسكرية، وبدأ يحيا كما يحيا رفاقه.

كان همّه الوحيد أن يرتدي بزة رائعة، يدع لغيره شؤون صيانتها

في أحسن حال؛ ويغطي رأسه بعمرة، ويحمل أسلحة ينظفها غيره، ويمتطي جواداً مروّضاً أبدع ترويض، تعتني به أيد أخرى غير يديه. كانت مهمته اليومية تقوم على مشاركته ومشاركة رفّاقه، في الاستعراضات، في التدريب، في أن يُجري حصانه، وأن يلوّح بسيفه، وأن يطلق طلقات نارية، وأن يعلم الرّماية، كانت هذه هي مشاغله الوحيدة التي كانت تثني عليها أشهر الشخصيات، من الشباب والشيوخ، ومن ضمنهم الامبراطور وحاشيته الذين لم يكونوا يلقون المدح والثناء جزافاً.

كان هناك شغل مهم آخر هو الاجتماع في نوادي الضباط أو المطاعم الفاخرة، وإنفاق المال الذي يعلم الله من أين يأتي. المسرح، الحفلات الراقصة، النساء، ثم الجياد، والمسابقة، وسباق الخيل، والنفقات المجنونة، والخمر، والقمار، والنساء...

هذا النمط من الحياة يؤذي العسكريين إيذاءً شديداً، لأن المدني، في أعماقه، يخجل من أن يحيا بهذه الطريقة؛ وهم يتباهون ويفخرون بها، ولا سيما في أوقات الحروب. كذلك كانت حال نيكليودوف الذي دخل الجيش قبل إعلان الحرب على تركيا.

«نحن مستعدون للتضحية بحياتنا، ومن ثم، فإن الحياة التي نحيها، هذه الحياة الخلية والمرحة ليست مُغْتَفَرَة فحسب، بل لا بد منها لنا. ولذلك سيكون من الجنون أن نحيا حياة أخرى!»

هكذا كان نيكليودوف يفكّر. كان يغتبط وهو يحسّ بأنه انعتق من جميع القيود الأخلاقية التي فرضها على نفسه في شبابه.

كان متباهياً بأنانيته، كان بهذه العقليّة، عندما عاد، بعد ثلاث سنوات، إلى منزل عمتيه.

بواعث شتى دفعت نيكليودوف إلى التوقف في منزل عمته. أولاً إن أملاكهما تقع على الطريق الذي ينبغي أن يسلكه ليلتحق بفوجه، ثم إن عمته طالما طلبتا إليه أن يمرّ بهما في طريقه، وأخيراً، حرص هو نفسه على رؤية كاتيوشا. ولعله كان يبيّت، مسبقاً، قصداً شريراً تجاه الفتاة، قصداً يمليه عليه الرجل الحديد الذي وُلد فيه. على كل حال، لم يكن هو ليعترف بذلك أمام نفسه، وكان يظن أن لا هدف له إلا أن يزور المكان الذي سَعَدَ فيه معها، وأن يلقاها، ويلقى عمته الطيبتين واللطيفتين جداً، وإن كانتا مضحكتين قليلاً، اللتين أحاطتاه دائماً بجوٍّ من الحنان والإعجاب.

وصل في الأيام الأخيرة من آذار، صباح الجمعة المقدسة، إبان ذوبان الجليد، في المطر المدرار؛ بحيث أحسّ وهو يدنو من البيت أنه مبلّل وأنه يرتعد من البرد لكنه كان قوياً متين البنية، شأنه في هذه الفترة من حياته.

فكّر وهو يلجّ الفناء المملوء بالثلج الذائب، ويشاهد البيت القديم الذي عرفه أحسن معرفة: «بشرط أن تكون ماتزال هنا!» وقال في

نفسه: «ليتني أستطيع أن أراها تظهر، هنا، على العتبة، لتستقبلني».

على العتبة ظهرت خادمتان حافيتان، شمّرتا تنورتيهما، وحملتا سطل ماء. ولعلهما كانتا منشغلتين بتنظيف البلاط أمام كاتيوشا فلم يبد لها أثر. رأى نيكليودوف فقط العجوز تيحون يُقبل عليه، والخادم بوزرته، ولعله كان منشغلاً هو أيضاً ببعض التنظيفات. وفي قاعة الإستقبال استقبلته صوفيا ايفانوفنا وهي ترتدي الحرير وتضع على رأسها قبعة مخرّمة هتفت صوفيا ايفانوفنا وهي تعانقه.

— آه لطف منك أنك أتيت العمة ماشا متوعةكة قليلاً. لقد تعبت هذا الصباح، في الكنيسة. ذهبنا لكي نعرف.

قال نيكليودوف وهو يقبل يدها:

— مرحباً، يا عمة صوفيا. اعذريني، لقد بللتك!

— أسرع وبدّل ثيابك في غرفتك! أنت مبلل. وها قد طرّ شاربك!... كاتيوشا! كاتيوشا! أسرعي وهيئي له الشاي!

أجابها من الممر صوت رخم:

— في الحال.

أخذ قلب نيكليودوف يخفق بفرح. كانت هي! إنها ماتزال هنا! وفي اللحظة نفسها، ظهرت الشمس بين الغيوم.

سار نيكليودوف بمرح في إثر تيحون الذي أوصله إلى الغرفة نفسها

التي أقام فيها قديماً. كان بودّه أن يسأل تيخون العجوز عن كاتيوشا، كيف حالها، وكيف صارت، وهل هي مخطوبة. لكن تيخون كان شديد الاحترام له، وفاضلاً في آن واحد، وكان يصرّ إصراراً شديداً على أن يصب الماء على يدي نيكليودوف، حتّى إنّ هذا لم يجرؤ على سؤاله واكتفى بأن سألّه عن أخبار أحفاده، وعن الحصان المسن، وعن كلب الحراسة «بولكان». الجميع كانوا أحياء، وبخير، ماعدا «بولكان» الذي أصيب بداء الكلب في السنة السابقة.

كان نيكليودوف يبدّل ثيابه، عندما سمع وَقَعَ خطأ خفيفة في الممر. وطُرق الباب، فتعرّف نيكليودوف الخطوة وأسلوب طرق الباب؛ هي وحدها كانت تخطو بهذه الخطوة، هي وحدها كانت تطرق بهذا الأسلوب! وأسرع فألقى على كتفيه معطفه المبلّل بالماء، وصاح «ادخلي!».

كانت هي، كاتيوشا، كعهده بها من قبل، بل أجمل من ذي قبل، وأعظم فتنة. كانت عيناها السوداوان تلتمعان بابتسامة بريئة كما التمتعنا فيما مضى، وكانت تلبس وزرة بيضاء، نظيفة جداً، كما لبستها قديماً جاءت تحمل إليه، من عند عمّتيه، صابونة معطرة نُزَعَ غلافها قبل حين، ومنشفتين، إحداهما كبيرة من القماش الناعم، والأخرى من القطن الخشن. كانت الصابونة، والمنشفتان، وكاتيوشا نفسها، كل ذلك كان نظيفاً، غضاً، لم تمسسه يد، ساحراً.

قالت بغير جهد:

— طاب مقدّمك، يا دميتري ايغانوفتش!

وغطت الحمرة وجهها كله.

— أحبيك!... أحبيك!... أنتِ بخير؟

لم يدرِ إن كان ينبغي أن يخاطبها بضمير المفرد أم بضمير الجمع
فخاطبها مرة بهذا ومرة بذاك. وأحسّ هو أيضاً بأنه يحمّر خجلاً.

فأجابت وهي تضع الصابونة على الطاولة، وتنشر المنشفتين على
مسند أحد الكراسي:

— بكل تأكيد، الحمد لله! أرسلت لك عمّاك صابونك المفضّل،
بالورد.

فلاحظ تيوخون:

— دميتري ايفانوفتش حمل أيضاً صابونه معه!

قال ذلك وهو يشير بأصبعه إلى حقيبة السفر ذات الأقفال الفضية
التي فتحها نيكليودوف على الطاولة. كانت الحقيبة مملوءة بطائفة من
القماقم والفراشي والمساحيق والعطور، وكل ما يلزم للزينة.

قال نيكليودوف وقد أحسّ أن كل شيء في قلبه عاد فجأة واضحاً،
رقيقاً، كما كان من قبل:

— قولي لعمتي: إنني أشكرهما! ما أسعدني بالمجيء!

كان جوابها الابتسام، ثم خرجت من الغرفة.

إن العمتين اللتين تولعتا بنيكليودوف دائماً، رحّبتا به هذه المرة أكثر من العادة. ذلك أن دميتري ماض إلى الحرب، وقد يُجرح، وقد يُقتل. كانت هذه الفكرة تهزّ العمتين هزاً.

كان نيكليودوف ينوي، في البداية، ألا يمكث سوى يوم واحد. لكنه ما إن رأى كاتيوشا، حتى قرر أن يقضي بقربها عيد الفصح. فأبرق إلى رفيقه وصديقه «سكونبوك»، الذي كان قد ضرب له موعداً في أوديسا، يرجوه أن يلاقيه بدلاً من ذلك، في منزل عمتيه.

منذ اللحظة الأولى التي لقي نيكليودوف فيها كاتيوشا أحسّ بالانطباعات القديمة تستيقظ فيه. لم يكن يستطيع، كما لم يستطع من قبل، أن ينظر إلى وزرة الفتاة البيضاء دون انفعال؛ ولم يكن يستطيع أن يسمع صوتها وضحكها ووقع خطواتها دون لذة؛ لم يكن يستطيع أن يتلقّى نظرة عينيها السوداوين بلا مبالاة، ولا سيما عندما تبتسم، ولا أن يرها تحمّر في حضوره، دون أن يضطرب. أحسّ، مرة أخرى، أنه عاشق، لكن ليس بنفس الطريقة القديمة؛ الآن أدرك أنه عاشق، وفرح بذلك. وكان يعلم أيضاً، وهو يحاول أن يصرف ذهنه عن هذا الحب، ما قوام هذا الحب، وما النتيجة التي سيؤدي إليها.

كان في نيكليودوف، كما في أي كائن بشري، رجلان اثنان. هناك، من جهة، الرجل الأخلاقي الذي لا يرى خيره إلا في خير الآخرين؛ وهناك الرجل الحيوان الذي لا يبحث إلا عن راحته الفردية،

وهو مستعد لأن يضحى من أجلها بخير العالم كلها. وفي تلك الحالة من الجنون الأناني التي ألقى نفسه فيها، تغلب الحيوان إلى حدّ خنق الإنسان الآخر كلياً. لكنه عندما لقي كاتيوشا واستيقظت فيه عواطفه القديمة نحوها، أطلّ الإنسان الأخلاقي برأسه وطالب بحقوقه، بحيث نشب في أعماقه صراع دائم، طوال هذا اليوم واليوم الذي تلاه. كان يعلم أن من واجبه أن يسافر، وأنه سيسيء التصرف إذا مدّد إقامته عند عمته. لا يمكن أن ينتج عن هذه الإقامة شيء حسن، لكنه كان يشعر بكثير من المتعة والسعادة حتى أنه أبى أن يصغي إلى صوت الضمير. فبقي.

في مساء السبت، عشية عيد الفصح، جاء الكاهن والشماس وخادم الكنيسة، في زلاجة، ليحتفلوا بقدّاس الليل. وأكّدوا أنهم عانوا صعوبات جمّة لقطع ثلاثة الفراسخ من الطريق الموحلة التي تفصل الكنيسة عن ملك الآنستين. حضر نيكليودوف الصلاة بصحبة عمته والخدم. ولم يستطع أن يحوّل نظره عن كاتيوشا، الواقفة قرب الباب، ويدها المبخرة. وبعد أن تبادل مع عمته ومع الكاهن ثلاث قبلات، جرياً على التقاليد، أراد أن يعود إلى غرفته، عندما سمع في الممر صوت ماتريونا بافلوفنا، وصيفة ماريا ايفانوفنا. كانت تنهياً للذهاب إلى الكنيسة مع كاتيوشا من أجل مباركة حلوى العيد بخبزه.

قال نيكليودوف في نفسه «سأذهب، أنا أيضاً!»

لم يكن ليخطر ببال نيكليودوف أن يسافر في العربة أو الزلاجة. لقد كان يحسّ، في بيت عمته، كأنه في بيته، فأمر بسرّج الحصان

القديم. وبدلاً من أن يذهب إلى سريره، ارتدى بزّته الجميلة وبنطال الركوب، ومعطفه وامتطى ذلك الجواد السمين، المتثاقل، الذي لم يكفّ عن الصهيل، في الليل، وقصد إلى الكنيسة، عبر الحقول الموحلة، المغطاة بالثلج.

× × ×

لقد قُدِّرَ لصلاة الليل هذه أن تظلَّ، بالنسبة إلى نيكليودوف، ذكرى من أعذب الذكريات. وانطباعاً من أقوى الانطباعات.

عندما دلف أخيراً إلى فناء الكنيسة، بعد مسيرة طويلة في الظلمات التي لا ينيرها إلا بياض الثلج، من مكان إلى آخر، كان القدّاس قد بدأ.

وإذ عرف الفلاحون أنه ابن أخي ماريّا إيفانوفنا، اصطحبوه إلى مكان جاف يستطيع أن يترجّل فيه عن جواده. وبعد أن اقتادوا حصانه، فتحوا له باب الكنيسة التي غصّت بالناس.

كان الرّجال يقفون إلى اليمين. الكبار منهم يرتدون سترًا مخيطة في البيت، ويتنعلون صنادل من قشر البتولة، ويلقّون سوقهم بعصابات من القماش الأبيض؛ والشباب يرتدون سترًا من القماش الجديد، وحول أجسادهم وشاخ من لون زاه، وفي أقدامهم جزمات ضخمة. وإلى اليسار وقفت النساء، وقد غطين رؤوسهن بمناديل من الحرير، ولبسن قمصاناً من المخمل بأكمام قرمزية اللون، وتنانير زرقاء وخضراء وحمراء، ومن كل الألوان، واحتذين أحذية محدّدة، ضخمة. أما

الطاعنات في السن منهن فقد انزوين في صدر الكنيسة، متضعات،
بمناديلهن البيضاء وسترهن الرمادية، وبينهن وبين النساء الأصغر سناً
منهن اصطف الأولاد بشباب العيد، وشعورهم لامعة من الدهن.

كان الرجال يرسمون باستمرار علامة الصليب؛ وكانوا يسجدون
وهم يردون إلى الورا شعورهم الطويلة. أما النساء، ولا سيما العجائز
منهن فكنّ يحدّقن في الأيقونة التي تحيط بها الشموع. ويشدّدن
بقوة أصابعهن المطوية على الجبهة ثم الصدر ثم الكتفين بينما تهمس
شفاهن بالصلاة. وكان الأولاد يقلّدون الكبار. فيصلّون بحماسة،
ولاسيما حين كانوا يحسّون أن عيون أهلهم قد حطّت عليهم. كان
الفاصل الأيقوني المذهب يتلأأ بالنور وسط هذه الشموع الكبيرة
المحاطة بأوراق مذهبة. وكان الشمعدان، هو أيضاً، مزداناً بالشموع.
ومن الجوقتين تعالت الأنغام الفرحة، يرتلها مرتّلون متطوعون،
ويختلط فيها الهدير الجهير بنديّ الأطفال الحاد.

تقدم نيكليودوف في الكنيسة. كانت الأرستقراطية، تقف في
الوسط. كان هناك ملاك وزوجته وابنه الذي لبس ثياب البحارة؛
ومفوّض الشرطة، والمسؤول عن البرق، وتاجر ينتعل جزمة طويلة
الساقين، وإلى يمين المنبر الكنسي، خلف امرأة الملاك، وقفت ماتريوفا
بافلوفنا، وهي ترتدي ثوباً حريراً بلون متموّج، وقد تغطّى كتفها
بشال مخطّط. وكانت كاتيوشا بجانبها بفستان أبيض مثني الصدر يلفّه
زنار أزرق. وفي شعرها الأسود عقدة حمراء، وقد امتلأت عيناها
بالإنشاده.

كان كل شيء مصطبغاً بصبغة العيد، كان كل شيء مهيباً، فرحاً وجمالاً: الكاهن بحلّته الفضية المزدانة بصليب ذهبي، الشماس وخادم الكنيسة بجبتيهما المطرزتين بالفضة المذهبة، التراتيل الفرحة التي ينشدها مرتلون هواة، وتلك الطريقة التي يرفع بها راعي القديس، في كل لحظة، شمعة ثلاثية، مزدانة بالزهور، لمباركة الحضور، وأخيراً، الطريقة التي يردّد بها الجميع، في كل لحظة: «المسيح قام! المسيح قام!». كان كل ذلك جميلاً، وأجمل ما فيه كانت كاتيوشا بفستانها الأبيض، وزنارها الأزرق، والربطة الحمراء في شعرها الأسود.

أحس نيكليودوف، دون أن يلتفت، أنها كانت تراه. ومرّ بقربها ليذهب إلى الهيكل. لم يكن لديه ما يقوله لها. فخطر بباله في اللحظة نفسها، أن يهمس إليها، في طريقه.

— عمّتي تنبئك أن العشاء لن يكون إلا بعد القدّاس الثاني.

انتشر دُمّ الشباب على وجه كاتيوشا. كما كان شأنها دائماً عندما تشاهد نيكليودوف. حطّت عيناها السوداء وان عليه، وهما تضحكان من السعادة البريئة، وأجابت وهي تبسم.

— أعلمُ ذلك.

في هذه اللحظة، مر الشماس الذي كان يطوف في الجمهور ليجمع الصدقة، قرب كاتيوشا، ومسّها بجبته، دون أن يراها. أراد أن يتنحى عن طريق نيكليودوف، احتراماً له. فدهش الأمير حين رأى أن خادم الكنيسة لم يفهم أن كل ما يجري في الكنيسة، بل وكل ما يجري في

العالم بأسره، لا يجري إلا من أجل كاتيوشا. هي وحدها التي لا يجوز أن يتغافل عنها أحد، لأنها هي مركز الكون. ومن أجلها يتلأأ ذهب الفاصل الإيقوني، ومن أجلها تلتهب شموع الشمعدان، ومن أجلها تتصاعد تلك الأغاني البهيجة: «فِضْحُ الرب! افرحوا به!». كل ما كان على الأرض من خير وجمال، فمن أجل كاتيوشا كان، ولا شك أنها تُدرك ذلك. تلك كانت مشاعر نيكليودوف وهو يتأمل مفاتيح جسدها التي أبرز خطوطها الفستان الأبيض، وذلك الوجه الذي غمره الفرح الخاشع، والذي كانت ملامحه تقول: إن كل ما يغرّد فيه لابد أن يغرّد فيها أيضاً.

خرج نيكليودوف من الكنيسة، في الفترة التي تفصل القدّاس الأول عن الثاني. وفسح الناس له الطريق وهم يحيّونه. وعرفه بعضهم، وبعضهم تساءل: «من هذا؟» توقّف في فناء الكنيسة: أحاط به المتسوّلون، فوزّع عليهم كل ما عثر عليه في جيوبه من نقود. قبل أن يهبط الدرج.

انزاح ظلام الليل، لكن الشمس لم تطلع بعد. وخرج المصلّون واجتاحوا فناء الكنيسة، لكن كاتيوشا لم تطلّ. فعاد نيكليودوف أدراجه لينتظرها.

واصل الجمهور خروجه. كان البلاط يرن من تحت مسامير الأحذية. وجاء شيخ راعش الرأس، هو طاهي ماريا ايفانوفنا، فأوقف نيكليودوف ليقبّله ثلاث قبلات ثم قدّمت له زوجته، وهي عجوز

قصيرة مغضنة الوجه، بيضة مصبوغة باللون الأصفر الزعفراني^(١١)
أخرجتها من منديل. ومن خلفهما دنا فلاح شاب، قوي البنية،
يرتدي سترة جديدة مع زنار أخضر، وهتف، وفي عينيه ابتسامة بريئة:

— المسيح قام!

وطوّق عنقه بيديه، وقبله ثلاثاً على الفم، مدغداً وجهه بلحيته
القصيرة المجعدة، وغامراً إياه برائحة الفلاح.

وبعد أن استقبل نيكليودوف قبلات الفرح، وتلقى البيضة
المصبوغة بلون كستنائي، رأى ماتريونا بافلوفنا بثوبها المخملي يتبعها
ذلك الرأس العزيز، الصغير، الأسود الذي تزينه شريطة حمراء.

شاهدته كاتيوشا، على الفور، عبر الجمهور الذي كان يفصلها
عنه، ورآها تحمر مرة أخرى. فلما وصلت إلى الفناء توقفت لتمنح
الفقراء بعض النقود، وكان بينهم بئس له في موضع الأنف جرح
أحمر، كبير، دنا منها. تناولت الفتاة شيئاً من فستانها وأعطته إياه،
وتقدم منها فقبلته ثلاث مرات دون أن تبدو عليها أية علامة من
علامات الاشمئزاز. وبينما هي تقبل ذلك المتسوّل، التقت عيناها
بعيني نيكليودوف، وكأنها تسأله: «أكان حسناً ما فعلته؟».

— «لا شك، يا عزيزتي، كل ما تفعلينه حسن وجميل، وأنا أحبك».

١١. جرت العادة، لدى أبناء الشعب الروسي، أن يتبادلوا البيضات المصبوغة في يوم
عيد الفصح، وأن يقبل بعضهم بعضاً ثلاث مرات وأن يخاطب الواحد الآخر قائلاً:
المسيح قام، فجيئه: حقاً قام».

هبطت المرأتان درجات السلم وبادر نيكليودوف إلى لقائهما، ولكنه لم يكن في نيته أن يهنئهما بالعيد مقبلاً لهما، بل قد أراد فقط أن يتقرب منهما.

هتفت ماتريونا بافلوفنا مع إشارة من رأسها تصحبها ابتسامة، وبلهجة توحى أن الجميع سواسية في هذا اليوم:

— المسيح قام!

وبعد أن مسحت فمها بمنديلها، مدّت شفيتها للشاب.

أجاب نيكليودوف وهو يقبلها:

— حقاً قام!

وألقى نظرة على كاتيوشا اتجهت إليه الفتاة وقد غمرتها حمرة الخجل:

— المسيح قام، يا دميتري ايفانوفتش!

فأجاب:

حقاً قام!

وتبادلا قبلتين، ثم توقفا كأنهما يتساءلان إن كان ينبغي أن يستمرّا. وكأنهما اتفقا على أنه لا بد من ذلك، فتبادلا الثالثة وكانا يتسلمان.

استخبر نيكليودوف:

— ألن تذهبا إلى الكاهن؟

أجابت كاتيوشا وهي تتنفس تنفساً عميقاً، عملء رئيها، وكأنها
تفعل ذلك بعد جهد لا يقل مشقة:

— لا، يا دميتري ايفانوفتش، سننتظر هنا..

كانت تنظر إليه، في عينيه، بعينها الخجلتين، البريئتين والريقيتين.

في الحب بين الرجل والمرأة، تأتي دائماً لحظة يبلغ فيها ذلك الحب
ذروته، ولا يبقى فيه شيء متعقل، ولا شيء شهواني، ويغدو اتحاداً تاماً
بين كائنين في كائن واحد. تلك اللحظة المباركة عرفها نيكليودوف
في ليلة الفصح هذه.

وعندما كان يحاول الآن، وهو جالس في قاعة مداولات المحلفين،
أن يتذكّر جميع الظروف التي رأى فيها كاتيوشا، انبعثت تلك
الدقيقة، ماحية كل ما سواها: ذلك الرأس الصغير الأسود الممشوط
بعناية، بشريطه الأحمر، ذلك الفستان الأبيض بصدرة المثني، ذلك
القوام النحيل، وذلك الصدر الذي لم يكد يتكوّن بعد، وتلك الحمرة،
وتانك العينان الملتمعتان، والتعبير الظاهر عن النقاء في شخص كاتيوشا
كله، وأيضاً عن الحب الطاهر والعميق، لا لنيكليودوف وحده، لكن
لكل ما هو جميل في الكون. لقد أحبّت كل شيء، لا الجمال وحده،
بل كل ما هو موجود، حتى ذلك المتسوّل المشوّه الذي قبلته. هذا
الحب، أحسّه فيها، في ليلة الفصح تلك، لأنه أحسّه في نفسه. لقد
صهرهما ذلك الحب كليهما في كائن واحد.

آه! ليتـه استطاع أن يقف عند هذه العاطفة! كل ما كان بيننا من
فضاعة إنما جاء بعد ليلة الفصح هذه!».«.

كذلك كان يفكر، وهو جالس إلى النافذة في قاعة المحلفين.

× × ×

تعشى نيكليودوف عند عمتيه، بعد عودته من الكنيسة. ولكي يستريح من تعبهِ، شرب عدة كؤوس من الفودكا والبيبز، جرياً على عادة تعودها في فوجه. واستلقى على فراشه، دون أن يخلع ملابسه. ومالبث أن نام. وأيقظه قرعٌ على الباب. ومن طريقة القرع، عرف أنها هي. وثبَّ عن السرير وهو يفرك عينيه، وسأل:

— أهذا أنتِ، كاتوشا؟ ادخلي!

شقت الباب:

— أنت مدعو لتناول الطعام، يا دميتري ايفانوفتش!

كانت ترتدي الفستان الأبيض ذاته، لكن بدون الربطة الحمراء في شعرها. كان وجهها يتهلل، وهي تنظر إليه في عينيه، وكأنها قد أنبأته نبأ مفرح إلى أبعد الحدود. فأجاب:

— أنا آت، على الفور.

لبث لحظة، دون أن تقول شيئاً. وفجأة، انطلق نيكليودوف

نحوها. لكنها استدارت بحركة خفيفة، في اللحظة نفسها، وفرت إلى الممر.

قال نيكليودوف في نفسه: «ما أغباني لأني لم أمسك بها»! وخرج من غرفته ليلحق بها.

لم يكن هو نفسه يعلم ما الذي يريده منها، وخيّل إليه أنه كان ينبغي له أن يفعل، عند دخولها غرفته، ما يفعله الناس جميعاً في مثل هذه المناسبة، وما لم يفعله هو. وصاح:

— كاتيوشا، قفي!

فالتفت إليه وسألته وهي تتوقف عن الجري:

— ماذا تريد؟

— لا شيء.. لكن...

تحامل على نفسه، وتذكر كيف يتصرف جميع مَنْ في طبقته، فطوق خصرها بذراعه.

توقفت تماماً، وحدثت فيه في عينيه.

قالت وقد توردت من الخجل وأوشكت أن تبكي.

— ليس هذا حسناً، يا دميتري إيفانوفتش، ليس حسناً.

ثم أبعدت بيدها القوية ذراعه التي طوقتها.

أرعى نيكليودوف يده، وأحس فجأة لا بالضيق والخجل فحسب، بل بالاشمئزاز من ذاته أيضاً. كان ينبغي عليه أن يؤمن بنفسه في هذه اللحظة الحاسمة. لكنه لم يدرك أن ذلك الخجل وهذا الاشمئزاز كانا تعبيراً عن أعماق نفسه. على العكس، لقد تصور أن غباوته هي التي كانت تتكلم فيه، وأن واجبه أن يفعل ما يفعله الناس جميعاً.

ومرة أخرى، خفّ في أثر كاتيوشا، ومرة أخرى طوّق خصرها واختلس قبلة على عنقها.

لم يكن بين هذه القبلة والقبلات التي بادلها إياها في المرتين السابقتين من شيء مشترك: كانت المرة الأولى خلف أيكة الليلك والمرة الثانية في الكنيسة، في صباح هذا اليوم بعينه. كان في قبلة هذه اللحظة الحاضرة شيء رهيب. وأحست هي بذلك.

صاحت بصوت مرتعب:

— ماذا تفعل؟

ثم وثبت وهربت بسرعة كبيرة.

مضى نيكليودوف إلى قاعة الطعام، وكانت عمّاته، بثياب العيد، والطبيب وجارة لهما، قد جلسوا إلى المائدة وبدؤوا بالمقبلات. جرى كل شيء كعادته، لكن العاصفة كانت تهدر في قلب نيكليودوف لم يكن يفهم شيئاً مما يقال له، ولم يكن يحسن الجواب، ولم يكن يفكر إلا بكاتيوشا، متذكراً إحساسه بتلك القبلة التي اختلسها منها وفجأة، سمع وقع خطواتها في الممر. ومنذ هذه اللحظة، لم يعد يسمع شيئاً

آخر. وعندما دخلت قاعة الطعام، لم يرفع بصره إليها، لكنه أحس بكل كيانه أنها هنا، وتحامل على نفسه لكي لا ينظر إليها.

بعد العشاء، رجع إلى غرفته. وأخذ يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً، وقد هزّه الإنفعال، مصيحاً السمع إلى كل ما في المنزل من أصوات، منتظراً وقع خطوات كاتيوشا. إن الحيوان الذي كان يحيا فيه، لم يرفع رأسه، فقط، في هذه اللحظة، بل لقد داس كلياً بقدميه الكائن المحب والأمين الذي كانه نيكليودوف أثناء إقامته الأولى عند عمته، ذلك الكائن الذي كان مائلاً، صباح هذا اليوم بالذات في الكنيسة. الحيوان وحده هو الذي يسيطر منذ الآن فيه.

لكن. مع أنه لم يكفّ عن ترصد الفتاة، إلا أنه لم يفلح، مرة واحدة طوال النهار، في الإنفراد بها، وكان يتحاشاها، في الظاهر في المساء، اضطرت إلى دخول غرفة مجاورة للغرفة التي يشغلها. فقد قبل الطبيب البقاء إلى اليوم التالي، وأمرت كاتيوشا بإعداد الغرفة التي سيقضي ليلته فيها. وعندما سمع نيكليودوف وقع خطواتها، انسل إلى الغرفة التي دخلتها، وهو يمشي بلا وضوء، حابساً نفسه كمن يهم بارتكاب جريمة.

كانت كاتيوشا تدخل يديها في غطاء الوسادة، لكي تدخل الوسادة فيه عندما سمعت الباب يفتح، فالتفتت وتبسمت، لكن ابتسامتها لم تكن تلك الابتسامة المطمئنة والفرحة، وإنما كانت ابتسامة شاكية، مروعة، كأنها تقول لنيكليودوف، إن ما يصنعه هنا سيء، ولا ينبغي له أن يتصرف على هذا النحو. والحقيقة، أن نيكليودوف أحجم، أثناء

دقيقة؛ كاد ينشب، مرة أخرى الصراع بين الرجلين فيه. وسمع، لآخر مرة، وعلى نحو خافت، صوت حبه الحقيقي لها، يحدثه «عنها»، وعن عواطفه «نحوها»، وعن حياتها «هي». لكن صوتاً آخر ما لبث أن هتف به: «خذ حذرک، ستدع اللذة تفوتک!» فتقدم نحو الفتاة بخطوات ثابتة، في حين استبدت به عاطفة حيوانية لا سبيل إلى صدها.

أجلسها على السرير، وهو يضمها ضمة عصبية، وارتمى قربها.

قالت بصوت متوسل:

— دميتري ايفانوفتش، يا عزيزي دميتري ايفانوفتش، أرجوك،
دعني!

وأضافت وهي تتخلص منه بغتة:

— إنني أسمع ماتريوفا بافلوفنا، إنها آتية!

والواقع، أن خطوات كانت تقترب.

همس إليها نيكليودوف:

— اسمعي! سأذهب إلى لقائك في الليل. ستكونين وحدك، أليس
كذلك؟

قالت:

— لكن ماذا أصابك؟ لماذا؟ لا، لا، ليس هذا حسناً!

كانت شفتاها تتكلمان، لكن كيانهما كله الذي ترعزع وانفعل كان يكذب أقوالها.

دخلت ماتريونا بافلوفنا الغرفة. كانت تحمل غطاءً للسريـر، وبعد أن رمت نيكليودوف بنظرة اللوم له، أخذت توبخ كاتيوشا لأنها جاءت بغطاء لا يليق. خرج نيكليودوف دون أن ينبس بكلمة؛ لم يكن يشعر بالخجل، لكنه أدرك من ملامح وجه ماتريونا بافلوفنا أنها تلومه. وكان يعلم أنها على حق في أن تلومه، لأن ما يفعله شر، لكن الغريزة الوحشية التي حلت فيه محل حبه القديم لكاتيوشا، سيطرت عليه، وصمّت أذنيه عن كل نداء. كان يعلم الآن كيف يشبع هذه الغريزة، وقد انصرف بتفكيره إلى البحث عن الوسائل التي توصله إلى ذلك.

لم يكـد يستقر، طوال المساء. فتارة يدخل غرفة عمتيه، وتارة يعود إلى غرفته، أو يخرج إلى درج المدخل. انصرف تفكيره إلى شيء واحد: أن يلقي كاتيوشا، وحدها. لكنها كانت تتحاشاه، وكانت ماتريونا بافلوفنا تبذل وسعها لكي لا تغيب كاتيوشا عن نظرها.

× × ×

هكذا انقضى المساء، وجاء الليل. ذهب الطبيب لينام، وأوت
الآنستان إلى حجرتهما. وكان نيكليودوف يعلم أن ماتريونا بافلوفنا
في هذه اللحظة، عند عمتيه، وأنها تساعدتهما على خلع ملابسهما.
ولابد أن كاتيوشا وحدها في غرفة الخدمة. خرج مرة أخرى إلى درج
المدخل. كانت الليلة مظلمة، رطبة، دافئة؛ وكان الهواء كله ممتلئاً
بهذا الضباب الأبيض الذي يحدثه، في الربيع، ذوبان الثلوج. ومن
النهر حتى مائه قدم من البيت موافياً صوتاً غريباً. صوت الجليد الذي
يتقصف.

هبط نيكليودوف من درج المدخل، وتقدم نحو نافذة غرفة الخدمة،
وهو يخبسط في نقع الثلج الذائب. كان قلبه يخفق بقوة حتى إنه سمع
خفقانه؛ وكان تنفسه يتوقف حيناً، وينفثه حيناً آخر في نفس ثقيل.

كانت غرفة الخدمة مضاءة بضوء مرتعش ينبعث من مصباح صغير.
كانت كاتيوشا جالسة إلى النافذة، وعيناها شاخصتان إلى الفراغ.
ظل نيكليودوف يتأملها، وهو جامد، وهو في شوق إلى معرفة ما
ستفعله. لزمت الفتاة الوضع ذاته، أثناء بضع دقائق، ثم رفعت عينيها،
وابتسمت، وأومأت برأسها، كأنها تحدث نفسها وتوجه إليها اللوم.

وأخيراً، هزت رأسها، ووضعت يديها على الطاولة وأخذت تحديق في الفراغ، مرة أخرى.

ظل هنا يتأملها، مصغياً، بالرغم منه، إلى خفقات قلبه وصوت النهر الغريب. هناك، كان العمل ذاته مستمراً دون انقطاع: كانت تسمع، في الضباب ضروب الهدير، والتقصفات، والانهيارات، وخشخشة شظايا الجليد، كأنها الزجاج الذي يتحطم.

كان نيكليودوف، أمام النافذة، يترصد على وجه الفتاة المتعب، الساهم، آثار اعتمال آخر مستمر فيها؛ لقد أخذته الشفقة عليها، لكن الغريب أن هذه الشفقة قد أذكت رغبته في امتلاكها، وهي رغبة اجتاحتها، منذ هذه اللحظة، اجتياحاً تاماً.

قرع النافذة، فارتعشت كاتوشا بكل جسدها، وكأنها ترتعش بتأثير صدمة كهربائية. وارتسم الفرع على قسماط وجهها. هبت واثبة، وانطلقت إلى النافذة وألصقت وجهها بالزجاج. لم تختف ملامح الرعب، عندما وضعت يديها فوق عينيها لتبصر على نحو أفضل، فعرفت أن الطارق هو نيكليودوف. كان على وجهها تعبير من الرصانة لم يعرفه الشاب فيها من قبل. ولم تبتسم إلا عندما ابتسم لها، خضوعاً له، لأنه رأى أن قلبها ليس فيه ابتسام، ليس فيه سوى الهلع.

أشار إليها بيده لكي يدفعها إلى ملاقاته في الفناء. هزت رأسها؛ لا، لن تخرج! فألصق وجهه مرة أخرى على الزجاج، يريد أن يصرخ بها لتخرج في اللحظة نفسها، استدارت نحو الباب. لا بد أن أحداً يناديها.

ابتعد نيكليودوف. لقد تكاثف الضباب حتى تعذرت رؤيا النوافذ على بعد خمس خطوات. ولم يكن الناظر يميز منها سوى كتلة سوداء ضخمة ينبعث منها ضياء المصباح، ضياء أحمر بدا متسعاً. وعند النهر، استمر التقصف ذاته، والهدير ذاته، وتشظي الجليد ذاته. وخلال الضباب صاح الديك بغتة، فجاءته الديكة في الفناء؛ وديوك أخرى، في الريف، أبعد من تلك تنادت تناديات متناوبة انتهت بأن اختلطت في صيحة واحدة. وفي الأرجاء المحيطة، وفيما عدا عمل النهر، كان كل شيء صامتاً.

بعد أن خطا نيكليودوف خطوات جيئة وذهاباً، أمام البيت، اقترب مجدداً من النافذة. رأى، على ضوء المصباح، كاتيوشا التي عادت إلى مكانها عند الطاولة. لكن، ما كاد يدنو حتى رفعت بصرها نحو النافذة، طرق النافذة وعلى الفور، خرجت من غرفة الخدمة، دون أن ترى: من الطارق، سمع الباب يصصر وهو يفتح، وسمعه ينغلق. فهرع لملاقاتها أمام درج المدخل. وسرعان ما احتضنها بين ذراعيه، دون أن يتفوه بكلمة. شدّت نفسها إليه، وقدمت شفتيها لقبلاته، رافعة رأسها، لبثا هنا، واقفين أمام زاوية البيت، في موضع جاف نسبياً، أحسّ نيكليودوف بتعاظم الرغبة في امتلاكها. لكنهما سمعا فجأة صرير الباب وصوت ماتريونا بافلوفنا الغاضب يصرخ، في الليل: «كاتيوشا!» فانتزعت نفسها من ذراعيه لتجري إلى غرفة الخدمة. وسمع إغلاق القفل. وعاد كل شيء إلى الصمت، وانطفأ ضياء المصباح الأحمر. لم يبق سوى الضباب وتقصف الجليد.

دنا نيكليودوف من النافذة: لم يستطع أن يميز شيئاً. قرع: لم يجب

أحد عاد إلى البيت عن طريق الدرج الكبير، وانكفاً إلى غرفته، لكنه لم ينم البتّة.

بعد نصف ساعة، نزع جزمته، وسار في الممر، إلى أن بلغ الغرفة التي تنام فيها كاتيوشا. وعند مروره أمام غرفة ماتريونا بافلوفنا سمع الخادمة العجوز تشخر بهدوء، وكان يهّم بمتابعة طريقه، عندما أخذت ماتريونا بافلوفنا فجأة تسعل وتتقلب في فراشها، فتجمّد نيكليودوف وحبس أنفاسه. وعندما سمع مرة أخرى، شخير العجوز، تقدّم وهو يحرس ألا يصير خشب الأرض. وأخيراً، ألقى نفسه أمام باب كاتيوشا. لا صوت لأنفاسها، من الداخل؛ فلعلها لم تكن نائمة. وما كاد يهمس: «كاتيوشا»، حتى اندفعت إلى الباب، وطلبت إليه، بلهجة غاضبة، على ما بدا له، أن ينصرف. قالت له:

– فيم تفكر؟ أهذا ممكن؟ سوف تستيقظ عمتاك.

لكن كل شيء فيها كان يصرخ: «أنا لك»، أنا كلي لك».

ولم يسمع نيكليودوف غير ذلك.

– أرجوك، افتحي لي، لدقيقة واحدة فقط، أتوسل إليك!

كان يتكلم دون أن يفكر فيما يقول. وكان صمت، ثم سمع نيكليودوف حفيف يد تتلمّس القفل، في العتبة. وانفتح الباب، ودخل نيكليودوف الغرفة. أمسك بذراعيه الفتاة التي غطاها قميص من الكتان الغليظ تاركاً ذراعيها عاريتين، وحملها إلى السرير.

همست:

– آه! ماذا تفعل؟

ضمها إليه، دون أن يصغي إلى كلماتها.

كانت تقول وهي تشد نفسها إليه:

— هذا سيء، دعني!

عندما تركها وهي مرتجفة وصامتة، لا ترد بشيء على ما كان يقوله، خرج إلى درج المدخل حيث توقف محاولاً إدراك معنى ما قد جرى.

غدا الليل، في الخارج، أقل ظلاماً. وفي النهر البعيد، تزايد هدير تحطم الجليد، وانضاف إليه الآن، خرير الماء، وتراجع الضباب، فأتاح للهلal أن تسرّب من خلاله تسرباً غير واضح.

سأل نيكليودوف نفسه:

— أهي نعمة عظيمة، أم نقمة كبيرة، ما وقع لي؟ ياه! الأمر كذلك دائماً، بالنسبة إلى جميع الناس.

على هذا الأساس، عاد إلى غرفته، واضطجع، وأغفى.

× × ×

في اليوم التالي، يوم عيد الفصح، لحق «شونبوك» بصديقه نيكليودوف في منزل عمتيه. كان جميلاً، لامعاً، مرحاً، فتن العانسين، بالمعنى الحرفي للكلمة؛ فتنهما بفصاحته وأدبه وسخائه، وبالود الذي أظهره لدميتري. على أن تبذيره، وإن أعجبهما بدا لهما مبالغاً فيه، مع ذلك. لقد دهشتا حين رأتاه يعطي متسولاً أعمى روبلا؛ ويوزع، دفعة واحدة، خمسة عشر روبلا مكافأة للخدم؛ وعندما رأتاه يمزق دون تردد منديلاً من الحرير المطرز يساوي أكثر من روبل، ليضمده به ساقاً جريحة للكلبة الصغيرة «سوزيت»، صرختا محتجتين. لم تر العمتان الفاضلتان شيئاً كهذا قط، لكنهما كانتا تجهلان أن «شونبوك» هذا مدين بمائتي ألف روبل، وهو دين قرر ألا يسده أبداً. وهكذا، فلا أهمية لخمس وعشرين روبلا، زادت أم نقصت.

على كل حال، لم يمكث شونبوك سوى يوم واحد في منزل عمتي نيكليودوف. فقد سافر الصديقان، منذ المساء؛ لم يكن بوسعهما أن يمددا إقامتهما، لأنهما بلغا الحد الأقصى للمهلة التي من حقهما التصرف بها.

كان قلب نيكليودوف، طوال هذا اليوم، منشغلاً انشغالاً كلياً بذكرى الليلة الماضية، وقد تصادمت فيه عاطفتان متناقضتان: كان الشاب، من جهة يطرب لذكرى اللذة التي جناها - وهي لذة أدنى كثيراً مما قدر - وكان يحس من جهة ثانية بأنه ارتكب عملاً شائناً، وأن من واجبه أن يتداركه، لا في مصلحة كاتيوشا، بل في مصلحته هو نفسه.

لأن نيكليودوف، في هذه الحالة من الأنانية العاتية التي كان فيها، لم يكن تفكيره ينصرف إلا لذاته، كان يسائل نفسه ماذا سيقول الناس عنه لو عرفوا الطريقة التي تصرف بها إزاء الفتاة، لكنه لم يفكر البتة فيما ستحس به هذه الفتاة، ولا فيما قد يصيبها.

كان متلهفاً، مثلاً، ليعلم أن كان شونبوك قد اكتشف علاقته بكاتيوشا، وهو ما يرضي حبه لذاته.

قال له صديقه منذ أن شاهد الفتاة:

- من أجل هذا إذن تولعت بعمتيك فجأة!. الواقع أنني لو كنت مكانك لمددت إقامتي! جمال حقيقي!

كان نيكليودوف يرى أيضاً، أنه وإن يكن شاقاً عليه وجوب السفر قبل أن يُشبع شهواته، فقد كان لهذا الواجب مزية كبرى: وهو أن يفصم، دفعة واحدة، علاقات يصعب الإبقاء عليها. وكان يرى من واجبه أن يعطي كاتيوشا بعض المال، لا ليمد إليها يد العون، بل لأن هذا هو ما يفعل كل رجل شريف في مثل هذه الحالة. قرر أن يعطيها مبلغاً يتناسب مع وضعها ووضعها.

انتظرها بعد العشاء في الممرّ، فلمّا رآته احمرّت وأرادت أن تهرب، مشيرة بغمزة من عينها إلى باب غرفة ماتريونا الذي ظل مشقوقاً.

قال لها وهو يفرك بأصابعه المغلف الذي أودعه ورقة بمائة روبل:
- أردت أن أسلم عليك. فيها أنا...

كشفت نيّته، فارتدّت، وقطبت بين حاجبيها، وهزّت رأسها، وردّت يد الشاب الممدودة.

همس، وهو يدسّ المغلف في فتحة صدرها:

- هيا، خذي!

ثم قطّب بين حاجبيه هو أيضاً، وتأوه كأنه قد جرح، وجرى ليحبس نفسه في غرفته. وتمشّى زمناً طويلاً، جيئة وذهاباً، وهو ينتهد، كانت ذكرى هذه الحادثة تعذّبه وكأنها جرحته جرحاً حقيقياً. لكن ما العمل؟ الناس كلهم يتصرفون على هذا النحو... ألم يتصرف شونوك كذلك إزاء تلك المربية التي حدّثه عنها؟ والعم غريشا؟ وأبوه، وهو يسكن الريف، حين جاءه ولد غير شرعي؟ وبما أن الناس، جميعاً يتصرفون بهذه الطريقة، فعليه أن يفعل مثل ما فعلوا!

كان يسعى إلى طمأننة نفسه، بفضل هذه المحاكمات، دون أن يفلح في ذلك. كانت ذكرى لقائه الأخير لكاتيوشا تلهب ضميره.

في أعماقه، في أعماق زوايا قلبه، كان يحس أنه تصرف تصرفاً شديداً في الحقارة والنذالة والوحشية حتى أنه لم يفقد فقط حقه في الحكم على الآخرين، بل وفي مواجهة العالم أيضاً، وكيف يمكن أن يعتبر نفسه

رجلاً شريفاً، ذا أخلاقية سامية وكريمة؟ هذه الفكرة السامية عن نفسه كانت ضرورية لكي يواصل حياته الفرحة الطائشة. ولذلك صمم ألا يفكر في هذه المغامرة بعد الآن.

إن الحياة الجديدة التي انفتحت أمامه، والسفر والرفاق والحرب، كل ذلك سهل عليه النسيان، وكلّما مر الزمن ازداد نسيانه بحيث انتهى حقاً بنسيان كل شيء تماماً.

على أن قلبه انقبض، مرة واحدة، وذلك عندما عاد إلى منزل عمتيه، بعد عدة شهور من عودته من الحرب، وعلم أن كاتيوشا ليست في البيت، لأنها هجرت البيت بعد سفره بقليل، وأنها قد وضعت طفلاً، وأنها سقطت، على حد قول العانسين، إلى حضيض الفساد. أما الطفل الذي وضعته فقد يكون ابنه، إذا ما حكم على الأمور بحسب التواريخ، وقد لا يكون ابنه، فعندما روت عمتاه القصة أضافتا أن كاتيوشا، قبل أن تتركهما، انحلت أخلاقها انحلالاً تاماً: كانت فاجرة. شريرة كامها. هذا الحكم الذي أصدرته العمتان أعجب نيكليودوف؛ إذ قد وجد نفسه بعد ذلك، مبرأ ومغفوراً له. ومع ذلك، كان في نيته، أول الأمر، أن يبحث عن كاتيوشا والطفل، لكن بما أن ذكرى سلوكه ظلت، في أعماقه، تؤلمه وتخجله، فإنه لم يحاول، فعلاً، أن يسعى أي مسعى من المساعي التي انتواها. وفي النهاية، نسي خطيئته نسياناً أعمق، وكف عن التفكير فيها.

وإذا بمصادفة خارقة تعيد كل شيء إلى ذاكرته الآن، وتجبره على أن يعي من جديد أنايته ووحشيته ودناءته التي أتاح له أن يحيا

حياة هادئة، طوال ثماني سنوات، وضميره مثقل بمثل هذه الخطيئة!
لكن هيهات أن يقبل الاعتراف لنفسه بذلك: كان همه الوحيد هو
خطر الإكتشاف وذلك حين تعلن كاتيوشا أو محاميها كل شيء للناس
فيهينانه في نظر الجميع.

× × ×

كان نيكليودوف في هذه الحالة الذهنية، وهو جالس إلى النافذة، في قاعة المحلفين، يصغي إلى دوي أحاديث زملائه من حوله. كان يدخن لفافة بعد لفافة، في انتظار استئناف الجلسة.

كان التاجر المرح واضح التعاطف مع زميله، المرحوم سميلكوف فأثنى على أسلوبه في اللهو:

- هيه! كان يلهو، الأخ، على الطريقة السييرية! ولم يكن غيباً، مع هذا! فقد اختار في الواقع، فتاة ممشوقة.

كان رئيس المحلفين يعرض الإعتبارات التي قد يُستنتج منها أن كل شيء منوط بالخبرة. وكان بطرس غير اسيموفتش يمازح الوكيل التجاري اليهودي ويقهقهان. وكان نيكليودوف يجيب باقتضاب شديد عن الأسئلة التي تُلقى عليه، ولم يكن يرغب إلا في شيء واحد: أن يدعوه وشأنه.

عندما دخل الحاجب، بمشيته الحاجلة، قاعة المحلفين ليستدعي

المحلفين، أحس نيكليودوف بالرعب، وكأنه لم يُدْعَ ليكون حاكماً، بل كأنه يُقتاد ليكون هو المحاكم. لقد أدرك منذ الآن، في أعماق قلبه، أنه بائس، غير جدير بأن يواجه الناس. على أن قوة العادة كانت مستحكمة فيه حتى أنه صعد إلى المنصة بخطا وثيقة، وبلغ مقعده، في الصف الأول، بجانب الرئيس؛ ثم وضع بهدوء ساقاً على ساق وأخذ يعبث بنظارته. أما المتهمون الذين كانوا قد أخرجوا من القاعة فإنهم أُعيدوا إليها الآن.

ظهرت، في المحكمة، وجوه جديدة، وجوه الشهود. ولاحظ نيكليودوف أن كاتيوشا كانت تلقي نظرات متكررة على سيدة بدينة ترتدي ثياباً فخمة من الحرير والجوخ، وتلبس على رأسها قبعة عريضة ذات أشرطة مسرفة الطول، وهي عارية الذراعين حتى المرفقين. كانت هذه السيدة، الجالسة في صف الشهود الأول، تمسك بحقيبة يد من أعظم الحقائب أناقة. لم يطل الأمر بنيكليودوف حتى يعلم من هي. لقد كانت صاحبة بيت البغاء الذي عملت فيه، آخر مرة، ماسلوفاً.

لم تلبث أن شرعت المحكمة في الاستماع إلى الشهود. سئلوا عن كنانهم وأسمائهم ومهنتهم ودينهم، وهلم جراً. وعندما سئلوا إن كانوا يريدون أن يدلوا بشهاداتهم بعد حلف اليمين أم لا، ظهر الكاهن العجوز من جديد على المنصة. واتجه إلى الصورة المقدسة وهو يجرد قدميه جراً، ويحرك بيده صليبه الذهبي الذي يتدلى على صدره، وحلف الشهود والخبير اليمين. وبدأ، كعادته دائماً، مشبعاً باليقين من أنه يؤدي مهمة في أعلى مراتب الجدية والنفع.

بعد أن انتهت هذه المراسم، أخرج الرئيس جميع الشهود ما عدا الشاهدة البدينة، السيدة «كيثايف» مديرة محل البغاء. دُعيت السيدة «كيثايف» إلى أن تدلي بكل ما تعلمه فيما يتعلق بقضية التسميم. عرضت هذه السيدة عرضاً دقيقاً ومنهجياً كل ما كانت تعلمه، وهي تبسم ابتسامة متكلفة، وتخفّض قبعتها عند كل جملة، وتكلم الروسية بلهجة ألمانية شديدة البروز. روت كيف أن خادم الفندق سيمون، الذي كانت تعرفه، جاءها يطلب بغياً لتاجر سبييري ثري. فأرسلت «ليوباشا». وبعد بعض الوقت، عادت ليوباشا بصحبة التاجر.

قالت بتغنج ترافقه ابتسامة خفيفة:

— كان «في نشوة» وظل يشرب عندنا، ويقدم الشراب للبنات، وبما أن نقوده نفدت أرسل ليوباشا التي كانت «المفضلة» عنده، إلى غرفته في الفندق.

وعندما قالت الكلمات الأخيرة استدارت لتتطلع إلى المتهم، وخيل إلى نيكليدوف أن ماسلوفاً عند سماعها هذه الكلمات. فأحس بإحساس غريب، لا سبيل إلى تحديده، تمتاز فيه الشفقة بالاشمئزاز، حين رأى تلك الابتسامة الكريهة.

سأل السيدة «كيثايف» محامي المتهم، وكان شاباً خجولاً، أسرعت إليه حمرة الخجل؛ وكان يستعد لدخول القضاء، وقد عينته المحكمة للدفاع عن ماسلوف:

— هل تريد الشهادة أن تقول لنا: ما رأيها في ماسلوف؟

أجابت السيدة كيتايف:

— رأيي فيها ممتاز. فهي شابة متعلمة، حسنة الأناقة، تربت في عائلة نبيلة، حتى أنها تكتب الفرنسية! قد تسرف في الشراب أحياناً، لكنني لم أرها قط تنسى نفسها دقيقة واحدة. إنها شابة رائعة حقاً!

ظلت كاتيوشا محدقة في السيدة كيتايف، ثم حولتهما نحو المحلفين، ولاسيما نحو نيكليودوف الذي لاحظ أن وجهها ارتسمت عليه في اللحظة نفسها، أمارات الرصانة، وشيء من القسوة. وتعلقت عيناها، الغريتا النظرة، بعيني نيكليودوف، زمناً طويلاً، وهو لم يستطع، بالرغم من ذعره، أن يرفع عينيه عن هاتين العينين السوداوين اللتين حطتا عليه. لقد تذكر تلك الليلة الحاسمة، وتقصف الجليد في النهر، والضباب، وذلك الهلال على شكل منجل مقلوب، وهو لم يبد إلا في الصباح لينير شيئاً مظلماً ورهيباً. هاتان العينان السوداوان اللتان تسمرتا عليه، ذكرتاه، رغماً عنه، بذلك الشيء المظلم والرهيب. وفكر «لقد عرفتني!» وعلى نحو آلي، تصاغر في مقعده، انتظاراً للضربة.

لكنها لم تتعرفه. وتنهدت تنهداً خفيفاً، وحولت مرة أخرى، عينيهما نحو الرئيس. تنهد نيكليودوف بدوره. وفكر: «آه! أتمنى لو ينتهي ذلك كله».

كان يعاني ذلك الإحساس الذي طالما عاناه في الصيد، عندما كان يضطر إلى الإجهاز على طائر جريح: إنه الإحساس بالاشمئزاز

والشفقة والندم. الطائر الجريح يتخبط في كيس الصياد، والصياد يرثي له، ويتردد، ويشمئز منه، في الوقت نفسه، ويتمنى أن يُجهز عليه في أسرع وقت.

مثل هذا المزيج من العواطف هو ما كان يحسه نيكليدوف في هذه الساعة، وهو يصغي إلى شهادة الشهود.

x x x

طالت القضية، وكأنها طالت بقصد الإساءة. فبعد استجواب الشهود والخير واحداً واحداً، وبعد أن طرح وكيل النيابة والمحامون، حسب العادة المتبعة، طائفة من الأسئلة التافهة، بكثير من الرزانة، دعا الرئيس المحلفين إلى الاطلاع على الأدلة الثبوتية التي كانت عبارة عما يقرب من عشرة قماقم، ومصفاة استخدمت في تحليل السم، وخاتم ماسي ضخّم، خاتم كبير جداً لا بد أنه زان سبابة حجمها غير طبيعي. جميع هذه الأشياء كانت مختومة بالشمع الأحمر ومصحوبة ببطاقة.

كان المحلفون يستعدّون للنهوض من مقاعدهم، من أجل معاينة هذه الأشياء، عندما استوى وكيل النيابة في جلسته وطلب أن تُتلى أولاً، نتائج التحقيق الطبي الذي أُجري على جثة المتوفى «سميكلوف».

وكان الرئيس الذي بذل قصارى جهده لتعجيل القضية، كي يلقي صاحبتة السويسرية بأسرع ما يمكن، يعلم جيداً أن تلاوة هذه الوثائق لن ينتج عنها سوى ضجر الجميع. وكان يعلم أن وكيل النيابة يطلب

تلاوتها لأن له الحق في تلاوتها لا غير. ولم يكن بالإمكان معارضته في ذلك، فاضطّر الرئيس إلى أن يأمر بتلاوتها. تناول الكاتب الأوراق وشرع يقرأ بصوت لاثع، حزين:

— من الفحص الخارجي للجنة ينتج مايلي:

١- طول قامة «فبرايربونت سميكلوف» متران وثلاثة سنتمترات (همس التاجر في أذن نيكليودوف: «يا له من رجل شديد القوى»)

٢- عمره في حدود الأربعين، إذا قدرنا عمره بحسب ما يوحى به الفحص الخارجي.

٣- كانت اللجنة، أثناء الفحص، منتفخة.

٤- كانت عروقه مائلة إلى الخضرة، تنقّطها بقع سوداء.

٥- كان الجلد منسلخاً عن الجسم كله، ومتدلياً في مواضع كثيرة.

٦- كان الشعر الأحمر الشديد الكثافة ينفصل عن الجلد لدى أدنى ملامسة للأصبع.

٧- كانت العينان خارجتين من محجريهما وكانت القرنية باهتة.

— كان يسيل من المنخرين والأذنين والفم قيحٌ مزبدٌ وثن.

— لم يكن للجنة رقبة تقريباً، نتيجة انتفاخ الوجه والصدر.

وهكذا عرض التقرير وصف جميع التفاصيل المسجلة بشأن اللجنة

المنتفخة، جثة سميكولوف المرح الذي انتهر فرصة إقامته في المدينة ليلهو على هواه، في أربع صفحات وسبعة وعشرين بنداً. تزايد إحساس نيكليودوف بالاشمئزاز، وكان إحساساً عاتياً لا سبيل إلى رده، على أثر هذه التلاوة المأتمية. فحياة كاتيوشا؛ والقبح السائل من منخري التاجر، وهاتان العينان الخارجتان من محجريهما، والطريقة التي تصرف بها قديماً إزاء الفتاة، كل ذلك كان كأنما يشكل خليطاً حقيراً ومثيراً للغثيان.

عندما انتهت أخيراً تلاوة التقرير، تنهد الرئيس ارتياحاً وهو يرفع رأسه. لكن كاتب المحكمة ما لبث أن شرع في قراءة الوثيقة الثانية، وهي محضر التشريح الداخلي للجنة. خفض الرئيس رأسه، واتكأ بمرقبه على الطاولة، ووضع يديه على عينيه وأغمضهما. وكان التاجر المرح، جار نيكليودوف، يبذل جهوداً مضنية ليطرد النعاس، ويخفض رأسه إلى الأمام، بين الحين والآخر، بحركة مباغطة. حتى المتهمون أنفسهم والدرك الذين يحرسونهم جمدوا في أماكنهم واستولى عليهم خمول النعاس.

كانت نتيجة الفحص الداخلي:

١- كان جلد غطاء الجمجمة منفصل عن العظام، دون أي أثر للنزف.

٢- كانت عظام الجمجمة بحجمها الطبيعي، وسليمة.

٣- على غلاف النخاع كانت تُرى بقعتان بحجم أربعة إبهامات، الخ.

ثم تلا ثلاث عشرة فقرة من النوع نفسه.

وجاءت بعد ذلك أسماء شهود التحقيق، وتوقيعاتهم، وأخيراً استنتاجات الطبيب الخبير الذي صرّح بما يلي: يُستدل من التغيرات الحادثة في المعدة والأمعاء والكليتين أن سميكلوف مات -على الأرجح- بسبب تجرعه السم الذي ابتلعه مع الكونياك. أما ما اسم ذلك السم بالضبط فمن المستحيل معرفته، وفرضية تجرع السم مع الخمر قامت على أساس وجود كمية كبيرة من الكونياك في معدة المتوفّي.

همس في أذن نيكليودوف جاره التاجر، مرة أخرى، وقد استيقظ فجأة:

- من الواضح أنه كان يُسرف في الشراب.

استغرقت قراءة هذه المحاضر نحواً من ساعة لكن وكيل النيابة لم يكن ليكتفي بذلك. ذلك أن الرئيس قال وهو يلتفت إلى وكيل النيابة، بعد أن انتهى كاتب المحكمة من تلاوة استنتاجات الطبيب الخبير:

- أعتقد أنه لا فائدة من قراءة تحليل الأحشاء.

فاحتج ممثل النيابة بلهجة قاسية:

- عفواً، أطلب أن تتم قراءتها.

ومال ميلاً خفيفاً على جانبه، وأوحت نبرة صوته أن من حقه أن يطلب تلاوتها، وأنه لن يتنازل عن ذلك إطلاقاً، وأن الرفض سيكون سبباً لتمييز الدعوى.

أحسن القاضي ذو اللحية الطويلة بالإنزعاج مرة أخرى من جراء
وجع معدته. وسأل الرئيس:

- ولم هذه التلاوة؟ لن يؤدي ذلك إلا إلى تضييع الوقت!

أما القاضي ذو النظارة الذهبية فلم يكن يقول شيئاً. كان ينظر
أمامه، متجهماً الوجه، كرجل لا ينتظر شيئاً صالحاً، لا من زوجته على
الخصوص، ولا سيما من الحياة على العموم.

وبدأت القراءة:

- في ١٥ شباط... ١٨٨٠، أنا الموقع أدناه، بأمر من التفتيش
الطبي، وبموجب المادة...

استأنف كاتب المحكمة قراءته بلهجة رصينة وبصوت عال، كأنه
يريد أن يتغلب على نعاسه ونعاس القاعة بأسرها.

- باشرنا، بحضور مندوب التفتيش الطبي المذكور أعلاه، تحليل
الأحشاء التالية:

١- الرئة اليمنى والقلب (المحفوظان في وعاء زجاجي من ست
ليبرات).

٢- محتوى المعدة (المحفوظ في وعاء زجاجي من ست ليبرات).

٣- المعدة (المحفوظة في وعاء من ست ليبرات).

٤- الكبد والطحال والكليتان (المحفوظة في وعاء زجاجي من
ثلاث ليبرات).

٥- الأمعاء (المحفوظة في وعاء زجاجي من ست ليترات).

في هذا الموضع من التلاوة، همس الرئيس بشيء في أذن مساعده الأول، ثم في أذن مساعده الثاني. ولما تلقى الرد بالإيجاب أشار إلى كاتب المحكمة بالكفّ عن القراءة، وأعلن:

- تقدّر المحكمة أنه لا طائل من هذه القراءة.

وما لبث كاتب المحكمة أن سكت وأخذ يجمع أوراق المحضر. في حين أخذ وكيل النيابة يخربش ملاحظة، وقد بدا عليه الغضب. وأعلن الرئيس:

- يستطيع السادة المحلفون، منذ الآن، الاطلاع على أدلة الإثبات.

نهض عدد غير قليل من المحلفين. وبدأ عليهم أنهم كانوا منشغلين بما سيفعلونه بأيديهم أثناء التفتيش، فاقربوا من الطاولة حيث فحصوا واحداً وراء واحد، الخاتم والآنية الزجاجية والمصفاة. وأقدم التاجر على إدخال الخاتم في أحد أصابعه. وقال لنيكليودوف وهو يعود إلى مكانه:

- انظر! ما أضخم هذه الأصبع!

وأضاف، ولعله أعجب بفكرة العملاق الذي كانه التاجر الميت:

- أصبغ مثل خيار مخلّلة حقيقية.

× × ×

انتهى فحص أدلة الإثبات، وأعلن الرئيس انتهاء التحقيق القضائي، وأعطى الكلمة وكيل النيابة، دون أن يتوقف، لفرط عجلته في تصريح القضية. وقال في نفسه إن وكيل النيابة بشر هو أيضاً، رغم كل شيء، ولا بد أن يكون مستعجلاً أيضاً في الذهاب كي يدخن ويأكل، ولا شك أنه سيفسق على الحضور. لكن وكيل النيابة لم يرحم أحداً، لا نفسه ولا الآخرين. كان هذا القاضي غاية في الجهل والغباء، وكان من سوء حظه أن تخرج من المعهد بوسام ذهبي. ونال جائزة، فيما بعد، في الجامعة على رسالته عن «العبوديات في القانون الروماني». كان إذن مزهواً بنفسه، مغترّاً بها إلى أقصى حد - وهو ما أسهم فيه أيضاً حظوته لدى النساء - ومن ثم فإن حماقته الفطرية بلغت حدوداً غير عادية.

عندما أعطاه الرئيس الكلام، وقف على مهل، مبرزاً للعيان أناقة شخصه ببرزته المطرزة بالذهب. طرح يديه على الطاولة، وحنى رأسه، ونقل نظرة عريضة في الحضور، ماعدا المتهمين، وبدأ خطبته، لقد تسنى له، أثناء قراءة المحاضر، أن يهيئ مرافعته.

-القضية المطروحة عليكم لتحكموا فيها، أيها السادة المحلفون،

تكون - إذا أمكنني استخدام هذا التعبير - نموذجاً لجريمة متميزة أوضح تميز.

كان ينبغي أن يكون لمرافعة وكيل النيابة، في تصوّره، قيمة عامة لتغدو شبيهة بالخطب الشهيرة التي وطّدت مجد المحامين العظام. صحيح أن جمهور المستمعين، في هذا اليوم، كان مكوناً فقط من الخياطات والطاهيات والخوذيين والحمالين، لكن هذا الاعتبار لم يكن ليردّه عن قصده. فكبار المحامين أنفسهم بدؤوا أمام مستمعين من هذا النوع. ولقد وضع وكيل النيابة لنفسه مبدأ وهو أن يرتفع إلى قمة المسائل»، مستخلصاً الدلالة البسيكولوجية من كل جريمة، ومعرياً الجرح الاجتماعي الذي كانت الجريمة تعبيراً عنه.

- أنتم ترون أمامكم، أيها السادة المحلفون، جريمة نموذجية خاصة بأواخر قرننا، جريمة تحمل في ثناياها جميع السمات النوعية لهذه المسيرة الخاصة، مسيرة الإنحلال الأخلاقي الذي يصيب اليوم عناصر كثيرة من مجتمعنا.

تكلم وكيل النيابة طويلاً بهذه اللهجة. ووضع نصب عينيه شيئين، على الخصوص: الأول أن يذكر كل واقعة من الوقائع المتعلقة بالقضية، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة؛ والثاني، أن يحرص، بخاصة، على ألا يتوقف لحظة، وأن يتكلم بحيث يتدفق خطابه دون انقطاع، لمدة ساعة وربع على الأقل. على أنه اضطر إلى التوقف، مرة واحدة، لأنه فقد سلك محابته؛ لكنه ما إن أفلح في استئناف انطلاسته حتى عوّض هذا الاضطراب الموقت بمزيد من البلاغة. كان يعبر عن نفسه تارة

بصوت خافت مَلَق، متميلاً من قدم إلى أخرى، محدّقاً بالمحلّفين، وتارة أخرى، بلهجة رصينة وطبيعية، مستعيناً بإضباراته، وفي بعض الأحيان كان صوته يغدو كصوت المُلهمين، فيهدر هديرًا وهو يلتفت إلى الجمهور والمحامين. المتهمون وحدهم الذين سَمّروا أعينهم فيه، لم ينلهم الشرف بأن يُلقى عليهم نظرة واحدة. كانت مراقبته مليئة بالصيغ الجديدة، الصيغ الشائعة في حلّقه، والتي كانت تُعدّ وماتزال تُعدّ آخر ما وصل إليه العلم. كانت تدور حول الوراثة، والإجرام الفطري، ولومبروزو، وتارد، والتطور، والصراع من أجل الحياة، وشاركو، وانحطاط النوع.

كان التاجر سميكلوف، حسب تعريف وكيل النيابة، نموذجاً أصيلاً للروسي البدائي الذي غدا، بتأثير ثقته وكرمه، فريسة لكائنات منحرفة أشد انحراف، سقط بين أيديهما، وكان سيمون كارتنكين نتاجاً وراثياً للعبودية القديمة، ورجلاً بلا علم ولا مبادئ ولا دين. وكانت ايفيميا بوتشكوف، خليلته، ضحية الوراثة: مظهرها الجسماني، وطابعها الأخلاقي ينطويان على جميع أمارات انحطاط النوع. لكن العامل الأساسي للجريمة كان «ماسلوف» التي تمثّل نموذج الانحطاط الاجتماعي المعاصر، في أحط أشكاله.

وواصل وكيل النيابة كلامه دون أن يلتفت إليها:

— هذه المخلوقة حظيت، على عكس شركائها في الجريمة، بنعمة التعلم. لقد سمعنا، قبل قليل، شهادة مديرة الدار التي تشتغل فيها، والتي قالت إن المتهم لا تعرف القراءة والكتابة فحسب، بل إنها

تعرف الفرنسية أيضاً؛ كانت ابنة سفاح، مصابة، من دون شك، بعاهة وراثية، لكنها تربّت في أحضان عائلة نبيلة من أكرم العائلات، وكان بإمكانها تماماً أن تحيا بعملها الشريف: فأثرت أن تهجر الذين أحسنوا إليها لتستسلم بكلّيتها إلى غرائزها الشريرة. ولكي تتمكن من إشباع هذه الغرائز على نحو أفضل، دخلت بيتاً من بيوت الدعارة أتاح لها فيه تفوّقها الفكري، كما سمعتم الشاهدة تؤكّد ذلك، أيها السادة المحلّفون، أن تؤثّر في عاشقها هذا التأثير الغريب الذي اهتم به العلم، في هذه الأوقات الأخيرة، والذي عرّفته مدرسة «شاركو»، على وجه الخصوص، تعريفاً موفقاً: «الإيحاء الذهني». إن سلطان هذا الإيحاء قد مارسه على العملاق الروسي الشريف والساذج الذي سقط بين يديها، فأساءت استخدام ثقته لتسلبه ماله أولاً، ثم لتسلبه حياته.

همس الرئيس، وهو يميل على القاضي الصارم، وعلى فمه ابتسامة:

— إنه يهذي حقاً؟

فوافق القاضي قائلاً:

— غبي فظيع!

واصل وكيل النيابة كلامه، في غضون ذلك، مع انحناء من رأسه مليئة بالاحترام:

— أيها السادة المحلّفون، بين أيديكم الآن، مصير هؤلاء المجرمين الثلاثة. وبين أيديكم أيضاً مصير المجتمع، في جزء منه. لأن لحكمكم، أيها السادة، أهمية العمل الاجتماعي الكبير. انفذوا إلى أعماق دلالة

هذه الجريمة وستقنعون بالخطر الذي تشكّله، بالنسبة إلى مجتمعنا، هذه العناصر المنحطة، بل هذه الظواهر المرضية، من مثل ماسلوفاً. حافظوا على المجتمع من عدوى مثل هؤلاء الوحوش، حافظوا على عناصر المجتمع السليمة والقوية من الإحتكاك بهذه العناصر المريضة!

تهالك وكيل النيابة على مقعده، وهو مفتون بخطبته، وكأنه سُحِقَ هو نفسه بالأهمية الاجتماعية للحكم الذي سيصدر. والمعنى الإيجابي لمرافعته، تحت ركام ورود البلاغة التي غطّاه بها، يتلخّص في أن ماسلوفاً فتنت التاجر، ونالت ثقته، وأرادت أن تسلبه ماله، وأن سيمون وايفيميا اكتشفا مشروعاتهما فقاسمتها السرقة. ثم أجبرت التاجر على الرجوع معها إلى الفندق، لتخفي آثار سرقتها، وهناك دسّت له السم في شرابه.

ما أن انتهت المرافعة، حتى نهض، من مقعد المحامين، رجل قصير، متوسط العمر، يرتدي الثياب الرسمية، وقميصاً نُشِيت مقدمته بشدة، وشرع في إلقاء خطبة قوية للدفاع عن كارتنكين وبوتشكوفاً. كان هذا المحامي محلّفاً، وقد دفع له المتهمان سلفاً ثلاثمائة روبل عن دفاعه. ولذلك لم يهمل شيئاً من أجل تبرئتهما كليهما، وألقى الخطأ كله على ماسلوفاً.

وحرص، بخاصة، على دحض ما أكّده ماسلوفاً من أن سيمون وايفيميا كانا في الغرفة عندما أخذت النقود. لقد أعلن المحامي أن تأكيدها ليس له أية قيمة، لأنه صادر عن شخص ثبتت عليه جريمة التسميم. أما الألف والثمانمائة روبل التي أودعها في المصرف سيمون

كارتنكين فيمكن أن تكون حقاً ثمرة كسب الخادمين الشغيلين
والشريفين اللذين كانا يتلقيان، باعتراف مدير الفندق، من ثلاثة
روبلات إلى خمسة روبلات حلواناً يومياً. وأما مال التاجر فقد سُرق،
سرقته ماسلوفاً، إذ أثبت التحقيق أنها كانت في حالة سكر. أثناء تلك
الليلة. وأما حادثة التسميم فالشك لا يرقى إليها، ذلك أن ماسلوفاً
اعترفت هي نفسها بأنها دسّت السم.

ومن ثم، لقد رجا المحلفين أن يعلنوا براءة كاتنكين وبوتشكوفاً من
سرقة المال، وأضاف أن المحلفين إذا اعتبروهما مشتركين في السرقة
فهو يرجوهم أن يعلنوا براءتهما من جرم التسميم، أو أن يستبعدوا،
على كل حال، فرضية العمد المسبق.

وختاماً لفت محامي كارتنكين وبوتشكوفاً الأنظار إلى أن «التأملات
اللامعة التي عرضها وكيل النيابة حول الوراثة» مهما تكن أهميتها من
وجهة النظر العلمية، فهي لا تنطبق على الحالة الراهنة، لأن بوتشكوفاً
مجهولة الأبوين.

بدا الغضب على وجه وكيل النيابة، وسجّل على عجل شيئاً على
الورق وهز كتفيه هزّة الازدراء.

عندما عاد المحامي الأول إلى مكانه، نهض محامي ماسلوفاً، وألقى
بلهجة خجلة وهو يتلعثم، دفاعه.

لم ينكر أن ماسلوفاً شاركت في سرقة المال، واكتفى بالتأكيد على
أنها لم تكن تنوي تسميم سميكلف وأنها لم تعطه المسحوق إلا
لتنويمه. وأراد بعد ذلك، أن يجري بدوره في ميدان البلاغة، فرسم

لوحة عن الطريقة التي دُفعت فيها إلى الرذيلة على يد مغوٍ ظل بلا عقاب، في حين تحمّلت هي نفسها عبء خطيئته. هذا الخروج إلى ميدان علم النفس، لم يكن موفقاً، وأحس كل واحد أنه أخطأ قصده. وحينما استفاض في الكلام على وحشية الرجال، وعلى دونية وضع النساء الاجتماعية والقانونية، دعاه الرئيس، ليخلصه من ورطته، للعودة إلى مناقشة الوقائع المحسوسة.

وأسرع المحامي في إنهاء دفاعه. وتكلّم بعده وكيل النيابة، مرة أخرى. فحرص على الدفاع عن آرائه في الوراثة، وأراد أن يرد على الانتقادات التي وجهها إليه محامي الدفاع، فأعلن أن بوتشكوف وإن كانت من أبوين مجهولين، إلا أن ذلك لا يقلل من القيمة العلمية لنظرية الوراثة. قال:

— هذه النظرية قد أقامها العلم على أسس جد وطيدة بحيث يمكننا الآن أن نستنبط الجريمة من الوراثة، بل أن نستنبط الوراثة من الجريمة. أما الاحتمال الذي صدر عن محامي الدفاع والذي يذهب إلى أن ماسلوف قد أفسدها مغوٍ خيالي غرر بها (وشدد وكيل النيابة تشديداً ساخراً على كلمة خيالي)، فإن جميع المعطيات تحمل على الاعتقاد بأنها هي التي غرّرت دائماً بما لا يُحصى من الضحايا الذين وضعتهم المصادفة في متناول يديها. فلما قال الوكيل هذا، جلس كالمنتصر.

حينئذ سأل الرئيس المتهمين إن كان لديهم ما يضيفونه. فردّدت إيفيميا بوتشكوف، مرة أخرى، أنها لم تكن تعلم شيئاً، وأنها لم تفعل شيئاً، وأن ماسلوف وحدها هي المذنبة في كل شيء.

واكتفى سيمون كارتنكين بالقول:

— الأمر لكم، أنا بريء!

وعندما جاء دور ماسلوف، لم تقل شيئاً. فحين سألها الرئيس إن كان لديها ما تضيفه للدفاع عن نفسها، اكتفت برفع عينيها، وتنقيلهما في القاعة، كأنها حيوان مطارد. ثم أطرقت رأسها وأخذت تنتحب.

سأل التاجر جاره نيكليودوف، وقد سمع منه صرخة غريبة.

— ما بك؟

كانت هذه الصرخة، في الواقع، نحيباً مكبوتاً. لكن نيكليودوف لم يدرك حالته الجديدة، وعزا هذا النحيب المفاجئ إلى توتر أعصابه، كما عزا إلى هذا التوتر الدموع التي فاضت بها عيناه.

إن الخوف من العار الذي سيجلّله لو علم جميع من في قاعة المحكمة سلوكه إزاء ماسلوف، قد منعه من أن يعي هذا الاختمار الداخلي الذي بدأ يعتمل فيه.

× × ×

بعد أقوال المتهمين الأخيرة، اهتمت المحكمة بتدوين الأسئلة التي ستطرح على المحلفين. وما لبث الرئيس، بعد ذلك، أن شرع في تلخيص المرافعات والمناقشات.

وقبل أن يتصدى للقضية ذاتها، أوضح مطوّلاً للمحلفين، بنبرات متعالية، أن السرقة البسيطة يجب ألا تُخلط بالسرقة عن طريق الكسر، وأن سرقة شيء ما من مكان مغلق يجب أن تُميّز بعناية عن السرقة من مكان مفتوح، وكان يُؤثر نيكليودوف بنظراته، وهو يقدّم هذه الإيضاحات، وكأنه هو المقصود بهذه التعليقات، حتى إذا فهمها هو نفسه، تولى تأكيدها لزملائه في هيئة التحكيم. ثم إن الرئيس، عندما قدّر أن مستمعيه تشربوا هذه الحقائق المهمة تشرباً كافياً، انتقل إلى حقائق من نوع آخر، فبيّن أن جريمة القتل تعني القيام بفعل ينتج عنه موت إنسان، وأن التسميم، من ثم، يشكل جريمة قتل تامة. فلما تأكّدت هذه الحقيقة بوضوح، أوضح للمحلفين أنه في حال اجتماع السرقة والقتل معاً، أصبح أمام ما يسمى: القتل المصحوب بالسرقة.

على أن الرئيس لم يكن ينسى أنه مستعجل للفراغ من القضية بغية اللحاق بصاحبته السويسرية. لكنه قد تعود عادة مهنته التي تأصلت فيه حتى إنه لم يكن يستطيع التوقف عن الكلام إذا ما بدأه. ولذلك شرح للمحلفين بإسهاب أن لهم الحق في إعلان مسؤولية المتهمين إن بدوا لهم مذبذبين، وبراءتهم إن بدوا لهم أبرياء. وإذا ما أيقنوا، من جهة أخرى، أنهم مذنبون في أحد عناصر الاتهام، وأبرياء في عنصر آخر، فإن لهم حق تجريمهم في أحدهما وتبرئتهم في العنصر الآخر. ومع أنهم مُنحوا هذا الحق بتمامه إلا أنه ينبغي أن يستخدموه استخداماً معقولاً. وفي اللحظة التي أراد فيها أن يوضح لهم أنهم إن ردّوا على الأسئلة المطروحة بالإيجاب، فالإيجاب ينطبق إذ ذاك على مجموع الأسئلة، أما إذا أرادوا أن يتناول ردّهم جزءاً من هذا السؤال أو من ذاك فينبغي أن يحرصوا على تعيين ذلك، في هذه اللحظة، خطر له أن ينظر إلى ساعته. وحين شاهد بهلع، أن الساعة بلغت الثالثة إلا خمس دقائق، بادر إلى التصدي لصلب القضية.

بدأ كلامه فأخذ يرّد ما قد قيل مرات كثيرة، ما قاله المحامون وما قاله وكيل النيابة وما قاله الشهود.

— إن ظروف الجريمة هي التالية...

كان الرئيس يتكلم، وكان معاوناه، على جانبيه، يصغيان بهيئة المقتنعين، ناظرين إلى الساعة خلسة، وكانا يريان أن خطبته طويلة بعض الطول، لكنها ممتازة، وإن لم تخرج عن مثيلاتها. كان هذا

رأى وكيل النيابة، وجميع العاملين في المحكمة، والقاعة بأسرها. فلما انتهى التلخيص، بدا أن كل ما ينبغي أن يُقال قد قيل. لكن الرئيس لم يكن يرضى بالإقلاع عن الكلام، لفرط ما كان يستحسن الإصغاء إلى نبرات صوته الناعمة. ورأى من المناسب أن يوجّه إلى المحلّفين بعض الكلمات بصدّد أهمية الحق الذي منحهم إياه القانون، وعن الحكمة والحذر اللذين ينبغي بهما أن يستخدموا القانون لا أن يسيئوا استخدامه. وأخيراً ألحّ على اليمين التي تربطهم. وقال لهم: إنهم ضمير المجتمع، وأن سر مداولاتهم يجب أن يكون مقدساً، وهلمّ جراً....

منذ اللحظة التي بدأ فيها الرئيس كلامه، شخصت ماسلوفاً بعينها إليه، كأنها تخشى أن تضيع كلمة من كلماته. وهكذا استطاع نيكليودوف أن يتأملها طويلاً وهو غير خائف من لقاء نظرتها. أحس أن ما يجري فيه، هو ما يجري عادة، في كل واحد منا، عندما نلتقي، بعد عدة سنين، وجهاً ألفناه قديماً. لقد دهش نيكليودوف، أول الأمر من التبدلات التي طرأت منذ فراقهما، لكن الإحساس بهذه التبدلات كان يحوي شيئاً فشيئاً، وعاد الوجه شبيهاً بالوجه الذي كانه فيما مضى. عينا روحه تغلبتا على حواسه، ولم تُرياه إلا السمات الجوهرية، السمات التي تعبر عن شخصية المرأة الشابة، تلك التي لم يُعد لها أي تغير.

بالرغم من لباس السجن، بالرغم من مجموع الجسد الذي ازداد تفتحاً، بالرغم من ثخانة أدنى الوجه، وتجاعيد الجبهة والصدغين، وانتفاخ الجفون، وبالرغم من التعبير المثير للشفقة، والضعيف،

كانت هي بعينها كاتيوشا نفسها. كاتيوشا التي رفعت عينها براءة إليه، ذات ليلة من ليالي الفصح، التي نظرت إليه بعينها العاشقتين، المبتسمتين من السعادة، والملمعتين بالحياة!

«يا للمصادفة العجيبة! أكان يجب أن تعرض هذه القضية على المحاكمة في هذه الدورة بالذات، وأن أكون محلّفاً فيها، وأن أرى كاتيوشا هنا، على مقعد المتهمين، بعد أن فارقتها منذ عشر سنوات؟ كيف سينتهي ذلك كله؟ آه! ليت ذلك ينتهي بسرعة، على الأقل!«.

على أنه لم يستسلم بعد لشعور الندم الذي أخذ يتشكل ويتعاضم فيه. شيئاً فشيئاً. وأصر أن يرى في ذلك مجرد حادث عارض سيمرّ دون أن يعكّر حياته. لكنه بدأ يعترف بدناءة فعلته وخُيل إليه أن يبدأ بقوة جاءت به قسراً ليُشاهد غلطته. ومع ذلك فهو لم يشأ أن يرى الدلالة الحقيقية لما فعل، ولا أن يفهم ما تريد منه تلك اليد التي تدفعه. لقد أبى أن يصدّق أن عملها الشرير كان من صنعه، لكن اليد الخفية كانت تمسك به، وتضغط عليه، وأخذ يحس مسبقاً بأنها لن ترخيه بعد الآن.

كان يبذل جهده لكي يظهر بمظهر الرجل الشديد؛ وضع رجلاً على رجل، وهو طلق المحيا، وأخذ يعبث بنظارتته، ولزم وضعاً مليئاً بالعفوية، خالياً من التصنع، وهو جالس على مقعده في الصف الأول بين المحلفين. في هذه الأثناء، أخذ يشعر، في أعماقه، بالحقارة، لا حقارة سلوكه قديماً إزاء كاتيوشا فحسب، بل وأيضاً حقارة كل هذه الحياة الفارغة، المنحرفة، الشريرة والبائسة التي

يحيها منذ اثني عشر عاماً. فكأن الستار الذي حَجَبَ عنه، حتى
الآن، وبشكل غريب، دناءة سلوكه، قد بدأ ينزاح من أمامه، ويتيح
له أن يلمح ما ظل خافياً عنه حتى الآن.

× × ×

وأخيراً انتهى الرئيس من خطبته، وحرك في الهواء، بحركة رشيقة، الورقة التي تحتوي على قائمة الأسئلة، وسلمها إلى رئيس هيئة المحلفين. نهض المحلفون، متضايقين، كأنهم خجلون بأن يكونوا هنا، وسعداء لأنهم تمكنوا من ترك مقاعدهم. ومضوا إلى قاعة المداولات واحداً وراء الآخر. وما إن أغلق الباب عليهم حتى وقف دركي في حراسة المدخل؛ استل سيفه من غمده ووقف وقفة الاستعداد. انسحب القضاة واقتيد المتهمون.

عندما دخل المحلفون قاعة المداولات، بدؤوا، هذه المرة كالمرة السابقة، بتناول السجائر وإشعالها «إن شعورهم بما كان في وضعهم من تصنع وزيف، وهو شعور خامرهم جميعاً بقليل أو كثير من الوضوح.

أثناء جلسة المحكمة، قد اتحى عندما غدوا أحراراً، وسجائرهم في أفواههم، تخففوا واستعادوا حريتهم، وجلسوا على هواهم. وما لبث النقاش أن نشب بينهم كأحمى ما يكون. أدلى التاجر الطيب برأيه:

- ليست الصغيرة مذنبه. لقد تخبطت في كلامها! يجب أن تأخذنا الشفقة بها.

أجاب الرئيس:

- هذا ما سنفحصه. احذروا من الانسياق وراء الانطباعات الشخصية.

ولاحظ العقيد:

- ألقى رئيس المحكمة خطبة رائعة.

- رائعة، حقاً. لكن هل تصدقون أنني كدت أنام؟

وأكد الوكيل التجاري للشخص اليهودي:

- النقطة الأساسية هي أن الخادمين كان يمكنهما ألا يعلما شيئاً عن مال التاجر، لولا أن ماسلوف كانت على اتفاق معهما.

سأل أحد المحلفين:

- في رأيك إذن، أنها هي السارقة؟

فصاح التاجر البدين:

- كلا، لن يُقنعني أحد بذلك! كل الشر جاء من تلك الحقيبة ذات العينين المحمرتين.

قاطعه العقيد:

- طيب، لكن تلك المرأة تؤكد أنها لم تدخل الغرفة.

- وأنت تفضل أن تصدقها؟ أنا لا أقبل أبداً أن أثق بمثل هذه الجيفة

التنة!

قال الوكيل التجاري ساخراً:

- طيب! والنتيجة؟ فهي التي كانت تحمل المفتاح!

قال التاجر:

- علام يدل هذا؟

- والخاتم؟

- لكن ماسلوفا شرحت لنا القضية كلها! كان السييري رجلاً غريب الأطوار ثم إنه شرب. وقد ضربها ثم أخذته الشفقة عليها. «خذي، هذا لك، لا تعودي إلى البكاء!» لقد قالوا لنا أي نوع من الرجال كان: قامته متران وثلاثة سنتمترات، ووزنه متناسب مع قامته!

فلاحظ بطرس غيراسيموفتش:

- المسألة ليست هنا، والمطلوب أن نعلم إن كانت هي التي نفذت الجريمة عن سابق قصد وتصميم، أم الخادمان.

فكرر اليهودي:

- لكن الخادمين لم يكن بوسعهما أن يفعلوا ذلك بدونها! هي التي كانت تحمل المفتاح!

وهكذا امتد النقاش طويلاً، دون نتيجة.

قال رئيس هيئة المحلفين أخيراً:

- عفواً، أيها السادة. لنجلس حول الطاولة ولنتناقش! وبدأ بنفسه، فجلس على مقعد الرئاسة الكبير.

أعلن الوكيل التجاري.

— ما أخبث هؤلاء النساء!

ولكي يدحض رأي الذين زعموا أن ماسلوف لم تسرق، روى كيف أن مخلوقة من هذا النوع، سرقت ساعة أحد زملائه، ذات يوم، في الشارع. وروى العقيد بعده واقعة أغرب وأكثر إقناعاً: سرقة سماور فضي.

قال الرئيس وهو يضرب الطاولة بقلمه:

— العفو، أيها السادة لننظر في الأسئلة!

صمت الجميع، وشرع الرئيس في قراءة الأسئلة المطروحة على المحلفين، والتي صيغت كمايلي:

١- الفلاح سيمون بيتروفيتش كارتنكين، من قرية بوركلي، مقاطعة كابريفنو، العمر أربعة وثلاثون عاماً، هل هو مذنب بالتعدي عن عمد على حياة التاجر سميلكوف. بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٨٨٠، بقصد سرقة؟ هل هو مذنب بسرقة مبلغ يُقدّر بنحو ألفين وخمسمائة روبل وخاتم ماسي من التاجر المذكور، بعد أن دسّ له السم، بالتواطؤ مع أشخاص آخرين؟

٢- ايفيميا ايفانوفنا بوتشكوف، عاملة في المدينة، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً، هل هي مذنبه بارتكابها الأفعال الواردة في السؤال الأول، بالتواطؤ مع سيمون كارتنكين؟

٣- كاترين ميخايلوفنا ماسلوف، عمرها سبعة وعشرون عاماً، هل هي مذنبه بارتكابها الأفعال الواردة في السؤال الأول، بالتواطؤ مع المتهمين الآخرين؟

٤- في حال اعتبار ايفيما بوتشكوف غير مذنبه في الأفعال الواردة في السؤال الأول، فهل هي مذنبه بأنها اختلست، في ١٧ كانون الثاني ١٨٨٠، وهي خادمة في فندق موريتانيا، مبلغاً يقدر بنحو ألفين وخمسمائة روبل، من حقبة التاجر سميلكوف المغلقة؟
عندما انتهى الرئيس من قراءته. عاد إلى السؤال الأول.

- حسناً! أيها السادة، كيف سنجيب عن هذا البند الأول؟

وسرعان ما وُجد الجواب، لقد اتفقوا جميعاً على الجواب بالموافقة سواء أكان ذلك بصدد السرقة أم التسميم. واحد من المحلفين فقط رفض أن يعد كارتنكين مذنباً: كان ذلك المحلف صانعاً عجوزاً أجاب بالنفي عن جميع الأسئلة، دون تعليق.

تصوّر الرئيس في أول الأمر أن هذا الشيخ لم يكن يفهم، فطفق يوضح له أن كارتنكين وبوتشكوف مذنبان بدون أدنى شك. فأجاب الشيخ أنه يفهم ذلك جيداً، لكن الأفضل، برأيه، أن نغفر كل شيء. قال:

- نحن أنفسنا، لسنا قديسين!

وأبى أن يغيّر رأيه.

وعن السؤال الثاني، والمتعلق بـبوتشكوف، كان الجواب عاماً، بعد مناقشات طويلة: إنها غير مذنبه. لقد قدّر المحلفون أن الدلائل التي تثبت اشتراكها في التسميم مفقودة، في الواقع. على كل حال، هذه النقطة هي التي ألح عليها بخاصة، محاميها.

لكن التاجر الذي كان يسعى إلى تبرئة ماسلوفاً أصّر مرة أخرى، على أن بوتشكوف هي العامل الرئيسي في هذه القضية. ورأى كثير من المحلفين رأيه حتى لفت الرئيس نظر المحلفين، وكان الرئيس حريصاً على أن يتقيد بالنص القانوني الدقيق، إلى أن اشتراكها، على كل حال، في التسميم لم يرقم عليه أي دليل مادي. ونوقش الأمر طويلاً، لكن رأي الرئيس هو الذي انتهى بالانتصار.

وبالمقابل، فقد أعلنوا، بصدد السؤال الرابع، أن بوتشكوف كانت مذنبه بسرقتها للمال. وأضيف، بناء على طلب الصانع الشيخ: «مع الظروف المخففة».

وأخيراً، جاء دور السؤال الثالث الذي أخرّوه إلى النهاية. وقد أثار مناقشة أشد من الأسئلة الثلاثة الأخرى.

أكد الرئيس أن ماسلوفاً مذنبه، وأصر التاجر على أنها بريئة، وأيد رأيه العقيد والصانع. تردد بقية المحلفين لكنهم بدوا أميل إلى رأي الرئيس. ومرّد ذلك إلى أن جميع المحلفين تعبوا، وأنهم كانوا يؤثرون أن يأخذوا بأحد الرأيين الذي يوافق عليه الجميع موافقة أسرع، والذي يعيد إليهم حريتهم على نحو أسرع.

كان نيكليودوف مقتنعاً، من خلال نتائج الاستجواب ومن خلال ما يعرفه عن ماسلوف، أن ماسلوفاً غير مذنب، لا بالسرقة ولا بالتسميم. وقد ظن، في بادئ الأمر، أن الجميع سيكونون من رأيه، لكنه ما لبث أن أقرّ بأنه مخطئ. كانت الأكثرية تميل إلى تجريمها، مراعاة للرئيس من جهة، ومن جهة أخرى، لأن التاجر الساذج الذي لم يُخف إعجابه بماسلوف، قد أساء الدفاع عنها. وعندما رأى نيكليودوف ذلك، راودته نفسه في الكلام. لكن الخوف استولى عليه من كونه سيطلب الرحمة لكاتيوشا، كأنه أحسّ أن الجميع سيكتشفون، على الفور، علاقاته القديمة بها. على أنه حدث نفسه بأن الأشياء لا يجوز أن تمرّ بهذا الشكل. كان من واجبه قطعاً أن يتدخل. وهذه الفكرة جعلته يحمرّ ويشحب، وكاد يعزم على الكلام، في نهاية الأمر، لولا أن بطرس غيراسيموفتش. الذي استاء، بدون شك، من لهجة الرئيس الآمرة، تدخّل ليقول بالضبط، ما أراد الأمير أن يكون قد قاله. قال ذلك المربي:

— عفواً، لقد أكدتم أنها مذنب بالسرقة لأنها كانت تحمل مفتاح الحقيبة، لكن أليس من الجائز أن الخادم استطاع أن يفتح الحقيبة بمفتاح آخر؟

فأيده التاجر:

— بالضبط، بالضبط!

— من المستحيل، في الواقع، أن تسرق ماسلوفاً المال، لأنها لا تعلم، وهي في وضعها المعروف، ما تفعل به.

أضاف التاجر أيضاً:

— تماماً، هذا ما قلته بدقة.

— بل إني أقدر أن وصولها إلى الفندق ومعها المفتاح، قد أوحى إلى الخادمين بفكرة السرقة. ولعلهما قد انتهزا المناسبة ليلقيا بالتبعة كلها على ماسلوف.

كان بطرس غير اسيموفتش يتكلم بصوت مهتاج. وانتقل امتعاضه إلى الرئيس الذي ازداد إصراراً على رأيه. لكن بطرس غير اسيموفتش كان يتكلم بكثير من الثقة بالذات حتى إن الأكثرية انحازت إلى رأيه، وأقرت أن ماسلوف لم تشارك لا في سرقة المال ولا في سرقة الخاتم الذي أهدها إياه التاجر.

بقي أن يقرروا إن كانت قد ارتكبت جريمة التسميم. ومرة أخرى صرّح التاجر، وهو المدافع المتحمّس عن ماسلوف، أن من الواجب إعلان براءتها. فرد الرئيس، بكثير من القوة، أن من المستحيل مادياً إعلان براءتها في هذه النقطة، بما أنها هي نفسها اعترفت بسكب المسحوق في الكأس.

احتجّ التاجر قائلاً:

— سكبت المسحوق، نعم، لكنها كانت تعتقد أنه من الأفيون!

ردّ العقيد الذي يهوى الاستطرابات.

— الأفيون نفسه سمّ.

وروى بهذا الصدد، حادثة غريبة جرت لزوجة صهره التي ابتلعت الأفيون سهواً، وكادت تموت، لولا المهارة العجيبة للطبيب الذي استُدعي على عجل. وكان العقيد يروي القصة بكثير من العُجب بحيث لم يجروء أحد على مقاطعته، ماعدا الوكيل التجاري اليهودي الذي أراد أن يحتذي حذوه، فأقدم على مقاطعته، وقال:

— يستطيع المرء أن يتعود السم جيداً حتى إنه ينتهي بتحمّل جرعات كبيرة منه؛ إن زوجة أحد أقاربي...

لكن العقيد لم يكن رجلاً يُطبق المقاطعة، فتابع قصته وعرف الجميع الدور الذي لعبه الأفيون في حياة زوجة صهره.

هتف أحد المحلفين:

— يا إلهي، ها إن الساعة قد بلغت الخامسة!

تدخل الرئيس:

حسناً! أيها السادة، بماذا سنجيب؟ أتريدون أن نردّ بشيء من هذا القبيل: «إنها مذنبه بسكب السم، لكن بدون قصد السرقة؟».

وافق بطرس غيراسيموفتش، وكان راضياً عن النجاح الذي أحرزه في المسألة الآنفة، موافقة تامة. هذه المرة.

صاح التاجر:

— أطلب أن يُضاف: «مع الظروف المخففة».

وافق الجميع على الفور. الصانع وحده أصرّ على أن يكون الجواب: «لا، إنها غير مذنبه».

فأعلن التاجر المعتز باختراعه:

— على شرط أن يُضاف «مع الظروف المخفّفة». لنصل إلى تبرئة المتهم.

كان الجميع متعبين جداً، وقد شوّشت هذه النقاشات الطويلة الأذهان، إلى حد كبير، حتى إنه لم يخطر لأحد أن يُضيف إلى الجواب: «نعم، ولكن دون قصد القتل». حتى نيكليودوف نفسه لم يخطر له ذلك، لفرط ما كان مستغرقاً في ألمه وفي قلقه. وصيغت الأجوبة بالشكل الذي تبناه المحلفون، وسُلّمت كما هي إلى المحكمة.

يروي «رابليه» أن قانونياً دُعي إلى الفصل في إحدى الدعاوى، اقترح على زملائه، بعد أن عدّد طائفة من مواد القوانين، وبعد أن قرأ عشرين صفحة من الهراء الذي لا يفهم، أن يقترحوا على الحكم الذي سيصدرونه، فإذا كان رقم النرد مزدوجاً كان الحق مع المدعي وإذا كان مفرداً كان الحق مع المتهم.

كان الأمر كذلك، هذه المرة، أيضاً. ذلك أن الأجوبة التي تبناها المحلفون لم يتبنوها لأن المحلفين قد أجمعوا على رأي واحد، لكن لأن الرئيس الذي استفاض في خطبته أهمل أن يضيف ما كان يضيفه عادة، في مثل هذه الحالة: «يستطيع المحلفون أن يجيبوا: نعم، لكن دون قصد القتل». ثم إن المحلفين تبّنوا هذه الأجوبة لأن العقيد

أسهب في روايته لقصة زوجة صهره، مما أتعب المحلفين وأضجرهم؛ وتبنّوها لأن نيكليودوف الذي كان مستغرقاً في همومه الشخصية، لم يفطن إلى أن الكلمات: «دون قصد السرقة» كان يجب أن يرافقها هذا التخصيص: «دون قصد القتل». وسبب آخر: إن بطرس غير اسيموفتش الذي ابتهج لأنه فرض رأيه، قد فقد اهتمامه بالنقاش. بل إنه خرج من القاعة أثناء الأجوبة. لكن تبّني هذه الأجوبة إنما جرى، على وجه الخصوص، لأن المحلفين أعياهم التعب، فاستعجلوا ليستعيدوا حرّيتهم في التوجه إلى الغداء، بحيث أنهم رحّبوا بأول رأي اقترح عليهم.

عندما انتهى الرئيس من قراءة الأجوبة، قرع الجرس. أغمد الحارس الذي وقف أمام الباب سيفه في قرابه، وتنحى للمحلفين الذين دخلوا القاعة الواحد تلو الآخر.

حمل رئيس المحلفين الورقة التي تحتوي على الأجوبة، وقد بدا عليه الطابع الرسمي، وتقدّم إلى الطاولة التي تجلس إليها هيئة المحكمة وسلّم الرئيس الورقة. وبعد أن قرأها الرئيس بنظرة سريعة، حرّك ذراعه والتفت نحو زميله ليسألها رأيهما. لقد ذهل حين لاحظ أن المحلفين الذين ردّوا بالنفي على مسألة السرقة، قد ردّوا بالإيجاب ودون تحفظ على مسألة القتل. ومن هذا الجواب ينتج أن ماسلوف لم تسرق المال ولا الخاتم، وأنها، مع ذلك سمّمت التاجر، دون أي داعٍ.

همس الرئيس إلى جاره الذي على يساره:

— أنظر إلى التفسير اللامنطقي الذي جاؤوا به! هذا يعني الأشغال الشاقة لهذه المرأة، مع أنها بريئة، بكل تأكيد.

— ولم كانت بريئة؟

— هذا واضح للعيان! هناك ما يدعو، برأيي، إلى تطبيق المادة ٨١٨.

المادة ٨١٨ تعلن بأن للمحكمة الحق في تعديل قرار المحلفين إذا رأته مخالفاً للحق والقانون.

وسأل الرئيس جاره الآخر:

— وأنت ما رأيك؟

قال القاضي ذو العينين الواسعتين.

— ربما كان من واجبنا، في الواقع، تطبيق المادة ٨١٨.

ثم سأل الرئيس القاضي المتذمر على يساره:

— وأنت؟

أجاب هذا القاضي بلهجة جازمة:

— أرى أننا لا ينبغي أن نطبق تلك المادة، بأي حال من الأحوال. إن الناس يشكون كثيراً من أن المحلفين يبرّون المذنبين. فماذا سيُقال إذا زaidت المحكمة عليهم. لا أقبل بذلك، بأي حال.

أخرج الرئيس ساعته، وفكر: «أنا آسف، لكن ما حيلتي؟» وسلم الأوراق إلى رئيس المحلفين لكي يتلوها.

وفي الحال، وقف المحلفون جميعاً. قرأ رئيسهم، وهو يتمايل من قدم إلى أخرى، الأسئلة والأجوبة بصوت عال. ولم يستطع كاتب

المحكمة ولا المحامون ولا وكيل النيابة إخفاء دهشتهم. المتهمون وحدهم ظلّوا بلا حراك، على مقاعدهم، إذ لم يفهموا معنى هذه الأجوبة.

عاد المحلفون إلى الجلوس. والتفت رئيس المحكمة نحو وكيل النيابة، وسأله عن العقوبات التي يقترح تطبيقها على المتهمين.

انتفج وكيل النيابة، وقد سحرته قسوة المحلفين إزاء ماسلوف، وهي قسوة عزاها إلى بلاغته ليس غير، وتظاهر بالتفكير، ثم أعلن:

- أطلب تطبيق المادة ١٤٥٢ ما عدا الفقرة ٤ من المادة ١٤٥٣، على سيمون كارتكين، والمادة ١٦٥٩ على ايفيميا بوتشكوف، والمادة ١٤٥٤ على كاترين ماسلوف.

وغني عن القول أن العقوبات التي نصت عليها هذه المواد، كانت من أشد العقوبات التي يمكن تطبيقها في هذه الحالة.

أعلن رئيس المحكمة وهو ينهض:

- أرفع الجلسة لتتساور المحكمة بشأن تطبيق العقوبة!

وخرج يتبعه القاضيان. كان كل واحد، على المنصة، يشعر بالارتياح الذي يبعثه الشعور بإتمام المهمة. كان المحلفون بخاصة، يثرثرون على هواهم.

قال بطرس غيراسيموفتش وهو يدنو من نيكليودوف الذي كان رئيس المحلفين يقدّم له بعض الإيضاحات:

- أرأيّت، يا عزيزي، لقد قمنا هنا بعمل عظيم!... ها نحن نرسل تلك الفتاة البائسة إلى الأشغال الشاقة!

بلغ انفعال نيكليودوف، وهو يسمع هذه الكلمات، حدّاً لم يكد يغتاز معها من تلك الدالة الجارحة التي يخاطبه بها مربّي أولاد أخته القديم. وقال بدهشة:

– ماذا؟ ماذا تقول؟

أجاب بطرس غيراسيموفتش:

– لا شك في ذلك! لم نصف إلى جوابنا: «لكن دون قصد القتل». قال لي كاتب المحكمة: إن النائب العام يطلب خمسة عشر عاماً من الأشغال الشاقة.

ودهش الرئيس:

– لكن الجواب مطابق لما قررناه معاً!

فعارضه بطرس غيراسيموفتش، وصرح قائلاً: بما أننا قررنا أن ماسلوف لم تسرق المال، كان من واجبنا أن نضيف: أنها لم تقصد القتل. برر الرئيس نفسه:

– لكنني أعدت قراءة الأجوبة قبل دخول المحكمة، فلم يعترض أحد.

أوضح بطرس غيراسيموفتش.

– اضطررت إلى الخروج لحظة، أثناء القراءة. لكن كيف تركت ذلك يمرّ، أنت، يا دميتري ايفانوفتش؟

قال نيكليودوف:

– لم أفطن لشيء.

- مع ذلك، كان من السهل ملاحظة هذا الشيء.

اقترح نيكليودوف:

- يمكننا تدارك الخطأ.

- أوه! كلا، فات الأوان! الآن، انتهى كل شيء.

ألقى نيكليودوف نظرة على المتهمين. ظلوا جالسين على مقاعدهم بين الجنديين، في حين كان مصيرهم يتقرر. كانت ماسلوفاً تبتسم، وانسلت إلى نفس نيكليودوف فكرة شريرة. لقد كان قبل قليل، وهو يتوقع تبرئة كاتيوشا وإطلاق سراحها. منهمكاً بمعرفة الطريقة التي بها يجب أن يتصرف معها. أما الآن، فإن الأشغال الشاقة في سيبيريا ستلغي إمكان استئناف العلاقات معها. سوف يكف العصفور الجريح، عما قريب، عن التخبّط في جعبة الصيد.

x x x

جرت الأمور كما تنبأ بطرس غيراسيموفتش.

عاد القضاة الثلاثة، بعد مداولة قصيرة. وتلا الرئيس قرار المحكمة الذي يبدأ على النحو التالي:

«في ٢٨ نيسان ١٨٨٠، وبأمر من جلالة الامبراطور، فإن الشعبة الجنائية في محكمة مقاطعة ن... التي جلست جلستها بمعاونة المحلفين، وبموجب المواد ٧٧١، الفقرة ٣؛ و٧٧٦، الفقرة ٣؛ و٧٧٧ من القانون الجزائي، حكمت على سيمون كارتنيكين، فلاح، عمره، أربعة وثلاثون عاماً، وعلى كاترين ماسلوف، عاملة عمرها سبعة وعشرون عاماً، بالحرمان من جميع الحقوق المدنية والشخصية، وأمرت أن يُرسلا إلى الأشغال الشاقة: كارتنيكين لمدة ثماني سنوات؛ والمرأة ماسلوف لمدة أربع سنوات، وفقاً لأحكام المادة ٢٨ من القانون الجزائي.

وحكمت على ايفيميا بوتشكوف، عاملة، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً بالحرمان من الحقوق المدنية والشخصية وبالسجن ثلاث سنوات، وفقاً لأحكام المادة ٤٩ من القانون الجزائي. وحكمت،

فضلاً عن ذلك، على المتهمين الثلاثة، بدفع نفقات الدعوى مجتمعين، وقررت أنه إذا عجز المتهمون عن الدفع، فإن النفقات المذكورة تقع على عاتق الخزينة.

تُباع أو تُتلف أدلة الإثبات، ويعاد الخاتم إلى ورثة التاجر سميكلوف».

عندما سمع سيمون كارتنكين هذا القرار، ظل يتململ، وينقل يديه على أطراف بنطاله، ويحرّك شفّتيه. ولزمت بوتشكوفاً هدوءها. أما كاترين ماسلوفاً فقد علتها الحمرة القانية فجأة؛ وصاحت حالماً انتهى الرئيس من تلاوة الحكم:

— لستُ مذنب! لم أقصد قتله، لم أفكر في قتله! إني أقول الحقيقة! إني أقول الحقيقة! الحقيقة الصحيحة!

ثم إنها بعد أن صرخت بهذه الكلمات صراخاً قوياً أسمع القاعة بأسرها، ارتمت على مقعدها، وغطّت وجهها بيديها، وانفجرت منتحبة.

عندما نهض سيمون وايفيما ليخرجا، ظلت جالسة لا تني تتحب. واضطر أحد الدرك إلى هزّها من ذراعها ليَجبرها على النهوض.

قال نيكليودوف في نفسه: «لا، لا يمكن أن أدع الأشياء تجري هكذا». نسي الفكرة الشريرة التي جالت بخاطره قبل لحظات، واندفع في الممر، دون أن يفكر، تسوقه قوة دافعة لا تُقاوم، ليرى، مرة أخرى، المرأة التي اقتيدت.

ازدحم جمهور المحلفين والقضاة، أمام الباب، مثرثراً وملوحاً بالأيدي، حتى إن نيكليودوف اضطر إلى الانتظار طويلاً قبل أن يستطيع الخروج من القاعة. وعندما بلغ الممر أخيراً، كانت ماسلوفاً قد ابتعدت. فجرى نحوها، غير عابئ بما أثاره من انتباه، ولم يقف إلا عندما أدرکہا.

لم تكن تبكي، لكن شهقات عنيفة من النحيب كانت ترفع صدرها، من حين إلى حين، بينما كانت تمسح، بطرف منديلها، قطرات العرق التي سالت على خديها. مرت أمام نيكليودوف، من دون أن تتطلع إليه، وهو أيضاً، لم يحرك ساكناً ليلفت انتباهها. تركها تمر أمامه، واستأنف جريه في الممر، وأخذ يبحث عن رئيس المحكمة.

كان رئيس المحكمة، عند غرفة البواب، حين استطاع نيكليودوف أن يلحق به. كان يرتدي معطفه الربيعي الأنيق، وأمامه البواب يمد إليه باحترام عصاه ذات الرأس الفضي.

سأله نيكليودوف:

- سيدي الرئيس، هل أستطيع أن أحدثك لحظة؟ بصدد القضية التي صدر الحكم بها قبل حين. أنا أحد المحلفين.

أجاب الرئيس وهو يشدّ على يده:

- وكيف لا أعرفك! الأمير نيكليودوف، أليس كذلك؟ أنا سعيد جداً بلقائك!

وتذكر، برضى شديد، الحفلة الراقصة التي لقيه فيها، والتي رقص فيها بنشاط وحيوية أكثر من جميع الشباب.

– وفيما أستطيع أن أخدمك؟

أوضح نيكليودوف وهو متجههم:

– كان هناك سوء فهم في الجواب المتعلق بماسلوف. إنها بريئة من التسميم، وها هي ذي تُحكم بالأشغال الشاقة.

فاتحج الرئيس وهو يتقدم من الباب:

– لكننا استندنا في القرار إلى أجوبتكم. مع أن المحكمة وجدت هذه الأجوبة متهافة جداً.

تذكر الرئيس فجأة أنه كان على وشك أن يوضح للمحلفين، في تلخيصه للمناقشات، الطريقة التي بها ينبغي أن يصوغوا تحفظاتهم، في حال وجود تلك التحفظات، وتذكر أنه عَزَف عن هذا القسم من الإيضاح، كسباً للوقت. لكنه لم يقو على التصريح بذلك لمحدثه.

سأله نيكليودوف:

– ألا يمكننا تدارك هذا الخطأ؟

أشار عليه الرئيس، وهو يمد يديه في كمّي المعطف، دون أن يكف عن السير:

– بواعث تمييز الدعوى يمكن العثور عليها دائماً. استشر محامياً!

- لكن هذا فظيع!

- أنت تعلم أنه لم يكن أمامنا سوى حلين ممكنين.

كان الرئيس موزع النفس بين الرغبة في إرضاء نيكليودوف والخوف من التأخر عن مواعده. وما إن انتهى من تصفيف سالفه على قفا معطفه، حتى أمسك بنيكليودوف من مرفقه وجذبه نحو الباب. واقترح عليه:

- أتريد أن نخرج من هنا؟

أجاب نيكليودوف:

- نعم.

فارتدى معطفه على عجل وخرج مع الرئيس. كانت الشمس المضيئة تلمع، في الخارج، وقد امتلأت الشوارع بالضوء وبالحرارة. واضطر الرئيس إلى أن يرفع صوته بسبب رجّات العجلات على الرصيف وتابع قائلاً:

- رأيت، الوضع كأبسط ما يكون، وليس لهذه القضية سوى حلين ممكنين، كما قلت لك. فإما أن تُبرأ هذه المخلوقة، ماسلوف، وتُحكم فقط بالسجن بضعة أشهر، وقد يُخصم حجزها الإحتراسي من مجموع العقوبة، مما يؤدي إلى جعل العقوبة تافهة؛ وإما أن تُحكم بالأشغال الشاقة. لقد كنا مضطرين إلى تبني أحد الاحتمالين، وكان اختيارنا منوطاً بأجوبتكم.

قال نيكليودوف، وقد تألم:

- لم يخطر لي أن أطلب إضافة ذلك القيد الذي هو جدير بأن
يترجم فكرتنا.. لا عذر لي لأني لم أفكر فيه.

فأكد الرئيس وعلى فمه ابتسامة:

- وكل القضية ها هنا.

وأخرج ساعته لينظر إلى الوقت. لم يكذب يبقئ له سوى ثلاثة أرباع
الساعة ليقضيها مع صاحبتة «كلارا».

وأضاف:

- استشر الآن أحد المحامين، إذا شئت. المهم أن تعثر على وسيلة
لتمييز الدعوى، وهي موجودة دائماً.

ثم دعا حوذاً يمر بعربته وصاح به:

- شارع دفوريانسكايا! ثلاثون كوبيكاً أجرة الطريق، هذه هي
الأجرة التي أعطيها دائماً.

- لتفضل سيادتُك بالصعود!

- لك مودتي. إذا أمكن أن أخدمك بشيء فأنا في منزل
دفورنيكوف شارع دفوريانسكايا؛ من السهل حفظ هذا العنوان.

وابتعد، بعد أن حيّا نيكليودوف، مرة أخيرة بإيماء خفيفة من
رأسه.

× × ×

إن حديث نيكليودوف إلى رئيس المحكمة، وكذلك هواء الخارج الندي، قد ردّاه إلى شيء من الهدوء. وقال في نفسه إن الإنفعال غير العادي الذي أحسّ به قبل حين يعود، بخاصة، إلى تعب، وإن الظروف الشاذة التي مرّ بها منذ الصباح قد أسهمت، من غير شك، في تضخيمه. وحدث نفسه «ومع ذلك، يا لها من مصادفة مذهلة، لا تُصدق! يجب حتماً أن أبذل قصارى جهدي للتلطيف من مصير هذه البائسة وذلك في أسرع وقت ممكن! وما دمت هنا فسأنتهز الفرصة لأسأل عن عنوان فانارين أو ميكيشين» وكان هذان محاميين شهيرين تذكر أسمهما.

وعاد أدراجه، راجعاً إلى قصر العدل، فخلع معطفه مرة أخرى، وصعد الدرج. وفي مدخل الممر لقي فانارين بذاته. اقترب منه نيكليودوف وسأله إن كان يمكنه التحدث إليه. فبادر المحامي الذي كان يعرف وجهه واسمه، إلى القبول قائلاً له: إنه سيكون سعيداً جداً لو أسعفه في طلبه:

- أنا متعب قليلاً، لكنك تستطيع أن تشرح لي الأمر بكلمتين.

أتريد أن تدخل هذه الغرفة ، لحظة ؟

وأدخل نيكليودوف غرفة صغيرة كانت مفتوحة، ولعلها كانت مكتباً لأحد مستخدمي المحكمة ، وجلس كلاهما قرب الطاولة.

- هيا! علام يدور الأمر؟

قال نيكليودوف:

- أطلب إليك أولاً ألا يعلم أحد عن مشاركتي في القضية التي سأحدثك عنها.

- بالتأكيد، هذا طبيعي. وما القضية؟..

- كنتُ محلفاً اليوم، وقد حكمنا على امرأة بالأشغال الشاقة، مع أنها غير مذنبه. وهذا يعدّ بني.

احمرّ نيكليودوف بالرغم منه، واضطرب. تفرّس فانارين فيه بنظرة سريعة، ثم خفض بصره، واستعدّ للإصغاء، مكتفياً بالسؤال:

- ثم ماذا؟..

- حكمنا على بريئة، وأود أن أعمل على نقض الحكم، أن أرفع القضية إلى محكمة عليا.

فأوضح فانارين:

- إلى مجلس الشيوخ.

- جئت أطلب إليك أن تتولى هذه القضية بنفسك.

وعجّل نيكليودوف فسوّى تلك النقطة التي كان يؤلّه أشدّ الألم أن يمسه. أضاف على الفور دون أن يتوقف:

— أما أتعابك وجميع النفقات الناتجة عن هذه القضية فأنا بالطبع، أتكلّل بها، مهما تكن عالية.

وأحسّ أنه يحمّر، للمرة الثانية.

أجاب المحامي وهو يتسم ابتسامة المجاملة من قلة خبرة موكله الأرستقراطي:

— نعم، نعم، سنتفاهم على ذلك.

روى له نيكليودوف القضية بإيجاز، واختتم بقوله:

— أود أن أعلم منك الآن، ما الذي ينبغي فعله.

— سأطلب الإضبارة غداً لأتمكن من إفادتك. بعد غد... لا، لنقل نهار الخميس... الخميس إذن، في الساعة السادسة مساءً، إذا تفضّلت بالمجيء إلى منزلي، فسأعطيك الجواب. موافق، أليس كذلك؟ أرجو أن تعذرني، فما يزال علي الكثير من الأشياء التي يجب فعلها في القصر قبل العودة.

استأذن نيكليودوف المحامي. وقد ردّ إليه هذا الحديث الجديد هدوءه أكثر من الحديث السابق؛ كان سعيداً كل السعادة لأنه بدأ مساعيه من أجل ماسلوف. خرج من القصر وتنشّق الهواء الربيعي بلذة. وعرض عليه حوذيو العربات خدماتهم، لكنه آثر أن يمشي. وسرعان ما

أقبلت عليه طائفة من الأفكار والذكريات المتعلقة بكاتيوشا وبالطريقة التي تصرف بها نحوها، تدوّي في رأسه. قال في نفسه «لا، سأفكر فيها فيما بعد، ينبغي أولاً أن أصرف ذهني عن هذه الانطباعات المؤلمة التي عانيتُها!».

حينئذ تذكّر عشاء كورتشاغين ونظر إلى ساعته. لاشك أن العشاء لم ينته بعد. وجرى نيكليودوف ليدرك مركبة تجرها خيول، مرّت وهي تدقّ جرسها. وعندما وصل الساحة، قفز من المركبة واختار أفضل عربة، ولم تمض عشر دقائق حتى ألقى نفسه أمام درج منزل كورتشاغين.

x x x

قال لنيكليودوف بواب منزل كورتشاغين البدين، بابتسامة متلطفة، وهو يتقدم نحوه، ويفتح باب السنديان الثقيل دون ضوضاء:

- لتفضل سيادتك بالدخول. فهم في انتظارك، فوق. هم على المائدة، ويرجون سيادتك أن تصعد إلى قاعة الطعام.

استخبر نيكليودوف وهو يخلع معطفه:

- وهل هناك مدعوون؟

أجاب البواب:

- هناك م. كولوسوف. ثم ميشيل سيرغيفتش، إضافة إلى الأسرة.

في أعلى السلم بدا وجه أنيق، وجه الخادم باللباس الرسمي، وبقفازين أبيضين.

- لتفضل سيادتك بالصعود. هم يرجون سيادتك أن تدخل.

صعد نيكليودوف السلم، واجتاز غرفة الانتظار الفسيحة،

الفخمة، ودخل قاعة الطعام. كانت أسرة كورتشاغين كلها تجلس حول المائدة، ماعدا الأم «ميسي»، الأميرة صوفيا فاسيلفنا، التي كانت تتناول دائماً طعامها في غرفتها. كان كورتشاغين العجوز يتصدر المائدة، وإلى يمينه طبيب الأسرة، وإلى يساره صديقه ايفانوفتش كولوسوف، وهو موظف قديم، لكنه في الوقت الحاضر عضو في مجلس إدارة أحد المصارف. ثم تأتي، إلى اليسار السيدة «ريدر»، مربية أخت «ميسي» الصغرى، ثم الأخت نفسها، وهي طفلة عمرها أربعة أعوام. وإلى اليمين، في مواجهة هؤلاء، أخو ميسي، «بيتيا»، ابن كورتشاغين الوحيد، وهو طالب ثانوي في السنة السادسة، وكان يستعد للتقدم إلى الامتحانات؛ ولذلك اضطرت أسرته إلى البقاء في المدينة. وإلى جانبه كان يجلس طالب شاب، هو أستاذه المعيد، وإزاءه، «ميشيل سيرغيفتش تيلغين» الملقب بـ «ماش»، ابن عم ميسي، وكاترين الكسييفنا، وهي عانس ابنة أربعين، مولعة بالسلافية. وأخيراً، في نهاية الطاولة، ميسي بقرب مكان ظل خالياً.

هتف كورتشاغين العجوز وهو يرفع على نيكليودوف عينين محتقتين بالدم. وكان يعضغ طعامه بجهد لا يتلعه بالأسنان الاصطناعية:

— هذا بديع! أسرغ، فمازلنا في حساء السمك.

وأضاف وفمه ممتلئ بالطعام، وهو يشير إلى رئيس الخدم المهيّب لكي يقود نيكليودوف إلى المكان الذي ظل خالياً:

— ستيفان!

كان نيكليودوف يعرف منذ زمن بعيد كورتشاغين العجوز، ورآه على المائدة كثيراً. على أن وجهه الأحمر والمحتقن، في هذا المساء، وفمه الشهوواني، وعنقه الضخمة، وجملته وجهه، وحتى الطريقة التي بها مرّر زاوية فوطته في قفا صدرته، كل ذلك صدمه بشدة. وتذكر على الفور وبالرغم منه، كل ما رُوي له عن قسوة هذا الرجل الذي أمر، عندما كان حاكماً للمقاطعة، بجلد ما لا يُحصى من الناس، بل وبشنق عدد كبير منهم.

— ستُخدم سيادتُك، على الفور.

كذلك قال ستيفان وهو يتناول من أحد أدراج الصوان ملعقة كبيرة للحساء. ووقف الخادم الأنيق خلف الكرسي الفارغة وسارع إلى ترتيب أدوات الطعام حول الفوطة المطرّزة بشعارات النبالة، المنشأة جيداً والمطوية بفن.

دار نيكليودوف حول المائدة ليشد على أيدي المدعووين واحداً واحداً. ووقف كل منهم ليمد يده إليه، باستثناء السيدات وكورتشاغين العجوز. هذه الجولة حول المائدة، هذه المصافحات لأناس يجهل معظمهم، بدت له مضحكة وبغيضة. اعتذر عن تأخره وهمّ بالجلوس بين ميسي وكاترين اليكسيفنا، لولا أن طلب إليه كورتشاغين العجوز أن يتناول المقبلات، إن أبي أن يشرب كأساً من الفودكا. فاضطر نيكليودوف أن يقترب من الطاولة الصغيرة التي وُضعت عليها المقبلات، من سرطان البحر، والكافيار، والجبن، وسمك البلسم. وحسب نفسه غير جائع، لكنه بعد أن ذاق الجبن، أقبل على الطعام بنهم.

سأله كولوسوف، وهو يردّد بسخرية تعبيراً استخدمته قبل بعض الوقت صحيفة رجعية، في مقالة ترمي إلى إظهار مخاطر نظام المحلّفين:
- ماذا هل نسفتم الأسس؟ لاشك أنكم برّأتم المذنبين، وأدنتم الأبرياء؟

فردّد الأمير العجوز وهو يتلوى من الضحك:

- نسفتم الأسس! نسفتم الأسس!

كان يستشعر ثقة لا حدّ لها، بفكر زميله وصديقه المتحرر وبعلمه.
لكن نيكليودوف لم يجب بشيء، خوفاً من أن يبدو غير مهذب.
وجلس أمام صحنّه وملاه بالخساء وظل يأكل بأقصى شهية.

قالت ميسي وهي تبسم بدالّةٍ تظهر طابع المودة الخاص في علاقاتهما:

- دعوه يأكل بهدوء.

كان كولوسوف قد نسي سؤاله. وكان يناقش، بلهجة عنيفة وبصوت عال جداً، مقالة الصحيفة الرجعية عن نظام المحلّفين. وكان ميشيل سير غيفتش يشير، وهو يردّد عليه، إلى الأخطاء الفظيعة في مقالة أخرى جديدة، منشورة في الصحيفة نفسها.

كانت ميسي كعادتها، متميزة تماماً. وكانت زينتها أنيقة أناقة محتشمة، معتدلة، لا عيب فيها.

قالت لنيكليودوف عندما فرغ من بلع حسائه:

- لاشك أنك مُرهقٌ من التعب وميت من الجوع.

- كلا، لم أبلغ هذا الحد! وأنتم هل شاهدتم معرض تلك اللوحات؟

- لا، أجبنا الزيارة. وقد لعبنا بكرة المضرب عند آل سالاماتوف.
أتعلم أن السيد «كروكس» يلعب لعباً رائعاً!

إنما جاء نيكليودوف إلى منزل آل كورتشاغين طلباً للتسلية. فزياراته لهذا المنزل كانت دائماً مبعث سرور له، سواء أكان ذلك بسبب الترف والثراء الذي يسود المنزل ويفتن ذوقه، ذوق الشاب المرفه، أم بسبب الإطراء الرقيق الذي كان يغمره على نحو غير ملحوظ. لكن كل شيء، في هذا المساء، وبمصادفة غريبة، كان مبعثاً لإزعاجه. كل شيء من البواب، حتى الرواق الفسيح، حتى الزهور، حتى الخدم بألبستهم الرسمية حتى ميسي ذاتها. ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يراها متصنعة ومنقّرة. وقد صدمته لهجة كولوسوف المدّعية والخشنة، ونزعته التحررية؛ صدمه وجه كورتشاغين الشهواني، الفاسد، والاستشهادات الفرنسية من العانس المولعة بالسلافية؛ وسحنتا المعلمة والمربي العابستان؛ وما صدمه على الأخص هو تلك الدالة التي تحدثت بها ميسي عنه، بدلاً من أن تسميه باسمه وباسم عائلته، مثل بقية المدعويين.

بصدد «ميسي»، كان نيكليودوف متردداً دائماً بين عاطفتين متناقضتين. فحيناً كان يرى فيها كل ضروب الكمال، وكأنه يراها

في الظل. كانت تبدو له صريحة، جميلة وذكية، بعيدة عن التكلف. وحيناً آخر كانت تبدو أنها تنتقل من الظل إلى النور. حينئذ يضطر إلى اكتشاف نقائصها. كانت هذه الحالة الأخيرة هي حالته في هذا المساء. رأى كل ما في جبينها من تجاعيد، والسنين الصناعيين في فمها، وأثر مجعد الشعر في ضفائرها؛ كان يرى نتوء عظام مرفقيها، وأذهله، على الخصوص، عرض أظافر أصابعها، التي ذكرته بأصابع كورتشاغين الغليظة.

صاح كولوسوف:

— يا لها من لعبة مضجرة، كرة المضرب تلك! لعبة «الطابة» التي كنا نلعبها في طفولتنا تسلي أكثر منها!

فاحتجت ميسي:

— كلا، ذلك لأنك لا تعرف تلك اللعبة. إنها مثيرة.

خُيِّل إلى نيكليدوف أنها لفظت كلمة «مثيرة» بتصنع لا يُطاق.

ونشب النقاش الذي اشترك فيه ميشيل سيرغيفتشس وكاترين الكسييفنا. المعيد والمعلمة والأولاد ظلّوا وحدهم صامتين، وبدا الضجر الشديد عليهم.

قال الأمير كورتشاغين وهو يُمعن في الضحك:

— ما لكم تتخاصمون دائماً!

ثم تناول فوطته بملء يده، وألقاها على المائدة، وهو يدفع بصخب كرسيه التي أمسك بها الخادم على عجل، فنهض الجميع في أثره ومضوا نحو طاولة صغيرة صُفّت عليها أكواب من الماء الفاتر المعطر. فتمضمض بها المدعوون وهم يواصلون نقاشهم الذي لم يكن في الحقيقة، يهم أحداً.

سألت «ميسي» نيكليودوف بعد أن أكّدت أن لا شيء يكشف عن طباع الناس مثل اللعب:

— ألسْتُ مُحَقَّة في ذلك؟

وسرعان ما لمحت على وجهه ذلك التعبير المنكمش والصارم الذي أقلقها مراراً فيه:

أجاب نيكليودوف:

— في الحقيقة، لا أعلم لي بذلك. وأنا لم أفكر قط في هذه المسألة.

واقترحت عليه الفتاة:

— أتريد أن نصعد إلى غرفة امي؟

قال وهو يشعل لفافة:

— بالتأكيد، بكل رضا.

على أن لهجة جوابه كانت تشير إلى رغبته في الاستعفاء من هذه السخرة.

نظرت إليه ميسي نظرة مُستفهمة، دون أن تقول شيئاً، فقال نيكليودوف في نفسه: «أقسم أنني ما جئت إلى هذا المكان إلا لأشيع الضجر من حولي!» لكنه بذل وسعه ليكون الطف، فرأى من واجبه أن يضيف بضع كلمات عما يلقاه من سرور حين يقدم تحياته إلى الأميرة، إذا لم تزعجها تلك الزيارة.

— على العكس، ستكون أُمي سعيدة. تستطيع أن تدخن عندها كما تدخن هنا. ولا شك أن ايفان ايفانوفتش قد صعد.

كانت ربة البيت، الأميرة صوفيا فاسيليفنا تقضي حياتها مضطجعة على كرسيها الهزازة. لم تكن تطيب لها الإقامة إلا في غرفتها بين المخمل والمذهبات والبرونز والمبرنقات والزهور. لم تكن تخرج قط. لم تكن تُسرى، كما كانت تحب أن تقول، سوى أصدقائها، أي الأشخاص الذين يتميزون، لسبب أو لآخر، عن سائر البشر. وكان نيكليودوف من بين هؤلاء الأصدقاء، لأنه كان يُعدُّ شاباً ذكياً، ولأن أمه كانت لها علاقات بآل كورتشاغين، ولا سيما لأن صوفيا فاسيليفنا كانت ترغب في تزويجه ابنتها.

كانت غرفة الأميرة تأتي بعد قاعتي الاستقبال الكبرى والصغرى. عندما بلغت ميسي، وكانت تمشي أمام نيكليودوف، القاعة الكبرى، وقفت فجأة، وقبضت بحركة عصبية على مسند أحد المقاعد، ورفعت عينيها نحوه.

كانت ميسي ترغب رغبة عظيمة في الزواج، وكانت ترى نيكليودوف زوجاً مناسباً. وفضلاً عن ذلك، فإنه كان يعجبها، ثم إنها

تعوّدت فكرة أن يكون لها، لا أن تكون له، بل أن يكون لها. وكانت تتابع هذه الغاية بمكر غير واع، لكنه مكر عنيد. قالت لنيكليودوف حينئذ بغتة، وهي تحدّق في عينيه، لتجبره على مكاشفتها بصراحة:

— أرى أن شيئاً ما وقع لك. قل لي ما هو؟

تذكر نيكليودوف الحادثة الغريبة التي وقعت له في محكمة الجنايات. فقطّب بين حاجبيه واحمرّ. واعترف، لأنه لم يشأ أن يكذب:

— نعم، وقع لي شيء، شيء غريب وغير متوقع، شيء خطير.

— ألا تريد أن تقول لي ما هو؟

— لا يمكنني الآن. اعذريني! وقع لي شيء أنا بحاجة إلى التفكير فيه.

— وهكذا فأنت لا تريد أن تُطلعني عليه؟

اختلجت عضلة في وجهها، فدفعت عنها مسند الكرسي الذي استندت إليه.

أجاب نيكليودوف، وهو يحسّ أنه، بجوابه هذا، يُشدّد، حتى إزاء نفسه، على الخطورة الهائلة لما وقع له:

— ليكن! هيا إلى غرفة أمي.

هزت رأسها، كأنها تريد أن تطرد فكرة مزعجة، واستأنفت سيرها

بخطوات أسرع. وخُيِّلَ إلى نيكليودوف أنه رآها تتحامل على نفسها
لكي لا تبكي. فخجل ولام نفسه لأنه أحزنها. على أنه كان يعلم أن
أقل ضعف سيضيعه، أي سيربطه بها إلى الأبد، كان أشد ما يخشاه، في
هذا المساء، أن يرتبط. فلزم الصمت إذن، وبلغ مع الفتاة غرفة الأميرة.

× × ×

كانت الأميرة صوفيا فاسيليفنا قد فرغت من طعامها الشهي جداً والوافر جداً، الذي كانت تتناوله وحدها، حتى لا يراها أحد وهي تقوم بهذه المهمة المبتذلة. فعلى منضدة صغيرة، بالقرب من مقعدها، صُبَّت لها قهوتها؛ كانت تشربها بجرعات صغيرة، وهي تدخن لفائف معطرة. كانت شديدة السمرة، شديدة الهزال، شديدة الطول، وكانت لها أسنان ضخمة وعينان سوداوان واسعتان. ولم يكن سنُّها يمنعها من أن تصطنع لنفسها مظهر الفتاة. وقد راجت إشاعات عن علاقتها بطبيها، ولم يستطع نيكليودوف الذي لم يلتفت إلى هذه الأقاويل من قبل، أن يمنع نفسه من تذكُّرها، عندما دخل الغرفة، وشاهد الطبيب الجسيم، جالساً قربها، بلحيته التي قُصَّت وفقاً للبدعة الشائعة. وأثار فيه منظرها إحساساً بالاشمئزاز الذي لا يُغلب. وكان كولوسوف جالساً عند قائمة الكرسي، على مقعد صغير بدون مسند، كان يحرك قهوته، وأمامه كأس صغيرة من الشراب موضوعة أمامه على منضدة.

لم تمكث ميسي التي دخلت الغرفة مع نيكليودوف، سوى لحظة.

قالت لكولوسوف ولنيكليودوف وهي تبسم له بفرح، وكان شيئاً لم يكن بينهما:

— إذا تعبت أُمي وأخرجتكما، فتعالا إلي، أليس كذلك؟

ثم خرجت بعد ذلك، وهي تنسلّ بخفة على السجادة الناعمة.

تظارفت الأميرة صوفيا ايفانوفنا قائلة، وعلى فمها ابتسامة متكلّفة، متصنعة، لكنه تكلف الصدق وتصنعه:

— نهارك سعيد يا صديقي العزيز! اجلس هنا وحدّثنا. كنا نتحدث عنك بالذات.

وأضافت بالفرنسية:

— كان هؤلاء السادة يقولون عنك إنك عدت من محكمة الجنايات مغتماً. مثل هذه الجلسات لا بد أن تكون شاقة على ذوي القلوب الرقيقة.

فأقر نيكليودوف:

— نعم، بالتأكيد. فهناك يشعر المرء، في الأغلب، بحق... عنيتُ: أن المرء يشعر أن ليس له الحق في الحكم على أخطاء الآخرين.

فهتفت بالفرنسية أيضاً، وبلهجة ترمي إلى إظهار إعجابها بصحة تفكير نيكليودوف، وكان من عاداتها الثناء على محدّثيها:

— ما أصدق كلامك!

وأردفت:

— ولو حثك، أين صرت فيها؟ إنها تثير اهتمامي كثيراً! لو كنت أقوى لذهبت إلى بيتك لأراها.

أجاب نيكليودوف بجفاء، وقد انكشف ما في إطرائها من نفاق، في هذا المساء، بقدر ما انكشفت شيخوختها التي سترتها بعناية. عبثاً بذل جهده كي يكون لطيفاً؛ لقد ذهبت جهوده أدراج الرياح.

قال:

— لقد هجرت تلك اللوحة كلياً.

قالت وهي تلتفت نحو كولوسوف وتشير له إلى نيكليودوف:

— إنها لجريمة! أتعلم أن رييين^(١٢) نفسه قال لي أن صديقنا يملك موهبة حقّة؟

وفكر نيكليودوف في نفسه:

«كيف لا تخجل من أن تكذب هكذا!!»

على أن صوفيا فاسيليفنا، حين شاهدت أن نيكليودوف لم يكن

١٢. رييين: إيفان إيفانوفتش رييين (١٨٤١ - ١٩٣٠) رسام واقعي ورسام أشخاص كانت لوحاته مستحسنة في ذلك الزمان. مؤلف لوحات ممتازة عن تولستوي.

في وضع حسن، وأنه لا أمل في جزّه إلى حديث شائق، ارتدّت إلى كولوسوف. فسألته رأيه في مسرحية جديدة مُثّلت حديثاً. وكان رأي كولوسوف، من لهجة السؤال، هي التي ستقمع فوراً جميع الشكوك، وكان لكل كلمة من كلماته قيمة المعجزة.

كان كولوسوف قاسياً على المسرحية الجديدة، وقد انتهز هذه الفرصة ليُعرض جميع أفكاره عن الفن. وبدأت الأميرة، كعادتها دائماً، مذعورة من صحة ملاحظاته؛ وإذا ما أقدمت؛ في بعض الأحيان، على الدفاع عن المسرحية، فما كان ذلك إلا لتعترف بهزيمتها في اللحظة التالية، أو لتجد حداً وسطاً. كان نيكليودوف يلاحظ ويستمع؛ وكل ما رآه وما استمع إليه مختلف عما كان يجري أمامه. تأكد أولاً أن هذين الشخصين لا يعبان بالمسرحية التي يتحدثان عنها، مثلما لا يعبا أحدهما بالآخر؛ كان الغرض الوحيد من حديثهما هو إشباع حاجة جسدية، هي تنشيط الهضم بتحريك عضلات اللسان والحنجرة. وكان كولوسوف قد ثمل قليلاً بعد أن شرب من الفودكا والبيذ والخمر الحلوة. ثملاً لا على نحو ما يشمل الذين لم يتعودوا الشرب، بل مثل الذين يشربون بانتظام. لم يشرد في حديثه، ولم يرو الحماقات، لكنه كان في حالة غير عادية من التهيج والرضا عن الذات. وأخيراً لاحظ نيكليودوف أن الأميرة، لا تن تلقى، في غمرة الحديث، نظرات قلقة نحو النافذة، التي أخذ يدخل منها شعاع مائل من الشمس الغاربة يوشك أن يكشف بوضوح مفرط عن تجاعيد وجهها.

أجابت على ملاحظة من كولوسوف وهي تضغط على الجرس:

- كل الحق معك!

نهض الطبيب، وخرج من الغرفة، دون أن يقول شيئاً، خرج أحد المترددين على المنزل. رأى نيكليودوف أن صوفيا فاسيليفنا تبعته بعينها، وهي تواصل الحديث.

وأمرت الخادم المهيّب الذي خفّ عند قرع الجرس:

- فيليب، هلاًّ أسدلتَ هذا الستار!

تابعت حديثها مخاطبة كولوسوف، في حين كانت عيناها ترصدان حركات الخادم المشغول بإسدال الستار:

- نعم، الحق معك، الصوفيّة تنقصه، ولا شعر بدون صوفية، الصوفية والشعر، أليسا ضروريين أحدهما للآخر؟ الصوفية بدون شعر، إنما هي خرافة؛ والشعر بدون صوفية، إنما هو نثر!

لكنها توقفت في بحثها فجأة:

- ما بك، يا فيليب! ليس هذا هو الستار الذي ينبغي إسداله، بل ستار النافذة الكبرى!

تهالكت على مقعدها، كأنما أعيّاها الجهد الذي بذلته في سبيل هذه الكلمات. ولكي تهدئ نفسها، أشعلت سيجارة معطرة، وأمسكتها بعناية، بين أصابعها المثقلة بالخواتم.

حنى الخادم القوي والأنيق رأسه انحناء خفيفة كأنه يريد أن

يعتذر. وخيّل إلى نيكليودوف أنه لمح في عينيه بريقاً لم يدم سوى ثانية، وكان يعني: «ليأخذك الشيطان، أيتها العجوز الحمقاء، أنت وعجرفاتك!» لكن فيليب أخذ ينفذ باحترام أوامر الأميرة المتضععة الأثرية، المتصنعة.

استأنف حينئذ كولوسوف كلامه وهو يتململ على منضدته:

— أما داروين فأنا أعترف أن في نظريته الكثير من الحق، لكنه يبالغ كثيراً في بعض الأحيان، لاشك في ذلك.

سألت الأميرة نيكليودوف الذي شق عليها سكوته:

— وأنت، هل تؤمن بالوراثة؟

فأرسل نيكليودوف الجواب بلا ترو:

— الوراثة؟ لا، لا أوؤمن بها!

لم يستطع أن يتخلص من الصور التي حملها إليه خياله. فأخلد إلى الصمت مرة أخرى. وإلى جانب فيليب الجميل ذي القامة العملاقة، التي تصلح، كما بدا له، أن تكون نموذجاً، خيّل إليه أنه يرى كولوسوف عارياً ببطنه المفلطح، ورأسه الأصلع، وذراعيه الرخوتين الشبيهتين بسوطين، ورأى أيضاً في خياله الموبوء ما ينبغي أن تكون عليه في الواقع كتفا صوفيا فاسيليفنا المغطاتان بالحرير والمخمل: صورة بشعة جداً إلى حد أنه طردها من خياله.

نظرت إليه الأميرة من فوق إلى تحت. وقالت:

- لا بد أن ماري تنتظرك. اذهب إليها، فإن في نيتها أن تعزف لك مقطوعة جديدة لغريغ... سترى، إنها مقطوعة جد شائقة!

فكر نيكليودوف وهو ينهض: «ليس في نيتها أن تعزف لي شيئاً! كل ذلك أكاذيب تختلقها لسبب لا أدري ما هو». ووضع شففيه على اليد البيضاء، المعروقة، المغطاة بالخواتم، يد صوفيا فاسيليفنا.

في قاعة الاستقبال لقي كاترين الكسيفنا التي استوقفته في الطريق وقالت له بالفرنسية كعادتها.

- بالرغم من كل شيء، أرى أن وظيفة المحلف موهنة لقواك.

أجاب نيكليودوف:

- أعذريني، لا أشعر أي في وضع حسن، هذا المساء، وليس لي الحق في أن أنقل متاعبي إلى الآخرين.

- ولم لم تكن في وضع حسن، يا ترى!؟

- أما هذا، فأستأذّنك بكتمانه.

- هل نسيت ما أعلنته ذات مساء أننا يجب أن نقول الحقيقة أبداً؟ وأنت انتهرت تلك المناسبة لتطلع علينا جميعاً بحقائق قاسية فكيف تأبى أن تصرّح بالحقيقة اليوم.

وأضافت وهي تلتف إلى الفتاة الداخلة:

- تذكرين ذلك، يا ميسي، أليس كذلك؟

فأكد نيكليودوف بلهجة جادة:

- في ذلك المساء، كنا نمزح. والشيء ممكن ونحن نمزح. أما في

الواقع، فنحن بائسون... أو، على الأقل، أنا بائس جداً... بحيث لا أجد ما يدعو إلى التفكير في البوح بالحقيقة.

استأنفت كاترين الكسيفنا كلامها بمرح، دون أن يبدو عليها أنها لاحظت جدية نيكليودوف.

— أنت مخطئ في استدراكك؛ الأولى أن تقول: إننا جميعاً بائسون.

قاطعتها ميسي:

— لا شيء أسوأ من اعتراف المرء لنفسه بأنه ليس في وضع حسن. أنا، لا أعترف لنفسي بذلك، ولذلك أجد نفسي دائماً في وضع حسن. هيا، تعال معي، سنحاول أن نزيل اغتنامك.

أحس نيكليودوف إحساساً شبيهاً بما قد تحس به الجياد وهي على وشك أن تُلجم وتُرَبَط. لم يخف قط من أن يُرَبَط مثل خوفه الآن. وانتهى بأن اعتذر محتجاً بأنه يجب أن يعود إلى منزله.

وعندما مدّ يده لميسي مستأذناً استبقت يده في يدها زمناً أطول من المعتاد. وقالت:

— لا تنس أن ما هو هام عندك، هام أيضاً عند أصدقائك، أتأتي غداً؟

أجاب نيكليودوف:

— أرجو أن أتمكن من المجيء.

أحس بالخجل، ولم يدر إن كان خجلاً عن نفسه أو عنها. وسارع إلى الخروج ليخفي خجله.

تعجبت كاترين الكسيفنا عندما غادر القاعة:

- ما معنى ذلك؟... ما أكثر ما يحيرني! لقد تغيّر كلياً لعلها قضية من قضايا حب الذات! فعزينا ميتا، شديد الحساسية!
قالت ميسي:

- قضية من قضايا حب الذات! بل قضية حب...

وأرادت أن تضيف «قذر». لكنها أمسكت عن ذلك. وحمل وجهها تعبيراً مختلفاً كل الاختلاف عن الذي واجهت به نيكليودوف. وفيما بينها وبين نفسها، كانت تقول: «على شرط ألا يتملص مني هذا أيضاً! سيكون ذلك سيئاً منه، بعد كل ما جرى بيننا!».

ولو أن ميسي سئلت ماذا تعني بهذه الكلمات: «كل ما جرى بيننا» لما لقيت شيئاً محدداً تجيب به. ومع ذلك فقد كانت تحس إحساساً واضحاً أن نيكليودوف لم يوقظ فيها الآمال فحسب، بل إنه وعدّها بالزواج أيضاً. ما جرى بينهما لم يكن كلمات محددة، بل كان نظرات وابتسامات، وتلميحات ولحظات صمت. كان ذلك كافياً لتعتبره كأنه ملك لها. وكانت فكرة فقدانها له قاسية عليها.

× × ×

كان نيكليودوف يحدث نفسه، وهو عائد إلى منزله، على قدميه، سالكاً الطريق التي طالما سلكها: «يا للعار ويللقتزز!» فالإحساس المؤلم الذي ابتعثه فيه حديثه مع ميسي لم يشأ أن يتبدد. كان يحس أنه حرّ تجاه الفتاة، من حيث الشكل، إن صح التعبير. فهو لم يكشفها قط بحبه مكاشفة صريحة، ولم يلتزم قط، لكنه في الواقع، ملتزم تجاهها. ومع ذلك، فقد كان يشعر، هذا المساء، أن من المستحيل عليه الزواج بها.

كان يردد في نفسه: «يا للعار ويا للقتزز»، وهو يفكر لا في علاقاته بميسي فحسب، بل في حياته كلها وفي حياة الآخرين. كانت هذه الكلمات تعاوده، كأنها لازمة؛ وكان يرددها على نفسه في اللحظة التي دخل فيها منزله.

قال لخادمه «كورني» الذي أقبل عليه وتهياً لخدمته:

— لن أتعشى، انصرف!

أجاب كورني:

— أنا بأمرك.

لكنه لم ينصرف، وأخذ يرفع عن الطاولة ما كان عليها من صحاف.

لم يستطع نيكليودوف أن يمنع نفسه من التفكير في أن الخادم يفعل ذلك ليغيظه. كان يود لو تركه الجميع وشأنه، وها إنهم جميعاً يصرون على مضايقته، وكأنهم يقصدون إلى ذلك قصداً!

وأخيراً، خرج الخادم. اقترب نيكليودوف من السماور ليُعد الشاي، لكنه عندما سمع، في البهو، خطوات اغرافنا بيتروفنا الوئيدة، هرب مسرعاً، خوفاً من أن يراها. انتقل إلى قاعة الاستقبال وأغلق الباب خلفه بالمفتاح.

في هذه القاعة، تُوفيت أمه قبل ثلاثة أشهر. وكان يضيء القاعة الفسيحة مصباحان لهما مرآتان عاكستان، ينيران الصورتين المعلقتين على الجدار، صورتَي أبيه وأمه. وحين رأى هاتين اللوحتين، تذكر سلوكه نحو أمه في الآونة الأخيرة، وهنا أيضاً لم يجد سوى العار والتقزز، أمام زيفه هو نفسه. فلقد تمنى موتها في نهاية الأمر، لكي يرى المسكينة وقد تخلصت من أوجاعها. على أن ما يبدو له الآن أنه تمنى موتها ليتخلص هو نفسه من مرأى أوجاعها.

ولكي يُفلت من محاصرة هذه الذكريات، اقترب من الصورة، وهي عمل فنان مجهول، دُفع له قديماً خمسة آلاف روبل ثمناً لها. صُوّرت الأميرة فيها بفستان من المخمل الأسود، وهي مكشوفة العنق. وكان واضحاً أن الفنان غني بتصوير ابتداء الشدين، والفواصل الذي يفصل

بينهما، والكثفين اللتين كانتا جميلتين جداً. ومرة أخرى انتاب نيكليودوف إحساس من العار والتقزز. لقد رَوَّعه ما في طريقة تمثيل أمه بمظهر حسناء نصف عارية من إيذاء للعين. آله هذا الأمر إيلاًماً شديداً، ولا سيما أن هذه المرأة نفسها قد تمددت على أريكة، في هذه الغرفة نفسها، قبل ثلاثة أشهر، متيَّسة كالمومياء، ناشرة في البيت كله رائحة أفسدته. وتذكر نيكليودوف أنها أمسكت، عشية موتها، يده في يديها المسكنتين الناحلتين، ونظرت إليه في عينيه، وقالت له: «لا تحكم علي، يا ميتي، إن كانت قد أخطأت!»، وأن الدمع فاض من عينيه المرتعبتين.

قال في نفسه وهو يتأمل الصورة التي عرضت فيها أمه كتفيها وذراعيها المرمرية، البديعة، وابتسامتها المتعالية: «يا للعار!» لقد ذكره عري هذا الصدر بامرأة أخرى، رآها قبل بعض الوقت، مكشوفة الصدر بالطريقة نفسها. كانت ميسي؛ إذ دعت ذات مساء إلى حفلة راقصة ليراهما في فستانها الجديد. وتذكر نيكليودوف باشمئزاز حقيقي السرور الذي أحس به وهو يتملَّى كتفي الفتاة البديعتين وذراعيها الجميلتين. وكان والدا الفتاة حاضرين، حضرا هذا المشهد ذلك الأب الفظ والشهواني، مع ما في ماضيه من وحشية، وتلك الأم، تلك «الظريفة»، ذات السمعة المشبوهة! كل ذلك كان منفراً ومخجلاً.

قال في نفسه: «لا، لا، لا يمكن أن يستمر هذا. يجب أن أتحرر، يجب أن أقطع علاقاتي الكاذبة بآل كورتشاغين هؤلاء، وبماريا فاسيليفنا، ومن سواهم!... ينبغي أن أهرب، أن أتنفس الهواء! أن أسافر إلى الخارج، إلى روما، أن أكمل لوحتي...».

وعادت إليه، على التو، ذكرى شكوكه في موهبته الفنية.

«ياه! ما أهمية ذلك! الشيء الأساسي هو أن أستنشق الهواء بسلام. سأذهب أولاً إلى القسطنطينية، ثم إلى روما. سأسافر حالماً أنتهي من محكمة الجنايات وأسوي القضية مع المحامي».

ومرة أخرى انتصبت أمامه صورة السجينة حية، بعينيها السوداوين المائلتين إلى الحول. كم بكت عند الكلمات الأخيرة التي نطقت بها! رمى نيكليودوف، بحركة مباغتة، اللفافة التي أشعلها قبل قليل، وأشعل أخرى، وأخذ يمشي جيئةً وذهاباً في القاعة. رأى بعين الخيال الدقائق التي قضاها مع كاتيوشا، دقيقة فديقة. وعاش من جديد مشهد الغرفة الصغيرة، والهوى الشهواني الذي جرّفه، وانقشاع الأوهام حالماً أشبع أهواءه. رأى من جديد الفستان الأبيض والربطة الحمراء، وقدّاس الليل. «نعم لقد أحببتها، لقد أحببتها حقاً حباً عظيماً وخالصاً في تلك الليلة؛ وأحببتها أيضاً قبل هذه الليلة! وكم أحببتها وأنا أحضّر رسالتي عند عمتي!».

رأى نيكليودوف نفسه كما كان إذ ذاك. وأحس بنفسه يجتاحها عطر النداء والشباب والحياة المليئة والحرّة. فاشتد الحزن الذي كان يرهقه.

وبدأ له عظيماً الفرق بين الرجل الذي كانه آنذاك والرجل كما هو الآن: عظم الفرق - إن لم يكن أكبر - بين كاتيوشا الكنيسة، في ليلة الفصح، وكاتيوشا البغي، عشيقه التاجر السييري التي كان عليه أن يقضي في أمرها قبل حين. كان إذ ذاك رجلاً شجاعاً وحرّاً، تنفتح

أمامه إمكانيات لا حد لها؛ أما الآن، فهو يرى نفسه مشدوداً بأربطة حياة بلهاء، لا جدوى منها، حياة لا يلمح لها مخرجاً، أو بالأحرى، لا يقوى على الخروج منها. وتذكر كم كان، إذ ذاك، فخوراً بصراحته، وكيف اتخذ لنفسه مبدأ هو أن يقول الحقيقة، وكيف كان يقولها، فعلاً. أما الآن فهو يرى نفسه غارقاً في الكذب، في كذب غريب تعس بتظاهر الذين حوله باعتباره هو الحقيقة. ولم يكن يجد مخرجاً من هذا الكذب لأنه كان غارقاً فيه، متعوّداً له، متشبّعاً به.

كيف يتخلص من علاقاته بماريا فاسيليفنا؟ كيف يستطيع أن ينظر مرة أخرى في وجه زوج هذه المرأة، وأولادهما؟ كيف يلغي التزامه إزاء ميسي؟ كيف يفصل في التناقض القائم، في نظرة، بين إعلانه عما في ملكية الأرض من ظلم، واستغلاله لأملاكه، وهو استغلال لا بد له من عائداته لكي يعيش؟ كيف يمحو الخطأ الذي ارتكبه نحو كاتيوشا؟ ومع ذلك، فالأشياء لا يمكن أن تبقى حيث كانت. قال في نفسه: «لا أستطيع أن أتخلّى عن امرأة أحببتها، مكتفياً بدفع أتعاب المحامي لأنترعها من الأشغال الشاقة التي لا تستحقها، على كل حال! إن رغبتني في محو خطيئتي بالمال، هو عودة إلى الخطأ الذي ارتكبته عندما أردت أن أبرئ ذمتي تجاه كاتيوشا بإعطائها مائة روبل.

رأى من جديد تلك اللحظة، في ممر منزل عمتيه، اللحظة التي دسّ فيها المال لها قبل أن يلوذ بالفرار. وحدث نفسه بمزيج من الرعب والحجل خامراه آنذاك: «آه! هذا المال! الشقي وحده يمكن أن يتصرّف على هذا النحو! لكن، أمن الممكن أن أكون شريراً؟

وأجاب نفسه بنفسه: «لا شك أنك كذلك. فعلاقاتك بماريا

فاسيليفنا، وصداقتك لزوجها، أليس كل هذا من فعل الأشقياء؟ وموقفك من تركة أمك؟ والطريقة التي تستغل بها ثروة تعلن أنت عنها أنها غير أخلاقية؟ وكل هذه الحياة الفارغة والقدرة؟ وفوق ذلك كله، سلوكك إزاء كاتيوشا؟ إنما أنت شقي! أما رأي الآخرين فيك، فهو قليل الأهمية؛ تستطيع أن تخدع الناس، لكنك لا تستطيع أن تخدع نفسك!«.

أدرك نيكليودوف أن النفور الذي حسب نفسه يحسّ به، منذ بعض الوقت، وفي هذا المساء، على الخصوص، من الناس، من الأمير العجوز، من صوفيا فاسيليفنا، من ميسي، من مربيته وخادمه، لم يكن، في الواقع، سوى نفور من ذاته. ومن غرائب الأمور أن إقراره هذا بحقارته ترك فيه أثراً مهدّئاً ومعزّياً.

باشر نيكليودوف في حياته من قبل، عدة مرات، ما وصفه بـ«تنقية الضمير». وكان يطلق هذه التسمية على الأزمات الأخلاقية التي كان يشعر فيها بتباطؤ حياته الداخلية، وأحياناً يتوقف هذه الحياة، فيعمد إلى كنس هذه النفائات التي كانت تدنّس نفسه.

وكان نيكليودوف، عند خروجه من هذه الأزمات، لا يني يفرض على نفسه قواعد للسلوك يُقسم أمام نفسه على أتباعها دائماً. وكان يحرر مذكراته الحميمة، فيذهب إلى أنه سيبدأ حياةً جديدة، «سيقلم صفحة» على حد تعبيره. لكن الاتصال بالمجتمع كان يجرفه، في كل مرة، فيعود، على نحو غير محسوس، إلى النقطة نفسها، أو إلى نقطة أدنى مما كان عليه قبل الأزمة.

لقد شرع، لأول مرة، بمثل هذه «التنقية» في الصيف الذي جاء فيه ليقضي عطلته عند عمته. كانت الأزمة إذ ذاك حادة جداً، أزمة حماسة الشباب، وقد دامت آثارها زمناً طويلاً. ووقعت الأزمة الثانية، أثناء الحرب ضد الأتراك، حين حلم بالتضحية بحياته، وطلب أن يُرسل إلى ميدان الحرب. لكن آثار الأزمة، في هذه المرة، تبددت بسرعة. وأخيراً، وقعت الأزمة الثالثة، عندما ترك الجيش لينصرف كلياً إلى الرسم.

ومنذ ذلك الوقت، لم يعمد قط إلى «تنقية» ضميره: ومن هنا جاء أن الفرق بين ما يأمره به ضميره، والحياة التي يحياها، لم يبلغ قط مثل هذا الاتساع. فارتاع حين شاهد ذلك. كانت الهوة من العمق بحيث بدا له، في مبتدأ الأمر، أن ردمها مستحيل.

كان يصرخ فيه صوت خفي: «لقد حاولت، أكثر من مرة أن تصلح نفسك وأن تغدو أفضل. فما جدوى الشروع بمحاولة جديدة؟ ثم إنك لست وحدك في هذه الحالة، كل الناس مثلك!»

لكن الكائن الأخلاقي، الكائن الحر، الفعال، الحي، الكائن الحقيقي الوحيد، الموجود في كل منا، هذا الكائن قد أعلن عن ذاته، في هذه اللحظة. كان يصغي إليه، لم يكن يستطيع أن يمتنع من الإصغاء إليه، من الإيمان به. هذا الكائن الداخلي كان يؤكد له أن كل شيء ما يزال ممكناً، مهما يكن البون شاسعاً بين ما هو عليه وما تمنى أن يكون عليه.

وقرر: «سأقطع روابط الكذب التي قيدتني، مهما كلفني تقطيعها. سأعترف بكل شيء، سأقول الحقيقة، سأتصرف بموجب

الحقيقة! سأصارع ميسي بالحقيقة، سأقول لها إنني متهتك، وأنني لا أستطيع الزواج بها؛ سأطلب صفحها عن تكديري لها! سأقول لماريا فاسيليفنا... أو بالأحرى لا، لن أقول لها شيئاً، لكنني سأصارع زوجها بأنني حقير، غير جدير بصداقته. وسأصارعها هي أيضاً، كاتيوشا، سأقول لها إنني حقير، وأنني أجرمتُ بحقها. سأفعل كل شيء للتهوين من مصيرها. نعم، سأراها، وسأطلب صفحها... سأطلب صفحها كما يفعل الأطفال...»

توقف لحظة ثم استأنف: «سأزوج بها، إذا لزم الأمر»

وتوقف مرة أخرى. كانت حماسه الداخلية تتعاضد من دقيقة إلى دقيقة. وفجأة ضم يديه، كما كان يفعل في طفولته.

ورفع عينيه وتمتم: يا ربي أنجديني، وعلمني، وانفذ إلي لتطهرني!

كان نيكليودوف يصلي. كان يسأل الله أن ينفذ إليه ليطهره، مع أن المعجزة التي طلبها في صلاته قد تمت. فالله الذي كان يحيا فيه استولى على ضميره مرة أخرى. لم يكن نيكليودوف يشعر فقط بالحرية والصلاح، والفرح بالحياة، لكنه كان يشعر أيضاً أن الخير قادر على كل شيء. كان يشعر أنه قادر على إتمام كل ما يستطيع الإنسان أن يفعله من خير.

تسابت الدموع إلى عينيه الآن، وهي دموع خيرة وشريرة في آن واحد. خيرة لأنها كانت دموع السعادة التي تبتعثها يقظة ذلك الكائن الداخلي الذي كان غافياً فيه سنين طوالاً، وشريرة لأنها كانت دموع الكبرياء والإعجاب بذاته وبسموه الأخلاقي.

كاد يختنق، تقدّم نحو النافذة وفتحها. كان الليل ينبسط على
الحديقة ندياً، مقمراً، صامتاً. دوى صوت عجلات على البعد، ثم عاد
كل شيء إلى الصمت. وتحت النافذة، ارتسم على رمل الممر وعلى
العشب ظل صفصافة ماتزال عارية. وإلى اليسار، بدا سقف المستودع
ناصع البياض تحت أشعة القمر. كان نيكليودوف يتأمل الحديقة التي
غمرها نور فضي خفيف برز فيه ظل الصفصافة؛ كان يستنشق نسمة
الليل المنعشة. وتمتم:

— ما أجمل ذلك، يا إلهي! ما أجمل ذلك!

وإنما كان يتكلم على جمال ما قد وُلِدَ فيه.

× × ×

لم تُعد ماسلوفاً إلى السجن إلا في نحو الساعة السادسة. أحسّت أنها منهوكة القوى. فقسوة الحكم الذي صدر ضدها، وهي قسوة لم توقعها، قد حطّمتها؛ والطريق الطويلة التي كان عليها أن تقطعها عبر شوارع المدينة السيئة البلاط، أتت على ما تبقي فيها من قوّة. كانت تموت من الجوع. ففي أثناء أحد توقّفات الجلسة، تناول حارسها طعامهما، من الخبز والبيض المسلوق، على مرأى منها. فامتلاً فمُها باللعب وتبيّنت أنها جائعة؛ لكنها، بسبب إحساسها بكرامتها، أبت أن تسأل الحرّاس شيئاً. ثم استؤنفت الجلسة لتستمر أكثر من ثلاث ساعات، بحيث أنها سهّت عن جوعها لفَرط تعبها وتبلّد مشاعرها. في هذا الوضع، سمعت تلاوة الحكم.

في البدء، خيّل إليها أنها تحلم؛ وبدالها ذلك كابوساً سوف تُفيق منه بين لحظة وأخرى. لكنها أدركت، من الطريقة الطبيعية التي استقبل بها القضاة والمحامون والشهود والقاعة بأسرها تلاوة الإدانة، أدركت أن كل ذلك واقعي حقاً. وتولّأها هياج عاطفي وصرخت، بكل قواها، أنها بريئة. ثم لاحظت أن صراخها، هو أيضاً، يُستقبل وكأنه

شيء طبيعي، مُتوقع، عاجز عن تبديل أي شيء في وضعها. فانفجرت باكياً، مذعنة كل الإذعان لأن تتحمل، منذ الآن، وحتى النهاية، ذلك الظلم الغريب والفادح الذي أنقل به ظهرها قدرها الغاشم.

هناك شيء كان يُدهشها، على الخصوص: وهو أن مثل هذا الحكم القاسي قد حكم به رجال - رجال في أوج الشباب، وليسوا شيوخاً - رجال تفرّسوا فيها، طوال الجلسة، بعيون ملاطفة. وفيما عدا وكيل النيابة الذي بدت لها نظراته، طوال الوقت، مليئة باللوم، لم يبق أحد إلا سرّه النظر إليها. وإذا هؤلاء الرجال أنفسهم الذين ألقوا عليها نظرات متودّدة يصدرون حكمهم عليها بالأشغال الشاقة، مع أنها كانت بريئة من الجرم الذي نسبوه إليها! ولقد بكت حتى جفّت مآقيها من البكاء. وفي النهاية، كفّت دموعها عن الانهمار؛ وعندما اقتيدت، بعد المحاكمة، وحُبست في حبس منفرد في قصر العدل، ريثما تُنقل إلى السجن، لم تفكر إلا في شيئين: في التدخين وفي الشراب.

كانت وحدها في الحبس، منذ بعض الوقت، عندما شقّ عليها الباب الدركي الموكل بحراستها، وسلّمها ثلاث روبات.

- هيا، خذي! هذه النقود بعثت بها سيدة لك.

- أية سيدة؟

- هيا، خذي! ليس من واجبي أنا أناقشك!

هذا المال أرسلته السيدة كيتايف، مديرة دار البغاء. لقد سألت هذه السيدة الحاجب، عند خروجها من الجلسة، إن كانت تستطيع

أن تعطي الحكومة شيئاً من المال. ولما ردّ عليها بالإيجاب خلعت بحذر القفّاز ذا الأزرار الثلاثة الذي يغطي يدها اليسرى، ثم تناولت من جيب تنورتها الحريرية كيس نقود مملوءاً بالأوراق النقدية وبالقطع النقدية الصغيرة. وسلّمت الحاجب ورقة بروبلين ونصف مضيفة إليها خمسين كوبيكاً من النحاس فسلمّها الحاجب على الفور، بمراى منها، إلى الدركي الذي أوصته قائلة:

— لا تنس أن تعطيها كل هذا.

اغتاظ الدركي من هذه التوصية؛ ومن هنا تبرّمه بماسلوف.

ولقد ابتهجت ماسلوفاً عندما رأت هذه النقود التي ستتيح لها أن تحقق رغبتها. وقالت في نفسها: «على شرط أن أتمكن من الحصول على السجائر بسرعة، ثم أستلقي!» كانت أفكارها جميعاً متركّزة على هذه الأمنية الوحيدة. كانت تشتهي التدخين بقوة حملتها على أن تنسّم بلذة رائحة التبغ الذي كانت نفحاته تنفذ إلى غرفتها.

على أنها انتظرت طويلاً قبل أن تحقق هذه الرغبة، إذ نسيها كاتب المحكمة الذي كان معنياً بإعادتها إلى السجن. فقد تأخر ليحدث قاضياً بديناً ومحامياً في شؤون السياسة. وأخيراً جيء بها، في الساعة الخامسة، بعد نقل كارتنكين وبوتشكوف، وسلّمت إلى الجنديين اللذين اقتاداها، في هذا الصباح. وفي الطريق أعطت أحد الجنديين الخمسين كوبيكاً ورجته أن يشتري لها رغيفين وسجائر.

أخذ الجندي يضحك، وقال:

– طيب، سأشتري لك ذلك!

وبالفعل فقد ذهب لشراء السجائر والرفيغين، مُرجعاً بأمانه ما بقي من النقود. أكلت ماسلوفاً الخبز، وهي سائرة، لكن كأن ذلك لم يزلها إلا خواء.

لم تبلغ السجن إلا بعد مغيب الشمس. وأخروها طويلاً، في البهو، لأن الحراس أدخلوا السجن. في الوقت نفسه، قافلة من مائة سجين أرسلوا من مدينة مجاورة.

كان بين هؤلاء الملتحون والحليقون، والشيوخ والشبان، والروس والدخلاء. كان بينهم من حُلِقَ نصف رأسه وقُتِدَت رجلاه بالحديد. وعندما مروا أمام ماسلوف، نظروا إليها جميعاً بشهوة. وكثيرون منهم ابتسموا لها، وقد ألهمت الشهوة وجوههم، ودنوا منها، وقرصوها. قال أحدهم:

– هيه، هيه! يا لها من فتاة جميلة!

– وقال آخر وهو يغمز بعينه:

– تحياتي يا حلوتي!

ومن بينهم رجل أسمر، ذو شاربين كبيرين، حُلِقَ أعلى رأسه، قد بالغ في تبذله حتى قبلها. وقال لها عندما صدته عنها:

– ما بك، ألم تعرفيني، أنا صديقك الحميم؟ لا تصنعي كل هذا التصنع!

صرخ نائب المدير الذي كان يخبر في اللحظة نفسها من مكتب السجن:

- هيه! أنت، أيها الحيوان، ماذا تفعل؟

وعلى الفور، تراجع السجين، وهو يرتعد بكل فرائضه.

التفت نائب المدير إلى ماسلوفاً:

- وأنت، ماذا جئتِ تفعلين هنا؟

أرادت ماسلوفاً أن توضح له أنها عائدة من محكمة الجنايات، لكنها كانت مجتهدة جداً بحيث خانتها قدرتها على الكلام.

أجاب أحد الجنديين وهو يرفع يده إلى قبعته:

- إنها عائدة من المحكمة، يا سيدي.

- يجب أن تأخذوها إلى رئيس الحرس. هيا، أسرعوا! هذه فضيحة!

- أمرك، يا سيدي.

زعق نائب المدير:

- سو كولوف! خذها!

تقدّم رئيس الحرس، ودفع بحق ماسلوفاً من كتفها، واقتادها، وهو يومئ إليها برأسه، إلى الممر، إلى قسم النساء.

وعندما بلغت الممر، فُتشت تفتيشاً دقيقاً، ولما لم يجدوا شيئاً - كانت السجائر مخبأة في الرغيف - دفعوا بها إلى المهجع الذي تركته هذا الصباح.

× × ×

كانت القاعة التي اقتيدت ماسلوفا إليها غرفة كبيرة طولها ستة أمتار ونصف، وعرضها خمسة أمتار، ولها نافذتان. وكانت خالية من الأثاث إلا من مدفأة قديمة زال عنها أكثر غطاءها الكلسي، وأسرة من الألواح الخشبية المفككة، تشغل ثلثي المهجع. وقد عُلقَت على الجدار، في مواجهة الباب، أيقونة سوداء من الوسخ، تشتعل أمامها شمعة، وبجنبها باقة من زهور الخالدة المغبرة المتدلية تحت الأيقونة. ووراء الباب، إلى اليسار، وضع حوض القمامة، حيث كان البلاط أوسخ شيء. كان قد جرى تفقّد المساء وأُغلق المهجع على مَنْ فيه وكان فيه خمسة عشر شخصاً: اثنتا عشرة امرأة وثلاثة أطفال.

كانت الرؤية ماتزال واضحة. امرأتان فقط كانتا مضطجعتين. إحداهما بلهاء، حُبست بسبب تشرّدها، كانت تنام ورأسها مغطى بمعطفها، طوال اليوم. أما الأخرى التي حُكِمَ عليها بجرم السرقة، فكانت مُصابة بالسل الرئوي. لم تكن تنام، بل كانت مستلقية مفتوحة العينين، وقد أسندت رأسها إلى معطلها الذي طوي على شكل مخدة. ولكي لا تسعل، كانت تحبس في فمها دفعات التفّل التي تصعد إلى شفّتها.

وأما النساء الأخريات وكن، في معظمهن، يلبسن قمصاناً من نسيج غليظ، فبعضهن كن جالسات على الأسرة الحقيبة يخطن ثيابهن، وبعضهن كن واقفات أمام النوافذ يشاهدن قافلة السجناء وهي تمرّ في فناء السجن. وبين النساء اللواتي كن يخطن، العجوز كورابليوفا، التي كلّمت ماسلوفاً، في الصباح، من كوة الباب. كانت مخلوقة متجهّمة السحنة، لها حاجبان كثيفان مقطّبان، وغضون في الجلد تدلّ من تحت ذقنها، وشعر متفرق على الصدغين، أحمر دبّ فيه الشيب، وتؤلّول مغطّى بالشعر، في وسط خدها. وكانت طويلة القامة، شديدة، متينة البنية. وقد حُكم على هذه العجوز بالسجن لأنها قتلت بضربة فأس زوجها الذي وجدته ذات يوم يفجرُ بابنتها. كانت كورابليوفا سيدة القاعة، ولها امتياز بيع الخمر. كانت في هذه اللحظة تخطط، وهي جالسة قرب النافذة، ممسكة بالإبرة، على الطريقة الفلاحية بثلاث أصابع من أصابع يدها القوية، السوداء. وكان بجنبها امرأة مشغولة بالخياطة أيضاً، امرأة قصيرة، سوداء، خنساء، لها عيان صغيرتان، وديعتان، سوداوان، دائمتا الحركة. وكانت هذه حارسة على حاجز السكة الحديدية. وقد حُكم عليها بالسجن لمدة ثلاثة أشهر، لأنها غفلت، ذات ليلة، عن تحريك الراية لدى مرور القطار، مما سبب اصطداماً.

المرأة الثالثة التي كانت تتحدث هي فيدوسيا، أو فينيتشكا كما كانت تدعوها رفيقاتها. كانت في ريعان الشباب، متورّدة، بيضاء، لها عيان زرقاوان، صافيتان كعيني طفل، وضميرتان طويلتان كستنائيتان، ملفوفتان حول رأسها. وإنما حُكم عليها بالسجن لأنها حاولت أن تدسّ السم لزوجها. كان ذلك في ليلة عرسها، وعمرها

نحو ستة عشر عاماً، وكان الرجل الذي زُوجت به بغيضاً على قلبها، لكنها انتهت بأن أُغرمت به، أثناء الأشهر الثمانية التي سبقت إدانتها، بحيث أنها كانت على أتمّ وفاق معه في اللحظة التي حُكم عليها فيها بالسجن. على أن هذه التفاصيل لم تمنع المحكمة من الحكم عليها بالأشغال الشاقة في سيبيريا، بالرغم من توسلات زوجها وأهله الذين رَقَّوا لها أصدق رقة. إن فيدوسيا هذه، الطيبة المرحّة، المستعدة دائماً للابتسام، كانت جارة ماسلوفافي السرير. ولم تلبث أن تعلقت بها فلم تدع مظهرًا من مظاهر العناية والرعاية إلا أحاطتها به:

وغير بعيد عنها، جلست امرأتان على سرير. إحداهما عمرها نحو أربعين سنة، هزيلة وشاحبة، وإن احتفظت بمسحة من جمال قديم؛ كانت تحمل بين ذراعيها طفلاً أعطته نديها. وكانت فلاحاً أودعت السجن بجرم التمرد على السلطة. فقد جاءت الشرطة يوماً إلى قريتها لسوق أحد أبناء إخوتها إلى الخدمة العسكرية، فتصدى الفلاحون الذين اعتبروا هذا التدبير غير شرعي، لمفوض الشرطة وخلصوا الشاب. وكانت هذه المرأة أول من ارتدى على رأس الجواد الذي أركبوا عليه ابن أخيها.

وكانت المرأة الأخرى الجالسة بقربها، عجوزاً قصيرة، محنية الظهر، بيضاء الشعر. وكانت تتظاهر بأنها ستقبض على طفل بدين ابن أربعة أعوام، متورد الوجنتين، ممتلئ الوجه، كان يركض حولها وهو يقهقه. وكان لا يكف عن ضحكه إلا ليقول:

— لن تمسكي بي!

لقد حُكم على هذه العجوز بتهمة الاشتراك مع ابنها في محاولة إضرار حريق. وكانت تتحمل سجنها مذعنةً، لا يشغل بالها سوى ابنها وزوجها الذي لا يجد أحداً غيرها ينظفه ويخلصه من قمله.

وكانت أربع نساء أخريات يقفن أمام النافذة المفتوحة، وقد أسندن رؤوسهن إلى قضبان النوافذ. كن يحدثن السجناء الذين يمرون في الفناء، وهم أنفسهم الذين لقيتهم، قبل لحظة، ماسلوفا في ممر مدخل السجن. كانت إحداهن امرأة محكومة بجرم السرقة، حمراء الشعر، طويلة، رخوة الجسم، ذات وجه أصفر مغطى بالنمش. وكانت تصرخ بصوتها المبحوح، من النافذة، بكل ما في جعبتها من ألفاظ بذئنة. وبجانبتها وقفت سمراء صغيرة كأنها طفلة ابنة عشرة أعوام بقامتها الطويلة وساقها القصيرتين، كان وجهها أحمر مليئاً بالنمش وعيناها سوداوين واسعتين، وشفثاها ضخمتين مشمّرتين تكشفان عن صف من الأسنان البيضاء، الناتئة. وكانت تضحك ضحكاً متقطعاً وهي تستمع إلى الحوار الجاري بين جارتها وسجناء الفناء. كانت تدعى «الحسنة» بسبب ما تبديه من أناقة. وخلفها وقفت امرأة، هزيلة، معروقة العظام، سحنتها تدعو إلى الرثاء، بائسة حُكم عليها بالسجن لإخفائها أشياء مسروقة. كانت لا تقول شيئاً، مكثفية أحياناً بالابتسام، وكأنها تستحسن ما تسمعه من كلام بذيء. أما السجينة الرابعة فكانت محكومة بالسجن لبيعها الخمور المهرّبة. وهي أم الصبي الذي كان يلعب مع المرأة الحداث، وأم لطفلة في السابعة من عمرها، سُمح لها بالعيش في السجن أيضاً، إذ لم تجد من تعهد بها إليه. وكانت الطفلة تقف بجانب أمها وتصيخ السمع إلى الأحاديث الماجنة التي يتبادلها السجناء من النافذة. كانت رقيقة، ناعمة، بعينيها الزرقاوين

الساحرتين، وبضفيريتهما الساقطتين على ظهرها، والبيضاوين تقريبا.

المرأة الثانية عشرة، أخيراً، كانت ابنة شماس متهمة بجرم إغراق وليدها في بئر. كانت فتاة طويلة، قوية، شقراء، شعثناء الشعر، مدوّرة العينين، جامدة النظرة، كانت هذه لا تنفك عن المشي جيئة وذهاباً في الحيز الخالي بين الأسرة، غير عابئة أحد، ولا مكلمة أحداً، مرسلّة ضرباً من الدمدمة التي لا تُفهم، وكلما بلغت الجدار استدارت راجعة.

× × ×

عندما انفتح الباب لتمر منه ماسلوفاء، توقفت ابنة الشماس لحظة عن تمشيها في القاعة، ورفعت حاجبيها لتتأمل القادمة الجديدة. وبعد ذلك، استأنفت مشيتها بخطوات واثقة، دون أن تقول شيئاً. وغرزت كورابليوفا إبرتها في الكيس الذي كانت تخيطه، ونظرت من فوق نظارتها إلى ماسلوفاء نظرة مستفهمة. وهتفت بصوت خفيض:

- ها هي ذا! لقد عادت عجباً! كنتُ أحسب أنهم سيرئونها!

ورفعت نظارتها عن عينيها ووضعتها مع شغلها على السرير.
وتعجبت حارسة الخط الحديدي بصوتها الرخيم:

- وأنا وجارتي كنا نقول أنهم ربما أطلقوا سراحها على الفور! بل إنهم قد يعطون الإنسان شيئاً من المال، أحياناً!

وسألت فيدوسيا وهي ترفع عينيها الصافيتين، الطفوليتين، نحو ماسلوفاء بخجل:

- وإذن، فقد حكموا عليك!

اكفهرّ وجهها الفتّيّ، وهمتّ بالبكاء. لكن ماسلوفاً لم تجب بشيء
واقتربت من سريرها، بجانب سرير كورابليوفا، وتهاكت عليه.

وأعلنت فيدوسيا وهي تجلس بجانبها:

— ما كنتُ أتوقع ذلك أبداً!

بعد أن ظلّت ماسلوفاً جامدة، بضع لحظات، نهضت من جديد،
ووضعت رغيفها الباقي على حافة الجدار، وخلعت سترتها، البيضاء
من الغبار، وحلّت المنديل الذي يغطي شعرها الأسود الجعد، وتهاكت
مرة أخرى على سريرها.

دنت بدورها العجوز المقوّسة الظهر التي كانت تلاعب الصبي في
الطرف الآخر من القاعة وقالت بلهجة شاكية وهي تهزّ رأسها:

— يا إلهي، يا إلهي!

أسرع وراءها الصبي الصغير، ووقف أمام الرغيف الذي حملته
ماسلوفاً، فاغراً فاه، محملاً بعينه.

ولما رأت ماسلوفاً جميع هذه الوجوه الحفيّة بها، اشتتت، على
الفور أن تبكي. ومع ذلك فقد استطاعت أن تتمالك نفسها إلى أن
وصلت العجوز والصبي الصغير إلى جنبها. إلا أنها عندما سمعت
صرخة العجوز الآسفة، ولاسيما عندما التقت عيناها عيني الطفل
الذي انتقلت نظره الجادة إليها، لم تستطع أن تتمالك نفسها أكثر من
ذلك، فارتعشت قسماتها وانفجرت باكية.

لامتها كورابليوفا قائلة:

- لقد نصحتك أن تختاري لنفسك محامياً قديراً. بمَ حكموا عليك، بالنفي؟

أرادت ماسلوفا أن تجيب، لكن دموعها حالت بينها وبين الكلام. فأخرجت من الرغيف علبة اللفائف التي صُوّرت على غلافها امرأة متورّدة، لها عقيصة عالية وثديان مكشوفان. نظرت كورابليوفا إلى الصورة، وهزّت رأسها هزّة الاستنكار، كأنها تريد أن تلوم ماسلوفا على إنفاقها مالها بغباء شديد. ثم أخرجت سيجارة من العلبة وأشعلتها من شمعة الأيقونة، وعبّت منها نفساً، وأعادتها إلى ماسلوفا الذي أخذت تدخن بشوق دون أن تكف عن البكاء.

وأخيراً قالت بين شهقتين:

- حُكِم علي بالأشغال الشاقة!

فصاحت كورابليوفا:

- هؤلاء الجلادون الغاشمون، لا يخافون الله إذن! إنها لم تفعل شيئاً؟ لم يحكمون عليها؟

في اللحظة نفسها، أخذت النساء اللواتي كن قرب النافذة، يضحكن ضحكاً عالياً. وأخذت الطفلة تضحك أيضاً، وسمعت ضحكها الصغيرة، الغضة، الممزجة بقهقهات النساء الخشنه. ولا شك أن إحدى السجينات قد بدرت منها حركة أثارت اشتداد هذا المرح البذيء.

انفجرت المرأة الشقراء قائلة، وقد أخذ جسمها الرخو يرتعش:

– هيه! أيها الكلب الأجب! هل رأيت ما فعل؟

وعلّقت كورابليوفا وهي تشير إلى المرأة الشقراء:

– اسكتي، أيتها الطبلّة! ماذا يُضحكك!

ثم التفتت إلى ماسلوف واستخبرت:

– بكم سنة حُكمت؟

أجابت ماسلوفاً:

– بأربع سنوات!

وقد تضاعفت دموعها إلى حد أن حارسة الخط الحديدي رأت من واجبها أن تتدخل مرة أخرى لتسرّي عنها:

– لاشك أنهم قُطّاع طرق! كنا واثقات من أنهم سيطلقون سراحك! كانت ماتفيلينا تقول: «سيطلقون سراحها!» وكنتُ أنا، أجيبها: «في قلبي هاجس بأنهم لن يتركوها» وها إنني كنت محقة، مع الأسف!

وبينما كانت تتابع نحوها، بصوتها الرخيم، متكلمة بأناة ورضا عن الذات، كان السجناء قد انتهوا من عبور الفناء. وبعد مرورهم، على الفور، تنحّت عن النافذة النسوة اللواتي بادلتهن الأحاديث الماجنة واقتربن هن أيضاً، من ماسلوفاً.

سألت مَهْرَبَة المشروبات الروحية التي كانت تمسك ابنتها بيدها:

— ماذا! هل كانوا قساة عليك؟

فردّت كورابليوفا:

— كانوا قساة لأنها لا تملك مالاً. لو كان معها مال لاستأجرت محامياً مقتدراً، ماكراً، ولبرأها. هناك واحد، لا أدري كيف يسمّونه، ثعلب لا مثيل له: حقاً أقول، إن هذا يسحبك من قلب الماء من غير أن تبتلي! مثل هذا كان يجب اختياره!

تدخلت الحسنة الجالسة قريباً منهن والتي كانت تُري كل أسنانها:

— كيف يمكنها أن تختار مثله إن هذا لا يبصق في وجهك بأقل من ألف روبل!

علّقت العجوز المتهمة بالمشاركة في إضرار حريق:

— من الواضح أن القدر شاء ذلك. أتظنين، مثلاً، أنه ليس رهيباً أن يفصلوا بين الشيخ وبين زوجته وابنه، ليترك دون أن يجد أحداً يعتني به؟ وأنا، في مثل سني، أسجن؟ كُتِبَ علينا السجن أو البؤس! هذا أو ذاك.

— جلست المَهْرَبَة على سريرها، في مواجهة ماسلوف، وقد وضعت طفلتها على ركبتيها، وهي تغلّيها من القمل. وقالت:

– الأمر دائماً هكذا مع هؤلاء القضاة الأنجاس! «لماذا تاجرتِ بالخمور؟» – «وبماذا أطعم أولادي؟».

هذه الكلمات ردّت ماسلوفاً إلى الإحساس بالواقع، فقالت لكورابليوفا وهي تمسح دموعها بكمّ قميصها:

– أود لو أشرب كأساً!

هدأ انفعالها الشديد وكفّت عن النحيب.

أجابت كورابليوفا:

– ولمّ لا؟ هيا، هاتي نقودك، وستنعمين بالشراب!

× × ×

تناولت ماسلوفاً من الرغيف الورقة المالية التي بعثت بها إليها السيدة كيتايف، وناولتها كورابليوفا. ومع أن هذه كانت تجهل القراءة، إلا أنها أدركت من الصورة أن الورقة بروبلين ونصف. ومن أجل المزيد من التأكد أرت الحسنة المشهورة بأنها تعرف كل شيء، تلك الورقة. وبعد ذلك جرّت نفسها حتى بلغت المدفأة، وفتحت بابها وأخرجت منها زجاجة كانت مخبأة فيها. في هذه الأثناء، نهضت ماسلوفاً، ونفضت الغبار عن سترتها ومنديلها، وأخذت تأكل رغيفها. قالت لها فيدوسيا:

— احتفظت لكِ بشيء من الشاي، لكنه الآن بارد.

ونهضت فتناولت من على لوح مسمر فوق سريرها، غلاية الشاي وطاساً من الصفيح ملفوفاً في جوربيها.

كان الشاي، في الواقع، بارداً، وطعمه أقرب إلى الصفيح منه إلى الشاي، لكن ماسلوفاً ملأت الطاس الذي بلّت فيه خبزها ثم نادى الصبي الصغير، وقسمت الرغيف إلى نصفين، وأعطت الصبي أحدهما:

— خذ، يا فيناشكا، هذا لك!

في غضون ذلك، ابتعدت النساء اللواتي أسرتهن في الطرف الآخر من القاعة. وما أن أمسكت ماسلوفاً بالزجاجة حتى ملأت كأسها وشربته، ثم قدّمت الشراب لكورابليوفا وللحسنة، وكانتا تولّفان معها أرستقراطية هذا المكان، لأنهن وحدهن كنّ يملكن المال أحياناً.

بعد بضع دقائق، أحسّت أن نشاطها عاد إليها. فروت لرفيقتها بكثير من المرح، كل ما جرى لها منذ الصباح، مقلّدة أصوات الرئيس ووكيل النيابة والمحامين وحرّكاتهم. وحكّت لهما عن دهشتها الكبيرة من مبادرة الناس إلى «ملاحقتها». ففي المحكمة كان الجميع يرمقونها، بل إنهم جاؤوا ينظرون إليها، بعد الحكم، في الحجرة التي حُبست فيها.

روت ذلك، وهي تبسم، بمزيج من الدهشة والغرور... وأعلنت حارسه للسكة الحديدية التي دنت مرة أخرى:

— الأمر هكذا؟

وبدأت تخطب من جديد، بصوتها الرخيم. فالناس، برأيها، يزدحمون على النساء كما يزدحم الذباب على السكر.

قاطعتها ماسلوفاً، وهي تبسم:

— حتى ها هنا، حتى ها هنا، وقع لي ذلك. ففي اللحظة التي كنتُ أعود فيها إلى السجن، إذا بجماعة من السجناء القادمين من المحطة،

تسدّ علي الطريق، وإذا بهم يعمدون إلى ملاحقتي بكثير من اللجاجة حتى توجستُ خيفة منهم. ولحسن الحظ أن نائب المدير جاء لينقذني. وكان بين السجناء سجين مسعور: وقد لقيت مشقة في الخلاص منه.

سألتها الحسناء:

— وكيف كان؟

— كان شديد السواد، حليق الرأس، ذا شاربين كبيرين.

— لاشك أنه هو!

— مَنْ هذا؟

— شتيغلوف! لقد مرّ بالفناء قبل قليل.

— وَمَنْ شتيغلوف؟

— كيف، لا تعرفين شتيغلوف؟ هرب من السجن مرتين. وقد قبضوا عليه الآن. لكنه سيهرب أيضاً. الحراس أنفسهم يخافونه!

كانت الحسناء هي التي تكتب للسجناء رسائلهم وتنقلها إلى المكتب. ومن ثمّ فقد كانت تطلّع على أصغر الحوادث في السجن.

قالت كورابليوفا:

— ربما هرب، لكن من المؤكد أنه لن يأخذنا معه!

ثم التفتت إلى ماسلوف وتابعت كلامها:

— اروي لنا، بدلاً من ذلك، ما قلته لك المحامي بشأن النقض. الآن يجب أن توقعي طلب النقض.

فردت ماسلوف بأنها لم تسمع عن ذلك في قصر العدل. في هذه الآونة اقتربت المرأة الشقراء من النساء الثلاث اللواتي كن يرشفن شرابهن، وهي تدس يدها في شعرها الكثيف، وتحك رأسها بكل ما في أظافرها من قوة، وقالت لماسلوف:

— سأقول لك، أنا، ما يجب أن تفعله. يجب أن تتقدمي أولاً بالتماس إلى القضاة، ثم إلى النائب العام بعد ذلك.

فسألتها كورابليوفا بصوت غاضب:

— بمَ جئت تهذين هنا؟ أترين؟ شمت رائحة الخمر، وها هي ذي تأتي لتعلمنا أشياء هي نفسها لا تعلمها! نحن أعلم منك بما يجب فعله؛ انصرفي، فلننا بحاجة إليك!

— لم أكلمك أنت! لم تحشرين نفسك؟

— الخمر هي التي دفعتك إلى المجيء، أليس كذلك؟

قالت ماسلوف المستعدة أبداً لإشراك غيرها فيما معها:

— هيا! صبّي لها كأساً.

— انتظري قليلاً! سترين ماذا سأصبّ لها...

أجابت المرأة الشقراء وهي تتقدم نحو كورابليوفا:

— ماذا! ماذا! أنا لا أخاف منك!

— أترين إلى هذه العاجزة، الرخوة!

فاستشاطت الشقراء:

— أنا عاجزة، رخوة! أتجاسرين على شتمي، يا طريدة السجون

القدرة!

صاحت كورابليوفا:

— هيا، امضي، قلت لك انصرفي!

لكن المرأة الشقراء لم تنثن عن سيرها، فضربت كورابليوفا بجمع يدها على صدرها العاري. وكأنما كانت الشقراء تتوقع هذا التحدي، فانقضت فجأة بإحدى قبضتيها على خاصرتي خصمها، بينما حاولت أن تصيبها في وجهها باليد الأخرى. وجهدت ماسلوفاً والحسناء أن تصدّاها، لكنها كانت قد قبضت بقوة على شعر العجوز، فلم تجدا وسيلة لحملها على إرخائه. كانت كورابليوفا تلطم جسد خصمها، على غير هدى، وهي محنية الرأس، محاولة أيضاً أن تعضها في ذراعها. أما النساء الأخريات فقد تجمعن حولهما وهن يضطربن ويصرخن. حتى المسلولة نهضت لتتفرج على المعركة، مازجة نباح سعالها بصراخ رفيقاتها. وبكى الأطفال، وهم يتراصون، وبلغت الجلبة حداً دفع برئيسة قسم النساء إلى أن تهرع إليهن.

فُصل بين المرأتين. وحلت كورابليوفا ضفيرتها الرمادية لتنفض

الشعر الذي انتزعته خصمها بقبضتها. وردّت هذه، على صدرها الأصفر، مزقاً من ثوبها الممزق. وكلتاها أخذت تزعق بشكواها وتبتريرها لنفسها.

قالت المشرفة:

— أعرف، أعرف. كل هذا فهو من أثر الخمر. سأخبر المدير بذلك، غداً صباحاً؛ وستريان كيف يدبّر أمريكما. هيا، إلى النوم حالاً! وإلا، حذار! لتأو كل واحدة إلى فراشها، ولتلم الصمت!

لكن، لم يكن سهلاً إحلال الصمت. وظلت النسوة زمناً طويلاً يتشاجرن؛ وتروي كل واحدة منهن، على طريقتهما، كيف بدأت الأمور. وأخيراً خرجت المشرفة، وتهيات النساء للنوم ليلاً. وجاءت العجوز المحدودة، ووقفت أمام الأيقونة وأخذت تتلو صلواتها.

وفجأة أعلنت المرأة الشقراء، وهي ترفع صوتها لتسمعها ماسلوفاً وكورابليوفا اللتان كان سريراهما في الطرف الآخر من القاعة:

— هل يُصدّق هذا! مجرمتان تريدان أن تعلّمانا الأخلاق! فردّت كورابليوفا:

— حذار من أن أفقأ لك عينك، في هذا المساء.

ثم سكّنت كلتاها، مرة أخرى. لكن، من لحظة إلى أخرى، كانت مبادلة التهديدات والشتائم تعود لتقطع الصمت في القاعة النائمة.

نامت النساء جميعاً، وأخذ بعضهن يشخر، ماعدا العجوز المقوسة الظهر وابنة الشمس، فقد ظلتا واقفتين. كانت العجوز التي من عاداتها

أن تطيل صلاتها، ماتزال جاثية أمام الأيقونة. ونهضت ابنة الشَّمَّاس من فراشها، حالما ذهبت المشرفة، لتستأنف روحاتها وجيئاتها، خلال الغرفة.

لم تستطع ماسلوف أن تنام. كانت لا تني تفكر في أنها أصبحت «طريدة السجون». ففي هذه الساعات القلائل، عُيِّرَت بهذا اللقب مرتين؛ بوتشكوف، في قصر العدل، والمرأة الشقراء، قبل هنيهة! لم يمكنها أن تألف هذه الفكرة.

كانت كورابليوفا التي أدارت لها ظهرها لتنام، قد استدارت فجأة، فهمست ماسلوفاً إليها:

– أحمكم وأنا لم أفعل شيئاً! غيري يُجرم ولا يُحاسب، وأنا أهلك دون أن أفعل شيئاً.

أجابتها كورابليوفا لتعزيها:

– لا تعذّبي نفسك، يا بنتي! في سبيريَا أيضاً، الناس يعيشون! لن تهلكي هناك!

– أعلم جيداً أنني لن أموت، لكن العار... ما كنت أتوقع لنفسي هذا المصير! أنا التي تعودت أن تحيا حياة الترف!

تنهّدت كورابليوفا وقالت:

– لا مردّ لمشيئة الرب.

– أعلم ذلك، لكن ذلك قاسٍ، مع ذلك!

وصمتتا. المرأة الشقراء لم تكن نائمة أيضاً.

استأنفت كورابليوفا كلامها مشيرة لجارتها إلى صوت غريب آتٍ إليهما من آخر القاعة:

- إصغ، هذا صوت تلك القذرة؟

كان ذلك صوت المرأة الشقراء وهي تبكي في سريرها. كانت تبكي لأنها شُتمت وضربت ولم تنل شيئاً من الخمر الذي كانت تشتهيهِ كثيراً. وكانت تبكي أيضاً لكونها لم تجد من حولها، طوال حياتها، سوى الشتائم، والسخرية والمذلة والضرب. ولكي تعزي نفسها، أرادت أن تتذكر حبّها الأول، علاقاتها بعامل شاب. لكنها تذكرت، في الوقت نفسه، كيف انتهى ذلك الحب. رأت من جديد تلك الليلة الرهيبة التي قذفها فيها حبیبها بالزاج، مازحاً بعد أن ثمل، واستمتع، بعد ذلك، مع رفيقه، بمرآها وهي تتلوّى من الألم. استولى عليها حزن عظيم لدى استحضارها هذه الذكرى. وأخذت تبكي، وهي تحسب أن لن يسمعها أحد، كما يبكي الأطفال، شاهقة، مخفية دموعها المألحة. قالت ماسلوفا:

- هذا يثير الشفقة!

فردت العجوز:

- لاشك أنه يثير الشفقة، لكن عليها ألا تضايقنا.

× × ×

عندما استيقظ نيكليودوف، في صباح اليوم التالي، شعر، على الفور، شعوراً غامضاً بأن شيئاً ما قد وقع له عشية البارحة، شيئاً جميلاً جداً وهاماً جداً. ثم اتّضحت ذكرياته بدقة. «كاتيوشا، محكمة الجنايات!» نعم، والقرار الذي اتخذته بالإقلاع عن الكذب، وبقول الحقيقة كاملة، منذ الآن.

ومن المصادفات المدهشة أنه وجد بين رسائله، وهو ينهض، رسالة طالما انتظرها من ماريافاسيليفنا، المرأة المتزوجة التي كان عشيقاً لها، تردّ له فيها حرّيته وتُعْتَقِه من التزامه، وتتمنى له السعادة والتوفيق في زواجه المقبل.

قال في نفسه وهو يتسم: «زواجي! ما أبعده!».

تذكّر المشروع الذي وضعه، عشية البارحة، وهو أن يقول لزوج عشيقته كل شيء، أن يسأله الصفح، وأن يضع نفسه بين يديه من أجل الترضية التي قد يطلبها منه. لكن هذا المشروع لم يبد له، في الصباح، سهل التنفيذ كما بدا له عشية البارحة. ثم لماذا يُشْقِي إنساناً بإطلاعه

على حقيقة ستؤلمه بكل تأكيد؟. «إذا سألتني عن ذلك اعترفت له بكل شيء. أما أن أذهب بنفسني لأعترف فلا، ليس ذلك ضرورياً».

كما أن مشروع مصارحته لميسي بكل شيء، بدا له، عند التفكير، أقل قابلية للتحقيق، ها هنا أيضاً لم يجد حاجة إلى الكلام: الكلام هنا مذلة لا جدوى منها. الأفضل أن يقتصر معها على التلميح. وقرر في نهاية الأمر أنه لن يزور آل كورتشاغين بعد الآن، إلا لكي يشرح لهم الدافع، إذا شاؤوا أن يعلموه.

أما بالنسبة إلى علاقاته بكاتيوشا فقد رأى بالمقابل أن لا داعي للتكتم. «سأذهب إليها في السجن، وسأصارعها بكل شيء، وسأطلب إليها أن تصفح عني. وإذا لزم الأمر... إذا لزم الأمر، فسوف أتزوجها!».

إن فكرة التضحية بكل شيء إرضاء للضمير، وفكرة الزواج بكاتيوشا، إذا لزم الأمر، ماتزال تروق له.

وأخيراً، بالنسبة إلى قضية المال فقد عقد العزم على أن يطابق بين سلوكه والمبادئ التي أعلنها عمّا في الملكية العقارية من ظلم. وإذا كان لا يقوى على الاستغناء عن ثروته كلها، فقد وعد نفسه، على الأقل، ألا يحتفظ بغير جزء منها، وأن يبذل وسعه ليكون صادقاً نحو نفسه ونحو الآخرين.

منذ زمن طويل، لم يبدأ يومه بمثل هذا النشاط. ولما جاءت أغرافينا بيتروفنا لتلقّي أوامره، في قاعة الطعام، أعلن لها على الفور بحزم دهش هو نفسه منه، أنه سيغير مسكنه، وأنه مضطر إلى الاستغناء

عن خدماتها. فمنذ وفاة أمه، لم يُوضح قط للمربية ما ينوي أن يفعله بالبيت، وهو بيت مفرط الاتساع والفخامة بالنسبة إلى عزب مثله. كان شيئاً متفقاً عليه، ضمناً، أنه سيظل يسكنه، لأنه على وشك أن يتزوج. وإذا فمشرّعه بترك البيت له معنى خاص أدركته أغرافينا بيتروفنا على الفور. فألقت عليه نظرة مندهشة.

أعلن لها:

- أشكرك كثيراً على رعايتك لي. لن أحتاج بعد اليوم إلى منزل بهذا الكبر ولا إلى خدم بهذه الكثرة. وإذا مازلت ترغبين في مساعدتي فأنا أطلب إليك أن تتكرّمي بتهيئة كل شيء من أجل انتقالي، وبحزم جميع الأمتعة التي لا نفع فيها، في هذه الأثناء وعندما تأتي أختي سترى ما الذي يليق فعله.

هزّت رأسها وتعجبت قائلة:

- كيف؟ ما يليق فعله؟ لكنك ستحتاج إلى ذلك كله فيما بعد.

فأجاب نيكليودوف راداً على نيتها التي استشفّتها تحت الكلمات، وعلى لهجتها:

- لا، لن أحتاج إلى شيء من ذلك. ثم إنني أرجوك أن تتكرّمي بإخبار «كورني» أنني سأدفع له أجرة شهرين سلفاً، وأنه يستطيع، منذ اليوم، البحث عن عمل خارج بيتي.

- أنت مخطئ إذ تتصرف هكذا، يا دميتري ايفانوفيتش. حتى لو

كنت تنوي السفر إلى الخارج، فلا بد لك من مكان تودع فيه أمتعتك.
قال نيكليودوف وهو يتسم:

— ليس الأمر كما قدرت، يا أغرافينا بيتروفنا. فلن أسافر إلى
الخارج، أو إذا سافرت ففي رحلة مختلفة.

أحس بالخجل، عند هذه الكلمات، وقال في نفسه: «هيا، يجب
أن أقول لها كل شيء، لا داعي إلى الكتمان، يجب أن أسرع في قول
الحقيقة!»

واستأنف:

— وقعت لي البارحة حادثة غريبة جداً وخطيرة جداً. أتذكرين
كاتيوشا التي كانت تخدم عمتي ماريا ايفانوفنا؟

— طبعاً! أنا علّمتها الخياطة...؟

— حسناً! لقد حُكم عليها أمس في محكمة الجنایات التي أنا محلّف
فيها.

فهتفت أغرافينا بيتروفنا متعجبة:

— آه! يا ربي، هذا لا يُطاق! وما الجريمة التي من أجلها حُكم عليها؟

— جريمة القتل... وأنا الذي فعلتُ كل شيء!

دهشت أغرافينا بيتروفنا:

— كيف يمكنك أن تفعل كل شيء! هذه حقاً طريقة غريبة في

الكلام!

استضاءت عينا العجوز المتعبتان، فقد كانت تعرف قصة كاتيوشا.

— نعم، أنا سبب كل شيء، وهذا الحادث قد قلب جميع خططي رأساً على عقب.

سألته أغرافينا بيتر وفنا وهي تمسك ابتسامتها:

— لكن، بأية طريقة يمكن لذلك أن يغيّر مشاريعك؟

— ذلك أنها سلكت هذا الطريق بسببي، وعلي أنا أن أفعل كل شيء لإنقاذها...

— إني أتبين هنا طيبة قلبك، يا دميتري ايفانوفتش! لكن المسألة، في ذلك كله، ليست مسألة خطيئتك. فالحادث نفسه يقع للجميع، وإذا كان الشخص حسن المحاكمة فإن ذلك يُسوّى، ويُنسى كل شيء. وتتابع الحياة مجراها. صدقني إن من الجنون أن تجعل من نفسك مسؤولاً عن ذلك! لقد قيل لي منذ زمن بعيد. إن هذه المخلوقة شذت عن الطريق المستقيم. دع عنك هذا، هي أرادت ذلك! الخطيئة خطيئتها وحدها!

— لا، لا، الخطيئة خطيئتي! وعلي أن أتداركها.

— سيكون ذلك عسيراً...

— سأرى ذلك، هذا يخصني. أما إذا كنت قلقة على نفسك، يا أغرافينا بيتر وفنا، فأنا أبادر إلى القول: إن أُمي كانت ترغب في...

— لستُ أفكر في نفسي. فالمرحومة الأميرة أغدقت علي كثيراً من نعمها حتى أني لا أحتاج إلى شيء. لي قرية تدعوني إلى الإقامة عندها، سأذهب إذا أيقنت أنني عاجزة عن خدمتك. لكن ينبغي أن أنبّهك إلى

أنك مخطئ عندما تحاسب نفسك على هذه القضية كلها. قلّما تحدث هذه الأمور لأحد!

- لا أرى رأيك في هذا الموضوع. وأنا أكرر رجائي أن تقبلي بتحضير كل شيء من أجل ذهابي من هنا. لا تغضبي علي، وأنا شاكر لك على كل شيء.

إنه لشيء مدهش أن نيكليودوف، منذ أن أدرك أنه هو نفسه أحق وحقير، قد كفّ عن احتقار الآخرين وكرههم. على العكس، كان يستشعر أعظم عواطف الحب لأغرافينا بيتر وفنا ولكورني خادمه. وقد تملكته الرغبة في أن تضع أمام هذا الخادم، كما فعل أمام المربية، لكن كورني كان شديد التذلل حتى إن نيكليودوف لم يقو على ذلك.

عندما قصد نيكليودوف إلى قصر العدل الذي سيكون فيه محلّاً مرة أخرى، ركب العربّة التي ركبها البارحة، ومرّ بالشوارع نفسها. وقد دهش من التغير العظيم الذي تمّ فيه، أثناء هذه الأربع والعشرين ساعة. تبين أنه صار رجلاً آخر.

إن زواجه بميسي الذي بدّله أمس قريباً. بدّله الآن غير ممكن أبداً. كان عشية البارحة مقتنعاً أنه سيُسعد الفتاة حين يقترن بها، أما الآن فصار لا يرى نفسها غير أهل للاقتران بها فحسب بل غير أهل للتردد عليها أيضاً. «لو كانت تعلم من أنا، لما رضيت أن تستقبلني أبداً! وأنا الذي كنتُ أمضي بقلة الوجدان إلى حد لومها على غنجها مع الآخرين! حتى لو كنت متزوجاً بها، يمكنني أن أجد لحظة من سعادة، أو من راحة على الأقل، وأنا أعلم أن تلك البائسة في السجن، وأنها ستذهب غداً أو بعد غد، على مراحل، إلى الأشغال الشاقة؟ في

غضون هذا الوقت، أتلقّى، أنا، تهاني أصدقائي، وأقوم بزياراتي مع عروسي! أو أجلس في جمعية النبلاء بجانب صديق خدعته بحقارة، وأعدّ الأصوات حول القانون المدرسي الجديد، ريثما أذهب لألقى سرّاً زوجة هذا الصديق نفسه! أو أظل أكّد نفسي في رسم لوحتي، تلك اللوحة اللعينة التي لن أكملها أبداً، لأنني أرى أنني لا ينبغي أن أشغل نفسي بمثل تلك الحماقات... لا، لا شيء من ذلك كله ممكن بالنسبة إلى». وبهذا اختتم تفكيره وهو مبتهج من التغير الداخلي الذي طرأ عليه.

وقال في نفسه أيضاً: «قبل كل شيء، يجب أن ألقى المحامي لأطلع على نتيجة تحقيقه. وبعد ذلك... بعد ذلك، يجب أن أذهب لأراها، هي، ولأقول لها كل شيء».

وعندما خطر له أنه سيلقاها، وسيعترف لها بكل شيء، وسيبسط أمامها إقراره بخطيئته، وسيُعرب لها عن رغبته في إعادة الاعتبار لنفسه مهما يكن الثمن، حتى ولو تزوّج بها، عند ذاك أحس بنفسه محمولاً على جناح الشوق، وتضاعفت العبرات إلى عينيه.

× × ×

في رواق قصر العدل، لقي نيكليودوف حاجب محكمة الجنايات فسأله أين يُوضع المحكومون، بعد الحكم عليهم، ومن الذي يجب التوجّه إليه للحصول على الأذن برويتهم. أجاب الحاجب أن المحكومين موزعون في عدة مواضع، وأن النائب العام وحده يستطيع أن يمنح الإذن برويتهم.

- سآتي لآخذك، بعد الجلسة، وسأوصلك، أنا نفسي، إلى النائب العام. أرجوك أن تدخل القاعة، فستبدأ الجلسة.

شكر نيكليودوف الحاجب الذي رثى له الآن بعدما رأى من احترامه له. وعند دخوله قاعة المحلفين، رأى أن هؤلاء يهتمون بالانتقال إلى قاعة المحكمة. كان التاجر مرحاً، كما كان أمس، وكان واضحاً أنه قد شرب وأكل بوفرة، مرة أخرى، قبل أن يأتي. واستقبل نيكليودوف كما يستقبل صديقاً قديماً. ثم إن بطرس غيراسيموفتش لم يترك في نفس نيكليودوف أثراً مزعجاً، كما كان من قبل.

تساءل نيكليودوف إن كان ينبغي له أن يُطلع المحلفين على علاقاته بمحكمة الأمم. وحدّث نفسه «كان ينبغي أن أنهض، منذ نهار

أمس، أثناء تلاوة الحكم، وأن أعترف أمام الناس بخطيئتي». لكنه عندما رأى إجراءات أمس تتكرر، في قاعة المحكمة: صعود القضاة إلى المنصة بشياهم الرسمية، تفقد المحلفين، الدرك، صورة القيصر، الكاهن العجوز، انتابه شعور بأنه، مهما يؤت من إرادة، فلن يقوى على الإخلال بنظام هذه الهيئة المهيبة.

القضية التي نُظر فيها، هذا اليوم، كانت سرقة بطريق الكسر. وكان المتهم فتى ابن عشرين، ضيق المنكبين، هزياً، أصفر، يرتدي سترة رمادية، ويجلس على مقعد المتهمين بين دركيين، ساعلاً دون انقطاع. وقد قام مع صديق له حداد، بخلع باب مستودع للاستيلاء على مكانس قديمة قيمتها ثلاثة روبلات ونصف. وينص صك الاتهام أن المذنبين أوقفوا على يد أحد الشرطة عندما كانا يهربان حاملين المسروقات على ظهريهما. وقد اعترفا مباشرة، وأودعا السجن حيث مات الحداد. وبذلك مثّل الفتى الآخر وحده أمام المحكمة. وكانت المسروقات موضوعة على الطاولة المخصصة لأدلة الإثبات.

سارت الدعوى بالطريقة التي سارت عليها دعوى ماسلوف، مع نفس نسق الاستجوابات والشهادات والخبرات والخبرات المضادة.

وكان الشرطي الذي أوقف المتهم يجيب عن أسئلة الرئيس ووكيل النيابة والمحامي بـ «تماماً»، أو «لا أدري». ومن خلال هذه الأجوبة الآنية، ومن خلال احترامه للنظام، يستشف السامع أنه كان يرثي للمتهم وأنه ليس فخوراً بغنيمة.

كانت الجهة المتضررة عجوزاً سقيماً، هو صاحب البيت الذي

ارتكبت فيه السرقة، وقد تردد في التعرف على المسروقات عن نية سيئة واضحة، ولما سأله وكيل النيابة إن كانت هذه المسروقات ذات نفع كبير، أجاب بلهجة غاضبة: «لعنها الله! فما فائدتها؟ إنني أدفع ثلاثة أضعاف ثمنها لأتخلص من الهموم التي سببتها لي هذه القضية. على العربات وحدها أنفقت ضعف قيمتها! أنا، المريض! منذ سبع سنوات وأنا أتألم من الأمراض العصبية ومن الفتق.

أما المتهم فقد أعترف بكل شيء، راوياً الأشياء كما جرت. وكان يتكلم بصوت تقطعه نوبات السعال، ويلتفت في كل الاتجاهات، شارد النظر مثل حيوان وقع في الفخ.

كان وكيل النيابة يتفّن، كما فعل أمس. في طرح الأسئلة الدقيقة التي ترمي إلى إحباط ألاعيب المتهم وإلى إفحامه. وفي مرافعته، أثبت أن السرقة ارتكبت عن سابق عمد وتصميم، ومن ثم، ينبغي أن تُقرض عليه أقسى العقوبات.

أما المحامي الذي عينته المحكمة للدفاع عنه، فقد أثبت أن السرقة ارتكبت دون سابق عمد وتصميم، وأنها لم تكن مصحوبة بالكسر. وأن المتهم، بالرغم من فداحة خطيئته، لم يكن خطراً على المجتمع كما يؤكد ذلك وكيل النيابة.

وأخيراً، أوضح الرئيس بكثير من الحياد، كما كان أمس، أوضح بالتفصيل للمحلفين ما كانوا يعلمونه من قبل، وما لا يجوز أن يجهلوه. وعُلّقت الجلسة مثلما علّقت أمس، ودخّن المحلفون، وأعلن الحاجب: «محكمة!» ووقف الدركيان اللذان يحرسان المتهم، وسيفاهما مشهران، وبذلا جهدهما كي لا يغفوا.

أظهرت المناقشات أن المتهم قد أدخله أبوه، وهو ابن خمسة عشر عاماً، في مصنع للتبغ، مكث فيه خمس سنوات. وفي شهر كانون الثاني، صُرف من العمل بسبب نزاع بين المدير والعمال. فغدا حينذاك بلا عمل، يتسكع في الشوارع، على غير هدى، وتعرّف بعامل حداد فقد هو أيضاً عمله، وكان يسرف في الشراب؛ وفي ذات ليلة ثملاً فيها، خلعا معاً باب مستودع، واستوليا على ما وقع في أيديهما من مكانس قديمة. ومات الحداد في السجن، وأحيل شريكه على المحكمة باعتباره كائناً خطراً يجب أن يحال بينه وبين إيذاء المجتمع.

فكر نيكليودوف وهو يستعرض تفاصيل الدعوى: «كائن خطر مثل محكومة الأُمس! كلاهما كائن خطر! لا بأس! لكن ماذا يُقال عنا، نحن، نحن الذي نحاكمهما؟ أنا، مثلاً، أنا الفاسق، الكاذب، المحتال! نحن، لا خطر منا، إذن؟ ثم، لو سلّمنا أن هذا الفتى البائس هو وحده الكائن الخطر في هذه القاعة، فماذا ستفعل به، الآن وقد قُبض عليه؟ من البديهي أن هذا الفتى ليس مجرمًا محترفًا، وليس شريرًا خارجاً على المؤلف! إنما ينتمي، على العكس، إلى نوع عادي جداً. الجميع يعلمون ذلك ويحسون به، كما يعلمون ويحسون أنه أصبح كذلك نتيجة لظروف الحياة التي أحاطت به. كان حتماً عليه أن يصل إلى ما وصل إليه. من الجلي إذن، لكل ذي عقل سليم، أننا، لكي نحول دون هلاك هذه الكائنات، لابد، قبل كل شيء، من السعي إلى إلغاء الظروف التي تُقضي حتماً إلى ضياعهم. وعندما أفكر أنه كان يكفي أن يوجد من يشفق على هذا البائس حين أرسله أبوه، تحت ضغط الفقر، ليكون عاملاً، أو فيما بعد، حين كان هذا المنكود الحظ يذهب مع رفاقه، بعد ساعات عمله الاثنتي عشرة، لبحث عن شيء

من اللهو في الحانات! حينذاك لو قال له أحد الناس: «لا تذهب إلى هناك، يا فانيا، فليس هذا المكان بالمكان الصالح». لكفّ عن الذهاب ولما أصابه الانحراف، ولما ارتكب الشر الذي ارتكبه. لكنه لم يجد مَنْ يعطف عليه طوال الوقت الذي قضاه، وهو يعيش مثل حيوان صغير في مصنعه. على العكس، لقد علّمه الجميع من رؤسائه إلى زملائه، خلال خمس سنوات، أن الحكمة، بالنسبة إلى فتى في سنه، تنحصر في الكذب والشرب والبذاءة والضرب وملاحقة البنات. وعندما ينهكه ويفسده، بعد ذلك، العمل غير الصحي، والسكر والدعارة، وعندما تسوقه قدماه، بعد أن يتسكع في الشوارع على غير هدى، إلى دخول مستودع يسرق منه مكانس لا نفع فيها، عند ذاك، نجتمع نحن، نحن الذين لا ينقصنا شيء، نحن الأغنياء والمتعلمين، نجتمع في قاعة مهيبة، ونحاكم هذا البائس الذي هو أخونا والذي أسهمنا في ضياعه!».

هكذا كان يفكر نيكليودوف، دون أن ينتبه لما كان يجري حوله. وتساءل كيف جاز له ألا يفطن لحالة الأشياء هذه، قبل الآن وكيف جاز للآخرين ألا يفطنوا لها بعد.

× × ×

عندما انسحب المحلفون، بعد خلاصة الرئيس، إلى قاعة المداولات ليجيبوا عن الأسئلة المطروحة، انسلّ نيكليودوف إلى الرواق بدلاً من أن يتبع زملاءه. فقد عقد العزم فجأة ألا يكثرث لهذه الدعوى؛ ليفعلوا به ما يشاؤون، فقد كان عاجزاً عن الانخراط، مرة أخرى، في هذه المهزلة.

سأل الحارس أن يدلّه على مكتب النائب العام، واتجه إليه على الفور. رفض الحاجب أولاً أن يأذن له بالدخول، مؤكداً أن النائب العام مشغول، لكن نيكليودوف لم يصغ إليه، وفتح باب البهو، ودنا من المستخدم الذي ظل جالساً، ورجاه أن ينبئ رأساً النائب العام بقدمه لأمر عاجل. وأدخل لقب الإمارة وأناقة ملبسه الهيئة على نفس المستخدم الذي ألح على النائب العام فأذن له على الفور بالدخول؛ واستقبله واقفاً، وقد بدا عليه الاستياء من إصراره على الدخول. وسأله بلهجة قاسية:

— فيمَ أستطيع أن أخدمك؟

أجاب نيكليودوف بنفس واحد وهو يحمرّ خجلاً:

— أنا محلّف، واسمي نيكليودوف، وأنا بحاجة إلى أن أقابل امرأة في السجن، هي ماسلوف.

كان يحس أنه يُقدّم هنا على خطوة سيكون لها تأثيرها الحاسم في حياته بأسرها.

كان النائب العام رجلاً قصيراً، هزياً، جافاً، ذا شعر قصير دبّ فيه الشيب، وعينين مليئتين بالحوية، ولحية قصيرة مثلثة الشكل، فوق ذقن بارزة.

— ماسلوف؟ نعم، عرفتُها. المتهمة بالتسميم، أليس كذلك؟ ولم تريد مقابلتها؟

ثم قال بلهجة أكثر تودداً:

— اعذر سؤالي، فأنا لا أستطيع أن أمنحك الإذن بمقابلتها، دون معرفة الدافع الذي يحملك على طلب الإذن.

فردد نيكليودوف وقد زاد احمراراً:

— لا بد لي من مقابلة هذه المرأة؛ إن ذلك في أعلى درجات الأهمية، بالنسبة إلي.

قال النائب العام، وهو يرفع عينيه، ويحدج نيكليودوف بنظرة ثاقبة:

— آه! حقاً! هذه المرأة حوكت أمس، أليس كذلك؟

– حُكمت بأربع سنوات من الأشغال الشاقة ظلماً. وهي بريئة!

استأنف النائب العام، دون أن يأبه لما قاله نيكليودوف في براءة ماسلوف:

– أمس؟ بما أنها لم تُحاكم إلا أمس، فيجب أن تكون موقوفة في السجن الاحتياطي. ولا يمكن مقابلة السجناء إلا في أيام محددة وأنا أدعوك أن تتوجه إلى هناك.

قال نيكليودوف:

– ذلك أني بحاجة إلى مقابلتها، في الحال.

ارتجفت شفته وأحس باقتراب الدقيقة الحاسمة.

استخبر النائب العام، وقد قطب حاجبيه، وبدأ عليه شيء من القلق:

– ولم تحتاج إلى مقابلتها؟

فهتف نيكليودوف بصوت مرتعش:

– أحتاج إلى مقابلتها لأنها بريئة وقد حُكم عليها بالأشغال الشاقة.

أنا المذنب، لا هي!

– وكيف ذلك؟

– أنا أغويتها وأوصلتها إلى الحالة التي هي فيها. لو لم أغوها لما تعرّضت للتهمة التي وُجّهت إليها أمس.

– كل هذا لا يُنبئ بالدافع الذي يدفعك إلى مقابلتها.

أعلن نيكليودوف:

– دافعي هو أنني أريد أن أدارك خطيئتي و... وأن أتزوج بها؟

وبينما كان يقول هذه الكلمات، صعدت الدموع إلى عينيه.

فانفجر النائب العام:

– حقاً! هذه حالة مثيرة جداً. ألسنت أنت بالذات العضو في

جمعية كراستوبلورسك؟

تساءل النائب العام إن كان نيكليودوف هذا الذي يعرض عليه هذا

المشروع الغريب هو نفسه الذي يذكر أنه سمعه يتكلم.

فثار نيكليودوف:

– عفواً لا أرى أية صلة يمكن أن تكون بين طلبي وما تسأل عنه.

أجاب النائب العام، وهو يحمل نفسه على الابتسام حملاً، ودون

أن يضطرب.

– لاشك أن المشروع الذي تطلعتني عليه مشروع شديد الغرابة،

شديد البعد عن الأشكال المعتادة...

– هل أستطيع، في النهاية، أن أحصل على ذلك الأذن؟

– الإذن؟ بالتأكيد، سأسلمك إياه، في الحال. هلاً جلست. ومضى

إلى مكتبه، وجلس، وأخذ يكتب.

– اجلس، أرجوك!

ظل نيكليودوف واقفاً. وعندما انتهى النائب العام من الكتابة، نهض، ومدّ الورقة إلى نيكليودوف، وهو يراقبه بفضول.

وأردف نيكليودوف:

— هناك شيء ينبغي أن أقوله لك أيضاً. سيكون من المستحيل عليّ، بعد الآن، المشاركة في مداوالات المحلفين.

— عليك، كما تعلم، أن تطلب إعفائك من المحكمة، بعد بيان الأسباب التي دفعتك.

السبب هو أنني أعتبر جميع أحكام المحكمة غير نافعة، وغير أخلاقية.

هتف النائب العام، وهو يتسم الإبتسامة الساخرة نفسها، مُشعراً أن مثل هذه المبادئ معروفة عنده، وأن هذه المرة ليست المرة الأولى التي يتلهّى بسماعها:

— عجباً! يا أميري العزيز، أنت تدرك، دون جهد، أنني لا أستطيع، بصفتي نائباً عاماً، أن أشاطر رأيك حول هذه النقطة. لكن اذهب وأوضح ذلك كله للمحكمة! والمحكمة ستقدّر قيمة أذارك، وستقبلها أو ترفضها، وفي حالة الرفض ستفرض عليك غرامة. توجه إلى المحكمة!

أجاب نيكليودوف بجفاف:

— كما قلت لك، أنا مصمم على عدم العودة إليها!

حينذاك قال القاضي، وهو بادي اللففة للخلاص من هذا الزائر
الغريب:

— لك تحياتي!

سأله قاضٍ دخل مكتبه عند خروج نيكليودوف:

— من هذا الذي استقبلته؟

— هذا نيكليودوف، وهو الذي لفت الانتباه إليه، كما تعلم، في
جمعية كراستوبلورسك، بما قدّم من ضروب الاقتراحات الغريبة.
تصوّر أنه وجد، بصفته محلفاً، على مقعد المتهمين، بغيا يزعم أنه
أغواها فيما مضى، وهو الآن، يريد الزواج بها.

— أممكن هذا؟

— هو الذي أخبرني بذلك منذ هنيهة. وليتك تعلم بأية حماسة
جنونية؟

— في الحقيقة، كأن هناك شيئاً غريباً يجري في عقول شباب اليوم!
— لكنه لم يعد شاباً...

— لو تدري كم ضايقنا صاحبك الشهير «إيفاشنكوف»! لقد
أقسم هذا الحيوان أن يهلكنا؛ إنه يتكلم، ويتكلم إلى ما لا نهاية!

— يجب أن توقفه عن الكلام بكل بساطة! الكلام، على هذا
النحو، عرقلة للعمل.

× × ×

قصد نيكليودوف رأساً، فور خروجه من عند النائب العام، إلى السجن الاحتياطي. فلم يجد ماسلوفاً، وقال له المدير إنها لا بد أن تكون في السجون القديمة المخصصة للسجناء الذين سيُبعدون بعد قليل. فتوجّه إلى هناك وبالفعل، كانت ماسلوفاً فيها.

وبما أن المسافة عظيمة بين السجن الاحتياطي والسجن القديم، فإن نيكليودوف لم يصل إلا عند هبوط الليل. وفي الوقت الذي كان يهَمّ فيه بالدخول، منعه الخفير من التقدم، وقرع الجرس، فجاءه حارس آخر أراه نيكليودوف الإذن بالدخول. قرأ الحارس الوثيقة، وأعاد قراءتها، وانتهى إلى القول إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً دون إذن المدير.

وسُمح لنيكليودوف بمقابلة المدير على الأقل. وعلى الدرج الذي يؤدي إلى شقة هذا الموظف، سمع أصواتاً مخنوقة لقطعة موسيقية تُعزَف على البيانو. وما أن فتحت له باب الشقة خادمة كالحة الوجه، على عينيها عصابة، حتى انهالت على مسمعيه أنغام البيانو، وكأنها تنطلق من غرفة مجاورة. كانت مقطوعة من أكثر مقطوعات «ليست» تداولاً، وكان عزفها رائعاً، مع هذه الخاصية وهي أن الشخص الذي

كان يعزف لم يكن يتجاوز مقطعاً معيناً. كان كلما وصل إلى هذا
الموضع من المقطوعة يتوقف فجأة ل يبدأ المقطوعة من جديد.

سأل نيكليودوف الخادمة إن كان المدير في بيته.

— لا، ليس في بيته.

— ومتى يعود؟

— سأسأل عن ذلك.

دخلت الخادمة الشقة وتركت نيكليودوف واقفاً في البهو.

بعد لحظة توقفت الموسيقى قبل أن تصل إلى الموضع المقدّر. وسمع
نيكليودوف، في الغرفة المجاورة صوت امرأة تقول:

— قولي له: إنه ليس هنا، وأنه لن يأتي اليوم، وأنه يقوم بالتفتيش،
لم يأتون لأزعاجنا؟

وفي الحال، استأنفت الموسيقى لكنها توقفت بعد عدة إيقاعات،
وسمع نيكليودوف صوت كرسي يتحرك. ومن الواضح أن عازفة
البيانو قد قررت أن تأتي بذاتها لتصرف ثقل الظل الذي اباح لنفسه
أن يعكّر صفوها.

شقّت الباب الذي يُطل على غرفة الانتظار فتاة شاحبة، محلولة
الشعر. لها عيان كئيبان تحيط بهما دائرتان زرقاوان، وأعلنت بلهجة
غاضبة:

- أبي خرج من البيت.

وعندما شاهدت رجلاً ما يزال شاباً، أنيق اللباس، غيّرت لهجتها.

- تفضل وادخل؟ أتريد أن تسأل أبي شيئاً؟...

- أحب أن أرى سجينة.

- في قسم السجينات السياسات، لاشك؟

- لا، ليست في ذلك القسم. مع إذن مكتوب من النائب العام.

- لا أدري... أبي خرج. لكن ادخل، أرجوك...

وبما ان نيكليودوف هم بالخروج، أردفت:

- تستطيع أن تخاطب نائب المدير. لاشك أنه في مكتبه. ما اسمك؟

قال نيكليودوف دون أن يجيب عن سؤالها:

- أشكرك كثيراً.

وبينما كان يهبط الدرج، تعالت مرة أخرى أنغام الموسيقى الصاخبة وكانت هذه الموسيقى قليلة الانسجام مع المكان الذي تنبعث منه، مثلما كانت قليلة الانسجام مع تلك الهيئة الزرّية، هيئة تلك المخلوقة المسكينة التي تبعثها.

في الفناء التقى ضابطاً ذا شاربين مشمّعين، فسأله أين يستطيع أن يجد نائب المدير. لقد كان هذا الضابط الشاب هو بعينه نائب المدير المطلوب. تناول الضابط الأذن وألقى عليه نظرة خاطفة، وأعلن أن هذه الورقة لا تذكر سوى السجن الاحتياطي، ولا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية اعتبارها صالحة لدخول هذا السجن.

— ثم إن أوان الزيارة قد فات. عُذْ عُذْ، غداً صباحاً، الساعة العاشرة، يُسمح للجميع بزيارة السجناء. سيكون المدير هنا. وبوسعك أن ترى المرأة ماسلوفا في غرفة استقبال النساء، أو في المكتب، إذا رضي المدير بذلك.

بعد أن خاب أمل نيكليودوف في مقابلة كاتيوشا، عاد أدراجه إلى البيت. كان يسير في الشوارع، وهو يرتعش من الإنفعال؛ وأخذت تفاصيل النهار تعود إلى ذاكرته. لقد حاول أن يقابل كاتيوشا، وسأل عنها في سجنين، وحدث النائب العام عن نيته في الاتضاع أمامها. وضاعف من حماسه إحساسه بأنه فعل ذلك كله. وعندما بلغ المنزل، تناول من درج دفتراً كان يدوّن فيه أفعاله وأفكاره اليومية. وبعد أن أعاد قراءة بعض المقاطع، أضاف بحرارة وبالقلم، الأسطر التالية:

« لم أكتب شيئاً، منذ سنتين، في هذا الدفتر، وكنت أعتقد أنني لن أعكف بعد الآن على هذه الصَّبِيْنَة. لكن ذلك لم يكن، في الواقع، صبينة، بل إنه كان، على العكس، حديثاً مع النفس، حديثاً مع الأنا الحقيقية والمقدسة. هذه الأنا كانت غافية في أعماق قلبي، منذ سنتين، بحيث لم أجد مَنْ أَحَدَته. وإذا بها تستيقظ أمس، في ٢٨ نيسان، على

أثر الحادث غير العادي الذي جرى في محكمة الجنايات، حيث كنتُ محلفاً. فعلى مقعد المتهمين شاهدت كاتيوشا التي أغويتها فيما مضى ثم هجرتها. ولقد أدّى سوء فهم فريد من نوعه، كان بوسعي أن أحول دونه، إلى الحكم على تلك البائسة بالأشغال الشاقة. ذهبتُ اليوم إلى النائب العام وإلى السجن. لم يُسمح لي برؤيتها، لكنني عازم على أن أفعل كل شيء لأراها، ولأتضع أمامها، ولأتدارك خطيئتي، ولو كان ذلك بالزواج بها. يا ربي، أعني! لم أشعر قط بمثل هذا الهدوء وذلك الفرح في قلبي».

x x x

لم تتمكن ماسلوفاً من النوم، في الليلة التي تلت إدانتها، مع أنها كانت محطمة من التعب. ظلت مستلقية على سريرها، مفتوحة العينين، محدقة في الباب الذي كانت تخفيه ابنة الشَّمَّاس، بين وقت وآخر، بروحاتها وجيئاتها. كانت تحدّث نفسها بأنها لن تقبل على الإطلاق الزواج بأحد المحكوم عليهم، ولو كانت في جزيرة سخالين، أو مهما يكن المكان الذي سُبْعِد إليه. سوف تتدبّر أمرها على نحو آخر، ربما مع أحد مديري السجون، أو مع كاتب محكمة، أو حارس أو مشرف. وقالت في نفسها: «هؤلاء جميعاً مولعون بلذات الحب. على شرط واحد هو ألا يدركني الهزال، لأنني سأفقد كل شيء حينئذ.

تذكّرت كيف تفرّس فيها المحامون ورئيس المحكمة والمحلّفون. وعند مرورها خلال المدينة نظر إليها الناس نظرات ملأى بالشهوة. تذكّرت أن بيرتازارتها في السجن وروت لها أن أحد الطلاب، وهو زيونها المفضل، قد جزع لأنه لم يجدها في بيت السيدة كيتايف. فكّرت في الشجار مع الشقراء التي رثت لها، وفي الخباز الذي أرسل إليها رغيفاً إضافياً. فكّرت في كثير من الأشياء، أما نيكليودوف

فلم تفكر فيه، كما لم تفكر في سني شبابها. كانت ذكرى حبها، نيكليودوف مؤلمة أشد الألم، ولذلك دفنته في زاوية من زوايا قلبها، لكي لا تمسه أبداً. حتى في الحلم، لم تر نيكليودوف قط. وإذا كانت لم تعرفه في محكمة الجنايات، فليس مبعث ذلك فقط أن السن قد غيرته، ولأنه غدا ذا لحية، أو لأن شعره تساقط: كانت ستعرفه بالرغم من ذلك، لولا أنها تعودت ألا تفكر فيه. وهذه العادة بدأت منذ تلك الليلة المظلمة والرهيبة التي عاد فيها نيكليودوف من الحرب، ومرّ قريباً من منزل عمتيه دون أن يعرج عليه.

كانت كاتيوشا تعلم، حينئذ، أنها حامل لكن فكرة الوليد الذي سيولد لم تكن تخزنها، بل إنها كانت فرحة بذلك الوليد متحننة عليه مادامت ترجو لقاء نيكليودوف.

وعندما علمت العمتان بأن نيكليودوف سيمرّ قريباً من منزلهما، رجته أن يتوقف عندهما. فأجابهما برقياً أن ذلك مستحيل عليه. إذ لا بد له أن يذهب إلى بطرسبرج في أسرع وقت ممكن. وما لبثت كاتيوشا أن عازمت على الذهاب إلى المحطة لتراه أثناء مروره بها.

كان موعد مرور القطار، في الساعة الثانية صباحاً. وبعد أن أعانت كاتيوشا سيدتيها على الذهاب إلى السرير، احتذت جزمة قديمة، وغطت رأسها بشال، ومضت إلى المحطة مصطحبة ماشكا، ابنة الطاهية.

كانت الليلة خريفية، سوداء وباردة. وكان المطر يهطل تارة بقطرات متسارعة، وتارة أخرى يتوقف. وكان من الممكن أن يميز

السائر طريقه أمامه، عبر الحقول، أما في الغابات فكان الظلام دامساً، حتى إن كاتيوشا أوشكت أن تضلّ طريقها، مع علمها الجيد بها، ولم تصل المحطة الصغيرة إلا بعد وصول القطار. فاندفعت إلى الرصيف، وسرعان ما لمحت نيكليودوف جالساً قرب النافذة في عربة الدرجة الأولى. كانت العربة مضاءة جيداً: وكان هناك ضابطان يجلس كل منهما قبالة الآخر على مقعد مخملي، ويلعبان بالورق، وكان هو يلتفت إليهما، وهو يبتسم.

ما إن لمحته المرأة حتى حاولت أن تصعد سلم العربة لتناديه. لكن الصافرة أعلنت تحرّك القطار، في اللحظة نفسها، وأخذت العربات تهتز ببطء. وعمد سائق القطار إلى إنزال كاتيوشا قبل أن يصعد هو نفسه على العربة، وعندما عادت إلى الرصيف، كانت عربة الدرجة الأولى قد تجاوزتها، فطفقت تركض لتلحق بها. لكن بدون جدوى؛ كان القطار أسرع منها، فرأت عربات الدرجة الثانية تمر، ثم عربات الدرجة الثالثة، ورأت أخيراً آخر العربات بمصباحها الأحمر. عندما بلغت نهاية الرصيف، ظلّت تركض إلى آخر الخط. وأسقطت الريح التي كانت تهب بين الحين والحين، شالها الذي غطّت به رأسها. كانت تركض مشعّثة الشعر، غارقة، لدى كل خطوة، في نقاع الطين.

صاحت بها الطفلة التي كانت تركض خلفها:

— يا خالة ميخايلوفنا! شالك سقط.

وقفت كاتيوشا، وغطت وجهها بيديها، وقد ارتدّ رأسها إلى الخلف، وأخذت تتحب. وصرخت:

- لقد ذهب.

وفكرت: «وهكذا فهو هنا، في هذه العربة المدفأة جيداً، يجلس على مقعد مخملي، هو يلهو ويتسم وأنا هنا، وحيدة، في الليل، تحت المطر والريح!».

جلست على الأرض وأمعنت في نحيبها العنيف حتى إن الطفلة المذعورة لم تدر ما تقوله تعزية لها. فتوسّلت إليها قائلة:

- لننصرف، يا خالة ميخايلوفنا. لنعد بسرعة.

لكن كاتيوشا ظلت جالسة، تحت المطر والريح. سيمر قطار، وسأتمدّد على السكة، وسينتهي كل شيء». كانت تتهيأ لتنفيذ هذا المشروع، عندما اختلج فجأة الجنين الذي في أحشائها. وسرعان ما تلاشى يأسها وإذا بكل ما ملأها، قبل لحظة، بالجزع، وبإحساسها أن الحياة مستحيلة، وبكرها لنيكليودوف، ورغبتها في الانتقام منه بانتحارها. إذا بكل هذه الأفكار الشريرة تمّحي، فتنهض، وتعيد شالها إلى رأسها، وترجع إلى البيت.

في هذه الليلة، طرأ انقلاب كامل في نفسها، بدأت كاتيوشا تصبح ما صارت إليه، منذ ذلك اليوم. أقلعت عن الإيمان بالله. لقد آمنت بالله من قبل، حسب إيمان الناس، لكنها منذ تلك اللحظة اقتنعت بأنه ما من أحد يؤمن به، وأن كل ما يروى عن الله وشريعته ليس سوى خديعة وظلم. فهذا الرجل الذي أحبّها وأحبته، والذي أغواها وهجرها، كان أفضل من عرفت من الناس: الآخرون أسوأ منه. ولقد

رَسَخ هذه القناعة فيها كل ما وقع لها فيما بعد. فعمّت نيكليودوف، هاتان السيدتان العجوزان المغرقتان في تقواهما، طردتاها يوم أن غدت عاجزة عن العمل كما كانت في الماضي. أمّا الأشخاص الذين اتصلت بهم فيما بعد، فكان بعضهم -النساء بخاصة- لا يرى فيها سوى وسيلة للربح، وبعضهم الآخر -الرجال، من مفوض الشرطة إلى حراس السجن- لم يروا فيها سوى وسيلة لإشباع غرائزهم الجنسية. ليس في العالم أحد يهتم بشيء غير إشباع هذه الغرائز. هذا ما استطاع أن يفهمها إياه الأديب العجوز الذي كانت خليلته له في السنة الثانية من حياتها المستقلة: لقد أعلن لها بصراحة أن إشباع الغرائز الجنسية هو الحكمة الوحيدة- وكان يدعو ذلك «الشعر وجمالية الحياة».

الناس جميعاً لا يعيشون إلا لأنفسهم، للذاتهم الخاصة، وكل ما كان يقال عن الله وعن الخير لم يكن سوى خدعة! وإذا ما واجهها، عرضاً، هذا السؤال وهو: لم كان كل شيء على الأرض مختل النظام، لم لا يني الناس يعذب بعضهم بعضاً بدلاً من أن يستمتعوا بالحياة على رسلهم، سارعت إلى دفع هذا السؤال المتعب عنها. لا شيء يطرد المتاعب مثل سيجارة أو كأس، وأفضل منهما الرجل... فتسير الأمور سيراً أحسن.

× × ×

كان اليوم التالي يوم أحد. وفي الساعة الخامسة صباحاً، حالما دوى في رواق السجن صوت صفّارة الحارس، أيقظت كورابليوفا جارتها التي لم تستطع النوم إلا في الفجر.

قالت ماسلوفا في نفسها بذعر، وهي تفرك عينيها، وتستنشق، بالرغم منها، نتن القاعة الموبوء: «الأشغال الشاقة». كانت تشتهي أن تعود إلى النوم لتلوذ، مرة أخرى، باللاشعور؛ لكن العادة والخوف طردا النعاس، فنهضت، وجلست على سريرها مدلية قدميها، وأخذت تنظر فيمن حولها. كانت جميع النساء مستيقظات، وظل الصبي والطفلة نائمين. وكانت الأم تسحب بحذر سترتها التي ناما عليها. ونشرت المرأة المحكومة بسبب عصيانها خرقاً بالية أمام المدفأة هي لفافات الوليد، بينما كان هذا يضطرب على ذراعي فيدوسيا، ويكي، ويرسل صراخاً لم تُفلح في تهدئته ملاطفات الشابة. وأخذت المسلولة التي احتقن وجهها بالدم، وأمسكت صدرها بكلتا يديها، تسعل سعال الصباح، وتطلق، بين كل نوبة ونوبة، زفرات عميقة كأنها شهقات النحيب. وظلّت الشقراء مستلقية على ظهرها، مادة

على السرير ساقها الضخمتين، العاريتين. وهي تقص، بصوتها الرنان والمرح، حُلماً رأتَه. وكانت المرأة العجوز المحدودية، واقفة أمام الأيقونة، تردد بلا كلل الكلمات نفسها وهي ترسم علامة الصليب وتسجد. وجلست ابنة الشمس على فراشها، ناظرة إلى الفراغ بعينها الزجاجيتين الواسعتين. وكانت الحسنة تلمس بأصابعها شعرها الأسود الدهني والوسخ.

سُمعت خطوات ثقيلة يخطوها رجال في الرواق، وفتح الباب. دخل سجينان، رجلان عابسان، يلبسان سترتين من قماش رمادي، وبنطالين رماديين مرفوعين إلى ما فوق الركبة، فرفعا الحوض النتن وحمله على كتفيهما. وخرجت النساء الواحدة تلو الأخرى ليغتسلن على الحنفية. ووقع شجار بين الشقراء التي كانت تنتظر دورها، وامرأة أخرى خرجت من قاعة مجاورة، وتبادلتا الشتائم والصرخات والشكاوى مرة أخرى.

صاح الحارس الذي اقترب من الشقراء، ولطمها على ظهرها لطمة قوية دَوّت في أنحاء الرواق:

— هل أقسمتِ ألا تغادري السجن... إياك أن أسمع صوتك بعد الآن!

فقالت الشقراء دون أن تضطرب:

— حقاً! ما يزال العجوز قوي اللكمة!

فأردف الحاجب:

— أسرعن! حان وقت القداس.

لم تنته ماسلوفاً من إصلاح شعرها حتى أقبل نائب المدير، ويده سجل.

صاح الحارس:

— إلزمن أماكنكن للتفقد.

ومن القاعات الأخرى خرجت نساء أخريات، واصطففت السجيتان في صفين، على طول الرواق. وكان على نساء الصف الثاني أن يلقين أيديهن على أكتاف النسوة أمامهن. عدّهن الضابط، وتفقدن بأسمائهن، وابتعد هو وسجله.

جاءت المشرفة، بعد لحظات، لتصطحب السجينات إلى القداس. كانت ماسلوفاً وفيدوسيا في وسط الرتل المؤلف من أكثر من مائة امرأة يرتدين لباس السجن الأبيض، مع منديل أبيض على الرأس. لكن كان بينهن فلاحات يرتدين لباسهن القروي: هؤلاء كن نساء المحكومين بالأشغال الشاقة، وقد سُمح لهن بمشاركة أزواجهن مصيرهم.

كان الرتل الطويل يملأ درجات السلم. وكان يُسمع وقع الأحذية على البلاط، وهمس الأصوات، والضحكات بين حين وآخر. وعند أحد المنعطفات شاهدت ماسلوفاً وجه عدوّتها الكريه، وجه بوتشكوفاً، وهي تسير على رأس الرتل. فنبهتها فيدوسيا وأشارت إليها.

في أدنى السلم، صمتت النساء ودخلن الكنيسة التي ماتزال فارغة، والمتألثة بالمذهبات، وهن يرسمن علامة الصليب ويسجدن. كان موضع النساء في اليمين، فجلسن هناك. وبعد برهة دخل المحكومون بالنفي، بسترهم الرمادية. وكانوا ينتظرون نقلهم إلى المنفى الذي فرضه عليهم المجتمع، وتجمعوا في يسار الكنيسة وفي وسطها، وهم يسعلون سعالاً صاخباً. وفي الأعلى، في المنصة، وقفت فصيلة من المحكومين بالأشغال الشاقة حُلقت أنصاف رؤوسهم. وقد نمت على وجودهم قعقعة السلاسل. وكان هناك منصة أخرى تضم السجناء الذين لم يُفصل في دعواهم: هؤلاء لم تقص شعورهم، ولم يقيّدوا بالسلاسل.

كانت كنيسة السجن حديثة البناء، هبة تاجر ثري أنفق لهذا الغرض عشرات آلاف الروبلات، كانت تتلألأ بالمذهبات والألوان الوهاجة.

ظلت الكنيسة صامتة، لا يُسمع فيها سوى أصوات السعال والامتخاط والسلاسل المتحركة. لكن السجناء الذين وقفوا في الوسط، ما لبثوا أن تنحوا جانباً وتركوا ممراً حراً، وعلى هذا الممر تقدم مدير السجن، بمهابة، إلى الصف الأول.

× × ×

بدأ القداس.

كان القداس يُقام على النحو التالي: كان الكاهن الذي ارتدى ثوباً من البروكار، خاصاً، غريباً، ضيقاً، يكسر رغيف الخبز إلى قطع صغيرة ويضعها على طبق، ثم يغمسها في كأس مملوءة بالخمير، وهو يتمم بيعض الأسماء والدعوات. في هذه الأثناء، لم يتوقف الشماس عن القراءة أولاً، ثم عن الترتيل، بالتناوب مع جوقة السجناء، ترتيل دعوات شتى بالسلافية، غير مفهومة بذاتها، لكنها تغدو أعصى على الفهم بسبب سرعة القراءة والترتيل. وكان موضوع هذه الدعوات، بشكل رئيسي، تمنّي السعادة للإمبراطور وأسرته. وكانت تُردد مع دعوات أخرى، أو وحدها، والناس ركوع. ثم يقرأ الشماس بعد ذلك فصولاً من أعمال الرسل بصوت شديد الغرابة والتصنع، لا يفهم منه السامع شيئاً. وكان الكاهن، على العكس، يقرأ بوضوح شديد فصلاً من إنجيل مرقس، الفصل الذي يقول إن المسيح بعد أن قام، وقبل أن يصعد إلى السماء، ويجلس عن يمين الآب، ظهر أولاً لمريم المجدلية

١٣. حذفت الرقابة هذا الفصل والفصل الذي يليه من ١٨٩٩ حتى ١٩١٧.

التي طرد منها سبع شياطين، ثم ظهر للتلاميذ الأحد عشر وأمرهم أن يكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها معلنين أن من لا يؤمن يهلك، أما من آمن واعتمد فسوف يخلص، وسوف يكون بوسعه فوق ذلك، أن يُخرج الشياطين، وأن يضع يده على المرضى فيبرؤون، وأن ينطق باللسنة جديدة، وأن يأخذ الحيات بيديه، وأن يشرب السم القاتل فلا يضره.

وكان القديس يقوم على افتراض أن قطعة الخبز التي كسرها الكاهن وغمسها في الخمر تتحوّل بفضل بعض الصلوات والمعالجات، إلى جسد الرب ودمه. وقوام هذه المعالجات أن الكاهن كان يرفع يديه بحركة منتظمة، مع أن ثوب البروكار كان يعيق حركته، ثم يثني ركبتيه، ويُقبل المائدة وكل ما عليها. وكان أهم فعل فعله الكاهن هو أنه أمسك منشفة بيديه، وأخذ يحركها بحركات متساوية، فوق الطبق والكأس الذهبية. فمن المفترض، في هذه اللحظة، أن الخبز والخمر كانا يتحولاً إلى جسد ودم. ولذلك كان هذا القسم من القديس محاطاً بجلال خاص.

«لنُصلّ للكلية القداسة والطهارة، والطوباوية مريم العذراء». كذلك صاح الكاهن من وراء الحاجز، فرتلت الجوقة بفخامة أنه: حسن أن نمجد تلك التي ولدت يسوع، بغير دنس، مريم العذراء التي هي، بسبب ذلك، أرفع من الملائكة. وكان من المسلّم، بعد ذلك، أن يكون تحوّل القربان والخمر إلى جسد الرب ودمه قد تم؛ فرفع الكاهن المنشفة التي تغطي الطبق وكسر قطعة الخبز التي في الوسط إلى أربعة أقسام، وغمسها أولاً في الخمر، ثم وضعها في فمه. واعتبر نفسه أنه

قد أكل قطعة من جسد المسيح وشرب جرعة من دمه. ثم أزاح الكاهن ستاراً، وفتح باباً في الوسط، بعد أن حمل بيديه كأساً مذهبة، ليدعو المؤمنين إلى أن يأكلوا مثله من جسد المسيح وأن يشربوا مثله من دمه، وهما موجودان في الكأس.

اقترب بعض الأطفال فقط.

بعد أن سألهم الكاهن عن أسمائهم، تناول بعناية قطعة من الخبز المغموسة في الخمر، بملعقة صغيرة، وأدخلها بعمق في فم كل من الأطفال. وبعد أن مسح لهم الشماس شفاههم، رتل معهم بفرح تريلة تقول، إن هؤلاء الأطفال أكلوا جسد الرب وشربوا دمه. وبعد ذلك حمل الكاهن الكأس إلى ما وراء الحاجز، وهناك شرب كل الدم الذي في الكأس وأكل القطع الباقية من جسد الرب؛ ثم مسح شاربيه بشفتيه، متأنياً في ذلك، ونشّف فمه والكأس، وخرج مرة أخرى، فرحاً، بخطوات ثابتة، مطلقاً بنعل حذائه الرقيق.

هنا انتهى الجزء الأساسي من القداس المسيحي. لكن الكاهن، حرصاً منه على تعزية السجناء البائسين، أتبع القداس العادي بطقس ديني خاص. فوقف أمام صورة الإله التي اسودّ منها الوجه واليدان، صورة هذا الإله الذي زعم أنه أكل جسده وشرب دمه، والتي أضاءتها ست شمعات، وبدأ يتلو الكلمات التالية ويرتلها، بصوت غريب مصطنع: «يا يسوعي الوديع، مجد الرسل، يا يسوع، يا تسييحه الشهداء، أيها الرب الكلي القدرة، خلّصني! يا يسوعي الفائق الجمال، يا مخلصي، أنا لاجئ إليك! خلّصني! ارحمني، يا يسوع

بشفاعة ولادتك، يا يسوع، وبشفاعة جميع القديسين والأنبياء،
خلّصني! امنحني نعيم الجنة، يا يسوع، أنت، يا من يحب البشر!»

هنا توقف الكاهن، ورسم علامة الصليب، وسجد على الأرض؛
ف فعل الجميع مثله. وانحنى المدير والمشفرون والسجناء جميعاً، ومن
أعلى جناح في الكنيسة، اشتدت قعقة السلاسل. وتابع الكاهن:
«يا خالق الملائكة، يا سيد القوات، يا يسوع العجيب، يا اندهال
الملائكة، يا يسوع الكلي القدرة، يا مخلص الأجداد، يا يسوع الوديع،
يا عظمة الشيوخ الأولين؛ يا يسوع المجيد، يا قوة الملوك؛ يا يسوع
السعيد، يا مشيئة الأنبياء؛ يا يسوع الفائق البهاء، يا ثبات الشهداء، يا
يسوع المذعن، يا فرح الرهبان؛ يا يسوع الرحيم، يا لطف الكهنة؛ يا
يسوع الكريم، يا تكشف الصائمين؛ يا يسوع الفائق اللطف، يا هناءة
القديسين؛ يا يسوع النقي، يا عفاف العذارى؛ يا يسوع الأبدي، يا
خلاص الخطأة؛ يا يسوع يا بن الله، ارحمنا». وهنا توقف وهو يلفظ
كلمة يسوع بصوت صافر؛ عند ذاك رفع الكاهن جبّته المبطنّة بالحرير،
وانحنى حتى الأرض، بينما كانت الجوقة تُرتّل الكلمات الأخيرة:
«يا يسوع ارحمنا!»، وكان السجناء بدورهم يركعون وينهضون،
فيضطرب النصف الباقي من شعرهم، وتتعالى قعقة السلاسل التي
كانت تؤذي أرجلهم المهزولة.

ودام ذلك طويلاً. كان هناك أولاً المدائح التي تنتهي بـ«ارحمنا!»،
ثم المدائح الأخرى التي تنتهي بـ«أوليا». وفي البداية، كان السجناء
يرسمون علامة الصليب ويسجدون، لدى كل توقف، ثم صاروا
لا ينحنون إلا لدى كل توقّفين، ثم لدى كل ثلاثة توقّفات، وسروا

كثيراً عندما انتهى ذلك كله. وتنهّد الجميع تنهّد الارتياح، ثم تناول الكاهن كتاب الصلوات وابتعد إلى ما وراء الحاجز. لقد بقي الفصل الأخير. أخذ الكاهن عن الطاولة صليباً مذهباً مزيناً برسوم نافرة من الميناء، وتقدم إلى وسط الكنيسة. وأخذ الجميع يمرون من أمامه ويقبلون الصليب: المدير أولاً، ثم المشرفون، ثم السجناء وهم يتدافعون ويتشائمون بصوت خفيض. كان الكاهن يمدّ الصليب واليد، وهو يحدث المدير، إلى أفواه السجناء أو إلى أنوفهم. وكان السجناء يجهدون في أن يقبلوا الصليب واليد. كذلك انتهى القداس المسيحي، المقام من أجل تعزية الإخوة الضالين، وتعليمهم.

x x x

لم يفكر أحد من الحضور، بدءاً من الكاهن والمدير إلى ماسلوف، لحظة واحدة أن هذا المسيح نفسه الذي ردّد الكاهن مرات اسمه صافراً فيه، والذي رُتلت مدائحه في عبارات شديدة الغرابة، أن هذا المدعو يسوع قد منع بالضبط ما يُفعل هنا؛ وأنه لم يمنع فقط هذا الهذر الذي لا حياة فيه، وتلك الشعوذة التجديفية التي يُجريها كاهن الرعية على الخبز والخمر، بل إنه حرّم على الناس بأصرح مقال أن يدّعوا الآخرين أسياداً لهم؛ حرّم الصلوات في المعابد، آمراً كل واحد أن يصلي في عزلته؛ حرّم المعابد ذاتها قائلاً إنه جاء ليهدمها وأن الصلاة يجب ألا تتم في المعابد بل في الروح وفي الحقيقة؛ ولم يحرم فقط الحكم على الناس، وسجنهم واضطهادهم وإذلالهم، وإذاقتهم فنون العذاب، كما يُفعل هنا، بل إنه حرّم، على الخصوص، جميع أنواع العنف قائلاً إنه جاء ليُعتق السجناء.

لم يفكر أحد من الحاضرين أن ما كان يُرتكب هنا كان أكبر تجديف على هذا المسيح نفسه، وكان سخيرية من المسيح الذي باسمه كان يُرتكب ذلك كله. لم يفكر أحد أن الصليب المذهب ذا الرسوم النافرة

المطلية بالمينا، هو صورة للخشبة التي عُدب عليها يسوع، لأنه، على وجه التحديد، قد حرّم هذه الأفعال نفسها التي كانت تُرتكب باسمه. لم يفكر أحد أن الكهنة الذين يتصوّرون أنهم يأكلون جسد المسيح ويشربون دمه بهيئة قطع الخبز الصغيرة، والخمر، إنما يأكلون، المسيح ويشربون دمه، بالفعل. وذلك، لا بهيئة قطع الخبز الصغيرة، والخمر، لكن لأنهم لا يُضَلّون البسطاء الذين اتّحد بهم المسيح فحسب، بل وأيضاً لأنهم يُفقدونهم أعظم الخيرات، ويلقون بهم في أقسى الآلام حين يخفون عنهم إعلان الحقيقة التي حملها إليهم.

كان الكاهن يقوم بالاحتفال الديني وهو مرتاح الضمير، لأنه لقّن، منذ الطفولة، أن هذه هي العقيدة الحقيقية والوحيدة التي جهر بها القديسون، وقبلتها اليوم جميع السلطات الروحية والزمنية. لم يكن يؤمن بتحول الخبز إلى جسد، ولا بأن المصطلح الكنسي نافع للروح، ولا بأنه أكل جُزئية من الإله - كان من المستحيل عليه أن يؤمن بهذا - لكنه كان يؤمن أنه يجب أن يؤمن بذلك. والذي ثبتّه بصورة أساسية، في هذه الفكرة أنه قد جنى، منذ ثمانية عشر عاماً، أرباحاً من ممارسة الكهنوت، وأنه قد أمّن حياة أسرته، فأرسل ابنه إلى المعهد وابنته إلى مدرسة دينية داخلية. وكان إيمان الشماس مماثلاً بل كان أصعب، لأنه نسي تماماً جوهر عقائد دينه، وكان يعلم فقط أن الصلاة من أجل الموتى، وساعات الصلوات، والصلوات المتلوّة والصلوات المرتلة، كان يعلم أن جميع هذه الخدمات الكنسية لها سعر محدد يدفعه، عن رضا المسيحيون الحقيقيون؛ كذلك كان يصيح «ارحمني، ارحمني»، ولذلك كان يقرأ ويرتل كل ما يتطلّبه القداس، بالثقة المطمئنة التي يبيع بها التاجر الخشب والطحين والبطاطا. أما مدير السجن والمشفون

فمع أن الشك لم يخامر قلوبهم، ومع أنهم لم يسعوا إلى معرفة: علام تقوم عقائد هذا الإيمان، أو ماذا تعني هذه الطقوس الدينية، إلا أنهم كانوا يعدّون هذا الإيمان ضرورياً، لأن السلطة العليا، والقيصر نفسه يؤمنون به. وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يحسّون إحساساً غامضاً، دون أن يتمكنوا من تفسير هذا الإحساس، أن هذا الإيمان يبرّر ما في وظائفهم من قسوة. فبدون هذا الدين، يصعب عليهم، بل يستحيل عليهم أن يستخدموا قواهم لتعذيب الناس، وهم مطمئنون الضمير كل الاطمئنان كما يستخدمونها الآن. إن مدير السجن رجل صالح في أعماقه، وما كان يستطيع أن يحيا على هذا النحو، لو لم يجد في الدين سنداً له. ولقد ظل جامداً، ممتعاً على التأثر، وانحنى مرات عديدة ورسم علامة الصليب مرات عديدة، وحاول أن يتحنن عندما رُتلّت ترنيمة «الملائكة»، وأثناء التناول تقدّم ليُنهض بنفسه صبيّاً كان يتناول، وليسنده بيديه.

وأما السجناء، ما عدا بعضاً منهم رأوا الخدعة بوضوح، وسخروا في أعماق نفوسهم من الدين، فقد كان معظمهم يعتقد أن هذه الأيقونات المذهبة، وهذه الشموع، وهذه الكؤوس، وهذه الحلل، وهذه الصلبان، وهذه الصلوات التي لا تُفهم: «يا يسوع الوديع»، و«ارحمني»، تخفي عقيدة خفية الأسرار، بفضلها يستطيع الناس أن يحصلوا على خيرات عظيمة على هذه الأرض، وفي الحياة الآتية. ومع أن معظمهم جرّبوا، مراراً وبدون جدوى، الحصول على هذه الخيرات الأرضية، عن طريق الكهنة والصلوات والشموع، وأن صلواتهم لم تُستجَب، إلا أن كل واحد منهم كان مقتنعاً اقتناعاً راسخاً بأن هذا الإخفاق إنما يعود إلى المصادفة، وبأن هذه المؤسسة التي أقرّها العلماء

والمطارنة مؤسسة جادة، مهمة، نافعة، إن لم يكن في هذه الحياة، فعلى الأقل في الحياة الأخرى.

كذلك كانت ماسلوفاً تؤمن. كانت، كالأخرين، تشعر، أثناء القداس، بشعور من الخشوع والضعف معاً. كانت واقفة بين جمهور السجينات، وراء الحاجز، فلم تستطع أن ترى أحداً سوى رفيقاتها؛ ولكن عندما تقدّمت اللواتي سيتناولن، تقدمت هي أيضاً مع فيدوسيا، وأبصرت المدير والمشرفين ورجلاً ذا لحية وشعر أشقر - كان هذا هو زوج فيدوسيا الذي ثبت عينيه في امرأته بحنان - حينذاك استغرقت ماسلوفاً في حديثها مع فيدوسيا وفي تأمل زوجها، دون أن تكفّ، مع ذلك، عن الصلاة ورسـم علامة الصليب والانحناء كالأخرين.

صرخ الحارس أثناء خروج النساء من الكنيسة:

- ماسلوفاً! إلى غرفة الاستقبال!

× × ×

خرج نيكليودوف من بيته مبكراً، كان الشارع خالياً إلا من فلاح
مع عربته، وهو يصرخ بصوت غريب:

— حليب! حليب! حليب!

كانت قد هطلت، عشية البارحة، أول أمطار الربيع الدافئة.
وبدأت الأعشاب تخضر، حيثما لم يخنقها بلاط الشارع. وازدانت
أشجار البتولة بزغب أخضر؛ ومدّت أشجار الكرز البري وأشجار
الصفصاف أوراقها الطويلة العطرية. ورُفعت النوافذ في البيوت
والدكاكين من أجل تنظيفها. لكن سوق الرّثاث الذي يمر طريقه به،
كان قد تجمهر فيه الناس. كان الرجال والنساء يزدحمون، وجزماتهم
في أقدامهم، على الخيام المرتبة في صفوف، وهم يجسّون الستر
والصدرات والبناطيل، وقيسونها، ويساومون عليها.

في الحانات أيضاً ازدحم الجمهور. كان العمال يدخلونها بسترهم
النظيفة وجزماتهم الملمعة، والسعادة بادية عليهم، لأنهم استطاعوا
أن يفتلوا من متاعب المصنع يوماً واحداً. واصطحب الكثير منهم

زوجاتهم بمناديلهن الحريرية الزاهية الألوان، وسترهن المزدانة بالخرز. ووقف رجال الشرطة الذين ارتدوا لباس الحفلات الرسمي وعلقوا غدارتهم بشرائط صفراء على زنانيرهم، جامدين في زوايا الشارع، يترقبون الفوضى التي ستذهب عنهم سآمتهم. وأخذ الأطفال والكلاب يترأكضون ويلعبون في ممرات الشوارع، وعلى عشب المروج الذي مايزال رطباً، بينما انصرفت المربيات الجالسات على المقاعد في جماعات، إلى الثرثرة والقهقهة. ومن كل جانب من الشوارع، دوى صوت الأجراس وصداه، داعياً الجمهور إلى حضور قداس إلهي شبيه بالقداس الذي أقيم في كنيسة السجن، وهو صوت امتزج بضجيج العربات على بلاط الشارع. واتجه بعض المارة، وهم في ثياب الأحد، إلى كنيستهم.

كان السجن مايزال مُغلَقاً عندما بلغه نيكليودوف. وفي ساحة صغيرة، على نحو مائة خطوة من الباب، وقفت جماعة من الرجال والنساء يحمل معظمهم رزماً في أيديهم. إلى يمين الساحة يمتد بناء واطئ، من الخشب؛ إلى اليسار يقوم بناء بطابقين، وعليه لافتة. وفي الصدر، ظهر مدخل السجن الحجري، الضخم الذي يقف عنده جندي يتنكب بندقيته ويحول دون الاقتراب منه.

أمام شباك التخشبية جلس حارس يرتدي بزة رسمية عليها شرائط، ويضع على ركبتيه سجلاً. وكان الزوار يخاطبونه ليسجلوا أسماء السجناء الذين يرغبون في مقابلتهم.

دنا منه نيكليودوف وسمّى كاترين ماسلوفاً، ثم سأل:

– لم لا يُسمح بالدخول.

أجاب الحارس:

– السجناء في القُداس، فمتى انتهى القُداس دخلتم.

اقترَب نيكليودوف من جمهور الزوار. وفي اللحظة نفسها، طلع من الجمهور رجل رث الثياب، حافي القدمين، محدد الوجه بالحمرة، وانسل إلى باب السجن.

فصاح به الجندي وهو يرفع يده إلى بندقيته.

– هيه! أنت، إلى أين تذهب؟

أجابه الرجل وهو يعود أدراجه ببطء دون أن يتأثر أدنى تأثر بصراخ الجندي:

– وأنت، مالك تزعق هكذا؟ لا تريد أن تدعني أدخل؟ طيب، سأنتظر! ما رأينا أحداً يزعق مثلك، لكأنك جنرال!

استقبلت هذه المزحة بضحك الاستحسان. وكان معظم الزوار من المساكين الذين يرتدون ثياباً زرية؛ وكان بعضهم رث الثياب، لكن كان بينهم من هو آثق لباساً. ف بجانب نيكليودوف وقف رجل بسترّة رسمية، قد حلق ذقنه بعناية، رجل «سمين» متورّد الوجه، يحمل في يده رزمة ثقيلة كأنها تحتوي على ثياب داخلية. سأله نيكليودوف إن كانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها إلى السجن. لا، بل لقد جاء كثيراً؛ كان يأتي كل أحد، وقصّ على نيكليودوف قصته كاملة. إنه

حاجب في مصرف، والسجين الذي جاء لمقابلته أخوه، وهو محكوم
بجرم التزوير.

في اللحظة التي همّ فيها ذلك الرجل الطيب أن يسأل بدوره
نيكليودوف، استرعى انتباههما وصول عربة أجرة، خرج منها
طالب شاب وسيدة في فستان فاتح اللون. كان الطالب يحمل بيده
صرة ضخمة. تقدّم نحو نيكليودوف وسأله إن كان يعتقد أنهم
سيسمحون له بتوزيع هذه الكمية من الخبز الأبيض الذي في الصرة
على السجناء وأوضح:

— خطيبي هي صاحبة هذه الفكرة. هذه الفتاة خطيبي. وقد أذن
لنا أهلها بأن نحمل هذا الخبز إلى السجناء.

أجاب نيكليودوف وهو يشير إلى الحارس ذي الشرائط، الجالس
أمام سجله:

— هذه أول مرة آتي فيها إلى هنا، وأنا أجهل الأصول المتبعة هنا.
وأظن من المستحسن أن تتوجه بالسؤال إلى ذلك الحارس.

وفجأة، انفتح باب السجن الحديدي، وخرج منه ضابط باللباس
الرسمي، يصحبه حارس أعلن، بعد أن بادل رئيسه بعض الكلمات،
أن الدخول مسموح للزوار.

تنحى الحارس جانباً، وهُرع الناس إلى الباب، كأنهم يخافون أن
يتأخروا.

وقف وراء الباب حارس كان يعدّ الزوار بصوت عال، كلما مرّوا أمامه، وعلى خطوات منه، في صدر الرواق الأول، وقف حارس آخر، يلمس بيده ذراع كل من الزوار قبل أن يجتاز باباً صغيراً، ويعدّهم مرة أخرى، وذلك حتى يتأكد، عند خروج الزوار، من أنه لم يبق في السجن أحد. ولم يخرج منه أحد، هذا الحارس الذي كان مشغولاً بعد الزوار عن رؤية وجوههم، هزّ بشدة كتف نيكليودوف، أثناء مروره، مما أثار فيه شيئاً من السخط، بالرغم من حسن نيّاته.

كان الباب الصغير يُطل على غرفة واسعة، معقودة القبة، فيها قضبان على النوافذ. عبر نيكليودوف الباب بخطى بطيئة، تاركاً سيل الزوار المستعجلين يمر أمامه. كان يحسّ في آن واحد بالاشمئزاز من المسيئين المحبوسين في هذا السجن، مع مزيج من العطف على الأبرياء، من أمثال متّهم الأمس، وأمثال كاتيوشا، المحبوسين معهم، ومن الإحساس بالخنجل والإنفعال حين يتصور اللقاء القريب.

في الطرف الآخر من القاعة الواسعة، كان الحارس يقول شيئاً للزوار الذين يمرون أمامه. لكن نيكليودوف كان مستغرقاً في أفكاره، فلم يسمعه وتابع سيره خلف الجماعة التي كانت تمشي أمامه. وإذا به يصل إلى القاعة المخصصة لمقابلة الرجال، بينما كان قصده القاعة المخصصة لمقابلة النساء.

عندما دخل القاعة، آخر الناس، دهش قبل كل شيء من هذه الضوضاء المنبعثة من أصوات عديدة تصرخ في الوقت نفسه. لم يدرك نيكليودوف سبب هذا الضجيج! إلا عندما بلغ وسط القاعة حيث

وقف جمهور الزوار أمام شبكة من القضبان الحديدية، كما تزدهم جماعة من الذباب على قطعة سكر.

كانت القاعة مقسومة إلى نصفين بشبكة مزدوجة نازلة من السقف إلى الأرض. وبين الشبكتين مسافة تُقدَّر بنحو ثلاثة أمتار يتمشى فيها الجنود جيئةً وذهاباً. كان السجناء يقفون في أحد الجانبين والزوار في الجانب الآخر، وتفصل بينهما الشبكتان والجنود، بحيث لم يكن مستحيلاً فقط أن يعطي الزوار السجناء شيئاً، أيّاً كان ذلك الشيء، بل كان من الصعب عليهم أن يروههم وأصعب من ذلك التحدث من جماعة إلى أخرى، إذ كان على المرء أن يصرخ بكل قواه ليكون مسموعاً. وبما أن كل واحد كان يحرص على أن يكون مسموعاً، وأن الأصوات كان يغطي بعضها بعضاً، اضطر كل واحد إلى أن يزيد من صراخه. ومن هنا جاءت هذه الضوضاء التي أذهلت نيكليودوف، وهو يدخل القاعة.

أما تمييز ما كان يقال، فذلك ما لم يكن يخطر على بال. كان من الممكن فقط، بفضل تعابير الوجوه، التنبؤ بالموضوعات التي يدور الحديث حولها، وبالعلاقات القائمة بين السجناء وزوارهم.

على مقربة من نيكليودوف، وقفت امرأة عجوز، على رأسها منديل وقد لصقت بحديد الحاجز، وأخذت تصرخ بشيء لشاب محكوم بالأشغال الشاقة، لأن نصف رأسه كان حليقاً، شاب قطب ما بين حاجبيه، وبدا عليه أنه يصغي بانتباه زائد. ويأتي بعدها الرجل ذو الثياب الرثة الذي أضحك الناس، قبل قليل، أمام الباب؛ كان يحدث

صديقاً، ويلوّح بيديه، ويصرخ ويضحك. ورأى نيكليودوف بجانبه امرأة نظيفة الملابس، تجلس أرضاً، وتحمل طفلاً على ذراعيها. كانت تبكي وتنتحب، دون أن تقوى على رفع عينيها إلى المحكوم بالأشغال الشاقة الواقف إزاءها، في الجانب الآخر من الحاجز، حليق الرأس، مقيد القدمين.

عندما أدرك نيكليودوف أن عليه هو أيضاً. أن يحدث كاتيوشا في الشروط نفسها، استولى عليه حقد على الناس الذين استطاعوا أن يخترعوا مثل هذا العذاب وأن يسمحوا به. ودهش حين فكر في أن مؤسسة بهذه الفظاعة، وإهانة بهذه القسوة لأقدس المشاعر، لم تُثر سخط الناس، من قبله. واغتاظ حين رأى الجنود والحارس والسجناء أنفسهم يرتاحون إلى هذه الطريقة في المحادثة، وكأنها شيء طبيعي، لا مناص منه.

ظل نيكليودوف هكذا بلا حراك، بضع دقائق، يرهقه إحساس غريب من الحزن العاجز، إحساس يمتزج به التقزز من كل شيء، والشعور بضعفه الخاص.

× × ×

قال نيكليودوف في نفسه: «ومع ذلك، يجب أن أفعل ما جئت من أجله! لكن إلى من أتوجه؟

فتش ببصره عن المشرف على القاعة فرآه مختلطاً بالجمهور، رجلاً قصيراً، ضامراً، يرتدي بزة رسمية عليها كتفيتا الضابط. تقدم منه نيكليودوف وسأله باحترام مُقتَسَر:

- عفواً، يا سيدي، أيمكنك أن تدلني على قسم النساء، وإلى من أتوجه من أجل مقابلهن؟

- تريد أن تذهب إلى قاعة مقابلة النساء؟

- نعم. أريد أن أرى امرأة مسجونة هنا.

- لمَ لم تقل ذلك قبل قليل، في القاعة الأولى، عندما سُئِلتَ عن ذلك؟ مَنْ تريد أن ترى؟

- كاترين ماسلوف.

- سجينَة سياسية؟

- لا، هي مجرد...

— هي ماذا؟ متّهمة؟ محكمة؟

أجاب نيكليودوف بهدوء، وهو يخشى أن يدثر، بكلمة مسرفة الحدة، ما لمسه لدى نائب المدير هذا من لطف وإيناس:

— محكمة منذ يومين.

قال نائب المدير:

— سأقودك إلى قاعة النساء.

وإذ رأى، من المظهر الخارجي لنيكليودوف، أنه بإزاء شخصية جديرة بالاحترام، صاح بحارس مشورب ومغطى بالأوسمة:

— سيدوروف! خذ السيد إلى قاعة مقابلة النساء!

فتح الحارس الباب، وكان الباب مغلقاً بالقفل، وطلب إلى نيكليودوف أن يخرج إلى الرواق، وعاد به إلى القاعة الواسعة المعقودة القبة، ثم قاده عبر رواق آخر إلى قاعة مقابلة النساء.

كانت هذه القاعة، كالقاعة الأخرى، مقسومة إلى ثلاثة أقسام بشبكتين من القضبان. ومع أنها أصغر، على نحو محسوس، من قاعة الرجال، وأن عدد الزوار أقل، فقد كان الصراخ يصم الآذان فيها كما كان في قاعة الرجال، وربما أكثر. وبين الشبكتين، كانت تقف السلطة، هنا أيضاً، تمثلها، هذه المرة، مشرفة بيزة رسمية أيضاً، لها شرائط على الكم، وثنائيا زرقاء، وزنار من اللون نفسه. وكان الأمر هنا كما كان في القاعة الأخرى، ففي أحد الجانبين كان الزائرون يتشبثون بالشبكة، وهم في ملابس شتّى؛ وفي الجانب الآخر وقفت السجينات،

ومعظمهن في ثياب بيضاء، وعلى رؤوسهن مناديل بيضاء. وكانت الزحمة في جانب الرجال من الشدة بحيث أن كثيراً من النساء كن مضطرات إلى أن ينتصبن على رؤوس أصابعهن ليصرخن من فوق رؤوس الأشخاص الموجودين أمامها.

عندما تعود نيكليودوف هذه الجلبة بعض الشيء، استرعى انتباهه وجه غجرية نحيل وطويل؛ وكانت الغجرية في وسط الشبكة، من جهة السجينات، توضح أمراً ما، بحركات سريعة وبصوت صارخ، لئلا يرتدي سترة زرقاء، غجري هو أيضاً، واقف في الجهة الأخرى. وقرب الرجل، وقف فلاح شاب ذو لحية شقراء، بدا عليه أنه يحاول جهده أن يمسك دموعه، وقد اصطبغ بحمرة الخجل. كان يصغي إلى ما كانت تقول له سجينة جميلة قبالتها، وكانت هذه تتأمله بحنان، وهي تتكلم؛ تتأمله بعينها الزرقاوين. كان هذان فيدوسيا وزوجها.

تفرّس نيكليودوف في وجوه السجينات المستندات إلى الشبكة، وجهاً بعد وجه: لم تكن ماسلوفاً في عدادهن. لكن نيكليودوف رأى امرأة واقفة وراء الصف الأمامي، محتجة به، فقدّر أنها هي. وسرعان ما أحسّ بنفسه يتوقف، وبخفقات قلبه تتضاعف. لقد أزفت اللحظة الحاسمة.

تقدّم نحو الشبكة، وأفلح، بعد جهد، في أن يجد لنفسه مكاناً، وثبتت نظره في ماسلوف. كانت تقف وراء الفلاحة ذات العينين الزرقاوين، وبدا عليها أنها تصغي، وهي تبتسم، إلى حديثها مع زوجها. كانت ثيابها كلها بيضاء، بدلاً من السترة الرمادية التي كانت

ترتديها أول البارحة. وتحت منديلها ظهرت خصلات شعرها الأسود.

حدّث نيكليودوف نفسه: «هيا، يجب أن تتخذ قرارك! لكن كيف أدعوها؟ ليتها تراني وتأتي إلي!»

لكنها لم تدن منه. كانت تنتظر صديقها كلارا، ولم يخطر لها أن هذا السيد قد جاء من أجلها.

سألته المشرفة التي كانت تتجول بين الشبكتين:

— مَنْ تحبّ أن ترى؟

أجاب نيكليودوف، وهو يُكدّ نفسه:

— كاترين ماسلوف

فصرخت المشرفة:

— هيه! ماسلوف! في الزوار مَنْ يسأل عنك.

التفتت ماسلوف فجأة، ورفعت رأسها، ودنت من الشبكة، بعد أن انسلت بين سجيتين، بارزة الصدر، بادية التلطف الذي عرفه فيها نيكليودوف قديماً. أخذت تنظر إلى نيكليودوف بمزيج من الدهشة والاستفهام. لم تعرفه، لكنها قدّرتها، من هيئته، أنه ثري. فابتسمت له، وألصقت بالشبكة عينيها الباسمتين اللتين كان فيهما شيء من الحول. سألت:

- أنت آتٍ من أجلي!

- نعم، أردتُ...

توقف نيكليودوف، وهو لا يدري إن كان ينبغي أن يخاطبها
بضمير الجمع أو بضمير المفرد. فقرر أن يستخدم ضمير الجمع:

- أردتُ أن أراك... أنا.

صاح بقربه الزائر ذو الثياب الرثة:

- أنت تزعجني بقصصك؟ أأخذته أم لم تأخذه؟

فصرخ صوت من الجانب الآخر:

- مرضها يشتد يوماً بعد يوم! إنها تحتضر!

لم تستطيع ماسلوف أن تميز شيئاً مما كان يقوله لها نيكليودوف.
لكنها تعرّفته، من تعبير وجهه أثناء كلامه. أو بالأحرى ظنت أنها
تعرفته، لأنها حدّثت نفسها بعد لحظة أنها كانت مخطئة. ومع ذلك
فقد اختفت البسمة من شفثيها، وتغضن جبينها بغضون الألم.

صرخت وهي تغمز بعينيها، بينما كان جبينها يزداد تغضناً:

- لا أسمع ما تقوله!

- جئتُ...

وفكر نيكليودوف:

– نعم، أنا أقوم بواجبي... أنا أكفر عن ذنبي.

ما إن خطرت له هذه الخاطرة حتى ملأت الدموع عينيه، وتشنّج حلقه، وصمت، وأصابه متشبّثة بقضبان الحديد. أحس أنه سينفجر باكياً عند أول كلمة.

صرخت سجينة من صدر القاعة.

– الحقيقة أنني لا أعلم شيئاً عن ذلك؟

أسبغ الإنفعال على وجه نيكليودوف تعبيراً سرعان ما عرفته ماسلوفاً. فتلاشت جميع شكوكها.

على أنها رأت من واجبها أن تقول، دون أن ترفع عينها:

– لستُ واثقة من معرفتك.

وغمرت الحمرة المفاجئة خديها، واكفهرت ملامح وجهها.

صرخ بصوت قوي، لكنه غير معبر، وكأنه يتلو درساً حفظه:

– جنّتُ أسألك الصفح!

استولى عليه الخجل، ونظر حوله. لكنه فكّر في أن هذا الخجل حسن، إذ من واجبه أن يُعرّض نفسها لهذا الخجل، على هذا النحو. فصرخ بأعلى صوته:

– اغفري لي! أنا مذنّب أفدح الذنب نحوكِ...

كانت تقف خلف الشبكة، جامدة، لا ترفع بصرها عنه ولم يقوَ على إنهاء جملته، وغالب نفسه ليحبس عبراته التي كانت تهز صدره.

لم يغادر القاعة الحارس الذي اصطحبه، ولا شك أنه قد تابع بعينه تفاصيل هذا المشهد. وعندما رأى نيكليودوف يتعد عن شبكة الحديد، تقدّم نحوه وسأله لماذا لا يتابع حديثه مع المرأة التي جاء من أجلها. امتخط نيكليودوف، وبذل وسعه كي يتمالك نفسه وقال:

- لا سبيل على الكلام عبر هذه الشبكة! لا يسمع أحدٌ أحداً.

فكر الحارس لحظة، وأردف:

- اسمع، أعتقد، من الممكن، بالنسبة إليك، أن تأتي بالسجينة إلى هنا! لكن انتظر دقيقة فقط!

وصاح بالمشرفة:

- ماريا كارلوفنا! إئتي بماسلوفنا إلى هنا.

× × ×

دخلت ماسلوفاً، بعد قليل، من باب جانبي؛ ودنت من نيكليودوف بهدوء، فأخذت تنظر إليه دون أن ترفع رأسها إليه، ومع أن لون وجهها لم يكن يُنبئ بالسلامة، ومع أنه كان متورّماً، فاقداً دمه، إلا أنه كان ما يزال يسرّ الناظر، وكان يبدو هادئاً أعظم الهدوء، لكن العينين السوداوين تحت الجفنين المنتفخين، كانتا تلتمعان ببريق لا عهد لنيكليودوف به.

قال الحارس:

- يمكنكما أن تتحدّثا هنا.

وبعد ذلك، ابتعد الحارس بوجهه الرزين.

ذهب نيكليودوف وجلس على مقعد مثبت في الجدار. نظرت ماسلوفاً أولاً إلى الحارس نظرة مستفهمة، ثم هزّت كتفيها، كالمندهشة، وعزمت على أن تلحق بنيكليودوف، وجلست بجانبه على المقعد، وهي ترفع تنورتها.

بدأ نيكليودوف كلامه قائلاً:

– أعرف أن من الصعب عليك الصفح عني.

وتوقف، مرة أخرى، كأنه يريد أن يستردّ شجاعته. وتابع:

– لكن إذا كان متعذراً لإصلاح الماضي، فأنا، على الأقل، مصمم أن أفعل الآن كل ما بوسعي أن أفعله. قولي لي...

سألته دون أن تجيب عن سؤاله، وهي تثبت فيه نظرة عينيها الملتمعتين تارة، وتردّها إلى الأرض تارة أخرى:

– كيف عرفت أنني هنا؟

قال نيكليودوف في نفسه، وقد ذُعر من تعبير وجهها الذي تغيّر واكفهر:

«يا إلهي! أعني! علّمني ما ينبغي أن أفعله!»

وهمس مجيئاً:

– كان ذلك أول البارحة، في محكمة الجنايات، عندما حوكمت..
كنتُ محلّفاً... ألم تعرفيني؟

فأجابت:

– لا، على الإطلاق. كيف كان يمكنني أن أعرفك، ثم إنني لم أنظر إلى أحد.

سألها وهو يحس بحمرة الخجل:

- وهكذا، كان هناك ولد؟

فأجابت بإيجاز، وهي كالحلة الوجه، وقد حوّلت عينيها:

- مات من فوره، والحمد لله!

- لكن بم مات، وكيف؟

قالت دون أن ترفع بصرها:

- كنتُ، أنا نفسي، مريضة، وأشرفت على الموت.

- وهل طردتكِ عمّتي؟

- وهل يحتفظ الناس بخادمة على وشك الوضع؟ ما إن شاهدتا

أنني حامل حتى صرفتاني... لكن ما جدوى الكلام على ذلك كله؟ لم أعد أذكر شيئاً، نسيْتُ كل شيء! كل ذلك قد انتهى.

- لا، إن ذلك لم ينته. لا أقبل أن ينتهي ذلك! أريد أن أكفر عن خطيئتي.

- ليس هناك ما يُكفر عنه: قد كان ما كان، وكل ذلك من الماضي.

ردّدت هذه الكلمة، وهي ترفع فجأة عينيها على نيكليودوف، وتبتسم ابتسامة متحدية، مثيرة للشفقة.

لم تكن ماسلوفا تتوقع أن تلقى نيكليودوف أبداً، ولا سيما في هذه اللحظة، وفي هذا المكان. ومن هنا جاء أن منظره قد جرحها، في بادئ الأمر، وأعاد إلى ذاكرتها أموراً كانت عازمة على ألا تفكر فيها أبداً. تذكّرت، وهي تراه مرة أخرى، ذلك العالم العجيب من العواطف والأحلام الذي كشفه لها قديماً حبّها الأول؛ تذكّرت كيف أحبّها هذا الرجل، وكيف أحبّته، وتذكّرت أيضاً قسوة هجرانه، وتلك السلسلة الطويلة من المذلات والآلام التي تلت لحظات السعادة تلك. آلتها هذه الذكريات جميعاً. لكنها لم تقوَ على الوقوف طويلاً عندها، فلجأت مرة أخرى، إلى طريققتها المعتادة: لقد كبتت هذه الذكريات المؤلمة في ظلمات حياتها الفاسدة. عندما رأت نيكليودوف، وحدثت، في البداية، بينه وبين الشاب الذي أحبّته قديماً. فلما شقّ عليها ذلك التوحيد، عدلت عنه، بعد لحظة. ومنذ هذه اللحظة، لم يعد هذا السيد الأنيق اللباس، بلحيته الجميلة، الحسنة الشكل، في نظرها، سوى أحد أولئك «الزبونات» الذين يستخدمون مخلوقات مثلها إذا ما أحسّوا بالحاجة إليهن، والذين يجب عليهن أن تستخدمنهم جهد المستطاع. ومن هنا جاءت ابتسامة التحدي التي ابتسمتها. كانت صامته تفكر في الطريقة التي يمكنها بها أن تستغله إلى أبعد غاية فأردفت:

— تلك قصة انتهت. وها أنذا قد حُكم علي بالأشغال الشاقة!

ارتعشت شفتاه وهي تلفظ هذه الكلمات الرهيبة.

فهتف نيكليودوف:

— كنتُ أعلم، أنك غير مذنبة، كنتُ على يقين من ذلك.

— بالتأكيد، أنا بريئة، أنا، سارقة أو قاتلة؟ يُقال إن كل شيء يتوقف على المحامي. وإنني يجب أن أقدم طعنًا. لكن يقال إن هذا يكلف غالياً...

فرد نيكليودوف:

— نعم، لاشك. وقد استشرت محامياً.

— لكن ينبغي أن يكون محامياً مقتدرًا.. محامياً يكلف كثيراً...

— سأفعل كل ما هو ممكن.

ساد الصمت، مرة أخرى، ثم ابتسمت ابتسامة أخرى من ابتساماتها، وهي تُتمتم فجأة:

— أود أن أسألك... شيئاً من المال، إن كان ذلك لا يضايقك. لا أريد كثيراً... عشرة روبلات! بشرط ألا يضايقك ذلك. لا أحتاج إلى أكثر من عشرة روبلات!

أجاب نيكليودوف مرتبكاً، وهو يخرج محفظته:

— بالتأكيد، بالتأكيد...

ألقت ماسلوفاً نظرة خاطفة على الحارس الذي كان يتجول ذهاباً وإياباً في صدر القاعة.

— انتظر حتى يدير ظهره، وإلا أخذوا مني المال!

تناول نيكليودوف من محفظته ورقة بعشرة روبلات، لكن الحارس استدار في اللحظة التي كان سيناولها إياها فيها. فخبأ الورقة في راحة يده.

فكّر نيكليودوف وهو يتأمل ذلك الوجه الشاحب والمنتفخ الذي كان يترصد تباعاً حركات الحارس وحركات اليد التي تمسك الروبلات العشرة:

«إنما هذه امرأة ضائعة!» وخامره اليأس لحظة: ذلك أن المغوي الذي كلمه في ليلة أول البارحة، رفع صوته فيه، مرة أخرى. كان يسعى إلى صرفه عن التفكير في واجبه، مظهرأله العواقب.

كان ذلك الصوت يقول: لن تصلح هذه المرأة لشيء بعد الآن! لن تنجح إلا في أن تُعلّق حجراً بعنقك سيغرقك وسيمنعك من نفع الآخرين! أعطها المال، ذاك الشيء حسن! كل ما في محفظتك من مال! ثم ودّعها وانت منها!«.

لكن نيكليودوف ما لبث أن أحسّ، في هذه الدقيقة ذاتها، أن أزمة حاسمة تتم فيه، وأن نفسه تقع فيما يشبه مفترق طريقين. وإذا اختارت أحدهما، فلن تستطيع أن تعود أبداً إلى الآخر. في هذه اللحظة ذاتها، كان عليه أن يبذل المجهود الذي ستوقف عليه حياته كلها. هذا المجهود قد أدّاه بعد أن استعان بالله الذي أحسّ إحساساً شديد الوضوح بحضوره في قلبه، ليلة أول البارحة.

صمّم أن يقول كل شيء لما سلّوفا، في الحال.

فهتف، مخاطباً إياها بضمير المفرد فجأة:

- كاتيوشا! جئتُ إليك أطلب صفحك! ولم تجيبيني، لم تقولي لي
إن كنتِ صفحتِ، وإن كنتِ عازمة ألا تصفحي أبداً!

لم تكن تصغي إليه، وظلّت تراقب الروبلات العشرة والحارس
تباعاً. وفي اللحظة التي انقلب فيها الحارس راجعاً، مدّت يدها،
واختفت الورقة، بحركة سريعة، وخبأتها في زنارها.

وأردفت بابتسامة بدت لنيكليودوف كأنها تنمّ على الاحتقار:

- غريب ما تقوله!

خَيَّلَ إليه أن تحت هذه الابتسامة نوعاً من العداء يمنع كاتيوشا
أن تظهر له على نحو آخر، ويمنعه هو من التأثير فيها. لكنه لم يكن
يُعرض عنها، دون أن يدري كيف. كان يحسّ أن من واجبه إيقاظ
هذه النفس، بالرغم من كل شيء. كانت المهمة بالغة الصعوبة، لكن
هذه الصعوبة زادت المهمة إغراءً. كان يحسب إزاء ماسلوفاً بشعور لم
يخالجه من قبل؛ لم يكن يرغب في شيء لنفسه، وكان كل مبتغاه أن
تكفّ عن أن تكون كما تبدو الآن، لتعود كما كانت من قبل.

- كاتيوشا، لم تكلميني هكذا؟ أنت تعلمين مع ذلك، أنني
أعرفك؛ إني أذكر كيف كنتِ قديماً، في بانوفا...

فثارت بجفاف:

- ما الفائدة من استذكار الماضي؟

فأكّد نيكليودوف:

– إنما أستاذك ذلك كله لأُصلح خطيئتي، لأُكفر عنها!

أوشك أن يقول لها إنه مستعد للزواج بها، لكنه التفت إلى عينيها، فقرأ في نظرتها شيئاً دينياً جداً، منفراً جداً، فلم يقوَ على متابعة كلامه.

أخذ الزوار يخرجون. دنا الحارس من نيكليودوف وقال له إن الوقت قد حان لإنهاء الحديث. نهضت ماسلوفاً منتظرة بخضوع أن يُسمح لها بالذهاب.

قال نيكليودوف وهو يمد إليها يده:

– إلى اللقاء، ما يزال عندي أشياء كثيرة أود أن أقولها لك. لكن ذلك مستحيل، في الوقت الحاضر، كما ترين، وسأعود.

– يبدو لي أنك قلت كل شيء...

فرد نيكليودوف:

– لا، سأؤدبر الأمر لألقاك في مكان أستطيع أن أكلمك فيه، وحينئذ سأقول لك شيئاً عظيم الأهمية.

فقالت وهي تبتسم بالطريقة التي اعتادت فيها أن تبتسم للرجال الذين تبغي أن تفتنهم:

– طيّب، عُد.

وقال نيكليودوف أيضاً:

— أنت أقرب إلي من أختي!

فقالت، وهي تهزّ رأسها قبل أن تمر إلى ما وراء الشبكة الحديدية:

— ما أغرب ذلك!

× × ×

تصوّر نيكليودوف أن كاتيوشا، إذا رأته واكتشفت ندامته ونيته في مد يد العون إليها، ابتهجت ورقّت وعادت، في الحال، كاتيوشا القديمة. لكنه شاهد أن كاتيوشا لم تعد موجودة، وأن ماسلوفاف هي وحدها الموجودة منذ الآن. وهذه المشاهدة ملأته بالدهشة. وما أدهشه بخاصة أن كاتيوشا لم تكن خجلة من وضعها. من وضعها كبغي، بالطبع، لأنها كانت تشعر بخجل ظاهر من وضعها كسجينة. أما وضعها كبغي، فكانت تبدو راضية عنه، فخورة به.

والواقع أنه لم يكن في ذلك ما يدهش. فنحن جميعاً، بما نحن عليه، نحتاج، لكي نحسن العمل، إلى اعتبار نمط نشاطنا مهماً وجميلاً؛ وينتج عن ذلك أن الوضع الذي يكون فيه الكائن الإنساني قليل الأهمية، فهو يشكل لنفسه بالضرورة تصوراً عن الحياة يبدو فيه نمط نشاطه رفيع القيمة والمنزلة. نحن نتصور بسهولة أن السارق والخائن والقاتل والبغي يخجلون من المهنة التي يحترفونها، أو على الأقل، يعدّونها خسيصة. ولا أثر لذلك، في الواقع. فالناس الذي وضعتهم أقدارهم أو أخطأؤهم في وضع محدد، مهما يكن ذلك الوضع منافياً

للأخلاق، يتدبرون أمورهم ليكونوا لأنفسهم تصوّراً عاماً عن الحياة يمكن أن يبدو فيه وضعهم الخاص شرعياً ورفيعاً. ولكي يثبتوا في أنفسهم هذا الشذوذ، يستندون غريزياً إلى أناس آخرين في وضعهم نفسه وقد تصوروا بالطريقة نفسها الحياة، على العموم، وموقعهم في هذه الحياة، على الخصوص.

وإننا لندهش حين نرى لصوصاً يفخرون بمهارتهم، وبغايا بفجورهن، وقتلة بوحشيتهم. لكننا لا ندهش منهم إلا لأن نوع هؤلاء الأفراد محدود جداً، ولأن محيطهم وجوهم خارج محيطنا وجوّننا. فنحن لا ندهش، مثلاً، حين نرى الأغنياء يتباهون بثرواتهم، أي بسرقتهم أو بإخفاء مسروقاتهم، أو حين نرى الأقوياء يعتزّون بقوتهم، أي بعنفهم ووحشيتهم. ونحن لا نفطن للطريقة التي يشوّه ويُفسد هؤلاء الأشخاص تصوّرهم الطبيعي للحياة والأخلاق، لكي يبرّروا أنفسهم، لا نفطن لذلك كله لأن عددهم كبير، ولأننا نحن جزء منهم.

لقد كوّنّت ماسلوفاً لنفسها تصوّراً من هذا النوع عن الحياة على العموم، وعن دورها هي على الخصوص. كانت بغياً في أدنى الدرجات، محكومة بالأشغال الشاقة، ومع ذلك فلم تكن تتوانى عن تبرير سلوكها، وحتى عن الافتخار بوضعها أمام الآخرين. كان ذلك التصور يتركز على هذه الفكرة هي أن سعادة الرجال الرئيسية، بدون استثناء، الشيوخ والشباب، الأغنياء والفقراء، المتعلمين والأميين تقوم على امتلاك المرأة جسدياً، كانت تسلّم كشيء مؤكد أن جميع الرجال ليس لهم سوى هذه الفكرة في رؤوسهم، وإن زعموا أن لهم اهتمامات أخرى. وإذا كانت تعلم أنها امرأة جذابة، بوسعها

أن تُشبع أو لا تشبع، بحسب مشيئتها، شهوات الرجال، فقد كانت تعتبر نفسها في الوقت نفسه، شخصية مهمة وضرورية. كذلك كان تصورهما للوجود. وكان تجربتها الشخصية، الماضية والحاضرة، كانت مصداقاً لذلك التصور.

فمنذ عشر سنوات، وحيثما كانت، رأت الرجال تملؤهم شهوة امتلاكها. وربما مر في طريقها رجال لم يشعروا بهذه الشهوة، لكنها لم تنتبه لوجودهم. وهكذا كان العالم كله يبدو لها كمجموعة من الذكور مشغوفين بجسدها، لا يتعبون من اشتهاه، ويذلون وسعهم لامتلاكه، بكل وسيلة، أياً كانت، بالإغراء والعنف والحيلة، أو بالمال. ثمناً.

كانت ماسلوفا متعلّقة بهذا التصور تعلقاً شديداً ولاسيما أنها كانت تشعر جيداً أنها إذا فقدته فقدت أمام نفسها الأهمية التي تعزوها إلى نفسها. ومن ثم فقد كانت شديدة التعلق بالذين يتصوّرون الحياة بالطريقة نفسها. ومن هنا جاء حرصها على أن تطرد من قلبها ذكريات شبابها الأول التي لا تنسجم مع هذا التصور للحياة. ولاشك أنها لم تُفلح في طرد هذه الذكريات طرداً كاملاً، لكنها بذلت أقصى جهدها لتسدّ عليها المنافذ، في زاوية قلبها التي كبتها فيها. وهكذا يسد النحل مدخل أعشاش بعض الحشرات التي قد تأتي لتدمير خليتها. ولذلك أبت أن ترى في نيكليودوف الذي لقيته، ذلك الرجل الذي أحبته فيما مضى، حباً طاهراً وعفيفاً. لم تشأ أن ترى فيه سوى «زبون» غني، سوى رجل من حقها ومن واجبها أن تستغلّه، وعليها أن تقيم معه علاقات من النوع الذي تقيمه مع الآخرين.

حدّث نيكليودوف نفسه، وهو يخرج من قاعة المقابلة مع جمهور الزوار: «لا، لم أستطع أن أقول لها الشيء الأساسي، لكنني سأقول لها كل شيء، في المرة القادمة.

في القاعة الكبرى، كان الحراس يحصون المارة، مرة أخرى، حتى لا يخرج سجين ولا يبقى زائر في السجن. ومرة أخرى، تخاشن أحد الحراس على نيكليودوف فلطمه على كتفه. لكنه لم ينتبه لذلك...

× × ×

كان نيكليودوف قد انتوى تغيير نمط حياته. كان قد عزم على أن يؤجر مسكنه الواسع، وأن يصرف خدمه، وأن يذهب ليعيش في غرفة مؤثثة كأحد الطلاب. لكن أغرافينا بيتروفنا برهنت له أن من الجنون تغيير نمط حياته، قبل الشتاء. فلن يعمد أحد في الصيف، إلى استئجار المنزل، ولا إلى شراء الأثاث الذي يجب إيداعه في مكان ما حتى حلول فصل الشتاء. وهكذا فإن جهود نيكليودوف حول هذه النقطة وقراراته الجميلة ذهبت سدى.

ظل كل شيء، في البيت، إذن يسير سيرته الأولى. وأقبل الخدم على الأثاث والفراء والملابس وفرش الأسرة يفكونها ويحصونها وينفضون الغبار عنها، وهو عمل اشترك فيه البواب ومساعدته والطاهية وكورني. رآهم نيكليودوف يخرجون من الخزن ثم يعلّقون على الحبال كميات من الألبسة، ومن بناطيل البزات الرسمية، ومن معاطف الفراء، كميات لن يستخدمها أحد بعد الآن. رآهم يحلون السجاد، وينقلون الأثاث من غرفة إلى أخرى. اضطر أن يحضر ما لا يحصى من التنظيفات وأن يتحمل رائحة النفطالين التي انتشرت في جميع الغرف. ودهش إذ

اكتشف هذه الكمية الهائلة من الأشياء التي لا نفع فيها والتي ما يزال يحتفظ بها. وحدث نفسه: «علة وجود ذلك كله، والغرض الوحيد منه هو إتاحة الفرصة لأغرافينا بيتروفا والبواب ومساعدته والطاهية لكي يقتلوا وقتهم!».»

واختتم حديثه لنفسه: «الحقيقة أنني لا أستطيع التفكير في تغيير نمط حياتي ما لم يتحدد مصير ماسلوف. كل شيء سيتوقف على مصيرها حسبما تُعاد إليها حرّيتها أو تُنقى إلى سييريا. وفي هذه الحالة سأذهب معها.

توجّه نيكليودوف، في اليوم المحدد، إلى منزل المحامي فانارين. كانت هذه الشخصية تسكن منزلاً فسيحاً وفخماً، تزيّنه نباتات نادرة، وعلى نوافذه ستائر بديعة، وفيه أثاث باهظ الثمن، ينم على ذوق فاسد، ولا يرى مثله إلا في بيوت الذين أثروا بسرعة مفرطة، بدون جهد، وبوسائل حقيرة. وجد نيكليودوف في قاعة الانتظار نحو عشرة مراجعين ينتظرون دورهم، كأنهم عند طبيب الأسنان، وهم جالسون بكآبة حول طاولة، مكرهين على مطالعة بعض الصحف القديمة المصوّرة، طلباً لشيء من التسلية. لكن أمين سر المحامي، الذي كان يجلس في صدر الغرفة، أمام مكتب مهيب، عرف نيكليودوف على الفور، وسار نحوه، وقال له أنه سيخبر رئيسه بوصول الأمير.

في اللحظة نفسها، فُتح باب مكتب فانارين، وخرج منه المحامي، وهو يواصل نقاشاً حاداً، كأشد ما تكون الحدة، مع شاب ربعة، أحمر الوجه، يرتدي بذلة جميلة وجديدة وقد عبرت قسمات وجهيهما

ذلك التعبير الخاص الذي نراه على وجوه الناس عندما ينتهون من عقد صفقة مربحة. صفقة غير نظيفة تماماً، لكنها مربحة تماماً.

كان فانارين يقول:

— هذه غلطتك، يا سيدي العزيز.

— أنا في شوق إلى السماء، لكن خطاياي تأبى أن تُفْلَتني!

— حلوة، حلوة، هذا معروف!

وأخذا يضحكان ضحكاً زائفاً الرنين.

هتف فانارين وهو يلمح نيكليودوف:

— آه! يا أمير، تفضل بالدخول.

وأدخله، على الفور، مكتبه الذي كان، على عكس قاعة الانتظار، بسيطاً في زينته.

تابع المحامي كلامه وهو يجلس في مواجهة نيكليودوف، ويسعى جهده ليخفي الابتسامة التي ابتعثها فيه فكرة الصفقة المربحة التي عقدها قبل حين:

— لا تُزعج نفسك، أرجوك، دَخْنْ على هواك.

أجاب نيكليودوف:

— شكرًا! جئتُ من أجل دعوى ماسلوفًا...

— نعم، نعم، بالطبع! آه! لكن ما أنذل هؤلاء الأثرياء! أرايت هذا الرجل الشديد الذي خرج قبل قليل؟ تصور أنه يملك اثني عشر مليوناً، ولو استطاع أن يستخلص منك ورقة بخمسة وعشرين روبلاً لانتزعها منك بأسنانه بدلاً من أن يتركها لك.

ألقى المحامي هذا الكلام بلهجة أليفة وممتعة ليشير إلى أنه هو نيكليودوف من رأي واحد. بينما لا جامع يجمعه بالزائر، السابق، ولا بهؤلاء الذين يقاسون البرد انتظاراً له في القاعة.

وأردف فانارين ليعتذر عن استطراده:

— عفواً، لكن هذا الحيوان قد ضايقني حقاً! كنت بحاجة إلى قليل من البوح. ولننتقل الآن إلى قضيتنا. لقد درست الإضبارة بعناية. كان ذلك المحامي الخامل، اللعين دون القضية! فأضاع جميع أسباب النقض.

— إذن ماذا قررت؟

— سأعود إليك بعد دقيقة.

وأعلن لأمين سره الذي دخل عليه وسلّمه بطاقة:

— أخبره أن الأمر كما قلت له! وإذا كان يملك الوسائل فهذا حسن. وإلا فلن أحرّك ساكنًا!

– لكنه يزعم أنه لا يستطيع أن يرضى بشروطك، يا أستاذ. فرد
فانارين:

– إذن، لن أحرك ساكناً!

وغدا وجهه، في لحظة من الزمن، متجهماً وعدوانياً بعد أن كان
فرحاً ولطيفاً.

واستأنف وهو يلتفت إلى نيكليودوف وعلى وجهه ابتسامة
ملاطفة:

– يُقال إن المحامين يربحون المال دون أن يفعلوا شيئاً. تصور
أنني توصلت على تخليص دائن لئيم من دعوى كان سيخسرهما على
الأرجح. وإذا بكل أمثاله يتجهون إلي! ليتك تعلم مدى العذاب الذي
يسببه لي ذلك. ومنع ذلك. فلا بد لي من كسب ما يُقيم الأود! لكن
لنعد إلى قضيتك أو بالأحرى إلى القضية التي تهملك. لقد عولجت
كما قلت لك، أسوأ معالجة. فلم أجد أسباباً موجبة للنقض. لكني
سأحاول العثور على مثل هذه الأسباب. دونك مسودة النقض التي
أعدتها لك.

وتناول عن الطاولة ورقة وأخذ يقرأ عالياً، ماراً بسرعة على
العبارات القانونية المألوفة، مشدداً، بالعكس على مقاطع أخرى:

«الطعن أمام محكمة التمييز الجنائية لمجلس الشيوخ، الخ. على
حكم محكمة الجنايات، الخ، القاضي بالحكم على المرأة كاترين
ماسلوفاً بعقوبة، الخ، الأشغال الشاقة بجريمة القتل المرتكبة بحق
الشخص، الخ. بمقتضى المادة ١٤٥٤ من قانون الجزاء، الخ».

هنا توقف المحامي ورفع عينيه إلى نيكليودوف ولاشك أنه كان يطرب لسماع هذا المستند الجميل الذي أبدعه، بالرغم من ألفته لهذه الأشياء.

واستأنف القراءة: «ويبدو لنا أن هذا الحكم قد سبقته مخالقات قانونية لأصول المحاكمة، وأخطاء فادحة لا يجوز التغاضي عنها. أولاً: إن تلاوة محضر تشريع جثة التاجر سميكلوف قوطعت من قبل الرئيس قبل النهاية.

فهتف نيكليودوف مدهوشاً:

— لكن النيابة العامة هي التي طلبت هذه التلاوة!

— أوه، لا أهمية لذلك! يستطيع الدفاع أيضاً أن يستند إلى هذه الوثيقة.

— هذه الوثيقة لا يمكن أن يستخدمها أحد.

— مهما تكن فهي سبب موجب للتمييز! ولنتابع: ثانياً قوطع محامي الدفاع عن المرأة ماسلوفاً من قبل رئيس المحكمة، عندما أراد محامي الدفاع أن يوضح سمات شخصية المتهم في مرافعته، فأخذ يعرض الأسباب الصميمة لسقوطها وهو ما أعلن الرئيس عنه أنه خارج عن القضية. مع أن التحديد البسيكولوجي للطبع ذو أهمية عظيمة في القضايا الجنائية، لتقدير درجة الإجرام. كما أثبت ذلك مجلس الشيوخ حديثاً. هذا ثانياً.

قال المحامي ذلك وهو يرفع عينيه مرة أخرى، على نيكليودوف.

فلاحظ نيكليودوف:

— ذلك المحامي أساء التعبير فلم نفهم شيئاً مما قال.

— أقدّر ذلك! فهو غبي صغير ليس بوسعه أن يقول غير الحماقات.
لكننا يمكن أن نجدها هنا سبباً للتمييز. والآن استمع إلى التهمة:

«ثالثاً: إن الرئيس، في تلخيصه، لم يوضح للمحلفين، خلافاً للمادة ٨٠١، الفقرة الأولى. من أصول المحاكمات الجنائية، أن بوسعهم أن يعلنوا أن المرأة ماسلوفاً لم تنوِ قتل التاجر سميلكون وهي تسكب له السم. ومن هنا أمكن أن يجيء حكم المحلفين بينما لو نبههم الرئيس إلى إمكان مثل هذا التقييد، لعولج الفعل الذي ارتكبته المرأة ماسلوفاً، على الأرجح، وكأنه قتل عن طريق السهو لا عن طريق العمد». هذا مهم جداً.

— لكن كان باستطاعتنا أن نفهم، نحن، ذلك، دون أن يوضح لنا الرئيس ذلك! نحن وحدنا مسؤولون عن الخطأ المرتكب!

«وأخيراً، ورابعاً. لقد حُرّر جواب المحلفين بشكل يتضمن تناقضاً. ذلك أن المحلفين سلّموا بأن المرأة ماسلوفاً غير مذنبه باغتصاب أموال التاجر، بينما اعتبروها، من جهة أخرى، مذنبه بدس السم له. ومن هنا ينتج أن المتهمة، في تصوّر المحلفين، قد قتلت التاجر سميلكوف، دون نية القتل، لأن الرغبة في السرقة هي التي يمكنها وحدها أن تفسّر مثل هذه النية عندها. وعليه فإن جواب المحلفين هذا يقع تحت طائلة

المادتين ٨٠٨ و ٨١٦ من أصول المحاكمات. وكان يتعين على الرئيس أن ينبه المحلفين إلى الخطأ المرتكب وأن يردهم إلى قاعة المداولات ليحصل منهم على جواب جديد».

- لكن لم يفعل الرئيس ذلك؟

فأجاب فانارين ممزاحاً:

- آه! هذا من شأنه، مثلاً!

- أظن أن مجلس الشيوخ سيتدارك الخطأ؟

- هذا يتوقف على الشيوخ الذين سيقع بين أيديهم الإلتماس. لكنه استمع إلى الطلبات الختامية.

وقرأ المحامي لينكليدوف أيضاً مقطعاً طويلاً يطلب فيه، بالاستناد إلى مواد كثيرة في القانون وإلى سوابق شتى، نقض الحكم وإرسال القضية إلى محكمة جديدة.

وقال المحامي منهيّاً كلامه:

- هذا هو الإلتماس! لقد فعلتُ كل ما يمكن فعله. لكن يجب أن أقول لك فكرتي بصراحة: فرصنا في النجاح قليلة، فكل شيء يتوقف على أعضاء مجلس الشيوخ الذين سيعقدون جلستهم في محكمة التمييز. وإذا كنت تملك الوسيلة فاسع إلى التعجيل بالقضية من هذه الجهة.

- نعم، إن لي بعض المعارف في مجلس الشيوخ.

- أسرع إذن، لأن هؤلاء القضاة المحترمين لن يلبثوا أن يذهبوا لعلاج بواسيرهم، وحينئذ سيتعين عليك الانتظار ثلاثة أشهر... وفي حالة الفشل فإن أماننا فرصة طلب العفو. وهنا يتوقف حقاً كل شيء على العمل وراء الستار! ولا حاجة بي إلى القول: إنني مستعد لخدمتك، في هذه الحالة أيضاً، سواء أكان ذلك بالمناورة وراء الستار أم في تحرير التماس العفو.

- أشكرك غاية الشكر... وبالنسبة إلى الأجور...

- سيسلمك أمين سري صورة عن الطلب مع جميع التعليمات عن الخطوات الواجب اتباعها.

- هناك أيضاً شيء أحب أن أسألك عنه. أعطاني النائب العام إذناً مكتوباً لرؤية الحكومة في سجنها. لكنني أرغب في الحديث معها خارج أيام الزيارة، وفي مكان آخر غير قاعة المقابلات العامة. فإلى من أتوجه للحصول على الترخيص؟

- إلى الحاكم. لكنه غائب في الوقت الحاضر، ونائب الحاكم هو الذي يقوم مقامه. وهو أبله لا نظير له في البلاهة، وأنا أشك في إمكان حصولك على شيء منه!

وأعلن نيكليودوف، وهو ينهض ليستأذن:

- ماسلينيكوف، أليس كذلك؟ إني أعرفه!

في اللحظة نفسها، دخلت الغرفة كالعاصفة، امرأة قصيرة بالغة

البشاعة صفراء الوجه، معروقة العظام، فطساء الأنف. كانت هذه زوجة فانارين. لم تياس بسبب قبحها، ولم تتوان عن ارتداء أفخم الملابس. كانت مغطاة بالحرير والمخمل والدنتيلا، وكان شعرها ملفوفاً بطريقة مسرفة التصنع. اندفعت إلى المكتب، يتبعها رجل نحيل، لونه بلون التراب، يرتدي معطفاً رسمياً ثنياه من الحرير. كان هذا كاتباً. وكان نيكليودوف يعرفه بالوجه.

صاحت السيدة بزوجها:

— أنا تول! ها هو ذا سيميون ايفاتوفتش! وعدي أن يتلو علينا أشعاره، ويجب حتماً أن تقرأ لنا بحثك عن غارشين^(١٤). سننتظرك في قاعة الاستقبال الصغرى.

أراد نيكليودوف أن يستأذن، لكن السيدة التفتت إليه وقالت بغنج:

— الأمير نيكليودوف، أليس كذلك؟ أعرفك من سمعتك. أسعدنا بحضور هذه الصبيحة الأدبية! سيكون ذلك ممتعاً! فأنا تول يتقن التلاوة.

قال له أنا تول وهو يبتسم مشيراً إلى زوجته بحركة تعني أنه لا يجوز له أن يرفض شيئاً لشخص في مثل هذه الفتنة.

— أنت ترى مدى تنوع مشاغلي!

لكن نيكليودوف شكر السيدة فانارين، بأدب جم، وإن كان هذا

١٤. غارشين ١٨٥٥ - ١٨٨٨ كاتب عليل انتحر شاباً، في نوبة جنون.

الأدب نابعاً عن وجه فيه شيء من البرودة، على الدعوة التي شرفته بها، وقال إنه لا يستطيع، مع عظيم أسفه، أن يقبل الدعوة.

وما إن خرج حتى علّقت السيدة قائلة:

— يا له من منافق!

في غرفة الانتظار، سلّم أمين السر إلى نيكليودوف صورة عن الطعن بالنقض. وعندما سأله الأمير عن الأجور، أجاب بأن أناتول بيتروفتش حدّدها بألف روبل. وسارع فأضاف، على سبيل التوضيح، أن أناتول بيتروفتش لا يقبل أبداً الاضطلاع بقضايا من هذا النوع وأنه لم يقبل الاضطلاع بها إلا إكراماً له.

سأله نيكليودوف:

— ومن الذي ينبغي له أن يوقع هذا الطلب؟

— المتهمة، إن كانت قادرة على ذلك، وإلا وقع عنها أناتول بيتروفتش.

هتف نيكليودوف، وقد أسعده أن يجد عذراً لزيارتها، منذ صباح اليوم التالي، وذلك ليبرر سلوكه مرة أخرى أمام كاتيوشا:

لا، سأخذ الطلب إلى السجينة، وسأطلب إليها أن توقّع عليه.

× × ×

دوّت صفارات الحراس، في أروقة السجن، في الساعة المعتادة انفتحت أبواب القاعات الحديدية، وتعالى ضجيج الخطأ، وامتلات الأروقة بنتن الأحواض المحمولة إلى المجاري. وارتدى السجناء والسيجينات ملابسهم، واستعرضوا، ثم جلسوا على أسرّتهم ليشربوا شايبهم.

في جميع الغرف، نشطت المحادثات نشاطاً خاصاً، هذا اليوم: كانت تدور على حدث اليوم، على الجلد الذي سينال اثنين من السجناء.

كان أحد السجينين شاباً ذكياً ومتعلماً، يُدعى فاسيلييف، محكوماً بتهمة قتل عشيقته في فورة غيرته. كان جميع رفاقه في غرفته يحبّونه لمرحه وسخائه، ولطريقته في معارضة السجّانين، لأنه كان يعرف النظم معرفة عميقة ولا يقبل أن يتجاوزها أحد. ولذلك لم يكن الحراس والمشفرون يطيقونه.

وقبل ثلاثة أسابيع، ضرب حارس سجيناً كبّ الحساء على بزته

الجديدة، أثناء مروره، فتدخل فاسيلييف، من أجل رفيقه، قائلاً إن النظام يمنع ضرب السجناء. فردّ عليه الحارس: «أنا، سأعلمك النظام». وأخذ يشتم فاسيلييف. فجأوبه فاسيلييف باللهجة نفسها. وأراد الحارس أن يضربه، لكن فاسيلييف أمسك بيديه الاثنتين قبل أن يدفعه إلى خارج القاعة. اشتكى الحارس، فحكم المدير على فاسيلييف بالحبس الإنفرادي.

كانت الحبوس الإنفرادية عبارة عن صف من الزنانات السوداء، المغلقة من الخارج بقفل مزدوج. لم يكن في هذه الزنانات المظلمة والباردة، سرير ولا طاولة ولا كرسي، بحيث يتحتم على السجن أن يجلس وينام على الأرض القذرة. ومن حوله، بل وعليه، كانت تراكض الفئران التي بلغت كثرتها وجرأتها حدّاً يتعذّر معه على السجن أن يحتفظ بقطعة الخبز دون أن تخطفها منه.

أعلن فاسيلييف أنه لن يذهب إلى الحبس الإنفرادي لأنه غير مذب. فاقْتيد بالقوة. وتخبّط بين أيدي الحراس وعاوناه اثنان من رفاقه على الإفلات منهم. حينذاك طلب الحراس التعزيزات واستدعوا، على الخصوص، شخصاً مشهوراً بقوته، يُدعى بيتروف. وقُبض على العُصاة الثلاثة ووضعوا في الحبس الإنفرادي... وفي التقرير الذي قُدم على الفور للحاكم، عُرضت القضية وكأنها بداية تمرد.. ورداً على ذلك، صدر أمر من قصر الحاكم، يحكم على المذنبين الأساسيين، فاسيلييف ومشرّد اسمه «نيبونياك» بثلاثين جلدة، على أن يجري الجلد، في هذا الصباح، وفي قاعة مقابلة النساء.

كان السجن كله على علم بالنبأ، منذ عشية البارحة. ولم يكن للقاءات من حديث، سوى هذا الحديث. كانت كورابليوفا والحسناء وفيدوسيا وماسلوف جالسات، في ركنهن المفضل، يثرثرن، وقد احمرت وجوههن جميعاً وانتعشن بما شربنه من الخمر التي لم تكف عن التدفق عليهن، بفضل نقود ماسلوف...

كانت كورابليوفا تحتج وهي تُعضض بأسنانها الصلبة قطعة من السكر:

- وكأنه قد تَمَرَّد! كل ما فعله أنه دافع عن رفيقه! ليس لهم الحق، اليوم، أن يضربوا السجناء، من أجل ذلك!

أضافت فيدوسيا وهي تتابع مراقبة غلاية الشاي:

- يُقال إنه شاب وباسل جداً.

قالت حارسة السكة الحديدية لماسلوف:

- ينبغي لك أن تكلميه بشأن هذا الفتى المسكين، يا ميخايلوفنا!

قصدت الحارسة أن ماسلوف يجب أن تكلم نيكليودوف.

فأكدت ماسلوف وعلى فمها ابتسامة تنم على الغرور:

- لاشك أنني سأكلمه. إنه مستعد لأن يفعل كل شيء من أجلي.

تنهدت فيدوسيا:

– لكن مَنْ يعلم متى يأتي. يبدو أنهم ذهبوا ليأتوا بفاسيلييف. هذا فظيع!

– أنا رأيت، ذات يوم، شخصاً يُضرب في القرية. أرسلوني إلى منزل الوكيل، وعند عودتي، رأيت...

وبدأت حارسة السكة قصة طويلة، انقطعت فجأة بضوضاء الخطوات والأصوات، في رواق الطابق العلوي. سككت النساء وأرهفن السمع.

هتفت الحسناء ساخطة:

– جاء به هؤلاء الأبالسة! سيقتلونه! ثم إن الحراس ساخطون عليه لأنه يمنعهم من أن يتصرفوا كما يشاؤون.

عاد كل شيء إلى الصمت. في الطابق العلوي. واستأنفت حارسة السكة الحديدية قصتها، فروت كيف أن فلاحاً جُلِدَ حتى الموت أمامها، في سقيفة، وكيف أن أحشاءها ارتعشت في صدرها، لهذا المنظر.

وروت الحسناء كيف أنهم ضربوا شيخلوف دون أن تبدر منه شكوى. ثم رفعت فدوسيا كؤوس الشاي؛ واستأنفت كورابليوفا وحارسة السكة خياطتهما، وتمددت ماسلوفاً على سريرها، رافعة ركبتيها. كانت تهم بالنوم، فراراً من السامة عندما دخلت المشرفة لتطلب إليها أن تذهب إلى المكتب. لأن هناك زيارة لها.

صاحت العجوز التقية بماسلوف التي كانت ترتب شعرها أمام مرآة
تكاد تكون باهتة:

- لا تنسي أن تكلميه عنا! قولي له: إننا لم نشعل النار، إنما أشعلها
صاحب الحانة نفسه، هذا اللص. رآه عامل! قولي له أن يستدعي
دميتري! سيشرح له كل شيء، بوضوح كصفاء ماء النبع. نحن نُسجّن،
ولم نفعل شيئاً، بينما هو، اللص، يعيش كالقيصر في حانته، مع امرأة
أخرى! وزوجي الذي لا يجد مَنْ يخلّصه من قمله!

فوعدت ماسلوف:

- سأنبئه بذلك، لا محالة، سأنبئه بذلك! هيا لنشرب أيضاً جرعة
تزيد من ثقتنا بأنفسنا.

صبت كورابليوفا كأساً من الخمر فشربتها ماسلوف دفعة واحدة،
ومسحت شفثيها، ولحقت بالمشرفة التي كانت تنتظرها في الرواق،
وعلى فمها نفس الإبتسامة التي طلب معها أن تشرب كأساً من الخمر
لتزيد من ثقتها بنفسها.

× × ×

كان نيكليودوف في السجن منذ زمن طويل. لقد وصل في ساعة مبكرة وأبرز إذن النائب العام للخفير، ثم لأحد الحراس.

فأعلن الحارس:

- مستحيل في هذا الوقت، فالمدير مشغول.

سأله نيكليودوف:

- في المكتب؟

فرد الحارس في شيء من الحرج:

- لا، هنا، في قاعة المقابلات.

- هل هذا اليوم يوم زيارة للسجناء؟

- أوه، لا. هو مشغول بقضية أخرى.

- وكيف أفعل لأرى المدير؟

- ما عليك إلا الانتظار هنا. ومتى مرّ، بعد قليل، رأيته.

بعد دقائق رأى نيكليودوف ضابط صف شاباً قد علّق شرائط
برّاقة، أنيقاً، مرفوع الشاربين يدخل القاعة التي كان فيها، فلما شاهده
التفت إلى الحارس بقسوة، وقال له:

— لم أدخلت الناس هنا. كان يجب أن ترسله إلى المكتب.

فأوضح نيكليودوف، وقد أدهشه أن يكتشف على وجه ضابط
الصف نفس أمارات الارتباك التي استرعت انتباهه لدى الحارس:

— قيل لي إن المدير سيمرّ من هنا، وأنا بحاجة إلى مواجهته.

في هذه اللحظة، فُتح الباب الذي دخل منه ضابط الصف، ودخل
منه مرة أخرى، حارس، عملاق محترم، يتصبّب وجهه عرقاً. كان هذا
هو بيتروف الشهير.

قال مخاطباً ضابط الصف:

— سوف يتذكّر ها، هذه!

لكن ضابط الصف نبّهه، بإمّاءة من رأسه، إلى وجود شخص
غريب، فخرج بيتروف من باب آخر، دون أن يضيف كلمة.

سأل نيكليودوف نفسه: «مَنْ هذا الذي سيتذكّر ذلك الشيء؟ ولم
بدا عليهم جميعاً ضيقُ النفس؟».

قال له ضابط الصف:

— ليس هذا مكان الانتظار. تفضّل إلى المكتب.

كان نيكليودوف يهَمّ بالخروج، عندما رأى مدير السجن يدخل من الباب الذي يدخل منه الآخرون. كان هذا يبدو أصغر سناً من مرؤوسيه. وكان وجهه متشنجاً من الإنفعال. اقترب منه نيكليودوف وأبرز له إذن النائب العام.

صاح المدير على الفور، بأحد الحراس:

— فيدوتوف! اذهب على الفور إلى القاعة الخامسة، قسم النساء، وأحضر ماسلوفاً إلى غرفة مقابلة المحامين!

ثم التفت إلى نيكليودوف:

— أسمح لي باصطحابك؟

صعدا سلماً حلزونياً، ودخلا غرفة صغيرة فيها طاولة وبعض الكراسي. جلس المدير، وتنهد، في حين كان يُخرج سيجارة ضخمة من علبته:

— ما أقصى هذه المهنة!

سأله نيكليودوف:

— تبدو متعباً؟

— أنا متعب من خدمتي. هي، في الحقيقة، التزامات شديدة القسوة! نود لو نخفف من شقاء هؤلاء المساكين، لكن كل ما نفعله يُفضي إلى ما هو أسوأ. ليتني، على الأقل، أجد وسيلة للانتقال من هنا! ما أقسى هذه المهنة!

كان نيكليودوف يجهل فيم تنحصر صعوبات وظيفة المدير، لكن خيّل إليه أنه أحسّ فيه، وإن لم يعرفه، بألم مبرّح، أحسّ بحالته النفسية الشديدة الحزن والقنوط.

قال له نيكليودوف:

- لا أجد مشقة في الاعتقاد بأن هذه المهنة قاسية. لكن إذا كانت تؤدي بك إلى هذه الحالة، فلماذا لا تتخلّى عنها؟

- نقص الثروة، الأسرة...

تردّد المدير لحظة، ثم أردف:

- وليس هذا كل شيء. إنني أبذل كل ما في وسعي، وفي حدود قواي، لتخفيف من شقاء هؤلاء المساكين، وأنا أتوصل إلى ذلك، في بعض النقاط. ولو كان غيري مكاني هنا، لعاملهم معاملة أخرى. أتظن أن من السهل إدارة ألفي شخص، مخلوقات من هذا النوع؟ يجب أن نعرف كيف نحتال للتعامل معهم. إنهم بشر، ولا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الرثاء لهم. لكن إذا تراخينا معهم، ضاع كل شيء.

وهنا أخذ المدير يروي حادثة غريبة، حديثة العهد، وهي شجار وقع بين سجينين انتهى بموت أحدهما. قطع قصته عندما دخلت ماسلوفاً بصحبة أحد الحراس. رآها نيكليودوف عند عتبة الباب قبل أن تحسّ بوجود المدير. كانت تمشي بعجلة وراء الحارس، ووجهها أحمر، ملتهب، دون أن تكف عن الابتسام وعن هزّ الرأس. وحين شاهدت المدير، توقفت لحظة أمامه، وقد بدا عليها الخوف. لكنها ما لبثت أن التفتت بفرح نحو نيكليودوف.

قالت له مبتهجة:

- صباح الخير!

وشدّت على يده بقوة، بدلاً من أن تلامس يده ملامسة، كما فعلت في المرة الماضية.

أعلن لها نيكليودوف، وقد دهش أن يراها منتعشة إلى هذا الحد:

- جئتُك بطلب النقض لتوقعي عليه. المحامي هو الذي كتبه. ما عليك إلا أن توقعيه، ثم نرسله إلى بطرسبرج.

- طيّب! سأوقعه! لا شيء أسهل من هذا.

ظلت تبتسم، ومالت إحدى عينيها إلى الحَوَل أكثر من المعتاد.

أخرج نيكليودوف من جيبه الورقة واقترب من الطاولة. وسأل المدير:

- أيمكن توقعيها.

فأمر المدير ماسلوفاً:

- هيا، اجلسي هنا. هذه هي الريشة وهذا هو الحبر، أتعرفين الكتابة.

أجابت وهي تبتسم لنيكليودوف:

- عرفتُها فيما مضى!

ثم أخذت الريشة بيدها الصغيرة، بقوة، والتفتت إلى نيكليودوف

وعلى وجهها ابتسامة جديدة، وسألته عما ينبغي أن تفعله، فأوضح لها أين يجب أن توقع، وبأي الأسماء.

سألت عندما انتهت من التوقيع، وهي تنقل نظرها بين نيكليودوف والمدير:

- وهذا كل شيء؟

- أجاب نيكليودوف وهو يرفع الريشة من يدها:

- بل إن عندي شيئاً آخر سأقوله لك!

- طيّب! قل!

وفجأة غدا وجهها رصيناً، كأن حلماً من أحلام اليقظة مرّ بذهنها، أو كأنما أحسّت بالنعاس يستولي عليها. نهض المدير وخرج من الغرفة. وبقي نيكليودوف وماسلوفاً منفردين.

x x x

وأخيراً، أزفت اللحظة الحاسمة، بالنسبة إلى نيكليودوف. كان مايزال يلوم نفسه لأنه لم يجروء على مصارحة ماسلوف بالشيء الأساسي، منذ لقائهما الأول. لكنه سيقول كل شيء، في هذه المرة، مهما يكن من أمر!

وعزم على ذلك، مرة أخرى، عندما جلس في مواجهة السجينة، في الجانب الآخر من الطاولة. كانت الغرفة التي يجلسان فيها مضيئة. واستطاع نيكليودوف أن يلاحظ بأناة وجه السجينة. رأى الغضون حول عينيها وفمها، رأى تورّم الجفون، رأى المظهر العام للبلاء المبكر وللتقهقر. فأحسّ بالحزن يتغلغل فيه، واشتدت شففته عليها.

جلس نيكليودوف أمام الطاولة بحيث لا يراه الحارس الذي جاء بماسلوف والذي جلس على حافة النافذة، في الطرف الآخر من الغرفة، وانحنى على البائسة وقال لها:

- إذا لم ينجح الطعن بالنقض فسوف نلتمس العفو من الامبراطور. سنفعل كل ما يمكن فعله.

- من سوء الحظ أنك لم تلقني قبل المحاكمة! إذن لكنت دبرت محامياً مقتدراً: في حين أن المحامي الذي دافع عني، ذلك الغبي، هو سبب كل شيء.

وأضافت وهي تضحك:

- الجميع يهنتونني بصددك. آه! لو علموا، يوم الحكم علي، أنك تعرفني، لسارت الأمور على نحو مختلف. بينما بدون ذلك... قالوا جميعاً في نفوسهم «آه! ما هذه إلا سارقة!»

فكر نيكليودوف في نفسه:

- ما أغربها، اليوم!

أوشك أن يتصدى للموضوع الكبير، لولا أنها استأنفت الكلام، مرة أخرى:

- إصغ إلى ما سأقوله لك... في قاعتنا امرأة عجوز، لا يراها أحد إلا تعجب منها. عجوز قصيرة، غير عادية، لم يُرَ مثلها! حُكم عليها هي وابنها، أعلم لماذا. الجميع يعلمون أنهما بريئان هي وابنها، لكنهما متهمان بإضرام النار! وعندما سمعتُ بأنني أعرفك، قالت لي: «اطلبي إليه، أرجوك، أن يكلم ابني، فسيوضح له كل شيء». لو كنت تعلم أية عجوز غريبة هي! من النظرة الأولى يتضح أنها غير مذنبه! ستهتم بها، أليس كذلك؟

قالت ذلك، وهي تنظر إليه، في أعماق عينيه، وتبتسم.

وعدها نيكليودوف، وقد دهش إذ وجدها منفتحة إلى هذا الحد:

— طيب! سأهتم بذلك، وسأستخير عن أمرها! لكنني أود أن أحادثك في قضية شخصية. أتذكرين ما قلته لك، في ذلك اليوم؟

فهمت:

— قلت لي أشياء كثيرة، في ذلك اليوم! ماذا قلت لي؟

لم تكفّ عن الابتسام له، وهي مائلة الرأس إلى هذه الجهة تارة، وإلى تلك تارة أخرى.

تمتم نيكليودوف:

— قلت لك إنني جئت أرجوك أن تصفحي عني.

— أن أصفح.. أن أصفح... لا فائدة من ذلك! الأجدرك أن... وتابع نيكليودوف.

— علي أن أقول لك أيضاً، أنني أريد إصلاح خطيئتي، إصلاحها بالأفعال لا بالأقوال.... قررت أن أتزوج بك!

عند هذه الكلمات، عبّر وجهه ماسلوفاً عن الرعب، وكفت عيناها عن الحول، وحدّقتا في عيني نيكليودوف، بنظرة غائمة لا ترى.

فقالت بلهجة مستاءة:

— ما كان ينقصنا سوى هذا!

— أشعر أنني يجب أن أفعل ذلك، أمام الله!

— ما يزال يتحدث عن الله، بعد كل ما جرى! الله! أي الله كان الأجدد بك أن تفكر في الله قديماً، في اليوم الذي...

توقفت عن الكلام وهي فاغرة فاها. وحينذاك اشتّم نيكليودوف، لأول مرة، رائحة الخمر القوية التي تفوح من فمها. فأدرك سبب انتعاشها. وقال لها:

— إهدئي!

فأجابت بنَفَس واحد، بينما كان دمها كله يصعد إلى وجهها:

— لا حاجة بي إلى الهدوء. أنت تظن أنني سكرانة؟ أعلم أنني سكرانة، لكنني أدركُ ما أقول! أنا بغّي، ومحكومة بالسجن، وأنت سيد نبيل، أمير، فلا شغل لك معي. إمضِ والحقُ بأميرتك!

أكّد نيكليودوف، بصوت خافت، وهو يرتعد:

— مهما قسوتِ في كلامك، فكلامك ليس شيئاً بجنب ما أحسّه أنا نفسي. ليس بوسعك أن تتصورى مدى شعوري بخطيئتي نحوكِ. فانفجرت وهي تضحك ضحكاً كريهاً:

— الشعور بخطيئتك! أين كان هذا الشعور عندما دسّست لي مائة الروبل!

- أعلمُ، أعلمُ، لكن، ما العمل، الآن؟ لقد أقسمتُ الآن ألا أترككِ. و ما قلته سأفعله.

- وأنا، أقول لك إنك لن تفعله!

قال نيكليودوف وهو يحاول أن يمسك بيدها:

- كاتيوشا!

فصرخت وقد جُنّت من الغضب، وسحبت يدها:

- لا تلمسني! أنا محكومة بسجن الأشغال الشاقة وأنت أمير، فلا شغل لك هنا.

وانفجرت:

- اذهب من هنا. أنا أكرهك! كل ما فيك يثير اشمئزازي. نظارتك، ووجهك القذر الممتلئ بالدهن! اذهب من هنا! اذهب من هنا!

ووثبت على قدميها بحركة سريعة. فدنا الحارس:

- ما هذه الفضيحة التي تُقدمين عليها؟ إنه لعمل مُخزٍ...

فتدخل نيكليودوف:

- دعها، أرجوك.

فأردف الحارس:

— سأعلّمك أنا، كيف تتمادين هكذا.

— أرجوك، انتظر دقيقة بعد!

ابتعد الحارس، وجلس في مكانه قرب النافذة. عادت ماسلوفاً إلى الجلوس، خفضت عينيها، وأخذت تعبث كالمحمومة بأصابعها المطوية، أصابع يديها الصغيرتين. وظل نيكليودوف واقفاً قربها لا يدري ماذا يفعل. سألها:

— ألا تصدقيني؟

— ما الذي لا أصدّقه؟ أنك تريد الزواج بي؟ كلا، كلا، لن يتم ذلك أبداً! أفضل أن أشق نفسي! فهمت!

— لن أكفّ مع ذلك، عن خدمتك!

فصرخت:

— هذا شأنك! لكن ليس لي بك أية حاجة. هذه هي الحقيقة! وأضاف:

— لم لم أمت في ذلك الزمان!

انفجرت باكية. أراد نيكليودوف أن يكلمها، فلم يستطع: كان مرأى هذه الدموع يمزّق قلبه. وفي ظرف لحظة، رفعت عينيها،

وألقت نظرة خاطفة عليه كالمدهوشة، وأخذت تمسح بمنديلها دموعها التي سالت على خديها.

دنا الحارس مرة أخرى، وأعلن أنه قد حان الوقت للعودة بها.

قال نيكليودوف:

— أنت مضطربة أشد اضطراب. سأعود غداً، إن أمكن فكري، في هذه الأثناء.

لم تجب، وخرجت مع الحارس، دون أن تنظر إليه. عندما دخلت الغرفة، سألتها كورابليوفا:

— ماذا! ستتخلصين من مازقك، يا صغيرتي! إنه قادر على إخراجك من هنا! الأغنياء، لا يعجزون عن شيء.

فأكدت حارسة السكة بصوتها الرخيم:

— هذا صحيح! الغني، ما عليه إلا أن يتمنى، حتى يحدث كل شيء كما يشاء. كان عندنا غني...

سألتها العجوز:

— هل حدثت عني؟

لكن ماسلوفا تمددت على سريرها، دون أن تجيب، وظلت مستلقية إلى المساء، وعيناها محدقتان أمامها. فما قاله لها نيكليودوف أيقظ

فيها رؤيا عالم تألمت فيه وخرجت منه. هذا العالم، كانت قد أخذت
تكرهه، وتظنُّ أنها نسيته. والآن تبدّد هذا النسيان، وغدت ذكرى
الماضي الواضحة لا تُطاق. عند المساء، اشترت مرة أخرى، نصف
زجاجة خمر، وشربتها مع رفيقاتها.

× × ×

«هذه هي عاقبة الأمور!». كذلك كان نيكليودوف يردد آلياً، بينه وبين نفسه، وهو يسير في أروقة السجن الطويلة. لقد أدرك الآن فقط مدى خطيئته. ولو لم يحاول التكفير عن ذنبه، وإصلاح ما بدر منه، لما أحس بفداحة ذلك الذنب، ولما أحسّت كاتيوشا أيضاً بجسامة الشر الذي ألحقه بها! لأول مرة ظهر ذلك كله للنور. كان نيكليودوف، حتى هذا الوقت، يتحنّن على نفسه. كان تكفيره عن ذنبه يبدو له لعباً، أما الآن فهو يشعر بذعر حقيقي. أصبح من المستحيل عليه، بعد الآن، هجران تلك المرأة. أما ما الذي سينتج عن علاقاته بها. فهو ما لم يُفلح في تصوّره.

أمام باب السجن، رأى حارساً، رجلاً مآكر السحنة، كرهه الوجه، من النموذج اليهودي البارز، يقترب منه ويدسّ سراً في يده، ورقة، ويهمس:

- هذه لسيادتك، من أحد الأشخاص... من أي شخص؟

قال الحارس بلهجة منافقة:

- لتفضل سيادتك بقراءتها وسترى! سجينة في القسم السياسي.
أنا الحارس هناك. جاءت ورجتني... هذا ممنوع، لكن بدافع
الإنسانية....

تناول نيكليودوف الورقة، ووضعها في جيبه، وقد انتابه شيء
من الدهشة حين رأى مشرفاً يقوم بمثل هذه المهمة، وما إن خرج من
السجن حتى سارع إلى قراءتها. لقد خُطت عليها، بقلم الرصاص،
وعلى عجل، الكلمات التالية:

«لما علمتُ أنك تأتي إلى السجن وأنت تهتم بأمر سجينة في القسم
الجنائي، تمنيت بحرارة أن أتحدث معك. اطلب الأذن برويتي. سوف
أُمنح هذا الإذن، وسوف أنبئك بكثير من الأشياء الخطيرة المتصلة
بمحميتك أو بجماعتنا الممتنة: فيرا بوغودو كوفسكايا^(١٥) تساءل
نيكليودوف وهو ما يزال مضطرباً من ذكرى حديثه مع كاتيوشا:
«بوغودو كفسكايا»! أين سمعتُ هذا الاسم؟ آه! نعم، تذكرت! ابنة
الكاهن، أثناء صيد الدب!».

كانت فيرا بوغودو كفسكايا معلمةً في قرية من مقاطعة
نوفغورورد، عندما جاء نيكليودوف، إلى هذه القرية، مع أصدقاء له،
لصيد الدب. وطلبت المعلمة من الشاب مبلغاً من المال لتمكن من
مغادرة مدرستها، والذهاب للدراسة في الجامعة، أعطاه نيكليودوف
المبلغ الذي طلبته، لكنه لم يسمع عنها شيئاً، منذ ذلك الزمن. وها هي

١٥. بوغودو كفسكايا: هذا الاسم المكون من «بوغ» «الله و» «دوك» الروح، يدل
على شخص مولود في بيئة دينية.

ذا الآن تظهر.مظهر سجينة سياسية، وتعدده بأنها ستكشف له عن أشياء هامة حول ماسلوفاً!

كم كان كل شيء بسيطاً وخفيفاً فيما مضى، وكم غداً ثقيلاً ومعقداً الآن! لقد سرى الهمّ حقاً عن نيكليودوف تذكّره بذلك اليوم الذي لقي فيه بوغودود كفسكايا. كان ذلك في عشية عيد المَرْفَع، في قرية نائية، على ستين فرسخاً من السكة الحديدية. كان الصيد موفقاً جداً. فقد قتل الصيادون دبين، وأكلوا بنهم، ثم أخذوا يستعدون للعودة، عندما جاء صاحب النزل الصغير يقول إن ابنة الكاهن تطلب مقابلة الأمير نيكليودوف.

سأل أحد الصيادين:

— أهى حلوة؟

أجاب نيكليودوف:

— هذا ما سنراه.

عادت إلى وجهه رصانته، ونهض عن المائدة، ومسح فمه، وخرج، وهو حائر فيما قد تريده منه ابنة كاهن. وفي الغرفة المجاورة وقفت فتاة نحيلة، بادية العظام، لها وجه طويل لا حُسْنَ فيه، لولا العينان اللتان كانتا على حظ من الجمال، تحت الحاجبين المقوسين؛ وكانت ترتدي معطفاً غليظاً من معاطف الفلاحات، لكنها كانت تضع على رأسها قبعة من البلد.

أعلنَ صاحبَ النزل، قبل أن يتركهما وحدهما في الغرفة:

— هذا هو الأمير، يا فيرا ايفرايموفنا!

سأل نيكليودوف:

— فيمَ أستطيع أن أنفعك؟

قالت الفتاة وهي مرتبكة أشدَّ ارتباك:

— أنا... أنا كما ترى، أنت ثري، وأنت تُنفق مال في اللهو والصيد! أنا مطلّعة على ذلك. أنا، أنا، لا أرغب إلا في شيء واحد: أن أغدو نافعة للآخرين. لكني لا أستطيع أن أفعل شيئاً من ذلك، لأنني لا أعلم شيئاً!

عكست عيناها الصراحة والطيبة، وعبرَ وجهها كله عن مزيج من العزم والحياء الشديدين حتى أن نيكليودوف تصوّر نفسه مكانها، كما يقول له ذلك على الأغلب، ففهمها وأشفق عليها.

وأردفت الفتاة قائلة:

— أنا معلمة هنا، وأود أن أذهب إلى الجامعة، ولا يُسمح لي بالذهاب إليها. أو على الأصح، لا بد لي من المال، لأجل ذلك. أتريد أن تعطيني مبلغاً من المال؟ سأعيده إليك متى انتهيت من دراستي. إني أقول في نفسي دائماً: «الأغنياء يصيدون الدببة، ويُسكرون الفلاحين، وهذا كله شر. فلم لا يفعلون الخير؟» لا أحتاج إلا إلى ثمانين روبلاً. إذا لم تشأ أن تعطيني فلا بأس!

- على العكس، إني ممتن لك على المناسبة التي هيأتها لي. وأنا ذاهب لآتيك بالمال، على الفور.

عاد نيكليودوف إلى قاعة الطعام. ومضى إلى محفظته، دون يرد على ملاحظات رفاقه، وأخرج أربع ورقات من ذوات العشرين روبلاً. وحملها إلى المعلمة.

وكرر قوله:

- أرجوك، لا تشكريني، أنا المدين لك بالشكر.

سرّ نيكليودوف الآن سروراً عظيماً وهو يستحضر هذه الذكرى. سرّ إذ تذكّر كيف أوشك أن يختصم هو وأحد رفاقه لأنه أراد أن يقلب الحادثة إلى مزاح، وناصره رفيق آخر، وهكذا كانت رحلة الصيد موفقة ومرحة. وكم أحس بالفرح، وهو يعود من القرية إلى محطة القطار الصغيرة! كانت الزحافات التي يجبر الواحدة منها جوادان، تنزلق بلا ضوضاء، على طول الطريق، بين أشجار الصنوبر المغطاة بالثلج. كانت السجائر المشعلة تلمع في الظلمة بنور أحمر، جميل، وكان خفير الصيد «أوسيب» يركض من زحافة إلى أخرى، غارقاً في الثلج إلى ركبتيه؛ وكان يحدث الصيادين عن الأطباء التي كانت شاردة في الغابات، في هذا الفصل، تتغذى من قشر الحور. وكان يحدثهم أيضاً عن الدبة التي كانت تنام، في هذه الساعة، مستدفئة، في كهوفها العميقة.

تذكّر نيكليودوف ذلك كله، لكنه تذكّر، على وجه الخصوص،

تلك الإحساسات العذبة التي طبعتها في نفسها صحة العافية وخلوّ
البال.

«معطف من الفرو دافئ، الهواء البارد والجاف، الثلج الذي يلسع
الوجه.... دفء الجسد، برودة البارد والجاف، الثلج الذي يلسع
الوجه... دفء الجسد، برودة الوجه، والقلب لا هم فيه، ولا ندم
ولا خوف ولا رغبة! ما كان أهناً ذلك كله! أما الآن... يا إلهي، كم
أصبح كل شيء صعباً وشاقاً!

لا شك أن فيرا ايفريموفنا أصبحت ثورية. وسأقت نفسها إلى
السجن بسبب آرائها. قرر نيكليودوف أن يطلب رؤيتها. ربما قالت
له، بالفعل، شيئاً ذا بال عن الوسائل الكفيلة بتخفيف شقاء ماسلوف.

× × ×

عندما استيقظ نيكليودوف، في صباح اليوم التالي، رأى دفعة واحدة كل ما حدث له عشية البارحة. فاستولى عليه الذعر مرة أخرى. لكن ذلك لم يوهن من عزمته، فقد أحس أنه أكثر تصميمًا من أي وقت مضى، على مواصلة العمل الذي بدأه، مهما تكن نتائجه.

وفي الساعة التاسعة، خرج من بيته متوجهاً على منزل نائب الحاكم ماسلينيكوف. كان يريد أن يسأله إذناً بالحديث لا مع ماسلوف وحدها، بل وأيضاً مع ابن العجوز التي حدثته كاتوشا عنها. ثم، هناك أيضاً بوغودو كوفسكايا، ويجب أن يحاول أيضاً الحصول على الإذن بمقابلتها.

كان نيكليودوف يعرف ماسلينيكوف منذ زمن بعيد. عرفه في الفوج حيث كان نائب الحاكم المقبل أميناً للصندوق. كان إذ ذاك ضابطاً نزيهاً، حيّ الضمير، لا يرى ولا يريد أن يرى سوى فوجه والعائلة الإمبراطورية. ثم ترك الجيش إلى الإدارة بناءً على إلحاح امرأته، وكانت امرأة عظيمة الثراء والبراعة تحلم لزوجها بتقدم أكثر تألقاً، في الحياة المدنية.

كانت تهزأ منه وتُدلّله في الوقت نفسه، فتعامله كما يُعامل الكلب الأليف. وكان نيكليودوف قد زاره في الشتاء المنصرم، لكنه رآه مجرداً مما يستحق الإهتمام إلى حد بعيد حتى إنه لم يعد إليه قط بعد ذلك.

وجد ماسلينيكوف شبيهاً كل الشبه بما كان عليه دائماً. الوجه السمين الفارغ نفسه، البدانة نفسها، اللباس المسرف الأناقة نفسه. كان ماسلينيكوف، في الفوج، يرتدي بزة فائقة النظافة، مفصّلة بحسب آخر طراز، تلفّ صدره وظهره لفافاً. وهو الآن يرتدي بزة مدنية فائقة النظافة، مفصّلة بحسب آخر طراز، تشد جسده السمين شداً وتبرز صدره العريض.

بدا مرأى نيكليودوف كأنما قد ملأه فرحاً، فقال وهو يرفع عنقه بسرور عجز عن إخفائه:

— ها قد جئت أخيراً! جميلٌ منك أن تأتي! سأصطحبك للسلام على زوجتي. ما أروع هذه المصادفة، فما زال عندي عشر دقائق قبل الجلسة. رئيسي غائب، وأنا أقوم بوظيفة الحاكم.

— ذلك أي... أتيتك في قضية.

دهش ماسلينيكوف، وفجأة غدت سحته ولهجة صوته أشد قسوة:

— ماذا؟

— القضية... أن في سجن الحكومة القديم امرأة يهمني أمرها

كثيراً، (عند كلمة سجن ازداد وجه ماسلينيكوف عبوساً) وأود لو
أحصل على الإذن بالحديث معها خارج قاعة الزيارات العامة،
وخارج أوقات الزيارة. قيل لي إن هذا ممنوع بك.

أجاب الرجل الضخم وهو يتكئ بيديه على ركبتَي نيكليودوف،
وكأنه يريد أن يُريه تنازله:

- طبعاً! غني عن القول، يا عزيزي، إنني لا أرفض لك طلباً وما
تطلبه لا يتضمن شيئاً مستحيلاً، لأنني الحاكم في الوقت الحاضر، كما
ترى!

- وهكذا فأنت تستطيع أن تعطيني ورقة تسمح لي برؤيتها في كل
ساعة؟

- أهى امرأة؟

- نعم.

- ولم تُحكم عليها؟

- بجرم التسميم، وهو خطأ قضائي.

قال ماسلينيكوف، وقد وجد ذريعة يتذرّع بها للكلام بالفرنسية:

- هؤلاء... هم المحلفون... لا يفعلون شيئاً سوى الأخطاء.

وأردف:

- أعلم أننا لسنا متفقين حول هذا الموضوع؛ لكن ما العمل، هذا هو رأيي الراسخ! في حين أنك أنت، ماتزال تحريراً، بلا شك؟

تساءل نيكليودوف مرة أخرى عن الصلة التي قد تكون بين رأي سياسي مثل التحررية والمطالبة لمتهم بحق الدفاع عن نفسه، أو بينه وبين عدم القبول بأن يكون لأحد الحق في تعذيب المجرمين وضربهم، أو بينه وبين تفضيل هذا النمط من المحاكمة على غيره. وردّ على ماسلينيكوف:

- لا أدري إن كنتُ تحريراً أم لا ولكنني أعلم أن القضاء، في الوقت الحاضر، مع أخطائه كلها، أفضل من القضاء فيما مضى.

- هل استشرت محامياً؟

- نعم، استشرتُ فانارين.

كشّر ماسلينيكوف عند سماعه هذا الاسم. وهتف.

- يا لها من فكرة مؤسفة تلك التي حملتك على استشارة هذا الرجل!

لم ينسَ نائب الحاكم أن فانارين أجبره، في السنة السابقة، على المشول، في دعوى، بصفته شاهداً، وأنه أضحك القاعة بأدبٍ منه، طوال نصف ساعة.

- لو سألتني لما نصحتك باستشارته، فهو رجل به عاهة.

واصل نيكليودوف كلامه وكأنه لم يسمعه.

- وعندي شيء آخر أود أن أطلبه منك. عرفتُ فيما مضى فتاة، معلمة... هذه البائسة في السجن أيضاً، وقد أعلمتني أنها ترغب في مقابلي. أيمكنك أن تعطيني إذنًا بذلك أيضاً؟

بدا ماسلينيكوف كمن يفكر، ورأسه مائل ميلاً خفيفاً. واستخبر:

- وفي أي قسم، معلمتك؟

- قيل لي إنها في القسم السياسي.

- الحقُّ في زيارة السجناء السياسيين لا يُعطى إلا للأهل! لكن إسمع، سأعطيك ترخيصاً عاماً. وأنا واثق من أنك لن تسء استعماله وكيف هي، محميتك؟ جميلة؟

- بشعة.

هزّ ماسلينيكوف رأسه استنكاراً؛ وعاد إلى مكتبه وتناول ورقة بعنوان، وأخذ يكتب. ثم قال له:

- سوف ترى النظام البديع الذي يسود السجن! ليس سهلاً المحافظة على الانضباط فيه، ولا سيما الآن بعد أن غصّت القاعات بالسجناء. عندنا العديد من المحكومين بالأشغال الشاقة! وأنا ساهر بصراحة على كل شيء، فالأمر يهمني كثيراً. سوف ترى كيف رُتب كل شيء على أحسن وجه، وكيف أن الناس جميعاً مسرورون فيه! الشيء الأساسي بالنسبة إلى هؤلاء الناس هو أن نحسن التأتي لهم.

وهكذا، ففي هذه الأوقات الأخيرة، حدث حادث صغير مزعج: حالة خروج على النظام. لو كان غيري لاعتبر ذلك تمرداً، ولجّز المصائب. لكن الأمور معي تمتّ بسلام.

وقال متبجحاً، وهو يمدّ من ردن قميصه ذي الأزرار المذهبة، يده الريلة التي التمعّ فيها حجرُ الخاتم الأزرق:

— مايلزم هو التسامح والسلطة! نعم، التسامح والسلطة، هذا جوهر الأمر.

أجاب نيكليودوف:

— لا خبرة لي بذلك كله. لم أذهب إلى السجن سوى مرتين، وأنا أعترف أن الانطباع الذي خرجتُ به انطباع مؤلم تماماً.

— أتعلم؟ يجب أن ترى الكونتيسة «باسيك». ستفاهمان تفاهماً تاماً. لقد كرّست نفسها لهذا النوع من الأعمال الخيرية. إنها كثيرة الإحسان. وبفضلها—وأيضاً بفضلتي، وأنا أستطيع أن أعترف بذلك، دون أن أتكلّف التواضع الكاذب—تبدّل نظام سجوننا كله. لم يبق فيه شيء من فظائع العهد السابق، وغدا السجناء، الآن، سعداء حقاً. سترى ذلك... لكن كيف خطر ببالك أن تستشير فانارين هذا! لستُ أعرفه شخصياً؛ فأحاولنا الاجتماعية ليس من شأنها أن تتيح لنا إنشاء علاقات بيننا، لكنني أعلم من مصدر موثوق أنه أحق. هذا إذا غرضنا النظر عن أنه يقول، في المحكمة، أشياء...

قاطعه نيكليودوف وهو يأخذ الورق التي كتبها:

— أشكرك أعظم الشكر على جميلك!

— أَلن تمرّ على زوجتي؟

— اعذرني، فليس لدي الوقت.

فاتحج ماسلينيكوف:

— لن تغفر لي أني تركتك تذهب!

قال ذلك وهو يودّع رفيقه القديم إلى درجات السلم، وذلك شرف لا يخص به زوّاره من ذوي المكانة الأولى—لأنه كان يودّع هؤلاء إلى أدنى السلم—بل الزوار الذين يأتون بعد هؤلاء مباشرة، من حيث المكانة.

والحّ عليه:

— هيا، قم بهذه البادرة اللطيفة! لدقيقة واحدة فقط!

لكن نيكليودوف لم ينثن عن عزمه. وعندما رآه ماسلينيكوف يصل إلى آخر درجات السلم حيث سارع إليه خادمان يقدّمان له معطفه وعصاه، ناداه بدالة:

— طيب! لا تنسَ إذن أن تأتي نهار الخميس! فهو يوم الاستقبال، عند زوجتي. سأنبئها بمجيئك.

× × ×

مضى نيكليودوف رأساً إلى السجن، بعد خروجه من عند ماسلينيكوف. قال للحراس إنه يريد أن يكلم المدير، وبالفعل، ما إن دخل حتى اتجه إلى شقة ذلك الموظف. فسمع مرة أخرى، وهو يقترب، ما سمعه في المرة الأولى، أنغام بيانو رديء. كانت المعزوفة التي تُعزف مقطوعة «كليمنتي»^(١٦) لـ«ليست»، وكان العزف، كالمرّة الأولى، مُسرف الشدة، محافظاً على الدقة الآلية، مُفرط السرعة.

قالت الخادمة التي فتحت لنيكليودوف: إن النقيب في البيت. وأدخلته قاعة استقبال صغيرة مؤثثة بأريكة، وطاولة، وثلاثة كراسي، ومصباح ضخّم له كمة من الكرتون الوردي. وبعد لحظة، دخل المدير نفسه، متعب الوجه، محزونة، فسأله وهو يُنهّي تزيير سترة البزة:

— تحياتي، أيها الأمير. فيمَ أستطيع أن أؤدي لك خدمة؟

أجاب نيكليودوف:

١٦. كليمنتسي (١٧٥٢-١٨٣٢) موسيقي وعازف بيانو شهير، مؤلف مقطوعات للتدرب على السرعة.

— ذهبت إلى نائب الحاكم، فأعطيني هذا الإذن. وأود أن أقابل
ماسلوفاً.

سأله المدير الذي منعه الموسيقى من سماع الاسم:

— ماسلوفاً؟

— ماسلوفاً.

— آه! نعم، أعلم.

ونهض، فاتجه إلى الباب الذي كانت تنبعث منه مقاطع كلمتي
البارعة، وصاح بصوت يدل بوضوح على أن هذه الموسيقى هي
المصيبة في حياته:

— ارحميني، يا ماروسيا وتوقفي دقيقة، على الأقل. فنحن عاجزان
عن التفاهم!

سكت البيانو، وتحركت كراسي حركة تنم على الامتعاض، وفتح
الباب شخص ليلقي نظرة على الغرفة. ارتاح المدير ارتياحاً ظاهراً
إلى توقف الموسيقى، فأخرج لفافة ضخمة من علبته، وقدم أخرى
لنيكليودوف. اعتذر نيكليودوف عن قبولها، وسأل:

— أيمكنني أن أرى ماسلوفاً؟

سأل المدير طفلة ابنة خمس سنوات أو ست انسلت إلى الغرفة،
وجهدت في أن تتسلق ركبتَي والدها، دون أن تحوّل بصرها عن
نيكليودوف.

- وأنتِ ماذا جئتِ تفعلين هنا؟

وتابع بابتسامة متغاضية عن مناورة الطفلة:

- احترسي، فسوف تقعين!

فألح نيكليودوف:

- أرجوك أن تأمر بإحضار ماسلوف. إن كان ذلك ممكناً.

أجاب المدير بابتسامة خفيفة.

- ماسلوف! من سوء الحظ، أنك لا تستطيع أن تراها اليوم! يا أمير، صدقني، لا تعطيها مالاً بعد الآن. سلّمني المال لها، إذا شئت سأحتفظ به كله لها، لكن... لاشك أنك أعطيتها مالاً، أمس، فحصلت على الخمر! لا يمكننا استئصال هذا الداء! لقد وجدت اليوم سكرانة كلياً، وأثارت الشغب!

- ثم ماذا؟

- ثم اضطررنا إلى معاقبتها. نُقلت إلى قاعة أخرى. في الأوقات العادية، هي سجين هادئة. أرجوك، لا تسلّمها المال يدّاً بيداً ليتك تعرف مثلي هذا النوع...

رأى نيكليودوف بفكره من جديد، مشهد البارحة فعاد إليه رعبه. وسأله بعد صمت.

و«بوغودو كومسكاي»، في قسم السياسيين، أيمكنني أن أراها؟

— بالتأكيد!

أخذ المدير بيديه طفله التي ظلت تتفرّس في نيكليودوف، وأخرجها من بين ركبتيه، ونهض ليصطحب نيكليودوف إلى السجن. لم يكذ ينتهي من ارتداء معطفه، حتى تعالت من جديد، مقاطع كليمنتي البارعة، موقّعة بجفاف.

علّق المدير وهو ينزل السلم.

— كانت في المعهد الموسيقي، لكن حدثت اضطرابات وُصِف الطلاب. إن لها الكثير من المواهب، وتود أن تعزف في الحفلات الموسيقية.

قصد نيكليودوف والمدير إلى المكتب. انفتحت جميع الأبواب، في طرفة عين، لدى مرورهما. في الرواق، لقيهما أربع محكومين بالأشغال الشاقة، يحملون أسطلاً. رآهم نيكليودوف يرتجفون وهم يشاهدون المدير. خفض واحد منهم، على الخصوص، رأسه، وخبث وجهه، واشتعلت عيناه السوداوان فجأة.

تنهد المدير دون أن يأبه لسجنائه.

— لاشك أن الموهبة يجب أن تُشجّع، وليس من حقنا أن نضع في وجهها العراقيل، لكن هذا البيانو الذي لا يتوقّف، في شقة صغيرة كشقتنا، كثيراً ما يؤذي.

قادر نيكليودوف إلى القاعة الكبرى وهو يجرّ قدميه المتعبتين.
وعندما وصلا إليها سأل:

— ما اسم السجينة التي تريد أن تراها؟

— بوغودو كوفسكايا.

— هي في البناء الآخر، عند السجناء السياسيين. يجب أن تفضّل
بالانتظار قليلاً. سأرسل مَنْ يُحضرها.

— ألا يمكنني في هذه الأثناء، أن أرى السجين منشوف، المحكوم
بإضرار النار؟

— هذا في الزنزانة. أتريد أن تذهب لتراه؟

— بالتأكيد سيكون ذلك مدعاةً لاهتمامي.

— أوه! سترى، ليس هناك ما يدعو إلى الإهتمام!

في اللحظة نفسها، دخل القاعة نائب المدير الأنيق. قال رئيسه:

— أوصل الأمير على زنزانة منشوف. ثم أعدّه إلى المكتب.

فعرض عليه نائب المدير بإستامة لطيفة: وسأرسل أنا؛ في هذه
الأثناء، من يحضر بوغودو كوفسكايا.

— هلا تفضّلتَ بمرافقتي. إنك تهتم بمؤسستنا؟

— إنني أهتم بأمر منشوف. فهو بريء، على ما قيل لي، من الجريمة
التي نُسبت إليه.

فهزّ الشاب الأشقر كتفيه، وقال بهدوء، بعد أن توقّف، تأدّباً،
ليدع نيكليودوف يدخل قبله، في رواق عريض يسوده نتن موبوء.

— قد يقع ذلك! لكنهم يكذبون، في الغالب... أرجوك، بعدك!

كانت أبواب الغرف مفتوحة، وكان الكثير من السجناء في
الرواق. وكان نائب المدير يرد على تحيات الحراس بتهاون، ولا يكلف
نفسه الرد على تحيات السجناء الذين انسل بعضهم إلى غرفهم، حين
رأوه، بينما وقف آخرون، بلا حراك، وباحترام، وأيديهم على دُرْزَة
البنطال.

سار نائب المدير بنيكليودوف الرواق الكبير كله، ثم دخل به من
باب حديدي رواقاً ثانياً أضيق، وأشدّ ظلمة، وأفظع نتانة، على أبعد
حد ممكن. على هذا الرواق، كانت تُطلّ، من الجانبين، أبواب مقفلة
ثُقبَت فيها كوى صغيرة. كان هذا الرواق خالياً، إلا من حارس يتجول
فيه جيئةً وذهاباً، عجوز ذي وجه حزين ومتجهم.

— منشوف؟ في أية زنزانة؟

— الثامنة إلى اليسار.

استخبرَ نيكليودوف:

— هل هذه الزنزانات مشغولة كلها؟

— كلها، إلا واحدة.

× × ×

سأل نيكليودوف:

- أستطيع أن ألقى نظرة؟

أجاب نائب المدير بابتسامة لطيفة:

- افعل ما يحلو لك.

والتفت إلى الحارس لي طرح عليه سؤالاً.

نظر نيكليودوف من خلال الكوة. لقد حُبس في الزنزانة شاب طويل القامة. كان يمشي جيئةً وذهاباً، بخط سريعة، مرتدياً قميصاً وبنطالاً فقط. وعندما سمع ضجة، ألقى على الباب نظرة خاطفة، وقطّب بين حاجبيه، واستأنف مشيه.

توقف نيكليودوف أمام زنزانة أخرى. التقت نظراته نظرة غريبة ومثيرة للقلق، والعين النازرة كانت عيناً واسعة، سوداء، ملتصقة بالكوة من الجانب الآخر. فسارع الأمير إلى الابتعاد. في الزنزانة الثالثة، رأى رجلاً قصيراً ينام على مفرشه، طاوياً ساقيه، مغطياً رأسه

بمعطفه. في الزنزانة التالية، كان السجين جالساً، خافض الرأس، متكئاً بمرفقيه على ركبتيه. وعندما سمع الكوة تنفتح، رفع رأسه؛ كان وجهه الشاحب كله، ولاسيما عينيه الغائرتين، يُظهر بوضوح أنه قلما يهتم بمعرفة مَنْ يراقبه، كان جلياً أنه لا يتوقع خيراً من أحد.

انتاب نيكليودوف إحساس من الذعر. فأحجم عن رؤية الزنانات الأخرى، وذهب رأساً إلى زنزانة منشوف. فتح الحارس الباب المقفل، فشاهد نيكليودوف شاباً متين العضلات، طويل العنق، له لحية صغيرة في ذقنه، وعينان وديعتان مدوّرتان. كان واقفاً قرب مخدعه، يرتدي سترته على عجل، وقد بدا عليه الرعب. وطوّفت عيناه الوديعتان، المدهوشتان، القلقتان من نيكليودوف إلى نائب المدير، ومن هذا إلى ذاك.

أبلغه نائب المدير:

— هوذا سيد يريد أن يسألك عن قصتك!

قال نيكليودوف وهو يتقدّم في الزنزانة، ويقف قرب النافذة المسيّجة بالحديد:

— لقد حدّثتُ عنك، وأود أن أسمع من فمك رواية ما جرى لك:

اقترب منشوف، هو أيضاً، من النافذة تكلم أول الأمر بخجل، وهو يرشق نائب المدير بنظرات قلقة. لكنه تشجّع شيئاً فشيئاً، وعندما خرج نائب المدير من الزنزانة ليلحق بالحارس في الرواق، اختفى خجله كلياً.

كانت لغته وتصرفاته لغة فلاح بسيط وشریف، وتصرفاته، وأحس نيكليودوف بإحساس غريب إذ لقي هذا الفلاح الصغير والطيب، في لباس السجن، في هذه الزنزانة المظلمة. وأخذ يتأمل، وهو يصغي إليه فراش القماش ولحاف القش، والشباك القذر بشبكته الحديدية الثقيلة، والجدران المبقعة بالرطوبة، وهذا الوجه البائس، والملامح المهزولة لهذا الرجل الذي من الواضح أنه ولد لحياة كلها عمل في الهواء الطلق. كان حزن نيكليودوف لا ينبي يتعاضم. لقد أبى أن يصدق أن ما يرويه هذا البائس صحيح. أكان من الممكن حقاً انتزاع رجل من حياته العادية، بلا داع، وتجليله بستره السجن، وحبسه في هذا المكان الموحش؟ ومن جهة أخرى، فقد كان يحسّ بهول أعظم وهو يفكر أن هذه الحكاية الساذجة التي تُروى بصوت بسيط وصريح، قد تكون اختلاقاً أو خدعة.

روى له السجن أن صاحب الحانة في قريته اختطف منه زوجته، بعد زواجهما فوراً. فلجأ إلى جميع الجهات المعنية ليحصل على حقه. لكن بدون جدوى، لأن صاحب الحانة قد رشا السلطات.

و ذات يوم، أرجع منشوف زوجته إلى البيت، بالقوة: فهربت في اليوم التالي. حينذاك عاد إلى صاحب الحانة، وطالب بزوجه. فأجابه صاحب الحانة أنها ليست عنده، وأمره أن يخرج. وبما أنه رفض، فقد ضربه صاحب الحانة، بمساعدة عامل، حتى أدماه. وفي اليوم التالي، احترق مخزن صاحب الحانة. لكن منشوف لم يكن هو الذي أحرق المخزن: كان، في ذلك اليوم في منزل صديق له.

— أحقاً، أنك لم تحرقه؟

— بل إن ذلك لم يخطر لي على بال، يا سيدي. هو نفسه اللص،
بالتأكيد! قيل إنه كان قد أمّن على مخزنه! وها إننا، أُمي وأنا، نُتهم بأننا
هدّدنا بإحراق منزله. الحق أُنِي، في هذا اليوم، ذهبتُ أطلبه بزواجتي.
وقد شتمته، وهددته، أما بإضرار النار فلا! لم أكن هنا عند اشتعال
النار. هو الذي أشعل النار عمداً، واتهمنا بعد ذلك!

— أحقاً ما تقول؟

— هو حق، كما أن الله حق، يا صاحب السيادة!

وواصل كلامه وهو يرتمي على قدمي نيكليودوف الذي جهد في
أن يمنعه من ذلك:

— كنْ لي أباً. اشفق علي، أنا هالك، بلا داع...

أخذ ييكبي، وشفتهاه ترتجفان. كانت سترته مشمّرة، وهو يمسخ
عينيه بكم قميصه الوسخ.

سأله نائب المدير:

— انتهيت؟

أجاب نيكليودوف:

— نعم.

ثم التفت إلى منشوف، قبل أن يخرج، ونصحه:

— لا تيأس. سنفعل كل ما هو ممكن.

وقف منشوف إزاء الباب، حتى إن الحارس اضطر أن يدفعه إلى الداخل، وهو يغلق الباب. وأبى البائس إلا أن يتطلع من خلال الكوة، إلى أن انتهى الحارس من إقفال الباب.

x x x

عاد نائب المدير بنيكليودوف، مرة أخرى، من خلال الرواق الكبير. كان الوقت وقت العشاء، وجميع أبواب القاعات مفتوحة. عندما رأى نيكليودوف هذا الجمع من الرجال، يلبسون جميعاً بالطريقة نفسها، ويتفرّسون فيه بفضول، أحس بمزيج غريب من العطف على هؤلاء السجناء، ومن الدهشة والاستفزاز أمام هذه الفكرة وهي أن يعمد هؤلاء الرجال إلى حبس أمثالهم من البشر. كان مخجلاً أن يشهد ذلك كله، بهدوء. وعند ممروره، خرج كثير من السجناء من إحدى القاعات، واعترضوا طريقه، وهم يحيونه بإجلال قائلين:

- نتوسّل إليك، إعمل على أن يقرروا شيئاً بشأننا.

- لستُ من الإدارة، أنتم مخطئون، ليس بوسعي أن أفعل شيئاً لكم.

فاعترض صوت مستاء:

- لا أهمية لذلك. تستطيع أن تحدّث أحداً في الإدارة بشأننا.

نحن لم نفعل شيئاً، وها قد مضى شهران علينا هنا!

استفهم نيكليودوف:

— كيف؟ لماذا؟

— لقد زُج بنا في السجن. نحن هنا منذ شهرين، ونحن أنفسنا لا نعلم لماذا؟!

أكد نائب المدير:

— هذا صحيح، لكن الأمر غير مقصود بتاتا. لقد أوقف هؤلاء الناس لأنهم كانوا يحملون جوازات انقضت مدتها، وكانوا سيرسلون إلى ولايتهم. ولكن السجن، في ولايتهم احترق، فرجونا ألا نرسلهم. جميع سجناء الولايات الأخرى أرسلوا إليها، أما هؤلاء فنحن مضطرون إلى الاحتفاظ بهم.

دهش نيكليودوف، فدنا من الباب وألقى نظرة خاطفة على القاعة:

— أمكن هذا؟

أحاط جمع من نحو أربعين رجلاً بنيكليودوف ونائب المدير، وكلهم بشباب السجن. ورفع كثير منهم أصواتهم في آن واحد. إلا أن واحداً منهم، وهو فلاح قوي البنية قد دب إليه الشب، أخذ على عاتقه أن يتكلم باسم رفاقه. فأوضح أنهم سُجنوا لأنهم لا يحملون جوازات سفر، مع أن جوازاتهم كانت معهم، في الحقيقة، لكن مدتها

انقضت قبل خمسة عشر يوماً. كان ذلك يقع كل عام، دون أن يقول لهم أحد شيئاً، لكنهم أوقفوا جميعاً هذه المرة، وهم منذ شهرين في السجن كالمجرمين.

نحن جميعاً عمال في مقالع الأحجار، ومن فريق واحد. وقد جئنا معاً لنعمل هنا. يُقال إن السجن احترق في ولايتنا. لكننا لسنا السبب في ذلك، فلسنا نحن الذين أحرقناه. بالله عليك، افعل شيئاً من أجلنا!

كان نيكليودوف يصغي إلى هذا الكلام في شيء من الشرود. لقد استرعى انتباهه، بالرغم منه، مرأى قملة ضخمة، رمادية، خرجت من راس عامل المقلع الطيب ودبت على خده.

سأل نيكليودوف نائب المدير وهو يشيح بوجهه:

— أممكن هذا؟ ومن أجل هذا السبب الزهيد؟

— ما العمل؟ القانون يأمر بإرسالهم إلى ولاياتهم ليُحاكموا فيها.

ما كاد نائب المدير يفرغ من كلامه، حتى طلع من الجماعة رجل قصير القامة، وشرع بدوره في الكلام، متشكياً من الطريقة التي يعذبهم بها الحراس، بلا داع:

صرّح:

— إنهم يعاملوننا أسوأ مما يعاملون الكلاب...

فقال نائب المدير بحسم:

— دعنا من هذا، دعنا! يجب ألا تستغل تسامحنا! أسكت وإلا،
فأنت تعلم...

فردّ عليه الرجل بلهجة المعتاظ:

— وما الذي سأعلمه؟ هل نستحق أن نوضع هنا؟

صاح حارس:

— اسكت!

فسكت الرجل.

قال نيكليودوف في نفسه وهو يتابع طريقه، في الرواق، بينما
كانت ترصده مئات العيون:

— هذا لا يُصدّق!

وقال لدليله عندما خرجا من الرواق:

— ينبغي ألا يُسمح بالإبقاء على الأبرياء في السجن.

— ما الحيلة في ذلك؟ أنت تعلم أن هؤلاء الرجال يكذبون كثيراً...
إذا سمعتهم حسبتهم جميعاً أبرياء.

— لكن هؤلاء، على الأقل، أبرياء؟

— لنسلّم بأن هؤلاء أبرياء. لكن هذا الجنس من الناس فاسد إلى

أقصى حدود الفساد. وبدون القسوة لا يمكن أن ينجع فيهم شيء.
لأن عندنا هنا أوغاداً رهيبين لا يرغبون إلا في الانقضاض علينا.
وهكذا اضطررنا أمس إلى معاقبة اثنين منهم.

— كيف، معاقبتهم؟

— جلدتهم بالسياط، بأمر عال.

— كنت أظن أن العقوبات الجسدية ملغاة؟

— هي غير ملغاة بالنسبة على السجناء المحرومين من حقوقهم
المدنية.

تذكر نيكليودوف حينئذ المشهد الذي حضره عشية أمس، في
القاعة الكبرى. وأدرك أن الحراس كانوا قد باشروا هذه «المعاقبة» في
أثناء انتظاره للمدير. فأحس إحساساً أشد من أي وقت مضى بهذا
المزيج من الفضول والحزن والدهشة والخجل والاشمئزاز الذي يصل
إلى حد الغثيان. وجرى إلى المكتب، دون أن يصغي إلى نائب المدير،
ودون أن ينظر حوله. وجد المدير هناك، لكنه كان مشغولاً جداً،
فنسي أن يستدعي بوغودو كفسكايا. ولم يذكر وعده إلا عندما رأى
نيكليودوف يدخل المكتب. فهتف.

— ألف معذرة! سأستدعيها في الحال. تفضل واجلس ريثما تأتي.

× × ×

كان المكتب مكوّناً من غرفتين. في الغرفة الأولى التي تضيئها نافذتان، وتزيّنها مدفأة مغطاة بالوسخ، يرى الناظر على أحد الجدران مسطرة سوداء لقياس قامة السجناء، وعلى جدار آخر صورة كبيرة للمسيح على الصليب، وكأنهم كانوا يلهون بوضع صورته في أمكنة التعذيب، استهزاء بمذهب المخلص. كانت هذه القاعة الأولى فارغة تقريباً إلا من بعض الحراس فيها.

وكانت الغرفة الثانية، وهي أكبر من تلك، تحتوي على نحو عشرين شخصاً من الجنسين، يجلسون في جماعات منفصلة، على مقاعد بحذاء الجدار. كانوا يتحدثون بصوت خافت. وفي ركن من الغرفة، قرب إحدى النافذتين، وضعت طاولة كان يجلس إليها المدير، عندما دخل نيكليودوف. وبعد أن أجلسه المدير قرب الطاولة. ذهب إلى الغرفة المجاورة ليأمر باستدعاء بوغودو كفسكايا فأتيت لنيكليودوف أن يلاحظ، من موقعه، ما يجري حوله.

استرعى انتباهه، قبل كل شيء، مرأى شاب بستره قصيرة، جذاب الطلعة، يقف بين شخصين جالسين، فتاة وسجين. كان يقص عليهما

شيئاً بإيمائية شديدة الحركة. وأبعد منهم، رأى نيكليودوف شيخاً بنظارتين سوداوين كان يصغي بشوق إلى ما تقوله فتاة سجينة أمسك بيدها. وبقرّب الشيخ، وقف صبي بان على وجهه التفكير والهلع، ولم يحوّل نظره عنه. وفي زاوية من الغرفة، خلف هؤلاء، عاشقان أخذتا يتهاامسان بفرح. كانت الشابة الأنيقة اللباس، شقراء، جميلة، متميزة الشكل. أما عشيقها فكان سجيناً، جميل الوجه، قوي القسمات؛ وكان يرتدي سترة مشمعة مكسوة بالمطاط. وعلى خطوات من الطاولة، بحذاء الجدار الآخر، رأى نيكليودوف امرأة رمادية الشعر، ترتدي ثياباً سوداء، أما من غير شك: كانت تلتهم بعينها شاباً مسلولاً، وتحاول أن تكلمه. بدأت كلمة، وخنقتها عبراتها، فتوقفت، على الفور. وأخذ الشاب الذي تضايق يطوي ويفرك بحركة آلية ورقة في يده. وكان هو أيضاً يرتدي سترة مكسوة بالمطاط. وبجنبهما، رأى نيكليودوف فتاة ساحرة في فستان رمادي، وعلى كتفها وشاح، تجلس ملاصقة لأمها التي تبكي، وتحاول جهداً أن تخفف عنها، مداعبة بهدوء ذراعها. كل شيء في هذه الفتاة كان ينبئ بالجمال الخالص: يداها الطويلتان والبيضاوان، شعرها المتموج والقصير، أنفها المستقيم، فمها الصغير؛ لكن السحر الرئيسي لوجهها الخلاب كان يأتي من عينيها النجلاوين البارزتين، السمرائين، من عيني يفيضان عذوبة وصراحة وطيبة.

بينما كان نيكليودوف يتأمل بفضول هذه الجماعات المتنوعة. وهو جالس قرب المدير، اقترب الصبي منه، وسأله بصوت نحيف:

— وأنت، مَنْ تنتظر؟

دهش نيكليودوف، في بادئ الأمر، من السؤال، لكن وجه الصبي المتفكر، وعيناه اليقظتان، الحركتان، كل ذلك أثر فيه. فأجابه بأرصن جواب أنه كان ينتظر امرأة يعرفها.

استعلم الصبي:

— أهي أختك؟

— لا، ليست أختي، لكن أنت، مع مَنْ أنت هنا؟

أجاب الصبي باعتزازٍ ظاهر:

— أنا، مع أمي! هي في قسم السياسيين!

صاح المدير الذي رأى، من غير شك، في حديث الصبي مع نيكليودوف مخالفة للنظام:

— ماريا بافلوفنا، خذي «كوليا»!

نهضت ماريا بافلوفنا، الفتاة الجميلة الجالسة على خطوتين من نيكليودوف، وتقدّمت نحوهما، وهي تبتسم، وتنظر على نيكليودوف في وجهه، بعينيها البارزتين:

— لاشك أنه سألك مَنْ أنت؟

كانت ابتسامتها ونظرُها ونبرُتها بسيطة جداً بحيث يرى المرء على الفور أنها تحس بحريتها دائماً، مع الجميع، وأنها لا تحمل للجميع إلا عواطف المودة والإخاء.

واستأنفت:

— إنه يريد دائماً أن يعرف كل شيء!

وابتسمت للصبي ابتسامة عذبة جداً وحنونة جداً حتى أن الصغير،
مثله مثل نيكليودوف نفسه، ابتسما لها راداً على ابتسامتها، على نحو
غير إرادي.

— نعم، سألني عمّن جئت من أجله.

تدخل المدير:

— ماريا بافلوفنا، ليس لك الحق أن تكلمني الغرباء، تعلمين ذلك!

— طيب، طيب!

وابتسمت وعادت إلى جانب أم المسلول، وهي تمسك بيدها
الطويلة والبيضاء يد كوليا.

سأل نيكليودوف المدير:

— ابن من هو؟

أجاب المدير بشيء من الرضا، وكأنه كان يلتذذ بأن يلفت الأنظار
إلى إحدى نواذر مؤسسته.

— ابن سجينة سياسية، وقد وُلد في السجن.

— حقاً!

— نعم، وسيذهب الآن إلى سييريا، مع أمه.

— وهذه الفتاة؟

فأعلن المدير:

— عفواً، ليس لي الحق أن أجيبك عن ذلك كله. على كل حال هذه هي «بوغودو كفسكايا».

x x x

ومن باب الصدر، دخلت بخطواتها الرشيقة، فيرا ايفريموفنا القصيرة، المهزولة، الصفراء، القصيرة الشعر، التي تعكس عيناها الواسعتان الطيبة.

قالت وهي تمد يدها إلى نيكليودوف.

- أشكرك على مجيئك. أما تزال تذكرني؟ تعال نجلس.

- ما كنتُ أتوقع أن أراك هكذا.

فأكّدت فيرا ايفريموفنا، وهي تثبت في نيكليودوف عينيها المدورتين، ولا تفتأ تدور عنقها الطويل والنحيل الذي برز من قبة سترتها الوسخة والمدعوك، في كل الاتجاهات.

- أوه! أنا في حالة حسنة هنا، حتى أنني لا أتمنى خيراً مما أنا فيه.

وعندما سألها نيكليودوف لماذا وُضعت في السجن، بدأت، بكثير من الحماسة، قصة مفصلة أدق تفصيل تحتل فيها مغامراتها مكاناً أدنى مما لا يُقاس من منظمة «حزبها» ومشاريعه. وكانت قصتها مزدانة

بألفاظ غريبة. كانت تتحدث عن «الدعاية» و«المنظمة» و«الجماعة» و«الأقسام» و«فروع الأقسام»، وتستخدم تعابير من المفردات الثورية. لقد كانت، من غير شك، مقتنعة بأن جميع الناس يعرفون هذه التعابير، لكن نيكليودوف كان يسمعها لأول مرة. كانت تروي له ذلك كله وهي على يقين من أنه سيجد أعظم السرور، وسيهتم أقصى اهتمام بمعرفة هذه المنظمة في جميع تفاصيلها. كان نيكليودوف يسأل نفسه، وهو ينظر إلى هذا العنق النحيل، وهذا الشعر القليل والأشعث، وهاتين العينين المدوّرتين، لماذا كانت تحدّثه عن ذلك كله، ولماذا كانت هي نفسها معنيّة به. كان يرثي لحالها، ولكن بطريقة مختلفة عن التي كان بها يرثي لحال الفلاح منشوف بوجهه الممتقع ويديه الشاحبتين، والمحبوس في زنزانه الموبوءة، بدون داع. لم يكن يرثي لها على هذا المصير الذي قادت نفسها إليه، لكن على الفوضى المهيمنة على رأسها. كان واضحاً أن البائسة ترى نفسها بظلة، وتتصنع أمامه دور البطلة، وعلى هذا كان يرثي لها قبل كل شيء.

أما القضية التي أرادت فيرا ايفريموفنا ان تحدّث عنها نيكليودوف فكانت معقّدة بالرغم من كل شيء. ذلك أن رقيقة لها تُدعى شوستوف أوقفت في الوقت الذي أوقفت فيه، قبل خمسة أشهر. وسُجنت في حصن «بترس وبولس»، مع أنها لم تكن في عداد أعضاء أي فرع. لقد عُثر عندها فقط على وثائق وكتب أودعها عندها رفاقها. اعتبرت فيرا ايفريموفنا نفسها مسؤولة جزئياً عن حبسها. ورغبت أن ترجو نيكليودوف «الذي له معارف» أن يبذل وسعه لإطلاق سراح شوستوفا.

وأما قصتها هي نفسها، فقد روت كيف أنها، بعد أن أنهت دراستها كقابلية، انتسبت إلى قسم «محرري الشعب». لقد قرأت «رأس المال» لكارل ماركس، وعزمت على أن تكرّس نفسها كاملة من أجل تقدّم الثورة. وفي بادئ الأمر. سار كل شيء على ما يُرام. فقد كتبت المنشورات، وقامت بالدعاية في المناجم. لكن أحد الأعضاء أوقف ذات يوم، ووضعت الشرطة يدها على بعض المستندات، فزجّ بالقسم كله في السجن.

سألها نيكليودوف مَنْ تكون تلك الفتاة الجميلة. فروت فيرا ايفريموفنا أنها ابنة جنرال. وأنها انتسبت منذ زمن بعيد إلى الحزب الثوري، واعترفت بإطلاق النار من مسدّس على دركي. ذلك أن الشرطة عندما داهمت الشقة التي كان يستخدمها الحزب لمداولاته. سد الأعضاء الذين كانوا فيها الأبواب، حتى يتسنى لهم إحراق المستندات المعرّضة للشبهة. أو إخفاؤها. لكن الشرطة انقضت على المتآمرين بعد أن خلعت الأبواب. فأطلق أحدهم طلقة مسدس أصابت دركياً إصابة قاتلة. وفُتح التحقيق على الفور لاكتشاف الفاعل، فادّعت الفتاة مسؤولية ما جرى، مع أنها لم تمسك بيدها مسدساً قط. واضطر التحقيق إلى اعتبار اعترافها صحيحاً، وحُكم عليها بالأشغال الشاقة، وهي الآن على وشك الذهاب إلى سيبيريا.

واختتمت فيرا ايفريموفنا كلامها:

— شخصية لها شأنها، غيريّة إلى أبعد الحدود.

القضية الثالثة التي أرادت أن تحدّث نيكليودوف عنها تتعلق

بما سلوفا. كانت هذه الشابة تعرف قصتها، كما يعرفها السجن كله، وكانت تعرف اهتمام نيكليودوف بها. وقد أرادت أن تُشير عليه بأن يعمل على نقل محميّته إلى مصلحة التمريض حيث كانوا بحاجة إلى مساعدات إضافيات. فشكرها نيكليودوف على نصيحتها ووعدّها بأن يبذل جهده بهذا الشأن.

× × ×

قطع حديثهما المدير الذي أعلن، وهو ينهض، أن الوقت المخصص للزيارات قد انتهى. فاستأذن نيكليودوف فيرا ايفريموفنا وهم بالخروج؛ لكنه وقف عند عتبة الباب، وهو يتوق إلى حضور وداع الزوار الآخرين.

لم يكن لتنبيه المدير من أثر سوى أنه جعل المحادثات أشد سرعة ونشاطاً، دون أن تبدو على أحد الرغبة في الانصراف. جماعتان أو ثلاث فقط نهض أفرادها وأخذوا يتحدثون وهم وقوف. وأقبل بعضهم على الوداع بالنحيب والدموع. أم الشاب المسلول بخاصة بدت مزعزعة. ظل ابنها يدعك بين أصابعه الورقة. ورأى نيكليودوف وجهه يتخذ تعبيراً كريهاً، فيما يبذل من جهد ليقاوم عدوى اليأس لدى أمه. وأسندت هذه رأسها على كتف الشاب، وأخذت تذرف الدموع الغزار، كأنها طفل. ووقفت الفتاة الجميلة - كان نظر نيكليودوف يعود إليها في كل لحظة عفوية - أمام الأم المفجوعة وهي لا تني تفيض عليها من مؤاساتها. وظل الشيخ ذو النظارة محتفظاً بيد الطفلة في يديه، هازأ رأسه لكل ما تقوله. ونهض الحبيبان ووقفاً بلا حراك، متواجهين، وعينا كل منهما في عيني حبيبه.

قال الشاب ذو السترة القصيرة لنيكليودوف، وهو يشير إليهما بأصبعه:

— هذان على الأقل، سعيدان. سوف يتزوجان هذا المساء، في السجن، وستلحق به إلى سيبيريا.

— وهو، من هو؟

— محكومٌ بالأشغال الشاقة.

وأردف الشاب وهو ينبه نيكليودوف على نحيب أم المسلول المؤثر.

— هذان فرحان، على الأقل. أما هذا النحيب فما أفضع سماعه!

صاح المدير، وهو يردد كلا من جملة عدة مرات:

— هيا، يا سادة، أرجوكم، لا تضطروني على استخدام القسوة.

وتابع بصوت خافت متردد:

— هيا، هيا! ما معنى ذلك؟ وقت الزيارة انتهى منذ زمن بعيد! هذا مستحيل! أقول ذلك للمرة الأخيرة!

كان ينهض ويعود إلى الجلوس، ويسحب نفساً من سيجارته، ويدعُها تنطفئ، ويشعلها مرة أخرى. كان واضحاً أنه مهما تكن متأصلة في المدير، تلك الحجج المموّهة التي تُبيح لإنسان أن يُعذب الآخرين دون أن يحسب نفسه مسؤولاً عن آلامهم، فلم يكن بوسعه الامتناع عن الشعور بأنه أحد فاعلي هذا الكرب المرعب الذي يهيمن

على هذه الأمكنة. كان واضحاً أنه يتألم هو أيضاً، وأن عبئاً مؤلماً يثقل قلبه.

وأخيراً أخذ السجناء والزوار يفترقون. اتجه بعضهم إلى الباب الذي في الصدر، واتجه آخرون إلى الباب الذي يطل على الغرفة المجاورة. ومن الباب الذي في الصدر، رأى نيكليودوف ابنة الشيخ ذي النظارة السوداء، والمسلول والمليحة ماريا بافلوفنا أيضاً، وهي تمسك بيدها الصبي الذي وُلِد في السجن، رآهم يخرجون: ثم جاء دور الزوار، فخرج نيكليودوف معهم.

قال له، على السلم، الشاب ذو السترة القصيرة الذي كان يحب الحديث، فيما يبدو:

— هذه الاجتماعات غريبة. من حسن الحظ أن النقيب رجل طيب لا يتمسك بالأنظمة أكثر من اللازم. حسن أن يُسرَّ المرء عن قلبه.

عندما بلغ نيكليودوف البهو، وهو يحدث ميدنتسيف. — هكذا قدّم الشاب المهذار له نفسه — لحق به المدير، وقد بدا منهوكة:

— إذا شئت أن ترى ماسلوفاً، فتعال غداً، يا أمير.

قدّر نيكليودوف أن المدير كان تواقاً إلى أن يكون لطيفاً معه. فأجابه نيكليودوف، وهو يسرع في الخروج:

— شكراً حزيلاً.

وخالجه إحساس بالاشمئزاز والرعب أقوى من الإحساس الذي خالجه في الأحد الماضي، عندما دخل لأول مرة أروقة السجن.

مرعبة كانت تبدو له آلام منشوف، الذي حُكم عليه ظلماً. لا الآلام الجسدية فقط، بل ذلك الشك، تلك الريبة إزاء الله والخير التي ساورت الفلاح البائس وهو يرى وحشية الذين تحاملوا عليه، بلا داع. مرعب أيضاً سجن عمال المقالع الذين لم يرتكبوا خطيئة، ومرعب العذاب الذي يعانونه. لقد ألزموا السجن لمجرد أن أوراقتهم غير نظامية. مرعب أيضاً جنون هؤلاء الحراس الذي لا شغل لهم سوى تعذيب أناس آخرين، متصوّرين أنهم يؤدون عملاً نافعاً وصالحاً. وأشد إثارة للرعب والاشمئزاز والشفقة مابدا لنيكليودوف من دور هذا المدير العجوز الذي كان عليه أن يُفريق بين الأم وابنها، والأخ وأخته، وأن ينكّل بأمثاله وأمثال أولاده، من البشر، وأن يفعل ذلك مُدعناً بالرغم من تعبته وكبر سنه، وبالرغم من طيبة قلبه الطبيعية.

تساءل نيكليودوف:

— لم كل ذلك؟

لم يتوصل أبداً إلى فهم هذا السؤال، إلى العثور على جواب عنه.

× × ×

في اليوم التالي قصد نيكليودوف إلى منزل المحامي فانارين، وعرضَ له حالة منشوف، ورجاه أن يتولى قضيته بنفسه. فأجابه المحامي بأنه سيفحص إضرارته، وإذا كانت الأمور قد وقعت حقاً كما روى منشوف، فإنه لن يرضى فقط بتولي القضية، لكنه سيقوم بأعبائها مجاناً. سيغيب جداً بهذه المناسبة التي تتيح له أن يكشف عن ضلال القضاء.

ثم حدّثه نيكليودوف بعد ذلك عن المائة والثلاثين عاملاً من بائسي المقالع الذين أودعوا السجن لأنهم أبرزوا جوازات انقضت مدتها. أراد أن يعلم عن تتعلق المسألة وعلى من تعود المسؤولية. فكّر فانارين وكأنه يتعب نفسه للعثور على جواب دقيق. ثم قال أخيراً:

— على من تعود المسؤولية؟ لا تعود على أحد. اسأل النائب العام فسيلقي التبعة كلها على الحاكم. واسأل الحاكم فسيؤكد لك أن النائب العام وحده هو المسؤول. وفي النهاية لن تجد مخطئاً!

— سأذهب في الحال إلى ماسلينيكوف لأطلععه على القضية.

- ستضيع وقتك! فهو - لكن عفواً، إنه ليس قريباً ولا صديقاً لك،
أليس كذلك - فهو، اسمح لي بهذه الكلمة، غبي ونذل، في منتهى
الغباء والنذالة! ...

تذكر نيكليودوف بأي الألفاظ حدّثه ماسلينيكوف عن فانارين.
فاستأذن، دون أن يرد عليه، ومضى إلى نائب الحاكم. وعزم أن يطلب
منه شيئين: أولاً السماح لماسلوف بالانتقال إلى مصلحة التمريض. ثم
إطلاق سراح عمال المقالع المسجونين دون داع، إن أمكن. ومهما
يكن نفوره من التماس هذا الطلب من رجل كان يحترمه فقد قال
لنفسه: إن هذا هو السبيل الوحيد لبلوغ مأربه.

عندما اقترب نيكليودوف من منزل ماسلينيكوف، رأى أمام
المدخل صفّاً من العربات المجهّزة للسير، العربات المقفلة، العربات
التي يجرها جوادان، العربات الفاخرة التي تجرها أربعة جياد،
وتذكر أن هذا اليوم هو يوم الإستقبال عند السيدة ماسلينيكوف، يوم
الاستقبال الذي دعاه زوجها إليه بإلحاح. ومن عربة فخمة، واقفة أمام
مدخل الدرج، عمد الخادم المكلف بإدخال المدعوين، وهو خادم بهي
الطلعة، عليه وشاح من الفرو، وفي قبعته زينة من ريش، إلى مساعدة
سيدة على النزول، وقد رفعت السيدة ذيل ثوبها فأرت ساقها الهزيلة
المغطاة بجورب حريري أسود. وبين العربات التي كانت تنتظر في
الفناء، تعرّف نيكليودوف عربة كورتشاغين. وعندما شاهده حوذيها
العجوز، السمين والأحمر الوجه، رفع قبعته، وابتسم له ابتسامة يمتزج
فيها الاحترام والندالة العائلية.

لم يكد نيكليودوف يسأل البواب إن كان ميشيل ايفانوفتش في منزله. حتى ظهر هذا بشخصه في أعلى السلم. كان يودّع ضعيفاً لا بد أن يكون شخصية ذات أهمية كبيرة، ذلك أنه كرمه. مرافقته إلى أدنى الدرج والواقع أن نيكليودوف تعرّف فيه أحد كبار الموظفين في الدولة، كان يحدث ماسلنيكوف بالفرنسية، وهو ينزل السلم، عن اللوحات الحية التي يُنوي إقامتها لمصلحة أحد أعمال البر والإحسان. وأبدى رأيه في أن هذه هي المشاغل الممتازة للاتقة بالسيدات، فهتف قائلاً:

— هنّ يتسلين والمال ينهمر عليهن! فلّيتسلّين وليباركهن الله.

لكنه توقف فجأة عن متابعة أفكاره الأخلاقية، وهتف:

— عجباً! هوذا نيكليودوف الطيب! كم طال غيابك عنا! إذهب بسرعة وقدم واجباتك للسيدة. قال كورتشاغين صاروا فوق!

وأضاف وهو يمدّ ظهره العريض للخادم الذي قدّم له معطفه باحترام:

— ونادين بوكسهوفدن أيضاً! وجميع جميلات المدينة... إلى اللقاء، يا عزيزي.

وشدّ لآخر مرة على يد ماسلنيكوف الذي التفت إلى نيكليودوف حالما انصرف الزائر المهم:

— لنصعد إلى قاعة الاستقبال بسرعة. ما أعظم سروري برويتك!

بدا مهتاجاً. أمسك نيكليودوف من ذراعه، وجرى بخفة الشباب، على الرغم من بدانته، وجرّه إلى السلم هذا الهياج الفرح، كان سببه الرئيسي، كما شاهد نيكليودوف بوضوح، هو سروره بمظاهر الاحترام التي أبدّاها نحوه الموظف الكبير. إن اللطف الذي عامله به هذا الموظف الكبير، ولد فيه حماسة شبيهة بالتّي تلاحظها عند صغار الكلاب المنزلية عندما يداعبها صاحبها، أو يهزّها، أو يقبض على أذنها. فتُحرك هذه الكلاب ذيلها، وتتلوّى أو ترقص دائرة على نفسها، دون أي سبب. كل هذا، كان ماسيلنيكوف مستعداً لأن يفعله. لم يلاحظ ملامح وجه نيكليودوف الرصينة، فجرّه بفرح نحو القاعة، من غير أن يصغي إليه. كان من المستحيل مقاومته أو الاعتذار منه. وكان لزاماً على نيكليودوف أن يتبعه: وقال وهو يقوده عبّر البهو:

— سوف نتحدث في الأعمال، بعد قليل! ثم إنك تعلم أن كل ما تطلبه سأفعله!

وأمر الخادم قائلاً:

— انبئ الجنرالة أن الأمير نيكليودوف هنا.

ثم التفت إلى نيكليودوف وقال ممزحاً:

— ما عليك إلا أن تأمر فاطميك! لكن يجب أن ترى زوجتي أولاً، لا بد من ذلك. كفاني ما لقيته من عقاب، في ذلك اليوم، لأنني تركتك تنصرف دون أن آخذك للسلام عليها.

عندما دخلا قاعة الاستقبال، أرسلت له آنا اغناطينا، زوجة نائب الحاكم، أو «الجنزالة» كما كانت تُدعى، غمزة خفيفة من عينيها، غمزة لا أُلطف منها، من فوق حلقة الرؤوس التي أحاطت بأريكتها. وفي الطرف الآخر من القاعة، حول مائدة الشاي، جلست سيدات، يتحدثن مع رجال واقفين أمامهن. كان يُسمع دوي لا ينقطع من الأصوات الخفيضة أو الزامرة.

- جئت أخيراً! مالك تُعرض عنا؟ أغاضب أنت؟ وماذا فعلنا لك؟

مع هذه الكلمات التي توهم بأن بين نيكليودوف وبينها مودة صميمية، في حين أنه لم يكن بينهما شيء من ذلك، استقبلت آنا اغناطينا الوافد الجديد.

- بينكم معرفة، أليس كذلك؟ السيدة بيلافسكي، ميشيل ايفانتش شيرنوف... هيا، اجلس هنا، إذن مني! ميسي، تعالي إلى مائدتنا، سيُحمل إليك شاؤك...

وتابعت مخاطبة الضابط الذي كان يحدث ميسي، والذي اتضح انها نسيته اسمه:

- تعال إلى هنا، أرجوك، أيها الأمير. أتريد شاياً؟

قال صوت امرأة:

- لن تُقنعوني بذلك. لم تكن تحبه. هذا كل ما في الأمر.

- لكنها كانت تحب الحلوى الصغيرة.

فتدخلت سيدة أخرى عظيمة القبعة، متوهّجة بالحرير والذهب
والحجارة الكريمة:

– أنت لا تتركين أبداً هذه النكت الحمقاء.

– ممتاز هذا البسكويت، وخفيف جداً. أعطني أيضاً واحدة منه.

– أتسافرين قريباً إلى الريف.

– نعم، غداً. من أجل ذلك جئنا اليوم. ما أجمل هذا الربيع!
سيكون الجو بديعاً، تحت الشجر!...

كانت ميسي جميلة جداً. لقد وضعت على رأسها قبعة، وارتدت
فستاناً من نسيج مخطط أبرز إبرازاً رائعاً قامتها النحيفة. احمرّت
عندما لمحت نيكليودوف. وقالت له:

– ظننتك سافرت.

أجاب نيكليودوف:

– أنا على وشك السفر. إن أعمالي تستهلك وقتي كله، حتى إلى
هنا، ما جئتُ إلا للعمل.

– أرجوك أن تأتي لترى أُمي قبل سفرك. فهي بحاجة ماسة إلى
رؤيتك.

قالت ذلك واحمرت خجلاً لشعورها أنها تكذب، وازدادت
حمرة لشعورها أنه يعلم ذلك.

أجاب نيكليودوف بلهجة حرص على أن يجعلها لا مبالية:

– أخشى ألا أجد الوقت!

هزّت ميسي كتفيها هزاً خفيفاً، وهي مقبّبة الحاجبين، والتفتت إلى الضابط المتأنق الذي كانت تحدثه عندما دخل نيكليودوف، فسارع إليها ليأخذ من يديها فنجانها الفارغ، وصدّم الكراسي بسيفه وهو يمرّ..

– ... وأنت أيضاً، ينبغي أن تضحّي بنفسك في سبيل ملجئنا...

– لكنني لا أرفض ذلك! أريد فقط أن أحتفظ بمواردي للوحات الحية! سترين كيف سأكون في المستوى المناسب.

قال صوت بنبرة مرائية واضحة، وهو يضحك:

– سوف ترين ذلك.

كان يوم استقبال آنا اغناتفنا من أكثر الأيام تألقاً، وكانت ربة البيت في نشوة خالصة.

قالت لنيكليودوف:

– قال لي «ميكا» إنك تهتم بسجوننا. وأنا أفهمك أحسن فهم. قد تكون لميكا (ميكا هو زوجها الضخم ماسلينيكوف) أخطاؤه، لكنك تعلم كم هو طيب! جميع هؤلاء السجناء البائسين، هم أولاده، قال لي ذلك هو نفسه. إنه لذو طيبة...

وتوقفت لأنها لم تعثر على كلمة معبرة، على نحو كاف لتعرف
«طيبة» زوجها. وفجأة، التفتت، وهي تبتسم، إلى سيدة عجوز عابسة
الوجه، سيدة غارقة في شرائطها الليلية، دخلت قبل هنيهة.

بعد أن بادلها نيكليودوف بعض الكلمات التافهة، كما تأمر بذلك
المواضعات، نهض ليلحق بماسلينيكوف.

— أيمكنك أن تمنحني لحظة؟

— بدون شك! ما الأمر؟ لندخل من هنا.

أدخله ماسلينيكوف مكتباً يابانياً ملاصقاً لقاعة الاستقبال. وجلس
كلاهما قرب النافذة.

× × ×

- حسناً أنا في خدمتك. أتحب أن تدخن؟ لكن انتظر ثانية. سأتي بمنفضة قبل أن نتسبب بحادثة.. أنا مصغ إليك!

- أود أن أطلب منك معروفين.

اكفهرّ وجه ماسلنيكوف. لم يبق فيه أثر من الهياج الفرح، هياج الكلب الصغير الذي أنعم عليه صاحبه بالمداعبة. ومن قاعة الاستقبال وافّت ضوضاء أصوات، صوت امرأة تقول: أبدأ، أبدأ، لن أصدّقه! وأبعد منه صوت رجل يروي قصة تردد فيها، بلا انقطاع، اسم الكونتيسة فورونتسوف واسم فيكتور ابراكسين. وترافق ذلك كله بهمس مختلط وبقهقهات، حتى إن ماسلنيكوف كان يصغي بأذن، ويعير إيضاحات نيكليودوف أذناً أخرى شاردة.

بدأ نيكليودوف كلامه قائلاً:

- أولاً، أودّ أن أطلب منك مرة أخرى، شيئاً لهذه المرأة التي...

- آه! نعم، تلك التي حُكم عليها ظلماً، أعلم، أعلم!

– أود أن أرجوك نقلها إلى المشفى. قيل لي إن ذلك ممكن.

فكر ماسلينيكوف لحظة، وشفته مزمومتان، وتردد وهو يتكلف الوقار وقال:

– لا أعرف حقاً إن كان ذلك ممكناً. سأستخير عن ذلك. وسأُبرق لك غداً.

– قيل لي إن هناك كثيراً من المرضى، وأن هناك حاجة إلى ممرضات إضافيات.

– سنرى، سنرى. على كل حال، سأُبرق لك بالجواب.

أكد نيكليودوف:

– سأكون شاكراً لك أعظم الشكر.

ومن قاعة الاستقبال، تناهت فجأة قهقهة صاحبة: فقال ماسلينيكوف وهو يبتسم:

– اراهن أنه أيضاً هذا المهرّج فكتور... لا تستطيع أن تتصور كم يمكنه أن يكون مضحكاً!

واستأنف نيكليودوف:

– أما الموضوع الآخر الذي أودّ أن أحدثك عنه، هو أن في سجن الولاية فريقاً من مائة وثلاثة عاملين حُبسوا لمجرد أن جوازاتهم مضت مدتها. وهم في السجن منذ أكثر من شهر.

وَعَرَضَ تفاصيل القضية، فسأله ماسلينيكوف الذي عكس وجهه شيء من القلق ممتزج باستياء كبير:

— وكيف عرفت كل هذا، يا ترى؟

— كنت ذاهباً لرؤية سجين، وبما أنني كنت أمر في الرواق، استوقفني هؤلاء البؤساء ليرجوني...

— ومن ذلك السجين الذي ذهبت لرؤيته؟

— فلاح اتهم زوراً بإضرار النار، واهتممتُ بأن أجد محامياً يدافع عنه. لكن ذلك لا علاقة له بموضوع زيارتي. ما أود معرفته منك هو إن كان هؤلاء العمال لم يرتكبوا، بالفعل خطيئة غير كون جوازاتهم مخالفة للنظام، وفي هذه الحالة...

قاطعته ماسلينيكوف بلهجة حانقة:

— هذا من اختصاص النائب العام. آه! من هؤلاء القضاة! قل عنهم ماشئت! فعلى النائب العام أن يزور السجون، وأن يرى إذا كانت الاعتقالات قانونية. أجورهم تُدفع لهم من أجل ذلك، وهو لا يفعل شيئاً؛ إنه يلعب الهويست.

سأله نيكليدوف، وقد تذكر أن المحامي حذره من أن الحاكم والنائب العام سيلقي كل منهما المسؤولية على الآخر:

— بمعنى أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً؟

- كيف، لا أستطيع أن أفعل شيئاً؟ بلى، سآمر بالتحقيق. هتف صوت امرأة في قاعة الاستقبال:

- هذه غلطتها! إنها كبش الفداء!

وتعالت، مرة أخرى، القهقهة العامة.

اختتم ماسلينيكوف كلامه، وهو يطفئ سيجارته بين أصابعه الغليظة، أصابع يده البيضاء التي برزت فهيا فيروزة، فقال:

- اتفقنا، يا عزيزي، سأفعل ما هو ضروري. والآن، ما رأيك لو عُدنا إلى أولئك السيدات؟

لكن نيكليودوف أوقفه عند عتبة القاعة:

- قيل لي إن سجينين عوقبا بالجلد، في يوم غير بعيد، هل هذا صحيح؟

غدا ماسلينيكوف قرمزياً.

- آه! قيل لك ذلك؟ لكن، يا عزيزي، يجب حتماً ألا يُسمح لك بأن تدسّ أنفك في كل مكان! تريد أن تعرف كل شيء! هيا، هيا، فآنيت تناديننا.

وأخذ نيكليودوف من ذراعه مُظهراً الحماسة ذاتها التي أظهرها عند زيارة الشخصية الرفيعة المنزلة، لكن حماسته، في هذه المرة، لم تكن تأتي من الفرح بل من القلق. تخلّص نيكليودوف من قبضته.

واجتاز القاعة، دون أن يحيي أحداً، ودون أن يفوه بكلمة، ومرّ أمام الخدم الذين وثبوا ناهضين عند مرآه، ثم مر بغرفة الانتظار، وخرج إلى الشارع.

سألت آنيث زوجها:

— ماله؟ هل أزعجته بشيء؟

قال أحدهم:

— ذهاب على الطريقة الفرنسية...

— كيف على الطريقة الفرنسية! على طريقة الزولو...

— لقد كان دائماً هكذا.

نهض شخص ليخرج، ودخل آخر، واستؤنفت الثرثرة أشد من ذي قبل. استغل الجميع فصل نيكليودوف باعتباره موضوعاً ممتازاً للحديث، في يوم محدد من أيام الاستقبال.

في اليوم التالي، تلقى نيكليودوف من نائب الحاكم رسالة مكتوبة على ورق صقيل، ومزينة في أعلاها بشعار بديع. وفيها يذكر ماسلنيكوف أنه استخبر عن إمكان نقل المرأة ماسلوف إلى المشفى، فوجد أن الأمر ممكن على الأرجح. وفوق التوقيع الذي ازدان بالأحرف الأولى مكتوبة على نحو شديد التعقيد، كتب ماسلنيكوف «رفيقك القديم».

فلم يستطع نيكليودوف أن يمتنع عن الهتاف.

— الغبي!

لقد أذهلته كلمة «رفيق»، لأنه رأى فيها تنازلاً من جانب ماسلينيكوف. كان ماسلينيكوف يعتبر نفسه شخصية عظيمة الأهمية، وهو يشغل منصباً من أحقر المناصب... لقد اعتقد، وهو يكتب: «رفيقك»، أنه إن لم يرضِ غروره، فهو، على الأقل، يُثبت حرصه على أن ينسى عظمته الخاصة إزاء «رفيقه».

x x x

من بين أكثر الأحكام المسبقة تأصلاً وشيوعاً، حكم مسبق يقوم على الاعتقاد بأن لكل إنسان، في ذاته، بعض الصفات المحددة؛ فهو صالح أو شرير، ذكي أو غبي، نشيط أو خامل، وهكذا دواليك. ولا أساس لذلك، في الواقع. يمكننا أن نقول عن إنسان إن الصلاح أغلب عليه من الشر، والذكاء أغلب من الغباء، والنشاط أغلب من الخمول، أو العكس. أما ذلك الحكم المسبق ففيه تجاهل للسمة الحقيقية في الطبيعة البشرية، وهو خطأ نرتكبه يومياً. الناس كالأنهار، كلها من ماء واحد، لكن الواحد منها يكون عريضاً تارة، وضيقاً تارة أخرى، بطيئاً تارة وسريعاً تارة أخرى، دافئاً تارة وجليدياً تارة أخرى. والناس أيضاً يحملون في أنفسهم بذرة جميع الصفات الإنسانية. فهم يُظهرون هذه الصفة أحياناً، وتلك الصفة أحياناً أخرى، ويبدون في الغالب مختلفين عن أنفسهم، أي مختلفين عما يبدو عليهم في العادة. هذه التبدلات أندرُ عند البعض، وتحتاج إلى وقت أكبر لتتم، بينما هي أسرع عند آخرين وهي تتالي بتواتر أشد.

كان نيكليودوف ينتمي إلى الفئة الثانية. فقد كانت تحدثُ فيه

باستمرار تبدلات كاملة، مفاجئة، بتأثير أسباب شتى، جسدية أو أخلاقية. وفي هذا الوقت بالذات حدث أحد هذه التحولات.

إن الإحساس بالحماسة الفرحة الذي لاح له أنه سيجدد كيانه كله، بعد جلسة محكمة الجنايات، وبعد حديثه الأول مع كاتيوشا، كل ذلك قد اختفى. فلقد حوّل لقاءه الأخير لكاتيوشا كل شيء إلى رعب عميق أخذ يمتزج به، أكثر فأكثر، إحساس بالاستفزاز بل وبالاشمئزاز إزاءها. على أنه كان قد صمم على ألا يتركها، وعلى أن يتزوجها، عند الضرورة، إذا وافقت هي على ذلك، وتراجعت عن حركتها العاطفية الأولى. لكن هذا الاحتمال بدأ يبدو له الآن شيئاً فشيئاً، كأنه تضحية قاسية ومؤلمة.

في اليوم الذي تلا زيارته لماسلنيكوف، عاد إلى السجن ليرى كاتيوشا. فأذن له المدير برويتها، لكن في قاعة مقابلة النساء، لا في مكتبه، ولا في قاعة المحامين الصغرى، حيث كانت مقابلته الأخيرة. وكان للمدير، في هذا اليوم، تجاه نيكليودوف، لهجة وتصرفات مختلفة تماماً عن الأيام السابقة، بالرغم من طبيته الطبيعية، فلقد كان من نتائج زيارته لماسلنيكوف أمر موظفي السجن بموقف أكثر تحفظاً، نحو زائر غير متحفظ كهذا الزائر. قال له المدير:

— تستطيع أن تكلمها، لكنني أرجوك أن تتذكر ما قلته لك بصدد النقود... أما من حيث نقلها إلى المشفى، فإن نائب الحاكم شرفني بالكتابة إلي في هذا الموضوع... الأمر ممكن، وقد وافق الطبيب. لكن هي التي لا تريد! قالت إنها «ليست بحاجة إلى أن تذهب لتُفرغ

«مبولة الجُرب». آه! يا أمير، من الواضح أنك لا تعرف هذه الفئة الحقيمة!

لم يجب نيكليودوف بشيء. واتجه إلى قاعة مقابلة النساء، في حين أمر المدير حارساً بإحضار ماسلوف، كانت القاعة خالية عندما دخلها نيكليودوف. لكنه لم يكذب فيهما بضع دقائق حتى انفتح باب الصدر، وتقدّمت ماسلوف نحوه، صامتة وخجولة. شدّت على يده، وجلست قربه، وثمرت، دون أن تنظر إليه:

- اصفح عني، يا دم تري ايفانوفتش! لقد أسأت الكلام معك منذ ثلاثة أيام.

فبدأ نيكليودوف:

- ليس من حقي أن أصفح عنك...

وأردفت، وفي عينيها اللتين كانتا تميلان إلى الحول أكثر من عادتهما، تعبير بدا لنيكليودوف عدائياً ومتوتراً:

- ومع ذلك فيجب أن تتركني.

- لماذا يجب أن أتركك؟

- لا بد من ذلك، هذا كل ما في الأمر!

- كيف، هذا كل ما في الأمر؟

لم تجب، ورفعت إليه نظرة خبيثة، وقالت أخيراً:

— حسناً! يجب أن تتركني، كُف عن الإهتمام بي، أقول لك ذلك بصدق، كما أفكر فيه! ليس بوسعي أن أتحمل ذلك! إفهم هذا جيداً.

وكررت. وشفتها ترتجفان:

— أفضل أن أشنق نفسي!

أحس نيكليودوف أن هذا المنع ينطوي على قسط من البغض له، ومن استحالة الصفح عن إهانة ليس بوسعها أن تنساها، لكنه ينطوي أيضاً على شيء نبيل وجميل. وقد كان من أثر هذه الطريقة الحازمة والهادئة التي جدّدت بها المرأة الشابة منعها له من الإهتمام بها، تدمير جميع شكوك نيكليودوف. فألقى نفسه مرة أخرى في تلك الحالة من الحماسة والتأثر التي ألمّت به سابقاً.

أكد لها بصوت خافت وحازم:

— كاتيوشا، ما قلته لك، أنا مصر عليه. أرجوك أن توافقي على الزواج بي. وإذا رفضت ذلك، ومهما يطلّ رفضك، فسوف أظل بجنبك، وسوف أتبعك، وسوف أذهب إلى حيث يقتادونك.

فأجابت، وارتجفت شفتها مرة أخرى:

— هذا شأنك، وليس عندي شيء آخر أقوله لك.

أخذ نيكليودوف إلى الصمت، إذ أحسّ أنه لا يقوى على الكلام. ثم تجرّأ أخيراً وقال:

— كاتيوشا، سأذهب الآن إلى الريف لتسوية بعض الأعمال. وبعد

ذلك سأذهب إلى بترسبرج حيث سأهتم بقضيتك، بقضيتنا. وإذا شاء الله فسوف أنقض حكمك.

— سواء علي، نُقض أم لم ينقض. وستظل النتيجة واحدة إن وقع لي هذا الأمر أو ذاك...

توقفت وخُيِّلَ إلى نيكليودوف أنها تجاهد نفسها لكي تحبس عبراتها. وقالت بعد صمت طويل، متكلمة بسرعة شديدة، كأنها تريد أن تخفي اضطرابها:

— طيب! هل رأيت منشوف؟ أليس هؤلاء الناس أبرياء؟ أليس كذلك؟ هذا بديهي! وأنا أقسم على صحة ما أقول!

— نعم، أنا واثق أنهم أبرياء.

— ليتك تعلم أية عجوز رائعة هي!

فروى لها بالتفصيل كل ما علمه بصدد منشوف. ثم عاد إليها فسألها إن لم تكن بحاجة إلى شيء.

فأكّدت:

— لا، لست بحاجة إلى شيء، على الإطلاق!

ثم كان الصمت، مرة أخرى...

واردفت وهي تحدجه بنظرة من عينيها المائلتين إلى الحول:

— آه! بالنسبة إلى المشفى، سأذهب إليه، إن كنتَ ترغب في ذلك.
أما الخمر فسوف أحاول ألا أشربها بعد الآن!...

نظر نيكليودوف إليها في عينيها، دون أن يقول شيئاً، فرأى أن
عينيها تبتسمان. ثم قال:

— هذا حسن، حسن جداً.

ولم يَقوَ على أن يقول أكثر من ذلك. وفكّر في نفسه: «نعم، يمكنها
أن تتغيّر!» وأحسّ الآن، بعد شكوك الأيام السابقة، بشعور جديد
عليه، شعور الإيمان بقدرة الحب الكلية.

عندما عادت ماسلوفاً إلى غرفتها، بعد عودتها من هذه الزيارة
خلعت سترتها، وجلست على سريرها ويدها مستندتان إلى ركبتيها.

كانت الغرفة خالية، إلا من المسلولة، والمرأة التي كانت تُرضع
ابنها، والعجوز منشوفا، وحارسة السكة الحديدية. أما ابنة الكاهن
فقد تبين أنها مجنونة، ونُقلت أمس إلى المشفى. وأما النساء الأخريات
فكنّ في المغسِل.

كانت العجوز تنام، مستلقية على سريرها، والأولاد يلعبون في
الرواق. وقد علت ضحكاتهم وصرخاتهم. تقدّمت حارسة السكة
نحو ماسلوف، دون أن تنقطع عن سرد الجورب الذي أمسكته بيدها،
وسألته:

— حسناً! هل رأيته؟

لم تردّ عليها ماسلوفاً. كانت جالسة على سريرها، تحرك ساقيها
المتدليتين بحركة آلية.

فأعادت الحارسة الكرة:

- ماذا تجترين؟ الشيء الجوهرى ألا تياسى. كاتيوشا! تكلمي!

ظلت كاتيوشا على صمتها.

- الأخريات ذهبن إلى المغسل. يُقال إن كمية الغسيل ضخمة اليوم.

في الوقت نفسه، سُمعت في الرواق ضوضاء أقدام وأصوات. وظهرت المُقيمات في الغرفة على العتبة، حافيات، وكل منهن تحمل رغيفاً تحت ذراعها. فهرعت فيدوسيا إلى ماسلوف، واستخبرت، وهي ترفع إليها عينيها الزرقاوين الصافيتين كعيني الطفل:

- ماذا جرى، هل حدث لك ما يسوءك؟ انتظري، سأعمل لنا شياً...

وسألتها كورابليوفا:

- ترى هل غير رأيه؟ هل تخلّى عن الزواج بك؟

- لا لم يغير رأيه. أنا التي لا تريد ذلك. لقد أعلنت له أنني لا أريد ذلك.

فقالت كورابليوفا بصوتها الجهير:

- أما إنك لحمقاء!

فعلقت فيدوسيا:

- كل الحق معها. ما فائدة الزواج، إذا لم يستطيعا أن يعيشا معاً؟

فسألتها حارسة السكة:

لكن أنتِ نفسك، ألا يذهب زوجك إلى السجن معك؟

- زوجي، شيء آخر. كنا متزوجين عندما قبض علي، والقانون يجمعنا، أما هو فما فائدة الزواج به إذا لم يعيش معها؟

- اسكتي، يا بلهاء! ما الفائدة؟ إذا تزوج بها غمرها بالذهب!

قالت ماسلوفاً:

- قال لي: «سأذهب معك، أينما أرسلوك». وسيذهب بالتأكيد!

لكنني لا أبالي كثيراً، أجد أم لم يجرى. ولست أنا، على كل حال، التي طلبت منه المجيء. هو ذاهب الآن إلى بطرسبرج ليهتم بقضيتي. إنه قريب كل الوزراء، هناك. لكنني لست بحاجة إليه.

وافقتها كورابليوفا فجأة وهي تفتح حقيبتها، والظاهر أنها كانت تفكر في شيء آخر:

- أعلم ذلك! ما قولك لو شربنا شيئاً من الفودكا؟

رفضت ماسلوفاً:

- أما أنا فلا! إشربن بدوني.

× × ×

القسم الثاني

عندما علم نيكليودوف أن مجلس الشيوخ سينظر، بدون شك، في طعن ماسلوفاً على الحكم، خلال خمسة عشر يوماً، عزم على الذهاب إلى بطرسبرج، في هذه الفترة، ليقوم هناك بالمساعي الضرورية. ونوى أن يتقدم بالتماس للعفو، في حال رد الطعن، كما أشار عليه المحامي. وقد كرر له المحامي أن نجاح هذين الالتماسين: الطعن والعفو، يبدو بعيد الاحتمال، نظراً لقلّة وجاهة الأسباب التي استنداً إليها. ومن المحتمل جداً، أن ماسلوفاً ستنضم إلى قافلة المحكومين بالأشغال الشاقة التي ستغادر السجن منذ الأيام الأولى من حزيران. وبما أن نيكليودوف ظل مصراً على نيّته في اللحاق بها حيثما ذهبت، حتى إلى سيبيريا، فقد قرر أن يستغل الخمسة عشر يوماً من الإنتظار لزيارة أملاكه المتعددة واحداً بعد الآخر بغية تنظيم أعماله نهائياً.

قصد، أول الأمر، إلى «كوزمنسكوي». وكانت أقرب أملاكه وأكبرها وأكثرها مردوداً عليه. ولقد عاش فيها أثناء شبابه، وعاد إليها مرات. وذات يوم، جاءها، بناء على طلب أمه، بمدير أعمال ألماني مازال يديرها حتى الآن. وبما أن نيكليودوف نظّم معه جرداً للملكية

فيها، فقد كان يعرف معرفة عميقة وَضَعَ الفلاحين، وعلاقاتهم «بالمكتب» أي بإدارة الأملاك. وهي علاقات تؤول، على الإجمال، إلى تبعية الفلاحين المطلقة إزاء «المكتب» المذكور. كان نيكليودوف يعرف ذاك كله منذ أن كان في الجامعة يعتنق مذهب هنري جورج ويُعلنه على الملأ. ومعرفة بظروف كوزمنسكوي هي بالضبط التي حملته على أن يهب الفلاحين ملكية أبيه الصغيرة، وهي الملكية الوحيدة التي كان يملكها حينذاك. وفيما بعد، في الحقيقة، عندما أخذ ينفق لدى خروجه من الجيش، عشرين ألف روبل في العام، أصبحت معرفته بمصدر ثروته عبئاً عليه، وبذل جهده لا ليكفّ عن التفكير فيها فحسب، بل لينساها أيضاً كان يأخذ المال وينفقه، دون أن يهتم بمعرفة من أين يأتيه. لكن موت أمه، وتصفية تركتها، وضرورة تبني نظام جديد لإدارة أملاكه، كل هذا أيقظ فيه مسألة حقوقه وواجبات المالك. كان منذ شهر منهمكاً في هذه المسألة؛ وكان يُقرّ، من جهة أخرى، أنه لن يقوى أبداً على تغيير نظام الأشياء الراسخ، لأنه، على كل حال، ليس هو الذي يدير أملاكه، ولأنه يعيش بعيداً عن أراضيه، وما عليه إلا أن يقبض ريعها بهدوء.

على أن لقاءه ماسلوفاً هداه فجأة إلى مشاعر جديدة، في هذه النقطة وفي كثير من النقاط غيرها. لم يكن يخفي عن نفسه، أنه إذا شاء أن يصحب ماسلوفاً إلى سيبيريا، فسوف يُضطر إلى الإبقاء على علاقات معقدة وصعبة بعالم من الموظفين. وسيكون مهماً جداً أن يحافظ على وضع اجتماعي رفيع إزاءهم، وأن يمتلك المال، على وجه الخصوص. لكنه لم يكن أقل شعوراً بأن من المستحيل عليه، تجاه نفسه، أن يقبل بالحفاظ على وضع يراه منافياً للأخلاق. فتوصل إذن إلى ضرب من

التسوية. لقد قرر أن يتخلّص من أملاكه، لا بأن يهبها للفلاحين، لكن بأن يؤجرهم إياها بثمن بخس. ولا شك أن هذا الحل ليس الحل الذي كان يراه للمشكلة، نظرياً، لكنه كان، على الأقل، خطوةً إلى الأمام على طريق ذلك الحل، وانتقالاً من شكل فظ من أشكال الاضطهاد إلى شكل أكثر رحمة. وعلى كل حال، كان هذا التدبير هو وحده ما تسمح له الظروف باتخاذها.

وصل إلى كوزمنسكوي حوالي الظهر. لقد بسّط مفهومه للحياة، بلا علم منه، تبسيطاً شديد العمق، حتى أنه لم يخطر له أن يبرق لمدير أعماله كي يعلن عن زيارته. وعند نزوله من القطار، استأجر عربة عادية لتقله إلى بيته. كان الخوذي فلاحاً شاباً يرتدي قميصاً قطنياً، ويجلس على مقعده جلسة جانبية، مما ييسر له الحديث مع «النبيل». وزاده إقبالاً على الحديث أن جواديه القويين والفارحين كانوا يجريان على طول الطريق بنشاط محموم، بحيث لم يكن من حاجة إلى حثّهما. أخذ الخوذي يتحدث عن مدير أعمال كوزمنسكوي، دون أن يمرّ بباله أنه يتحدث إلى مالك القرية.

قال وهو يدور على مقعده، ويعبث بسوطه الطويل:

— هذا المحتال الألماني شديد التأنق في لباسه. وقد ابتاع عربة فخمة تجرها جياد رائعة: وهو يتنزّه فيها مع بورجوازيته حيثما يحلو له التنزّه! وفي هذا الشتاء، في عيد الميلاد، كان في بيته شجرة صنوبر جميلة، مزينة بشكل لا تجد له مثيلاً في الولاية كلها. آه! كم جمع من المال، هذا المستهتر! ولم لا؟ بوسعه أن يفعل ما يشاء! يقال إنه اشترى ملكية منذ زمن قريب.

لم يكن نيكليودوف ييالي بأن يعلم كيف يدير مدير أملاكه، لكن حكاية الخوذي تركت فيه، مع ذلك، أثراً مزعجاً، فقد كان يتمتّع بجمال النهار، وبحركة الغيوم الرمادية التي تغطي وجه الشمس لحظة، لتنتشع عنها بعد ذلك، على الفور، ويتأمل بإعجاب منظر الحقول التي كانت تحوّم فوقها رفوف القبّرات، ومنظر الغابات التي ارتدت حلتها الخضراء الندية، ومشهد المروج حيث أطلقت الخيول والأبقار. لكنه لم يكن يتمتع بذلك التمتع الكامل الذي يريده: كان هناك شيء يضايقه. وعندما تساءل ما الذي كان ينكد عليه مُتعتّه، عادت إلى ذاكرته كلمات الخوذي. ولم يمح هذا الانطباع من نفسه إلا عندما وصل إلى كوزمنسكاي وأخذ ينشغل بتصفية أعماله.

إن فحص سجلات «المكتب» وإيضاحات وكيله الذي كان يعرض، بسذاجة، المنافع التي تعود على الملكية من امتلاك الفلاحين للقليل القليل من الأراضي المحصورة ضمن الأراضي الإقطاعية، إن ذلك كله زاده إصراراً على قراره بالتخلي عن استغلاله أملاكه لحسابه الخاص. وقد أثبت له فحص السجلات وإيضاحات الوكيل أن ثلثي حقوله يزرعها اليوم مزارعوه، كما كانوا يزرعونها في الماضي، بأدوات متقنة الصنع، بينما يزرع الفلاحون الثلث الباقي؛ ويعطى هؤلاء أجرة خمسة روبلات عن كل خمسة آلاف متر. وبعبارة أخرى، كان الفلاح يتعهّد، مقابل خمسة روبلات، أن يفلح ويبذر خمسة آلاف متر، ثم يحصدها، ويجمعها ويدرسها وينقلها إلى مخزن الغلال، أي إنه يقوم بعمل يأبى أن ينفذه عامل بأقل من عشرة روبلات. وفضلاً عن ذلك، كان الفلاحون يدفعون ثمن

ما يقدمه لهم المكتب بأسعار مرتفعة جداً. أي أنهم كانوا يعملون ليدفعوا ثمن العلف والخطب والبطاطا. وكل ما كانوا يحتاجون إليه ليعيشوا، كانوا يشترونه من المكتب، بحيث أن أجرتهم لم تكن أقل بمرتين فقط، لكن بنحو أربع مرات.

لا شيء من ذلك كله كان جديداً على نيكليودوف، لكن ذلك بدا له جديداً، ودُهِش لأنه بقي هذا الزمن الطويل دون أن يدرك ما في مثل هذا الوضع من شذوذ. وأخذ مدير الأعمال، من جهته، يدلل له بكثير من المجاملة على مساوئ المشروع الذي تصوّره وأخطاره. وقال له إنهم سيضطرون على بيع جميع مواد المزرعة بثمان بخس، إذ لن يدفع فيها أحد ربع قيمتها. وأكد له أن الفلاحين سيُفسدون الأرض، دون أن ينتفعوا هم أو ينفعوا غيرهم. غير أن نيكليودوف ظل مقتنعاً، مع ذلك، بجمال الفعل الذي سيُقدم عليه بإعطائه أرضه للفلاحين، وبحرمانه نفسه من الجزء الأكبر من عائداته. ولذلك قرر أن يُنهي القضية مباشرة قبل أن يعود. فعهد إلى مدير الأعمال ببيع البذار والمواشي وجميع المواد وأمره أن يخبره بذلك تباعاً، ورجاه أن يجمع، في اليوم التالي، فلاحي كوزمنسكوي والقرى المجاورة، لكي يُطلعهم بنفسه على قراره، ولكي يتفق معهم على بدل الإيجار الجديد.

خرج نيكليودوف من المكتب ليتنزّه حول البيت، وهو مفتون بالقوة التي تصدّى بها لحجج المدير، وبتفانيه في التضحية من أجل مصلحة الفلاحين. وسار بحذاء الرياض التي كفَّ أهل الدار عن تعهّد ورودها؛ واجتاز ملعب كرة المضرب الذي اجتاحه الشوك

والهندباء البرية؛ ودلف إلى ممر الزيزفون حيث اعتاد أن يدخن سيجاره، وحيث بدأ مشروع حبه العابر مع السيدة كيريموف الجميلة التي كانت تزور أمه. وعندما صمم خطة الخطبة التي كان ينوي أن يوجهها في اليوم التالي إلى الفلاحين، رجع إلى البيت، وتناول الشاي مع مديره، وانتهى معه من تسوية تجهيزات تصفية ملكيته، وصعد لينام في الغرفة التي أعدت له، وهي غرفة مخصصة للضيوف العابرين، وهو هادئ الضمير، راضٍ عن نفسه، فخور بها.

كانت غرفة صغيرة مثالية النظافة، عُلِّقت على جدرانها مناظر من فينيسيا، وقامت بين نافذتيها مرآة، ووضِع على طاولة، في زاوية منها، قرب السرير ذي النوابض، إبريق ماء وكأس وشمعة وكبريتة ومطفأة. وعلى الطاولة الكبرى، أمام المرآة، مُدَّت حقيبة نيكليودوف التي يحتوي أحد جيوبها، إلى جانب أدوات الزينة، على نحو اثني عشر كتاباً، في الحقوق وعلم الإجرام، روسياً وألمانياً وإيطالياً، ورواية إنكليزية. وقد آلى نيكليودوف على نفسه أن يقرأ هذه الكتب في فترات الفراغ التي يتركها له فحص أملاكه. لكنه عندما رآها، وهو يدخل الغرفة أحسَّ أنه على ألف فرسخ من هذه المؤلفات ومن المسائل التي تعالجها. كان رأسه مشغولاً بشيء آخر، وكان الوقت متأخراً. فآثر أن ينام استعداداً لمواجهة النقاش مع الفلاحين، في الصباح.

كان في زاوية من الغرفة مقعد عتيق من الأكاجو المرصع كان دائماً في غرفة أمه. وقد شعر نيكليودوف، لدى رؤيته، بانفعال لم

يكن يتوقعه. فكّر بأسف في البيت الذي سيلحق به الدمار، وفي الحديقة التي لن يتعهدا أحداً بالعناية، وفي الغابات التي سيكون مصيرها القطع، وفي جميع هذه الملحقات، هذه الاسطبلات والمرابط، هذه المخازن، وهذه الخيول وهذه الأبقار، وهي، وإن لم يُعَنَ بها، قد كلّفت الآخرين كثيراً من الجهد، وهي تشكّل كمية عظيمة من العمل. قبل لحظة، خُيِّلَ إليه أن من السهل التخلّي عن ذلك كله؛ أما الآن فإنه أخذ يأسف على هذه الأشياء، كما أخذ يأسف على أراضيه، وعلى هذا الدخل الذي قد يصبح عظيم القيمة عنده. شيئاً فشيئاً تعالت فيه ضروب الحجاج التي مؤدّاها أن من الجنون الذي لا يفيد منه أحد تنازله عن أراضيه للفلاحين وتركه إدارة أملاكه.

سمع صوتاً في داخل يقول: «هذه الأراضى، لا أستطيع أن أزرعها بنفسى، وإذن فليس بوسعى أن أستمّر في استغلالها كما أفعل الآن. ثم إنى سأذهب إلى سيبيريا، بدون شك. فلن يكون لى حاجة إلى البيت ولا إلى الأراضى.

فأجابه صوت داخل آخر: «كل هذا حسن، لكنك أولاً لن تقضى حياتك كلها في سيبيريا. وإذا تزوّجت فسيكون لك أولاد. أنت تسلمت أملاكك وهي في أحسن حال، ويجب أن تتركها كما تسلمتها. إن علينا التزامات نحو الأرض. التنازل والتخريب، كل ذلك سهل جداً؛ أما البناء فذلك صعب جداً. ينبغي لك أن تفكّر ملياً في المستقبل، وأن تقرّر ما ستفعله وتسوّى، على هذا الأساس، مسألة أملاكك. وينبغي لك أيضاً أن تتساءل إن كنت

تصرف هكذا إرضاء لضميرك حقاً، أم بالأحرى إرضاء للآخرين، لكي تتمكن من التفاخر، ولتعتقد أنك أرفع منزلة من الآخرين.

كان نيكليودوف مُكرهاً على الإعتراف بأن آراء الآخرين، وتفكيره فيما سيقوله الناس عنه، قد أثر تأثيراً كبيراً في قراراته. وكلما أعمل فكره ازداد عدد المسائل التي تنكشف له، وازداد عناؤه في العثور على أجوبة عن هذه الأسئلة.

ولكي يُفلت من هذه الأفكار، اضطجع بين الأغطية الباردة وحاول أن ينام، وهو يقول في نفسه إنه سيحلّ هذه المشكلات التي لم يتوصل إلى العثور على حل لها الآن، في اليوم التالي، ورأسه مرتاح. وطال انتظاره للنوم. ومن النافذتين المفتوحتين، مع هواء الليل البليل وأشعة القمر، وافاه نقيق الضفادع، وشدو العنادل الشاكي، بعيداً في الحديقة. بل لقد كان هناك عندليب، يشدو على مقربة منه، تحت النافذتين، في أليكة ليلك مزهرة فذكره غناء الطير والضفادع بموسيقا ابنة مدير السجن، ومن مدير السجن انتقل فكره إلى ماسلوف. ورأى من جديد الطريقة التي ارتجفت بها شفتاها في اللحظة التي قالت له فيها: «يجب أن تتركني وشأني، كُفَّ عن الإهتمام بي...» وفجأة أحس أن مديره الألماني سقط في بركة الضفادع، وأحس أن من واجبه إنقاذه. لكن بدلاً من ذلك تحوّل الألماني فجأة، أصبح ماسلوف التي كانت تناديه: «أنا محكومة بالأشغال الشاقة وأنت أمير!». «

حدّث نيكليودوف نفسه، وهو يهزّ رأسه ويرفعه: «لا، لن

أستسلم!» ثم تساءل: «أخيراً أم شراً ما أفعله؟ لا أدري... سأعلم ذلك غداً...»

ثم أخذ هو نفسه يغوص في البركة التي كان فيها مدير الأعمال وماسلوفاً، وانتهى كل شيء عنده بالنوم.

x x x

لم يستيقظ نيكليودوف، في صباح اليوم التالي، إلا في الساعة التاسعة، فحمل له الوكيل الشاب الذي أوكلت خدمته إليه، حذاءه ملمّعاً كما لم يُلمّع من قبل، ووضع قرب سرير إبيريقاً من ماء النبع البارد والصافي، وأبلغه أن الفلاحين بدؤوا يتجمّعون. وثب نيكليودوف عن سريره، وعادت إليه ذكرى حوادث البارحة. لقد اختفت مرة أخرى، مشاعر الأسف التي خالجتة عند تفكيره بأنه سيتنازل عن أراضيّه، ولم تترك وراءها أثراً. بل لقد ألقى نفسه مدهوشاً أشد الدهشة من أن تخالجه هذه المشاعر. وفرح، وهو يرتدي ثيابه، بالعمل الذي سيُقبل عليه، وامتزج فرحه، على الرغم منه، بشيء من الكبرياء.

رأى من نافذته حلبة كرة المضرب وقد اجتاحتها الهندباء البرية. وعلى هذه الحلبة كان يجتمع الفلاحون، بناء على أمر مدير الأعمال. لم تنقّ الضفادع عشية البارحة عبثاً. فقد تساقط منذ الصباح، من دون أن تهب الرياح، مطر دقيق ودافئ، علقت قطراته بالأوراق والأعشاب. وكان الهواء الذي ينفذ إلى الغرفة مشبعاً برائحة الخضرة ورائحة الأرض المبلّلة. رأى نيكليودوف الفلاحون يقدون إلى الحلبة.

كانوا يصلون، بعضهم وراء بعض، ويسلم بعضهم على بعض، ويتحلقون في حلقات، ويتحدثون، وهم يتوكلون على هراواتهم. ودخل الغرفة المدير، وهو رجل ضخيم، قصير وسمين، يرتدي سترة رسمية قصيرة. خضراء الياقة، ضخمة الأزرار. أبلغ نيكليودوف أن الجميع حضروا، لكن يمكنهم الانتظار حتى يتناول فطوره؛ وسأله إن كان يفضل الشاي أو القهوة.

أجاب نيكليودوف:

— شكراً، لا. الأولى أن نذهب لإنجاز هذه القضية.

ساوره إحساس كان أقل توقّعاً له منه للإحساس الذي ساوره في المساء السابق: إحساس بالتهيب والخجل أمام احتمالات حديثه مع الفلاحين، فقد كان يستعدّ لهم عن جميع أراضي القرية، بسعر زهيد، وتلك حسنة ثمينة، ومع ذلك فقد أحس بالضيق، دون أن يعرف لماذا؟ وعندما دنا من الفلاحين، ورآهم يكشفون عن رؤوسهم الشقراء والسوداء والرمادية، والمجعدّة والصلعاء، تزايد اضطرابه حتى أرتج عليه زمناً طويلاً. ظل المطر يهطل، مبللاً برفق الشعور واللحي ووبر القفطانات. لكن الفلاحين لم يأبهوا للمطر، وشخصوا بعيونهم إلى «النبيل»، منتظرين ما سيقوله لهم. وهو واقف في وسطهم، بلا حراك، مرتبكاً، عاجزاً عن التفوّه بكلمة.

وأخيراً قطع مدير الأعمال الصمت الشاق، وكان رجلاً ألمانياً واثقاً من نفسه، يحسن الروسية، ويعتبر نفسه خبيراً ممتازاً بالفلاحين. لقد كان هذا الرجل الضخم، الظاهر النعمة، ونيكليودوف الواقف

بجانبه، يشكّان تضاداً مثيراً مع الوجوه المتغضنة والأجسام المهزولة
لسائر الحضور.

قال المدير:

— اصغوا! هوذا الأمير يريد أن يُحسن إليكم! يريد أن يتنازل عن
الأراضي، مع أنكم لا تستحقونها!

فرد عليه فلاح قصير، أصهب، جذاب الحديث:

— وكيف لا نستحقها، يا فاسيلي كارليتش؟ كنا مسرورين جداً من
الأميرة المرحومة — ليمنعها الله ملكوت السموات — والأمير الشاب
لن يتركنا، على ما نرى.

واستأنف آخر، وهو رجل ذو وجه مدهوش، طویل اللحية.

— نحن ممتثلون احتراماً لأسيادنا، لكن الحياة قاسية.

فتدخّل نيكليودوف:

— دعوتكم لأعلمكم أيّ أتنازل لكم عن جميع أراضي، إذا أردتم.

لاذ الفلاحون بالصمت، وكأنهم لم يفهموا كلام النبيل، أو كأنهم
لم يستطيعوا أن يحملوا أنفسهم على تصديقها. وأخيراً تجاسر واحدٌ
منهم وسأل:

— وبأية طريقة، من فضلك، ستتنازل عن الأراضي؟

— أود أن أوجرّكم إياها بسعر زهيد، لتتمكنوا من الإنتفاع بها.

فعلّق شيخ:

— تجارة رابحة!

وأضاف آخر:

— على شرط أن تكون الأسعار ضمن قدراتنا!

— ولماذا لا نقبل الأرض؟

— هذه مهنتنا! فالأرض هي التي تُطعمنا!

وطلع صوت من الجماعة:

— من السهل أن نقول ذلك كله، لكن لا بد لنا من المال لندفع.

فلاحظ الألماني:

— الغلطة غلطتك إذا لم تجد المال! ما كان عليك إلا أن تعمل وتحفظ بمالك.

فاعترض فلاح نحيل، مستدقّ الأنف:

— ليس من حقك أن تتهمنا، يا فاسيلي كارليتش! تسألنا لماذا؟
«أنت تقول لنا: لماذا تركتَ حصانك يدخل حقل القمح؟» لكن لم يتركه أحد يدخل! أنا، عندما تكون الأيام طويلة، ويبدو كل يوم كأنه

أطول من سنة، أنا أشغل منجلي! وإذا وقع لي، أن نمتُ أثناء الليل، في المرعى، وأفلت الحصان إلى حقل الشوفان، سلخت جُلدي عني.

– عليكم أن تكونوا أكثر محافظة على النظام.

– من السهل التحدّث عن النظام، لكننا لا نستطيع أن نفعل المستحيل.

– قلتُ لكم دائماً أن اعملوا أسيجة حول حقولكم.

فقاطعه رجل قصير، ضامر، توارى خلف جماعة:

– حسن... أعطنا خشباً إذن. في الصيف الماضي أردتُ أن أعمل حظيرة. وقطعت شجرة، فأرسلتني إلى السجن ليأكلني القمل فيه، طوال ثلاثة أشهر، هذه هي أسيجتك...

استفسر نيكليودوف:

– ماذا يقول؟

فأجابه المدير بالألمانية:

– هذا أول لص في القرية. في كل سنة، يقطع لنا أشجارنا!

ثم التفت إلى الفلاح وقال:

– هذا لتتعلّم كيف تحترم ملك الآخرين!

فثار فلاح:

- أترانا مع كل هذا لا نحترمك! نحن مُكرهون على احترامك،
نحن بين يديك، وأنت تنتزع منا أحشاءنا!

- اسكت. يا صاحبي، لم يُهَنك أحد، فلا تُهن الآخرين.

- كيف لم يُهَنِّي؟ لقد أوسعني ضرباً، في السنة الماضية، وظلّت
الأمور هنا! الغني لا يُحاسب، هذا معروف!

- ما عليك إلا أن تعيش وفقاً للقانون.

هكذا استمرت المباراة الكلامية، وكانت مباراة غير متوقّعة ولا
مجدية، يتكلم فيها كل واحد، في الفراغ، دون أن يعرف لماذا.

فحاول نيكليودوف، وقد نفذ صبره، أن يعود بالحديث إلى
الموضوع الذي يَعنيه:

- طيّب! ماذا قررت بشأن هذا التنازل عن أراضي؟ هل توافقون؟
ما السعر الذي تدفعونه أجرة لها؟

- أنت المالك، وأنت تحدد السعر.

ذكَر نيكليودوف رقماً، أقل بكثير من الذي كان يُدفع عادة، لكن
الفلاحين أخذوا يساومونه مع ذلك، بصورة طبيعية، ويستكثرون
الرقم. كان نيكليودوف يتوقع أن يُستقبل اقتراحه بحماسة، لكنه
كان مخطئاً. إذ لم يُظهر الفلاحون رضاهم، إن كانوا راضين. كانوا

راضين، من غير شك، وقد استطاع نيكليودوف أن يستشفّ، من إحدى الدلائل، أن اقتراحه كان بالنسبة إلى الفلاحين، نعمة لم يتوقعوها. ذلك أن النقاش عندما تطرّق إلى مسألة معرفة مَنْ سيستأجر الأراضي، مجموع الفلاحين أو جماعة منهم فقط، نشب خلاف بين الفلاحين، وكادوا يتقاتلون لولا قليل. فقد أراد بعضهم أن يُقصي الفلاحين المعوزين، حتى يكونوا أقلّ عدداً حين يتقاسمون الأرباح. أما الآخرون الذين أُريد إقصاؤهم، فقد أخذوا يحتجّون ويتجادلون. وأخيراً، حُدّد السعر، بفضل تدخل المدير. واتفق على مواعيد الدفع، وتفرّق الفلاحون وهم يُكثرون من الصراخ والحركات، ورجع نيكليودوف إلى المكتب ليحرّر مع الألماني مشروع العقد.

سوّي إذن كل شيء كما كان يرغب ويأمل نيكليودوف، سيأخذ الفلاحون الأرض بسعر أقلّ بثلاثين بالمائة مما يدفعونه عادة، وإذا كان دخل نيكليودوف قد نقص إلى النصف، فقد ظل كبيراً جداً، ولا سيما مع الإضافة التي سيحملها بيع الغابات والمزرعة وأدوات الزراعة، كان كل شيء يبدو كاملاً، ومع ذلك كان نيكليودوف يشعر شعوراً متزايداً بالضجر والحزن والضيّق. حُيِّل إليه أن الفلاحين، بالرغم من كلمات الشكر التي وجهها إليه بعضهم، لم يكونوا راضين كما كان يأمل. فكأنهم كانوا ينتظرون شيئاً أكثر من ذلك. وقال في نفسه: إن حرم نفسه، في نهاية المطاف. من فائدة عظيمة دون أن يقدم للفلاحين حسنة تعادل تلك الفائدة التي حُرّم منها.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن سوّى نيكليودوف كل شيء مع المدير ورجع إلى المحطة، في عربة الألماني التي حدّثه عنها الحوذي

قبل يومين بعبارات صريحة، حيّاه الفلاحون وهم يهزّون رؤوسهم وقد بدت عليهم الحيرة؛ وكأنما كانوا يتخاصمون فيما بينهم، وكأنهم كانوا مستائين. وكذلك كان نيكليودوف مستاءً من نفسه، دون أن يعلم لماذا؛ خُيِّل إليه أنه فشل في مشروعه وأحس بنفسه حزيناً، خجلاً على الرغم منه.

x x x

ومن كومنسكوي قصد نيكليودوف إلى الملكية التي جاءته من عمّته، وهي نفسها التي عرف فيها كاتيوشا قديماً. وهنا أيضاً، أراد أن يتفاهم مع الفلاحين على التنازل عن أراضيّه. وكان ينوي، بالمناسبة نفسها. أن يجمع كل المعلومات التي يمكنه الحصول عليها بصدد كاتيوشا وابنها. وهل مات ابنها حقاً، وفي أي الظروف؟

وصل إلى بانوفو في الصباح الباكر، وأذهله أن يرى، وهو يدخل الفناء، مافي المباني جميعها من خراب، ولاسيما في البيت الإقطاعي القديم. فسقف الحديد الذي طلي قديماً باللون الأخضر، احمرّ بتأثير الصدأ. ورفع الهواء في مواضع عدة. وسُرقت الألواح التي تغطي الجدران في نقاط عدّة، في الأجزاء التي يسهل اقتلاعها منها. وبرزت من الجدران مسامير ضخمة مغطاة بالصدأ. وتلفت درجات الخشب وأفاريز درج المدخل وتحطّمت؛ واستبدلت الألواح بكثير من زجاج النوافذ؛ وفي الداخل، كان كل شيء وسخاً ورطباً، بدءاً من الجناح الذي كان يُقيم فيه الوكيل حتى المطابخ والاسطبلات. الحديقة وحدها لم يُصبها الدمار؛ على العكس، لقد نمت نماءً حراً وتغطّت بالزهور.

وخلف السياج، رأى نيكليودوف أغصان الكرز والتفاح والدراق
المزهرة، تنبسط كأنها غيوم ضخمة، بيضاء. وكانت أَيْكة الليلك
مزهرة، كما كانت قبل اثنتي عشرة سنة، حينما لعب مع كاتيوشا لعبة
ال«غوريلكي»^(١٧)، وسقط قرب هذه الأيكة، ووخزه شوك القراص.
وغدت الأرزية التي غرستها قرب البيت صوفيا ايفانوفنا، والتي رآها
نيكليودوف تكبر، شجرة مغطاة بطحلب مُجنزر، لطيف النعومة.
وكان النهر يجري حراً، مزبداً وصاحباً عند سد الطاحونة. وعلى
الضفة الأخرى، كان قطيع القرية يرعى، في المرج.

تقدّم الوكيل، وهو طالب مدرسة دينية فاشل، لاستقبال
نيكليودوف، وهو يتسم، ودعاه إلى الدخول، والابتسامة لا تفارقه،
وأجلسه في المكتب. وكأنما أراد، بابتسامته، أن يعبر عن شيء خاص.
رجع الحوذي الذي أوصل نيكليودوف بعد أن تسلّم حلوانه. وأطبق
على البيت صمت عظيم. مرّت أمام النافذة، بسرعة، فتاة تركض،
حافية القدمين، مرتدية قميصاً مطرّزاً وتنورة فلاحية. وكان يجري
خلفها فلاح يحتذي جزمة ضخمة مسّرة ترن مساميرها على
الدرب المطروق.

كان نيكليودوف ينظر بصمت إلى الحديقة، وهو جالس إلى النافذة.
وكانت أنفاس الربيع البليلة ترد شعره عن جبينه المندى بالعرق، وتحمل
إليه رائحة ذكية من الأرض المقلوبة حديثاً. ومن النهر وافاه قرع
المخابط المنتظم على الغسيل، ممتزجاً بتكسر المياه في مجرى الطاحونة.

١٧- غوريلكي، لعبة شعبية روسية.

تذكّر نيكليودوف كيف أنه كان يحب قديماً، عندما لم يكن سوى فتىً ساذجاً وبراءةً، أن يصغي إلى قرع المخابط على الغسيل المبلل بالماء، وإلى تكسّر المياه على سد الطاحونة، وكيف كان نسيم الربيع يردّ شعره عن جبينه. لم ير في ذهنه ذلك الفتى الذي كانه فحسب، بل خُيّل إليه أنه يستعيد نداوة الثمانية عشر عاماً ونقاؤها وحماستها الكريمة. وكان يعلم. في الوقت نفسه، كما يقع لنا في الحلم، أن ذلك وهم؛ فلم يعد ذلك الفتى موجوداً. فانتاب قلبه حزن عظيم.

سأله الوكيل بابتسامته التي لا تفارقه:

— في أية ساعة تأمر أن يُقدّم لك الغداء؟

— متى شئت، لكنني لست جائعاً. سأقوم بجولة في القرية.

— ألا تود أن تدخل منزلي أولاً. كل ما فيه حسن النظام. واعدني، إذا كان خارجاً...

— فيما بعد، لا الآن... لكن، أعلم إن كان هنا امرأة اسمها ماتريونا كارينا.

كان هذا اسم خالة كاتيوشا التي وضعت كاتيوشا عندها. فأوضح له الوكيل، من خلال ابتسامته الدائمة التي تعبر عن شيئين معاً؛ عن رغبته في أن يكون لطيفاً مع سيده، وعن يقينه بأن هذا السيد سيكون من رأيه، في كل شيء:

— كارينا؟ بالطبع، هي هنا! هي التي تُدير الحانة. إني أوتّبها،

وأهدّدها بالطرد إذا لم تدفع لي، لكن الشفقة تغلبني. فأرثي لها.
العجوز المسكينة، عليها أن تعيل صغارها!

- أين تسكن؟ أود أن أراها.

- في آخر القرية، في الجانب الآخر، البيت الثالث قبل الأخير.
ستجد على يسارك بيتاً من القرميد، بعده مباشرة، ستجد الحانة. لكن
الأفضل أن أرافقك...

- لا، شكراً، سأعثر عليه. في أثناء هذا الوقت، أرجوك أن تجمع
الفلاحين أمام البيت. عليّ أن أتفق معهم بشأن الأراضي.

x x x

على الدرب الذي يمرّ بالمرج وراء الحاجز، لقي نيكليودوف الفتاة الفلاحة التي رآها تركض أمام البيت. كانت عائدة من القرية، وهي ماتزال تجري مسرعة بقدميها الكبيرتين الخافيتين. كانت يدها اليسرى تُساير جريها بحركتها المتسقة، في حين شدّت إلى صدرها، بيدها اليمنى، ديكاً أحمر كان يُرقص عُرفه الأرجواني ويحتفظ بمظهر الهدوء الكامل، وهو ييسط ويقبض ساقيه السوداوين، عندما اقتربت الفتاة من النبيل تمهلّت، وعندما مرّ بقربها وقفت، وجيته باحترام، قبل أن تستأنف جريها.

قُرب البئر، تجاوز عجوزاً تمشي حانية الظهر، وهي تحمل سطلاً ضخماً من الماء. وما إن رآته العجوز، حتى حطت سطلها بحذر، وجيته هي أيضاً باحترام شديد. كانت القرية تبدأ وراء البئر. كان النهار صحواً وحاراً، بل مسرف الحرارة بالنسبة إلى الفصل. كانت السحب تتراكم لتغطّي السماء فترة من الزمن. وكان الشارع الصاعد الذي يشكّل القرية مفعماً برائحة الزبل، وهي رائحة حادة، لاذعة، لكنها ليست كريهة، تنبعث من العربات التي تصعد الشارع،

ومن أكوام الزبل المجموعة في الأفنية المفتوحة الأبواب. وكان الفلاحون الذين يسرون خلف العربات، حفاة الأقدام، قد تلطّخت قمصانهم وبناطيلهم بالزبل، ينظرون نظرات فضولية إلى هذا النبيل الطويل، القوي البنية بقبة اللبد الرمادية المزدانة بشريط حريري يلتمع في الشمس، والذي كان يضرب الأرض، لدى كل خطوتين، بعصاه الكثيرة العقد، الفضية المقبض. وأخذت النساء يخرجن من البيوت ليتطلعن إليه، مشيرات إليه الواحدة للأخرى، وهن يلاحقنه بنظراتهن. وأمام إحدى البوابات، استوقفت نيكليودوف عربة كبيرة، أثناء مرورها، محملة إلى أعلاها بالزبل المكووم. وانهمك فلاح شاب يحتذي خفّاً غليظاً من لحاء الخشب، طويل الساقين، بإخراج الجياد من الشارع. وعبر البوابة مهر رمادي مائل إلى الزرقة، وعندما رأى نيكليودوف أجفل، وارتمى على أمه، واضطرب وصهل. كل ذلك على مرأى فلاح عجوز، نحيل وضامر، حافي القدمين هو أيضاً، يرتدي بنطالاً مخططاً، وقميصاً خارجياً طويلاً ارتسمت عليه العظام المستدقة للسلسلة الظهرية. فلما بلغت هذه العربة الشارع، تقدّم الشيخ إلى العتبة وانحنى أمام نيكليودوف:

- لعلك ابن أخ سيدتنا المرحومتين؟

- نعم، بالضبط.

فاستفهم الرجل الذي بدا محباً للكلام.

- طاب مقدّمك! أتت لترانا؟

- نعم...

ثم سأله نيكليودوف، وقد حار فيما يقول:

- وأنتم، كيف حال حياتكم؟

فأجاب الشيخ وقد ظهر عليه السرور بهذه المناسبة التي أتاحت له الحديث:

- كيف حال حياتنا؟ وأسفاه! بئسة أشد البؤس...

فدهش نيكليودوف وهو يدنو من البوابة:

- بئسة، لماذا؟

فردّ الشيخ:

- أتسمّي حياتنا حياة؟ انظر، إن في بيتي اثني عشر شخصاً، علي أن أطعمهم!

وأشار بإصبعه إلى امرأتين شمّرت كل منهما عن كمّي قميصها، ورفعت تنورتها إلى ما فوق الركبة، ووقفت والمذراة بيدها، على ما بقي من كومة الزبل:

- يلزمني أن أشتري، في كل شهر، ستة أمداد من الطحين، فمن أين آتي بها؟

- لكن، أليس عندك طحينك؟

فهتف الشيخ بابتسامة مستخفة:

- طحيني أنا؟ ما أملك من أرض يكفي ثلاثة أشخاص بالضبط!
في عيد الميلاد، تنفذ المؤونة كلها.

- وكيف تفعل، حينئذ؟

- لا بد لنا من تدبّر أمورنا! وأنظر كيف: احد أبنائي يخدم في
الجيش، ثم إننا نستقرض من عند سيادتكم. وليتنا، على الأقل، نجد ما
نسدد به الضرائب!

- وما مقدار الضرائب؟

- سبعة عشر روبلاً، علينا وحدثنا فقط! آه! يا إلهي إني لأتساءل
كيف أستطيع التخلص من هذه الورطة!

سأله نيكليودوف، وهو يتقدّم في الفناء، بحذاء كومة الزبل التي
ملأت أنفه برائحتها القوية.

- أستطيع دخول بيتك؟

فأجاب الشيخ:

- وكيف لا!

وسار أمام نيكليودوف بحركة سريعة من قدميه الخافيتين، وفتح له
باب المنزل، فأخذت المرأتان، وهما تصلحان خماريهما وتخفضان
تنورتيهما، تنظران بشيء من الخوف إلى هذا النبيل النظيف بأزرار
كمّيه المذهبة، والذي بدا كمن يريد أن يدخل منزلهما.

في المنزل، عبّر نيكليودوف رواقاً صغيراً. ومن الكوخ الخشبي الذي في الصدر، خرجت طفلتان بقميصهما. دخل نيكليودوف، وهو ينحني ويرفع قبعته عن رأسه، الغرفة الضيقة والوسخة التي انتشرت فيها رائحة المطبخ اللاذعة والتي سد الطريق فيها نولان كبيران. وقرب المدفأة جلست عجوز كشف كمّاهما المشمران عن ذراعين نحيلين، ويدين سوداوين برزت عروقهما.

قال لها الشيخ:

— هوذا نبيلنا، وقد دخل لزيارتنا.

حيّته المرأة وانحنت، وقالت:

— أهلاً بك.

وردّت كمّي قميصها على ذراعيها.

أعلن نيكليودوف:

— أردتُ أن أعلم بنفسي كيف تعيشون.

أجابت الفلاحة العجوز بجرأة وهي تهزّ رأسها بحركة ساخرة:

— تستطيع أن ترى كيف نعيش! الكوخ الخشبي يُنذر بالانهيار؛ ولاشك أن ذلك سيقتل أحداً، ذات يوم. لكن الشيخ يرى أنه حسن هكذا. نعيش كأننا القيصر. أنت ترى، أنا منهمكة بإعداد الغداء لنا وللعمال.

— وماذا ستأكلون؟

- ماذا سنأكل؟ أوه! سنأكل ما لذّ وطاب! الطبق الأول خبز وكفاس^(١٨)؛ والطبق الثاني كفاس وخبز.

وأخذت العجوز تضحك فأتحة فما ذهبت أسنانه.

فأصرّ نيكليودوف:

- لا، بل أرني بلا مزاح، ما ستأكلونه اليوم!

أمرها الشيخ:

- حسناً! أريه ذلك، أيتها الأم.

هزّت المرأة رأسها:

- ها! ها! أحببت أن ترى طعام الفلاحين! آه إنك لنبيّل مُضحك، لم أر مثلك قط! يريد أن يعرف كل شيء! الواقع أننا سنتناول الخبز والكفاس، ثم حساء الملفوف، ثم البطاطا.

- هذا كل شيء؟

أجابت العجوز وهي تبسم ابتسامة ماكرة وعيناها ملتفتان إلى الباب:

- وماذا تريد فوق ذلك؟ سنشرب جرعة من حليب بعد ذلك.

١٨ - كفاس: شراب مخمر ليس فيه كحول. وهو يصنع من الطحين والشيلم وحبوب منتشة أخرى.

رأى نيكليودوف، من الباب الذي ظل مفتوحاً، أن الرواق يغصّ بالناس، كان بينهم صبيان وبنات، ونساء مع أطفالهن على أذرعهن. كل هذا الجمهور المزدحم على الباب، كان يتأمل ذلك النبيل الغريب الذي جاء يسأل عن طعام الفلاحين. ومن هنا جاءت، بلاشك، ابتسامة العجوز الماكرة؛ وكان واضحاً أنها كانت فخورة بالطريقة التي استطاعت أن تتصرّف بها مع السيد النبيل.

أردف الشيخ:

نعم، يمكن القول إن حياتنا حياة كثيفة.

ثم التفت إلى الفضوليين الذين هموا بالدخول:

— هيه! قولوا لي، ماذا جئتم تفعلون هنا؟

قال نيكليودوف وقد أحسّ بمزيج من الضيق والحنج الذي لم يشأ أن يتعمّق في أسبابه:

— طيب! الوداع!

قال الشيخ:

— نشكرك بكل احترام لمجيئك.

في الرواق، تنحى الجمهور بعجلة، ليفسحوا الطريق لنيكليودوف. وبينما كان يتابع طوافه، في الشارع، شاهد صبيين حافيين يتبعانه، ارتدى أكبرهما قميصاً وسخاً لاشك أنه كان أبيض من قبل، وارتدى الآخر قميصاً وردياً مرقّعاً. التفت نيكليودوف إليهما.

سأله الصبي ذو القميص الأبيض:

- والآن، إلى أين تذهب؟

أجاب نيكليودوف:

إلى منزل ماتريونا كارينا! أتعرفانها؟

أخذ الصبي الصغير ذو القميص الوردى يضحك. وأجاب الصبي الأكبر:

- أية ماتريونا؟ العجوز؟

- نعم، هي عجوز.

- إذن هي سيميونيكا، وهي في الطرف الآخر من القرية.
سنوصلك إليها. هيا، يا فييدكا، لمرافقه!

- والجيا؟

- لا أهمية لذلك!

وافق فييدكا وصعد الثلاثة شارع القرية الطويل.

× × ×

أحس نيكليودوف براحة أكبر مع هذين الصبيين اللذين سَلّياه
بثرثرتهما، طوال الطريق. كفّ أصغرهما، ذاك الذي يرتدي قميصاً
وردياً، عن الضحك، وأخذ يتكلم بذكاء وجدّية مثل رفيقه.

سأل نيكليودوف:

— طيب! مَنْ أفقر الناس في القرية؟

— أفقر الناس؟ ميخائيل فقير، ثم سيميون ماكاروف، ومارفا
أيضاً...

— لكن آيسيا أفقر الجميع، حتى أنها لا تملك بقرة، إنها تتسوّّل!

فاعترض الصغير فيديا:

— لا تملك بقرة، لكن أسرتها مؤلفة من ثلاثة أشخاص، أما أسرة
مارفا فهي من خمسة أشخاص.

— نعم، لكن آيسيا أرملة!

- هذا صحيح، لكن مارفا كالأرملة أيضاً، فزوجها ليس معها.

استفهم نيكليودوف:

- وأين زوجها؟

أجاب أكبر الصبيين، مستخدماً التعبير الشائع:

- يأكله القمل في السجن...

قاطعهُ الأصغر:

- قَطَعَ شجرتي بتولة، في السنة الماضية؛ فزُجَّ حينئذ في السجن.
مضى على ذلك أكثر من ستة أشهر، وقد أخذت امرأته تتسول. لها
ثلاثة أولاد، ثم أمها التي يجب أن تعولها.

- وأين تسكن؟

قال الصبي وهو يشير بإصبعه إلى ساحة صغيرة، فيها صبي صغير،
أبيض الرأس، يجر ساقيه المقوستين جراً.

- ها هو ذا بيتها؟!

صرخت من المنزل امرأة ماتزال شابة، ترتدي قميصاً وتنورة
وسخين جداً حتى كأنهما غُطيا بالرماد:

- فاسكا، يا عفريت، هلا رجعت فوراً!

واندفعت في الشارع كالمدعورة، وأمسكت بابنها وحملته إلى الداخل، وكأنها تخاف أن يؤذيه نيكليودوف.

كانت هذه المرأة هي نفسها التي سُجن زوجها لأن قطع شجرتين من غابات نيكليودوف.

سأل نيكليودوف، بينما كانوا يقتربون من نهاية القرية:

— وماتريونا، هل هي فقيرة أيضاً؟

أجاب الصبي ذو القميص الوردي بلهجة واثقة:

— كيف تكون فقيرة؟ إنها تبيع الشراب!

ودّع نيكليودوف رفيقيه، عند باب ماتريونا. كان منزل العجوز صغيراً لا يحتوي إلا على غرفة واحدة. وعندما دخلها نيكليودوف، كانت ماتريونا ترتبها بمساعدة كبرى حفيداتها. وخرج طفلان آخران من الزاوية عندما شاهدوا الوافد الجديد. وجاء إلى الباب ووقف أمامه واتكأ على حافة الباب، وقد بدا عليهما الخوف والفضول

سألت العجوز بصوت حاد، وقد ساءها أن يدخل عليها مَنْ يُزعجها في عملها.

— ماذا يلزمك؟

ذلك أنها كانت، بصفتها صاحبة حانة، متمسكة بالحذر من الوجوه الغريبة.

— أنا مالك القرية، أود أن أكلّمك...

فحصته العجوز بعينيهما الصغيرتين، دون أن تجيب، وفجأة انقلب
تعبير وجهها:

— آه! أهذا أنت، يا حملي! وأنا العجوز الغبية التي لم تعرفك!
كنت أقول في نفسي: هذا عابر سبيل، من غير شك، وهو يريد أن
يسألني شيئاً. اغفر لي، بجاه يسوع!

كانت تتكلّم بصوت عذب ومنعم:

سألها نيكليودوف، وهو يشير بعينه إلى الباب الذي ظل مفتوحاً،
حيث وقف الأولاد، وحيث ما لبثت أن ظهرت امرأة شابة، نحيلة،
تحمل طفلاً يلبس أظماراً مرقّعة، كائناً صغيراً، بائساً، شاحباً وعليلاً،
لكنه يحتفظ مع ذلك بالإبتسامة على شفّتيه:

— ألا أستطيع أن أقول لك بضع كلمات، على حدة.

صرخت ماتريونا وهي تستدير إلى الباب:

— علام تتفرّجون هنا؟ انتظروا قليلاً حتى آتي بعصاي! اخرجوا
بسرعة وأغلقوا الباب!

هرب الأولاد الثلاثة. وابتعدت المرأة الشابة، مغلقة الباب خلفها.

— وأنا التي كانت تتساءل مَنْ عساه يكون! وإذا بك أنت نفسك
يا سيدي، يا عصفوري الذهبي، يا جوهرتي التي لا أمل من رؤيتها.

ودعته إلى الجلوس بعد أن مسحت بعناية مقعداً أشارت إليه:

- اجلس، يا صاحب السيادة، اجلس على هذا المقعد. وأنا التي كنت أظن أن الشيطان قد جاء ليعذّبني، وإذا به نبيلي، والمحسن إلي، ومُعيلنا! اغفر لي! السن هو الذي أعماني.

جلس نيكليودوف. وظلت العجوز واقفة أمامه، ممسكة ذقنها بيدها اليمنى، وساندة بيدها اليسرى مرفق يدها اليمنى. وواصلت كلامها بصوتها العذب، المنعم:

- كم كبرت، يا صاحب السيادة! كنت، فيما مضى، جميلةً مثل لفّته، أما الآن، فمن الواضح أن لك همومك، أنت أيضاً.

- طيب... جئتُ أسألك بعض المعلومات. أما زلتِ تتذكرين كاتيوشا؟

- كاترين التي كانت في القصر؟ وكيف تسألني، إذا كنت أذكرها؟ هي ابنة أختي؟ كيف لا أذكرها؟ آه! كم ذرفت الدموع من أجلها! ذلك أني أعرف كل ما جرى. يا سيدي، من ذا الذي لم يُخطئ بحق الله والقيصر؟ الشباب هو سبب كل شيء. ما العمل؟ ثم إن كثيرين غيرك، لو كانوا في مكانك لتركوها، أما أنت فكم كافأتها! مائة روبل، أعطيتها! وهي، ماذا فعلت؟ من المستحيل أن تقبل العودة إلى جادة الصواب! آه! لو أصغت إلي لكانت سعيدة! يجب أن أقول، وإن كانت ابنة أختي، إنها فتاة لا عقل لها. كان باستطاعتها أن تستمر في عمل مناسب أنا نفسي دبرته لها! لكن لا، لم ترض أن تتواضع

فأهانت سيدها. أمن حقنا، نحن، أن نُهين أسيادنا؟ وبطبيعة الحال، طردها سيدها حينئذ. وفي عمل آخر حصلت عليه بعد ذلك، لدى حارس للأحراج، عمل مناسب أيضاً، لم تشأ أن تبقى أيضاً.

— أود أن أسألكِ إذا كنتِ تعرفين أين ابنها. لقد وُلد عندكِ، أليس كذلك؟ أين هو؟

— بالنسبة إلى الطفل، خطرت لي أيضاً فكرة ممتازة. كانت كاتيوشا في حالة سيئة، وفقدنا الأمل في إنقاذها، فعمدْتُ الطفل وأرسلته إلى الملجأ. وكيف، إذا؟ لا يمكننا أن ندع ملاكاً يتألم، إذا ماتت الأم، أليس كذلك؟ بعضهم يتصرفون تصرفاً مختلفاً، فيحتفظون بالطفل دون أن يطعموه، ويذهب الطفل إلى العالم الآخر. أما أنا، فقلتُ في نفسي: «لم أفعل كذلك؟ الأفضل أن أكلف نفسي قليلاً وأن أبعث به إلى الملجأ. وبما أنه كان معنا شيء من المال، فقد بعثنا به إلى هناك.

— أتعرفين الرقم الذي سُجِّل به؟

— نعم، كان هناك رقم، بالتأكيد. لكن الملاك الصغير، المسكين مات رأساً عند وصوله. لقد قالت لي: «ما كدتُ أصل الملجأ حتى مات!».»

— مَنْ التي قالت لكِ؟

— المرأة التي حملت الصبي! إنها تسكن في «سكورودنو»، وهي امرأة كانت تقوم بجميع أنواع المهمات التي من هذا النوع، واسمها «مالانيا» وقد ماتت. كانت امرأة عظيمة الذكاء! هكذا كانت تفعل:

عندما كان يُحمل إليها الطفل كانت تحتفظ به في منزلها، بدلاً من أن تأخذه إلى الملجأ، وتطعمه، ثم يُحمل إليها طفل ثان فتحتفظ به فإذا صار عندها ثلاثة أو أربعة أخذتهم جميعاً إلى الملجأ. لكن ابن كاترين لم تحتفظ به أسبوعين، لأنه بدأ يذبل.

سألها نيكليودوف بصوت مرتجف:

- وكيف كان؟ طفلاً جميلاً؟

فأكدت العجوز وهي تغمز بعينيها المتعبتين:

- أوه! كان أجمل من أن يعيش. كان صورة تامة عنك!

- ثم مات؟ من سوء التغذية، بلا شك؟

- وكيف عساها تُحسن تغذيته؟ لم يكن الطفل طفل «مالانيا». كان المهم عندها أن توصله حياً إلى الملجأ. ثم إنها جاءت بالشهادات. وكانت كلها حسب الأصول. لقد كانت امرأة بارعة الذكاء!

على ذلك اقتصر ما استطاع نيكليودوف أن يعلمه بصدد ابنه.

× × ×

عندما خرج نيكليودوف من عند العجوز ماتريونا، بعد أن ودّعها، أبصر الصبيين، الأبيض القدر والوردي، ينتظرانه في الشارع. وجاء صبية آخرون فانضموا إليهم، وكذلك بعض النسوة اللواتي عرف بينهن تلك المخلوقة البائسة التي تحمل على ذراعها طفلها الصغير، الشاحب، الذي يرتدي أسماً مرقّعة. لم يكفّ الصبي عن الابتسام، عن ابتسامة غريبة تكشف عن قسماته الشائخة قبل أوانها. سأل نيكليودوف مَنْ تكون هذه المرأة.

فأوضح أحد الصبيين:

- هذه آنيسيا التي حدّثتك عنها! ذهبْتُ فجئتُ بها لتراها.

التفت نيكليودوف إلى المرأة وسألها:

- كيف تعيشين، ومم؟

أجابت آنيسيا وقد انهمرت دموعها:

- ممّ أعيش؟ من الصّدقة.

وظل الطفل الشائخ القسمات يبتسم، وهو يحرك ساقيه الصغيرتين، المهزولتين مثل قضيبين. أخرج نيكليودوف محفظته من جيبه وأعطى الأم عشرة روبلات. ولم يخط عشر خطوات حتى أقبلت عليه امرأة، ولدها على صدرها، ثم عجوز ثم عجوز أخرى. كلهن تحدثن عن بؤسهن وسألنه المعونة. فوزع نيكليودوف بينهن نحو خمسين روبلاً كانت معه. وقفل راجعاً إلى مكتب الوكيل، وهو في حزن عميق.

بادر الوكيل إلى لقائه بابتسامته الدائمة. وأنبأه أنّ الفلاحين سيجتمعون في آخر النهار. في هذه الأثناء، راح نيكليودوف يتنزه في الحديقة، على الدروب القديمة التي اجتاحتها العشب والتي انتشرت عليها أزهار التفاح البيضاء والوردية. وكان يمشي فتبدي أمام عينيه صور ما قد رأى. وفكر بحزن: «هؤلاء البؤساء يهلكون لأنهم لا يملكون الأرض التي يمكنها أن تطعمهم، هذه الأرض التي يزرعونها لبيع الآخرون محصولها إلى الأجنبي، وليشتروا بها الفراء والعربات والجواهر، وأشياء أخرى. عندما تجبس الخيل في مرج وترى كل ما فيه من عشب، فإنها تهزل وتهلك من الجوع إذا لم تمكنها من الانتفاع بالعشب الذي في المرج المجاور. وكذلك حال هؤلاء البؤساء. إنهم يهلكون دون أن يتبينوا ذلك لفرط ما ألقوا هذا النظام الذي يهدف، على وجه التحديد، إلى إهلاكهم: وهو نظام يُعدّ قتل الأطفال، وإنهاك النساء، وتجويع الشباب والشيوخ، من عناصره الرئيسية. وهكذا تنتهي بهم الأمور، شيئاً فشيئاً، إلى أن ينسوا تماماً الشر الذي يُثقل كواهلهم. وحينئذ تنتهي بنا الأمور، نحن فاعلي هذا الشر، إلى اعتباره طبعياً وضرورياً. ونحن، في كلياتنا وفي إدارتنا وفي صحفنا، نبحث في أسباب بؤس الفلاحين وفي مختلف الوسائل لمعالجة هذا البؤس،

ما استطعنا إلى البحث سبيلاً، بينما نُبقي على السبب الوحيد لهذا الشقاء، دون أن نلمّح إليه أبداً، مستمرّين في حرمان الفلاحين من الأرض التي يحتاجون إليها».

كل ذلك غداً واضحاً جداً بالنسبة إلى نيكليودوف، حتى أنه أخذ يدهش، أكثر فأكثر، من أنه لم يستطع إدراكه هذا الزمن الطويل. لقد أخذ يدرك أن العلاج الوحيد لبؤس الفلاحين هو أن نردّ لهم الأرض ليأكلوا من خيرها. كان الأولاد يموتون بسبب حاجتهم إلى الحليب؛ وكانوا يحتاجون إلى الحليب لأن ذويهم لا يملكون المراعي التي يرعون فيها بقراتهم. وتذكّر فجأة نظريات هنري جورج والحامسة التي راودته بهذا الصدد. ودُهِش كيف أمكنه أن ينسى ذلك كله: «لا يجوز أن تكون الأرض غرضاً للملكية الخاصة؛ لا يجوز أن تكون غرضاً للبيع والشراء، مثلها مثل الماء والهواء وأشعة الشمس. جميع الناس لهم حق متساوٍ في الأرض وفي جميع الخيرات التي تُنتجها».

حينئذ أدرك نيكليودوف من أين جاءه الخجل الذي خالجه عند ذكرى الترتيبات التي اتخذها في كوزمنسكوي. لقد أراد أن يخدع نفسه. فمع علمه أن الإنسان لا يملك الحق في امتلاك الأرض، إلا أنه اعترف لنفسه بهذا الحق وتنازل للفلاحين عن جزء من ملك يعلم، في أعماق نفسه، أنه لا يملك الحق في امتلاكه.

حدّث نفسه: «سأفعل اليوم شيئاً مختلفاً، وسأنقض بعد ذلك ما فعلته في كوزمنسكوي». وسرعان ما وضع مشروعاً جديداً يقوم على تأجير أراضي الفلاحين، لكن بحيث لا يعود بدل الأجرة عليه

بل على الفلاحين أنفسهم. وسوف يستخدمون هذا البديل لتسديد ضرائبهم وللقيام بالنفقات ذات النفع العام. لم يكن هذا المشروع هو المثل الأعلى الذي حلم به، لكنه لم يكن يرى، في الظروف الراهنة، حلاً آخر أقرب إلى ذلك المثل الأعلى.

عندما عاد إلى مسكن الوكيل، أنبأه هذا، بابتسامة معبرة عن عظيم حفاوته، أن الغداء جاهز. وهو يخشى فقط أن يكون قد شاط قليلاً، بالرغم من عناية امرأته بإعداده، بمساعدة فتاة تقوم بشؤون المنزل.

كانت الطاولة مغطاة بغطاء غليظ. ومن صفحة الحساء العتيقة -آخر أثر من ترف القصر القديم- تصاعد بخار حساء البطاطا، المعمول بلحم الديك الذي رآه نيكليودوف قبل ساعات يمد ساقيه السوداوين، هذه تارة وتلك تارة أخرى. كان الآن مقطّعاً، وقد رأى نيكليودوف الساقين نفسيهما يسبحان في الحساء. بعد الحساء، ظهر الديك أيضاً على المائدة، مقطّعاً إلى قطع ما يزال عليها بقايا من الزغب المحمّر. وبعد ذلك قدمت الحلوى بالجبن الأبيض مع كثير من الزبدة والسكر. ومع أن الطعام كان متواضعاً، فقد أكل نيكليودوف بشهية. لم يكذبته لما كان يأكل، إذ انصرف بكل فكره إلى مشروعه الجديد الذي ذهب بضجره وبتكدره. وكانت زوجة الوكيل، تتابع بعينها، من فتحة الباب، طريقة الفتاة في خدمة نيكليودوف. وأخذ الوكيل المزهو بمواهب زوجته المطبخية، يتسم ابتسامة يتعاضم انشراحها شيئاً فشيئاً.

بعد الغداء، أجبر نيكليودوف الوكيل على الجلوس إلى الطاولة.

كان يشعر بالحاجة إلى الكلام، إلى أن يكشف أحد الناس، أياً كان، بالأفكار العظيمة التي تحركه. فعرض مشروعه بترك الأرض للفلاحين، ثم سأل الوكيل عن رأيه فيه. فابتسم الوكيل ابتسامة تُوهم أنه هو نفسه يشاركه هذا الرأي منذ زمن بعيد، وأنه مرتاح لسماعه. والواقع أنه لم يفقه شيئاً مما قيل أمامه، لا لأن نيكليودوف لم يحسن التعبير، لكن المشروع كان ينطلق من رغبة نيكليودوف في التخلي عن منفعة الشخصية لمصلحة الآخرين؛ وكان الوكيل مقتنعاً بعمق من أنه يستحيل على أي إنسان أن يُعنى بشيء آخر غير منفعة الخاصة. وبالتالي، فقد خُيِّل إليه أنه لم يسمع نيكليودوف جيداً عندما أنبأه بعزمه على تخصيص دخل أراضيه لإنشاء رأس مال مشترك من أجل الفلاحين. وأجاب:

— ممتاز! وهكذا فأنت تريد أن تؤجر أراضيك وتقبض ريعها؟

— أبداً، لا! افهمني جيداً. أريد أن أهب الفلاحين أراضِي، كلياً.

فهتف الوكيل الذي كفَّ عن الابتسام:

— لكنك لن تقبض العائدات حينئذ.

— طبعاً لا، فأنا أتخلي عنها.

تنهَّد الوكيل بعمق، لكنه ما لبث أن عاد إلى الابتسام بعد لحظة. الآن فهم: إن بنيكليودوف شيئاً من الجنون. فلم يفكر بعد ذلك إلا في شيء واحد: في الوسيلة التي يجني بها فائدة شخصية منه. لكنه عندما اكتشف، في مدى لحظة، أن مشروع نيكليودوف لا يمكن أن

يعود عليه بشيء، ساءت نيته. ومع ذلك ظل يبتسم ليرضي سيده. وحين رأى نيكليودوف أن الوكيل لا يفهمه، تركه ومضى إلى المكتب حيث دوّن خطة مشروعه على طاولة قديمة، ملطخة بالخبز، ومفترضة بضربات المبراة:

في غضون ذلك، غابت الشمس، وأتم القمر طلوعه. واجتاحت الغرفة سحابة من البعوض، وأخذت تدور وتطنّ حول رأس نيكليودوف، محاولة أن تلتسهه. وكان يسمع من الناحية المفتوحة، وهو يكتب، صوت القطعان الآبية، وصرير البوابات تُفتح في الفناء، ولغط الفلاحين، وهم يتجهون إلى المكتب، فسارع إلى الانتهاء مما يكتب، ونادى الوكيل، وأعلن له أنه لا يريد أن يستقبل الزوار هنا، بل إنه سيذهب إلى القرية ليحدّثهم فيها، في المكان الذي يلائمهم. وبعد أن تجرّع فنجان الشاي الذي قدّمه له الوكيل، دفعة واحدة، مضى في طريقه إلى القرية.

× × ×

تجمهر الفلاحون في فناء شيخ القرية، وأخذوا يتحدثون بصخب. وما أن أبصروا نيكليودوف حتى أخلدوا إلى الصمت، ورفعوا قبعاتهم مثل فلاحى كوزمنسكوي. كان هؤلاء الفلاحون أقل تمدناً من فلاحى كوزمنسكوي. وكانوا جميعاً، تقريباً، يرتدون قفطانات خاطتها نساؤهم، ويحتذون في أقدامهم صنادل من لحاء الخشب. بل إن بعضهم كانوا حفاة؛ وبعضهم كانوا بالقميص وحده الذي عادوا به لتوهم من الحقول.

تحامل نيكليودوف على نفسه ليتغلب على حيائه، وأعلن لهم أنه عقد العزم على أن يتخلى لهم عن أراضيه. أصغى الفلاحون بصمت، دون أن يبدو على وجوههم أي انفعال.

وتابع نيكليودوف وهو يحمّر:

— أنا أقدر بالفعل. أن لكل إنسان حق الانتفاع بالأرض.

فقالت بعض الأصوات:

— هذا حق! هذه هي الحقيقة بعينها!

وواصل نيكليودوف كلامه، فقال لهم: إن دخل الأرض يجب أن يُوزَّع على الجميع، وبالتالي فهو ينوي أن يتنازل لهم عن أراضيهم مقابل إيراد يحددونه هم أنفسهم، ويُستخدم لتكوين رأس مال جماعي، مخصص للنفع المشترك. ومرة أخرى، تعالت بعض كلمات الاستحسان، لكن وجوه الفلاحين الوقورة تزايد ما بها من هم، وانخفضت نظراتهم إلى الأرض، وكانت، أول الأمر، مثبتة في النبيل. فكأنهم خافوا أن يُخجلوا نيكليودوف لو أروَّه أنهم كشفوا حيلته، وأن أحداً منهم لن يكون ضحكة له.

كان نيكليودوف يتكلم، مع ذلك، بكل ما يستطيع من الوضوح، وهيهات أن يكون الفلاحون عديمي الذكاء. إلا أنهم لم يكونوا يفهمونه، ولا كان بوسعهم أن يفهموه، للسبب نفسه الذي حال دون فهم الوكيل. كانوا مقتنعين أن لكل إنسانهماً وحيداً هو أن يبحث عن منفعته الخاصة. أما مديرو الأعمال، بخاصة، فقد كان الفلاحون يعلمون بتجربتهم، منذ أجيال، أنهم جميعاً يبحثون عن منفعتهم على حساب الآخرين. ومن ثم، فعندما كان الوكيل يجمعهم ليعرض عليهم اقتراحاً جديداً، كانوا يعلمون مقدماً أن ذلك يهدف إلى شيء واحد وهو أن يخدعهم بإحدى حيله الجديدة.

سأل نيكليودوف:

— طيب! ما السعر الذي تضعونه بدلاً للأرض؟

أجابت بعض الأصوات:

- كيف يمكننا أن نضع سعراً؟ الأرض لك، وأنت الأمر.

- لكنني أقول لكم إنكم أنتم الذين ستستفيدون من هذا المال، من الآن فصاعداً، فحاجاتكم المشتركة.

- مستحيل. الجماعة شيء وهذا شيء آخر.

صاح الوكيل الذي جاء ووقف خلف نيكليودوف، الذي ظن من واجبه أن يتدخل ليسهل القضية:

- حاولوا أن تفهموا. ألم تسمعوا أن الأمير يعرض عليكم تأجير الأرض مقابل مال، لكن هذا المال سيكون لكم، وسيكون رأس مال تنتفعون به جميعاً؟

أكد شيخ قصير، أورد، مقطّب الوجه دون أن يرفع بصره: وعلينا، في هذه الأثناء، أن ندفع عند الاستحقاق. وهذا ما لا نريده. كفانا ما نلقى من مشقة للتخلص من مآزقنا، بدون ذلك! في هذه المرة، ستُخرب بيوتنا!

صاحت أصوات مستاءة بل غاضبة:

- الحق معه! هذا أكيد! نفضل أن نظل على ما نحن عليه!

وتعاضم الاستياء، كما تعاضمت المقاومة، عندما قال نيكليودوف إنه سيترك في مكتب الوكيل عقداً موقعاً منه وأن على الفلاحين أن يوقعوه هم أيضاً.

صاح صوت:

- نوقّع؟ لماذا نوقّع؟ كما نشتغل الآن، سنظل نشتغل! ما فائدة ذلك كله؟ نحن ناس جاهلون. لا نستطيع أن نوافق على ذلك، لأننا لم نتعوّد هذا النوع من الأعمال! الأفضل أن تبقى الأشياء كما كانت، هذا ما نطلبه. ليبدّلوا لنا البذار فقط.

«تبديل البذار» يعني أن على الفلاحين، حتى الآن، أن يقدموا البذار للأرض التي يعملون فيها، وهم يطلبون الآن أن يقدم مالك الأرض هذا البذار.

فتعجّب نيكليودوف، وهو يخاطب فلاحاً شاباً، متألق الوجه، يرتدي قفطاناً مرقّعاً، حافي القدمين، يمسك بيده اليسرى قبعته الممزقة، كما يمسك الجنود قبعاتهم عندما يأمرهم رؤسائهم برفعها:

- وهكذا فانتم ترفضون؟ أنتم لا تريدون أن أتخلى لكم عن أراضي؟ أجاب الفلاح الذي لم يفقد عادة الانضباط العسكري بعد.

- نحن بأوامرك.

ودهش نيكليودوف:

- معنى هذا أن لديكم ما يكفي من الأرض؟

فأجاب الجندي القديم بلهجة تودد مُقتصرة:

- أية أراضي؟ ليس لنا أراضي!

فاستشاط نيكليودوف، مذهولاً:

- لا بأس، فكّروا فيما قلته لكم.

وأعاد عليهم، مرة أخرى، عرضَه.

فأعلن الشيخ الأدرد، وهو كالح الوجه أبداً:

- جاؤبنا بعد تفكّر. ولن يتغير جوابنا.

- سأبقى هنا حتى نهار الغد، وإذا بدّلتُم رأيكم فأعلموني.

لم يجب الفلاحون. وعاد نيكليودوف حزيناً إلى القصر، وهو مقتنع أنه لن يحصل على شيء، في هذا المساء.

قال له الوكيل بابتسامته المجاملة:

- أتعلم، يا أمير، أنك لن تتمكن من التفاهم معهم أبداً. هذا الجنس من الناس عنيد كالبغال. إذا وضعوا شيئاً في رؤوسهم، فلا شيء في العالم يمكن أن يخرجهم منها. إنهم يخافون دائماً كل شيء. ومع ذلك، فهم ليسوا بأغبياء. بل إن بينهم من هم أذكىء جداً، بالنسبة إليهم كفلاحين، مثلاً هذا الشيخ الذي كان يصرخ عالياً، والذي كان أشدهم احتداماً لرفض عروضك. عندما يأتي إلى المكتب وأدعوه إلى تناول الشاي، يفهم كل شيء، ويتحدّث عن كل شيء، والحديث معه ممتع. لكنه، بين جماعة الفلاحين، يغدو، كما رأيته رجلاً آخر. ومن المستحيل إدخال فكرة على رأسه.

فاقترح عليه نيكليودوف:

— ألا تستطيع أن تأتي ببعضهم إلى هنا، بأذكاهم! سأشرح لهم القضية.

أجاب الوكيل:

— يمكن أن نفعل ذلك بسهولة.

— طيب! أحضرهم غداً صباحاً، أرجوك.

قال الوكيل من خلال ابتسامته المشرقة أشد إشراق:

— لا شيء أيسر من ذلك، سيكونون هنا، غداً صباحاً.

قال فلاح أسود الشعر، ذو لحية شعشاء لم تُمشط قط، يتهدى بلين على صهوة فرس فارهة:

— رأيت هذا الماكر الكبير؟

كان يحدث فلاحاً آخر، عجوزاً، شديد التحول، يرتدي قفطاناً ممزقاً، ويخبّ بجانبه وسط القعقعة المعدنية لعدة مطيّته. كانا يسوقان مواشيهما إلى المراعي الليلة، بحذاء الطريق على زعمهما، لكن الواقع أنهما كانا يرعيان بها، سراً في غابة الملاك.

همهم العجوز قبل أن يُنادي مهراً ابتعد، باسمه:

— «سأعطيك الأرض بلا مقابل، وما عليك إلا أن توقع»، هكذا قال! كأنه لم يكفه تحكمه بنا! هو مجنون، أيها الأخ. نحن، منذ اليوم، قادرون على الفهم أيضاً.

أوقف جواده ليلقي نظرة إلى الوراء. لكن المهر ظل خافياً عنه،
والظاهر أنه انطلق إلى المرج الذي يحاذي الطريق.

لاحظ الفلاح ذو اللحية السوداء، الكثة:

— أرايت؟ هذا المهر القذر استلذ مراعي النبيل.

سمع العنب البري يتقصّف تحت حافري المهر الذي كان يجري في
الحقول المغمورة بالندى والتي انبعثت منها رائحة المستنقعات.

قال العجوز ذو القفطان الممزق:

— إسمع، إن الحقول قد طغى عليها العنب البري؛ يجب أن نرسل
النساء إليها، ذات يوم من أيام العطل، لانتزاع الأعشاب الغريبة منها.
وإلا تَلَفَت مناجلنا.

واستأنف الفلاح الأشعث كلامه الذي واصل فيه انتقاده لكلام
نيكليودوف:

— «يقول: وقّع!» وقّع، وهو يتلعلك نيباً، غير مطبوع!

فوافق الآخر:

— هذا مؤكد وثابت.

لم يصف أحد منهما كلمة فوق ذلك. لم يكن يُسمع سوى طرُق
حوافر الخيل على الطريق الترابية المتصلبة.

× × ×

عندما عاد نيكليودوف إلى المكتب، وجد فيه سريراً كبيراً مغطى بلحاف من الريش، ومختتين، وغطاء أحمر بنفسجي مزدان بتطريز شديد الأيوسة، ولاشك أنه جاء من جهاز عرس زوجة الوكيل. وسأله الوكيل إن كان لا يرغب في تناول ما بقي من الغداء، قبل النوم. فشكره نيكليودوف وتركه الوكيل وحده معتذراً عن الطريقة الفقيرة التي استقبله بها.

إن الرفض الذي قابل به الفلاحون نيكليودوف والذي أحزنه برهة من الزمن، لم يعد يثير شجونه. على العكس، فمع أن الفلاحين، في كوزمنسكوي، شكروه في نهاية الأمر، بينما أبدوا له هنا الاستياء بل العدا، إلا أنه كان يحس بنفسه مطمئناً ومسروراً على نحو غريب.

وإذ وجد جو المكتب المليء بالغبار، خانقاً، خرج إلى الفناء، وبنيتّه أن يطوف في الحديقة. حينئذ تذكر تلك الليلة القديمة، ونافذة وغرفة الخدمة المضاءة، وسطح الدرج خلف البيت، فأحس أنه لا يقوى على رؤية هذه الأماكن المفعمة بالذكريات. فجلس على مطلع الدرج، يتنشق الشذى المسكر الآتي من براعم البتولة الفتية، والذي تشبّع به

هواء الليل الدافئ، ويطيل النظر في بقع الأشجار المعتمة، ويصغي إلى جعجعة الطاحونة، وإلى شَدْو عصور يصفر، في دَغْل، على مقربة منه. أطفئت الأنوار في نوافذ الوكيل؛ وعاد الهلال إلى الظهور، في المشرق، خلف مخازن الحبوب، بعد أن حجبته الغيوم. ومن حين إلى حين كانت يروق الحرارة تنير الحديقة المزهرة. وتناهى إلى الأسماع دوي الرعد البعيد، واكتسحت كتلة سوداء زاوية من السماء، شيئاً فشيئاً. فسكت العصفور. واختلط بتكسر الماء المزد في سد الطاحونة صراخ البط المذعور، وسرعان ما تعالى في القرية، وفي الفناء صياح الديكة، صياحها الذي اعتادته قبل الفجر بكثير، في ليالي العاصفة.

هناك مثل يذهب إلى أن الديوك تصيح مبكرة في الليالي مريحة؛ وفرحة كانت هذه الليلة، عند نيكليودوف، بل أكثر من ذلك، كانت ملأى بالسعادة. لقد أحيا فيه خياله الانطباعات التي أحس بها قديماً، طوال ذلك الصيف الفاتن الذي قضاه في هذا الموضع نفسه، عندما كان شاباً وبريئاً. أحس بنفسه يعود كما كان إذ ذاك، أثناء ذلك الجزء السعيد والجميل من حياته، عندما كان، في مطلع شبابه، يصلي ليكشف له الله عن الحقيقة، أو عندما كان ييكي على ركبتي أمه، إذ يُضطر إلى فراقها، مقسماً لها أنه سيظل عاقلاً أبداً، وأنه لن يُقدم على ما يؤلمها. رأى نفسه مع صديقه «نيقولا ارتنييف»، في اليوم الذي عزم فيه على التعاون في طريق الخير، وعلى تكريس حياتهما في سبيل سعادة البشر.

تذكر بعد ذلك كيف راودته رغبة شريرة في كوزمنسكوي، دفعته على الأسف على بيته وغاباته ومزرعته وأراضيه. وتساءل إن كان

مايزال يحتفظ الآن، في أعماق قلبه، بشيء من الأسف. لا، لم يكن يحتفظ بشيء من ذلك، بل إنه لم يعد يفهم كيف استطاع أن يأسف على ذلك كله.

وما لبث أن رأى بخياله ما لاحظته في القرية، وهو ذاهب إلى منزل ماتريونا: المرأة الشابة التي سُجِنَ رَجُلُهَا لأنه قطع شجرة من غابة السيد الملاك؛ ماتريونا الفظيعة التي لم تتوانَ عن التلميح إلى أن واجب فتيات طبقتها أن يستسلمن لغرام أسيادهن. تذكر أن العجوز روت له الطريقة التي يُحمل بها الأطفال إلى الملجأ، ومثل أمام عينيه الولد الشائخ قبل أوانه، بابتسامته المثيرة للشفقة، وساقيه اللتين لم يبق منهما سوى العظام. ومن هذا الولد، انتقل بفكره إلى السجن، والرؤوس المحلوقة، والزرنانات، ونبث الأروقة، والسلاسل. وإزاء جميع مظاهر البؤس هذه، رأى الترف البليد في حياته الخاصة، وفي حياة المدن.

في هذه الأثناء، برز الهلال مرة أخرى، وراء مخازن الحبوب، وتطاوالت الظلال السوداء، في الفناء، والتمعت حدائد السطوح برفق. وكأن العصفور الذي في الدغل لم يستطع أن يمتنع عن تحية النور، فعاد إلى الصغير، مع لقلقة منقاره.

تذكر نيكليدوف كيف كد نفسه، في كومنسكوي، في تأمل حياته، والتفكير فيما سيؤول إليه. وقد طرح على نفسه أسئلة لم يستطع حلها، لفرط ما وجد من بواعث التأييد والرفض، ولفرط ما بدت له الحياة معقدة وصعبة. وطرح على نفسه الأسئلة نفسها، مرة أخرى، فوجدها جرد بسيطة. وإنما أصبحت بسيطة عنده لأنه كفَّ عن التفكير وحتى عن الاهتمام فيما سيقع له، ليفكر فقط فيما يجب

عليه فعله. ومما يُدهش أنه بمقدار ما شق عليه من قبل أن يقرر ما ينبغي فعله لنفسه، أخذ الآن يرى بوضوح ما ينبغي فعله للآخرين. يجب أن يعطي أراضيه للفلاحين، لأن هؤلاء بحاجة إليها ولأنه هو نفسه لا حق له في حيازتها. ورأى بوضوح أيضاً أن من واجبه ألا يتخلى عن كاتيوشا، وأنه ينبغي أن يساعدّها على الاستمرار في الحالة التي تركها فيها، آخر مرة. لقد اُقترب بحقها خطيئة يجب أن يكفّر عنها شيئاً، لكنه يعلم أن واجبه المطلق أن يتصرّف هكذا. هذه القناعة العميقة ملأته فرحاً.

اكتسحت الكتلة السوداء، فجأة، السماء بأسرها؛ وتلت البروق الحقيقية بروق الحرارة، فأنارت الفناء والبيت الخرب. ودوى هزيم الرعد فوق الحديقة؛ وصمتت العصفير، لكن أوراق الأشجار، بالمقابل، أخذت ترتعش، وهبّ هواء بارد حرّك شعر نيكليودوف. وسقطت قطرة من المطر تحطّمت على السطح المعدني، وتبعته قطرة أخرى. ثم هدأت الريح فجأة، وخيم صمت عظيم، وسمع نيكليودوف فوق رأسه هزيماً متصلاً من قصف جديد للرعد. فرجع إلى البيت من غير أن يفارقه سروره.

وفكّر في نفسه: «نعم، نعم، إني لا أدرك الفائدة من حياتنا، ولا الهدف الأسمى الذي من أجله نحن موجودون في هذا العالم، وليس بوسعي إدراكهما. لماذا عاشت عمّتا؟ لماذا مات نيكولنكا ارتتييف، بينما أنا على قيد الحياة؟ لماذا التقيت كاتيوشا؟ لماذا كنتُ أعمى ومجنوناً هذا الزمن الطويل؟ لست أعلم شيئاً من ذلك، فليس بمقدوري إدراك عمل المعلم. أما إتمام مشيئته، كما هي مدوّنة في قلبي، فهذا ما أستطيع وما يجب أن أفعله. ولا راحة لي إلا إذا أتممتها».

كان المطر يهطل مدراراً، مطلقاً على السطح، سائلاً على طول الزجاج. ومن دقيقة إلى دقيقة، كانت البروق تنير الفناء. عاد نيكليودوف إلى المكتب، وخلع ملابسه، واستلقى على فراشه، وبه شيء من القلق بصدد البق، لأن ورق الجدران الوسخ والممزق شككه في وجوده، من أول نظرة.

وفكر في نفسه: «أحب أن أشعر أنني خادم، ولست معلماً» فملأته هذه الفكرة فرحاً.

على أن مخاوفه تحققت. فما كاد يطفئ المصباح حتى أخذت الحشرات تدبّ على جسمه.

«سأعطي أراضِي، وسأذهب إلى سييريا... البق، البراغيث القذارة! ليكن! سأتحمل ذلك، بما أنني يجب أن أتحمله».

لكنه لم يتحمل ذلك، بالرغم من نياته الطيبة. فنهض من فراشه، وجلس قرب النافذة المفتوحة، وظل طويلاً ينظر إلى السحب السوداء التي كانت تنقشع، وإلى الهلال الطالع من بين تلك السحب.

× × ×

لم ينم نيكليودوف إلا عند الصبح، ولذا استيقظ متأخراً. وعند الظهر، وصل الفلاحون السبعة الذين اختارهم الوكيل إلى البستان، حيث وُضعت، تحت أشجار التفاح، طاولة ومقعدان من الألواح الخشبية المثبتة على أوتاد. وقد تعب نيكليودوف كثيراً ليحمل المندوبين السبعة على أن يضعوا قبعاتهم على رؤوسهم ويجلسوا على المقاعد. وأصر الجندي القديم، بخاصة، على البقاء واقفاً، ممسكاً بقبعته المرقعة أمامه، كما يمسك بها الجنود أثناء الدفن العسكري.

لكن عندما عمد أكبر الجماعة سناً، وهو شيخ طويل، مهيب الطلعة، ذو لحية طويلة، رمادية. جعدة، شبيهة بلحية موسى الذي نحتَه «ميكيل أنجل»، وشعر كثيف، رمادي، يجلس جبهة صفراء لَوّحتها الشمس، إلى وضع قبعته العريضة على رأسه، وتزير قفطانَه الجديد، والجلوس على أحد المقعدين، لم يتردد أحد منهم، بعد ذلك، في أن يحذو حذوه.

بعد أن انتهت هذه الشكليات، جلس نيكليودوف في مواجهة الفلاحين. أخذ ورقة دوّن عليها مشروعه، وبدأ يقرأها ويشرحها. لم

يشعر نيكليودوف بأي ارتباك، إما لأن عدد المستمعين كان قليلاً، وإما لأن التفكير في مشروعه حال بينه وبين التفكير في نفسه. وكان يوجّه، تلقائياً، بحديثه إلى الشيخ ذي اللحية الجعدة، قبل غيره، وكأنه كان ينتظر منه، قبل غيره، الموافقة أو الاستنكار. لكن الفكرة السامية التي كوّنها عن هذا الشيخ كانت، مع الأسف، وهماً. لقد كان يخفض رأسه الجميل، رأس شيخ القبيلة، تارة، كالموافق، وتارة أخرى يهزّه دلالة على الريبة والحذر، حسبما يرى جيرانه يتصرفون. والحقيقة أنه كان يجد مشقة قصوى، لا في فهم فكرة نيكليودوف فحسب، بل حتى في فهم معاني الألفاظ التي يستخدمها.

كان جاره أفضل فهماً منه. كان شيخاً قصيراً أعور وأعرج، يرتدي سترة قطنية مرفوعة. ويحتذي جزمة قديمة. وكانت مهنته صناعة المواعد، كما أنبأ نيكليودوف أثناء حديثه. كان يحرك حاجبيه باستمرار، وكأنه يحاول جاهداً فهم ما يُقال ويترجم تبعاً، على طريقته، وبصوت عال، ما يسمعه. وبجنبه جلس شيخ آخر قصير وسمين، قوي العضلات، أبيض اللحية لامع العينين. كان هذا الشيخ يستغل جميع المناسبات ليعلق تعليقات ساخرة أو ظريفة. والظاهر أنه كان ظريف القرية. وبدا على الجندي القديم كأنه يفهم ما يدور عليه الحديث، لكن أفكاره انحصرت في بعض الصيغ المحفوظة التي جاء بها من الخدمة العسكرية. وربما كان أكثرهم جدية، شيخ طويل القامة، طويل الأنف، قصير اللحية، يرتدي سترة نظيفة، وفي قدميه حذاء خشبي جديد. كان يفهم كل شيء ولا يتكلم إلا إذا كان لديه ما يقوله.

أما الشخصان الآخران فكان أحدهما ذلك الأدرد الذي بدا،

عشية البارحة، أشد الناس معارضة لاقتراحات نيكليودوف. وكان الآخر رجلاً طويل القامة، أبيض الشعر، وديع العينين. وقد أُخْلِدَ كلاهما، في هذا اليوم، إلى الصمت، واكتفيا بالإستماع، مع الإلتباه الشديد.

بدأ نيكليودوف بعرض أفكاره الشخصية عن ملكية الأرض، فقال:

— أرى أنه لا حق لنا في بيع الأرض وشرائها، لأننا لو ملكنا هذا الحق لاشرى الذين يملكون المال كل الأرض، ولا نترعوا بذلك من الآخرين سبيل الانتفاع بها.

فعلّق الرجل ذو الأنف الطويل، بصوته الخفيض، قائلاً:

— هذا صحيح تماماً!

وأعلن الجندي القديم:

— بأمرك

وأفاد الأعرج الطيب القلب:

— أخذت عجوزي شيئاً من العشب لبقرتنا فقبضوا عليها واقتادوها إلى السجن.

وأضاف الشيخ الأدرد متجهماً:

- حقلي على خمسة فراسخ من القرية، أما استئجار حقل آخر فغير ممكن، لأن الأسعار مرتفعة.

وأيدّه آخر:

- إنهم يسلخوننا كما يُسلخ العجل. الحال أسوأ بكثير من عهد الآنستين العانسين.

فأكّد نيكليودوف:

- إني أرى رأيكم في ذلك كله. وأعتبر امتلاك الأرض خطيئة. ولذلك عزمْتُ على أن أتخلّى عنها.

ولاحظ الشيخ الذي له لحية موسى والذي تصوّر أن نيكليودوف يريد أن يؤجّر أرضه:

- لا خلاف في ذلك، الفكرة حسنة.

- من أجل ذلك جئتُ، لا أريد أن أكون بعد الآن مالكا للأرض. لكن يجب أن نتفق على طريقة توزيع الأراضي.

فصاح العجوز المشاكس:

- ما عليك إلا أن تهبها للفلاحين، هذا كل ما في الأمر!

اضطرب نيكليودوف لحظة، إذ أحس أن في هذه الكلمات شكاً في صدق نيّاته. لكنه ما لبث أن تمالك نفسه، وتذكر عزمه على أن يقول آراءه حتى النهاية، واستأنف:

– سأهبكم أراضِي، راضياً، مختاراً. لكن لمن أهبها، وكيف؟

فلم يجب أحد إلا الجندي القديم الذي سُمِعَت منه كلمة «تماماً».

وواصل نيكليودوف:

– أصغوا إليّ. ماذا كنتم ستفعلون، لو كنتم مكاني؟

– ماذا كنا نفعل؟ الأمر بسيط: تقسم الأرض بين الفلاحين.

أعطى الجميع موافقتهم على هذا الجواب الذي بدا لهم شافياً كلياً.

فأعاد نيكليودوف السؤال:

– لكن، كيف نُجري هذه القسمة؟ أيجب أيضاً أن نهب الأرض

لخدم المزارع، للذين لا يزرعونها؟

فأعلن الجندي القديم الذي حاول استخدام تعبير قوي:

– أبداً، كلا.

لكن الفلاح الطويل الذي كان أصحّهم محاكمة، لم يوافق، فقال

بصوته الخفيض. بعد أن فكّر برهة:

– يجب أن توزّع بالتساوي بين الجميع.

اعترض نيكليودوف:

– لا، هذا غير ممكن، لو وزعتها بالتساوي بين الجميع، لأخذ الذين

لا يشتغلون لأنفسهم، الذي لا يزرعون، حصتهم لبييعوا الأغنياء هذه الحصة. فتنجم الأرض مرة أخرى بين أيدي الأقوياء. أما الذين يزرعونها فإن أرضهم ستجزأ، لأن أسرهم تتكاثر. ومرة أخرى يشدد الأغنياء سلطانهم على الذين يحتاجون إلى الأرض ليعيشوا.

فبادر الجندي القديم إلى القول:

— هذا صحيح جداً.

فعلق صانع المدافئ، وهو يُلقي حوله نظرة غضب:

— لئمنع بيع الأرض، إذن؛ لئجبر كل واحد على زراعتها بنفسه.

كان نيكليودوف قد توقع هذا الاعتراض. فأجاب بأن من المتعذر التحقق إن كان هذا الفلاح يزرع لحسابه أو لحساب الآخرين. ومن جهة أخرى فإن القسمة المتساوية مستحيلة.

عندئذ اقترح الفلاح الطويل القامة، الطويل الأنف، وهو أذكى السبعة، أن تُسوَّى الأمور بحيث يزرع الفلاحون الأرض جماعياً.

وقال بصوته الثابت، الخفيض:

— مَنْ زرع نال حصته، ومن لم يزرع لم ينل شيئاً.

فأجاب نيكليودوف بأنه فكر في هذا أيضاً. لكن هذا المشروع لن يكون صالحاً للتنفيذ، إلا إذا كان الجميع يملكون المحارث نفسها والجياد نفسها. يجب أن تكون جميع أدوات الزراعة مشتركة بين

الجميع. وأضاف أنه للوصول إلى ذلك، لابد أن يتفق الجميع فيما بينهم.

ورأى العجوز القصير، ذو السحنة الكالحة:

— لن يتفق الناس عندنا على ذلك أبداً. ستنشب المعارك بينهم في الوقت نفسه! النساء أنفسهن سيقاتلن!

قال نيكليودوف وهو يتسم:

— أنتم ترون أن الأمر ليس بسيطاً كما بدا لأول وهلة. ولسنا وحدنا من يفكر في هذه القضايا. فهناك أمريكي يدعى جورج. أصغوا إلى ما ابتكره، ورأيي كرايه في هذا الموضوع.

صرّح الشيخ الأردد:

— أنت السيد، تستطيع أن تفعل ما تشاء. نحن مُجبرون على العمل بما يرضيك.

شقت هذه المقاطعة على نيكليودوف، بيد أنه اكتشف، برضا شديد، أنه لم ينقم عليها وحده.

قال الرجل الحليم في الجماعة بصوته الخفيض:

— انتظر، يا عم سيميون، دعه ينهي كلامه.

أخذ نيكليودوف، وقد هدأت نفسه، يشرح لهم نظرية هنري جورج. قال:

— الأرض ليست لأحد، الأرض لله وحده.

فأعلنت عدة أصوات:

— هذه هي الحقيقة، تماماً.

— يجب أن تكون الأرض كلها ملكاً مشتركاً بين الجميع. ولهم جميعهم فيها حقوق متساوية. بيد أن هناك أرضاً جيدة وأرضاً أقل جودة. كل واحد يتمنى أن تكون له الأرض الجيدة، بطبيعة الحال. فكيف نسوّي بين الحصص؟ يجب على من يستثمر الأرض الجيدة أن يقتسم الفائض مع من يستثمر أرضاً أقل جودة. وبما أنه من الصعب تحديد الذين يجب أن يدفعوا والذين يجب أن يُدفع لهم، وبما أن المال لا غنى عنه، في حياتنا الراهنة، فإن أحكم الحلول هو أن يدفع كل من يستثمر أرضاً، للجماعة، ومن أجل الحاجات المشتركة، مبلغاً يتناسب مع ما تساويه أرضه من قيمة. وبهذه الطريقة تحصل المساواة. فإذا شاء أحد أن يستثمر أرضاً دفع عن الأرض الجيدة مبلغاً أكبر مما يدفعه عن الأرض التي هي أقل جودة. وإذا أبى أن يستثمر أرضاً لم يدفع شيئاً. والذين يزرعون الأرض هم الذين يدفعون عنه الضريبة الضرورية للحاجات المشتركة.

فصاح الشيخ المهيب ذو اللحية الجعدة:

— أما إنه لرجل عظيم العقل، جورج هذا!

وأبدى الرجل ذو الصوت الخفيض رأيه، بعد أن فهم:

– بشرط أن يكون الأجر ضمن إمكاناتنا.

– أما السعر فيجب أن يُحسب بحيث لا يكون مسرف الارتفاع ولا مسرف الانخفاض. فإذا كان مسرف الارتفاع لم يدفع الفلاحون، وحصلت الخسائر، وإذا كان مسرف الانخفاض أخذ الجميع يتاعون الأراضي من الفلاحين، وبدأت تجارة الأرض، مرة أخرى. ها أنا ذا قد شرحت لكم نظام جورج. وعلى هذه المبادئ أود أن أنظم شؤوني معكم.

أجاب الفلاحون:

– إنه عادل جداً! ونحن نريده هكذا!

فردد الشيخ الذي يشبه موسى:

– أما إنه لعقل عظيم! جورج! ومن العجب أنه ابتكر ذلك كله! وسأل الوكيل وهو يتسم:

– وإذا أردت أنا أن أحصل على الأرض.

فأجابه نيكليودوف:

– إن بقي منها بقية فخذها وازرعها.

ضحك الظريف هازئاً:

– ما حاجتك إلى الأرض؟ أنت في غاية السمنة بدونها!

هكذا انتهى النقاش. واستعرض نيكليودوف مرة أخرى مشروعه، وأضاف أنه لا يطلب جواباً مباشراً، لكنه يشير على المندوبين أن يتفقوا مع الفلاحين الآخرين. ومتى قاموا بذلك حملوا إليه الجواب.

تعهد السبعة بذلك، ثم نهضوا، وعادوا إلى القرية. وظل نيكليودوف يسمع، زمناً طويلاً، رنين أصواتهم على الطريق. وتناهدت إليه، حتى المساء، أصدااء بعيدة لصيحات ومناقشات، محمولة على ماء النهر.

لم يشتغل الفلاحون، في اليوم التالي. وقضوا نهارهم في مناقشة اقتراح النبيل. وهي مناقشة لم تُفض إلى نتيجة، لأن الجماعة انقسمت إلى معسكرين. إذ اعتبر بعضهم اقتراحات الملاك مفيدة، ولا خطر منها؛ وأصر الآخرون على ألا يروا فيها سوى خديعة لا يستطيعون أن يدركوا مراميها، مما يزيد لها خطراً، في أعينهم.

بيد أنهم اتفقوا، في اليوم الثالث، على قبول شروط نيكليودوف. وعاد السبعة لاطلاعه على قرار الجماعة. أما ما لم يقلوه لنيكليودوف فهو أنهم، هم أنفسهم، حملوا الفلاحين على الموافقة، وأفلحوا على طرد تخوفهم من الخدعة: ذلك أن هؤلاء الطيبين اكتشفوا، ولم يتوانوا عن إعلان ما اكتشفوه، أن النبيل كان يتصرف على هذا النحو من أجل خلاص روحه، لأنه نوى أن يكفر عن خطاياهم.

قَبِلَ الفلاحون هذا التفسير بسهولة، ولا سيما أنهم كانوا شهوداً على كرم نيكليودوف، منذ قدمه، على أيِّ محتاج، فلقد وزَّع كثيراً من المال، وكانت هذه أول مرة يتاح له فيها أن يرى، عن كثب، بؤس

الفلاحين، والصعوبة القصوى التي يكابدونها ليعيشوا، في الظروف التي هم فيها. ومع علمه أن تخليه عن ماله ضرب من التهور، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من العطاء؛ فعلى الأقل، قبض، في كوز منسكوي، مبلغاً كبيراً من المال، جاءه من بيع غابة ومن متأخر دخله.

ما إن شاع أن النبيل يهب المال لكل من يسأله المال، حتى بدأ يفد عليه جمهور من المساكين، ولا سيما النساء، يتوسلون إليه أن يمد يد العون إليهم. كان نيكليودوف مُخرجاً. لأنه خشي ألا يستطيع العطاء إلى ما لا نهاية. ومن جهة أخرى، فهو لم يكن يملك الوسيلة التي يقرر بها من الذي يجب أن يعطيه، ومن الذي يجب أن يمنع عنه عطاءه، ولذلك فقد أحس بعجزه عن رفض طلب من كانوا يسألونه ويبدون في أمس الحاجة إلى المال. أخذ ماله ينفذ وظل السائلون يتوافدون. فكانت الوسيلة الوحيدة المتوفرة له للخروج من هذا الوضع هو أن يسافر. ولذلك عزم على الذهاب بأسرع ما يمكن.

في آخر يوم من إقامته، صعد إلى شقتي عمته، ليستعرض الأشياء الباقية فيهما. وفي آخر درج من خزانة صغيرة مزدانة بزخارف مطبقة عليها. وبحلق من البرونز مُدخلة في رؤوس الأسود، عثر على رزمة من الرسائل القديمة بينها صورة: لصوفيا ايفانوفنا، وماريا ايفانوفنا، وهو نفسه بلباس الطالب، وكاتيوشا نظيفة، نقية، غضة الإهاب، تفيض عافية. لم يأخذ نيكليودوف سوى الرسائل وهذه الصورة، من بين جميع الأشياء التي يحتويها المنزل. أما سائر المنزل فقد تركه للطحان الذي اشترى بالجملة منزل «باتوفو» وأثاثه.

و حين تذكّر، من جديد، الشعور بالأسف الذي ساوره، في
كوزمنسكوي، لعزمه التخلي عن أملاكه، تساءل مرة أخرى،
بذهول، كيف استطاع أن يشعر بمثل هذا الشعور. أما الآن فليس في
نفسه إلا الإحساس بالخلاص الذي امتزج به سحر الجدّة. كان شبيهاً
بالإحساس الذي لعل المكتشف يحسّ به، وهو يلمح أرضاً جديدة
عند خروجه من محنٍ قاسية.

عندما عاد نيكليودوف من الريف، تركت فيه المدينة أثراً جديداً. وصل إليها في المساء، وقصد رأساً إلى بيته. كانت الغرف كلها مشبعة برائحة النفطالين القوية؛ وقد بدا التعب والإستياء في آن واحد، على «اغرافنا بيتروفنا» و«كورني». بل إنهما تخاصما، بعد الظهر، بصدد عملهما الذي يقوم فقط، على نشر البسط والثياب، وتنشيفها، ثم إعادتها إلى مواضعها.

لم تمتد الفوضى كثيراً إلى غرفة نوم نيكليودوف. على أن الخدم أهملوا إعدادها للنوم، وقد وُضعت أمام الباب صناديق عاقت المرور. والظاهر أن نيكليودوف بعودته المفاجئة، شوّش هذا المشروع العجيب. مشروع التنظيف الذي يستمر في البيت، منذ أسابيع ببطء خارق للعادة. كل ذلك بدا لنيكليودوف سخيلاً جداً، مضحكاً جداً، بالقياس إلى بؤس الفلاحين الذي كان شاهداً عليه، حتى أنه عزم على الرحيل عن بيته في صبيحة اليوم التالي ليسكن في غرفة مفروشة، تاركاً لأغرافنا بيتروفنا مهمة العناية بترتيب أثاث المنزل، كما يحلو لها.

وبالفعل، فقد خرج، في اليوم التالي مبكراً، واختار لنفسه غرفتين

صغيرتين، مظهرهما متواضع أشد التواضع، في أول فندق مفروش لقيه على طريق السجن. وبعد أن أمر بأن يُنقل إليها صندوقه الذي أعدّه منذ العشية، مضى قاصداً منزل المحامي.

كانت الصبيحة شديدة البرودة. وتلا العواصف والأمطار صقيع لا يقع، عادة، إلا في بداية الربيع. كان البرد قارساً، جداً، والريح لاسعة جداً، حتى أن نيكليودوف الذي كان يرتدي معطفاً خفيفاً، أخذ يرتعد، ويحث الخطى ليتدفأ.

لم يبرح ذاكرته ما رآه في القرية: رأى مرة أخرى هؤلاء النسوة والأطفال والشيوخ، وذلك البؤس والتعب الذي اكتشفه لأول مرة. رأى، بخاصة، هذا الطفل البائس المهزول، الذي ابتسم له، وهو بين ذراعي أمه ابتسامة مؤلمة، محرّكاً أبداً ساقيه اللتين ذهب عنهما لحمهما. وأخذ نيكليودوف، تلقائياً، يوازن بين هذه الذكريات وما يراه من حوله. وعندما مرّ أمام دكاكين البقالين واللحامين وبائعي السمك والملابس الجاهزة، ذهل من هذه السحن المتخمة لمعظم هؤلاء البرجوازيين الصغار، وهي سحن تتناقض مع سحن الفلاحين. ممتلئين أيضاً بدا له حوذيو العربات الفخمة بأوراكنهم الضخمة المدثرة بدنارات فضفاضة، مغلقة عند الظهر بأزرار نحاسية ضخمة، وكذلك كان البوابون بخلعهم المزينة بشرائط، والخادومات بآزرن البيضاء، وشعورهن المجددة؛ وحتى سائقي العربات المسترخين على مساند عرباتهم، العاكفين على التفرّس في المارة، وهم شاردو اللب. إن نيكليودوف رأى فيهم النموذج ذاته الذي رآه في الريف، بالرغم من مظهر الرخاء هذا. لقد طرد هؤلاء من قراهم، لأنهم لم يملكوا أرضاً

يستثمرونها. واستطاعوا أن يتلاءموا وظروف الحياة في المدينة. لقد غدوا برجوازيين يتمتعون بوضعهم الذي أخذوا يفخرون به. لكن، على جانب هؤلاء. ما أكثر الذين طردوا من قراهم، للسبب نفسه، فلم يواتهم الحظ كما واتي أولئك، وألّفوا أنفسهم في ظروف أشدّ بوئساً بما لا يُقاس من الظروف التي لم يستطيعوا احتمالها في قريتهم! من مثل هؤلاء السكافين الذين كان نيكليودوف يراهم منهمكين في تطريق الجلد أمام نوافذ القبو؛ ومثل هؤلاء الغاسلات الهزيلات، الشاحبات، المشعّعات الشعر، المشغولات بكّي الغسيل أمام النوافذ المفتوحة التي ينبعث منها بخار الصابون الخانق؛ ومثل هذين الدهّانين اللذين لقيهما في الشارع. وكانا يمشيان حافيين، ملطّخين من رأسيهما إلى قدميهما، مشمرين أكمامهما حتى المرافق، حاملين سطلاً مملوءاً بالدهان. لا يكفان عن تبادل الشتائم. كان وجهاهما يعبران عن مزيج من الإعياء والاعتماد. وهذا التعبير نفسه كان يُقرأ على وجوه سائقي العجلات الذين كانوا يمرون، سوداً من الغبار، فوق عجلاتهم المرتجة؛ وعلى وجوه الرجال والنساء والأطفال في الأطمار البالية، وهم يتسوّلون في زوايا الشوارع، وعلى الوجوه التي لمحها نيكليودوف من خلال نوافذ حانة مفتوحة. فحول الطاولات القدرة، التي تراكت عليها الزجاجات والأقداح، جلست جماعات من الرجال يصرخون ويغنون، وقد نضحت وجوههم عرقاً والتهبت خدودهم. وأمام إحدى النوافذ رأى نيكليودوف أحد هؤلاء البائسين مقطبّ الحاجبين، فاغر الفم، يحدّق أمامه، كأنه يبذل جهده ليتذكّر شيئاً ما.

تساءل نيكليودوف، بينما كان يستنشق، مع نداوة الهواء، رائحة

منفرة للكلس بالزيت، آتية من البيوت التي تم بناؤها منذ أمد قريب:

— «لماذا لجؤوا جميعاً إلى المدينة؟»

في أحد الشوارع صادف سائقي عربات محملة بقضبان الحديد؛ كان بلاط الشارع يرتجف مع قعقة الحديد. فأوجعت هذه الضوضاء رأسه، وجرى ليسبق العربة عندما سمع فجأة نداء اسمه مختلطاً بقعقة قضبان الحديد.

— نيكليودوف! هذا أنت!

فوقف وشاهد أمامه رجلاً بدينًا، أنيق الملبس، متألق الوجه، مفتول الشاربين، جالساً في عربة، يشير إليه بيده إشارة ودّية، ويتسم له كاشفاً عن أسنان ناصعة البياض.

كان انطباع نيكليودوف الأول انطباع المسرة. فهتف بفرح:

— عجباً، شونبوك؟

لكنه أدرك بعد لحظة، أنه ليس في ذلك ما يدعو إلى الابتهاج. كان شونبوك هذا هو نفسه الذي لحق به إلى منزل عمته في اليوم التالي لليوم الذي أغوى فيه كاتيوشا. لم يره نيكليودوف منذ زمن بعيد، ثم قيل له إن شونبوك ترك الجيش، هو أيضاً. وقد قيل له كذلك أنه ما يزال يعيش في مجتمع الأثرياء، دون أن يعلم أحد كيف، بالرغم من ذهاب ثروته، ومن ديونه. إن أناقة ملبسه، وما تنطق به ملامحه من رضا، إن ذلك أثبت لنيكليودوف أنه لم يُخدع وأن ما قيل له صحيح.

قال الضابط القديم مماًزحاً، وهو ينزل من عربته، ويقوم كتفيه:

— ما أعظم حظي بلقائك! أقسم أنه لم يبق أحد في المدينة! آه، يا عزيزي، لقد كبرت! تصوّر أني لم أعرفك إلا من مشيتك. ستتغذى معاً، أليس كذلك؟ أين يمكننا أن نتغذى غداً لائقاً في هذا البلد؟

أجاب نيكليودوف وهو لا يفكر إلا في العثور على العذر لترك رفيقه القديم:

— أخشى ألا أستطيع القبول.

ثم سأله:

— وأنت، ماذا تفعل هنا؟

— أنا، يا عزيزي، جئت من أجل قضية، قضية الوصاية. أتعلم أنني وصي؟ وأنسي أدير أملاك سامانون الثري الكبير؟ تصوّر أنه ضعيف العقل! أربعة وخمسون ألف هكتار من الأرض!

وقد أوضح ذلك بأقصى ما يمكن من الرضا عن الذات حتى كأنه هو صانع هذه الثروة. وأردف:

— كان ذلك كله في فوضى مروّعة. إذ استولى الفلاحون على الأرض، وكفوا عن دفع العائدات، وغدا العجز هائلاً، فبلغ المتأخر أكثر من ثمانين ألف روبل. لكنني أعدت الوضع إلى حالته الطبيعية، في سنة وصاية. ودفعت لمجلس الوصاية مبلغاً أكبر بسبعين في المائة. فما قولك؟

تذكر نيكليودوف أن هذه القصة قد رويت له بالفعل. ذلك أن شونبوك الذي بدد ثروته كلها، وغرق في الدين حتى أذنيه، قد عُيِّن لئدير، بصفته وصياً، ثروة مليونير أُصيب بالخرق.

وفكر نيكليودوف وهو يتأمل هذا الوجه المتألق والمتنفخ الذي برز فيه شاربان بديعان. لامعان من دُهن التجميل: «كيف يمكنني أن أستاذنه دون أن أجرحه؟».

— حسناً! أين نتغذى؟

فأعلن نيكليودوف، وهو يخرج ساعته:

— هذا مستحيل اليوم، حقاً.

— أحقاً ما تقول؟ إذن اسمع، في هذا المساء سباق للخيل، فهل تأتي؟

— لا، مستحيل.

— بل، يجب أن تأتي. لم يبق لدي خيل، أنا، لكن غريشا أعارني أحد جياده. أتعلم أن عنده اسطبلًا رائعاً؟ وهكذا، اتفقنا، ستأتي وستتناول العشاء معاً.

فأجاب نيكليودوف وهو يتسم:

— وهذا أيضاً، لا أستطيع أن أعدك به.

- ما بك، إلى أين أنت ذاهب الآن؟ أتريد أن أوصلك؟

- شكراً، أنا ذاهب إلى منزل محام، قريب من هنا.

فانفجر شونبوك ضاحكاً.

- آه! نعم، يبدو أنك تقضي حياتك في السجون، الآن. إنك تحمل إلى السجناء حاجاتهم، آل كورتشاغين قالوا لي ذلك. أتعلم أنهم سافروا؟ حدثني قليلاً عن هذه القضية؟

فأقر نيكليودوف:

- هذا كله صحيح، لكن هذه القضية معقدة جداً، ولا يمكن أن أروي لك شيئاً منها في الطريق.

- آه! يا صاحبي، ستبقى إذن أبداً ذلك الرجل الغريب الأطوار؟ مهما يكن، أنا أنتظرُك هذا المساء، بعد السباق.

- مستحيل لا أستطيع، ولا أريد حقاً. لن تحقد علي، على الأقل؟

- لن ينقصنا سوى هذا! وأين تُقيم؟

وغدا وجهه جاداً، على حين غرة، ونظرة عينيه جامدة، كأنه يحاول أن يتذكر شيئاً ما. وأبصر نيكليودوف التعبير المتبدل ذاته الذي لاحظته عند الرجل المقطَّب الحاجبين، الفاجر الفم، في نافذة الحانة فسأله:

– الجو بارد، أليس كذلك؟

– نعم، نعم...

وسأل شونبوك سائق العربة فجأة:

– مُشترياتي، معك؟

ثم قال، وهو يشدّ بقوة على يد نيكليودوف:

– طيب، إلى اللقاء إذن؟ سررت جداً بلقائك؟

ووثب إلى العربة، ولوّح، أمام وجهه المتألق، بيده الالابسة قفّازاً من الجلد الفاخر، وابتسم ابتسامة تقليدية كشفت عن أسنانه الناصعة البياض.

سأل نيكليودوف نفسه، وهو يتابع طريقه إلى منزل المحامي:

«أمن الممكن أنني كنت هكذا، أنا أيضاً؟ وأسفني! لقد فعلت كل شيء لأغدو هكذا، ظناً مني أن حياتي ينبغي أن تكون كذلك».

x x x

كان المحامي في منزله، وقد بادر إلى استقبال نيكليودوف قبل المراجعين الآخرين. حدّثه، على الفور، عن قضية منشوف. ذلك أنه درس الإضبارة فوجد أن التهمة، بالفعل، غير ثابتة. وأكّد قائلاً:

— القضية، مع ذلك، بالغة التعقيد. والأرجح أن صاحب الحانة هو الذي أضرم النار في مخزنه، ليحصل على تعويض التأمين. الحقيقة أن ليس هناك أدنى أثر للأدلة المادية. وقد نتج الحكم فقط عن فرط حماسة قاضي التحقيق وإهمال وكيل النائب العام. لكن الشر وقع، ومن الصعب تغيير الأمور. لا قيمة لذلك. ليتنا نستطيع فقط الحصول على إعادة النظر في القضية، وفي المحكمة هنا، إذن لضمانت ربح القضية، ولرافعت دون أجره. ثم إني اهتممت أيضاً بقضية فيدوسيا بيريوكوف التي حدثتني عنها؛ خذ، هوذا التماس العفو لها، إذا ذهبت إلى بطرسبرج من أجل ماسلوف، فخذ هذا الإلتماس معك واسع إلى أن توصي بها. وإلا فإن الطلب سيُدفن في أدراج المكاتب؛ إذا ما تركنا الأمر للإدارة، وسنُضيع وقتنا سدىً. إبدل وسعك، بما أن القضية تغيّك، لتصل إلى الأشخاص الذين لهم تأثيرهم في لجنة العفو. هذا كل ما عندي. أيمكنني أن أخدمك في أي شيء آخر.

— الواقع، نعم... قيل لي...

فقال المحامي وهو يقهقه ضاحكاً:

— ها! ها! لقد أصبحت، فيما أرى، البوق الذي يُعلن عن مطالب السجن! لكنني أحذرك، فلن تُفلح أبداً في أن تتلقاها جميعاً، فهناك فيض منها.

فأكد له نيكليودوف:

— لا، لكن هذه القضية فظيعة حقاً.

وردد على مسمع فانارين قصة رُويت له. وهي أن فلاحاً متعلماً أخذ يقرأ الإنجيل بصوت عال ويشرحه لرفاقه. فوشى به الكاهن لأنه رأى في ذلك جرماً. وجرى التحقيق وأصدر وكيل النائب العام صك الإتهام الذي صدّقه محكمة الجنج.

ثم سأله نيكليودوف:

— أليس هذا فظيعة؟

— ما الذي أدهشك إلى هذا الحد؟

— كل شيء! أو بالأحرى لا، فأنا أفهم سلوك الكاهن وموظفي الشرطة. إذ أن هؤلاء لم يفعلوا إلا ما أمروا به. لكن هذا الوكيل الذي أصدر صك الإتهام، كان حراً في أن يستنتج شيئاً آخر، ثم إنه، رجل مثقف، في نهاية الأمر!

— عجباً! كأنك لا تعرفهم! إن الناس يتصوّرون عادة أن النواب العامين، والوكلاء، والقضاة، على العموم، من ذوي النباهة والثقافة

والعواطف المتحررة. كان الأمر كذلك فيما مضى، أما اليوم فإن الأمور تغيرت. القضاة اليوم معنيون فقط بترفيعهم، إنهم يقبضون مرتباً، ويتمنون مرتباً أعلى؛ ومبادئهم لا تتعدى هذه الحدود. وهم مستعدون، بعد ذلك، ليتهموا ويحكموا ويدينوا مَنْ تشاء.

- لكن هناك قوانين! ليس لهم الحق في أن ينفوا رجلاً لمجرد أنه قرأ الإنجيل مع أصدقائه.

- ليس لهم الحق في إبعاده فحسب، بل وفي إرساله أيضاً إلى الأشغال الشاقة إذا ما عَنَّ لهم أن يُعلنوا أن هذا الرجل قد ابتعد، في شرحه للإنجيل، عن الشرح المفروض. فهو بهذا يكون قد أهان الكنيسة جهاراً. إهانة الديانة الأرثوذكسية: الأشغال الشاقة! المادة ١٩٦.

- أممكن هذا؟

- الأمر كما قلت لك. وأنا أكرر دائماً للقضاة أنني لا أستطيع أن أراهم دون الإحساس بأن قلبي ممتلئ بعرفان جميلهم، نظراً لأنني، إن لم أكن في السجن، وإن لم تكن أنت في السجن، وإن لم يكن الناس جميعاً في السجن، فذلك نتيجة لتكرّمهم علينا.

- لكن إذا كان كل شيء يتوقف على تعسف النائب العام وتعسف أشخاص آخرين يستطيعون أن يفسّروا القانون على هواهم، فلماذا وُجدت المحاكم؟

استقبل فانارين هذا السؤال بضحك فرح:

- ما أغرب أسئلتك، أنت! لكن ذلك كله، يا عزيزي، من الفلسفة. على كل حال، لماذا لا نناقش ذلك؟ تعال إذاً إلى منزلي،

في يوم السبت، وستلقي علماء وأدباء وفنانين. وبوسعنا أن نناقش، بحرية، هذه القضايا الاجتماعية.

قال المحامي ذلك، وشدد بتهكم على هاتين الكلمتين: «القضايا الاجتماعية». وأضاف:

— أتعرف زوجتي؟ سنكون سعداء باستقبالك.

— بالتأكيد، سأبذل وسعي...

كذلك أجاب فانارين، وهو يحس أنه يكذب، وأنه سيبذل وسعه، على العكس، لكي لا يأتي إلى استقبال فانارين، لأنه لا يشتهي أن يعرف هذه الحلقة من العلماء والأدباء والفنانين.

إن ضحك فانارين، جواباً عن سؤاله، واللهجة الساخرة التي لفظ بها كلمتي «قضايا اجتماعية»، أفهماه أخيراً إلى أي حد تختلف طريقته في التفكير والإحساس عن طريقة المحامي، وعن طريقة أصدقائه، من غير شك. وعلى الرغم من التبدل الذي طرأ على نفس نيكليودوف، فقد حُيِّل إليه أن شونبوك سيظل أبداً أقل بعداً عنه من فانارين ومن جميع المثقفين الذين هم حوله.

× × ×

كان السجن بعيداً والوقت متأخراً. فأوقف نيكليودوف عربة وأمر أن تُقلّه إلى السجن. وأثناء الطريق، التفت الحوذي، وهو رجل متوسط السن، ذكي الطلعة، وديع الوجه، نحو نيكليودوف ليشير له بإصبعه إلى عمارة كبيرة في طور البناء، قال باعتزاز، كأن جزءاً من الفضل في هذا البناء يعود إليه:

— أنظر إلى هذا البناء!

كان في الواقع، بناء ضخماً، مصمماً بأسلوب شديد التعقيد، والغرابة، يحيط به حباكّ متين من جسور الصنوبر الضخمة التي ثبتت بقضيب من الحديد، وانفصلت عن الشارع بحاجز. وكان البناؤون يتحركون على الصقالات، وهم مغطون بالكلس، كما يتحرك النمل. فبعضهم كان يني، وبعضهم الآخر يقطع الحجارة. وكان آخرون يصعدون بالسطول والنقالات ملأى بمواد البناء لينزلوا بها بعد ذلك فارغة.

كان يقف عند أدنى الصقالة سيد بدين، أنيق اللباس، لعله المهندس، وكان يكلم رئيس العمال الذي أخذ يصغي إليه باحترام، وهو يريه شيئاً فوق. ومن البوابة، كانت العربات الفارغة تخرج والعربات الملأى تدخل، مارة أمام الرجلين.

حدّث نيكليودوف نفسه وهو يلاحظ البناية: «العجب أن هؤلاء الناس مقتنعون بأنهم يقومون بعمل نافع، سواء منهم مَنْ يعمل أم من يأمر. أثناء هذا الوقت، تُضني نساؤهم أنفسهم بالعمل، في الريف، ويُحكم على أولادهم في المهّد، أن يموتوا جوعاً، وهم يتسمون كأنهم شيوخ صغار، وأن يحركوا سوقهم التي زال عنها لحمها. هم يظنون أنهم يقومون بواجبهم، وهم يبنون هذا القصر التافه، الذي لا نفع فيه، لثري غبي لا نفع فيه. وقرر، بصوت عال:

— في الحقيقة، إنه منزل سخيّف.

فغضب الحوذي:

— كيف، سخيّف؟ بل شكراً له، إنه يُشغّل كثيراً من الناس...

— لكنه عمل لا نفع فيه!

فردّ الحوذي:

— لو كان ذلك لما أقدموا عليه. إنه يُطعم كثيراً من الجائعين.

صمت نيكليودوف، ولا سيما لأن ضجيج العربات على بلاط الطريق جعل الحديث عسيراً. وغير بعيد من السجن، انتقل الحوذي من الشارع إلى طريق ترابية مطروقة، فغدا الحديث أيسر. والتفت نحو نيكليودوف وهو يقول:

— ما أكثر هؤلاء الناس الذي يَفقدون على المدينة! هذا رهيب!

واستدار على مقعده، وأرى نيكليودوف جماعة من العمال آتين من الريف، يحملون المناشير والفؤوس والحزم التي رفعوها على أكتافهم المغطاة بمعاطف قصيرة من الفرو.

استفهم نيكليودوف:

— أ هم أكثر عدداً من السنين السابقة؟

— لاشك! نكبة حقيقية... أرباب العمل يتداولونهم، وقد غصت المدينة بهم، في كل مكان.

— لكن لماذا؟

— إنهم أكثر من اللازم، ولا عمل لهم.

— إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يبقون في الريف؟

— وهناك لا يجدون عملاً، لا أرض لهم.

أحس نيكليودوف كأنه يتلقى ضربة، يبدو أن الناس يستسيغون صدم الجانب الحساس فيه، دون عمد. ففكر: «أمن الممكن أن تكون القصة هي نفسها إلى الأبد؟». وسأل الحوذي ما مقدار الأراضي التي في قريته، وكم زرع هو نفسه، ولماذا جاء إلى المدينة.

— لنا من الأرض، يا سيدي، هكتار لكل نفس. عندنا أرض لثلاثة أشخاص. في البيت أبي وأخي. أخي الآخر جندي. هم يدبرون أنفسهم، لكن الأرض لا تكفي... يريد أخي أن يأتي هو أيضاً إلى موسكو.

- لا تستطيعون أن تستأجروا حقولاً أخرى.

وأين نجدها؟ أسيادنا القدماء تخلصوا من أراضيهم، فانتهت إلى أيدي التجار. وهؤلاء لا يؤجرونها، بل يزرعونها لحسابهم الخاص. في قريتنا فرنسي اشترى كل ما لدى النبيل القديم من أرض. وهو يأبى أن يؤجرها.

- من هو هذا الفرنسي؟

- اسمه «دوفار»، ولعلك سمعت به. هو بائع الشعر المستعار في المسرح. هذه مهنة مربحة حقاً... اغتنى منها! لقد اشترى كل أملاك سيدتنا. وغدا هو السيد الآن وهو يعاملنا كما يحلو له. ومن حسن الحظ أنه رجل طيب، بينما امرأته...! هي روسية لم يُر لها مثيل! إنها تستغل أهل قريتها! يا للعار! لكن هوذا السجن. هل أوصلك إلى البوابة؟ أعتقد أنهم لن يسمحوا لك بالدخول.

× × ×

قرع نيكليودوف الباب الرئيسي، وهو منقبض القلب. كان يتساءل برعب في أية حالة سيجد ماسلوفاً، وكان يرعبه أكثر من ذلك هذا السر الخفي الذي أحسه فيها، والذي بدا له أن السجن كله ممتلئ به. عندما فُتِحَ الباب له، طلب أن يرى ماسلوفاً. فبادر الحارس الذي عرفه، إلى إدخاله، وقال له إن ماسلوفاً نُقلت إلى المشفى. فاتجه نيكليودوف إلى هذا القسم، ووجد حارساً طيباً، قديماً، أدخله رأساً، وقاده هو نفسه إلى قسم الأطفال حيث تعمل ماسلوفاً.

خرج إلى لقاء نيكليودوف طبيب متمرن تنبعث منه رائحة قوية من حامض الفينيك، وسأله، بلهجة قاسية، عن الغرض من زيارته. كان هذا الطبيب شديد المجاملة للمرضى، مما عرضه دائماً لتنبهات موظفي السجن ورئيسه، رئيس الأطباء. لقد خشى أن يلتمس منه نيكليودوف طلباً غير مقبول، ولعله أراد أن يُظهر أنه لا يستثني أحداً، فحمل نفسه على الظهور بأقصى مظهر ممكن. ودمدم قائلاً:

— ليس ها هنا نساء، هذا قسم الأطفال.

- أعلم ذلك، لكن قيل لي أن ها هنا سجينة نُقلت حديثاً بصفتها ممرضة.

- عندنا اثنتان، في الواقع. فماذا تريد بالضبط؟

أوضح نيكليودوف:

- إني أهتم بإحداهما، المرأة ماسلوف، وهي التي أود أن أراها. سأذهب غداً إلى بطرسبرج لنقض الحكم.

وأضاف وهو يخرج من جيبه مغلفاً:

- ثم إني أريد أن أعطيها هذا المغلف. ليس فيه سوى صورة. قال الطبيب الشاب بعد أن عاد إليه هدوءه:

- حسن، سأدعوها.

والتفت إلى ممرضة عجوز تضع وزرة بيضاء، فرجاها أن تأتي بالمرأة ماسلوف.

- ألا تريد أن تجلس، أو تنتقل إلى قاعة انتظار الممرضات.

أجاب نيكليودوف:

- شكراً.

وانتهز تغيّر موقف الطبيب ليسأله إن كان مسروراً من عمل ماسلوف.

فقال الطبيب:

— بدون شك، لأبأس بعملها، ولا سيما إذا فكرنا في المكان الذي جاءت منه. ها هي ذي؟

دخلت ماسلوفاً البهو تقودها الممرضة العجوز. كانت، هي أيضاً ترتدي وزرة بيضاء فوق فستان من القماش المخطط، وتضع على رأسها منديلاً أخفى شعرها. وعندما شاهدت نيكليودوف انذهلت لحظة من الزمن: قطبت حاجبيها، وغضت بصرها، وتقدمت نحوه بخطوات سريعة وهي تحمر. لم تشأ، أول الأمر، أن تمد يدها، ثم انتهت بأن مدتها، وهي تزداد احمراراً. لم يكن قد رآها منذ ذلك اليوم الذي اعتذرت فيه عن غضبها عليه. كان يتوقع أن يجدها محافظة على عواطفها نفسها. غير أنها بدت، هذه المرة، مختلفة تماماً، متحفظة منغلقة على نفسها، وبدت، فيما قدر، معادية له.

كرر عليها ما قاله للطبيب الشاب: إنه سيذهب إلى بترسبرج، وأنه حرص على رؤيتها قبل سفره، وأنه حمل إليها شيئاً. وسلمها الصورة، قائلاً:

— خذي، عثرت عليها في «باتوتو»، إنها صورة قديمة، ربما سررت بالنظر إليها. خذيها.

رفعت حاجبيها الأسودين، ونظرت عيناها اللتان بهما شيء من الحول إلى نيكليودوف وهما تعبران عن الدهشة وكأنها كانت تتساءل:

«لَمْ يُعْطِنِي هذه الصورة؟» ثم قبلت المغلف، وخبأتها تحت وزرتها، دون أن تفوه بكلمة.

أضاف نيكليودوف:

- رأيت خالتك في القرية.

فقالت بصوت غير مبال:

- آه!

- وكيف تجدين نفسك هنا!

- حسنة جداً، لست أشكو شيئاً.

- والعمل، أليس مرهقاً؟

- لا، لكنني لم أعوده بعد؟

- أنا مسرور لك. فهذا أفضل لك من هناك.

فهتفت. والدم يتدفق من وجنتيها:

- «هناك» أين؟

فسارع نيكليودوف إلى الإيضاح:

- في السجن.

- ولم كان هنا أفضل؟

- أتصور أن الناس هنا أفضل، هنا أنواع أخرى من الناس. فردّت

ماسلوفاً بلهجة جافة:

- وهناك أيضاً كثير من الناس الطيبين!

- بالمناسبة، لقد بحثت في قضية منشوف، وآمل كثيراً أن يُطلق

سراحهم.

فأعلنت مرددة تعريفها للعجوز السجينة:

— ليحفظها الله! إنها عجوز غير عادية!

استضاء وجهه بابتسامة خفيفة:

— كما آمل أن ينظر في قضيتك، قريباً في بطرسبرج، وأن يُنْقَضَ الحكم.

— سواء علي نقض أم لم ينقض، لست أبالي بشيء، الآن.

— لماذا تقولين «الآن»؟

أجابته، وهي تنظر إليه خلصة نظرة مُستفهمة:

— هكذا...

تصوّر نيكليودوف أنها تريد أن تعلم إن كان باقياً على عزمه، أو إن كان قد قبل الرفض الذي قابلته به.

— لا أفهم لماذا لا تبالين بذلك. بالنسبة إلي لم يتغير شيء. فمهما يحدث لك، سأكون مستعداً أبداً للقيام بما قلته لك.

رفعت إليه مرة أخرى عينيها المائلتين إلى الحول. وعلى الرغم منها، كان الفرح العميق يُقرأ فيهما بوضوح؛ لكنها لم تصُغ هذا الفرح الذي نمت عليه عيناها، في كلمات، وأكدت:

— أنت تضيع وقتك في الحديث معي هكذا.

— إني أحدثك هكذا لكي تعرفي ما هو كائن.

أعلنت له، وفي صوتها آثار من الجهد:

— قد قيل ما قيل، وليس لدي ما أضيفه.

في هذه اللحظة، تناهت إليهما ضوضاء في الغرفة المجاورة، تبعها صراخ طفل. قالت ماسلوفاً وهي تلقي حولها نظرة قلقة:

— أعتقد أنهم ينادونني.

— طيب! إلى اللقاء، إذن.

تظاهرت بأنها لم تر اليد التي مدها إليها، وولّت هاربة دون أن تلتفت إلى الوراق، محاولة أن تخفي فرحها.

تساءل نيكليودوف: «ماذا يجري فيها؟ فيم تفكر وبماذا تحسّ؟ أتريد فقط أن تمتحنني. أم أنها لا تستطيع أن تصفح عني؟ أهى تكنّ لي الودّ أم الكره؟ عبثاً جهد في الجواب عن هذه الأسئلة. شيء واحد بدا له بوضوح: إن تبسلاً عظيماً أخذ يعتمل فيها، وبهذا التبدل غداً، هو نفسه، أقرب إليها وإلى الذي باسمه تصرّف. إن فكرة هذا التقارب ملأته بفرح ممتزج بالتأثر.

في هذه الأثناء، عادت ماسلوفاً إلى القاعة التي كانت تعمل فيها، وكانت قاعة صغيرة، لا تحتوي إلا على ثمانى أسرة للأطفال. أخذت ماسلوفاً ترتب الأسرة، بناء على أمر الراهبة، وفجأة، زلّت قدمها، بعد أن رفعت ذراعها وانحنت إلى الوراق، أكثر مما ينبغي، وكادت تسقط. فإذا بطفل ناقه، معصوب الرأس، جالس على أحد الأسرة، ينفجر

ضاحكاً. وإذا ماسلوفاً تعجز عن أن تتمالك نفسها، فتنتطلق هي أيضاً بضحك فرح، جدّ مُعَدِّ حتى إن جميع الأطفال ضمّوا إليه ضحكهم.

ظنت الراهبة من واجبها أن تغضب، فاحتدّت:

— مالك تضحكين هكذا؟ أتظنين أنك مازلت هناك، حيث كنت؟ اذهبي رأساً إلى المطبخ وهاتي حصصهم من الطعام.

كفت ماسلوفاً عن الضحك، ومضت إلى حيث أرسلت. لكن الكلمات القاسية التي قالتها الراهبة لم تستطع أن تكبح جماح فرحها. ولقد أخرجت من المغلف الصورة التي حملها إليها نيكليودوف، عدة مرات، أثناء النهار، وهي وحدها، لتلقي عليها نظرة عجلى. وعندما استطاعت أخيراً أن تأوي إلى الغرفة التي تسكنها مع ممرضة أخرى، بعد تفقّد المساء، تأملت ملياً الصورة، متوقفة عند أدق تفاصيل الوجوه والملابس والدرج. كانت تجد في هذه الصورة الذابلة والصفراء سحراً خارقاً. وكانت تستمتع، على الخصوص، بأن تعثر على نفسها فيها، وبأن ترى صورتها آنذاك، تلك الصورة الفتية والنضرة، بخصل شعرها المتدلّية على جبينها. كانت مستغرقة بعمق في تأملها حتى أنها لم تفتن إلى اللحظة التي دخلت فيها رفيقتُها إلى الغرفة. فقالت وهي تنحني فوق كتفها:

— إلامَ تنظرين هنا؟ «هو» الذي أعطاك هذا؟ عجباً، كأنها صورتُك!

قالت ماسلوفاً، وهي تبتسم من السرور:

— حقاً، أيمكن تعرّفي؟

— وهذا، أهو «هو»؟ وهذه، أهى أمه؟

— لا، هذه عمته؟ لكن، أحقاً، يمكن تعرّفي؟

— الواقع أنكِ تغيرتِ كثيراً؟ فلم يعد لكِ الوجه نفسه! ومن الواضح أنه قد مرّت أعوام عديدة، منذ ذلك الوقت!

فتنهّدت ماسلوفا:

— ليست الأعوام هي التي غيرتني، بل شيء آخر.

وفي اللحظة نفسها حَبَّتْ بهجتها، واكفهرَّ وجهها، وارتسمت تجعيده على جبينها.

— ماذلك الشيء الآخر؟ حياتك لم تكن، مع ذلك، شاقة جداً!

أجابت ماسلوفا وهي تدير رأسها:

— لا، لم تكن شاقة جداً. لكن السجن، مع ذلك، خيرٌ منها.

— ماذا تقولين؟

— هكذا. من الثامنة مساءً إلى الرابعة صباحاً، وذلك في كل يوم...

— كان بإمكانك أن تهجري تلك الحياة.

فتحسّرت قائلة:

— أردتُ أن أهجرها غير مرة، فلم أستطع قط. لكن ما جدوى

الكلام على ذلك كله؟

نهضت وجرت تخبيئ الصورة في أعماق درجها، قبل أن تخرج من الغرفة، وهي تجهّد في حبس دموع الغضب. لقد ظنت نفسها تعود كما كانت قديماً، عندما تأملت الصورة: فكّرت في السعادة التي

عرفتها والتي كان يمكن أن تعرفها أيضاً. لكن كلمات زميلتها ذكرتها بما آلت إليه. ورأت من جديد بشاعة هذه الحياة التي أحست دائماً نحوها بخجل مبهم، دون أن تجسر على الاعتراف بذلك أمام نفسها. وانتصبت أمامها، بخاصة، ذكرى إحدى ليالي عيد المرفع. كانت ماسلوفاً ترتدي فستاناً من الحرير الأحمر، مفتوحاً عند الصدر والظهر، وملطّخاً ببقع الخمر، وفي شعرها المشعث شريطة حمراء. جاءت وجلست لحظة بجانب عازفة البيانو، قبل أن تعود إلى الرقص، وبعد أن ودّعت زائراً، في الساعة الثانية صباحاً، وهي متعبة، مخبولة، نصف سكرانة. وكانت عازفة البيانو نحيلة، هزيلة، تغطي جسمها الدمامل. وفجأة أحست ماسلوفاً بالغم يُثقل قلبها، فاعترفت لها بأن الحياة التي تحياها شاقة عليها، وأنها لم تعد تقوى على احتمالها أكثر من ذلك. وأجابتها العازفة بأنها هي نفسها أيضاً متعبة من هذه الحياة. واقتربت كلارا منها فضمت شكواها إلى شكواهما، واتفقت أن ينصرفن ويغيرن حياتهن عندما يستطعن ذلك. وكانت ماسلوفاً على وشك أن تغادر قاعة الاستقبال، وتصعد إلى غرفتها، بعد أن عدلت عن الرقص، عندما علت في البهو أصوات الوافدين المخمورة. فبدأت عازفة الكمان لحناً موسيقياً، وأسرعت عازفة البيانو إلى مصاحبتها. ودخل رجل قصير سكران، في ثياب سوداء وربطة بيضاء، فأمسك بماسلوفاً من خصرها، في حين احتضن كلارا رجل ضخيم ملتج. فرقصوا وغنّوا وشربوا وصرخوا طويلاً. وهكذا مرت سنة، ثم سنة أخرى. فكيف تُغيّر حياتها؟

والسبب الوحيد لذلك كله كان نيكليودوف. وأحست بالكره يستيقظ فيها أقوى من أي وقت مضى. وودت لو أمكنها، أن تهينه

وتضربه، وندمت لأنها، في هذا اليوم نفسه، ضيّعت الفرصة التي تُبلّغه فيها أنها تعرفه حق المعرفة، وأنها لن تنقاد له، وأنها لن تسمح له بإغوائها، مرة ثانية. لقد كان انفعالها شديداً، وأحسّت بألمها يتفاقم، وبغضبها يحتدم، فتملكتها رغبة في الشراب لتهدأ وتنسى. وكانت ستشرب لو أمكنها الحصول على الخمر، بالرغم من اليمين التي قطعت على نفسها بأنها لن تقرّب الخمر. لكن الخمر كانت بعهدة رئيس المرضين، وكانت ماسلوفا تخاف هذا الرجل: كانت تعلم أنه يشتهيها. وظلت زمناً جالسة على مقعد في البهو، فلما عادت إلى غرفتها، أبت أن ترد على كلام زميلتها، وبكت طويلاً على حياتها الضائعة.

× × ×

فضلاً عن طعن ماسلوف بالنقض، وهو الغرض الرئيسي من زيارة نيكليودوف لموسكو، فقد كان عليه أن يهتم بثلاث قضايا أخرى، اثنتان منهما أشارت بهما عليه «فيرا بوغودو كفسكايا». كان عليه أن يحاول حمل لجنة العفو على قبول التماس فيدوسيا بيريوكوف، المرأة الشابة المحكومة لأنها أرادت قتل زوجها الذي صفح عنها منذ ذلك الوقت. وكان عليه أن يطلب من رئيس الدرك أو من الفرع الثالث^(١٩) إطلاق سراح الطالبة «شستوف». وأخيراً كان يريد أن يحصل على الأذن باستدعاء المتعصبين الأشقياء الذين قرووا الإنجيل وفسروه، من القوقاز حيث نُفوا بعيداً عن أسرهم.

كان نيكليودوف يحس، منذ زيارته الأخيرة لماسلينيكوف وإقامته في الريف، بنفور عميق يتغلغل إليه من المجتمع الذي هو جزء منه. لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير في أن ملايين البشر يتألمون من أجل رفاهية المجتمع المذكور ومتعته. ولقد عميَ بصر هذا المجتمع عن رؤية آلام تلك الملايين، كما عمي، في الوقت نفسه، عن رؤية ما

١٩ - الفرع الثالث: الشرطة السياسية التي أنشئت في عهد نيقولا الاول.

فيه من حقارة وإجرام. لكن معارف نيكليودوف كانوا، مع ذلك، من هذا المجتمع؛ وفي هذا المجتمع أقر باؤه وأصدقائه، فكان لزاماً عليه، حين فكر في مساعدة ماسلوف والبائسين الآخرين الذين أخذ على نفسه الدفاع عن قضيتهم، أن يلتمس سند هذا المجتمع ومساعدة أفرادهِ، مهما يكن النفور الذي يحسّ به نحو هذا المجتمع، على العموم، ونحو أولئك الأفراد على وجه الخصوص.

هذا الاعتبار الأخير هو الذي حداه، لدى وصوله إلى بطرسبرج، على النزول عند خالته، الكونتيسة تشارسكي، زوجة أحد الوزراء السابقين. كان يعلم أنه سيغرق في قلب هذا العالم الأرستقراطي الذي غدا غريباً عنه. أحزنه هذه الفكرة، لكنه لم يكن يجهل أنه سيهين خالته إذا لم يذهب إلى بيتها، وأنه سيحرّم نفسه حينئذ من عون يمكن أن يكون عظيم القيمة بالنسبة لمشاريعه.

هتفت الكونتيسة كاترين ايفالوفنا، صبيحة وصوله، وهي عاكفة على تقديم فنجان من القهوة له:

— لقد رُويت لي أشياء كثيرة عنك! إنك تتشبه بهيوارد^(٢٠) وتطرح نفسك نموذجاً للمصلح الإنساني الذي يساعد المجرمين، ويزور السجناء! وهكذا فأنت تقوم بتحقيقات؟

— الواقع لا، ولا يخطر ذلك ببالي.

٢٠ - مصلح إنساني إنكليزي وقف حياته على زيارة السجون وعلى النضال في سبيل إصلاحها. مات في القرم.

— آه! هذا أفضل! إذن لابد أن هناك مغامرة غرامية؟ هيا، إروها لي.

روى نيكليودوف قصة صلاته بماسلوف، بدقة كما وقعت له:

— نعم، نعم، تذكرت الآن! المسكينة أمك حدثتني عن ذلك كله حديثاً غير واضح، بعد إقامتك عند العانسين، ألم يجلب بخيالهما أن يزوجاك ربيتهما القاصرة!

لقد نظرت الكونتيسة كاترين ايفانوفنا دائماً باحتقار إلى عمتي نيكليودوف؛ وتابعت:

— هي إذن مدار اهتمامك. أما تزال جميلة؟

كانت الكونتيسة كاترين ايفانوفنا في نحو الستين، موفورة العافية، مرحة، قوية، ثرثارة، طويلة القامة، بدينة جداً، لها شارب أسود، نحيف، مرسوم بدقة على شفتها العليا. وكان نيكليودوف يحب خالته كثيراً. فمنذ الطفولة تعود أن يأتيها ليستقي منها القوة والمرح.

— لا، يا خالتي، كل ذلك انتهى. ولست أرغب إلا في مديد العون إليها. لقد حُكم عليها ظلماً، وأنا المذنب المسؤول عن شقاءها كله. أشعر أنني ملزم بأن أفعل لها كل ما في استطاعتي أن أفعله.

— تصوّر أنه قيل لي: إنك كنت تريد الزواج بها.

— نعم، أردت ذلك ومازلت أريده؛ هي التي لا تريده.

عاد إلى كاترين ايفانوفنا التي كانت تنظر إلى ابن أختها بوجه حزين،

عاد إليها هدوءها عند هذه الكلمات الأخيرة، وهتفت متعجبة:

- إيه! إنها أعقل منك! يا ولدي المسكين، أي مغفل أنت! أحقاً تريد الزواج بها؟

- بدون أدنى شك.

- بعد كل ما كان منها؟

- لاسيما بعد ذلك، ألسْتُ أنا السبب في كل ما أصابها؟ فأعلنت الخالة وهي ماتزال تبتسم:

- اصغ، أنت مغفل حقيقي. مغفل كبير. لكني أحبك مع ذلك. يا لك من مغفل!

كانت تكرر هذه الكلمة بإصرار، وكأنها كانت مسرورة لأنها عثرت على اللفظة التي تحدد تحديداً تاماً الفكرة التي كوَّنتها عن ابن أختها. وتابعت:

- في الواقع، ما أروع هذه المصادفة ذلك أن «آلين» افتتحت ملجأ المجذليات التائبات! وقد ذهبت منذ وقت قريب. يا للفضاعة! لكن آلين مخلص للجنَّها، جسداً وروحاً. إعهد إليها بمحميتك. إن كان في العالم إنسان يمكن أن يردها إلى الطريق المستقيم فهو «آلين»

- إن... إيه... تلك البائسة في السجن، ريشما تُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة. وقد جئت بالضبط إلى هنا من أجل العمل على تمييز الحكم. هذه قضية من جملة قضايا سأكون بحاجة إلى مساعدتك فيها.

- بمن تتعلق قضيتك؟

- بمجلس الشيوخ!

- مجلس الشيوخ؟ لكن ابن عمي «ليوفوشكا» في مجلس الشيوخ. في الواقع، كدت أنسى أنه في «دائرة الشعارات»^(٢١). ولا أعرف شخصاً غيره في مجلس الشيوخ. فلسنا نجد فيه سوى أشخاص لا يعلم إلا الله من أين جاؤوا، أو هم ألمان^(٢٢). أناس من عالم آخر! لكن لا قيمة لذلك، سأحدث زوجي في الأمر. هو يعرف الجميع؛ سأحدثه في ذلك، لكن يجب أن تشرح له القضية أنت بنفسك، فهو لا يفهمني أبداً. ومهما أقل له يجبني بأنه لا يفهم. وهذا رأي جاهز منه، كل الناس يفهمونني ماعداه.

قوطعت الكونتييسة عن مسارتها بدخول خادم يرتدي البذلة الرسمية ويحمل رسالة على طبق من فضة.

- رسالة جاءت في وقتها! هي من آلين. تستطيع أيضاً أن تستمع على «كيسويتز»^(٢٣)!

- ومن كيسويتز؟

٢١- دائرة الشعارات، كان في مجلس الشيوخ، إضافة إلى دائرة التمييز. دائرة للشعارات تهتم بالألقاب النبالة.

٢٢- كان في دوائر الدولة وفي الجيش عدد من الألمان، في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.

٢٣- كيسويتز: شخصية خيالية أخذ تولستوي اسمه من اسم عازف كمان نصف مجنون في قصة ألبرت.

– كيسويتر؟ تعال هذا المساء إلى بيتنا، وسترى مَنْ هو. إنه يُحسن الكلام حتى إن أشدَّ المجرمين فساداً يرمون عند قدميه ويكون من الندم.

كانت الكونتيسة كاترين ايفانوفنا مشايعة متحمّسة للنظرة التي تقول إن جوهر المسيحية يقوم على الفداء، مع أن هذه المشايعة لا تتفق وطبعها. وكانت تتردد على الاجتماعات التي يدعون فيها إلى هذا المذهب الذي شاع في هذا الوقت، كما كانت تدعو أتباعه إلى منزلها.

وبالرغم من أن هذا المذهب لا يقبل بالطقوس، ولا بالأيقونات، ولا بالأسرار، إلا أن جميع غرف منزل الكونتيسة كانت ملأى بالصور المقدسة؛ وكان بعضها فوق سريرها نفسه. كانت تتبع جميع التعاليم الدينية دون أن تتبيّن هذا التناقض.

وأردفت:

– آه! لو أن مجديّتك سمعت «كيسويتر» هذا، لاهتدت على الفور! لكن تعال أنت، هذا المساء، لا تتخلف؛ واسمعه. هو رجل مدهش!

– هذه الأشياء، يا خالتي، لا تهمني كثيراً...

– بلى، قلتُ لك إنها ستهمك. تعال، إني أريد ذلك، أستمع؟ والآن قل لي ما الذي تطلبه مني أيضاً. هيا، أفرغ جعبتك.

– علي أيضاً أن أعنى بقضية شاب سجين في القلعة.

- في القلعة! أوه! يمكنني أن أعطيك رسالة إلى البارون كريغسموت إنه رجل طيب جداً؛ ثم إنك تعرفه معرفة حسنة. كان رفيقاً لأبيك. وهو يؤمن باستحضار الأرواح إيماناً بليداً، لكن لا قيمة لهذا، فهو رجل طيب مع ذلك. ماذا تريد منه؟

- أن يأذن لأم الشاب بأن ترى ابنها. ثم إن معي طلباً يجب أن أقدمه لشرفيانسكي، وهو أمر يضايقني كثيراً.

- شرفيانسكي لا يُعجبني، لكنه زوج مارييت. يمكن أن أطلب ذلك منها، وستفعل ذلك حتماً من أجلي. إنها لطيفة جداً.

- أود أيضاً أن أطلب إطلاق سراح فتاة، طالبة، في السجن منذ عدة شهور، دون أن يعلم السبب أحد.

- أوه! هي نفسها يجب أن تعرف السبب! هؤلاء النساء القصيرات الشعر لا يُسجن إلا لأنهن جديرات بالسجن.

- لا أدري إن كن جديرات بالسجن أم لا، لكنني أدري أنهن يتألمن، كما نتألم نحن لو كنا مكانهن. كيف يمكنك، أنتِ المسيحية التي تؤمنين بالإنجيل، أن تكوني هكذا بلا شفقة؟

- ماذا تقول؟ لا معنى لهذا الكلام؟ فالإنجيل هو الإنجيل أما الشر فهو شر. أتريد أن أتباهى بحب العَدَميين، ولا سيما النساء العدميات بشعرهن القصير، في حين أُنِي لا أستطيع، في الواقع، أن أطيّقهن؟
- ولم لا تستطيعين أن تطيّقينهن؟

– تسألني عن ذلك، بعد أول آذار^(٢٤).

– لكنهن لم يشاركن جميعاً في أول آذار، يا خالتي.

– سيّان، لماذا يتدخلن فيما ليس من شأنهن؟

– لكن، لنأخذ «مارييت» مثلاً: أنت نفسك تسلّمين بأن لها الحق في الاهتمام بشؤون زوجها؟

– مارييت شيء آخر. أما أن تتصدّى ابنة كاهن، لا يُعرَف ما هي،
لثُملي علينا سلوكنا...

– لا تريد أن تُثمي علينا سلوكنا، بل تريد أن تخدم الشعب.

– لا حاجة بنا إليها لمعرفة حاجات الشعب!

سألها نيكليودوف الذي ساقته ملاطفة خالته إلى أن يطلعها على
أفكاره:

– أنت، يا خالتي، مخطئة. إن حاجات الشعب تتزايد، والحقيقة
أننا لا نعرفها. أدركتُ ذلك بنفسي، لأنني عائد من الريف. أترين
من العدل أن يكدح الفلاحون فوق قواهم، ولا يجدون بعد ذلك ما
يسدّون به جوعهم، بينما نعيش نحن في الفراغ والتّرف.

– ما الذي تتمنّاه إذا؟ أن أعمل وأُحرَم الطعام؟

٢٤ – أول آذار: مقتل الاسكندر الثاني، في أول آذار ١٨٨١.

أجاب نيكليودوف وهو يتسم ابتسامة عفوية:

- لا، لا أريد أن تظلي بلا طعام. أود أن تعلمي وأن يجد الجميع ما يأكلونه.

حدّدت خالته النظر إليه.. وأكدت له:

- أنت ستنتهي، يا عزيزي، نهاية سيئة.

- ولماذا؟

في هذه الأثناء، دخل الغرفة شيخ فارع القامة، متين البنية. كان هذا زوج الكونتيسة تشارسكي، الوزير السابق.

فهتف وهو يمد صفحة وجهه التي خلقت منذ برهة:

- آه! دميتري، مرحباً! متى وصلت؟

ثم قبل زوجته في جبينها، دون أن يفوه بكلمة. فقالت له:

- لا، إنه مضحك، يريد أن أذهب إلى النهر لأغسل غسيلتي هناك. وأن أتغذى بالبطاطا. لا تتصوّر أي مغفل هو! لكنك تحسن صنيعاً، مع ذلك، لو حققت له ما يطلبه. بالمناسبة، أعلم أن السيدة كامنسكي مئوس منها حتى ليُخشى على حياتها؟ ينبغي لك أن تعودها.

أجاب الزوج:

- نعم، هذا فظيع؟

- والآن اذهبا وتحادثا في شؤونكما، في قاعة التدخين. فعلي أن أكتب بعض الرسائل.

ما كاد نيكليودوف يخرج من قاعة الطعام حتى صاحت به طالبة
عودته إليها:

— أتريد أن أكتب إلى مارييت؟

— نعم، إذا شئت، يا خالتي.

— لكنني سأترك بياضاً مكان ما ستطلبه من زوجها بشأن الفتاة
العدمية. وهي ستأمر زوجها بتنفيذ ما ستطلبه. وسينفذه. لكن لا
تظن أنني بلا شفقة. جميع محمياتك مزعجات، بيد أنني لا أريد بهن
سوءاً. ليحفظهن الله! والآن، إلى اللقاء في هذا المساء. هذا المساء، لا
تتخلف، ستبقى في البيت، وستستمع إلى كيسويتز. سنصلي معاً، إذا
لم تُبدِ معارضة، سيفيدك ذلك كثيراً. أنا أعلم أنك أنت وأملك كنتما
مترفعين عن ذلك كله. إلى هذا المساء، أليس كذلك.

× × ×

كان الكونت إيفان ميخايلوفتش تشارسكي، الوزير السابق، رجلاً له قناعاته الراسخة. فمند شبابه كان مقتنعاً بأنه يجب أن يكون كالعصفور؛ فكما أن العصفور يتغذى بالديدان، ويتغذى بالريش، ويطير في الفضاء، على نحو طبيعي، فكذلك هو، يجب أن يتغذى بأفخر المأكّل، وأن يرتدي آنق الملابس، وأن يستخدم أغنى العربات المربوطة بأسرع الجياد. كل هذا، كان الكونت إيفان ميخايلوفتش يعتبره من حقه، وكان من الواجب أن يكون أبداً في حوزته. كانت له أيضاً قناعة أخرى، وهي أنه كلما ازداد ما يقبضه من خزانة الدولة، وكلما ازدادت أوسمته وألقابه، وكلما ازدادت مخالطته لذوي المراتب العليا، كان ذلك أفضل له وللعالم بأسره.

أمام هذه العقائد الأساسية، كان كل ما سواها يبدو باطلاً، لا غناء فيه. أما أن يسير العالم على هذا النحو أو ذاك، فذلك ما لم يكن بيالي به كثيراً. ولقد راعى الكونت إيفان ميخايلوفتش، في بطرسبرج، هذه المبادئ بأمانة، طوال أربعين سنة، قبل أن يوضع على رأس الوزارة.

ويعود الفضل في هذا المنصب للصفات التالية: أولاً، كان يُحسن

فهم معنى الأنظمة والقرارات الرسمية، وكان هو نفسه يحسن تحرير مثل تلك القرارات، دون أن يضع فيها، في الحقيقة، فكراً أو أسلوباً، لكن دون أن يرتكب فيها أغلاطاً إملائية. وثانياً، كان رجلاً مهيب الجانب إلى أعلى حد، يستطيع في آن واحد، وتبعاً للظروف، أن يوحى بالعزة والتعالي والإمتناع، وبالملاطفة والتذلل. وثالثاً، كان يمتاز بتحرره من جميع المبادئ الغربية عن وظائفه، سواء أكانت تلك المبادئ سياسية أم أخلاقية، وهو الأمر الذي كان يتيح له أن يوافق على كل شيء عندما تكون الموافقة مناسبة، وأن يرفض كل شيء عندما يكون الرفض مناسباً.

ومن الملائم أن يُضاف إلى ذلك أيضاً أنه عندما كان يغيّر رأيه بحسب مجرى المناسبات، فإنه يتدبر أمره بحيث لا يبدو في تناقض ظاهر مع ذاته. وذلك لأنه، في جميع آرائه، لم يكن يُعنى إلا برغبة رؤسائه، دون أن يهتم بمصلحة روسيا أو الإنسانية.

حين وُضع على رأس الوزارة، أيقن جميع مرؤوسيه وكثير من الناس الذين كانوا يعرفونه، وهو نفسه أيضاً قبل غيره؛ أنه سيبدو رجلاً سياسياً مرموقاً جداً. لكن، الناس وجدوا بعد بعض الوقت، أنه لم يغير شيئاً، ولم يُصلح شيئاً، وأن رجالاً آخرين يحسنون مثله فهم القرارات الرسمية وتحريرها، أخذوا يزااحمون، كما تقضي بذلك قوانين الصراع من أجل الحياة، ويهيئون أنفسهم للحلول محله. وأجمع الناس على أنه كان من أكثر الرجال قصر نظر بالرغم من غروره، وأبعدهم عن الذكاء المتفرد. وتبينوا أنه لا يملك ما يميّزه عن الكائنات الأخرى الخاملة، المغرورة، المحدودة، التي تطمح إلى الحلول محله. أما هو فقد احتفظ،

بعد تعيينه بقناعته التي كانت له قبل تعيينه وهي، أن من حقه قبض مرتّبات أعلى، من سنة إلى سنة، والحصول على أوسمة وألقاب أكثر، وتحسين وضعه الاجتماعي. وكانت هذه القناعة من الرسوخ بحيث لم يجسر أحد على مناوأتها. والواقع أن الكونت إيفان ميخايلوفتش كان يقبض، من سنة إلى سنة، مرتباً أكبر، بصفته عضواً في مجالس وهيئات ولجان مختلفة. وكان له الحق، على سبيل المكافأة عن خدماته الماضية أن تخاطب الشرطة الجديدة في ثيابه، وأن تعلق عليها الصليبان الجديدة ونجوم الميناء الجديدة. لم يكن لأحد، في بطرسبرج، ماله من علاقات بهذا الاتساع.

أصغى إلى إيضاحات نيكليودوف بنفس الوقار والانتباه اللذين كان يُصغي بهما قديماً إلى تقارير رؤساء مكتبه، ولما انتهى من سماعها قال له إنه سيعطيه رسالتي توصية. إحدى الرسالتين لعضو مجلس الشيوخ «وولف»، في قسم التمييز.

وأضاف إيفان ميخايلوفتش:

— ينسب الناس إليه كثيراً من الأشياء، لكنه على كل حال رجل حسن اللياقة. لي عليه فضل سابق وسيبذل وسعه.

والرسالة الأخرى لعضو متنفّذ في لجنة العفو التي سيُقدّم إليها التماس فيدوسيا بيريوكوف. ويبدو أن قصتها، كما رواها نيكليودوف، قد أثارت اهتمام الوزير السابق.

— إذا شرفّنتني صاحبة الجلالة الدعوة إلى أحد اجتماعات الخميس

المقبلة، إلى اجتماع مُصَغَّر، وربما وجدتُ الفرصة السانحة لأهمس إليها بكلمة حول هذه القضية.

وبعد أن حصل نيكليودوف من خالته على بطاقة لمارييت شيرفيانسكي، مضى من فوره لبدأ مساعيه.

قصد، أول الأمر، إلى منزل مارييت. لقد عرفها وهي فتاة، وكان يعلم أنها تزوجت، بعد طفولتها المدقعة، موظفاً عظيم النشاط والطموح، استطاع أن يبني لنفسه وضعاً رفيعاً. وكان يعلم، فضلاً عن ذلك، أن لزوجها سمعة مشبوهة، ويجد حرجاً بالغاً في التماس العون من رجل يحتقره. وتضاعف هذا الحرج بشعور شخصي. لقد خشي أن تعود إليه، لدى احتكاكه بهذا العالم الذي عزم على الخروج منه، استساغته لتلك الحياة السهلة والسطحية، أو على الأقل، أن تعود إليه ألفتها لها، وهو شعور أحسّ به لدى وصوله إلى منزل خالته. وتذكر كيف أنه أقدم أثناء حديثه معها، على معالجة أخطر المسائل، بأسلوب ساخر، مازح.

وفوق ذلك، فقد تركت فيه بطرسبرج، على العموم، مرة أخرى انطباعاتاً موهناً للعزم، مُثْمَلًا، وهو انطباع أحسّ به من قبل. كان كل شيء فيها مريحاً جداً، نظيفاً جداً، وكان المرء يحس فيها بغياب الهواجس الفكرية والأخلاقية، بحيث تبدو الحياة فيها أخف منها في أي مكان آخر.

قاده حوذي أنيق المظهر، في عربة لا تقل عنه أناقة ونظافة، على بلاط صقيل، عبر شوارع حسنة النظام، إلى القصر الخاص الذي تقيم فيه

مارييت. أمام درج المدخل، رأى جوادين إنكليزيين مربوطين بعربة، جلس على مقعدها حوذي وقور، رصين، شبيه بأحد الإنكليز، له سالفان ينزلان إلى منتصف وجنتيه. فتح الباب حاجبٌ في بذلة رسمية برّاقة: شاهد نيكليودوف خادماً واقفاً عند أول الدرج، يرتدي هو أيضاً ثياباً فخمة، وله نفس السالفين. ظل بلا حراك، وكأنه لم يلحظ وصول نيكليودوف، وإذا بخادم آخر يتقدم ليعلن بلهجة ارتسامية:

— الجنرال لا يستقبل. والجنرالة لا تستقبل أيضاً. وقد أمرت الجنرالة بالاستعداد للخروج.

أخرج نيكليودوف من محفظته بطاقة زيارة، واقترب من منضدة، في غرفة الإنتظار، وتهيأ لكتابة بعض الكلمات بالقلم، وإذا بالخادم يتحرك، وبالحاجب يُهرع إلى درج المدخل، وهو يصيح: «قدّموا العربة!». ثم جمد الخادم، ويداه على درزة بنطاله، وهو يتابع ببصره امرأة رقيقة، قصيرة القامة، تنزل السلم بخطوات سريعة، دون أن يبدو عليها أنها تكثر ث كثيراً لمتطلبات مكانتها. كانت مارييت تضع على رأسها قبعة كبيرة سوداء، تزينها ريشة سوداء؛ كانت ترتدي وشاحاً أسود على فستان أسود، وتُنهي، وهي تمشي، تزيير قفازيها الأسودين. وعندما شاهدت نيكليودوف رفعت غلالتها، وأسفرت عن وجه فاتن بعينين كبيرتين، ملتفعتين، وهتفت بصوت مؤنس، مرح:

— آه! الأمير دميتري ايفانوفتش!

— كيف، أما زلت تتذكّرين إسمي؟

فردّت مازحة:

— أنسيّت أننا، أنا وأختي، وقعنا في حبك طوال الصيف؟ لكن،
كم تغيّرت! ما أشدّ أسفي لأني مُضطرة إلى الخروج!

وقالت بلهجة متردّدة:

— يمكننا مع ذلك أن نجلس قليلاً في القاعة الصغرى

ثم رفعت بصرها إلى الساعة المعلّقة في غرفة الإنتظار، وقالت
بأسف:

— مع الأسف! لا، ذلك مستحيل. إني ذاهبة إلى منزل آل كامنسكي،
لحضور الجنّاز. ما أفزع هذه القصة، أليس كذلك؟

— وماذا وقع لآل كامنسكي هؤلاء؟

— كيف، ألا تعرف؟ لقد قُتل ابنهما في مبارزة. تخاصم هو
و«بوزن». هو وحيد أبويه، هذا فظيع! الأم مجنونة من شدة الأسى.
لا، يستحيل علي أن أبقى هنا؛ تعال غداً، أو هذا المساء.

قال نيكليودوف وهو يتقدم معها على درج المدخل:

— لا أستطيع أن آتي هذا المساء، لسوء الحظ. لكن، انظري، لقد
جتتكَ من أجل قضية.

— من أجل قضية؟ ما القضية؟

— دونك هذه الرسالة من خالتي بهذا الصدد.

ومدّ إليها نيكليودوف المغلف الصغير المختوم بخاتم ضخّم.

– نعم، أعلم، أن الكونتيسة كاترين إيفانوفنا تتخيّل أن لي تأثيراً في زوجي. وهي مخطئة! لستُ أقدر على شيء ولا أريد أن أتدخل في شؤونه. لكن، بالطبع، من أجل الكونتيسة ومن أجلك، أنا مستعدة للتخلّي عن مبادئ. ما الموضوع؟

– الموضوع يتعلق بفتاة سجيّنة في القلعة. لقد أوقفتُ خطأً، وهي مريضة.

– ما اسمُها؟

– شوستوف، ليديا شوستوف. تجدين جميع المعلومات في المذكرة المرفقة بالرسالة.

فوعده ماريت بينما كانت تضع قدمها على مرفأة العربة الأنيقة، الجديدة، التي كان طلائوها يتألأأ في الشمس:

– هيا، سأحاول الإهتمام بذلك.

جلست وفتحت المظلة الكبيرة. وصعد الخادم المرافق إلى المقعد وأمر الخوذي بالمسير. وتحركت العربة، لكن ماريت، في اللحظة نفسها، لمست ظهر الخوذي، برأس مظلتها التي أغلقت فجأة. وبعد أن رفع الجوادان رأسيهما من جراء شد اللجام، توقفا وهما يضربان الأرض بسوقهما النخيفة. وقالت لنيكليودوف وهي تبسم إبتسامة هي أدري بقوتها:

– عُدْ إلى زيارتي، ولتكن، هذه المرة، زيارة مجردة من المصلحة.

وبعد ذلك فتحت مظلتها، وأسدت غلالاتها، كأنها رأت أن
التمثيلية قد انتهت، وأمرت الحوذي بالمسير.

رفع نيكليودوف قُبْعَتَهُ بتأدُّبٍ ليستأذن. ضربت الجياد البلاط
بحوافها العصبية، ونأت العربة بسرعة، مناسبة، خفيفة، على
عجلاتها الصامتة.

x x x

عندما تذكر نيكليودوف الإبتسامة التي بادلها مارييت، أسلم نفسه لضروب التأملات الداخلية. حدّث نفسه: «لم تكذ تدير رأسك حتى استولت عليك الحياة كلياً!».

وفكر في الصعوبات والمخاطر التي تنطوي عليها مساعيه لدى أشخاص من عالم لا يمكن أن يكون عالمه بعد الآن.

عندما خرج من عند مارييت توجه، قبل كل شيء، إلى مجلس الشيوخ. فأدخل غرفة كبيرة فيها جمهور من الموظفين في غاية الأناقة والتهذيب. أنبأه هؤلاء أن التماس ماسلوفأ أحييل للدراسة إلى عضو مجلس الشيوخ «وولف»، وهو نفسه الذي يحمل إليه رسالة من زوج خالته.

قيل له:

- ستُعقد الجلسة هذا الأسبوع. لكن جدول الأعمال مليء بالقضايا ولاشك أن قضية ماسلوفأ ستؤجّل إلى الجلسة التي تليها. بيد أنك تستطيع أن تطلب تقديم موعد النقاش.

في مكتب مجلس الشيوخ هذا، وبينما كان نيكليودوف ينتظر بعض المعلومات، سمع الموظفين يتحدثون عن تلك المباراة المؤسفة التي سقط فيها الشاب كامنسكي. هنا فقط، عرف، لأول مرة، تفاصيل تلك القصة التي كانت تشغل المدينة آنذاك. بدأت القصة في مطعم يختلف إليه الضباط ليتذوقوا المحار وهم يشربون كميات كبيرة من الخمر، على عاداتهم. وبدرت من أحدهم بعض الأحكام الجائرة بحق الفوج الذي يخدم فيه كامنسكي، فوصفه هذا بأنه كاذب. فصغعه الضابط، ووقعت المباراة، في اليوم التالي. أصيب كامنسكي برصاصة في صدره، ومات بعد ساعتين. وقد أوقف خصمه والشهود واحتجزوا في مركز الحراسة، لكن كل الناس يعلمون أنهم سيُخلى سبيلهم قبل مضي أسبوعين.

ومن مجلس الشيوخ، انتقل نيكليودوف إلى لجنة العفو، حيث كان يأمل أن يقابل موظفاً كبيراً، هو البارون «فوروبييف»، الذي حمل إليه رسالة من زوج خالته. لكن البواب أفهمه بلهجة قاسية أنه لا يمكن مقابلة البارون إلا في بعض الأيام المعينة. فترك نيكليودوف الرسالة الموجهة إليه، وقصد إلى منزل عضو مجلس الشيوخ «وولف».

كان وولف قد فرغ من طعامه قبل هنيهة؛ وكان، على عادته، يُنشِط هضمه بتدخين السيجار وبالتمشي جيئةً وذهاباً في مكتبه.

كان فلاديمير فاسيلييفتش وولف بالفعل رجلاً حسن اللياقة؛ وكان يضع صفة اللياقة فوق جميع الصفات الأخرى، وهو مدين لها دون غيرها. بمر كزه اللامع وبتحقيق مطامحه. فهي التي أتاحت له هذا الزواج

الثري، وهو زواج أكسبه، بدوره، عضوية مجلس الشيوخ، ومنصباً يدرّ ثمانية عشر ألف روبل. بيد أنه لم يكن مسروراً من كونه رجلاً «حسن اللياقة»، بل كان يعتبر نفسه مثال الإستقامة الفروسية. لكن هذه الإستقامة لم تكن تقوم، برأيه، على عدم ابتزاز الأفراد سراً. ولم يكن يعتقد أنه يُخلّ بالإستقامة عندما يقبل، بل عندما يطلب، أصناف الهدايا والعمولات والرشوات. لم يكن يعتقد أنه يخرج على الإستقامة عندما يخدع امرأته التي تزوجها من أجل مالها والتي يعلم أنها مشغوفة به. ولم يفخر أحد فخره بالتنظيم الحكيم لحياة أسرته. وكانت أسرته مؤلفة من زوجته، ومن أخت زوجته التي وضع يده على ثروتها بحجة إدارتها، ومن ابنة قليلة الحلاوة، شديدة الحياء، ناعمة، تعيش حياة منعزلة وحزينة، لا متعة لها إلا حضور الاجتماعات الثقيّة في منزل «آلين» أو في منزل الكونتيسة العجوز تشارسكي.

كان له أيضاً ولد، فتى متين البنية، نبتت لحيته وهو في الخامسة عشرة، وبدأ، في هذا السن يشرب ويطارد البنات. وفي العشرين، طرده أبوه من عنده، لأنه لم يستطع إنهاء دراسته، ولأن ما شاع من سوء سلوكه شوّه سمعة أبيه. وبعد ذلك، وفي أبوه عنده دَيْناً مقداره مائتان وثلاثون روبلاً، ودفع عنه، مرة ثانية، ست مائة روبل، لكنه حذّره هذه المرة، بأن هذه ستكون آخر مرة. لكن الابن، بدلاً من أن يُصلح سيرته، استدان أيضاً ألف روبل. فأعلمه أبوه آنذاك أنه لن يعتبره ابناً له بعد الآن. وهو يعيش، منذ ذلك الوقت، وكأنه لا ولد له، ولا يجرو أحد في البيت أن يفتح بهشأته.

استقبل وولف نيكليودوف بابتسامة لطيفة فيها شيء من الهزء،

وهي طريقته المعتادة في التعبير عن مشاعره كرجل «حسن اللياقة»،
تجاه سائر الإنسانية. وقال له بعد أن قرأ رسالة الكونت إيفان
ميخايلوفتش:

— أرجوك، تفضّل بالجلوس. وأستأذنك بمتابعة المشي. أنا سعيد
جداً بمعرفتك؛ ويسرني، طبعاً، أن أرضي الكونت إيفان ميخايلوفتش.
نفث عموداً كثيفاً من الدخان الأزرق، وهو يحرص على أن
يمسك بسيجاره جيداً، لكي لا يسقط الرماد على السجادة.

قال نيكليودوف:

أود أن أرجوك استعجال دراسة الإلتماس، وذلك لكي يتم سفر
السجينة إلى سيريا، في أسرع وقت ممكن، إذا كان لابد من سفرها.
فأعلن وولف بابتسامته الدائمة، كرجل يعرف مسبقاً كل ما يمكن
أن يُقال له:

— نعم، نعم، بأولى البواخر الذاهبة على «نيجني نوفغورود». نعم،
أعلم ذلك! قلت إن المحكومة اسمها...؟

— كاترين ماسلوف.

اقترب وولف من مكتبه، وفتح علبة كرتون مملوءة بالأوراق.

— ماسلوف، صحيح. تماماً. سأحدث زملائي عنها، نهار الأربعاء.

– أيمكنني أن أُبرق لمحمي؟

– كيف، وكَلتَ محامياً في هذه القضية؟ لا فائدة من ذلك. لكن، على كل حال، يمكنك أن تُبرق إليه.

قال نيكليودوف متردداً:

– أخشى أن تكون مسوِّغات النقض غير كافية. لكن محضر المناقشات يؤكد أن الحكم كان نتيجة لسوء الفهم.

أجاب وولف بلهجة قاسية، وهو يراقب رماد سيجاره:

– نعم، نعم، هذا ممكن، لكن مجلس الشيوخ ليس من شأنه أن يُعنى بجوهر القضية. مجلس الشيوخ يجب أن يقتصر على النظر في قانونية الإجراءات.

– لكن يبدو لي أن الحالة هنا حالة استثنائية جداً...

– بلاشك، بلاشك، جميع الحالات استثنائية. على كل حال، سنرى ما يمكن فعله. هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك.

كان الرماد ما يزال عالقاً بالسيجار، لكنه أخذ يضطرب في نهايتها.

وواصل كلامه وهو ذاهب لينفض رماد السيجار في المنفضة:

– أنت لا تأتي بطرسبرج إلا نادراً؟

وأضاف، وهو يكرر ما كانت تقوله المدينة بأسرها، كلمة كلمة:

— ما أفضع موت هذا الشاب كامنسكي! كان فتى رائعاً! وحيد أبويه! الأم مجنونة من الأسى!

وتحدّث أيضاً عن الكونتيسة كاترين إيفانوفنا وحماستها للتيار الديني الجديد الذي لم يكن يستنكره ولا يُقرّه، لكنه كان، بصفته رجلاً «حسن اللياقة» يعتبره بوضوح شيئاً لا طائل تحته.

وقُرّع الجرس فنهض نيكليودوف ليستأذنه. اقترح عليه وولف وهو يمد يده:

— تعال للغداء معي، في أحد الأيام المقبلة، إن ناسبك ذلك.

كان الوقت متأخراً جداً حتى إن نيكليودوف أجّل لليوم التالي بقية مساعيه، وعاد إلى بيته، أي إلى بيت خالته.

× × ×

كان على مائدة الكونتيسة كاترين إيفانوفنا، هذا المساء، ستة أشخاص: الكونت والكونتيسة وابنهما - وهو شاب ضابط في الحرس، عبوس يأكل وهو متكئ بمرفقيه على المائدة - ونيكليودوف، والقارئة الفرنسية، ووكيل الكونت.

كان من الطبيعي أن يدور الحديث رأساً حول موت الشاب كامنسكي.

تحدثوا عن الطريقة التي استقبل بها الإمبراطور النبأ، وبما أنهم كانوا يعلمون أن الإمبراطور أشفق على الأم شفقة عظيمة، فقد رثى لها الجميع. لكن بما أنهم كانوا يعلمون أن الإمبراطور. وإن شارك في هذا الحداد، إلا أنه لم يشأ، أن يبدو مُفرط القسوة على القتال، لأنه دافع عن شرف البزة العسكرية، فقد بدوا جميعاً متسامحين معه للسبب نفسه، إلا الكونتيسة كاترين إيفانوفنا، فإنها دانت القتال، بطريقة حكمها السطحية والمستقلة. وقررت:

- لن أقبل أبداً أن يُباح السكر لمرء. كي يقتل بعد ذلك فتى طيباً.

فاعترض زوجها:

— لست أفهم ما الذي تعنيه بذلك.

فردّت الكونتيسة:

— أعلم جيداً أنك لا تفهم أبداً ما أقول.

ثم استدارت نحو نيكليودوف وأضافت:

— جميع الناس يفهمونني ماعدا زوجي. قلتُ أنني أشفق على الأم المسكينة، ولا أقبل أن يفرح القاتل بما صنعت يداه.

تدخل في النقاش ابن الكونتيسة الذي لم يقل كلمة حتى هذه اللحظة، ليدافع عن القاتل، وردّ في شيء من الأدب على أمه، محاولاً أن يبرهن لها على أن الضابط لا يمكنه أن يتصرّف تصرفاً آخر، وإلا طرده من الفوج مجلس رؤسائه.

كان نيكليودوف يصغي دون أن يشارك في النقاش. لقد كان يفهم، بصفته ضابطاً قديماً، تأكيدات الشاب تشارسكي، ويجدها طبيعية أكثر مما يجروء على الإعتراف به. ومن جهة أخرى، لم يستطع، أمام حالة هذا الضابط الذي قتل رفيقاً له، أن يمنع نفسه من التفكير في ذلك الشاب الذي رآه في السجن، محكوماً بالأشغال الشاقة، بسبب جريمة قتل ارتكبها أثناء الشجار. كان السبب الأولي للجريمة في كلتا الحالتين هو السكر. لقد أقدم الفلاح الشاب على القتل بتأثير التهيج غير الطبيعي، فعوقب على ما فعل بأن قيّدت رجلاه، وحُلِق نصف

رأسه؛ وهو يوشك أن يُرسل إلى الأشغال الشاقة. أما الضابط الذي ارتكب الجريمة نفسها، في ظروف مشابهة، فهو محتجز في غرفة جميلة، وهو يتناول وجبات لذيذة، ويشرب خموراً لذيذة، ويقرأ جميع الكتب التي يود قراءتها، وسيُخلّى سبيله قريباً جداً. وحينئذ يستطيع أن يستأنف حياته القديمة، وقد يلقي من الاحترام أكثر مما لقي في الماضي.

لم يقاوم نيكليودوف الرغبة في الإفصاح عما فكّر فيه. بدا على الكونتيسة، في بادئ الأمر، أنها توافقه على ما يقول، لكنها صمتت بعد لحظة، كما صمت سائر المدعوين، وخُيِّل إلى نيكليودوف أنه ارتكب حماقة حين تكلم على هذا النحو.

بعد الغداء، انتقل الضيوف إلى القاعة الكبرى التي نُظمت بشكل قاعة محاضرات. فُصِّت صفوف الكراسي والمقاعد، ونُصِبَ، في صدر القاعة، ما يُشبه المنصة، وعليها كرسي وطاولة مخصصة للمحاضر. وأخذ المدعوون يتوافدون بعدد كبير، وقد أسعدهم أن يتمكنوا من سماع كيسويتز الشهير.

امتلاء الشارع أمام البيت بالعربات الفخمة. كانت السيدات يدخلن القاعة الفخمة الزينة، مرتديات الحرير والمخمل والدنتيلا والشعور المستعارة، منحفات بالصنعة خصورهن. ومع النساء كان يصل رجال عسكريون ومدنيون بالثياب الرسمية. ورأى نيكليودوف بذهول، بين هؤلاء الحضور المتألقين، خمسة رجال من الشعب: خادمين، وصاحب دكان، وصانعاً وحوذياً.

صعد «كيسويتز»، وهو رجل قصير وسمين دبّ فيه الشيب، إلى المنصة، وبدأ خطبته. كان يتحدث بالإنكليزية، فتترجم أقواله تباعاً فتاة نحيلة، تضع على عينيها نظارة.

يقول الخطيب إن خطايانا عظيمة، وأن من المستحيل أن نعيش بطمأنينة في انتظار العقاب المحتّم.

أيها الأخوات العزيزات، أيها الأخوة الأعزاء، لنفكر الآن في أنفسنا، في حياتنا، في طريقة تصرّفنا التي تثير غضب الرب والتي تزيد من آلام المسيح، ولسوف ندرك أن لا غفران لنا، ولا مخرج، ولا خلاص، وأنا، لا محالة، هالكون.

وتابع بصوت متهدّج:

لقد كتب علينا الهلاك الرهيب والعذاب الأبدي. فكيف ننجو بأنفسنا؟ كيف ننجو بأنفسنا، أيها الأخوة، في هذا الحريق المرعب؟ لقد أتت نار هذا الحريق على بيوتنا، وسدّت علينا المخارج!

ثم سكّت، وسالت الدموع، الدموع الحقيقية على طول خديّه.

كان هذا دأبه منذ ثماني سنوات، فكلما كان يصل إلى هذا المقطع من خطبته الذي كان يُعجبه أكثر من غيره، كان يحسّ بالإختناق في حنجرتّه، وبالدموع تنساب على خديّه. وعلا النحيب في القاعة وهزّت كتفي الكونتيسة السمينتين رعدة متقطّعة. وكان الحوذي يتأمل الخطيب بمزيج من الدهشة والرعب، كما يتأمل رجلاً دَهَسَتْ

جياده أحد المارة عرضاً. وسارعت ابنة وولف التي كانت ترتدي ثياباً مسرقة الفخامة فارتمت على ركبتها وأخفت وجهها في يديها.

بيد أن الخطيب رفع رأسه من جديد، وافتّرت شفتاه عن ابتسامة شبيهة بالابتسامة التي يستخدمها الممثلون ليعبروا عن عودة الأمل. واستأنف بصوت متذلل وعذب:

- لكن الخلاص موجود، يا إخوتي. وهو في متناولنا، أكيد، سهل، مفرح. هذا الخلاص هو دم ابن الله الذي سُفح من أجلنا. إن عذابه، ودمه المسفوح من الهلاك. يا إخوتي ويا أخواتي، لنشكر الرب الذي تكّرّم وضحى بابنه الوحيد لاقتداء خطايا البشر! تبارك دمه ثلاث مرات...

أثناء هذه الخطبة، أصبح ضيق نيكليودوف لا يُطاق حتى انتهز، في هذه اللحظة. الإنفعال العام، فخرج على رؤوس أصابعه وصعد إلى غرفته.

× × ×

لم يكد نيكليودوف يفرغ من ارتداء ملابسه، في صبيحة اليوم التالي، حتى دخل عليه الخادم حاملاً بطاقة المحامي فانارين. وكان فانارين قد اتجه إلى بطرسبرج فور تلقيه البرقية.

سأل نيكليودوف، حين دخل، عن أسماء أعضاء مجلس الشيوخ الذين ستُحال القضية إليهم. فلما علم بهم ضحك هازئاً، وقال:

- كأئما اختيروا، في الحقيقة، عمداً ليمثلوا مختلف الأنماط بين أعضاء مجلس الشيوخ. ف«وولف» هو الموظف البطربرجي، و«سكوفورودنيكوف» هو القانوني العالم؛ و«بيه» هو العملي، وهو لذلك أنفع من الآخرين. وعليه قبل غيره يمكننا أن نعتمد. وماذا عن لجنة العفو؟

- كنتُ ذاهباً بالضبط إلى البارون فوروبييف^(٢٥). لم أنجح أمس في مقابلته.

٢٥- البارون فوروبييف اسم خيالي، لكن القصة مبنية على واقعة حقيقية: ذلك أن الامبراطور الغريب الأطوار بولس الأول منح في عام ١٧٩٧ الجنرال آراكشيف لقب بارون كما منح حلاقه هذا اللقب، ثم منحهما لقب كونت في السنة التالية.. وعلى العموم قلما يقترن هذا اللقب بالكني الروسية.

سأله المحامي رداً على النبذة الساخرة التي لفظ بها نيكليودوف لقب «بارون» الأجنبي المقترن بكنية روسية الأصل:

— أتعلم لماذا كان فوروبييف باروناً؟ إن الامبراطور بولس هو الذي منح جده هذا اللقب، وكان وصيفاً له، فيما أعتقد. لقد أدى هذا الوصيف بعض الخدمات له فسمّاه الامبراطور باروناً، لأنه لم يجرؤ أن يمنحه لقباً روسياً، وهو أمر قد يبعث على الشكوى. ومنذ ذلك الوقت ونحن نجد بيننا بارونات «فوروبييف» وما أشد اعتزاز هذا الرجل المستهتر بلقبه! على كل حال، إنه نصاب لا مثيل له! معي على الباب، عربة، أتريد أن أوصاك؟

على درج المدخل، سلّم الحاجب نيكليودوف بطاقة حملها خادم له. كانت البطاقة من مارييت، وقد كتبت بالفرنسية:

«تصرفتُ ضد مبادئك تماماً، إكراماً لك، وتوسّطت مع زوجي من أجل محميتك، وربما أخلي سبيلها فوراً. لقد كتب زوجي إلى الأمر. تعال إذن الآن لتزورني زيارة «مجرّدة من المصلحة» أنا في انتظارك».

استشاط نيكليودوف:

— كيف، هذه امرأة تُسجن وتُمنع من مخالطة غيرها، منذ سبعة أشهر، ثم يُكتشف الآن أنها لم تفعل شيئاً! كلمة واحدة كانت كافية لإخلاء سبيلها؟

قال المحامي مبتسماً:

- ليس في ذلك ما يدهش. الأجدرك أن تفرح لأنك نجحت في هذا المسعى.

- لا، لن يفرحني ذلك، بل إن هذا النجاح يملؤني مرارة. أمن الممكن أن تجري الأشياء على هذا النحو؟ لم كانوا يحتفظون بها في السجن؟

- إذا أردت أن تتعمق في الأشياء فلن تصل إلا إلى زيادة آلامك.

كان البارون «فوروبييف» يستقبل، هذه المرة. وفي الغرفة الأولى التي دخلها نيكليودوف، وقف مساعد شاب باللباس العادي، له رقبة مسرفة الطول، وجوزة عنق شديدة البروز. سأل نيكليودوف:

- اسمك؟

سمي نيكليودوف نفسه.

- آه! ممتاز. لقد كلمني البارون عنك قبل هنيهة. سيستقبلك في الحال.

دخل المساعد الغرفة التي في الصدر، وخرج منها بعد لحظة، تصحبه عجوز ترتدي ثياب الحداد، ولا تكف عن البكاء.

قال المساعد لنيكليودوف، وهو يدلّه على باب مكتب البارون:

- تفضّل بالدخول!

كان البارون ربعة، نحياً، قويّ العضلات، أبيض الشعر قصيره.
كان جالساً في مقعده، أمام مكتب ضخم، ينظر أمامه وهو بادي
الرضا. وعندما شاهد نيكليودوف استنار وجهه الدموي بابتسامة
ملاطفة:

— أنا سعيد برويتك. كنتُ أنا وأمك صديقين ممتازين. رأيك
وأنت طفل، ثم وأنت ضابط. هيا، اجلس، وقل لي فيمَ أستطيع أن
أؤدي لك خدمة.

روى له نيكليودوف قصة فيدوسيا بيروكوف.

فهتف البارون:

— جيد جداً، جيداً جداً، فهمتُ ما تقول! الواقع أنها قصة مؤثرة
هل كتبَ طلب العفو؟

فأجاب نيكليودوف وهو يخرج مستنداً من جيبه:

— أعددتُ واحداً. لكنني حرصتُ على مقابلتك لكي تتكرم وتمنح
القضية. انتباهاً خاصاً.

فأكد البارون وهو مايزال متهلّلاً الوجه:

— وأحسنّت صنعاً، سأهتم أنا نفسي بذلك. القصة مؤثرة حقاً.
فهمتُ القضية. هذه البائسة كانت طفلاً، فأرعبها زوجها بفظاظته،
ثم ندم كلاهما وشُغف أحدهما بالآخر. نعم، سأهتم أنا نفسي بهذه
القضية.

- وقد وعدني الكونت إيفان ميخايلوفتش، على كل حال، أن يكلم الامبراطورة...

لم يكد نيكليودوف يلفظ هذه الكلمات حتى تبدلت ملامح البارون، فأعلن ببرودة:

- على كل حال، قدّم التماس العفو إلى المكتب المختص، وسأفعل ما بوسعي!

في هذه اللحظة دخل المساعد بمشيته المتعالية؛ وأعلن:

- هذه السيدة تود أن تقول لك كلمتين أيضاً.

- طيّب! ادخلها. آه! يا عزيزتي، كم من دموع أراها تسيل على كُره مني! ليتنا فقط نستطيع أن نكفكفها كلها! إننا نبذل وسعنا...

دخلت السيدة وقالت للبارون:

- نسيْتُ أن أرجوك ألا تعطيه ابنته، وإلا أقدم على كل شيء...

فقاطعها البارون:

- لكنني قلتُ لك إني سأفعل ذلك.

- الحمد لله، يا بارون، إنك تُنقذ أماً...

أمسكت بيد فوروبيف وغطّتها بالقبل.

عندما خرجت المرأة، نهض نيكليودوف ليستأذن. فكرّر البارون:

— سنبذل وسعنا. سنّصل بوزارة العدل. وحالما يصل الجواب سنرى ما يمكننا فعله.

خرج نيكليودوف وقصد الدائرة التي يُقدّم فيها الطلب، فرأى هنا أيضاً كما رأى في مجلس الشيوخ جمهوراً من الموظفين والمستخدمين والحجاب، وكلهم نظيفون، مهذبون، بشكل يلفت النظر.

تساءل نيكليودوف وهو يتأملهم: «ما أكثر عددهم، وما أوضح النعمة على وجوههم، وما أحسن ما فيهم من بريق وتلميع وطلاء! لكن، ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء جميعاً؟».

× × ×

إن الرجل الذي وُضع بين يديه مصيرُ السجناء المحبوسين في القلعة، كان جنراً أقديماً، باروناً بلطيقياً، قيل إن به شيئاً من الخبل، لكن ماضيه حافل، مع ذلك، بأجلّ الخدمات كان يملك عدداً لا يُحصى من الأوسمة يأبى أن يضع شاراتها، ماعدا صليباً أبيض صغيراً^(٢٦) معلقاً في عروة سترته. وقد نال هذا الصليب في القفقاز^(٢٧) لأنه أجبر الفلاحين الشبان الروس الذين كانوا بأمرته على قتل الآلاف من أبناء تلك البلاد الذين كانوا يدافعون عن حريتهم وبيوتهم وأسرهم. ثم خدم في بولونيا^(٢٨)، بعد ذلك، حيث أجبر الفلاحين الشباب الروس مرة أخرى، على ارتكاب الأعمال نفسها، فاستحقّ على ذلك أجبداً جديدة. ثم خدم أيضاً في مكان آخر امتاز فيه أيضاً بالطريقة نفسها. وكان يشغل الآن، بعد أن شاخ وتعب، منصب مفتش القلعة، ويؤدي

٢٦- صليباً أبيض صغيراً: وسام القديس جورج على البسالة العسكرية.

٢٧- في القفقاز: لم يخضع سكان الجبال في القفقاز خضوعاً نهائياً إلا في سنة ١٨٦٤ بعد أن ناضلوا الروس مدة نصف قرن.

٢٨- في بولونيا: أثناء عصيان ١٨٦٣.

واجبات الوظيفة بصرامة لا تعرف اللين، معتبراً هذه الواجبات أقدس ما في العالم.

كانت هذه الواجبات تنحصر في إبقاء السجناء السياسيين من الجنسين، في زنانات مظلمة، بعيدين عن الاتصال بالناس، وفي الإحتفاظ بهم فيها بحيث يموت نصفهم حتماً بعد عشر سنوات. وكان بعضهم يفقد عقله، وبعضهم يُصاب بالسل، وكان كثيرون منهم ينتحرون إما بتجويع أنفسهم حتى الموت، أو بفتح الشرايين بكسرة زجاج، وإما بشنق أنفسهم في قضبان النوافذ.

كان الجنرال العجوز يعلم ذلك كله، لأن ذلك كان يجري أمام عينيه. لكن هذه الحوادث لم تكن تهزّه أكثر مما تهزّه الحوادث التي تُحدثها الصاعقة والفيضانات أو أية ظاهرة طبيعية أخرى. الشيء الوحيد الذي كان يهّمه هو الخضوع للنظام المفروض عليه والذي يجب أن يُنفّذ قبل كل شيء؛ ولا أهمية، بعد ذلك، للنتائج التي تنتج عن هذا التنفيذ. وكان يطوف على جميع الزنانات، مرة في الأسبوع، تقيداً منه بالنظام، ويسأل السجناء إن كان لديهم طلبات يتقدمون بها إليه. وكان السجناء يتقدمون إليه بطلباتهم في الغالب، فيصغي إليها بهدوء، دون أن يجيب، ثم لا يلتفت إليها أبداً بعد ذلك، لأنه يعلم أنها جميعها تطلب أشياء مخالفة للأنظمة.

في الوقت الذي اقترب فيه نيكليودوف من مسكن الجنرال العجوز، أخذت مجموعة أجراس البرج تدق لحن: «ليتمجد الله»، قبل أن تدق الساعة الثانية. وعندما سمع نيكليودوف الأجراس، تذكر أنه قرأ في

كتابات الديسميريين^(٢٩) كيف أن هذه الموسيقى العذبة، المتكررة كل ساعة، تمتد أصداؤها في قلوب المحكومين بالسجن المؤبد.

حين قدّم نيكليودوف نفسه في منزل الجنرال، كان هذا جالساً في قاعة استقبال صغيرة أسدلت الستائر على جميع نوافذها حتى غدت في ظلام دامس. وكان منهمكاً في تدوير صحن على صفحة من ورق بصحبة رسام شاب، هو أخ لأحد مروضيه. وقد اختلطت أصابع الفنان الناعمة والنحيلة بأصابع الجنرال الغليظة، المغضّنة، والملاى بالعقد. كان الصحن يجيب عن سؤال هو معرفة ما إذا كانت الأرواح يعرف بعضها بعضاً بعد الموت.

في هذا اليوم، كانت روح جان دارك هي التي تتكلم بواسطة الصحن. ولقد أجابت: «إن الأرواح يعرف بعضها بعضاً»، وبدأت بإملاء الكلمة التالية، وإذا بها تقف فجأة. لم تُملِ من الكلمة التالية سوى الأحرف الثلاثة الأولى: ب، و، س. ثم توقفت، لأن الجنرال، في الواقع، أراد أن يكون الحرف التالي «لاماً»، بينما أراد الرسام أن يكون حرف «ف». أراد الجنرال أن تقول «جان دارك»، إن الأرواح تعرف بعضها بعضاً بعد تطهرها (بوسليي)؛ وأراد الرسام أن تقول «جان دارك»، إن الأرواح يعرف بعضها بعضاً بالنور الذي ينبعث منها (بوسفيتو).

أخذ الجنرال يحدّد النظر في يديه، وهو يقطب حاجبيه الكثيفين،

٢٩- الديسميريين...: تولستوي غير دقيق هنا؛ فالديسميريون لم يقضوا سوى نصف سنة في هذه القلعة، قبل أن يُنقوا إلى سيبيريا.

الأبيضين بعبوس، آملاً أن يقر قرار الصحن على إملاء حرف اللام؛ ولوى الرسام وجهه نحو زاوية الغرفة وهو يطبع بصورة آلية على شفتيه الحركة الضرورية للفظ حرف «ف». في هذه الأثناء، دخل الجندي الذي كان حاجباً للجنرال العجوز، وسلّمه بطاقة نيكليودوف فزاد الجنرال من تقطيب حاجبيه، وقد انزعج كثيراً من هذه المضايقة. وبعد دقيقة صمت، وضع نظارته على أنفه، وقرأ البطاقة وهو يمسكها في آخر يده الممدودة، ونهض بجهد جاهد، وفرك أصابعه المتصلبة ببطء، وقال:

— أدخله إلى مكنتي!

فاقترح الرسام:

— لا تقلق، يا صاحب السيادة، سأكمل وحدي. أحس بالسائل يعود.

فوافق الجنرال بلهجته الجافة والحازمة:

— وهو كذلك، أكمل وحدك.

ومضى إلى مكتبه، وهو يجرّ بجهد ساقيه المتنفختين، الشائختين.

قال لنيكليودوف وهو يشير إلى كرسي قرب مكتبه:

— أنا سعيد بروئيتك! أنت في بطرسبرج منذ زمن طويل؟

أجاب نيكليودوف بأنه وصل منذ فترة قريبة.

- والأميرة والدتك، أهى بخير؟

- أُمى تُوفيت، يا صاحب السيادة.

- ساحمى، أنا آسف لذلك. أتعلم أنى خدمتُ مع المرحوم والدك؟
كنا صديقين كالأخوين. وأنت، هل أنت فى الخدمة؟

- لا، أيها الجنرال.

فهب سيادته رأسه دلالةً على استنكاره.

وأردف نيكليودوف:

- إن لى رجاء أود أن أتوجه به إليك، يا صاحب السيادة.

- آه! حسن جداً. فيم أستطيع أن أنفعك؟

بين المعتقلين السياسيين الموكولين إليك، معتقل يُدعى
«غوركيفتش». إن أمه تطلب الإذن برويته، وإذا كان ذلك غير ممكن،
فهى تلتمس السماح لها، على الأقل، بإرسال الكتب إليه.

استمع الجنرال إلى هذا الطلب دون أن تبدو عليه أدنى علامات
الرضا أو الاستياء. واكتفى بأن حنى رأسه واتخذ وضعية مَنْ يفكر
فى الأمر. والواقع أنه لم يكن يفكر البتة، ولم يكن يهتم بكلام
نيكليودوف، لعلمه المسبق بأن الأنظمة تمنعه من أن يقيم وزناً لذلك
الكلام. لم يكن يصغى إلا تأدباً.

وأجاب الجنرال:

— الواقع أن ذلك كله لا يتعلّق بي. فبالنسبة إلى الزيارات، هناك مرسوم امبراطوري ينظم شروطها. أما الكتب فعندنا هنا مكتبة. وللسجناء الحق، عند الاقتضاء، أن يأخذوا منها الكتب.

— نعم، أيها السيد الجنرال، لكن غر كيفة تش هذا يجب أن يحصل على الكتب العلمية. يريد أن يشغل وقته بدراساتها.

— لا تصدق ذلك! إنه لا يريد أن يشغل وقته بدراساتها بل إن ذلك من جراء القلق، هذا كل شيء.

قال نيكليودوف متردداً:

— بيد أن هؤلاء البائسين يرغبون في أن يشغلوا وقتهم، في مثل وضعهم المحزن...

فتذمّر الجنرال:

— هم يشكون دائماً! إننا نعرفهم جيداً، دَعَكَ منهم!

كان يتحدث عنهم جماعياً، وكأن الكلام يدور على عرق خاص، أدنى من سائر البشر، وأكد:

— الحقيقة أنهم يجدون هنا من سهولة العيش ما لن تجده في سجون أخرى.

ثم أخذ يصف بالتفصيل تلك السهولة، وكان الغرض الرئيسي من اعتقال هؤلاء السجناء في القلعة هو تأمين إقامة ممتعة لهم.

- صحيح أنهم كانوا يُعاملون فيما مضى معاملة صارمة، أما الآن فهم في أحسن حالة ممكنة. إذ تُقدّم لهم ثلاثة ألوان من الطعام، أحدها من اللحم: من الضلعة أو من اللحم المفروم. وفي يوم الأحد يُقدّم لهم لون رابع، تحلية بالسكر عسى أن يتغذى كل روسي، ذات يوم، مثلهم.

وأوضح:

- أما الكتب فنحن نضع بين أيديهم مؤلفات دينية وصحفاً قديمة. وفضلاً عن ذلك، فإن لدينا مكتبة غنية بالكتب، لكنهم قلما يقرؤون. فهم يتظاهرون، في بادئ الأمر، أنهم يهتمون بالقراءة، لكنهم لا يلبثون أن يردوا الكتب دون أن يفتحوها. وهم يستطيعون أيضاً أن يكتبوا. ونحن نعطيهم ألواحاً اردوازية لكي يتسلوا بالكتابة عليها، ثم يحوها والكتابة عليها من جديد. لكنهم لا يفعلون ذلك أيضاً. لا، إنهم لا يحلمون بشغل فراغهم إلا في الأوقات الأولى؛ وفيما بعد يسمنون ويزدادون خمولاً شيئاً فشيئاً.

كان نيكليودوف يصغي إلى هذا الصوت الأجش، ويتأمل هذه الأعضاء الخدرة، وهاتين العينين بجفونها المنتفخة تحت هذين الحاجبين الكثيفين، وهذه الجمجمة التي تساقط شعرها، وذلك الصليب الأبيض في عروة سترته. وكان يكتشف، في كل لحظة، عدم جدوى محاولته إيضاح الحقائق لمثل هذا الرجل. ومع ذلك، فقد تحامل

على نفسه، ونفذ المهمة الأخرى التي تعهد بها، فسأله عن أخبار
المعتقلة شوستوف التي علم أنها سيُطلق سراحها:

فقال الجنرال شاكياً:

— شوستوف... شوستوف... إني لا أذكر جميع أسمائهم فهم
كثيرون والعدد.

كان المفهوم من كلامه أنه يحقد عليهم، من أجل هذه الكثرة دق
الجرس وأمر باستدعاء أمين سره؛ وفي هذه الأثناء، حث نيكليودوف
على العودة إلى الخدمة:

— إن النبلاء والشرفاء ضروريون، أكثر من ذي قبل، للامبراطور.

قال ذلك بتبجح، وهو يوحي بأنه يعدُّ نفسه في عداد النبلاء
والشرفاء. وأضاف وهو يقصد بوضوح إلى تزيين جملته:

— وللوطن، أنا، مثلاً، عجوز، لكنني ما أزال أخدم الوطن، وسأظل
أخدمه ما سمحت لي قواي بذلك.

جاء أمين السر، وهو رجل ضامر، ملوّح، قلق العينين ذكيهما،
ليقول إن شوستوفا في قلعة بعيدة، وأنه لم يصل أيُّ مُستند يتعلق بها.

أعلن الجنرال، وهو يرسم ابتسامة مازحة تحوّلت إلى تكشيرة على
وجهه العجوز، المتعب:

— سنخلي سبيلها في اليوم نفسه الذي يصل فيه الأمر. فلسنا

نحرص على احتجازهم أكثر مما هو ضروري، لسنا نحرص على ذلك.

نهض نيكليودوف، وهو يجد مشقة كبيرة في إخفاء هذا المزيج من النفور والشفقة الذي أوحى به هذا الشيخ الفظيع. ولم يكن الشيخ، من جهته، غاضباً إذ استطاع أن يؤثّر قليلاً ابن رفيقه القديم. وقال له:

- الوداع، يا بني. لا تحمل كلامي على محمل سيئ. فأنا لا أقوله إلا من باب الصداقة الخالصة: لا تتدخل في شؤون سجنائي! ولا تتصوّر أن بينهم أبرياء! فكّلهم، بدون تفريق، أشقياء. نحن نعرفهم حق المعرفة، ونعرف أقدارهم... ثم، صدّقني وعدّ إلى الخدمة! فالقيصر بحاجة إلى جميع الرجال ذوي البسالة... والوطن أيضاً. فكّر قليلاً فيما سيحصل، لو أنني أنا، لو أن جميع الناس الذين هم من نوعي، لو أننا لم نخدم؟

زفر نيكليودوف زفرة، وانحنى كثيراً، وشدّ على اليد الهزيلة وخرج من الغرفة. فرك الجنرال خاصرته، بعد أن بقي وحده، وهزّ رأسه، ثم جرّ نفسه جراً إلى القاعة الصغرى حيث كتب الشاب الجواب الذي أمّلته روح جان دارك، أثناء غيابه. لقد قرأ الجنرال من خلال نظارته: «تعرّف الروح روحاً أخرى بالنور الذي ينبعث من أجرامها النجمية».

- آه! كيف يمكنها أن تعرف بعضها بعضاً إذا كان النور متساوياً بالنسبة إليها جميعاً؟

ثم جلس قرب المنضدة، وتشابكت، مرة أخرى، أصابعه وأصابع
الرسام،

نادى نيكليودوف حوذيّه أمام درج المدخل، فأعلن هذا الرجل
الطيب:

— كم يضجر المرء هنا، أيّها النبيل. كدتُ أذهبُ وأتركك.

فأجابه نيكليودوف وهو يتنهد:

— نعم، حقاً إن المرء ليضجر هنا.

لقد حاول، وهو جالس في العربة أن يسرّي عن نفسه بمراقبة حركة
الغيوم الرمادية في السماء، وتأمل مياه «النيفا» المتلاثلة التي تمخرها
سفن بخارية.

× × ×

كان اليوم التالي، الأربعاء، هو اليوم الذي سيُنظر فيه في قضية ماسلوف. وصل نيكليودوف مبكراً إلى مجلس الشيوخ. وأمام المدخل، لقي المحامي الذي وصل أيضاً لتوّه. فصعدا معاً السلم الضخم، الفخم، الذي يُفضي إلى الطابق الأول. وفي القاعة الأولى التي دخلها، قال لهما الحاجب، وهو يخلّصهما من عصويهما ومعطفيهما، إن أعضاء المجلس قد حضروا، وأن آخرهم وصل قبلهما بدقيقة. ظل فانارين بالثوب الرسمي والربطة البيضاء، واقتاد نيكليودوف إلى قاعة مجاورة صُفّت قرب جدرانها خزائن كبيرة لها شكل غير معهود. وكان في الغرفة شيخ مهيب الطلعة، طويل الشعر، أبيضه، أسلم نفسه لخادمين يخلعان عنه معطفه، ثم اتجه بعد ذلك إلى إحدى الخزائن وغاب فيها فجأة.

في غضون ذلك، شاهد فانارين أحد زملائه، بالثوب الرسمي هو أيضاً، فهُرع إليه، تاركاً لنيكليودوف الحرية في تفحص الأشخاص الحاضرين. كان في القاعة نحو خمسة عشر رجلاً وسيدتان إحداهما شابة تضع نظارة، والأخرى قد دبّ الشيب إليها. كان مقرراً أن يُنظر،

هذا اليوم، في قضية قَذَف بطريق الصحافة: ومن هنا جاء هذا الحشد من الناس الذين لم يكونوا يزعمون أنفسهم، في العادة ليحضروا جلسات دائرة التمييز.

اقترب الحاجب، وهو رجل وسيم، أحمر الوجه، يرتدي بزة فخمة، من فانارين ليسأله في أية قضية سيرافع. وبينما كان يسجل على ورقة جواب المحامي، فُتح باب الخزانة، ورأى نيكليودوف الشيخ المهيب يخرج منها، لا بالسترة والبنطال الرماديين اللذين دخل بهما؛ بل إنه استبدل بهذه الثياب العادية بزة رسمية مزركشة أسبغت عليه هيئة عصفور هائل. ولعله كان هو نفسه متضيقاً من هذا الزي المضحك، لأنه خرج من القاعة وهو يكاد يركض.

أوضح المحامي لنيكليودوف:

— هذا هو «بي» وهو من أكثر الرجال جدارة بالاحترام وأخذ يشرح القضية التي سيحكمون بها.

بيد أن الجلسة لم تلبث أن افتُتحت. ودخل نيكليودوف قاعة المحكمة مع سائر الحضور، وكانت القاعة أصغر، وأبسط زينة من محكمة الجنايات التي جلس فيها نيكليودوف، لكنها كانت مرتبة بنفس الطريقة: الحواجز نفسها بين الجمهور والقضاة، واللوحات نفسها على الجدران. وعندما أعلن الحاجب: «محكمة»! نهض الجميع ليحيوا أعضاء مجلس الشيوخ وهم بلباسهم الرسمي. وجلس هؤلاء إلى طاولة وهم يبدلون وسعهم ليظهروا. عظم جاد ورسمي. كانوا أربعة: الذي يقوم بمهام الرئيس أولاً، نيكتين، وهو رجل طويل، أمرد،

ذو وجه ناعم، وعينين فولاذيتين؛ ثم وولف، وهو حليق الوجه منذ
برهة وجزية وكان يتصفح مستندات يديه البيضاء الجميلتين؛ ثم
سكوفورودنيكوف، وهو شيخ قصير، ضخيم، الجثة ثقلها، مجدور
الوجه؛ وأخيراً «بي» الشيخ ذو الوجه المهيّب. ووراء أعضاء مجلس
الشيوخ، مرّ على المنصة كاتب المحكمة ووكيل النيابة، وكان هذا
شاباً نحيلاً، ضامراً، داكن السحنة، وفي عينيه أمارات الحزن
العميق. وبالرغم من اللباس الغريب الذي كان يرتديه، فقد اكتشف
نيكليودوف أنه أحد أفضل أصدقائه في الجامعة.

سأل محاميه الذي جاء ليجلس بجانبه على المقاعد المخصصة
للجمهور:

— وكيل النيابة هذا، ألا يُدعى سيلينين؟

— نعم، لماذا؟

— إني أعرفه جيداً، وهو رجل عظيم القيمة.

فكان رأي المحامي:

— وهو وكيل نيابة مرموق، عظيم النشاط والنفوذ. وإليه كان
ينبغي أن تتوجّه.

وكان تقدير نيكليودوف، وقد تذكّر صفات زميله الرفيعة من
الإستقامة والنبيل والشرف:

— على كل حال، إن هذا لن يتصرف إلا بوحي ضميره.

فأجاب فانارين:

— غير أن الأوان قد فات الآن.

وبعد ذلك أخذ يصيخ السمع بورع إلى نقاش القضية.

اجتهد نيكليودوف في الإصغاء. لكنه كان عاجزاً عن الفهم، هذه المرة أيضاً، لأن النقاش تناول الأعراض الثانوية بدلاً من أن ينصبَّ على جوهر الدعوى. لقد كان سبب الدعوى مقالة في صحيفة شهّرت باختلاسات مدير شركة مساهمة. وكان ينبغي أن يكون الشيء الهام، حسب ما يقضي به العدل، معرفة ما إذا كان هذا الرئيس قد سرق حقاً موكليّه، وفي هذه الحالة، كيف يمكن أن يوضع حد لسرقاته. لكن لم تُقل كلمة واحدة من ذلك كله في المناقشة. وإنما دار النقاش فقط حول مسألة ما إذا كان لمدير الصحيفة الحق، بناء على فقرة في القانون، في طبع المقالة، أو إذا كان لا يملك هذا الحق. فيكون قد ارتكب بنشرها قذفاً أو افتراءً، أو قذفاً مع الافتراء.

شيئان أدهشا نيكليودوف: لقد لاحظ أولاً أن وولف الذي أعلن له، قبل بضعة أيام، أن مجلس الشيوخ لا يهتم أبداً إلا بعيوب الإجراءات، قد نشط كثيراً، على العكس، لإلغاء الحكم الذي يُرى مدير الصحيفة. ومن جهة أخرى، فإن سيلينين كان متناقضاً تماماً مع طبعه الشديد التحفظ، فنشط نشاطاً مشابهاً للدفاع عن قضية نقيضة. وخُيل إلى نيكليودوف أنه لاحظ في ذلك شيئاً من العداء لوولف الذي لاشك أنه أحس بانطباع مماثل، لأنه احمر، بعد جواب من سيلينين، وارتعش، وبدرت منه حركة غيظ، ولم يصف شيئاً.

إن حدة سيلينين الذي يعرف نيكليودوف طبيعته المتحفظة، جاءت

من كونه يعرف رئيس جمعية المساهمين باعتباره رجلاً قليل النزاهة في أعماله. ولقد عرف عرضاً، من خلال المعلومات المتوافرة، أن وولف شارك في وليمة عند رجل الأعمال موضوع البحث، عشية نقاش طلب التمييز تقريباً. وعندما عبّر وولف إذن بكثير من الحذر عن رأي مُشبع بالتحيز، غضب سيلينين، وعبّر عن رأيه بطريقة مسرفة الحدة، لا يتناسب إصرافها مع السبب المتعلق بالإدارة فقط. فُجرح وولف واحمرّ واضطرب، وبدرت منه حركات صامتة تنم على الدهشة، وبدا كمن أهينت كرامته، فانسحب هو وزملاؤه إلى قاعة المداولات.

لم يكد المستشارون ينسحبون حتى سأل الحاجب فانارين مرة أخرى:

— ما دعوأك بالضبط؟

أجاب المحامي:

— قلتُ لك إنها دعوى ماسلوف.

— ممتاز. سيناقشونها اليوم. لكن...

فدهش فانارين:

— لكن ماذا؟

لقد ظنوا أن الأطراف المتنازعة في هذه الدعوى لن تتدخل. وأنا أشك أن يعود أعضاء المجلس إلى الجلوس بعد إصدار الحكم. لكنني سأنبئهم...

— ماذا تعني بذلك؟

قال الحاجب وهو يتصفح مستنداته:

— سأنبئهم، سأنبئهم...

في الواقع، قرر أعضاء المجلس أنهم إذا ما أصدروا حكمهم في هذه القضية، فسوف يناقشون التماسات العفو الأخرى، بما فيها التماس ماسلوف، في قاعة المداولات المذكورة. بين فنجان قهوة وسيجارة.

x x x

ما إن جلس أعضاء المجلس الأربعة في قاعة مداولاتهم، حتى أخذ وولف يَعرّض، بكثير من الحماسة، الأسباب الموجبة لنقض الحكم الذي يُبرّئ مدير الصحيفة. وكان الرئيس، وهو رجل قليل الدماثة على العموم، سيء المزاج على نحو خاص، في هذا اليوم. ولقد اتخذ قراره في هذه القضية، وهم يناقشونها في الجلسة العامة، واستغرق الآن في أفكاره، دون أن يصغي إلى وولف.

كان يفكر ويعيد التفكير في أنه كتب، عشية البارحة، في مذكراته، عن الطريقة التي عُيِّن بها «فيليانوف»، لا هو، «نيكيتين» في منصب طالما طمع به. كان نيكيتين مقتنعاً، في الواقع اقتناعاً صميمياً أن رأيه في مختلف كبار الموظفين الذين أتيح له معرفته، ترفد التاريخ بوثيقة من أهم الوثائق. وفي الفصل الذي كتبه، عشية البارحة، قوّم بقسوة قصوى سلوك بعض كبار الموظفين الذين منعه، حسب تعبيره، من أن ينقذ روسيا من الخراب. وذلك يعني ببساطة أنهم منعه من أن يتفاضى مرتباً أعلى. وهو الآن يسأل نفسه إن كان قد شرح ما شرح بوضوح يمكن الأجيال من أن ترى ذلك كله، بفضل، مُضاءً بضوء جديد.

كان يجيب وولف إذا بدا أنه يخاطبه:

— بلاشك، بلاشك.

لكنه لم يكن يسمع كلمة واحدة مما يقول.

«بي» أيضاً لم يكن يسمع شيئاً مما يقوله وولف. كان يرسم أشكالاً زخرفية على ورقة أمامه، وهو بادي الاستغراق. كان «بي» هذا ليبرالياً من الحرس القديم، يحافظ بورع على تقاليد مدرسة سنوات (٣٠) ١٨٦٠؛ وآراؤه التحررية وحدها كانت تستطيع أن تحرّفه عن حياده، فلم يرَ في قضية القذف إلا اعتداءً على حرية الصحافة. وعندما فرغ وولف من كلامه، رفع «بي» رأسه لحظة وأوضح وجهة نظره في كلمات قليلة شديدة الوضوح، ثم خفض رأسه الأبيض مرة أخرى، واستأنف رسم الأشكال الزخرفية.

أما سكوفورودنيكوف الذي كان جالساً أمام وولف يقضي وقته بأن يضع في فمه شعر شاربيه ولحيته، فقد توقف برهة عن هذه العملية ليعلن، بصوت قوي وحاد، أن الحكم لا يجوز أن يُنقض، لعدم وجود عيب من الإجراءات. أخذ الرئيس بهذا الرأي واعتُبر الحكم صحيحاً.

هاج هياج وولف، ولاسيما أنه أحس بالشك في نزاهته، لدى زملائه ولدى وكيل النيابة، من خلال تلميحات شتى. لكنه استطاع، بصفته رجلاً «حسن اللياقة»، أن يخفي ببراعة امتعاضه. وتناول في

٣٠- تقاليد مدرسة سنوات ١٨٦٠: أي جيل الحقوقيين التحرريين الذين ساندوا الإصلاحات الكبرى في السنوات ١٨٦١-١٨٦٤.

الحال إضبارة أخرى، وأخذ يقرأ أوراق قضية ماسلوف. وشرع زملاؤه الثلاثة، بعد أن قرعوا الجرس ليطلبوا الشاي، في حديث، استأثر مع مبارزة كامنسكي باهتمام بطرسبرج بأسرها. ذلك أن موظفاً من أهم الموظفين، رئيس دائرة في وزارة، أوقفَ بجرم انتهاك الحرمات الذي نصّت عليه المادة ٩٩٥.

قال «بي» بلهجة الإشمئزاز:

— يا للفظاعة!

سأله سكوفورودنيكوف بعد أن بلل بلسانه ورقة سيجارة لُقها:

— ما الفطيع في ذلك؟ لقد قرأت، في هذه الأيام، دراسة لمؤلف ألماني يطلب أن يُعتبر الاقتراب بين الرجال مشروعاً.

فهتف «بي» متعجباً:

— غير ممكن!

— سأتيك بالمقالة، في المرة القادمة.

وذكر، دون تردد، العنوان والتاريخ ومكان الطبع.

صرّح نيكيتين:

— يقال إنه سيُرسل إلى مكان ما في أعماق سيبيريا، بصفته حاكماً!

فضحك سكوفورودنيكوف هازئاً:

– ممتاز! وكأني بالأسقف يخرج للقاءه ومعه كهنته والصليب!

وبعد أن سحب أنفاساً من سيجارته، أخذ يلوّك من جديد شعر
لحيته وشاربيه.

في اللحظة نفسها، دخل الحاجب قاعة المداولات، ليقول لأعضاء
المجلس إن المحامي فانارين يرغب في حضور مناقشتهم لالتماس
ماسلوف.

شرع وولف يقول:

– إليكم حقيقة قضية ماسلوف؛ إنها قصة كاملة.

وقصّ على زملائه ما يعرفه من علاقات نيكليودوف بالسجينة.

كانوا جميعاً يتعجّلون الإنصراف، ويفضّلون كثيراً أن يفصلوا في
القضية بلمح البصر، وفيما بينهم. بيد أن طلب المحامي لا يمكن أن يُرد
بأدب، فقبلوا إذن بمغادرة قاعة المداولات ليعودوا إلى جلستهم العامة.

وولف أيضاً هو الذي بسط، بصوته النحيف، البواعث الموجبة
لنقض حكم ماسلوف. ومرة أخرى، فعل ذلك بتحيز ظاهر للعيان،
مُبدياً رغبته في نقض الحكم.

سأل الرئيس وهو يلتفت نحو فانارين:

– ألدريك ما تضيفه؟

نهض المحامي، وبعد أن أصلح مقدمة قميصه المنشأة، أخذ يبرهن، نقطة نقطة، بدقة ووضوح بارزين، أن مناقشات محكمة الجنايات تنطوي على ست نقاط مخالفة للقانون. ثم أجاز لنفسه أن يمسّ جوهر القضية. في بضع كلمات، ليثبت تهافت حكم محكمة الجنايات، والظلم الواضح فيه. على أثر هذه الخطبة التي أُلقيت بلهجة تتمّ على الاحترام والصلابة في آن واحد، بدا نقض الحكم محتمماً وقد وثق نيكليودوف بربح الدعوى ولاسيما أن المحامي تطلع إليه أثناء كلامه، وابتسم له ابتسامة الرضا. ولو ألقى نظرة على أعضاء المجلس لأظهرت له أن فانارين وحده يبتسم. بدا عليهم جميعاً هم ووكيل النيابة الضجر من أولئك الذين يرونهم يضيعون وقتهم، وكأنهم كانوا جميعاً يقولون للمحامي: «تكلّم كما تشاء! لقد سمعنا كثيراً من أمثالك!».

حالما انتهى فانارين من مرافعته، جعل الرئيس الكلام لوكيل النيابة فأعلن أن البواعث الموجبة للنقض التي استند إليها المحامي لم تكن مقنعة، وأن الحكم يجب أن يبقى. وهنا نهض الأعضاء وانتقلوا إلى قاعة المداولات.

وهنا انقسمت الآراء، مرة أخرى. أصر وولف على النقض. وأصرّ «بي» على الاتجاه نفسه، وهو وحده الذي أدرك مليّاً حقيقة القضية، وقدّم لزملائه لوحة حية عن غفلة المحكّمين وإهمال القضاة. وكان نيكتين، كعادته، نصيراً للمحافظة الصارمة على القانون، فعارض النقض. كان كل شيء إذن يتوقّف على صوت سكوفورد نيكوف. ولقد أعلن معارضته للنقض، وذلك لمجرد أن

قرار نيكليودوف الإقتران بها، على سبيل الواجب، صدمه إلى أعلى حدود الصدم.

كان سكوفورودنيكوف مادياً، داروينياً. وكان كل مظهر من مظاهر الشعور بالواجب، بل والشعور الديني فوق ذلك، لا يقع منه موقع السخف المثير فحسب، وإنما موقع ما يشبه الإهانة الشخصية أيضاً. فكل هذا الصخب من أجل عاهرة، وحضور محام شهير إلى هذا المكان للدفاع عنها، وحضور نيكليودوف أيضاً، كل ذلك أثار نفوره إلى أبعد حد، فمن أجل ذلك أعلن، دون أن يكف عن حشو لحيته بين أسنانه، أنه لم ير في القضية غير قانونية الحكم، وقصور البواعث الموجبة للنقض.

فرّد طلب ماسلوفاً إذن.

× × ×

هتف نيكليودوف وهو يتقدّم نحو المحامي بعد تلاوة القرار:

- لكن هذا فظيع! الظلم صارخ في هذا الحكم! وها هم يثبتونه بحجة أنه لا يحتوي على عيب في الشكل؟

أجاب فانارين:

- ذلك حكم مسبق عندهم.

وكرر نيكليودوف:

- وسيلنن أيضاً، يعارض النقض! هذا فظيع! ما العمل، الآن؟

- التقدّم إلى الإمبراطور بالتماس العفو. قدّمه أنت بنفسك مادمت هنا. سأكتبه لك.

في هذه اللحظة دخل القاعة عضو مجلس الشيوخ وولف، ومعه كل أوسمته على بزته، فدنا من نيكليودوف، وقال له وهو يهز كتفيه الضيقتين:

- ما حيلتنا في ذلك، أيها الأمير العزيز؟ كانت البواعث الموجبة للنقض ناقصة!

ثم ما لبث أن دخل إحدى الخزائن ليبدّل ثيابه.
بعد وولف وصل سيلينين؛ وسرعان ما عرف صديقه القديم.
قال له سيلينين، وهو يتسم له من شفّتيه، بينما احتفظت عيناه
بأمارات الحزن:

– ما كنتُ أتوقع أن ألقاك هنا.

– ما كنت أعلم أنك نائب عام!

فصحح سيلينين:

– وكيل النائب العام. وماذا تفعل هنا!

– جئت على أمل أن ألقى هنا العدل والشفقة نحو امرأة بائسة
حُكِمَ عليها ظلماً.

– أية امرأة؟

– تلك التي تُبْتَم الحكم عليها.

فتذكّر سيلينين:

– آه! نعم، ماسلوف. إن طلب النقض لم يَقم على أساس.

– ليست القضية قضية طلب النقض، بل قضيتها هي نفسها. إنها
بريئة، وقد عوقبت بدون سبب...

تنهّد سيلينين:

– هذا ممكن جداً، لكن...

- ليس هذا ممكناً فحسب، بل إنه مؤكّد تماماً.

- كيف عرفت ذلك؟

- كنتُ في عداد المحلفين الذين حكموا عليها. وأنا أعلم أننا ارتكبنا خطأ في حكمنا.

فكر سيلينين لحظة، وأردف:

- كان ينبغي أن تشير إلى الخطأ في الحال.

- أشرت إليه.

- كان ينبغي أن يُدوّن في المحضر. فهو سبب موجب للنقض. ولفت نيكليودوف انتباهه:

- لكن فحص القضية كان يكفي ليظهر أن حكم المحلفين متهاافت.

أجاب سيلينين، وهو يفكر في وولف وفي القضية التي بُتّ فيها آنفاً:

- أوه! ليس لمجلس الشيوخ أن يُعنى بذلك! لو أجاز لنفسه أن ينقض حكماً باسم العدالة لما زاد فقط من نصيب الظلم بل لفقدت قرارات المحلفين علة وجودها كلها.

- كل ما أعلمه هو أن هذه المرأة بريئة، وأنها فقدت الآن كل أمل بالإفلات من هذا العقاب الفظيع. إن العدالة العليا قد ثبتت الظلم.

فاحتج سيلينين، وفي صوته شيء من نفاذ الصبر:

— كلا، إنها لم تثبت، لأنه لم تكن لتعنى به.

ثم حرص حرصاً واضحاً على تغيير الموضوع، فأردف:

— قيل لي البارحة إنك كنت هنا. لقد دعنتي الكونتيسة كاترين «إيفانوف»، في ذلك المساء، إلى زيارتها للاستماع إلى النبي الجديد. ولو قدرت أنك ستكون هناك لذهبت.

— كنت هناك، بالفعل، لكنني انصرفت مشمئزاً.

— ولم الإشمئزاز؟ كان ذلك، على كل حال، إظهاراً للشعور الديني، مهما يكن ذلك الإظهار وحيد الجانب، وطائفاً.

فاحتج نيكليودوف:

— دعك من هذا! كان جنوناً فظيعاً!

فأعلن سيلينين بلهجة مرتبكة إذ تذكر أنه أبدى قديماً أمام نيكليودوف أفكاراً مختلفة كل الاختلاف:

— كلا، كلا. الشيء الوحيد الغريب والمزعج هو أننا نجهل تعاليم الكنيسة جهلاً فاضحاً حتى أننا نعتبر ما هو مجرد عرض لأركان عقيدتنا الأساسية جده.

تأمل نيكليودوف بانتباه مشوب بالدهشة. فصمد سيلينين لنظرته. وخيل إلى نيكليودوف أنه يحسّ، في أعماق عينيه الحزيتين، بنزعة عدوانية. فسأله:

— أوتؤمن بعقائد الكنيسة؟

أجاب سيلينين وهو يوجه إلى نيكليودوف نظرة فاقدة للحياة:

— إني أؤمن بها من دون شك.

تنهّد نيكليودوف، وقال:

— هذا مدهش.

أضاف سيلينين بعد أن أفهمه بالإشارة أنه يرغب في الكلام إليه:

— سنتحدّث عن ذلك مرة أخرى. لأننا سنتلاقى. لا بد أن نتلاقى حتماً. لكن أين ألقاك؟ أما أنا فأنت واجدني دائماً، في البيت، ساعة العشاء.

ودل نيكليودوف على عنوانه، وشدّ على يده بمودة، وأضاف قبل أن يتعد:

— كم مرّ من وقت منذ حديثنا الأخير؟

أجاب نيكليودوف:

— نعم، سآتي لأراك، إن استطعت!

لكنه أحسّ في أعماق نفسه أن هذا اللقاء القصير جعل رجلاً من أعز الناس عليه، وأعظمهم مكانة في نفسه، غريباً عنه، إن لم يكن عدوّاً له.

× × ×

عندما عرف نيكليودوف سيلينين، في الوقت الذي كان فيه طالبين، كان هذا فتى ممتازاً، باراً بوالديه، ورفيقاً مخلصاً، ورجل مجتمع، مثقفاً، مليئاً بالذوق، جميلاً، أنيقاً، أميناً وشريفاً. وكان مبرزاً في دراسته، دون جهد ودون أدنى تبجح، وكان ينال الأوسمة الذهبية^(٣١) واحداً بعد الآخر، مكافأة له على أعماله. وقد أخذ على نفسه أن يُساعد الناس لا بالأقوال وحدها، بل بالأفعال. وإذا أنه لم يكن يعلم كيف يجسّد هذه المساعدة عن غير سبيل الوظيفة العامة، فقد استعرض بدقة جميع ضروب النشاط التي يمكن أن يكرّس قواه لها، وبما أن الدائرة الثانية في وزارة العدل الإمبراطورية حيث كانت تُعدّ المراسيم القانونية، بدت له أعظم الوظائف ملائمة لمطامحه، فقد عُيّن فيها.

وبالرغم من الضمير المدقّق الذي تزوّده للقيام بشؤون هذه الوظيفة، فإنه لم يجد فيها ما يُشبع حاجته إلى نفع الناس. وبعد أن اصطدم برئيسه المباشر، وكان رجلاً حقيراً ومغروراً، ازداد استياؤه إلى الحد الذي قدّم فيه استقالته لينتقل إلى محكمة التمييز.

٣١- الأوسمة الذهبية...: كانت الأوسمة الذهبية تُمنح لأفضل الطلاب الثانويين، وكذلك للطلاب الجامعيين الذين كتبوا موضوعاً ممتازاً.

وهنا حُسِنَتْ حالته، لكنه لم يكن راضياً بعد. وقد لازمته الفكرة التالية: وهي أنه لن يجد هنا أيضاً ما كان يرجوه. في غضون ذلك، أمكن لأسرته أن تحصل على تعيينه في غرفة صاحب الجلالة الإمبراطورية. وكان لابد له أن يطوف، بزيّاته الرسمية المطرّزة ذات البنطالات البيضاء، على بيوت الذين لهم الفضل بتعيينه، لكي يؤدي لهم واجبات الشكر. لم يكن يرى أي معنى في وظيفة الخادم هذه، وازداد قناعة بأنه لم يبلغ ما كان ينشده، لكنه وإن كان عاجزاً عن رفض التعيين، خوفاً من إهانة الذين ظنوا أنهم يكرمونه تكريماً عظيماً حين يحصلون له عليه، إلا أن هذا التعيين كان يداعب أحط غرائزه. كان يعجبه أن يتأمل نفسه في المرآة وهو مرتد هذه البزة المزركشة بالذهب، ويستمتع بالاحترام الذي يُبدية له كثير من الناس.

وكذلك كان زواجه. فمن وجهة النظر الاجتماعية، كان الزواج التقليدي الذي دُبر له أنجح ما يكون، فلم يجروا أن يرفض، خوفاً من إهانة الخطيبة التي كانت ترغب في هذا الزواج، وخوفاً من أن يجرح هؤلاء الذين رتبوا هذا الزواج. ومن جهة أخرى. كان الاقتران بفتاة حلوة، من أسرة نبيلة، يرضي أنانيته، ويسرّه.

لكن سرعان ما أقرّ في أعماق نفسه أن لا زواجه، ولا وظيفته، ولا مهمته في البلاط، هي ما كان ينشده. وبعد ولادة الولد الأول، لم تشأ زوجته أن تنجب غيره. وأخذت تحيا حياة اجتماعية مُترفة، فكان لزاماً على الزوج أن يسير على آثارها.

لم تكن متميّزة الجمال، وظلّت أمينة له. لم تكن تجني شيئاً، على

المستوى الشخصي، من هذه الحياة التي تحياها سوى الكثير من المتاعب والسخرات، وسوى أنها سمّت حياة زوجها. ومع ذلك فقد نذرت نفسها لها روحاً وجسداً. وكانت كل محاولة من سيلينين لتغيير هذا الوضع، تصطدم دائماً بجدار من الحجر، لأن زوجته، وذويه، وأصدقاءه كانوا على يقين مطلق بأن هذه هي الحياة التي تليق به أن يحياها.

أما ابنته الصغيرة ذات الخصلات الطويلة الشقراء، والساقين العاريتين، فضلّت غريبة عنه، ذلك لأنها تربّت في عالم معارضٍ لرغباته.

وشيئاً فشيئاً، قام بين الزوجين اللذين فقدوا الرغبة في التفاهم، التنافر المعتاد. وجعل الصراع الخفي، الصامت الذي ستره عن الغرباء، والذي لطّفته المواضعات الاجتماعية، جعل حياة سيلينين العائلية شاقة.

وأشدّ من كل شيء، أن طريقته في النظر إلى الدين لم تكن ما «يُنشده». فقد قَطَعَ، دون أدنى جهد، صلّاته بالأحكام الدينية المسبقة التي تربّى عليها، والتي لم يعد يذكرها، شأنه شأن جميع مثقّفي طبقته الاجتماعية وزمنه. وعندما كان يختلف إلى الجامعة، وعندما كان صديقاً لنيكليودوف، لم يحاول قط أن يخفي عن أحد اعتناقه من خرافات الديانة الرسمية، لفرط ما كان عليه من جد واستقامة إِبّان شبابه الأول.

لكن استقلاله الروحي أخذ يُقلقه كلما تقدّم في السن وفي الوظيفة،

وعلى الخصوص بسبب الردة المحافظة التي دبّت في الجميع. فضلاً
عن واجبات الأسرة، ولا سيما فيما يتعلق بصلوات الذكرى المُقامة
بعد موت أبيه، وفضلاً عن رغبة أمه التي كانت تريد منه أن يتقدّم
إلى التناول، كما تقضي بذلك اللياقة، كانت وظيفته تُجره باستمرار
على حضور تسيحة الشكر، والتبريكات وصلوات الشكر. ونادرة
كانت الفرص التي استطاع فيها أن يُفلت من هذه الإلتزامات. وهو
بحضوره هذه الصلوات كان يجد نفسه بين أمرين: فإما أن يتصنّع
الإيمان وهو أمر تأباه استقامته، وإما أن يعتبر هذه الأشكال الخارجية
كاذبة، فينظّم حياته على نحو لا يحضر معه أبداً هذه الصلوات.
لكنه إن شاء أن يُقدّم على هذا الشيء القليل الأهمية في ظاهر الأمر،
وُجِبَ عليه أن يدخل في صراع مكشوف مع أسرته كلها، وأن يغيّر
جذرياً حياته، ويترك الخدمة، ويتخلّى عن خدمة القريب، وهي خدمة
كان سيلينين يظن أنه يؤديها بفضل وظيفته. ومن أجل ذلك، كان
لا بد له من اليقين المطلق بأنه على حق. وهذا اليقين قد بلغه، كما
يبلغه، في أيامنا كل ذي عقل سليم قرأ شيئاً من التاريخ، وبحث عن
أصول الدين، على العموم، وعن أصول انحطاط الكنيسة المسيحية،
على الخصوص. لقد قبل هذا الرجل المستقيم الكذب غير المमित،
مستسلماً أمام متاعب الصعوبات اليومية. وقال في نفسه: إنه لكي
تُثبت بشكل قاطع ان الشيء منافع للعقل، فيجب أن نفحص أولاً
قوام اللامعقولية هذه. وهكذا يسوقه الكذب غير المमित إلى الكذب
المमित الذي كان غارقاً فيه الآن.

وعندما طُرِحَت عليه مشكلة ما إذا كان صحيحاً هذا الدين

الأرثوذكسي الذي تربى عليه، هذا الدين الذي كان يتطلبه منه محيطه، والذي كان ضرورياً له لكي يمارس نشاطه من أجل مصلحة قريبه، كانت المشكلة محلولة.

ولتوضيح هذه المسألة، لم يلجأ لا إلى «فولتير»، ولا إلى «شوبنهاور»، ولا إلى «سبنسر» أو «كانت»، لكنه رجع إلى «هيجل» وإلى مؤلفات «فينيه» و«كومياكوف». اللاهوتية؛ فوجد فيها، بطبيعة الحال، ما يبحث عنه: وجد فيها ما أدخل الطمأنينة على نفسه، وجد تسويغاً لذلك المذهب الذي تربى فيه. هذا الجواب، أثبت محاکمته العقلية عليه قبوله، زمناً طويلاً، لكنه كان ضرورياً له، ليتفادى عدداً من المزعجات. وتعلق بجميع السفسطات المتداولة. وهي أن العقل الفردي لا يتجلى للناس إلا من حيث هم جماعة؛ وأن السبيل الوحيد لمعرفة الحقيقة هو الوحي الذي خُصت به الكنيسة، وهلم جراً. ومنذ هذا الوقت، استطاع سيلينين، أن يحضر الخدمات الدينية، وأن يتناول، ويرسم إشارة الصليب أمام الصور المقدسة، وهو مطمئن النفس، ودون أن يخطر بباله أن ذلك كذب. واستطاع، على الخصوص، أن يبذل نشاطه كموظف، وهو نشاط كان يوهمه بأنه سيكون نافعا، الأمر الذي يوفر له سنداً عظيماً في حياته العائلية الخالية من الأفراح. كان يتصور أنه مؤمن، وإن كان في أعماق نفسه مقتنعاً أن إيمانه ليس ذلك الشيء، «الذي ينشده»، على الإطلاق.

لذلك كانت نظرتة مغشاة بالحزن. وحين التقى نيكليدوف الذي عرفه عندما كانت جميع هذه الأكاذيب غريبة عنه، رأى نفسه من جديد كما كان من قبل. وبعد أن سارع فدلّ صديقه الذي لقيه على

توجّهه الديني الجديد، أحس بشدة أكبر من ذي قبل، أن ذلك ليس
«ما ينشده» أيضاً فشعر بالمرارة العميقة تحتاحه.

وأحس نيكليودوف بالإحساس نفسه، بعد أن انقضى فرحه
بلقاء رفيقه القديم. ولقد تواعدا اللقاء، لكن أحداً منهما لم يفعل شيئاً
ليجعل ذلك اللقاء ممكناً. فلم يلتقيا قط، طوال إقامة نيكليودوف في
بطرسبرج.

× × ×

سار نيكليودوف وفانارين معاً على الرصيف، عند خروجهما من مجلس الشيوخ. فروى المحامي لنيكليودوف مغامرة هذا الموظف الكبير الذي فوجئ متلبساً بالجريمة التي تحدّث عنها أعضاء المجلس فيما بينهم. وأخبره كيف أنه وُضع على رأس حكومة في سيبيريا، بدلاً من أن يُرسل إلى السجن، كما كان ينبغي، بناءً على القانون. ثم أوضح فانارين لنيكليودوف، أثناء مرورهما في ساحة، كيف أن اكتتاباً افتُتح لإقامة نصب على هذه الساحة نفسها، فلم يُقم النصب لأن الشخصيات الرفيعة التي أشرفت على الاكتتاب قد وضعت المال المجموع في جيوبها. وأضاف بصدد إحدى هذه الشخصيات أن عشيقته ربحت ملايين الروبلات في المضارب المالية. كما روى المحامي أن رجلاً باع امرأته بمبلغ كبير من المال، وأن اختلاسات لا عدّها ارتكبها أناس مائز الون يشغلون مناصب مرموقة، بدلاً من أن يكونوا في السجن. لقد بدت هذه القصص التي لا ينضب معينها كأنها توفر لفانارين الرضا الشخصي: كانت تتيح له، في الواقع، أن يعتقد وأن يحمل الآخرين على الاعتقاد أن الوسائل التي يستخدمها لكسب المال مشروعة وبريئة، إذا قورنت بالوسائل التي يستخدمها

أعلى ممثلي السلطات العامة. ولذلك بلغت دهشته أقصاها، عندما رأى نيكليودوف يستأذنه، دون أن يصغي على نهاية إحدى قصصه، ويشب إلى عربة ليعود إلى منزل خالته.

كان نيكليودوف محزوناً جداً، جاء حزنه، قبل كل شيء من قرار مجلس الشيوخ الذي ثبت العقوبة الفظيعة التي نزلت بماسلوف. وفكر بحزن في أن هذا القرار المثبت جعل تحقيق الجمع بين مصيره ومصير ماسلوف أشد قسوة. ثم إن هذه القصص التي رواها المحامي بكثير من الرضا عن ذاته قد ملأته أيضاً بالأسى، إذ أظهرت له انتصار الشر في كل مكان. هذا إضافة إلى أنه ظل يتذكر، بالرغم منه، تلك النظرة الباردة والعدوانية التي رماه بها سيلينين، وكان من قبل عظيم الصراحة والود والنبيل.

عندما بلغ منزل خالته، سلمه البواب بشيء من الإحتقار رسالة حملتها «امرأة» إليه، على حد قوله. كانت الرسالة من أم شوستوفا. وكانت تشكر بعبارات متأثرة «المحسن»، منقذ ابنتها، وتتوسل إليه ألا يغادر بطرسبرج دون أن يزورها. وأضافت أن ذلك هو في مصلحة فيرا ايفريموفنا.

فضلاً عن هذه الرسالة، وجد بطاقة من أحد رفاقه، المساعد العسكري لصاحب الجلالة، «بوغاتيريوف» الذي طلب إليه نيكليودوف أن يسلم الامبراطور شخصياً الطلب الذي هيأه باسم المتعصّبين.

كتب بوغاتيريوف بخطه العريض والقوي، إنه سيضع الإلتماس

مباشرة بين يدي الامبراطور، حسب وعده، بيد أن فكرة خطرت له: أليس من الأفضل أن يتوجّه أولاً إلى الشخص الذي أنيطت القضية به؟

بعد الانطباعات التي تلقاها نيكليودوف، أثناء هذه الأيام الأخيرة في بطرسبرج، فقد كل أمل بالنجاح. فالمشاريع التي خطط لها في موسكو بدت له غير ممكنة التحقيق، وأحلام شباب تتحطم لدى أول احتكاك بالواقع. لكن، بما أنه كان في بطرسبرج، فقد رأى من واجبه أن ينهي برنامجه كله بنجاح. وسيذهب في اليوم التالي إلى بوغاتيريوف ومن عنده، سيذهب، بناء على نصيحته، إلى الشخص الذي أوكلت إليه قضية المتعصبين.

عندما عاد إلى غرفته، أخرج من محفظته التماس المتعصبين، ليعيد قراءته في هذه اللحظة، دخل أحد الخدم وأنبأه أن الكونتيسة كاترين ايفانوفنا ترجوه أن ينزل إلى قاعة الاستقبال لتناول الشاي.

أعاد نيكليودوف أوراقه على محفظته ونزل إلى قاعة الاستقبال. ومن نافذة السلم، أبصر، في طريقه، عربة ماريت واقفة أمام المنزل. وفجأة، أحسّ بأن قلبه يتهيج. استولت عليه الرغبة في أن يكون شاباً وأن يتسم.

كانت ماريت تضع على رأسها، قبعة لونُها فاتح، وترتدي فستاناً مشجّراً، وتجلس على كرسي قرب مقعد الكونتيسة، ويدها فنجان الشاي. كانت تتحدث بصوت هامس، وقد تألق وجهها ببريق عينيها الجميلتين، الضاحكتين. وفي الوقت الذي دخل فيه نيكليودوف القاعة، كانت قد قالت شيئاً مضحكاً، لكنه ضحك غير محتشم — عرف

نيكليودوف ذلك من طبيعة ضحكها- حتى أن الكونتيسة الفاضلة تملكها فرح مجنون هزّ جسدها الثقيل من رأسها إلى قدميها. وفي أثناء ذلك، كانت مارييت تلاحظها، وعلى وجهها الفاتن الذي يجمع بين القوة والخفة، تعبيراً عذباً. بحيث مالت قليلاً على جانبها. وأدرك نيكليودوف، من خلال بعض الكلمات أنهما يتحدثان عن النبأ الثاني في بطرسبرج، عن مغامرة حاكم سييريا الحديد الذي أطلقت عليه مارييت جملة شديدة الفحش حتى أن الكونتيسة لم تتمالك نفسها من الضحك.

قالت الكونتيسة العجوز بين قهقهتين:

- ستموتيني من الضحك!

جلس نيكليودوف بجانب السيدتين، بعد أن حيّاهما. وسرعان ما عمدت مارييت، إذ لاحظت تعبير قسماته الجاد، ورغبت في إرضائه، -وهي رغبة راودتها، دون أن تعرف سببها، منذ اللحظة الأولى التي رآته فيها- لا إلى تغيير مظهرها الخارجي فحسب، بل إلى تغيير حالة مزاجها. وإذا بها تبدو رصينة، كئيبة، مستاءة من الحياة، مليئة بالأشواق المبهمة؛ كل ذلك بصدق، دون أي رياء أو جهد. ذلك أنها انغمست، بغريزتها، وإرضاء لنيكليودوف، في الجو الذي أحست أنه يعيش فيه، في هذه اللحظة. سألته عن نتيجة مساعيه. فأنبأها كيف أن جهوده فشلت في مجلس الشيوخ، وذكر، بهذه المناسبة، لقاءه مع سيلين.

هتفت السيدتان، وقد ارتاحتا إلى استخدام صفة قبلت بها
بطرسبرج جهاراً، للدلالة على وكيل النيابة الجديد:

— آه! يا للروح النقيّة! هذا حقاً فارس لا يناله الخوف ولا اللوم!

سأل نيكليودوف:

— أهو متزوج: كيف امرأته!؟

انفعلت مارييت، وقالت برأفة صادقة:

— امرأته؟ أوه! هي... لكن ينبغي ألا نحكم على أحد. المصيبة أنها
لا تفهم زوجها... وهكذا كان هو أيضاً مع رفض الطلب؟ لكن هذا
فظيع! كم أرثي لتلك البائسة!

صعدت زفرة من أعماق قلبها. وسارع نيكليودوف الذي تأثر
بحزنها، على تغيير الحديث. فحدّث مارييت عن شوستوفا التي
خرجت، بفضل وساطتها، من السجن. وبعد أن شكرها على هذه
الوساطة وتهيأ للكلام على مدى الفضاة في أن هذه المسكينة قد
تألمت هي وأسرتها زمناً طويلاً، وذلك لمجرد أن أحداً لم يرفع صوته
من أجلهم، لم تمهله مارييت حتى يتابع كلامه، فعبرت هي نفسها عن
سخطها بعبارات شبيهة بالتي كان سيستخدمها.

لاحظت الكونتيسة كاترين ايفانوفنا، على الفور، أن مارييت
تتصنّع الغُنَجَ مع ابن أختها. وهو شيء كان يسرها كثيراً، على كل
حال.

قالت لنيكليودوف:

— أتعلم ماذا؟ تعال معنا غداً مساءً إلى منزل آلين. فسوف يكون
كيسويتر هناك.

وأضافت وهي تلتفت إلى مارييت:

— وأنت أيضاً، لا تتخلفي عن المجيء.

ثم وجهت الكلام إلى ابن أختها وقالت:

— لقد لاحظتك. وقال لي إن جميع الأفكار التي عرضتها لي والتي
أطلعته عليها، كانت في نظره علامة خير، وأنتك لن تتأخر، من دون
أي شك، عن المجيء إلى المسيح. إني أتكلم عليك من أجل غداً مساءً.
قولي له، يا مارييت، أنك تتكلمين، أنت أيضاً، عليه.

أجابت مارييت وهي ترمي نيكليودوف بنظرة تعني أنها على
اتفاق تام معه حول الأفكار الإنجيلية التي تتمسك بها السيدة العجوز،
الفاضلة:

— أولاً، دعيني أقل لك، أيتها الكونتيسة العزيزة، أنني لا أملك
الحق في إسداء النصائح إلى دميتري ايفانوفتش. ثم إني، لا أحب كثيراً،
كما تعلمين...

— نعم، أعلم، أنت دائماً مختلفة عن الآخرين، إذ أن لك طريقتك
الخاصة بك في التفكير، بصدد كل شيء.

قالت، وهي تبسم:

- كيف، طريقتي الخاصة بي؟ لكن إيماني هو أبسط أنواع الإيمان وأكثرها ابتذالاً، هو إيمان أجهل الفلاحات. إلا أنني مكرهة على الذهاب غداً، بخاصة، إلى المسرح الفرنسي.

سألت الكونتيسة نيكليودوف:

- آه! وأنت، بالمناسبة، أعرف هذه الذائعة الصيت... ما اسمها؟

فهمست لها مارييت باسم مغنية فرنسية مشهورة.

- يجب حتماً أن تذهب لتراها. إنها مذهشة؟

فقال نيكليودوف وهو يبتسم:

- من ينبغي أن أراه أولاً، برأيك، يا خالتي، الممثلة أم النبي.

- أنت خبيث إذ تفسر أقوالي هذا التفسير السيء.

فردّ نيكليودوف مازحاً:

- أعتقد أن الأفضل أن يذهب المرء أولاً، ليرى النبي، وبعد ذلك يرى الممثلة، خوفاً من أن يفقد مذاق النبوات.

فقالت مارييت:

- لا، الأفضل أن يبدأ المرء بالمسرح الفرنسي، ثم يتوب بعد ذلك.

- اضحكا، اهزأاً! فلن تغرياني بتغيير رأيي... الواعظ شيء،
والمسرح شيء آخر. ولكي نبلغ خلاصنا، لا حاجة بنا إلى أن نغتم
ونبكي أبداً. يكفيننا أن نؤمن، وعند ذاك نصبح أقدر على الإستماع
بالحياة.

لكنك، يا خالتي، أبلغ وعظاً من خير الواعظين.

وأوحت مارييت:

- وأنت، أتعلمين ماذا ينبغي لك أن تفعلي؟ ينبغي أن تأتي إلى
مقصورتى، غداً مساءً.

- أخشى ألا أجد الوقت...

انقطع الحديث بدخول خادم، جاء يُنبئ الكونتيسة بزيارة أمين سر
أحد الأعمال الخيرية الذي كانت رئيسة له.

- اوه! هذا أثقل الناس! سأستقبله لحظة في قاعة الاستقبال
الصغرى، وسأعود على الفور. صَبَّيْ له الشاي، يا مارييت، ريثما
أعود.

وبعد ذلك، خرجت الكونتيسة بخطوات سريعة وموزونة.

نزعت مارييت أحد قفازيها، فعرّت يداً صغيرة، قوية، مسطّحة
قليلاً، بنصرها مثقلاً بالخواتم.

سألت نيكليودوف وهي ترفع غلاية الشاي الفضية:

- أيمكنني أن أقدم لك الشاي.

واتخذ وجهها مظهراً أكثر رصانة وحنناً. وقالت له:

- سأعترف لك هذا الإعتراف. لا شيء في العالم يشق علي كما يشق علي التفكير في أن أشخاصاً أكنُّ لهم التقدير يخلطون بيني وبين الموقع الذي أراني مكرهه على العيش فيه.

ولولا قليل لبكت، وهي تلفظ هذه الكلمات. ومع أن هذه الكلمات لا تحمل سوى معنى شديد الغموض، لو تأمل فيها نيكليودوف عن كذب، إلا أنها بدت له بالغة العمق والصراحة والطيبة، لفرط ما كان للنظرة التي رافقتها من سلطان عليه. كان ينظر إلى هذه المرأة الشابة، الجميلة، الغضة والأنيقة، دون أن يجيبها، ودون أن يستطيع رفع بصره عن وجهها.

- ربما ظننت أنني لا أفهمك، وأنني لا أعرف ما الذي يجري فيك؟ لستُ أجهل، طبعاً، ما حصل لك: هذا سر لا يخفى على أحد، هنا. لكن، ليس يفهمك أحد سواي. إنني أوافقك، وأعجبُ بك.

- في الواقع، لا مجال للإعجاب بي، فلم أفعل شيئاً بعد.

- لا قيمة لذلك، إنني أفهم عواطفك وعواطف تلك المرأة.

ثم قطعت كلامها إذ خُيلَ إليها أنها قرأت شيئاً من الاستياء في ملامح نيكليودوف:

- طيب، طيب، لن أحدثك عن ذلك بعد الآن!

ثم استأنفت كلامها تحفزها فكرة واحدة هي أن تستولي على قلب الأمير:

— وما أفهمه أيضاً هو أنك بعد أن رأيت ما في حياة السجون من أهوال وآلام، رغبت في مدّ يد العون إلى هؤلاء البائسين، ضحايا أنانية البشر وعدم مبالاتهم... وأنا أفهم أنك نويت بذل حياتك في سبيل هؤلاء البؤساء. أنا نفسي، كنتُ سأبذلك حياتي، طائعة، مختارة. لكن لكل قدره!

— الستِ إذاً راضية عن قدرك؟

فهمت كالمشدوهة من إمكان طرح هذا السؤال عليها:

— أنا؟ نعم، إن من واجبي أن أكون راضية عنه، وأنا راضية. لكن في داخلي دائماً دودة ناخرة، أنا مكرهة على تغطيتها بالتراب.

هتف نيكليودوف وقد استكان كلياً:

— يجب ألا تغطّيها! يجب أن تؤمني بذلك الصوت الذي يتكلم فيك!

كثيراً ما تذكّر نيكليودوف، فيما بعد، هذا الحديث بخجل؛ وكثيراً ما تألم، وهو يتذكر ما بدا على مارييت من انتباه مصطبغ بالاحترام، حين أصغت إليه، وهو يقص عليها زيارته للسجون وانطباعاته لدى احتكاكه بالسجناء.

عندما عادت الكونتيسة إلى القاعة، كان نيكليودوف و مارييت

يتحدثان كما يتحدث الصديقان الحميمان اللذان يفهم أحدهما الآخر، دون سائر الناس، وسط جمهور غريب ومعاد. كانا يتحدثان عن ظلم الأقوياء. وآلام الضعفاء، وبؤس الشعب. والواقع أن عينيهما لم يكفّا عن الكلام على موضوع آخر. تحت همس الكلمات كانت عينا مارييت تقولان: «أستطيع أن تحبني؟»، فتجيب عينا نيكليودوف «أستطيع ذلك!» لقد كانت الشهوة الجنسية تجذب أحدهما على الآخر طوال الوقت الذي عبرت فيه شفاههما عن الأفكار النبيلة.

قبل أن تنصرف مارييت، قالت لنيكليودوف أيضاً كيف يسعدها أبداً أن تكون نافعة له في مشاريعه. وطلبت إليه ألا يتخلف عن المجيء إلى مقصورتها، في المسرح، غداً مساءً، مؤكدة له أنها ستحدثه عن «قضية من أخطر القضايا».

ثم تنهّدت، وقد خفضت عينيها على يدها المغطاة بالخواطم:

— ومنْ يعلم، بعد ذلك، متى سنلتقي. اتفقنا، أليس كذلك، تعال غداً؟

وعدها نيكليودوف بالمجيء.

في هذه الليلة، مكث طويلاً قبل أن يستطيع النوم. كان كلما تذكّر ماسلوفاً، ورَفُض طلب النقض، ونيته اللحاق بهذه البائسة أينما ذهبت، والطريقة التي تخلى بها عن أراضيه، رأى وجه مارييت الناعم، العذب، ينتصب أمامه، وكأنه الجواب عن تلك الخواطر. كان يسمعه وهو يقول له متنهداً: «الله أعلم متى سنلتقي»، وتذكّر

ابتسامتها بوضوح شديد، وبقوة شديدة، حتى لقد فاجأ نفسه، في الليل، وهو يبتسم. وتساءل بالرغم منه، إن كان على حق في أن يلتزم الذهاب إلى سييريا، وإن كان على حق في أن يتخلى عن ثروته.

إن الأجوبة التي خطرت له، في هذه الليلة المقمرة من ليالي بطرسبرج، كانت غامضة، مشوشة، على نحو غريب، فلقد اختلطت اختلطت الأشياء جميعاً في رأسه. كان يستحضر في ذهنه عواطف قديمة، ويتعث أمام نفسه أفكاره القديمة، لكن تلك العواطف، وهذه الأفكار فقدت سلطانها القديم عليه.

وفكر في نفسه: «لقد صنعتُ لنفسي أحلاماً لا أستطيع معاشتها!»
وإذ أحس بالأسئلة تُلح عليه، وهو عاجز عن الرد عليها، فخامره إحساس قوي بالحزن ووهن العزيمة لم يشعر بمثله منذ زمن بعيد. وعندما غفا، أخيراً، في الفجر، كان نومه ثقیلاً، مغماً، كما كان ينام قديماً بعد ليال يقضيها وهو يخسر في القمار.

× × ×

كان أول شعور شعر به نيكليودوف، عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، انطباعاً غامضاً بأنه ارتكب عملاً حقيراً. وجمع ذكرياته: لا، إنه لم يرتكب عملاً حقيراً، وإنما راودته أفكار حقيرة، وهو ما كان أسوأ في عينيه. وتساءل نيكليودوف برعب كيف استطاع، ولو لبضع لحظات أن، يُعير مثل هذه الأفكار أذنًا صاغية. ومهما يكن جديداً وشاقاً ما عقد العزم عليه، فقد كان يعلم أن الحياة التي تنتج عن ذلك هي وحدها الحياة الممكنة منذ اليوم. ومهما تكن سهلة عليه العودة إلى حياته القديمة، فقد كان يعلم أن ذلك سيكون انتهاء للحياة، بالنسبة إليه. كان تردد البارحة عديم الأثر، مثله مثل آخر حركات كسل الإنسان الذي يتشاءب في فراشه، ويُغرق نفسه في لحافه من جديد، بعد أن يستيقظ، مع علمه أن اللحظة التي يجب أن ينهض فيها من أجل أمر عظيم النفع والمتعة قد حانت. ونهض على عجلة، وقصد إلى الحي الذي تسكنه أم شوسنوبا في جزيرة فاسيلييفسكي.

كان مسكن آل شوستوف في الطابق الأول، حسب إرشادات البواب. اجتاز نيكليودوف ممرات مظلمة، وتسلق سلماً متعباً

ومعتماً، وولج مطبخاً شديد الحماوة، تملؤه رائحة لا تطاق من دهن رديء. كانت تقف فيه، قرب الفرن، امرأة عجوز، مشمرة الكمين، بمزرها، وعلى أنفها نظارة ضخمة. كانت تحرك شيئاً في القدر.

سألته بصوت حذر، وهي تنظر من فوق نظارتها.

— فيمَ ترغب؟

لم يفرغ نيكليودوف من ذكر اسمه حتى علت وجه العجوز أمارات السرور المشوبة بشيء من التّهيب.

هتفت وهي تنشف يديها بمزرها:

— آه! يا أمير! يا خجلتي لأنني كلفتك صعود هذا السلم المظلم! أنت، المحسن إلينا! أنا أمها! وأنت منقذنا!

وتابعت وهي تحاول جاهدة أن تقرب شفتيها من يد نيكليودوف التي أمسكت بها بين يديها.

— لقد أجزت لنفسي أن أذهب لزيارتك أمس. أختي هي التي ألحّت علي في أن أفعل ذلك. ابنتي هنا! من هنا، من هنا. تفضل واتبعني!

اقتادت نيكليودوف، من باب ضيق، في ممر سيء الإضاءة. وكانت لا تنفك تحاول إصلاح شعرها المحلول، وما في ثيابها من اضطراب. وغمغمت:

- أختي كورنيلوفا... فلاشك أنك سمعت عنها. لقد أقحمت في قضية... هي امرأة عظيمة الذكاء...

وفتحت باباً يطل على الممر، فأدخلت نيكليودوف غرفة صغيرة، جلست فيها، إلى طاولة، على أريكة فتاة قصيرة وسمينة، ترتدي سترة من الهندي المخطط، لها شعر أشقر، مجعد قليلاً، يحيط بوجه مدور، في غاية الشحوب. وفي مواجهتها جلس شاب طرّ شارباه، يلبس قميصاً روسياً مطرّز الحواشي. طوى الشاب نفسه على كرسيه وأخذ يتكلم بكثير من الاحتداد حتى أنه لم يفتن هو ولم تفتن هي، في أول الأمر، إلى دخول نيكليودوف.

- ليديا! هذا هو الأمير نيكليودوف، وهو نفسه الذي...

ارتعشت الفتاة الشاحبة ارتعاشة عصبية. وردّت بحركة آلية، خصلة من شعرها الأشقر إلى ما وراء أذنها، وثبتت بخوف عينيها الرماديتين في الزائر.

قال نيكليودوف وهو يتسم ويمد إليها يده.:

- أنتِ إذاً تلك المرأة الخطرة التي أوصتني بها فيرايفريموفنا؟

أجابت ليديا وهي تكشف عن صفين من الأسنان البديعة، من خلال ابتسامتها اللطيفة.

- نعم، أنا هي. خالتي كانت تتمنى بحرارة أن تراك.

وصرخت من الباب بصوت ذي نبرة محبّة ورقيقة:

— يا خالتي!

قال نيكليودوف:

— تأملت فيرا ايفريموفنا كثيراً بصدد إيقافك.

قاطعته ليديا وهي تشير بإصبعها إلى كرسي من القش نهض عنها قبل هنية الشاب:

— هنا، الأفضل أن تجلس هنا.

وقدّمت الشاب رداً على النظرة التي رمى بها نيكليودوف رفيقها:

— ابن عمي زاخاروف.

هزّ هذا يد القادم بنفس الابتسامة التي أنارت وجه ليديا، ثم جلس قرب النافذة حيث انضم إليه طالب أشقر الشعر، يبلغ خمسة عشر عاماً أو ستة عشر.

أوضحت ليديا:

— فيرا ايفريموفنا صديقة مخلصة لخالتي، أما أنا فلا أكاد أعرفها.

في هذه اللحظة، خرجت من الغرفة المجاورة امرأة في الأربعين، ذات وجه لطيف وذكي. وهتفت، وهي تجلس على الأريكة، قرب ابنة أختها:

— ما أكرم نفسك إذ أتيت! حسناً! وفيروتشكا؟ هل رأيتهما؟ كيف

احتمالها لوضعها؟

أكّد نيكليودوف

- إنها لا تشكو أبداً.

- آه! هي كما عرفتھا! ما أعظم نفسها! كل شيء للآخرين، ولا شيء لنفسها!

- الواقع أنها لم تطلب شيئاً لنفسها؛ لم تهتم بغير ابنة أختك.

كانت تأسف، بخاصة، كما قالت لي، على هذا الظلم الفادح في إيقافها.

- إنه ظلم فادح، بالفعل. ولقد تأملت المسكينة عني.

فهمت ليديا:

- كلا، يا خالتي. كنت سأخذ أوراقها، بدونك.

فأكّدت الخالة:

- اسمحي لي أن أكون أعلم منك بحقيقة الأمور!

وقالت لنيكليودوف:

- كل ذلك جاء من أن شخصاً طلب مني أن أحتفظ له بأوراقه. ولما لم يكن لي سكن. فقد تركتها عند ابنة أختي. وفي هذه الليلة بالذات، كبست الشرطة البيت وأخذت الوثائق، كما أخذت ليديا أيضاً التي ظلت في السجن حتى الآن، لأنها أبت أن تقول ممّن تسلّمت هذه الأوراق.

فأعلنت ليديا بحدة وهي ترفع يدها إلى خصلة من شعرها، وإن لم تضايقها:

— لم أصرّح باسمه قط.

فاعترضت الخالة:

— لكنني لم أقل هذا!

وأردفت الفتاة، وهي تحمرّ، وتُدير حولها نظرة قلقة:

— وإذا كانوا قد قبضوا على ميتين، فليس ذلك بسببي.

تدخلت الأم:

— لا حاجة بك إلى أن تقولي لنا ذلك، يا ليدوتشكا.

فأكّدت ليديا التي كفّت عن الابتسام:

— ولم لا؟ على العكس، إني أريد أن أتكلّم!

ازدادت حمرةً وأخذت تلف شعرها حول إصبعها، وهي ماتزال تلقي نظرات قلقة حواليتها. وأردفت:

— لم أذكر اسمه، واكتفيت بالسكوت! وعندما سألوني عن خالتي وعن مينين، لم أجب بشيء، وأعلنت أنني لن أجب بشيء. حينئذ أخذ هذا... بيتروف...

فأوضحت الخالة لنيكليودوف:

— بيتروف هذا، دركي.

وأردفت ليديا وهي تتنهد وقد بدا عليها الإضطراب:

- حينئذ أخذ يقنعني. قال لي: «كل الناس واثقون من أنك ستكلمين. ولن يؤدي ذلك أحداً. على العكس، إذا تكلمت أنقذت أبرياء سيتعرضون، بدون ذلك، إلى التألم ظمأً؟» لكنني أنا، بالرغم من ذلك، لم أقل شيئاً. حينئذ قال لي: طيب! ليكن! لا تقولي شيئاً، لكن، لا تنكري شيئاً مما سأقوله، على الأقل!».

وأخذ يسرد الأسماء ومن بينها اسم ميتين. تصور أي علمت، في اليوم التالي، باعتقال ميتين! وقلت في نفسي «أنا التي سلّمت»، هذه الفكرة عذّبتني كثيراً حتى ظننت أنني سأصاب بالجنون.

قالت الخالة:

- لكن بما أنه قد ثبت أن لا يد لك في اعتقاله!

صاحت ليديا وقد اشتدت عصبيتها، وظلت تلف خصلة من شعرها الأشقر حول إصبعها ثم تحلّها:

- نعم، لكنني لم أكن أعلم ذلك. كنت أحدث نفسي طوال الوقت: «أنا سلّمت!». كنت أسير في الزنزانة جيئة وذهاباً، وأنا أفكر في ذلك. كنت أنام وأغطي رأسي، فيصرخ صوت في أذني: «لقد سلّمت، لقد سلّمت ميتين!» عبثاً كنت أعلم أن ذلك من صنع الخيال، لقد كان من المستحيل ألا أصغي إلى ذلك الصوت.

فكررت أمها وهي تمسّ ذراعها:

- ليدوتشكا، إهدئي!

لكن ليديا لم تتمكن من الهدوء. وبدأت كلامها وهي تصعد
تنهيدة:

— أفضع ما في الأمر...

ونفضت عن الأريكة دون أن تتم جملتها ولاذت بالفرار إلى
خارج الغرفة. فتبعها أمها.

فهتف الطالب الجالس قرب النافذة:

— يجب أن نشنق كل هؤلاء الوحوش!

سألته خالته:

— مالك ولهذا؟!

اضطرب الطالب وقال:

— أنا، لا شيء... بالتأكيد...

وتناول سيجارة ملقاة على الطاولة، وأخذ يدخن.

× × ×

أعلنت الخالة وهي تشعل أيضاً سيجارة:

- هذا السجن الإنفرادي شيء رهيب، بالنسبة إلى الشباب.

فلاحظ نيكليودوف:

- بالنسبة إلى جميع الناس، على ما أتصور؟

- لا، إنه ليس كذلك بالنسبة إلى الجميع. لقد قال لي كثيرون: إنه، على العكس، راحة وأمان بالنسبة إلى الثوريين الحقيقيين. فهؤلاء البؤساء يعيشون في القلق والحرمان والرعب، خائفين على أنفسهم، وعلى غيرهم، وعلى الحزب. ثم إذا بهم يُعتقلون ذات يوم، وإذا بكل شيء ينتهي، وإذا بمسؤوليتهم تتوقف. ولا يَبْقَى عليهم بعد ذلك إلا أن يتمددوا ويستريحوا. إنني أعرف بعضاً من هؤلاء شعروا بفرح حقيقي، عندما أُلقي القبض عليهم. أما بالنسبة إلى الشباب، مثل ليدوتشكا، ولاسيما بالنسبة إلى الأبرياء، فإن الصدمة الأولى رهيبة. وما يتلو ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى هذه الصدمة. فالحرمان من الحرية، والمعاملات الفظة، ونقصان الهواء والغذاء، كل ذلك يغدو بلا أهمية ويسهل

احتماله لولا تلك الصدمة المعنوية التي يحس بها المرء عندما يُلقى نفسه سجيناً للمرة الأولى.

فأثارت اهتمام نيكليودوف:

— أشعرت بها، تلك الصدمة؟

أكدت الخالة بابتسامة حزينة ورقيقة:

— أنا؟ دخلتُ السجن مرتين. وعندما أوقفوني أول مرة، بلا سبب طبعاً، كان عمري إحدى وعشرين سنة. كان لي طفل وكنت أنتظر طفلاً آخر. ومع أن حرمانني من حريتي، وفراقي لابني وزوجي، مع أن ذلك كان قاسياً، فإنه لم يكن شيئاً إذا قورن بما شعرت به عندما تبَيَّنْتُ أنني لم أعد مخلوقاً بشرياً لأغدو... أوه... لأغدو شيئاً. كنت أريد أن أقبل ابنتي، وكانوا يأمروني بالمسير وبدخول عربة المساجين. سألتُ بماذا يتهمونني، فلم يجبني أحد. بعد الاستجواب، خلعوا عني ملابسني، ثم ألبسوني ثياب السجن، وقد سُجِّلَ عليها رقم. حبسوني وانصرفوا وبقيتُ هناك وحدي مع الحارس مسلحاً ببندقيته. وهو يذرع الممر بصمت. ومن وقت إلى آخر، كان يُلقى نظرة خاطفة من الفتحة المصنوعة في الباب. خالجنني إحساس حقيقي بالقلق. لقد أذهلني أكثر من أي شيء آخر، — مازلت أذكر ذلك — موقف ضابط الدرك الذي عَرَضَ عليّ سيجارة. كان هذا الرجل يعلم إذن كم يحب الناس التدخين. كان يعلم بالتأكيد كم يحب الناس جميعاً الحرية والنور، كم تحب الأمهات أولادهن، وكم يحب الأولاد أمهم. لكن كيف واتهم الشجاعة في أن ينتزعوني من أعزّما عندي، وأن يحبسوني كأني حيوان

مفترس؟ ليس ممكناً أن يحتمل المرء مثل هذه الصدمة وأن ينجو من عواقبها الوخيمة.. فَمَنْ كان يؤمن، قبل ذلك، بالله وبالناس وبالإخاء البشري، كفّ عن إيمانه.

واختتمت باسمه:

— ومنذ ذلك الحين كففتُ عن الإيمان بالإنسانية، وأصبحتُ شريرة.

دخلت أم ليديا الغرفة، وأعلنت أن ابنتها مريضة، واضطرت إلى لزوم الفراش.

ثارت الخالة:

— لقد دمروا هذه الحياة الفتية، دون أي سبب. وأنا أتألم، بخاصة. حين أفكر أنني كنت، بالرغم مني، سبب هذا الشقاء المرعب.

— عسى أن يردّ إليها هواء الريف شيئاً من عافيتها. سنرسلها إلى أبيها.

وأردفت الخالة وهي تلتفت إلى نيكليودوف:

— من المؤكد أن ذلك كان سينتهي نهاية سيئة لولاك. نحن مدينون لك بالشكر الجزيل. لكنني كنتُ بحاجة إلى أن أراك لكي أسلمك هذه الرسالة لفيرا ايفريموفنا. الرسالة مفتوحة، وتستطيع أن تقرأها وتمزقها إذا كانت آراؤك لا تسمح لك بالموافقة على مضمونها. لكنني لم أكتب فيها ما يعرّض للخطر.

تناول نيكليودوف الرسالة، وخرج بعد أن ودّع السيدتين. وفي الشارع، أغلق المغلف، قبل أن يضعه في محفظته، مصمماً على ان يقوم بالمهمة التي كلفته إياها خالة ليديا شوستوف.

كان على نيكليودوف أن يسوّي آخر قضية، قبل مغادرته بطرسبرج: وهي طلب العفو عن المتعصبين الذي أراد أن يوصله إلى الامبراطور بواسطة رفيق الجندية القديم، المساعد العسكري بوغاتيريوف. فتوجّه إلى منزله في الصباح الباكر، ووجده فيه يتناول فطوره. كان بوغاتيريوف ذاقامة أقرب إلى الصغر، كان ربعة وسميناً، قد أوتي قوة هائلة - كان قادراً على أن يلوي حذوة الحصان - وكان طيباً، شريفاً، مستقيماً متحرراً في أفكاره. وبالرغم من هذه الخاصية الأخيرة، فقد كان مقبولاً في البلاد. وبسبب من إخلاصه للامبراطور وللعائلة الإمبراطورية، فإنه كان يملك قدرة مذهلة على ألا يرى غير الجوانب الحسنة في هذا العالم الذي يتحرّك فيه، دون أن يشترك البتة في الأعمال اللئيمة. لم يكن ينتقد البتة لا الرجال ولا المؤسسات. كان يسكّت، ويقول بصراحة وبصوت عال ما يريد أن يقول، مع قهقهات مدوّة. كان يجهل كل انتهازية، فيبدو أمام الجميع كما هو.

صاح بفرح عندما رأى نيكليودوف:

— أحسنت إذ جئت! أتريد أن تفطر معي؟ إجلس. الشريحة ممتازة!
إني أبدأ وأنتهي دائماً بشيء مُغذٍّ، ها! ها! ها!.

وأضاف وهو يُريه إبريق النبيذ الأحمر:

— هيا، إشرب كأساً من النبيذ. تصور أنني كنت أفكر فيك بالضبط.
سيُقدّم التماسك، سيُقدّم رأساً إلى القيصر. تستطيع أن تعتمد علي في
ذلك. لكن خطرت لي فكرة وهي أنه ربما كان من المناسب أن تذهب
أولاً وتقابل توبوروف^(٣٢).

قطب نيكليودوف حاجبيه عندما سمع هذا الاسم.

أردف بوغاتيريوف:

— كل شيء يتوقّف عليه. على كل حال سيُسأل عن رأيه في ذلك.
منْ يدري، لعله يستقبلك بالترحيب.

— إن كنت تُشير علي بذلك، فسأذهب إليه.

فرد بوغاتيريوف هادراً:

— ممتاز! قل لي، كيف ترى بطرسبرج، ما الأثر الذي تركته فيك
بعد عودتك إليها؟، تكلم!

— أحسّ كأني مُنوّم مغناطيسياً.

٣٢- توبوروف: ركييزة الرجعية الشهير، وكيل المجمع المقدس، إيفان بوبيدو
نوستوف (١٨٣٥ - ١٨٠٩) الذي مثل هنا بهذا الاسم، توبور (فأس).

فكرر بوغاتيريوف وهو يضحك بملء فمه:

— منوم؟ ألا تريد أن تشرب شيئاً؟

ومسح شاربه وهو مُدعن.

— طيب.. إفعل ما تشاء. إذن ستذهب إليه؟ إذا لم تحصل على شيء، فاحمل لي الإلتماس، وسأقدمه غداً بنفسى.

نهض عن المائدة، بعد أن رسم إشارة كبيرة للصليب، بنفس الحركة الآلية التي مسح بها شاربه، وعلّق سيفه بنطاقه:

— إلى اللقاء، يا عزيزى. يجب أن أستأذنك...

اقترح نيكليودوف، وهو يشد على يد بوغاتيريوف العريضة والقوية بسرور، وهو إحساس يوفره له دائماً احتكاكه بكائن سليم، عفوى ونضر:

— لنخرج معاً.

عندما وصلا إلى عتبة باب المدخل افترقا.

مع أن نيكليودوف لم يكن يعلّل نفسه بالآمال العريضة. بصدد نتيجة زيارته. إلا أنه قصد، بحسب نصيحة صديقه، على منزل توبوروف الذي أنيط به مصير طائفة المتعصبين.

إن المنصب الذي كان يشغله توبوروف يتضمّن في ذاته تناقضاً لا

يمكن أن يخفى على أحد، إلا عن رجل بليد، خالٍ من الحس الأخلاقي. وكان توبوروف يملك، في الواقع، هاتين الصفتين السليبتين. كان هدف منصبه المحافظة على الكنيسة، والدفاع عنها بكل الوسائل، ومن ضمنها العنف؛ هذه الكنيسة التي أسسها الله، بحسب القرارات العقائدية، والتي لا تنال من سلطانها قوة الجحيم ولا قوة البشر. ومع ذلك فإن هذه المؤسسة الأبدية والإلهية، كان لابد لها من أن تسندها وتحميها مؤسسة بشرية يديرها توبوروف ومروءوسوه. وبالطبع، لم يكن توبوروف يتبين، أو كان يأبى أن يتبين هذا التناقض. كان يكافح لكي يرد كل كاهن كاثوليكي، أو قس بروتستانتي، أو متشيع، متعصب، عن هدم هذه الكنيسة التي عجز الجحيم عن هدمها. كان توبوروف، شأنه شأن جميع المخلوقات المحرومة من الشعور الديني الحقيقي، ومن حس المساواة والإخاء البشري، مقتنعاً اقتناعاً صميماً أن العالم يتألف من أناس مختلفين عنه في كل شيء. وبرأيه أن الشعب يحتاج إلى ما استغنى عنه هو نفسه استغناءً تاماً. أما في أعماقه، فلم يكن يؤمن بشيء على الإطلاق. الأمر الذي كان يبدو له مريحاً ومستساغاً؛ ولكن بما أنه كان يخشى أن يشاطره الآخرون آراءه، فقد كان يرى واجباً مقدساً عليه، على حد تعبيره ذاته، أن ينقذهم من الخطر.

كما يردُّ في كتب الطبخ أن السرطان يطلبُ أن يغطَّس في الماء الحار، كذلك كان توبوروف على اقتناع بأن الناس يطلبون - لا بالمعنى الوارد في كتب الطبخ - أن يتعلّقوا بالخرافات.

كان ينظر إلى الدين الذي ينبغي له أن يدافع عنه، كما ينظر مربّي

الدواجن إلى النفاية التي يُغذّي بها فراخه: إن رائحة العفن تفوح من هذا الغذاء، ولكن بما أن الفراخ تُقبل عليه فلا بد من تقديمه لها. كانت عبادة عذراء ايفيريا، وعذراء قازان، وعذراء سمولنسك شكلاً من أشكال عبادة الأصنام، لكن الشعب كان يتمسك ويؤمن بها. وإذن فقد كان من الملائم تشجيع هذه الخرافات، لهذا السبب الوجيه، وهو أن الرجال الأقوياء من نمط توبوروف قد استخدموا ذكاءهم، في الماضي وفي الحاضر على حد سواء، ليدعموا جهل الشعب، لا ليبددوا الظلمات.

في اللحظة التي أُدخل فيها نيكليودوف إلى قاعة الإنتظار، كان توبوروف يناقش رئيسة دير، وهي أرسقراطية مفعمة بالنشاط، كانت تنشر وتدعم الديانة الأرثوذكسية في المناطق الغربية، بين البابويين^(٣٣) الذين أُجبروا على الارتداد إلى الأرثوذكسية، على كُرهِ منهم.

في غرفة الإنتظار، سأل المستخدم نيكليودوف عما يريد. وعندما علم أن الأمير ينوي أن يتقدّم باسترحام إلى القيصر، رجّاه أن يُريه إياه. وما أن تسلّم الوثيقة حتى حملها إلى توبوروف. خرجت الراهبة من المكتب، ورأسها مغطى بقلنسوة معطفها الواسعة، وخمارها يتموج وراءها، وكذلك ذيل ثوبها الأسود. كانت تُصلّب على صدرها يديها البيضاءوين بأظفارهما المقلّمة، وتمسك بسبحة من الزبرجد بين

٣٣- بين البابويين: أُجبر أرثوذكسيو الدولة البولونية الليتوانية في عام ١٥٩٦ على الاعتراف بسلطة البابا، باعتبارهم «بابويين». لكن حكومة نيقولا الأول أكرهتهم في عام ١٨٣٩ على ترك «البابوية». وفي ١٨٧٦ أُجبر آخر البابويين أيضاً (في مملكة بولونيا) على الرجوع عن البابوية، لكن كان بينهم كثير من المتمردين.

أصابعها. ومع انها انصرفت، إلا أن نيكليودوف لم يُدع إلى الدخول مباشرة. كان توبوروف يقرأ الإسترحام، وهو يهزّ رأسه مستنكراً أمام وضوح العَرَض في الطلب.

فكّر في نفسه أثناء القراءة: ”عن وَقَع هذا بين يدي الامبراطور، فإنه قد يثير مسائل غير مستحبة، ويخلق ضروباً من سوء التفاهم“. وضع الورقة على الطاولة، وأمر بإدخال نيكليودوف.

تذكر تماماً قضية هؤلاء المتعصبين، الذي تلقى استرحامهم من قبل. كانوا مسيحيين ارتدوا عن العقيدة الأرثوذكسية. وقد أسيئت معاملتهم أولاً، ثم أُحيلوا إلى المحاكم، فبرأت المحاكم ساحتهم. حينئذ قرر الأسقف والحاكم أن يفصلوا بين الأزواج، وبين النساء والأولاد، بحجة أن الزواج لم يكن شرعياً، وأن ينفّوهم إلى أماكن مختلفة. وهم الآن يطلبون، آباء وأمّهات، ألا يفصل بينهم. تذكر توبوروف المرة الأولى التي وقعت فيها هذه القضية بين يديه. لقد تردد في القرار الذي يجب أن يتّخذه، لكنه انتهى إلى أنه لا خطر من تصديقه الأمر بنفي العائلات، بينما لو سُمح لهم بالبقاء في قراهم لاستطاعوا أن يؤثروا في الفلاحين، ولانفصل هؤلاء أيضاً عن الديانة الأرثوذكسية. وبما أن المطران أبدى هذا القدر من الحميّة، فإن توبوروف آثر أن يترك القضية تتبع مجراها.

على أن القضية حين تجد مدافعاً مثل نيكليودوف، له معارفه في بطرسبرج، قد تُعرض على الامبراطور باعتبارها تدبيراً وحشياً، وقد تبلغ أسماع الصحافة الأجنبية.

اتخذ توبوروف قراراً مفاجئاً.

– طاب يومك.

وتصدى للقضية مباشرة فقال وهو يهز الطلب بيده:

– إني أعرف مضمونه. وعندما قرأته، تذكرت هذه القصة المحزنة، وأنا أشكرك لأنك ذكرتني بها. إن السلطات المحلية تبدي دائماً حمية مفرطة...

كان نيكليودوف الذي لزم الصمت، ينظر بكره إلى هذا القناع الممتقع الذي لا يناله التأثير.

– وسأخذ مباشرة التدابير الضرورية لإلغاء ذلك القرار. حينئذ يستطيع هؤلاء الناس أن يعودوا إلى بيوتهم.

سأله نيكليودوف:

– ومن ثم، فلا جدوى من تقديم الطلب؟

فأجاب:

– بالطبع، لأنني أنا أعدك بذلك.

وشدد على كلمة «أنا»، وهو ظاهر الإقتناع بأن نزاهته ووعده هما أفضل الضمانات، وأضاف:

– وسأكتب في ذلك، على الفور. إجلس، أرجوك...

أخذت يكتب، وهو جالس إلى مكتبه. ظل نيكليودوف واقفاً، يراقب من عل هذه الجمجمة الضيقة والصلعاء، وتلك اليد ذات العروق الزرقاء والتي تُجري الريشة على الورق. وتساءل ما الدافع الذي من أجله بادر رجل لا يبالي بشيء مثل توبوروف إلى إرضائه. لماذا؟...

قال توبوروف وهو يغلق المغلف:

— الرسالة جاهزة.

وأضاف مازحاً وهو يزم شفتيه في ابتسامة مُقتسرة:

— أخير «زُبْنُكَ» بذلك.

سأل نيكليودوف وهو يتناول المغلف:

— لماذا كان على هؤلاء البائسين أن يتألموا هذا الألم؟

رفع توبوروف رأسه وهو يبتسم، كأن هذا السؤال أدخل السرور إلى نفسه.

— أنا عاجز حقاً على الجواب. لنقل فقط إن مصالح الشعب الذي نحن المدافعون الغُير عنه لها أهمية عظيمة بحيث أن الحمية الزائدة عن حدّها في المسائل المتعلقة بالعقيدة أقل خطراً من اللامبالاة الدينية المفرطة التي أخذت تزداد.

— لكن كيف يجوز أن تُنقّض، باسم الدين، الأسس الأولية للحب العائلي، وذلك بتشتيت شمل العائلات.

ابتسم توبوروف من جديد بتسامح، كان واضحاً أنه يجد كلام نيكليودوف باعثاً على السرور. فمهما يقل نيكليودوف يجده توبوروف من أعلى مركزه الحكومي الذي يشغله، باعثاً على السرور:

— من وجهة نظر فرد ما، يمكن أن يبدو الأمر كما ذكرت، لكن من وجهة نظر الحكومة، المسألة مختلفة. احتراماتي، أيها الأمير! بذلك أنهى توبوروف كلامه وهو يمد يده ويحني رأسه. شدّ نيكليودوف يده، دون أن يجيب، وخرج مسرعاً، خجلاً من هذه المصافحة.

وفكّر وهو يخرج من بيته: «مصلح الشعب! الأولى أن تقول: مصلحك أنت، ولا شيء غير ذلك!».

ورأى بفكره صور هؤلاء الموظفين الكبار الذين يحكمون على امرأة مسكينة لأنها باعت خمرًا مهرّباً، وعلى صبي سرق، وعلى متشرّد، ومضرم لحريق، ومصرفي. ولا ننسَ ليديا المسكينة لكونها شاهداً مزعجاً؛ ولا هؤلاء الفلاحين لأنهم اعتدوا على الديانة الأرثوذكسية، ولا غوركييفتش لأنه رغب في الدستور، كل ذلك من أجل تطبيق العدالة، وإنقاذ العقيدة، وتربية الشعب!

لقد أدرك بصفاء ذهني بالغ أن هؤلاء الناس قد زُجَّ بهم في السجون ونُفوا، لا لأنهم ارتكبوا جرائم في حق العدالة أو القانون، بل لأنهم كانوا يريدون أن يمنعوا الموظفين والأغنياء من التمتع بالخيرات التي انتزعوها من الشعب.

كانوا يعدّون هذه المرأة التي تبيع خمرًا مُهرّبة، وهذا السارق الذي يتسكع في شوارع المدينة، وليديا وتصريحاتها، وهؤلاء المتشيعين الذين يحاربون الخرافات، وغوركييفتش ودستوره، كانوا يعدّون هؤلاء جميعاً عقبات في طريقهم. وبدأ واضحاً لنيكليودوف أن لا أحد من بين جميع الموظفين، بدءاً من زوج خالته، ومستشاري النقض،

وتوبوروف، حتى صغار الموظفين الشديدي النظافة، الجالسين وراء طاولاتهم في الوزارات لا أحد منهم يهتم بالأبرياء الذين يتألمون. ما كان لهم من همّ إلا استئصال الأفراد الخطرين.

لم يكونوا ينتهكون فقط المبدأ القاضي بالصفّح عن عشرة مجرمين لكي لا يُحكم بريء^(٣٤)، لكنهم كانوا يقطعون اللحم الحي لكي ينظفوا الجرح، وذلك بالحكم على عشرة أبرياء لاستئصال فرد واحد خطر حقاً.

بدا هذا التفسير لنيكليودوف بسيطاً جداً وواضحاً جداً حتى أنه تردد في قبوله. ذلك أن أحداثاً بهذا التعقيد لا يمكن أن تقبل تفسيراً بهذا التبسيط. فكل هذا الكلام عن العدالة والخير والقانون والدين والله وهلم جراً لا يمكن مع ذلك ألا يكون سوى ألفاظ فارغة تخفي أخطّ جشع وأبشع وحشية.

× × ×

٣٤- الصفّح عن عشرة... هذا المبدأ أعلنه بطرس الأكبر في نظامه العسكري سنة ١٧١٤، وكرّره كاترين في تعليماتها سنة ١٧٦٩. لكنه لسوء الحظ لم يطبق إلا نادراً.

كان بود نيكليودوف أن يغادر بطرسبرج هذا المساء، لكنه وعد مارييت أن يذهب ليلقاها في المسرح. ومع أنه أدرك أن واجبه يقتضيه عدم الذهاب، إلا أنه كان يكذب على نفسه قائلاً لها: إنه مُضطر إلى الوفاء بوعدده. وكان يقول لنفسه، فضلاً عن ذلك، إن هذه آخر مناسبة تُتاح له لكي يرى مرة أخرى هذا العالم الذي كان عالمه من قبل والذي سيغدو غريباً عليه منذ اليوم. وفكر: «سأجابه مغرياته للمرة الأخيرة، سأُنظر إليه وجهاً لوجه للمرة الأخيرة!». فكر في ذلك مع إحساسه بأن هذه الفكرة لم تكن صادقة تماماً.

نهض عن الطاولة، حالما انتهى العشاء. فلبس ثيابه الرسمية وتوجّه إلى المسرح الذي وصل إليه بعد رفع الستار بزمن طويل. كانت «غادة الكاميليا» الخالدة تُمثّل، وكانت الممثلة الفرنسية الشهيرة^(٣٥) تُري الجمهور الطريقة التي ينبغي أن تموت بها النساء المسلولات.

استقبل المراقبون نيكليودوف، عند باب المسرح، باحترام خاص

٣٥ - الممثلة الفرنسية الشهيرة: لعلها ساره برنار.

عندما علموا مَنْ الشخصية الرفيعة التي دعتهم. فبادروا إلى مرافقته حتى مقصورة ماريت وكان وصيفها واقفاً، أمام مقصورتها، في بزة الإحتفالات الساهرة، فحياً نيكليودوف تحية الشاكر للجميل، وأدخله المقصورة.

كانت جميع الأنظار في القاعة محدّقة في ممثلة بارزة العظام، قبيحة الشكل، مسنة، ترتدي الحرير والدنيل، تلقى مونولوجاً بصوت متقطع متصنع. وعندما دخل نيكليودوف المقصورة ولفحت وجهه نسمتان من الهواء إحداهما باردة والأخرى حارة، التفت أحد النظارة نحوه، ولفظ: «شوت» بسخط، احتجاجاً على ضوضاء الباب التي عكّرت صَفْوَ تأمله. كان في المقصورة قرب ماريت رجلان وسيدة، سيدة بدينة بستان أحمر، وعقيصة ضخمة. وكان أحد الرجلين زوج ماريت، ولم يره نيكليودوف من قبل. كان طويلاً، حسن الهيئة، له صدر محدّب، ووجه بارد وقاس، وأنف معقوف. وكان الرجل الآخر قصيراً، أشقر، سميناً، له شاربان رماديان بين سالفيه. كانت ماريت جالسة في مقدمة مقصورتها، مليحة، ناعمة، أنيقة، في فستان عاري الظهر والصدر، يكشف كثيراً عن كتفيها المدورتين والممتلئتين، مع شامة سوداء عند أول العنق. استدارت هي أيضاً على صوت الباب. ابتسمت لنيكليودوف، وهي تشير له إلى كرسي موضوعة وراءها، ابتسامة أنيسة بدت له مثقلة بالمعاني. حياً زوجها القادم الجديد بإيماءة من رأسه، فعل ذلك بالهدوء الذي يعالج به كل أعماله، وبعد ذلك ألقى على زوجته نظرة راضية، نظرة المالك لامرأة جميلة وأنيقة.

عندما انتهى المونولوج ضجت القاعة بالتصفيق. وعلى الفور،

نهضت مارييت ومضت إلى صدر المقصورة، وهي تمسك طرف فستانها بيد، لكي تقدّم نيكليودوف لزوجها. فمدّ هذا يده إلى المدعو، دون أن يكف عن الابتسام بعينه لامرأته وقال له بهدوء: إنه سعيد بالتعرف إليه، وتلك كانت نهاية الحديث بينهما.

قال نيكليودوف وهو يلتفت نحو المرأة الشابة:

— كان ينبغي أن أسافر هذا المساء، ولولا الوعد الذي وعدتك به لسافرت!

فأعلنت مارييت التي استشفّت، مرة أخرى، فكرة نيكليودوف:

— إذا كان لا يسرّك أن تراني، فلتُسّر، على الأقل، بأن ترى وتسمع ممثلة عظيمة.

والتفتت إلى زوجها، وسألته:

— كم كانت جميلة، أليس كذلك، في هذا المشهد الأخير؟

اكتفى الزوج بأن حنى رأسه.

فصرّح نيكليودوف:

— أعترف لك بأن ذلك كله لا يهزني كثيراً. لقد رأيتُ اليوم كثيراً من البؤس الحقيقي حتى...

— هيا، اجلس هنا وحدثني عن كل شيء!

كان الزوج يصغي بشرود إلى الحديث، وهو يتسم بسخرية متزايدة.

— ذهبت إلى منزل تلك البائسة التي أُطلق سراحها أخيراً، بعد أن احتفظوا بها في السجن زمناً طويلاً. مخلوقة مُحطمة إلى الأبد!

فأوضحت مارييت لزوجها:

هذه هي المرأة التي حدّثتك بشأنها.

أجاب الزوج، وهو ينهض ليذهب ويدخن سيجارة في صالة التدخين:

— آه! نعم، كنت سعيداً جداً بأني استطعت إخلاء سبيلها.

ظل نيكليودوف جالساً ينتظر أن تقص عليه مارييت ما وعدت أن تقصه عليه. لكنها لم تقل شيئاً، وأخذت تمزح: كانت تناقش المسرحية التي لا بد، في اعتقادها من أن تثير اهتمامه الشديد.

وسرعان ما أدرك أن ليس عندها ما تقوله له، وأنها ترغب، بكل بساطة، في أن تظهر أمامه بكل ما في زينتها المسائية من بهاء، بكتفيها العاريتين وشامتها عند بداية العنق. ولقد أوحى هذا الاكتشاف إلى نيكليودوف بمزيج من السرور والنفور. كان السرور آتياً من سحر مارييت الخارجي، لكنه شاهد، في الوقت نفسه ما كان مخبئاً تحت هذا السحر، فأثار ذلك نفوره. كان يستمتع بمراى مارييت، لكنه كان يقول في نفسه: إن هذه المرأة الجميلة كاذبة، وأنها راضية أعظم الرضا

بعيشتها مع هذا الزوج النذل. وكل ما قالته له البارحة كان مزيفاً، ولم يكن لها من هم إلا أن تحمله على الشغف بها. كان هذا أيضاً كريهاً ومستساغاً في الوقت نفسه. وقد نهض عدة مرات عن كرسيه ليستأذن ثم جلس. لكن عندما عاد الزوج أخيراً إلى المقصورة، ورائحة التبغ تفوح من شاربيه الكثيفين، وعندما ألقى على نيكليودوف نظرتة الساخرة، لم يستطع الأمير أن يقاوم، فانتهز انفتاح باب المقصورة واندفع إلى الرواق.

عندما كان يمر في شارع نيفسكي، ليعود إلى منزل خالته، شاهد أمامه امرأة طويلة القامة، حسنة الهيئة، واضحة الأناقة في لباسها. جميع المارة كانوا يلتفتون لينظروا إليها. فحثّ نيكليودوف خطاه، وأدركها لينظر إليها بدوره. كانت امرأة مخضبة بالمساحيق، لكنها كانت جميلة القسمات. ابتسمت لنيكليودوف بعينيها الضاحكتين وعلى الفور تذكرت مارييت: إن مرأى هذه المخلوقة ترك في نفسه الأثر نفسه الذي استشعره في مقصورة المسرح الفرنسي: الإغراء الممتزج بالاشمئزاز. فبولى هارباً، ثائراً على نفسه، وجرى راكضاً حتى «مورسكايا» حيث أخذ يتمشى طويلاً وعرضاً، مما أثار دهشة الحراس.

وحدّث نفسه: «هاتان الابتسامتان تحملان معنى واحداً. والفرق الوحيد هي أن هذه المرأة تتكلم بصراحة، وعلانية، بينما تتظاهر الأخرى بأنها تشعر بمشاعر أكثر إرهافاً. اللبّ واحد، لكن هذه تقول الحقيقة، بينما تكذب تلك».

تذكر نيكليودوف علاقاته مع امرأة صديقه، وتوافدت على ذاكرته

طائفة من الذكريات المخجلة. وقال في نفسه: «رهيب استمرار الوحش في الإنسان! وحين نعرفه على حقيقته، نبقى كما كنا قبل معرفته، سواء انقذنا له أم قاومناه. وحين تختبئ هذه الحيوانية خلف مظاهر شعرية مزعومة، وحين تطمح إلى أن توحى إليك بالاحترام، بدلاً من أن تظهر لك بكل حقارتها، حينذاك يُقضى علينا.. الوحش فينا إذ ذاك يُلغي الإنسان، ونحن عاجزون إذ ذاك عن تمييز الخير من الشر. عن هذا أفضع من كل ما سواه!

كان نيكليودوف يرى ذلك الآن بالوضوح الذي يرى فيه أمامه القصر والقلعة والنهر والمراكب والعربات. وكما أن الظلمات لم تغط المدينة، في هذه الليلة، وإنما كان كل شيء مضيئاً بنور كئيب وشاحب، كذلك أحس نيكليودوف بأن جميع ظلمات اللاشعور قد تبددت فيه، وحل محلها نور باهت وكئيب. وكل ما كان يُعدُّ هاماً وصالحاً لم يكن في الحقيقة سوى باطل وعار. وكل ما في الحياة الحديثة من بريق أو ترف كان يغطي عيوباً قديمة قدم العالم، عيوباً تنبع من أشد أعماق الحياة البشرية حيوانية.

تمنى نيكليودوف لو ينسى هذا الإكتشاف، لو يغيب هذا الإكتشاف عن نظره، لكنه لم يكن قادراً على ذلك. فلقد تولّد فيه شعور جديد يترافق فيه فرح اليقين والتخوّف المؤلم.

× × ×

ما إن عاد نيكليودوف إلى موسكو حتى توجه إلى مشفى السجن ليعلن لماسلوف أن طلبها رُدَّ، وأن عليها أن تستعد للسفر إلى سيبيريا.

وكان في جيبه التماس العفو الذي سيوقعه منها. لكنه لم يكن يعوّل كثيراً على هذا العفو، بل الغريب أنه لم يعد يرغب فيه. لقد ألّف تفكيره فكرة الذهاب إلى سيبيريا، والحياة بين المحكومين بالأشغال الشاقة والمُبعدين؛ وكان يجد مشقة في تصور ما سيصنع بنفسه وبماسلوف لو قبل التماس العفو. وتذكّر جملة للمؤلف الأمريكي توررو^(٣٦)، في فترة الرقّ في الولايات المتحدة، تقول: إن المكان الوحيد المناسب للرجل الشريف، في بلد يسوده الرق، هو السجن. وكل ما رآه في بطرسبرج كان من شأنه أن يُعيد هذه الجملة إلى ذاكرته.

أقبل عليه حارس المشفى الذي عرفه لينبئه بأن ماسلوف نُقلت من المشفى.

— وأين هي؟! —

٣٦- توررو: هنري توررو (١٨١٧ - ١٨٦٢) دعا إلى إلغاء الرق.

— عادت على قسم النساء.

— ولم أعيدت؟

أجاب الحارس بابتسامة احتقار:

— يا صاحب السيادة، هذا جنس حقير من الناس! لقد ارتكبت حماقة مع الممرض، فطردها رئيس الأطباء.

ما كان نيكليودوف ليصدق أن ماسلوفاً وعواطفها الخاصة بها تعنيه إلى هذا الحد. لقد كانت أقوال الحارس بالنسبة إليه مثل ضربة دبوس. ساوره شعور شبيه بالذي يساورنا حين نتلقى نبأ فاجعة كبيرة حدثت على حين غرة. فاستولى عليه ألم مبرح انتزع منه كل تفكيره. وعندما استعاد وعيه، شيئاً فشيئاً، أدرك أن ما سيطر عليه كان الخجل. خجل من الفرح الذي كان قد أحس به من قبل حين ظن أن ماسلوفاً تغيرت. ذلك أن كل الأقوال الجميلة التي قالتها له لتفرض تضحيته، وأن لومها كله ودموعها كلها، أن ذلك كله لم يكن سوى تمثيلية مثلتها حقيرة أرادت أن تخدعه وأن تبرز مزاياها.

خُيل إليه الآن أنه لاحظ فيها، منذ آخر حديث بينهما، أمارات هذا الفساد الذي لا سبيل إلى الشك فيه، بعد الآن.

تساءل: «ماذا ينبغي أن أفعل في الوقت الحاضر؟ أما أزال مرتبطاً بها، أم أن سلوكها خلّصني من كل رابط؟».

وما كاد يطرح هذا السؤال على نفسه حتى أدرك أنه حين يهجر ماسلوفاً مرة أخرى، فإنما يعاقب نفسه. فأرعبته هذه الفكرة.

«لا، إن ما وقع لا يمكن أن يُعدّل قرارى، ولا يمكن أن يكون له من أثر سوى تدعيم ذلك القرار. إن هذه المرأة، حين تصرفت على هذا النحو فإنما تتمثل لطبعها الذي منحها إياه ظروف الحياة. أما أن «ترتكب حماقات» مع ممرض، فذلك شأنها! وعلي أن أتم ما يتطلبه منى ضميرى. وضميرى يتطلب أن أضحي بحريتي للتكفير عن إساءتي!» كان يكرر هذا الكلام بعناد ممتزج باللؤم، وهو يمشي بخطاً واسعة عبر الممرات. وعندما بلغ باب الصالة الكبرى رجا الحارس أن يخبر المدير بأنه يرغب في مقابلة ماسلوف. فأنبأه الحارس الذي كلمه عدة مرات من قبل، نبأ كبير: لقد أُحيلَ النقيب على التقاعد وحلّ محله مدير آخر، أشد صرامة منه، بما لا يقاس. وأضاف وهو ذاهب ليخطر المدير الجديد:

— ستغدو الحياة أقسى، الآن

لم يلبث المدير الجديد أن جاء. كان رجلاً طويلاً، نحيلًا، عابس الوجه، بارز الوجنتين. وأكدّ دون أن ينظر إلى نيكليودوف.

— لا تجوز مقابلة السجناء خارج أوقات الزيارة النظامية!

— ذلك لأنى أحب أن توقع لي على التماس للعفو.

— ما عليك إلا أن تسلمني إياه.

— أنا بحاجة ماسة إلى أن أرى السجينة ماسلوف لحظة. كانوا حتى الآن يسمحون لي بذلك.

فحسم المدير الجدل دون أن يرفع بصره إلى الزائر:

— إن كثيراً من الأشياء التي كانت تُعمل حتى الآن لن تُعمل بعد الآن.

فأصر نيكليودوف الذي أخرج محفظته:

— إن معي إذن من الحاكم.

قال المدير حينئذ:

— اسمح لي به.

تناول الورقة بيديه الطويلتين المعروقتين وقرأها ببطء، وقال:

— تفضل وادخل المكتب.

كان المكتب خالياً. جلس المدير إلى طاولة وأخذ يتصفح أوراقاً عليها. كان واضحاً أنه ينوي حضور المقابلة. ولما سأل نيكليودوف إن كان يستطيع أيضاً أن يرى سجينة سياسية، بوغود كفسكايا، أجاب المدير بلهجة موجزة أن ذلك مستحيل. وصرح مرة أخرى، وهو مستغرق في قراءة أوراقه:

— زيارات السجناء السياسيين ممنوعة!

أحس نيكليودوف الذي كان يحمل رسالة إلى بوغودو كفسكايا، أنه في وضع المشتبه به: فقد يفتشونه ويستبقونه في السجن.

عندما دخلت ماسلوف المكتب، رفع المدير رأسه واكتفى بأن قال، دون أن ينظر إلى نيكليودوف:

— تستطيعان أن تتحدّثا!

ثم استغرق في أوراقه من جديد.

كانت ماسلوفاً ترتدي ثياب السجن، بسترتها البيضاء وخمارها على رأسها. وإذا شاهدت ملامح وجه نيكليودوف الجافية والعدائية، احمرت وخفضت عينيها، وهي تمسك بشية سترتها. فرأى نيكليودوف في وضعها ما يؤيد رواية الحارس. بيد أنه أراد، من كل قلبه، أن يعاملها كما عاملها، في المرات السابقة. لكنه عندما أراد أن يمد يده إليها، استحال عليه ذلك، لفرط ما شعر بالكره لها.

قال لها بصوت هادئ، دون أن ينظر إليها:

— إني أحمل إليك نبأ سيئاً. لقد رُدَّ اعتراضك.

أجابت بصوت خافت:

— كنتُ أعلم ذلك مسبقاً.

كان نيكليودوف سيسألها، في أية ظروف أخرى، لماذا تقول ذلك، لكنه اقتصر، هذه المرة، على النظر إليها، فرأى أن عينيها طافحتان بالدموع. فآثار هذا النظر سخطه عليها، بدلاً من أن يثير عطفه.

نهض المدير وأخذ يمشي جيئة وذهاباً.

حَسِبَ نيكليودوف أن من واجبه التعبير عن أسفه لرفض طلبها، بالرغم من سخطه. فقال:

— لا تيأسي، إذ بوسعنا التعويل على التماس العفو، لأن...

فأجابت وهي تحدّق فيه بعينيها المبللتين بالدموع كالشاكية:

- اوه! ليس هذا هو ما... ذهبتَ إلى المشفى وقيل لك...

رد نیکیو دوف بلهجه جافه. مقطباً حاجیه:

— باه! هذا لا يخص أحداً غيرك!

إن ذكرها للمشفى أيقظ فيه ذلك الإحساس الحقيقى بكبريائه الجريئة. وأخذ ينظر إليها بعينين خبيثتين، وهو يقول فى نفسه: «رجل من المجتمع الراقى مثلى، تمنى أكثر الفتيات ارسقراطية أن تزوج به، يتقدم للزواج بهذه المرأة، فلا تستطيع أن تنتظر، وتعبث وتسيء السلوك مع ممرض!».»

قال وهو يضع على الطاولة ورقة كبيرة أخرجها من محفظته:

— هيا، يجب أن توقّعي هذا.

مسحت ماسلوفا دموعها بطرف خمارها، وجلست إلى الطاولة، وسألته أين يجب أن توقّع. عيّن لها الموضع؛ وبينما كانت توقّع ظل واقفاً أمامها يتأمل ظهرها المنحني الذي كانت تهزّه بين لحظة وأخرى زفرات لم تحسن كبتها.

بدد الصراع من جديد، في قلب نيكليودوف بين العواطف الخيرة والعواطف الشريرة، بين كبريائه الجريحة وشفقته عليها. وانتهت هذه العاطفة الأخيرة بالانتصار. هل فكر أولاً في أن يرثي لها، أم أنه تذكر أخطاءه، وهي من نوع تلك التي لامها عليها؟ لقد أحس بنفسه مذنباً، فرثي لها. بيد أنها نهضت حين انتهت من الكتابة، وفركت بتنورتها أصابعها الملطخة بالحبر، ثم نظرت إليه.

قال لها نيكليودوف:

— مهما يحدث لك، ومهما تفعلني، فلن يبدل قراري شيء.

إن تفكيره في أنه كان يغفر لها قوى فيه شفقتة عليها. أحسّ بحاجة ماسة إلى مواساتها:

— ما قلتُه سأنفّذه. أينما ذهبت فأنا ذاهب معك.

قاطعته وقد احمرت:

— لا جدوى من ذلك.

— فكّري جيداً فيما ستحتاجين إليه في الطريق!

— لن أحتاج إلى شيء، شكراً!

اقترب المدير منهما، فاستأذن نيكليودوف ماسلوفاً، وخرج دون أن ينتظر لحظة، وهو يشعر بالطمأنينة العميقة وبحب للإنسانية، وذلك شعور لم يخامره من قبل.

قال في نفسه بفخر: «من الواضح أن لا شيء مما تفعله ماسلوفاً يمكنه أن يغير تعلّقي بها. لتسئ التصرف مع المرضى، فهذا شأنها. وعلي أن أحبها، لا من أجلي أنا، بل من أجلها هي ومن أجل الله!». «

أما كيف ارتكبت ماسلوفاً «حماقات» مع المرض، فهذه هي قصتها، في حقيقة الأمر. أرسلتها الممرضة ذات يوم لتحضّر شاياً

نافعاً للصدر من الصيدلية، فالتقت فيها الممرض أوستينوف، وهو رجل طويل القامة، ممتلئ الوجه بالبثور، كان يلاحقها منذ زمن بعيد. احتضنها فدافعت عن نفسها، وتخلّصت منه بعنف شديد حتى أنه صدم رفاً جدارياً، فتحطمت زجاجتان كانتا عليه. وفي اللحظة نفسها، كان رئيس الأطباء ماراً في البهو، وسمع صوت الزجاج المحطّم، ورأى ماسلوفاً هاربة، وهي حمراء، مشعّنة الشعر فصاح:

— إسمعي، يا بنتي، إذ كنتِ قد بدأتِ تصخبين هنا، سوف أطردكِ على الفور.

وسأل الممرض، وهو ينظر إليه بصرامة من فوق نظارته:

— ما الأمر؟

بدأ أوستينوف قصة طويلة، وعلى وجهه ابتسامة باهتة، وألقى الذنب كله على ماسلوفاً. لم يدعه الطبيب يُنهي كلامه.

وطردت ماسلوفاً من المشفى، في المساء نفسه، بناء على طلبه.

لم يحزنها هذا الطرد كثيراً، لكن السبب الذي علّل به الطرد قد هزّها ولاسيما أن التفكير بأي تماس جسدي مع أي رجل كان يُرعبها. لا شيء كان يشعرها بالمذلة الشديدة مثل اعتقاد الرجل، بسبب من ماضيها، أن له الحق في امتلاكها. وعندما اقتربت من نيكليودوف في المكتب، كان في نيّتها أن تُبرئ نفسها من التهمة الظالمة، الموجهة إليها. لكنها أحست، منذ الكلمات الأولى التي قالتها أنه لن يصدّقها. ولن تؤدي الاعتذارات، في هذه الحالة، إلا إلى تثبيت شكوكه، فصمتت.

ظلت ماسلوفا تتصور أنها لن تصفح عن نيكليودوف، وأنها كانت تكرهه، كما قالت له أثناء زيارته الثانية. والواقع أنها عادت إلى حبها له، منذ الزيارة الثانية. كانت تحبه حباً بلغ من قوته أنها كانت تفعل كل شيء، لا شعورياً، كما كانت تقدّر أنه يريد منها أن تفعله: فكفّت عن الشراب والتدخين والتفكير في الرجال. وقبلت أن تخدم في المشفى إرضاءً له. وإذا كانت فخورة بالطريقة التي بها رفضت عرضه، في المرة الأولى. وهي تجد الآن في الإصرار على موقفها ما يرضي كبرياءها، لكنها كانت تحس أيضاً أن زواجها بنيكليودوف سيكون مصدراً للآلام بالنسبة إليه. قالت على نفسها ألا تقبل تضحيتها، لكن قلبها، في الوقت نفسه، كان ينزف دماً حين تتصور أنه يحتقرها ويظنها مؤهلة لأن تبقى أبداً، كما كانت، وأنه لن يتبين أبداً التغير الذي حدث فيها. إن شكه بأن قد كان لها علاقة بالمرض، هذه الفكرة كانت تعذبها أكثر بكثير من نبأ رفض طلب النقض، أو من احتمال سفرها القريب إلى سيبيريا.

× × ×

كان من الممكن أن تكون ماسلوف في عداد القافلة الأولى، حتى أنه لم يكن لدى نيكليودوف وقت يضيعه، لتسوية أعماله قبل سفره، لكنه كان يحس إحساساً قوياً أنه لن يُتاح له أبداً تسوية كل شيء. ذلك أن وضعه غداً مختلفاً عما كان عليه في الماضي. كان، فيما مضى، يُتعب نفسه للعثور على ما يشغل به وقته، وكان لمشاغله كلها غرض وحيد هو دميتري ايفانوفتش نيكليودوف. وبالرغم من ذلك كانت مشاغله إذ ذاك تبدو له مضجرةً ضجراً قاتلاً. أما الآن فكانت مشاغله تتجه إلى الآخرين، وتحظى باهتمامه، وتستهويه، وكان عددها لا حد له. ويمكن أن تنقسم الأعمال التي كانت تشغله في هذه الفترة إلى أربع فئات، أو على الأقل، هكذا صنفها هو، بما فيه من هوسٍ بالنظام المائل إلى التحدلق، أربع فئات في أربع إضبارات مختلفة.

كانت الفئة الأولى تضم جميع الأعمال المتعلقة بماسلوف. ومن هذه الناحية، كان يرى نفسه عاجزاً، بشكل مؤقت، عن العمل، إذ كان كل شيء خاضعاً للاستقبال الذي سيلقاه التماس العفو. وكانت الفئة الثانية تضم مختلف الأعمال المتعلقة بثروة نيكليودوف. ففي قرية

بانوفو التي ورثها عن عمّتيه، وهب نيكليودوف أرضه للفلاحين، من غير أن يطلب منهم شيئاً مقابل ذلك، سوى دفع دخل مخصص للحاجات العامة. أما في كوزمنسكوي فقد ترك الأشياء في الحالة التي كانت عليها عندما سافر منها: إن ريع الأرض يجب أن يدفع له هو نفسه. وبقي عليه فقط أن يحدد أجل الدفع، وأن يقرر ما المبلغ الذي سيحتفظ به لنفسه والمبلغ الذي سيسلّمه إلى الفلاحين. وهنا أيضاً، رأى نيكليودوف نفسه مضطراً إلى أن ينتظر، لجهله كمية النفقات التي ستفرضها عليه رحلته إلى سيبيريا، وهي رحلة أخذ وقوعها يبدو أكثر احتمالاً من يوم إلى يوم، وكانت الفئة الثالثة تضم المعونات التي يقدّمها للسجناء الذين أخذوا يلتمسون عونه بأعداد لا تني تزايد. ووجد نيكليودوف صعوبة قصوى في الاهتمام بكل سجين على حدة، لكثرة عدد السجناء. ثم إن النتائج الضحلة لمساعيه الأولى لم تكن خليقة بتشجيعه. فوجد نفسه مسوقاً، شيئاً فشيئاً، على العناية بقضية أعم أخذت تطرق ذهنه منذ دخوله السجن. هذه القضية هي معرفة: لماذا وكيف أمكن أن تُخلَق هذه المؤسسة المدهشة التي تسمى محكمة الجنايات والتي من نتائجها السجون، والسجون الانفرادية، والقلاع، والتضحية بآلاف المخلوقات البشرية. ومن علاقاته الشخصية بالسجناء، ومن المعلومات التي قدّمها المحامي، ومرشد السجن، وأيضاً من الإحصاءات القضائية التي رجع إليها بأناة، استخلص هذه النتيجة وهي أن مجموع السجناء الذين يسمّون مجرمين يمكن أن يُورع بين خمس مجموعات.

إلى المجموعة الأولى ينتمي السجناء الذين هم أبرياء كلياً، لأنهم ضحية أخطاء قضائية: مثل المتهم ظلماً بإضرار الحريق منشوف، ومثل

ماسلوفاً وغيرها. وعدد هؤلاء، بناء على قول المرشد، محدود جداً، نحو سبعة بالمائة، لكن وضعهم، بالمقابل، جدير باهتمام خاص.

المجموعة الثانية تحتوي على الذين حُكم عليهم في ظروف خاصة، مثل الهيجان والغيرة والسكر، وبالاختصار من أجل جرائم كان من المحتمل أن يرتكبها قضاة هؤلاء الناس في الظروف نفسها. كان هؤلاء السجناء كثيرون العدد، نحو نصف مجموع السجناء، وفقاً لحسابات نيكليودوف.

وفي المجموعة الثالثة السجناء الذين حُكم عليهم لأنهم قاموا بأعمال ليس لها طابع الجريمة في نظرهم، لكنها تُعتبر جرائم في نظر المكلفين بإصدار القوانين وتطبيقها. مثل السجناء المتهمين ببيع الخمور المهربة والممنوع بيعها، ومثل سرقة العشب والخشب من الملكيات الخاصة أو العامة.

الصنف الرابع من المجرمين كان يضم جميع الذين حُكم عليهم لمجرد أن لهم قيمة أخلاقية أعلى من متوسط المجتمع. مثل أعضاء مختلف الشيع الدينية، ومثل البولونيين والشركس الذين حكم عليهم لأنهم دافعوا عن استقلالهم، ومثل المعتقلين السياسيين الذين حُكم عليهم لعصيانهم السلطة.

وأخيراً الزمرة الخامسة التي تضم البؤساء الذين أُجرم المجتمع بحقهم أكثر مما لا يقاس مما أُجرموا بحق المجتمع. كانوا مُهملين، بلّدهم الضغط المستمر، كانوا رجالاً من نوع ذلك الصبي الذي

سرق المكناس، ومائة مسكين آخر ساقطهم ظروف الحياة، على نحو منهجي إن صح التعبير، إلى ارتكاب عمل يُعتبر إجرامياً. كان في السجن كثير من اللصوص والقتلة الذين ينتسبون إلى هذه الزمرة. وكان نيكليودوف يلحق بهذه المجموعة هؤلاء الفاسدين بطبيعتهم وفي أعماق نفوسهم، هؤلاء الذين سمتهم المدارس الحديثة: «المجرمين بطبيعتهم»، والذين يشكل وجودهم أقوى حجة في يد الذين يدافعون عن ضرورة القوانين والعقوبات. إن هؤلاء الممثلين «للمنموذج المجرم» المزعوم كانوا، هم أيضاً، بؤساء أخطأ المجتمع بحقهم أكثر مما أخطؤوا بحقه. لكن المجتمع، بدلاً من أن يكون مذنباً بحقهم وخدمهم، أذنب أيضاً بحق آبائهم وأجدادهم، مما يجعل مسؤوليته نحوهم أكثر جسامة.

لقد أتيح لنيكليودوف أن يعرف في السجن لصاً كرر سرقاته يُدعى «او كوتين». كان ابناً غير شرعي لإحدى بنات الهوى، وقد تربى في الملاهي، ولم يصادف حتى الثلاثين إنساناً أوتي شيئاً من المشاعر الأخلاقية، وانتهى به الأمر إلى الانضمام على عصابة من اللصوص. وأصبحت السرقة مهنته الوحيدة. وكان يملك، مع هذا، عبقرية الإضحاك التي حبّته إلى قلوب كل الذين كانوا يلاقونه. كان يطلب معونة نيكليودوف، وهو لا ينفك يسخر من نفسه، ويهزأ من رفاقه وقضاته، ومن جميع القوانين البشرية والإلهية.

وسجين آخر يدعى فيدوروف، قتل شيخاً ودفنه في الأرض، وذلك ليسرق منه بضعة روبلات. كان أبوه فلاحاً خرّب بيته ظلماً جار غني. لقد أوتي هذا السجين طبيعة محتدمة، مشبوبة العواطف،

نهمة إلى الملذات، ولم ير قط رفاقه إلا مشغولين بمتع الحياة؛ ولم يسمع قط، ولو مرة واحدة، أن للإنسان هدفاً في هذا العالم غير اللذة.

هذان السجينان أدهشا نيكليودوف بقوة. خُيل إليه أنه كان يمكن الانتفاع بهما في سبيل الخير. وقد جاء إجرامهما من رفض المجتمع الإهتمام بهما ليس غير. وإذا كان هذان السجينان، مع ما فيهما من عيوب، قريين من نفسه، فإن كثيرين غيرهما أثاروا اشمئزازه ببلادة حسّهم أو بوحشيتهم. لكنه لم يتوصل إلى أن يتعرّف في هؤلاء أيضاً ذلك «النموذج المجرم» الشهير الذي كانت تتحدث عنه المدرسة الإيطالية^(٣٧)؛ لم ير فيهم غير مخلوقات كريهة إلى نفسه، على المستوى الشخصي، شأنهم شأن كثير من الأشخاص الآخرين الذين أتيح له أن يلقاهم، لا في السجون، بل في قاعات الاستقبال، بالثياب الرسمية، ببزات الاحتفالات الرسمية، أو بفساتين الدنتيلا.

هذه هي مختلف أنواع الناس التي يكوّن مجموعها جمهور المجرمين.

أما القضية الرابعة التي كانت تشغل نيكليودوف فهي أن يتوصل إلى معرفة: لماذا أُلقي بهؤلاء الناس في السجن فعُذبوا بشتّى السبل، بينما يظل آخرون، من أمثالهم أو ممّن هم أدنى من بعضهم، أحراراً

٣٧- المدرسة الإيطالية: هذه المدرسة هي مدرسة «علم الجريمة الوضعي» التي أنشأها لومبروزو (١٨٣٥-١٩٠٩) والتي كانت تنزع إلى تبرئة المجرم، إذ تفسر الجريمة بعوامل مستقلة عن إرادة المجرم (مثل الوراثة والاضطرابات النفسية الخ...). من تلاميذ لومبروزو غاروفالو (١٨٥١-١٩٣٥) والاشتراكي «فيرى» (١٨٥٦-١٩٢٩).

يُعهد إليهم بمحاكمتهم والحكم عليهم. أمل نيكليودوف، في بداية الأمر، أن يجد جواباً عن هذه الأسئلة في الكتب. فبادر إلى شراء جميع المؤلفات التي تعالج هذا الموضوع. وقرأ بكثير من الإنباه كتابات لومبروزو، وفيري، ومودسليين وتارد^(٣٨)، وزملائهم في علم الجريمة. لكن هذه القراءة لم تكن سوى مصدر لخيبة أمل مريرة. وقع له الشيء نفسه الذي يقع عادة لإنسان أكْبَّ على دراسة العلم، لا ليلعب دوراً بين العلماء، ولا ليتمكن من الكتابة والنقاش والتعليم، وإنما ليجد جواباً عن بعض الأسئلة البسيطة والعملية والحيوية. وإذا بالعلم الذي كان يدرسه يجب عن ألف سؤال وسؤال في غاية الدقة والتعقيد، لكنه لا يجب عن السؤال الذي طرحه على نفسه. مع أن هذا السؤال أبسط الأسئلة. كان نيكليودوف يسأل نفسه: لماذا وبأي حق يسجن بعض الناس أناساً آخرين، ويعذبونهم، وينفونهم، ويضربونهم، ويقتلونهم، مع أنهم هم أنفسهم شبيهون بضحاياهم. وبدلاً من أن يجيب العلماء الذين رجع إلى كتاباتهم عن هذا السؤال، راح بعضهم يتساءل إن كانت الإرادة البشرية حرة أم لا، وراح غيرهم يتساءل إن كان يجوز أن يُوصم إنسان بالجريمة بناء على منظر شكل جمجمته فقط. وتساءل آخرون إن كانت غريزة التقليد لا تلعب دوراً في الميل إلى الجريمة.. وكان العلماء يتساءلون أيضاً عن ماهية السلوك الأخلاقي، والانحلال، والمزاج، والمجتمع، الخ، كما كانوا يدرسون تأثير المناخ والتغذية والجهل والتنويم المغناطيسي والأهواء في الجريمة.

٣٨- مودسلي ودي تارد: مودسلي (١٨٣٥-١٩١٨) أستاذ الطب الشرعي، وكان يعد المجرمين مرضى؛ تارد (١٨٤٣-١٩٠٤) عالم اجتماع فرنسي مؤلف الإجرام المقارن.

هذه المؤلفات جميعاً ذُكرت نيكليودوف بالجواب الذي أجابه به صبي عائد من المدرسة. سأله نيكليودوف إن كان يُحسن التهجية، فأجاب الصبي: «طبعاً، أحسنُها!» «إذن هجّ لي كلمة رجل»، فسأله الصبي بمكر: - «لكن أية رجل؟ رجل الكلب^(٣٩)؟» - بهذه الطريقة نفسها، كان المؤلفون الذين رجع إليهم نيكليودوف يجيبون عن السؤال الوحيد الذي استأثر باهتمامه. وظل يقرؤهم، لكنه يئس من الانتفاع بهم. بيد أنه لم يعزُ غياب الجواب إلا إلى الطابع السطحي لعلم الإجرام؛ ولم يكن يبيح لنفسه أن يسلم تسليماً تاماً بجواب أكثر جذرية أخذ، مع ذلك، يراود فكره، في الآونة الأخيرة، بوضوح أعظم.

x x x

٣٩- رجل الكلب؛ سيجارة يلفها الفلاحون أنفسهم.

حُدّد يوم الخامس من تموز موعداً نهائياً لسفر قافلة المحكومين بالأشغال الشاقة التي ستكون ماسلوفا في عدادها. وقرر نيكليودوف أن يسافر في اليوم ذاته. وأخبر بذلك أخته التي جاءت إلى المدينة مع زوجها، عشية سفره. كانت أخت نيكليودوف، ناتاليا ايفانوفنا راغو جنسكي، أكبر منه بعشر سنوات؛ وكان لها تأثير عظيم في تربيته. أحبته، وهو طفل، حباً جماً؛ ثم ربط بينهما تفاهم تام حتى زواجهما. ولقد عشقت نيكولنكا إرتينييف، صديق أخيها وموضع سرّه، لكنه مات فيما بعد.

وفسدت أخلاق ناتاليا ودميتري؛ أفسدت أخلاقه هو حياته العسكرية والاجتماعية، وأفسد أخلاقها هي زواجها برجل كانت تحبه حباً جسدياً فقط، رجل لا يجد أدنى ميل إلى ما كان دميتري وأخته يعتبرانه فيما مضى المثل الأعلى للخير والجمال. وأسوأ من ذلك أنه كان عاجزاً عن فهم ذلك المثل الأعلى. إن توق ناتاليا إلى الكمال الأخلاقي، ورغبتها في أن تكون نافعة، إن كل ما كان يملأ قلبها، كان زوجها يؤوّله بالطريقة التي كانت في متناوله: كان يعزو

ذلك إلى إفراط في الأنانية ينضاف إلى رغبة مَرَضِيَّة في الإدهاش وإثارة الإعجاب بها.

كان راغو جنسكي رجلاً بلا ثروة، ومن منبت متواضع. ولقد أتاحت له تفاهته الطبيعية، وروح الدسيسة فيه، ولاسيما ما أوتي من قدرة على إرضاء النساء، أتاح له ذلك كله أن يشغل مركزاً لامعاً في القضاء. كان عمره نحو أربعين عاماً عندما تعرّف بنيكليودوف. وأفلح في استدراج ناتاليا إلى حبه، فتزوجها بالرغم من ممانعة الأم التي كانت ترى هذا الزواج زواجاً غير متكافئ.

كان نيكليودوف يكره صهره، مع أنه كان يحاول أن يخفي هذا الشعور. كان يكرهه لسوقيته، وضيق فكره، وادّعاءه. وأكثر من ذلك، كان يكره فيه الشيء التالي وهو أن أخته استطاعت أن تُغرم هذا الغرام الأناني. تمثل هذه الطبيعة المنحطة، وأن هذا الغرام خنق كل ما كان فيها من نبل وجمال. لم يستطع نيكليودوف قط أن يتذكّر بلا ألم أن ناتاليا قد أصبحت زوجة لهذا الدب الغزير الشعر، ذي الصلعة اللماعة. حتى الأولاد الذين أنجبتهم كانوا كريهين إليه.. وكان كلما علم أنها حامل، أحسّ، على الرغم منه، أن أخته أصيبت بعدوى مرض خبيث، لدى احتكاكها بهذا الرجل الذي كان يثير اشمئزازه.

في هذه المرة، جاء الزوجان راغو جنسكي إلى المدينة بدون أولادهما. وعندما استقرّا في أحسن الغرف، في أفضل فندق، خرجت ناتاليا إفانوفنا وقصدت إلى بيت أمها القديم. وإذ علمت من أغرافينا بيتروفنا أن دميتري ترك سكنى هذا البيت، فتوجّهت على الفور إلى

الشقة المؤثثة التي يقيم فيها. فلم تجده هناك أيضاً. أنبأها خادم، زري الهيئة، استقبلها في بهو موحش يضيئه الغاز طوال النهار، أن الأمير ليس في غرفته. فأوضحت له ناتاليا ايفانوفنا أنها أخت نيكليودوف؛ وطلبت أن تدخل الشقة التي يشغلها، لكي تكتب له كلمة. وقبل أن تبدأ الكتابة، لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر بفضول إلى الغرفتين الصغيرتين اللتين يسكنهما أخوها. وقد دهشت مما في السكن من بساطة شقت عليها، وإن عثرت فيه على النظافة والنظام الدقيق اللذين عهدتهما فيه قديماً. وفتنتها أن رأت في مكتبه، فوق رزمة من الوثائق، ثقالة الورق القديمة، المرمرية، التي يزينها كلب من البرونز، وهي من بقايا البيت الأبوي. وابتهجت حين لمحت طرفي مقطع الورق العاجي الذي أعطته أخاها قديماً، خارجين من مجلد ضخمة، أخضر الغلاف.

عندما فرغت من فحصها للغرفة، كتبت بطاقة إلى نيكليودوف، ترجوه فيها أن يأتي لرؤيتها بأسرع وقت ممكن. ثم عادت بعد ذلك إلى عربتها وأمرت حوذيها أن يوصلها إلى فندقها.

شيئان اثنان كانا يهتمانها، على وجه الخصوص: كانت تريد أن تعلم إلى أين وصل بالضبط زواجه بكاترين، بعد أن أخذ الجميع يتحدثون عنه، حتى في المدينة الصغيرة التي تسكنها. وكانت تريد بعد ذلك أن تصل إلى معلومات صحيحة بشأن تنازله عن الأراضي للفلاحين، وهو تنازل لعل كلام الناس عليه كان أكثر أيضاً، لأنهم أحبوا أن يصوروه وكأن له طابعاً سياسياً خطيراً كأخطر ما يكون.

إن الزواج بكاتيوشا كان يسرّ ناتاليا ببعض جوانبه. لقد أكبرت

القرار الذي اتخذه أخوها في هذه المناسبة، إذ عثرت في هذا القرار عليه بكلّيته، كما عثرت فيه على نفسها مثلما كانا أثناء شبابهما. لكنها لم تكن تستطيع، من جهة ثانية، أن تفكر دون رعب في أن أخاها سيتزوج امرأة بغیضة إلى هذا الحد. وكانت الغلبة، في نهاية الأمر، لهذه العاطفة الثانية بحيث قررت أن تبذل قصارى جهدها لتصرف أخاها عن مشروع الزواج هذا. ولم تكن تخفي على نفسها أن هذه المهمة ستكون شديدة الصعوبة.

أما مسألة تسليم الأرض للفلاحين فلم تكن، في أعماقها، لتبالي به، لكن زوجها انفعَل من جراء ذلك انفعالاً شديداً. وقد طلب إليها أن تُصرّ على نيكليودوف لتردّه عن قراره. وكان «إغنائي نيكيفوروفيتش راغو جنسكي» يقول: إن هذا القرار هو منتهى الطيش والغرور واللاشرعية. ولا يمكن أن يُفسّر ألا بهوس التفرّد، وجذب انتباه الناس إليه.

وكاد يردد:

— ما معنى أن يهب أراضي الفلاحين، مُجبراً هؤلاء الفلاحين على أن يدفعوا الأجر لأنفسهم؟ وإذا كان دميتري يحرص حقاً على التخلص من أراضيهِ. فقد كان بوسعهِ أن يبيعها بواسطة مصرف الفلاحين^(٤٠) سيكون لذلك معنى، على الأقل.

٤٠ - مصرف الفلاحين: مصرف للدولة تأسس سنة ١٨٨٢ لكي يسهل شراء الأراضي على الفلاحين.

وكان يصرّح وهو يحلم بحجرٍ يمنحه حق الوصاية على أملاك
نيكليودوف:

– على كل حال، إن سلوكه ينمّ على حالة ذهنية غير طبيعية.

وأوصى زوجته أن تكلم أخاها جدياً بشأن فكرته الغريبة.

x x x

وجد نيكليودوف بطاقة أخته، عند عودته. فسارع قاصداً فندقها. كانت وحدها، في غرفة كبيرة تقوم مقام قاعة الإستقبال. أما زوجها فكان يقضي قيلولته في غرفة النوم. وكانت ناتاليا إيفانوفنا ترتدي فستاناً من الحرير الأسود مشدوداً على قامتها، وقد ازدان صدره بشريطة حمراء؛ وكان شعرها الأسود مصففاً، على آخر زي. وكان من الواضح أنها تبذل كل ما في وسعها لتبدو أنضر شباباً لإرضاء لزوجها. حين شاهدت أخاها ركضت لاستقباله، بخطوات سريعة زادت من حفيف تنورتها الحريريّة. تعانق الأخوان، وهما يتسلمان، وينظر كل منهما في عيني الآخر. وفي هذا التبادل للنظرات المليء بالأسرار، انكشفت نفساهما بعريهما. بيد أن تبادل الكلمات ما لبث أن تلا، بعد لحظة، تبادل النظرات، فغابت الحقيقة فيه.

لم يكن نيكليودوف قد رأى أخته منذ موت أمهما.

قال:

- لقد سمّنت، وصرت أنضر شباباً.

ارتعشت شفتا ناتاليا من السرور، وهتفت:

- أما أنت فقد نحلت!

استخبر نيكليودوف:

- أليس إغناطي نيكيفوروفيتش هنا؟

- إنه يستريح قليلاً، إذ لم ينم هذه الليلة... أتعلم أنني ذهبت إلى حيث تقيم؟

- نعم، وجدت بطاقتك. كنت مضطراً إلى ترك بيتنا. إنه مفرط الاتساع، وكنت أشعر فيه بالوحدة الشديدة وبالضجر. كل ذلك الأثاث، كل ما في البيت، لم أعد بحاجة إليه؛ خذي كل ذلك لك، وافعلي به ما تشائين.

- حدثني اغرافينا بيتروفينا عن ذلك، أشكرك أعظم الشكر.
لكن...

في هذه اللحظة، حمل خادم الفندق آنية الشاي على طبق فضي.
فصمت نيكليودوف وأخته حتى انصرف.

هتفت ناتاليا وهي ترفع فجأة عينيها إلى أخيها الذي لم يجبها:

- اسمع، يا دميتري! أنا أعلم كل شيء...

وتابعت:

- أتستطيع أن تأمل حقاً في رد تلك المرأة إلى الخير، بعد الحياة التي عاشتها؟

لم يفه نيكليودوف بكلمة، وظل يفكر في الطريقة التي يمكن بها

أن يوضح لأخته سلوكه دون أن يزعجها. كان يحسّ قلبه مفعماً، أكثر من ذي قبل، بفرح هادئ، وبرغبة العيش بسلام مع جميع البشر.

قال أخيراً:

— ليس لي أن أردّها إلى الخير، بل أن أعود إليه، أنا نفسي.

تنهدت ناتاليا ايفانوفنا، وقالت:

— لاشك، لكنك تملك، من أجل ذلك، سبلاً أخرى غير الزواج.

— معك الحق، لكنني أعتقد أن هذه السبيل هي أفضل السبل، إضافة إلى أنها تتيح لي بلوغ عالم أستطيع أن أكون نافعا فيه.

تنهدت ناتاليا:

— أنا واثقة أن هذا الزواج سيكون سبباً في شقائك.

— لستُ معنياً بسعادتي.

— نعم، فهمتُ... إنما هي. إن كان لها قلب فلا يمكن لهذا الزواج أن يُسعدّها، ولا يجوز أن تتمناه.

— ولذلك هي لا تتمناه.

— لكن، على كل حال... إن الحياة..

— ما لها الحياة؟

– الحياة تتطلب شيئاً آخر

فأكد نيكليودوف وهو يتأمل وجه أخته الجميل الذي أخذت السنون ترسم فيه غضوناً حول العينين والفم:

– الحياة لا تتطلب شيئاً إلا أن نقوم بواجبنا.

وتنهدت:

– لستُ أفهمك.

وفكر نيكليودوف في نفسه: «كم تغيّرت، تلك الأخت العزيزة المسكينة» وعادت إلى ذهنه ذكريات الطفولة، وغمر قلبه فيض من الحنان.

في هذه اللحظة، رأى زوج أخته يخرج من الغرفة المجاورة، رافعاً رأسه، على عادته، مُبرزاً صدره. كان يتسم مجاملة، ورأى نيكليودوف عدستي نظارته، وجمجمته الصلعاء ولحيته السوداء تلتمع في آن واحد. هتف بلهجة متكلّفة:

– ما أسعدني برويك!

في بداية الزواج، حاول الإثنان أن يتخاطبا بضمير المفرد، لكن المحاولة لم تنجح، فعادا إلى ضمير الجمع.

بعد أن شد إناتي نيكيفوروفيتش على يد نيكليودوف تهالك برفق على مقعد، وهو يسأل:

- ألم أقطع عليكما حديثكما؟

- لا، فأنا لا أخفي عن أحد ما أقوله وما أفعله...

ما إن رأى نيكليودوف هذا الوجه السوقي، وهاتين اليدين المغطاتين بالشعر، وما إن سمع لهجة صوته المدّعية، المتعالية، حتى طار شعوره بذلك الحلم الشامل.

أوضحت ناتاليا:

- كنا نتحدث عن مشروعه. أتريد شيئاً؟

- نعم، بكل سرور. أي مشروع تقصدين؟

فأعلن نيكليودوف:

- مشروع ذهابي إلى سيبيريا، بصحبة امرأة محكومة بالأشغال الشاقة، امرأة أذنبُ بحقها.

- بل لقد سمعتُ أنك لم تكتفِ باصطحابها، فقررت أن تفعل شيئاً فوق ذلك.

- بكل تأكيد. أنا مستعد للزواج بها، إن قبلتُ.

- حقاً؟ إذن سأكون شاكرًا لك لو أوضحت لي دوافع سلوكك. أعترف بأنني لم أفهمها.

- الدوافع هي أن هذه المرأة... هي أن أولى خطواتها في طريق الرذيلة...

لم يعثر نيكليودوف على التعبير المناسب، فزاد ذلك من سخطه.
وقال أخيراً:

– الدافع إلى سلوكي هو أنني أنا المذنب وهي المحكوم عليها!

– اوه! إن كانت قد حُكم عليها، فالأرجح أنها ليست بريئة، هي نفسها.

– عفواً، إنها بريئة كلياً!

وأخذ نيكليودوف يروي قصة دعوى ماسلوف برمتها، وهو مضطرب اضطراباً لا مكان له.

فقال راغوجنسكي بتبجح:

– فهمت القضية. كل شيء جاء من إهمال الرئيس، ومن انعدام الروية لدى المحلفين. لكن هناك مجلس الشيوخ لتدارك هذا النوع من الأخطاء.

– مجلس الشيوخ رد طلب التمييز.

قال إغناتي نيكيفوروفيتش:

– وإذا فالأسباب الموجبة للتمييز لم تكن كافية، فليس من اختصاص مجلس الشيوخ أن ينظر في القضايا من حيث جوهرها. وإذا كان هناك خطأ قضائي، وجب تقديم التماس العفو.

– تقدّمنا به، لكن دون كبير أمل بالنجاح. ذلك أن الوزارة ستقوم بالتحقيق، وسترفعه إلى مجلس الشيوخ، وسيرد مجلس الشيوخ بالنفي، وسيظل البريء محكوماً عليه، كما هي العادة.

فاعترض إغناتي نيكيفورفيتش بابتسامة تتم على التنازل:

– عفواً، عفواً. أولاً، إن الوزارة لا ترفع الأمر إلى مجلس الشيوخ أبداً. إنها تطلب الملف، وإذا عاينت خطأ سجّلت النتائج التي تتوصل إليها. وثانياً، ليست العادة أن يُحكم على الأبرياء. وإنما المذنبون هم الذي يُحكم عليهم.

وقد أكّد راغو جنسكي ذلك دون أن يضطرب، وهو شديد الرضا عن ذاته.

استشاط نيكليو دوف، وأخذ يحتدّ شيئاً فشيئاً على صهره.

– أراي مقتنعاً بالعكس. فقد لاحظت أن نحو نصف الذين تحكم عليهم المحاكم أبرياء.

– بأي معنى تفهم براءتهم؟

– إنهم أبرياء بأدق معاني هذه الكلمة، مثل تلك المرأة البريئة من تسميم أحد التجار؛ ومثل ذلك الرجل البريء الذي رأيته في الأيام والمتهم بجريمة قتل لم يرتكبها، ومثل هذا الفتى وأمه البريئين والمتهمين بإضرار حريق كان الفاعل الوحيد له هو صاحب المستودع الذي احترق.

— لا شك أنه كان وسيبقى هناك أخطاء قضائية ، فالعدالة البشرية لا تستطيع أن تطمح إلى العصمة.

— إن الأغلبية العظمى من المحكوم عليهم أبرياء، لم يعتبروا الأعمال التي ارتكبوها إجرامية، وذلك بسبب نشاطهم في أوساط معينة.
قال اغناتي نيكيفوروفيتش متهمكماً، بابتسامة أثارت حنق نيكليودوف:

— عفواً! كل سارق يعلم أن السرقة ليست عملاً صالحاً، وأنه لا ينبغي أن يسرق، وأن السرقة عمل غير أخلاقي.

— كلا، إنه لا يعلم ذلك. يُقال له: لا تسرق، لكنه يرى صاحب العمل يسرق له عمله، ويرى الموظفين يسرقون له ماله...

فقاطعه إغناتي نيكوفوروفيتش بأرصن لهجة

— أتعلم أن ما تقوله لا يعدو أن يكون فوضوية؟

فثار نيكليودوف:

— لا قيمة للتسمية التي تسمي ذلك بها، أنا أقول ما هو كائن. هذا الرجل يعلم أن الموظفين يسرقونه. وهو يعلم أننا نحن، مُلاك الأراضي، نسرقه لنستثمر من أجل مصلحتنا ما ينبغي أن يكون ملكية عامة. وإذا أخذ هذا الرجل من غاباتنا، بعد ذلك، بضعة أغصان من الخشب اليابس ليشعل ناره، سجنّاه، وأوهمناه أنه سارق. لكنه يعلم أنه ليس بالسارق وإنما السارق من استولى على الأرض؛ وهو، إزاء ذويه؛ يرى واجباً عليه استرداد الشيء الذي اختلس منه.

- لست أفهمك، أو بالأحرى، إن كنت قد فهمتك فأنا آسف
لأنني لا أستطيع أن أكون على اتفاق معك. يجب أن يملك الأرض
بالضرورة صاحب واحد. وإذا أنت قسّمتها اليوم إلى أقسام متساوية،
فسوف تعود غداً إلى من هم أكثر جداً وموهبة.

قال إغناط نيكيفوروفيتش ذلك، وهو على ثقة مطمئنة، لا تقبل
الجدل، بأن نيكليودوف اشتراكي، وبأن المذهب الاشتراكي يقوم
على التوزيع المتساوي للأرض بين الجميع، وبأن هذه النظرية يسهل
دحضها، نظراً لأن مثل هذا التوزيع سخيف تماماً.

- لكن، لم يتحدث أحد أيضاً عن تقسيم الأرض إلى أقسام
متساوية. الأرض لا ينبغي أن يملكها أحد، لا ينبغي أن تكون غرضاً
للبيع والشراء.

- إن حق الملكية طبيعي في الإنسان. وبدونه لن يجد الإنسان ميلاً
إلى زراعة الأرض. إلغ حق الملكية فسوف نعود إلى عهد المتوحشين.

أكد إغناطي نيكيفوروفيتش ذلك بلهجة حاسمة، مردداً الحجة
المعروفة والتي تعتبر كأنها لا تقبل الجدل، والمؤيدة للملكية العقارية،
والتي مفادها أن جشع الناس للملكية العقارية دليل على ضرورتها.

- العكس هو الصحيح. فعندما لا يكون للأرض مالك، لن يبقى
فيها بور كما هي الحال في أيامنا، التي حاول فيها مالك الأرض،
كالكلب في بيته، إبعاد من يستطيعون استثمار الأرض عن الأرض.

- إسمع، يا دميتري إيفانوفتش، ما تقول ضرب من الجنون. أمن

الممكن أن يلغى حق الملكية، في عصرنا؟ إني أعلم أن هذه الفكرة الأثيرة تسيطر عليك، منذ زمن بعيد، فاسمح لي أن أقول لك ذلك بصراحة.

شحب وجه إغناتي نيكيفوروفيتش، وأخذ صوته يتهدّج. ومن الواضح أن هذه المسألة، على عكس ما سبقها من مسائل، كانت وثيقة الصلة بنفسه. فأعلن:

— أنصحك، بكل صدق، أن تفكّر أيضاً في هذه القضية، قبل أن تضع أفكارك موضع التطبيق.

— أتقصد قضيتي الشخصية؟

— نعم، إني أرى أننا جميعاً نشغل وضعاً معيناً، وعلينا أن نقبل بالمسؤولية التي تنتج عن وضعنا الاجتماعي. علينا أن نحافظ على شروط الحياة التي وُلدنا فيها والتي انتقلت إلينا من أهلنا، والتي من واجبنا أن ننقلها إلى ذريّتنا.

— أعتبر أن من واجبي...

لم يسمح له راغوجنسكي بمقاطعته، وقال:

— عفواً! لا يد لمصلحتي الشخصية، ولا لمصلحة أولادي فيما أقوله لك. إن مصير أولادي مضمون، أما أنا فأرجو أن أتمكن من كسب قوتي ما حيئتُ. وإذن فأنا أدعوك بدون أية فكرة مبطنة، وبشكل نظري، محض، وعن قناعة خالصة، أدعوك إلى إمعان التفكير، وإلى القراءة مثلاً...

فانفجر نيكليودوف، وقد شحب بدوره:

- رحماك، دعني أهتم بشؤوني، ولا تكلف نفسك إرشادي إلى ما ينبغي أن أقرأ.

وإذ أحس أن يديه صارتا باردتين، وأنه لم يعد سيد نفسه، خَلَدَ إلى الصمت، وأخذ يشرب الشاي.

x x x

سأل نيكليودوف أخته بعد أن هدأ قليلاً:

- لكن أين الأولاد؟

أجابت ناتاليا أن الأولاد بقوا مع جدتهم. وإذا سرّها أن الجدال قد توقف دون أن يترك أثراً سيئاً، أخذت تقصّ عليه كيف أن الأولاد كانوا يلعبون، أثناء السفر، بلعبهم، تماماً كما كان؛ يلعب دميتري في طفولته مع لعبتيه؛ زنجي ولعبة كان يسميها: «الفرنسية».

دهش نيكليودوف وهو يتسم:

- أمن الممكن أنك مازلت تتذكرين ذلك؟

انحى الانطباع المؤلم. لكنها لم تشأ أن تتحدث، أمام زوجها، عن أشياء لا يفهمها إلا هي وأخوها، فساقت الحديث إلى حدث بطرسبرج الكبير، المباراة التي قُتل فيها الشاب كامنسكي. واستنكر إغناتي نيكيفوروفيتش ذلك الحكم المسبق الذي يمنع اعتبار المباراة جريمة قتل عادية. كان هذا الاستنكار كافياً لإثارة سخط نيكليودوف، وبدأ الخصام في ميدان آخر.

كان إغناطي نيكيفوروفيتش يحسّ أن نيكليودوف يحتقره، وكان يهمله أن يبرهن له على ما في هذا الإحتقار من ظلم، أما نيكليودوف فقد اغتاض من أن يرى صهره يتدخل في شؤونه، معترفاً لنفسه بالحق في هذا التدخل، بصفته قريباً له. لكن الذي أحنقه على الخصوص هو هذا الإدّعاء الذي به كان صهره يسلم بمعقولية بعض المبادئ التي كانت تبدو لنيكليودوف الآن أبعد ما تكون عن العقل.

سأله نيكليودوف:

— إذا، ما الذي كنت تتمنى أن يُفعل؟

— أن يُحكم على قاتل كامنسكي بالأشغال الشاقة، كالقاتل العادي.

— ما الفائدة التي تجنيها من ذلك؟

— سيكون ذلك عادلاً.

قال نيكليودوف هازئاً:

— وكأن للتنظيم القضائي الحالي علاقة بالعدل.

— وما الغرض الآخر الذي تراه لهذا التنظيم؟

— إن له غرضاً وحيداً هو المحافظة على النظام القائم من أجل مصلحة طبقة اجتماعية معينة.

أجاب إغناتي نيكيفوروفيتش مبتسماً:

— ذلك جديد بالنسبة إلي! ليست هذه هي المهمة التي تُسند عادة إلى العدالة.

— نظرياً، لا، لكن الأمور كذلك عملياً. تأكدتُ من ذلك بنفسي. إن محاكمنا لا غرض لها إلا المحافظة على المجتمع في حالته الراهنة. ومن هنا جاء اضطهادها ومعاقبتها لمن هم دون المستوى العام ولمن هم فوق هذا المستوى. مَنْ يحاولون أن يرفعوا المجتمع إلى مستواهم.

— لا أستطيع أن أسمح لك بالقول إن القضاة يحكمون على أناس أعلى من المستوى العام! الناس الذي نحكم عليهم هم، في معظمهم، حثالة المجتمع.

— وأنا أعرف محكومين بالأشغال الشاقة هم، بلا جدال، أعلى من قضاتهم!

لكن إغناتي نيكيفوروفيتش الذي لم يكن من عاداته ترك غيره يقطع كلامه، تابع كلامه دون أن يصغي إلى نيكليودوف، مثيراً بذلك سخطه.

— ... ثم إنني لا أستطيع أن أسمح لك بالقول إن غرض المحاكم هو الحفاظ على النظام الراهن. فللمحاكم غرض مزدوج، أن تُصلح أولاً...

فهتف نيكليودوف:

- جميل، هذا الإصلاح الناجم عن نظام السجون!

- وثانياً أن تجعل هذه المخلوقات المنحطة، المتبلدة الحس، والتي تهدد الحياة الاجتماعية، عاجزة عن الإيذاء.

- وأنا أقول لك إن المحاكم لا تؤدي لا هذا الغرض ولا ذاك. ولست أعرف من العقوبات المعقولة سوى عقوبتين، وهما وحدهما اللتان كانتا تُستخدمان قديماً: السوط والموت!

- في الحقيقة، ذلك ما لم أكن أتوقع سماعه منك.

- أجل! لأن يُعاقب إنسان لكي يُمنَعَ من العودة إلى فعل جرّ عليه العقوبة، ذلك معقول؛ ولأن يُقطع رأس فرد خطر على الآخرين، هذا أيضاً له معنى. لكن ما معنى أن يُؤخذ مخلوق أفسده الكسل ورفاق السوء ليُحبَس في سجن يغدو فيه الكسل واجباً، ويحيط به رفاق السوء من كل جانب؟ ما معنى أن يُنقل على نفقة الدولة - قيل لي إن ذلك لا يكلف أقل من خمسمائة روبل بالرجل - من حكومة «تولا» إلى حكومة «إركوسك»، أو إلى حكومة كورسك.

- هذا لا يمنع أن هؤلاء الناس يخافون هذه الرحلات التي تتم على نفقة الدولة؛ ولولا هذه الرحلات وتلك السجون لما كنا جالسين اليوم هنا، بطمأنينة!

- وهذا لا يمنع أنكم، بسجونكم، لا يجوز لكم أن تطمحوا إلى حماية المجتمع، لأن هؤلاء الناس الذين تضعونهم في السجن يخرجون منه، عاجلاً أو آجلاً، والنظام الذي تخضعونهم له لا أثر له إلا بجعلهم أشد خطراً.

- أنت تعني أن نظام سجوننا بحاجة إلى الإصلاح؟

- كلا، فسيذهب ذلك سدى. ذلك أننا بإصلاح السجون سننفق من المال أكثر مما ننفق اليوم على نشر التعليم العام، وسيُجبر الفقراء أيضاً على الدفع.

فسأله إغناتي نيكيفوروفيتش بابتسامة متكلفة:

- ماذا تريد إذن أن نفعل؟ أن نقتل الجميع، أو أن نفقأ عيون المجرمين، كما اقترح حديثاً أحد رجال الدولة الرفيعي الشأن؟
- هذا وحشي، وإن كان له معنى على الأقل، بينما ما نفعله الآن وحشي ولا معنى له.

قال إغناتي نيكيفوروفيتش وقد شحب:

- لكنني أنا في هذه المحاكم التي نتحدث عنها هذا الحديث.

- هذا شأنك! وأنا أقتصر على الإشارة إلى ما لم افهمه.

فردّ إغناتي نيكيفوروفيتش بصوت مرتعش:

- هناك أشياء كثيرة لا تفهمها.

- لقد رأيت في محكمة الجنايات كيف أن وكيل النيابة بذل وسعه كي يضمن الحكم على فتى بئس لا يثير سوى الشفقة عند أي رجل يملك شيئاً من الاستقامة؛ وأعرف وكياً آخر طلب تطبيق قانون الجزاء على متشيع لمجرد قراءاته الإنجيل؛ وكل نشاط المحاكم لا يتضمن سوى أعمال غبية أو قاسية.

أجاب إغناتي نيكيفوروفيتش هو ينهض:

— ما كنت أمتن هذه المهنة، لو لم أكن مقتنعاً بشرعيتها.

لمح نيكليودوف شيئاً يلمع خلف عدستي نظّارة صهره. فقال في نفسه: «يا إلهي، عسى ألا تكون دموعه». لكنها كانت دموعاً، بالفعل، دموع الغيظ والمذلة. اقترب إغناتي نيكيفوروفيتش من النافذة، وأخرج منديله، ومسح نظارته كما مسح عينيه. ثم جلس على الأريكة، وأشعل سيجاراً، ولم يقل بعد ذلك شيئاً.

أحس نيكليودوف بالحزن والحنج حين فكر أنه قد جرح صهره وأخته إلى هذا الحد. ولا سيما أنه سيسافر غداً ولن تتاح له رؤيتهما بعد الآن. فاستأذنهما بعد بعض الكلمات المبتذلة، وعاد إلى الفندق.

قال في نفسه: «لعل ما قلته له صحيح، لكن، على كل حال، ما كان ينبغي لي أن أكلّمه على هذا النحو. ومن المؤكّد أن التغير الذي حدث فيّ لم يكن عميقاً جداً، ولذلك غضبتُ هذا الغضب الشديد، وأهنتُ إغناتي إلى هذا الحد، وآلت عزيزتي المسكينة ناتاشا.

× × ×

تقرّر أن تسافر قافلة المنفيين، من المحطة، في الساعة الثالثة من اليوم التالي. فصمم نيكليودوف أن يكون أمام باب السجن، منذ الظهر، ليراها تخرج وليرافقها إلى محطة القطار.

وقبل أن ينام، وقعت يده، وهو يرتّب أوراقه، على مذكراته اليومية، ولم يستطع أن يمنع نفسه من قراءة الجمل التالية: «كاتيوشا ترفض نصيحتي، لكنها تُصرّ على توضيحتها. إنها تفتنني بهذا التبدل الداخلي الذي يلوح لي -إني خائف من الاعتقاد به- أنه يتم فيها». وكتب تحت هذه الجملة، في المرة التالية، مايلي: «تلقيت اليوم صدمة شديدة، فقد علمتُ أن كاتيوشا أساءت السلوك في المشفى. وفي اللحظة نفسها، أحسستُ بألم رهيب، ما كنت أظن أن ذلك يمكن أن يؤلّمني إلى هذا الحد. عاملتُ المسكينة بكره واشمئزاز، ثم تذكرت، كم مرة ارتكبتُ أنا، ولو بالفكر، الغلطة التي كرهتها من أجلها. ومنذ هذه اللحظة، كرهت نفسي، ورثيتُ لها وأحسست بإحساس من الراحة».

أخذ الريشة، وأضاف، بتاريخ هذا اليوم: «رأيت ناتاشا، وكنت قاسياً وشريراً نحوها، مرة أخرى، من جرّاء أنايتي، وكلمتُ زوجها كما لا ينبغي لي أن أكلمه. وأنا أحمل من ذلك كله ثقلًا على قلبي.

لكن ما العمل؟ غداً تبدأ، بالنسبة إلي حياة جديدة. وداعاً، يا حياتي القديمة وإلى الأبد!«.

عندما استيقظ من نومه، في صباح اليوم التالي، كانت أول عاطفة انتابته هي عاطفة الندم على سلوكه تجاه صهره، فقال في نفسه: «من المستحيل أن أدع الأمور هكذا، سأعود إليه وسأقدم له اعتذاري».

لكنه لم يلبث أن تبين أنه لن يكون لديه ما يكفي من الوقت لذلك، إذا شاء أن يحضر خروج القافلة. وبعد أن انتهى من حزم أمتعته، بسرعة كبيرة، وكلّف خادم الفندق حملها إلى محطة القطار، ووثب إلى عربة قاصداً السجن.

كان الحر على أشده في تموز. كان بلاط الشارع، وحجارة البيوت، وحديد السطوح التي لم تبرد أثناء تلك الليلة اللاهبة، تمزج انعكاساتها ببريق الشمس لتجعل الجو خانقاً. ولا نسمة هواء إلا هبات مفاجئة، بين لحظة وأخرى، تقذف العيون بسحب من الغبار. كانت معظم الشوارع مقفرة، إلا من بعض المارة هنا وهناك يسرون بحذاء الجدران بحثاً عن شيء من الظل، بيد أن نيكليودوف شاهد، في شارع، طائفة من العمال المبلطين، جالسين تحت أشعة الشمس المحرقة، وسط الرصيف، يعملون على غرز الحجارة في الرمل الحار.

عندما وصل نيكليودوف إلى السجن، وجد الباب ما يزال مغلقاً. أما في داخل السجن فقد بدأ، منذ الساعة الرابعة صباحاً إحصاء المبعدين الذي سيسافرون، واستعراضهم. كان ستمائة وأربعة وعشرون رجلاً وأربع وستون امرأة يقفون اثنين اثنين في وهج الشمس، في الفناء.

وفي ظل الجدار، جلس المدير الجديد ونائباه والطبيب والمرضة والضابط المرافق والكاتب حول طاولة رُتبت عليها الوثائق وأدوات الكتابة. كان السجناء يُدْعَوْنَ واحداً، ويُفحصون ويُستجوبون، ثم تُسجَّل أسماءهم.

كانت الشمس تغطّي نصف الطاولة. وغدت الحرارة لا تُطاق، وغدا الهواء خانقاً.

عيل صَبْرُ رئيس القافلة، وكان شاباً طويل القامة، قوي البنية، سميناً وأحمر، عالي الكتفين، قصير الذراعين، يدخّن بلا توقّف، طارداً الدخان من خلال شاربيه، فقال:

— ألن تنتهوا أبداً؟ إن هذا لعذاب حقيقي. هل بقي كثير منهم؟

أحصى الكاتب الأسماء، وقال:

— بقي ثمانون رجلاً، ثم النساء.

صاح الضابط بطائفة متراصة من السجناء يجب أن يخضعوا للمراقبة:

— هيا، اقربوا، بسرعة، ما لكم جامدين؟

في الخارج، كان الحارس يقف أمام الشباك، وسلاحه على كتفه. وفي الساحة الصغيرة، رأى نيكليودوف نحو عشرين عربية، معدة لحمل متاع السجناء، وكذلك لنقل بعض السجناء من المرضى أو من ذوي العاهات، إلى محطة القطار. رأى أيضاً في زاوية، جماعة من

الفقراء والأهل والأصدقاء ينتظرون خروج السجناء كي يروههم لآخر مرة وكي يعطوهم، إن أمكن، شيئاً من الغذاء أو المال.

انضمّ نيكليودوف إلى هذه الجماعة وانتظر أمام البوابة حوالي ساعة. وأخيراً، سمع، من داخل الفناء قعقة السلاسل، وبعض الأوامر تُلقى بصوت عالٍ، وسعالاً أبَحَّ، وهمساً مختلطاً من جمهور يراوح مكانه. دام ذلك خمس دقائق، كان الحراس في أثنائه يظهرون على الباب دون انقطاع ولا يلبثون أن يعودوا.

وفجأةً فتح الباب على مصراعيه، وتعاظمت قعقة السلاسل، وأقبل فصيل من الجنود يلبسون القمصان البيضاء واصطفوا على شكل دائرة، في جانبي الساحة. ثم خرج السجناء، بعد أن أمروا بذلك، اثنين اثنين. خرج أولاً المحكومون بالأشغال الشاقة، وهم موحدو اللباس. كانوا يرتدون قمصاناً رمادية رُسم على ظهرها آس الديناري، ويضعون على رؤوسهم الحليقة قبعات مسطحة، ويحمل كل واحد منهم كيساً يتدلّى على ظهره... كانوا يجزّون أرجلهم المثقلة بالحديد، ويسندون بيد طرف الكيس. خرجوا وهم يحركون يدهم الطليقة، بخطى قوية وثابتة؛ كأنهم يتدربون من أجل مسيرة طويلة؛ لكنهم توقفوا بعد أن مشوا نحو عشر خطوات، ليضاعفوا صفوفهم. وفي أثرهم، جاء رجال آخرون يلبسون لباسهم، وكذلك رؤوسهم حليقة مثلهم، لكن لم يكن في أرجلهم قيود. كانوا مصفّدين بالأغلال اثنين اثنين. كان هؤلاء هم الذي حكموا عليهم بالنفي. ثم جاءت النساء بنفس الترتيب: جاءت أولاً النساء المحكومات بالأشغال الشاقة، في قمصان رمادية، وأخمرتهن على رؤوسهن؛ جاءت ثانياً المنفيّات؛ وجاءت ثالثاً النساء اللواتي كنّ يسافرون بماء إرادتهن، ليرافقن

أزواجهن - وكنّ يرتدن لباس الفلاحات. وكثير منهن كنّ يحملن أطفالهن على أيديهن.

وكان كثير من الأطفال يمشون. منتشرين بين الصفوف، كالمهار في قطع الخيل.

كان الرجال يتقدمون بصمت، لا يكادون يتبادلون الحديث، من بعيد إلى بعيد. أما صفوف النساء، فكان يرتفع منها لغط أصوات لا ينقطع.

وخيل إلى نيكليودوف أنه رأى ماسلوفاً، وهي تخرج، لكنها لم تلبث أن غابت عن نظره، فلم يعد يرى سوى كتلة مبهمه من المخلوقات المرتدية ثياباً رمادية، مخلوقات متشابهة كلها، ومحرومة كلها من المظهر الإنساني.

لقد تمّ إحصاء المبعدين في الفناء، لكنهم كانوا يُحصون أيضاً كلما خرجوا وضاعفوا صفوفهم. ولما انتهى الإحصاء صرخ الضابط الذي يقود القافلة بأمر. فخرج المرضى، رجالاً ونساء من الصفوف، واندفعوا إلى العربات حيث استقرّوا قرب أكياسهم. ولمح نيكليودوف، في هذه العربات خليطاً من الأمهات يرضعن أطفالهن، ومن الصبية والبنات وبعض المرضى بسنحهم الكالحة والمتجهمة.

بعض السجناء الآخرين جاؤوا، وهم مكشوفو الرؤوس، يسألون الضابط المرافق أن يأذن لهم بالصعود إلى العربات، فتظاهر الضابط، أول الأمر، بأنه لم يسمع؛ وأشاح بوجهه، وهو يلفّ سيجارة، لكن نيكليودوف رآه ينثني فجأة نحو سجين اقترب منه، ويصيح به، ويده مرفوعة»

— سأعطيك، أنا، عربات! ستمشي الطريق على قدميك!

شيخ واحد، طويل، مرتجف، محكوم بالأشغال الشاقة، سُمح له أن يقطع الطريق في عربة. نزع قبعته، ورسم إشارة الصليب، ووضع كيسه في إحدى العربات، وحاول طويلاً أن يتسلق إليها، فلم يستطع أن يرفع ساقيه المهزولتين، الثقلتين بالحديد. وساعدته امرأة عجوز على الصعود بأن أمسكته من يده.

عندما امتلأت العربات، كشف الضابط عن رأسه، ومسح جبينه بمنديله، ورسم إشارة الصليب. وأمر:

— إلى الأمام، سر!

تنكب الجنود بنادقهم؛ نزع السجناء قبعاتهم، ورسموا إشارة الصليب؛ ارتفعت صرخة من صفوف النساء، وتحرك الموكب يحيط به الجنود بقمصانهم البيضاء، مثيراً الغبار لدى كل حركة من حركات الأرجل المقيدة. في المقدمة، وراء الجند، سار المحكومون بالأشغال الشاقة، ثم المنفيون، ثم النساء. وخلف موكب المشاة الذين اصطفوا أربعة أربعة، سارت العربات ببطء، وفي أحدها شاهد نيكليودوف امرأة متدثرة بالأسمال، تزعم وتتنحب دون توقّف.

× × ×

كان الموكب طويلاً جداً حتى إن الصفوف الأولى انعطفت عند زاوية الشارع حين بدأت العربات تتحرك. وبعد أن انتظر نيكليودوف بضع ثوان، صعد عربته، وأمر الخوذي أن يسير ببطء بحيث يستطيع أن يعثر على ماسلوف ويسألها إن كانت قد تسلمت الحاجات التي بعث بها إليها. ازدادت شدة الحر. كان الهواء ساكناً، لا نسمة فيه. وكان الغبار الذي تثيره آلاف الأقدام، يلفّ السجناء السائرين في وسط الشارع. كانوا يتقدمون بخطأً حثيثاً حتى أن الجواد الذي يُقلّ نيكليودوف لم يكـد يُفلح في تجاوزهـم. كانت هذه المخلوقات المجهولة تمشي صفّاً صفّاً، غريبة السحنة، رهيبة المظهر، محرّكة آلاف الأقدام المحتذية أحذية واحدة، خاطرة باليد الطليقة كأنما تريد أن تتشجع. كانوا من الكثرة والتشابه، ومن خصوصية الظروف وتفرّدها، بحيث بدوا لعيني نيكليودوف كأنهم كائنات عجيبة، خاصة، مرعبة. ولم يختفِ هذا الانطباع من نفسه إلا عندما شاهد بين المحكومين بالأشغال الشاقة القاتل فيدوروف، وأيضاً بين المنفيين، او كوتين المضحك، الذي كان يعرفه، وسجيناً آخر كان قد طلب مساعدته. كان جميع السجناء تقريباً يلقون نظرة على العربة التي تسبقهم، وعلى ذلك السيد الجالس فيها

والذي كان يتفحصهم. حتى فيدوروف رأسه ليرى نيكليودوف أنه عرفه؛ وغمره او كوتين بعينه. لكنهما لم يحيياها، لاعتقادهما أن ذلك ممنوع. وعندما وصل نيكليودوف إلى صفوف النساء، عرف ماسلوفاً على الفور، في الصف الثاني. كانت الأولى في هذا الصف امرأة بشعة، حمراء، سوداء العينين، قصيرة الساقين، قد ثبتت بزناها معطفها. كانت هذه هي «الحسنة»؛ وبعد ذلك جاءت المرأة الحامل تجر نفسها جراً؛ وكانت ماسلوفاً الثالثة. كانت تحمل كيسها على ظهرها وقد بدا عليها الهدوء والعزم معاً. المرأة الرابعة في هذا الصف كانت شابة، جميلة. في معطف قصير، قد غطت رأسها بخمار مربوط، تمشي بعزم. كانت هذه فيدوسيا. نزل نيكليودوف من العربة ودنا منها، لكن ضابط الصف الذي كان يسير بحذاء القافلة هرع إليه وهو يصيح:

— الإقتراب من السجناء ممنوع!

وحين عرف نيكليودوف الذي كان يعرفه جميع من في السجن، رفع يده إلى عمرته، وقال له بلهجة أكثر احتراماً:

— الحقيقة، يا سيدي، أن ذلك ممنوع قطعاً. في المحطة تستطيع أن تكلم السجناء، أما هنا فذلك مستحيل.

تنحى نيكليودوف جانباً، وبعد أن أمر الحوذي بأن يتبعه، أخذ يمشي على الرصيف، يمرأى من القافلة. وكانت القافلة، أينما مرت، هدفاً لانتباه ممتزج بالخوف والعطف. وكانت الرؤوس تطل، من العربات، لتأمل السجناء. وكان المارة يقفون وينظرون بأعين محمقة إلى هذا المشهد المخيف. واقترب بعضهم ليتصدق بحسنة كان يتسلمها حراس القافلة. ولحق آخرون بالسجناء كالمؤمنين، ما استطاعوا اللحاق بهم.

واندفع الناس إلى خارج البوابات وأبواب المداخل، وأطلّوا من النوافذ، شاخصين بأعينهم إلى هذا الموكب الرهيب.

وفي ملتقى للطرق، حال الموكب دون مرور عربية فخمة يقودها حوذي، مُتّباه على مقعد، ضخّم وسمين، مشرق الوجه، وخلعته مزررة في الظهر. كان في العربية سيدة نحيلة وشاحبة، على رأسها قبة من القش، ويدها مظلة مشجرة، وبجنبها زوجها، وهو رجل أنيق يرتدي معطفًا فاتح اللون، ويضع على رأسه قبة عالية. في مواجهة الزوجين، جلس ولداهما: بنت صغيرة، حسنة الملبس، نضرة مثل وردة، لها شعر أشقر طويل يغطي كتفيها، وصبي ابن ثماني سنوات له عنق طويلة دقيقة برزت فيها عظام الترقوة من طقم البحار الذي يرتديه، وعلى رأسه قبة بحار، لها أشرطة طويلة تخفق من حولها. أنحى الأب باللوم على الحوذي لأنه لم يتجاوز القافلة في الوقت المناسب، وكثرت الأم من الاشمئزاز، وقد أغمضت عينيها نصف إغماضة، محتبئة خلف جناحي قبة القش لتحتمي من الشمس والغبار. وكان الحوذي يصغي إلى توبيخات سيده الظالمة وهو يحاول أن يكبح جماح جياده الكمت التي غطاها الزبد والتي كانت تلوّك لجمها. كان الحارس يود لو أوقف القافلة وسمح لصاحب هذه العربية الفخمة بالمرور قبله. لكنه تبين على نحو غامض أن جلال هذه القافلة القائم لا يجوز أن يُقطع إرضاء لذلك الثري. واقتصر إذن على أن رفع يده إلى عمرته، دلالة على احترامه للغنى، ووجه إلى السجناء نظرة صارمة، وكأنه يريد أن يعد أصحاب العربية الفاخرة بحمايته لهم وأن يؤكد لهم. بيد أن هذه العربية اضطرت إلى الانتظار حتى مرت القافلة، إلى آخر عربية ترتج، وهي محملة بالأكياس والسجناء، ومن بينهم تلك المرأة المستهترّة التي عادت إلى الزعاق والنحيب، وهي

ترى العربية الجميلة. وحينذاك استطاع الحوذني أن يسوق الخيل، التي استأنفت طريقها، ضاربة بحوافرها حجارة الشارع، جارة العربية التي كانت تتهادى برفق على عجلاتها المطاطية، في طريقها إلى الريف، حيث سيجد هؤلاء الأثرياء شيئاً من البرودة.

لم يشرح الأب أو الأم شيئاً بصدد ما رأياه هنا. واستنتجت البنت التي كانت تشبه أهلها، فيما بينها وبين نفسها، أن هؤلاء الناس من عالم آخر غير عالمها. ولا شك أن هؤلاء شريرون استحقوا أن يُعاملوا هذه المعاملة. ولم تحسّ بغير الرعب، فابتهجت عندما غابت القافلة عن نظرها.

لكن الصبي الصغير حل المشكلة بطريقة مختلفة: لقد تابع القافلة بعينه دون أن ترمشا. وكان يعلم علم اليقين الذي لا يزعه شيء، لأنه جاءه مباشرة من الله، أن هؤلاء الناس يشبهونه ويشبهون غيره من البشر. ولا بد أنهم ارتكبوا أفعالاً شريرة، فخالجه الشفقة وأحس بالرعب إزاء هؤلاء الناس المصقّدين بالأغلال، الخليقي الرؤوس، وحتى إزاء الذين عاملوهم كذلك. وإذا أحس بشفتيه تنتفخان، فقد حاول جاهداً ألا ينفجر باكياً، لأنه كان يعتقد أن من العار البكاء في مثل هذه المناسبة.

× × ×

كان نيكليودوف يمشي بالسرعة التي يمشي بها السجناء. ومع أنه كان يرتدي ثياباً خفيفة، إلا أن الحر أخذ يؤذيه أكثر فأكثر، وأخيراً عجز عن احتمال الحر، بعد ربع ساعة من السير، فعاد إلى عربته، وصعد إليها، وأمر الحوذي أن يتقدم القافلة. بيد أن الحر، في العربة، بداله أنه لا يطاق أيضاً. وحاول أن يفكر في حديثه مع صهره عشية البارحة، لكن هذه الذكرى التي هزته هزاً قبل ساعات لم تُفلح في إثارة اهتمامه، فكان تفكيره كله مشغولاً بهذا المشهد الرهيب الذي حضره قبل لحظة. ثم إنه كان يختنق، بخاصة، من شدة الحر.

في ساحة صغيرة، وفي ظل الأشجار، رأى طالبين واقفين قرب بائع مثلجات متنقل؛ كان أحدهما قد جرع كأسه وأخذ يلحس ملعقة القرن. وأخذ الآخر يرصد حركات التاجر المنهمك بملء الكأس التي في يده بالعصير المثلج المائل إلى الصفرة.

سأل نيكليودوف الحوذي، وقد أحس بالعطش الشديد:

- أتعرف مكاناً قريباً من هنا يمكن أن نشرب فيه شيئاً؟

أجاب الحوذي:

— على بعد خطوتين حانة ممتازة.

انعطف الحوذي عند زاوية الشارع واقتاد نيكليودوف إلى منزل تُزيّنه لافتة كبيرة.

كان صاحب الحانة واقفاً قرب مكتبه، لا يرتدي سوى قميصه، ومعه خادمان يرتديان وزرتين وسختين؛ وبعد أن تفحصوا بفضول هذا الزبون المجهول، عرضوا عليه خدماتهم. طلب نيكليودوف ماء معدنياً، وجلس في صدر القاعة، أمام منضدة عليها غطاء ملطّخ بالشحم.

وإلى طاولة مجاورة، جلس رجلان يشربان الشاي. كان أحدهما أسمر، قصيراً وسميناً، له قذال سمين مغطّى بالشعر الأسود، كقذال إغناتي نيكيفوروفيتش. هذا الشبه ذكر نيكليودوف، مرة أخرى، بحديثه، عشية البارحة، وبرغبته في لقاء صهره وأخته قبل سفره. وسأل نفسه: وماذا لو ذهبت؟ كلا، سيفوتني القطار! الأفضل أن أكتب إليهما!« وطلب ريشة حبراً وورقاً، وأخذ يفكر فيما سيكتبه، وهو يجرع بجرعات صغيرة الماء البارد والفوّار. لكن أفكاره تشوّشت، دون أن يتمكن من العثور على جملة.

وبدا: «ناتاشا العزيزة، لا أستطيع أن أتركك وأنا مُثقل بالانطباع المؤلم الذي خلفه حديثي أمس مع «إغناتي نيكيفوروفيتش...». لكن ماذا يقول بعد ذلك؟ أيسألها الصفح عن أقواله أمس؟ هذه الأقوال

كانت تعبيراً عن فكرته، وقد يعتقد صهره أنه تراجع عنها. ثم، إن هناك، في الحقيقة، هذه الطريقة للتدخل في شؤونه! لا، يستحيل عليه أن يكتب! وإذا أحس نيكليودوف، من جديد، بانبعاث كرهه لهذا الغريب العاجز عن فهمه، وضع الرسالة التي بدأها في جيبيه، ودفع الحساب، وعاد إلى عربته ليلحق بالقافلة.

كان الحر شديداً، وكأنما كان بلاط الشارع وجدران البيوت تنفث لفحات محرقة. وحين وضع نيكليودوف يده على حافة العربة أحس بمثل كي النار.

كان الجواد يجر نفسه بخطا ثقيلة على البلاط المغبر؛ ورواد النعاس الحوذي. حتى نيكليودوف نفسه الذي أرهقه الحر، كان ينظر أمامه، دون أن يفكر في شيء. وعند منعطف الشارع، مقابل باب للعربات، شاهد جماعة من الناس بينها جندي، بندقيته تحت ذراعه. فأمر الحوذي بالوقوف.

سأل بواب المنزل:

— ماذا حدث؟

— هذا أحد السجناء!

بعد أن نزل نيكليودوف من العربة، اقترب من الجماعة. كان ثمة رجل قصير، أحمر الوجه، أصهب اللحية، يرقد على حجارة الشارع غير المستوية، بحذاء الرصيف، وقدماه أعلى من رأسه. كان ممدداً على ظهره، وراحته مفتوحتان، وهو يرفع صدره العريض رفعاً متقطعاً

عنيفاً، ناظراً إلى السماء بعينين جامدتين، محنقتين بالدم. ومن حوله وقف شرطي بدا لاهم عليه، وحمّال، وحوذي بريد، ووكيل في دكان، وعجوز تحمل مظلة، وصبي بيده سلة فارغة.

قال الوكيل ساخطاً، وهو يلتفت إلى نيكليودوف:

— لقد أضعفوههم بالسجن، وها هم الآن يسوقونهم في وهج الحر!

وأبدت العجوز رأيها بصوت شاك:

— سموت، بكل تأكيد.

صاح حوذي البريد:

— لنكشف عن صدره، بسرعة!

أخذ الشرطي يحل الشريط الذي يشد القميص، بأصابعه الشخينة المرتجفة. كان منفعلاً ومنزعجاً، إلا أنه رأى من الضروري أن يؤنب الحضور:

— هيا، امضوا! ماذا تفعلون هنا؟ أأنتم تمنعون الهواء من الوصول إلى هنا.

تابع الوكيل. وقد سرّه أن يظهر معرفته بالنظام:

— الطيب مكلف أن يستعرضهم جميعاً قبل مغادرة السجن، ويجب أن يوضع المرضى في العربات! وها هم يجبرونه على قطع الطريق مشياً على قدميه!

انتصب الشرطي الذي فرغ من الكشف عن صدر السجين، ونقل عينيه حوله. وقال وهو يلتفت إلى الجندي، وكأنما كان يطلب موافقته:

— قلتُ لكم: امضوا هذا لا يهتمكم، وأنتم لا تستطيعون شيئاً.

لكن الجندي ظل بعيداً عنهم، ينظر إلى حذائه، وكأنه لا يكثرث لعصبية الشرطي.

صاحت من الجماعة أصوات كانت لا تني تتزايد:

— والذين يهتمهم الأمر لا يقومون بواجبهم. أفي القانون أن يُترك الناس ليهلكوا؟

— هو سجين، نعم، لكنه يظل إنساناً.

فنصح نيكليودوف:

— ارفعوا رأسه واسقوه شيئاً من الماء.

أجاب الشرطي:

— أرسلتُ مَنْ يُحضر الماء.

ورفع السجين بذراعيه، واستطاع بعد جهد أن يسند رأسه على حافة الرصيف.

صرخ فجأة صوت آمر، قوي:

— ما معنى ذلك؟

وشوهد مفوّض شرطة يرتدي بزة ناصعة البياض، ويحتذي جزمة
ملمّعة تلميعاً شديداً، يُهرع وهو بادي الغضب، ويصيح بالجمهور،
وحتى قبل أن يرى ما يجري:

— امضوا من هنا، وعلى الفور!

وعندما لمح السجين التعس، مضطجعاً على الحجارة، أوماً يرأسه
وكأنه يريد أن يقول: إنه قد رأى كثيرين غيره، ثم خاطب الشرطي
فسأله كيف وقع الحادث. فروى الشرطي أن السجين سقط أثناء مرور
القافلة، وأن الضابط أمر بتركه هنا.

— حسناً! هذا كل شيء! يجب أن يُنقل إلى مركز الشرطة. أحضروا
عربة!

وافق الشرطي وهو يرفع يده إلى عمرته:

— في الحال، ريثما يصل البواب!

ثم عاد الوكيل ليتحدث عن الحر.

فثار مفوّض الشرطة ورماه بنظرة صارمة أسكته

— وما شأنك أنت؟ امض في طريقك!

ألح نيكليودوف:

— يجب أن يُسقى ماء.

فرماه المفوض أيضاً بنظرة صارمة، لكنه عندما رآه رجلاً حسن

المظهر، لم يجرؤ على الاعتراض. وعندما عاد البواب بسطل ماء، أمر المفوض الشرطي رأس المسكين وحاول جاهداً أن يسكب له الماء في فمه، لكن المحتضر رفض أن يبلع الماء الذي سال على لحيته، مبللاً سترته وقميصه المغطى بالغبار.

أمره الضابط:

— صبّ الماء على رأسه!

نزع الشرطي قبعة السجين، وصب السطل على جمجمته الصلعاء، التي يُحيط بها شعر كثيف أصهب. توسعت عينا المسكين كالمرعوب، لكن جسده ظل جامداً. وسال الماء الممتزج بالغبار على طول وجهه. لكن فمه لم يكف عن إطلاق الزفرات المتوجعة، وفجأة، هزّته رعشة قوية من قدميه إلى رأسه.

صاح المفوض وهو يشير إلى عربة نيكليودوف:

— ها هي ذي عربة، فليوضع فيها! هيه اقترب، أنت!

أجاب الحوذي:

— أنا، لست حراً.

فأوضح نيكليودوف:

— هذه عربتي!

وأضاف مخاطباً الحوذي:

- لكنك تستطيع حمله. سأدفع الأجرة كاملة.

- هيا، أسرع!

حمل الشرطي والبواب والجندي المحتضر إلى العربية، وأجلسوه على الوسائد. كان عاجزاً عن الجلوس، فانقلب رأسه إلى الخلف، وانهار جسده على المقعد.

أمر الضابط:

- مدّوه.

فأعلن الشرطي:

- اطمئن، يا صاحب السيادة، سأرافقه بنفسي.

وجلس في العربية، وأمسك بالسجين من تحت ذراعيه، بينما كان الجندي يمدد له ساقيه.

أبصر المفوّض على بلاط الشارع قبعة السجين، فلمّها وغطى بها رأسه المبلل الذي كان لا يني يسقط من كتف إلى كتف.

أمر الضابط:

- سرّ!

ضرب الحوذي جواده بالسوط، وعاد أدرجه باتجاه مركز الشرطة، وبصحبه الجندي. كان الشرطي، في العربية، يحاول عبثاً أن يقوم رأس السجين. وسار نيكليودوف في أثر العربية ماشياً على قدميه.

x x x

ما إن توقفت العربّة أمام مركز الشرطة، حتى أحاط بها عدد كبير من رجال الشرطة، وأمسكوا بالسجين الذي مات أثناء الطريق، من ذراعيه وساقيه. وعندما وصل نيكليودوف، بعد عشر دقائق، كانوا مشغولين بحمل الجثة إلى المشفى.

كان المشفى غرفة صغيرة قدرة، فيها أربعة أسرة على اثنين منهما استلقى مريضان: مسلول ورجل عصب رأسه وعنقه. وُضع الميت على أحد السريرين الفارغين. فاقرب منه بسرعة رجل قصير، عيناه تلتمعان وحاجباه في حركة دائمة، وفحص الميت، ثم فحص نيكليودوف، وانفجر ضاحكاً. كان هذا الرجل مجنوناً احتُفظ به هنا ريثما يُنقل إلى المستشفى.

قال مقهقهاً:

- إنهم يريدون أن يخوّفوني، لكنهم لن يفلحوا!

بعد لحظة، رأى نيكليودوف مفوضاً وممرضاً يدخلان. اقرب الممرض من السرير، وتناول اليد الشاحبة، التي ماتزال دافئة ورخوة ورفعها وتركها تسقط.

وأعلن وهو يومئ برأسه:

- لقد انتهى.

لكن ذلك لم يمنعه من تطبيق النظام، فكشف عن صدره الذي مايزال مبللاً، وألصق أذنه. صمت الجميع. وانتصب الممرض وهو يومئ من جديد برأسه، وأغلق جفني الميت على عينيه الزرقاوين.

كان المجنون يكرر في هذه الأثناء، وهو ييصق على الأرض:

- لن تخوّفوني، لا، لن تخوّفون!

أعلن الممرض:

- يجب أن يُنقل إلى قاعة الموتى.

أمر الضابط:

- ليُنقل إلى معرض الجثث.

وقال للجندي الذي ظل واقفاً قرب الوديفة التي عُهدت إليه حراستها.

- وأنت، اذهب إلى المكتب لتسجّل تقريرك.

حمل أربعة من رجال الشرطة الميت إلى الطابق الأرضي، وأوشك نيكليودوف أن يتبعهم، عندما أوقفه المجنون:

- لست متواطئاً معهم، أليس كذلك؟ إذاً، أعطني سيجارة!

أعطاه نيكليودوف سيجارة، وأخذ المجنون يقصّ عليه، وهو لا يكف عن تحريك حاجبيه، أخبار الإضطهادات التي أنزلوها به:

- هم جميعاً عليّ، وهم يعذبونني ليلاً ونهاراً، عن طريق وسطائهم!

قال نيكليودوف:

- إعذرني.

وخرج من الغرفة، دون أن ينتظر الجواب، وهو يرغب في أن يرى ما سيفعلونه بالجثة.

عبر رجال الشرطة الفناء كله، ووقفوا أمام باب القبو. أراد نيكليودوف اللحاق بهم. لكن المفوّض منعه من ذلك قائلاً له:

- ماذا تطلب؟

أجاب نيكليودوف:

- لا شيء.

- حسناً! انصرف!

عاد نيكليودوف أدراجه. وعندما وصل إلى العربة وجد الحوذي نائماً، فأيقظه وأمره أن يذهب إلى المحطة. لكنه التقى، على مائة خطوة، عربة أخرى يرافقها جندي من جنود القافلة يحمل بندقيّة؛

وعلى هذه العربة مُدّد سجين آخر، ميت. كان يرقد على ظهره، وقد انزلقت قبعته حتى أنفه. وكان رأسه الحليق، ذو اللحية الصغيرة السوداء يهتز عند كل خطوة، مع رجّات العربة. وكان سائق العربة، بجزمته الضخمة، يقود العربة، وهو يمشي بحذاء الجواد. وخلف العربة كان يسير شرطي. لمس نيكليودوف كتف الحوذي.

قال الحوذي وهو يوقف جواده:

— ماذا يفعل هؤلاء يا ترى؟

نزل نيكليودوف من العربة، وتبع سائق العربة الأخرى، ومرّ من جديد أمام أحد حراس الإطفاء، ودخل فناء القسم من جديد. كان رجال الإطفاء قد فرغوا من تنظيف عرباتهم. وفي مكانها بالذات، أخذ نقيب طويل، بارز العظام، على عمرته شريط، ويداه في جيبه، يفحص بإمعان جواداً ضخماً، أغبس، عريض العنق، كان أحد رجال الإطفاء يمرّره أمامه. كان الجواد يطلع من ساقه الأمامية، وكان النقيب يكلم بامتعاض الطبيب البيطري الذي وقف بجنبه.

كان ضابط الشرطة حاضراً أيضاً. وعندما رأى الجثة الثانية، اقترب من سائق العربة، وسأله وهو يومئ برأسه إيماءة الإستياء:

— أين وجدتموه؟

أجاب الشرطي:

— في شارع غورباتوفسكايا.

سأل نقيب الإطفاء:

- أهو أحد السجناء؟

- أجاب نقيب الشرطة:

- طبعاً! ماهذا النظام! وماهذا الحر!

والتفت نقيب الإطفاء إلى الرجل الذي كاد يقود الجواد الضالع،
وصرخ به:

- ضعه في الإسطبل الذي في الزاوية! سأعلمك، يا بن الكلب،
كيف تعطلّ خيلاً هي أغلى ثمناً منك! أيها التافه!

وصنع بهذه الجثة مثلما صنع بالأولى، فنقلها أربعة من رجال
الشرطة إلى المشفى، ولحق بهم نيكليودوف كالمنوم.

سأله أحد رجال الشرطة:

- ماذا تبغي؟

فمضى نيكليودوف إلى حيث حملوا الميت، دون أن يجيب.

كان المجنون جالساً على سريره، يدخن بنهم السيجارة التي
أعطاه إياه نيكليودوف. وقال له:

- آه! لقد عدت؟

وتهلّل فرحاً، لكنه كثر عندما رأى الميت، وقال لنيكليودوف وهو يتسم ابتسامة المستفهم:

— ميت آخر! إنهم يضايقونني، في نهاية الأمر! فأنا لست طفلاً، أليس كذلك؟

نظر نيكليودوف إلى الميت الذي لم يعد يُخفيه عنه شيء، والذي لم يعد وجهه مغطى بالقبعة. وبقدر ما كان السجين الآخر بشعاً، كان هذا جميل الوجه والجسم. كان رجلاً في ذروة تفتّح قواه. وبالرغم من رأسه الخلق نصفياً، كان جبينه القوي الذي يعلو عينيه السوداوين الفاقدين للحياة الآن، جميلاً جداً، وكذلك أنفه الصغير، الدقيق، المقوّس، الذي يعلو شارباً نحيفاً أسود. ولقد تغصّنت شفتاه المزرقتان في ابتسامة؛ ولم تظلل لحيته الصغيرة سوى الجزء الأسفل من الوجه؛ وعلى الجانب الخلق من رأسه بدت أذن صغيرة، نحيفة وصلبة. وكان تعبير وجهه هادئاً، صارماً وطيباً. لم يكن هذا الوجه يشهد بإمكانات حياة أخلاقية أهدرت في هذا الرجل، بل إن مفاصل يديه الناعمة، ومفاصل رجليه الثقلتين بالحديد، وتناسق المجموع، وقوة أعضائه، كل ذلك كان يُظهر أي حيوان بشري قوي وجميل وحاذق كان هذا الرجل، حيوان أعظم كمالاً في نوعه بما لا يُقاس من ذلك الجواد الأغبس الذي أثار جرحه بشدة نقيب الإطفائيين. بيد أنه قُتل ولم يأسف عليه أحد، لا كإنسان بل كما يؤسف على حيوان للركوب. هلك ولم يفد منه أحد. لم يُثر هذا الموت لدى جميع الناس سوى الإحساس بالغيب الذي ولّده الارتباك من أجل إزاحة هذا الجسم الذي أخذ يُنذر بالتحلّل. دخل القاعة الطبيب، والجراح المساعد، ومفوض الشرطة. كان الطبيب، رجلاً سميناً وقصيراً، يرتدي سترة من الحرير

الهندي وبنطالاً من القماش نفسه، ضيقاً يلفّ ساقيه القويّتي العضل لفاً. وكان مفوّض الشرطة قصيراً، ضخماً، له وجه منتفخ أحمر، يغدو أكثر تدويراً بالعادة التي تعودها وهي أن يملأ وجنتيه بالهواء ثم يفرغه ببطء. جلس الطبيب على حافة السرير الذي مُدّد عليه الميت، وجس النبض كما فعل قبل قليل الجراح المساعد، وتسمّع إلى قلبه، ثم نهض ورفع بنطاله، وقال:

— لا يمكن أن يموت الإنسان أكثر من ذلك!

ملأ المفوض وجنتيه بالهواء ونفخه ببطء، وسأل جندي القافلة:

— من أي سجن؟

رد عليه الجندي وأبدى قلقه تجاه القيد الذي يقيد رجلي الميت.

قال المفوض وهو ينفخ وجنتيه مرة أخرى، ثم يتقدم نحو الباب وينفث الهواء ببطء:

— سامر برفعه. الحمد لله أن لدينا حدّادين!

سأل نيكليودوف الطبيب:

— وكيف يحدث ذلك؟

— كيف؟ ماذا؟ لماذا يموت الإنسان بضربة شمس؟ الأمر بسيط جداً: إنهم يُحبسون طوال الشتاء بلا حركة ولا ضوء، ثم يُساقون في جماعة، وعند ذاك، تأتي ضربة الشمس...

— إذاً لماذا يرسلونهم؟

— آه! اسألهم هم عن ذلك. لكن، عفواً، مَنْ أنت؟

— غريب.

قال الطبيب، وهو يسحب بنطاله بامتعاظ، ويقترب من أسرة المريض:

— آه! آه! تحياتي؟... ليس لدي وقت!

وسأل الرجل الشاحب، ذا الفم المتلوي والعنق المعصوبة.

— وأنت، كيف حالك؟

في هذه الأثناء، كفّ المجنون الجالس على سريرهِ عن التدخين، وأخذ ييصق باتجاه الطبيب.

هبط نيكليودوف إلى الفناء، وخرج وهو يمر أمام جياذ رجال الإطفاء والدجاج والحراس بالخنوذة النحاسية. وصعد إلى عربته وأيقظ حوزيه الذي أغفى من جديد، واتجه إلى المحطة.

× × ×

عندما وصل نيكليودوف إلى المحطة، كان جميع السجناء قد استقروا في عربات القطار التي أُغلقت نوافذها بشبكات حديدية. وعلى الرصيف وقف نحو عشرون شخصاً جاؤوا يودعون ذويهم أو أصدقاءهم؛ وكانوا ينتظرون السماح لهم بالإقتراب من العربات.

كان حُرَّاس القافلة يركضون في كل الاتجاهات، وقد بدا عليهم الإنهماك، ففي الطريق عبر المدينة، مات خمسة سجناء من شدة الحرب: هلك ثلاثة في الطريق، والآخرون في المحطة^(٤١). لكن انهماك الحراس كان لشيء آخر؛ لقد انشغلوا بإجراء الشكليات التي تقتضيها الأنظمة في مثل هذا الظرف. كان يجب تسليم هؤلاء الموتى إلى السلطات المختصة، وعزل الأشياء التي تخصّهم، ومحو أسمائهم من جداول السجناء المسوقين إلى "نيجني نوفغورود" لقد سبّب لهم ذلك كثيراً من الارتباك الذي زاد من شدته الحر القاتل. ولذلك كانوا

٤١ - مات خمسة سجناء، في موسكو، في بداية سنوات ١٨٨٠، من شدة الحر، أثناء طريقهم من سجن «بوتيجرسك» إلى محطة «نيجني نوفغورود». (ملاحظة من المؤلف)

يَجْرُونَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِمُ الْإِنْهَامُ، كَمَا قَرَرُوا أَلَّا يَدْعُوا أَحَدًا يَقْرُبُ الْعَرَبَاتِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ كُلُّ شَيْءٍ حَسَبَ الْأُصُولِ. بَيَدُ أَنْ نِيكَلِيدُودُوفُ حَصَلَ عَلَى الْإِذْنِ بِالِاقْتِرَابِ مِنَ الْعَرَبَةِ، بِفَضْلِ الرُّوْبُلِ الَّذِي دَسَّهَ فِي يَدِ أَحَدِ ضَبَاطِ الصَّفِّ الْمُرَافِقِينَ لِلْقَافِلَةِ. لَكِنْ هَذَا الرَّجُلُ طَلَبَ مِنْهُ أَلَّا يَبْقَى طَوِيلًا، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَثِيرَ انْتِبَاهَ رَئِيسِ الْقَافِلَةِ.

كَانَ الْقَطَارُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ عَرَبَةً مَكْتَنَّةً بِالسَّجْنَاءِ، مَاعِدَا الْعَرَبَةَ الْمَخْصَصَةَ لِلضَّبَاطِ. سَمِعَ نِيكَلِيدُودُوفُ، عِنْدَ مَرُورِهِ أَمَامِ النَوَافِذِ، قَعْقَعَةَ السَّلَاسِلِ، وَمَخَاصِمَاتِ، وَأَحَادِيثَ مَمْزُوجَةٍ بِالْكَلَامِ الْبَذِيِّ. لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا عَنِ الرِّفَاقِ الَّذِي سَقَطُوا فِي الطَّرِيقِ. كَانَ النِّزَاعُ يَدُورُ فَقَطْ حَوْلَ الْأَكْيَاسِ، وَاخْتِيَارِ الْأَمَاكِنِ، وَإِمْكَانِ الْعَثُورِ عَلَى مَاءِ الشَّرْبِ. أَلْقَى نِيكَلِيدُودُوفُ نَظْرَةً خَاطِفَةً إِلَى الدَّخْلِ، فَشَاهَدَ حَارَسِينَ وَاقِفِينَ فِي الْمَمَرِ الْمَرْكَزِيِّ، يَخْلَصَانِ السَّجْنَاءَ مِنْ قِيودِهِمْ. كَانَ السَّجْنَاءُ يَمْدُونُ مَعَاصِمَهُمْ، كُلُّ بَدْوَرِهِ، فَيَفْتَحُ أَحَدُ الْحَارَسِينَ الْقِفْلَ الَّذِي يُغْلِقُ الْقَيْدَ، وَيَرْفَعُ الْحَارِسَ الْآخَرَ الْقَيْدَ وَيَحْمِلُهُ مَعَهُ.

بَعْدَ الْعَرَبَاتِ الْمَخْصَصَةِ لِلرِّجَالِ، وَصَلَ نِيكَلِيدُودُوفُ إِلَى عَرَبَتَيْنِ حُبِسَتْ فِيهِمَا النِّسَاءُ. وَفِي الْعَرَبَةِ الْأُولَى مِنْهُمَا، سَمِعَ صَوْتًا مَبْحُوحًا يَثْنُ أُنَيْنًا رَتِيبَ الْإِيْقَاعِ.

— اَوْه! يَا إِلَهِي! اَوْه! يَا إِلَهِي!

قَالَ ضَبَاطُ الصَّفِّ، إِنْ مَاسِلُوفَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي الْعَرَبَةِ الثَّالِثَةِ. لَمْ يَكِدْ نِيكَلِيدُودُوفُ يَقْتَرِبُ مِنَ النَّافِذَةِ حَتَّى أَحْسَسَ بِرَائِحَةِ الْعَرَقِ الْكَرِيهَةِ تَسْتَقْبِلُهُ وَتَجْرَهُ عَلَى أَنْ يَلْوِي رَأْسَهُ، لِحِظَةٍ مِنَ الزَّمَنِ. كَانَتْ الْعَرَبَةُ

تضجّ بالأصوات الصارخة والحادة. وكانت النساء جالسات، على جميع المقاعد، مكشوفات الرؤوس، محلولات الستر، قد احمرّت وجوههنّ وبلّ لها العرق: كنّ يثرثرن وهنّ يتصايحن، ويأتين بمختلف الحركات. وسرعان ما استرعى انتباههن اقتراب نيكليودوف. فمّن كنّ جالسات قرب النافذة سكتن فجأة، ثم دعونّ ماسلوف التي كانت في الجهة الأخرى من العربة، قرب فيدوسيا، شاحبة لكن مبتسمة. وما إن رأت ماسلوف نيكليودوف حتى نهضت، وأعدت إلى شعرها الأسود الخمار الذي رفعته، وركضت إلى النافذة التي أمسكت بقضبانها الحديدية الضخمة.

فهمت وقد بدا عليها الفرح:

— ما أشدّ هذا الحرّ!

— هل تسلّمت الحاجات التي أرسلتها؟

— نعم، أشكرك.

سألها نيكليودوف وقد أنهكه الحرّ المرعب الآتي من العربة:

— ألسنّ بحاجة إلى شيء؟

— لا شكراً، لسنّ بحاجة إلى شيء.

همست فيدوسيا باستحياء:

— أسألي إن كان يمكن الحصول على ماء للشرب؟

فرددت ماسلوفاً:

— آه! نعم، ليتنا نحصل على ماء للشرب.

— ألم يعطوكم ماء.

— بلى، أعطونا إبريقاً مملوءاً، لكننا شربناه كله.

فوعدها نيكليودوف:

— سأكلّم الحارس بذلك، بعد قليل. أما الآن فلن نلتقي إلا في

نوفغورود...

فهمت ماسلوفاً، متظاهرة بأنها لا تعرف شيئاً من ذلك:

— أنت ذاهب إلى هناك أيضاً؟

وحذقت في نيكليودوف بفرح عميق.

— نعم، سأسافر في القطار القادم.

تنهدت ماسلوفاً وهي تغضّ بصرها، دون أن تجيب.

سألته إحدى السجينات، وهي فلاحه قديمة، بارزة الملامح:

— أصحيح، أيها النبيل، أن اثني عشر سجيناً ماتوا في الطريق.

أجاب نيكليودوف:

— لم أسمع أن اثني عشر سجيناً ماتوا، لكنني رأيت اثنين من

السجناء يُحملان.

— سمعنا مَنْ يؤكد أن الموتى اثنا عشر سجيناً. ألن يرد أحد على

هؤلاء الجلّادين؟

استخبر نيكليودوف:

- بين النساء، ألم تقع حوادث؟

قالت إحدى السجينات مازحة:

- إن حياتنا، نحن النساء، أشد خشونة.

وأضافت وهي تشير بإصبعها إلى عربة مجاورة.

- تصوّر أن سجينة خطر لها أن تضع هنا. اصغ، أسمع أيتها؟

قالت ماسلوفاً وهي تحاول جاهدة كتم ابتسامتها الفرحية:

- سألتني إن كنتُ أحتاج إلى شيء. لا تهتم بتأمين الماء لنا، لكن،

لعلك تطلب إلى رؤساء القافلة أن يعملوا على نقل هذه المسكينة إلى المستشفى. لأنها ستموت حتماً إذا أُجبرت على متابعة الطريق.

- سأحدثهم في ذلك.

ابتعد نيكليودوف مُخْلِياً المكان لزوج فيدوسيا الذي سُمح له أخيراً بالاقتراب من العربة. واضطّر نيكليودوف أن يجري طويلاً على الرصيف دون أن يجد من يتوجّه إليه. وبدأ الحراس أكثر حركة من ذي قبل. فبعضهم كان يضع السجناء في أماكنهم، وبعضهم كان يشتري مؤن الطريق أو يرتّب متاعه في العربة؛ ومنهم مَنْ كان يسارع وراء امرأة، هي امرأة أحد الضباط، وقد استعدّت للسفر مع زوجها. ولم يكن بينهم من يجد وقتاً للإصغاء إلى نيكليودوف.

دقّ الجرس الدقة الثانية، عندما شاهد نيكليودوف أخيراً رئيس القافلة. كان الضابط الضخم يُصدر أوامره إلى مساعد من المساعدين، وهو يمسح العرق عن جبينه.

سأل نيكليودوف:

— أنت بحاجة إلى شيء؟

— في إحدى العربات امرأة تلد. وقد خطر لي...

صاح الضابط وهو يركض بساقيه القصيرتين، الضخمتين:

— تلد؟ جيد جداً، دعها تفعل!

في اللحظة نفسها، وضع سائق القطار الصافرة بين شفتيه. وتلا الصفرة قرع الجرس الأخير، وتعالّت من العربات ومن الرصيف صرخات وداع قوية. ورأى نيكليودوف العربات الثقيلة تمرّ أمامه، واحدة بعد الأخرى، وبين قضبان نوافذها ازدحمت رؤوس السجناء الحليقة. ثم ظهرت عربة النساء الأولى، ثم الثانية، ثم التي كانت فيها ماسلوف. كانت المرأة الشابة واقفة أمام النافذة. فرمت نيكليودوف بنظرة أخيرة تصحبها ابتسامة حزينة تأثر بها كثيراً.

× × ×

كان على نيكليودوف أن ينتظر ساعتين حتى يحين موعد القطار الذي سيقلّه إلى «نيجني نوفغورود». وخطر له أن يستغل هذا الوقت ليزور أخته. لكن انطباعات الصباح قد أتعبه كثيراً حتى أحس بأنه لا يقوى على الحركة. فدخل قاعة الإنتظار، وجلس على مقعد، ولم تمض لحظة حتى غفا، ورأسه مستند إلى محدة.

أيقظه خادم بخلعته الرسمية، وفي عروة سترته رقم، وفي يده محفظة:

- يا سيدي! يا سيدي! ألسنَ الأمير نيكليودوف؟ ثمة سيدة تبحث عنك.

وثب نيكليودوف، وفرك عينيه، وتذكر أين هو، كما تذكر كل ما وقع له في الصباح.

في ذكرياته، رأى قافلة السجناء، والميتين، والعربات ذات النوافذ المشبكة، والنساء المحبوسات فيها، وبينهن امرأة تتوجع أوجاع الولادة، وما من معين لها؛ وامرأة أخرى ابتسمت له بحزن من وراء القضبان.

أما المشهد الذي رآه أمامه فكان مختلفاً جداً عن هذه الذكريات: رأى طاولة مثقلة بالزجاجات، والآنية، والشمعدانات، والزهور؛ وحول الطاولة خدم بخلعهم الرسمية ينامون، وفي صدر القاعة، أمام مكتب مغطى أيضاً بالزجاجات، وقف، مسافرون أداروا له ظهورهم ليشتروا مؤناً.

عندما صحا من غفوته، لاحظ أن جميع الأشخاص الجالسين في القاعة، كانوا ينظرون بفضول إلى شيء يجري أمام باب المدخل. وإذا التفت إلى هذه الجهة، رأى جماعة من الرجال يحملون على كرسي سيدة ملفوفة بأخمرة.

كان أول الحاملين خادماً تذكر نيكليودوف على الفور أنه رآه من قبل، كما عرف الشخص الذي كان يمشي خلف الكرسي، وهو بواب بخلعة رسمية، وعلى رأسه قبعة مزدانة بأشرطة. وقرب الكرسي وقفت وصيفة أنيقة، تحمل حقيبة سفر، شيئاً مدوراً في قراب من الجلد وعدة مظلات. وفي الجهة الأخرى، شاهد نيكليودوف الأمير العجوز كورتشاغن، بلباس السفر، وبشفتيه الغليظتين، ورقبة المصاب بالسكنة. وكانت ميسي هنا أيضاً، وكذلك دبلوماسي شاب يعرفه نيكليودوف جيداً، والكونت أوستن، برقبته الطويلة التي لا نهاية لها، وبوجهه الدائم الابتسام. كان أوستن يحدث ميسي التي بدت مستمتعة بنكاته. رأى نيكليودوف أيضاً الطبيب يدخن سيجارة بمظهره المألوف، مظهر الرجل السيء المزاج.

هذا الموكب المهيّب كان يجتاز القاعة الكبرى متجهاً إلى الصالة

الصغرى المخصصة للسيدات، فأثار في طريقه فضولاً ممتزجاً بالاحترام. بيد أن الأمير عاد يعد لحظة إلى القاعة الكبرى، وجلس إلى طاولة، ونادى الخادم، وألقى إليه بأوامره. ثم جاء أوستن وميسي بدورهما، وذهبا ليجلسا، عندما شاهدت ميسي عند المدخل سيده من معارفها فهزعت إلى لقاءها.

كانت السيدة ناتاليا ايفانوفنا، أخت نيكليودوف. كانت تسير بصحبة اغرافينا بيتروفنا، وتنقل بصرها في كل الاتجاهات. باحثة عن شخص ما. فرأت أخاها وميسي في آن واحد. وحين اقترب نيكليودوف منها، قالت له، بعد أن شددت على يد الفتاة:

— وأخيراً وجدتك! كدتُ أياس من لقاءك!

صافح نيكليودوف ميسي وأوستن، وعانق أخته، وأخذوا يتحدثون. روت ميسي أن بيتهم في الريف احترق، مما اضطرهم إلى قضاء عدة أسابيع عند عمه لها تقيم على خط نيغني نوفغورود. فروى أوستن بفرح، في هذه المناسبة، قصة حريق. التفت نيكليودوف إلى أخته، دون أن يصغي إليه، وهتف:

— ما أعظم سعادتي بمجيئك!

قالت:

— أنا أبحث عنك، منذ ساعتين، لقد فتشنا المدينة بأسرها، أنا وأغرافينا بيتروفنا، فلم نعرث عليك.

وأومات بحركة من رأسها إلى المربية الضخمة التي كانت ترتدي معطفاً واقياً، وقبعة مشجرة، وتقف بتواضع على حدة، لكي لا تعوق الحديث بينهما.

وردد

— تصوّري أنني نمتُ هنا، على مقعد. ما أعظم سعادتي بجيئك!
كنت بدأت رسالة لك.

فسألت وهي بادية القلق:

— حقاً؟ وماذا كتبتَ لي؟

وإذ رأت ميسي أن الأخ والأخت بدأ حديثاً خاصاً، رأت من واجبها أن تتعد هي وفارسها. قاد نيكليودوف أخته إلى النافذة، وجلسا على مقعد صغير من المخمل الأخضر ووضعتُ عليه حقيبة وغطاء للسفر وكرتون قبعات.

اعترف نيكليودوف:

— نعم، خَطَر بيالي أمس، وأنا خارج من عندكم، أن أعود أدراجي لأقدم اعتذاري لزوجك. لكنني خفتُ أن يحمل زوجك ذلك محملاً سيئاً. كنتُ فظاً البارحة، وهذا يقض مضجعي.

فهمتُ ناتاليا ايفانوفنا:

— كنتُ أعلم، كنت واثقة أنك لم تكن سيء النية. أنت تعلم أن....

واستبقت الدموع إلى عينيها، فضغطت بحرارة على يد أخيها،
وفهم نيكليودوف على الفور معنى الجملة التي لم تُتمّها. أرادت أن
تقول إنها وإن أحبّت زوجها فوق كل شيء في العالم، تحبّ أخاها،
وكل انقسام بينهما يؤلمها.

فهتف نيكليودوف وقد تذكر فجأة السجينين الميتين:

— أشكرك. آه! لو كنت تعلمين ماذا رأيت اليوم! رجلين قتيلين،
يا ناتاشا!

— قتيلين، وكيف ذلك؟

— قتيلين، نعم، بالتأكيد. لقد عبروا بهم المدينة كلها، في هذا الحر،
فمات اثنان منهم بضربة شمس.

— اليوم؟ قبل قليل؟

— نعم، رأيت جثتيهما.

دُهِشت ناتاليا:

— لكن لماذا قتلوهما؟ مَنْ قتلهما!

— مَنْ قَتَلهما؟ قَتَلهما أولئك الذين أجبروهم على السير، في وهج
هذه الشمس.

قال نيكليودوف ذلك وقد احتاج لأنه أحسّ أن أخته ترى ذلك
بعينٍ مختلفة عن عينه.

تعجبت أغرافينا بيتروفنا التي لم تستطع أن تمنع نفسها من
الإستماع:

— يا إلهي، أممكّن هذا!

تابع نيكليودوف، وهو يحوّل تلقائياً نظره إلى الأمير العجوز
كورتشاغن الذي كان جالساً إلى طاولة، وفوطته في عنقه، أمام النبيذ
البارد، وكأنه لا يفكر في شيء آخر:

— ليس لدينا أدنى فكرة عمّا يكابده هؤلاء البائسون. بيد أن من
واجبنا الإستعلام عن ذلك!

وفجأة رفع الأمير العجوز رأسه فأبصر نيكليودوف، فصاح:

— نيكليودوف! ألا تريد أن تتبرّد؟ هذا ضروري للسفر!

شكره نيكليودوف بإيماءة من رأسه.

استفهمت ناتاليا أيفانوفنا:

— وماذا ستفعل أنت؟

— سأفعل ما بوسعي. أحس، على كل حال، أنني يجب أن أفعل
شيئاً. سأفعل ما بوسعي أن أفعله.

— نعم، نعم، فهمت.

وأردفت وهي تشير إلى آل كورتشاغن:

— هل انتهى كل شيء بينك وبينهم؟

— كل شيء، ودون أسفٍ، في تصوّري، لا منّي ولا منهم.
وسألته بحياء:

— خسارة! فأنا أحب ميسي كثيراً... بل ليس لدي ما أقوله...
لكن لماذا تريد أن تربط نفسك، لماذا تسافر؟
فأكّد نيكليودوف بلهجة رصينة، جافة جداً، وكأنه يريد أن يُنهي
الحديث.

— أسافر لأنني يجب أن أسافر!

وسرعان ما لام نفسه على هذا الموقف من أخته. وحدث نفسه:
«لماذا لا أقول لها كل ما أفكر فيه؟ أنا واثق من أن أغرافينا بيتروفا
تسمعنا، لكن ما قيمة ذلك! فلتسمعنا هي أيضاً!»
وهتف بصوت مرتعش:

— تقصدين مشروع زواجي بكاتيوشا. الحقيقة أنني وضعتُ هذا
المشروع منذ أول يوم لقيتها فيه. لكنها رفضت الزواج بي رفضاً باتاً.
وأبت تضحيتي. وهي تُؤثر أن تضحي بنفسها، لأن لهذا الزواج، في
وضعها الراهن، مزايا كثيرة. لكنني أنا لا أقبل أن تضحي بنفسها. وأنا
الآن أسافر معها؛ وسأذهب إلى حيث تذهب؛ وسأحاول أن أخفف
من قسوة مصيرها!

لم تجب ناتاليا اي فانوفنا بشيء، وأخذت المربية العجوز تنظر إلى
نيكليودوف طوراً وإلى أخته طوراً آخر، وهي تهز رأسها، وقد بدا
عليها الأسف.

في هذه اللحظة، خرج الموكب المثير من قاعة انتظار النساء: كان الخادم الجميل فيليب والبواب ذو القبعة المزدانة بالأشرطة يحملان الأميرة العجوز ليضعاهما في القطار. وعندما وصلت السيدة إلى وسط القاعة، أوقفت الحاملين، وأشارت إلى نيكليودوف أن يقترب منها، ومدّت إليه بخوف يدها البيضاء المحمّلة بالخواتم وكأنها تدعوه إلى مصافحتها بحذر.

وقالت وهي تنن:

— ما هذا الحر المخيف! إني لا أقوى على احتمالته. هذا الطقس يقتلني.

فلما أنهت شكواها من الطقس الروسي ومن صحتها، أشارت إلى الحاملين أن يستأنفا طريقهما. وقامت وهي تدير نحو نيكليودوف وجهها الطويل:

— تعال إلى زيارتنا في الريف، لا بد أن تأتي، أليس كذلك؟

سار نيكليودوف نحو الرصيف. كان موكب الأميرة يتجه إلى اليمين، نحو عربات الدرجة الأولى. ومضى نيكليودوف إلى الجهة الأخرى مع «تاراس» زوج فيدوسيا الذي يحمل كيسه على كتفه. وتبعهما خادم محمّل بمتاع نيكليودوف.

قال نيكليودوف لأخته وهو يشير إلى «تاراس» الذي حدّثها عن قصته:

— انظري، هذا رفيقي في الطريق.

ذهلت أخته عندما رآته يقف أمام عربة من عربات الدرجة الثالثة ويشير إلى الخادم أن ينقل إليها حقائبه، وقالت:

— كيف؟ أتريد أن تسافر في هذه؟

أجاب:

— بدون شك، هذه أمتع لي، ثم إني أحرص على رفقة هذا الإنسان الطيب.

واستأنف بعد لحظة صمتٍ:

— اسمعي، يا ناتاشا، أراضني في كوزمنسكوي، لم أهبها للفلاحين، وإذا ما متُّ فإنها ستؤول على أولادك.

فهمت ناتاليا:

— دميتري، أتوسل إليك، لا تكلمني في ذلك.

لكن نيكليودوف رأى في عينيها أن ما قاله لها قد ابتعث سرورها. في الطرف الآخر من القطار، تجمّع جمهور من الفضوليين أمام المقصورة التي دخلتها الأميرة كورتشاغين. في هذه الأثناء استقر جميع المسافرين في أماكنهم، إلا بعض المتخلفين الذين هرعوا إلى العربات وهم يوسعون الخطأ فوق درجات المرقاة؛ وأخذ السائقون يغلقون الأبواب. صعد نيكليودوف إلى العربة ووقف قرب النافذة.

ظلت ناتاليا ايفانوفنا واقفة على الرصيف، ومعها أغرافينا بيتروفنا. وإذا ضايقتها أن تكون هنا بزيتها الأنيقة، وبقبعتها التي هي من آخر طراز، أخذت تبحث بوضوح عن موضوع للحديث فلا تجده. لم تكن تستطيع أن تطلب من أخيها: «اكتب»، لأنهما طالما ضحكا من هذه الجملة المعتادة التي يرددها المسافرون. وفضلاً عن ذلك، فقد كان يبدو أن الحديث عن مسألة المال والإرث أجهز على ما بقي بينهما من

علاقات أخوية. أخذوا يحسان منذ الآن، نهائياً، أن كلا منهما غريب عن الآخر.

اغتنبت ناتاليا ايفانوفنا، في أعماق قلبها، عندما تحرك القطار واستطاعت أن تقول لأخيها، مع إيماءة من رأسها وابتسامة: "وداعاً، يا دميتري، وداعاً!".

وحين ابتعد القطار، لم تعد تفكر إلا في الطريقة التي ستروي بها لزوجها تفاصيل حديثها.

وكذلك نيكليودوف، فمع أنه لم يكن يشعر نحو أخته إلا بعواطفه كريمة، ومع أنه لم يكن عنده ما يخفيه عنها. غير أنه، أحس بالضيق. كان يستعجل الابتعاد، لشعوره أنه لم يبق شيء من تلك الأخت التي كانت شديدة القرب منه، فيما مضى، والتي لا يمكن أن تبدو له الآن سوى أمة لرجل يثير اشمئزازه. ولقد رأى بوضوح زائد كيف أن وجهها انتعش عندما حدثها في موضوعات تهم زوجها: تسليم الأراضي للفلاحين، إرثه. فملأ قلبه حزن عميق.

× × ×

كان الحر لا يُطاق في عربة الدرجة الثالثة المملأ بالمسافرين والمعرضة للشمس منذ الصباح، حتى إن نيكليودوف اضطر إلى النهوض والبقاء في الموقف الخارجي، مع أنه لم يكذب يجلس بعد. لكن الحرب كان خانقاً هنا أيضاً، ولم يستطع نيكليودوف أن يتنفس بملء رئتيه إلا عندما انتهى القطار من سيره بين البيوت، وبلغ هواء الحقول الطلق.

كان يقول في نفسه، وهو يتذكر حديثه مع أخته بشأن السجناء: "قَتَلَهُ، قَتَلَهُ!" ومن بين الانطباعات التي ساورتها منذ الصباح، انطباع واحد كان يلاحقه: كان يتذكر بدقة وشدة خارتين للعادة ذلك الوجه الجميل، وجه الميت الثاني بشفتيه الباسمتين وجهته الصارمة، وأذنه الصغيرة المغبونة بنحافة، والظاهرة في الجانب الخلق من رأسه.

وقال في نفسه: "لكن الفطيع، على الخصوص، أن هذين التعسين قُتِلَا، دون أن يعلم أحد من الذي قتلتهما. لقد سيقا إلى المحطة مثل سائر السجناء، بناء على أمر خطي من ماسيلينيكوف. لكن ماسيلينيكوف، بطبيعة الحال، اقتصر على إتمام إحدى الشكليات؛ إذ حُمِلت إليه ورقة كُتِبَتْ في الدواوين ليوَقَّعها. ولعل الغبي قد وقع

بالأحرف الأولى أجمل توقيع، دون أن يسأل عما فيها. وهو لن يقبل على الإطلاق أن يرى نفسه مسؤولاً عن الحوادث التي وقعت. ولسنا نستطيع أيضاً أن نضع هذه المسؤولية على عاتق طبيب السجن الذي استعرض السجناء قبل رحيلهم. لقد قام هذا بواجباته المهنية أدق قيام، فعزل المرضى وأركبهم في عربات، ولم يتوقع، بدون شك، أن يُسيّر السجناء، في الهاجرة، وفي مثل هذا الحر، بجماعات مترصة. أما المدير فلم يفعل شيئاً سوى أنه نفذ هو أيضاً أوامر رؤسائه. ذلك أنه سَفَر، في الموعد المحدد، عدداً معيناً من السجناء: كذا رجلاً وكذا امرأة. ومن المستحيل اتهام رئيس القافلة: لقد أمر بإحضار السجناء من ذلك الموضع وسوقهم إلى موضع آخر؛ هذا ما فعله كأحسن ما يستطيع. وقاد القافلة اليوم كما قادها آخر مرة. وهو لا يستطيع أن يتنبأ أيضاً أن رجالاً أشداء، أصحاء، مثل الرجلين اللذين رأيتُهما، لن يتحملوا التعب، وسيموتون في الطريق. ما من مُذنب مسؤول. ومع ذلك فقد قُتل هذان التعسان، قتلها هؤلاء الرجال أنفسهم الذين ليسوا بمذنبين، بمسؤولين عن موتهما!

وقال نيكليودوف في نفسه، بعد ذلك: "إن ذلك يأتي أيضاً من أن جميع هؤلاء الرجال والحكام والمديرين وضباط الأمن، ورجال الشرطة، يرون أن في الحياة أوضاعاً لا تكون فيها العلاقة المباشرة بين الإنسان والإنسان إجبارية. ذلك أن هؤلاء الرجال من ماسلنيكوف إلى رئيس القافلة، لو لم يكونوا موظفين لفكروا عشرين مرة في أن من غير الممكن تسيير هذه القافلة، في مثل هذا الحر، ولأوقفوا القافلة عشرين مرة في الطريق، إن رأوا سجيناً يتوجّع ويلهث من التعب، ولأخرجوا ذلك السجين من صفوف السجناء، ولسقوه ماء، ولأبدوا

عطفهم عليه، في حال إصابته. لكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل إنهم لم يسمحوا لغيرهم بأن يفعل ذلك، لأنهم لم يكونوا يرون أمامهم أناساً، وواجباتهم إزاء هؤلاء الناس، بل إنهم كانوا يرون فقط الخدمة، أي واجباتهم التي تُعفيهم، في نظرهم، من كل علاقة مباشرة بين إنسان وإنسان. قال نيكليودوف في نفسه: كل شيء يكمن هنا؟ وعندما نسلّم بأن هناك شيئاً أعظم أهمية من الشعور بالإنسانية. ولو لساعة واحدة، وحتى في حالة استثنائية، فما من جريمة تتوانى حينئذ عن ارتكابها بحق الإنسان، معتقدين بأننا غير مسؤولين عنها.

كان نيكليودوف مستغرقاً في تأملاته استغراقاً عظيماً حتى إنه لم ينتبه لتغير الجو: لقد تغطّت الشمس بالغيوم المنخفضة، وأقبلت ببطء من أعماق الأفق سحابة رمادية تدفقت على الحقول والغابات مطراً مدراراً. وكنتس الجو هبة ريح. وبين الفينة والفينة، كان البرق يخذّد السحابة، على قصف الرعد البعيد. وأخذت قطرات عريضة من المطر، ساقتها الريح، تتحطم على سترة نيكليودوف. فانتقل إلى الجهة الثانية من مسطحة القطار، وتأمل الحقائق والغابات وحقول الشليم الأصفر، وحقول الشوفان التي ماتزال خضراء، والأتلام السوداء تملؤها خضرة البطاطا المزهرة، وهو يتنشق بملء رئتيه رطوبة الأرض العطشى ورائحتها المنعشة. وفجأة بدا كل شيء كأنها غطته طبقة من الطلاء البراق؛ فالخضرة غدت أشد خضرة، والصفرة أشد صفرة، والسواد أشد سواداً.

وهتف نيكليودوف تلقائياً: ”أهطل أيها المطر، اهطل أيها المطر“ مشاركاً في فرح الحقول والحقائق والبساتين التي بعث الحياة فيها هذا المطر المنعش.

وبالفعل، اشتد هطول المطر، لكنه استمر قليلاً. وانتقلت السحابة الداكنة بعيداً، بعد أن صبّت شيئاً من حمولتها على الأرض. فلم تسقط بعد ذلك على الأرض المبللة سوى قطرات صغيرة، رخوة، متباعدة. وعادت الشمس إلى البروز، واستنار كل شيء من جديد، وظهر في الأفق من جهة الغرب، قوس قزح مظلّل تغلب عليه اللوينات البنفسجية.

سأل نيكليودوف نفسه، عندما انتهت هذه التبدلات الطبيعية، ودخل القطار بين الردم العميق الذي لا يسمح بتأمل الحقول: "فيم كنت أفكر، قبل قليل؟ آه! نعم، كنت أفكر في جميع هؤلاء الموظفين، وهم في معظمهم صالحون، مسالمون، حوّلتهم مهنتهم إلى شريرين، لا ينفذ إليهم الشعور الإنساني كما لا ينفذ إلى حجارة هذا الردم. ولعل من الضروري حفر مثل هذه المنشآت وتغطيتها بالحجارة، لكننا نأسف أن نرى الأرض محرومة من المطر الذي تنتظره، هذه الأرض التي كان بإمكانها هي أيضاً، أن تُنتج القمح والعشب والأدغال والأشجار. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الناس. كل الشر يأتى من أن ثمة بعض المؤسسات التي يمكن أن يعمل فيها الإنسان دون رحمة إزاء أمثاله من البشر. نحن نستطيع أن نعمل بلا رحمة إزاء الأشياء؛ نستطيع أن نقطع الخشب، ونطرق الحديد، ونشوي القرميد، بدون محبة. لكن المحبة في العلاقات بين البشر ضرورية، كما هو ضروري، مثلاً، الاحتراس في علاقات مربّي النحل مع النحل. الطبيعة تأمر بذلك. إذا بدا لنا أن نهمل الاحتراس في علاقتنا بالنحل أضربنا بالخلية وبأنفسنا. بيد أننا لا يمكن أن ننحّي الأخوة جانباً، بين البشر. فالمحبة المتبادلة بين الكائنات الإنسانية هي الأساس الوحيد، الممكن لحياة الإنسانية. ولا

شك، أن الإنسان لا يستطيع أن يُكره نفسه على المحبة، كما يستطيع أن يجبر نفسه على العمل. لكن لا ينتج عن ذلك أن الناس يستطيعون أن يتصرفوا بعضهم مع بعض دون محبة، لأن كل واحد يحتاج إلى الآخر. وعلى مَنْ لا يشعر بالمحبة لأمثاله من البشر ألا يهتم إلا بنفسه، وبالأشياء الجامدة، وبكل ما يروق له، ماعدا الناس، وكما أننا لا نستطيع أن نأكل إذا لم نشعر برغبة في الأكل، إلا إذا آذينا أنفسنا، فكذلك لا نستطيع أن نتصرف مع البشر إلا إذا بدأنا بمحبتهم. وإذا ما أجزتُ لنفسي أن أتصرف مع الآخرين دون محبة، كما فعلتُ أمس مع صهري، فلا حدود بعد ذلك لما يمكن أن تُقدم عليه وحشيتي من شر. الأمر كذلك، نعم، هذا صحيح!“. هذا ما كان يردده نيكليودوف على نفسه، وهو في آن واحد فرح بأنه لقي شيئاً من البرودة بعد حر النهار الرهيب، وسعيد لأنه خطا خطوة نحو حل المشكلة الأخلاقية التي كانت تشغل باله.

× × ×

كان ثلاثة أرباع العربة التي فيها نيكليودوف ملأى بالمسافرين؛ وبينهم الخدم والصناع وعمّال المصنع واللحامون واليهود ونساء الشعب؛ وكان هناك أيضاً جندي وامرأتان، الأم وابنتها. وكانت الأم تضع في كل من معصميهما العاريين سواراً ضخماً، وكان بصحبتهما رجل قاسي الوجه، لباسه كلباس البرجوازيين الميسورين. جميع هؤلاء، وهم من عامة الناس، استقروا الآن في أماكنهم، بعد أن اضطربوا كثيراً، في البداية، ليجدوا تلك الأماكن وليرتاحوا فيها. كانوا يأكلون ويدخنون، وبدأت بين الجيران أحاديث نشطة.

كان تاراس، زوج فيدوسيا، جالساً إلى اليمين، في وسط العربة، محتفظاً بمقعد أمامه لنيكليودوف. كان وجهه الطيب يشع بالسعادة. وكان يحدث فلاحاً آخر، يجلس على المقعد الصغير نفسه، ويرتدي وزرة فضفاضة من القماش، وقد علم نيكليودوف فيما بعد، أنه بستاني يعود من عطلته. كان نيكليودوف يهتم بالرجوع إلى مكانه، عندما شاهد، في الممر المركزي، شيخاً أبيضاً اللحية يحدث امرأة شابة بلباس الفلاحات، إلى جانبها طفلة بنت ست سنوات أو سبع، لها

ضفیرتان مصفّرتان، ترتدي فستاناً فلاحياً جديداً بلا كمّین، وترقص
ساقیها المسرفتي القصر لعلها تبلغ بهما خشب الأرض، ولا تكفّ عن
قضم بزر دوار الشمس. ومن غیر قصد، وقف نیکلیودوف أمامهم.
وسرعان ما رفع الشیخ أطراف وزرته التي كانت منتشرة على المقعد
وقال له بصوت جذاب:

— إجلس، أرجوك.

شكره نیکلیودوف وجلس بجانبه. واستأنفت الفلاحة القصة
التي قطعتها، بعد أن صمتت برهة. كانت تتحدّث عن الطريقة التي
استقبلها بها زوجها، وقد جاءت لتعيش معه بضعة أسابيع:

— ذهبتُ في عيد المرفع، واستطعت الآن، بفضل الله، أن أزوره
زيارة ثانية، أنا عائدة في الوقت الحاضر، إلى القرية. وفي عيد الميلاد،
سنلتقي ثانية، إن شاء الله.

فحكّم الشیخ على ذلك بقوله:

— هذا حسن جداً.

وأوضح، وهو يلتفت إلى نیکلیودوف:

— من المناسب جداً أنهما يستطيعان الالتقاء بين حين وآخر وإلا
تعرّض الزوج لكثير من المخاطر، بسبب كونه شاباً ووحيداً في المدينة.

— لا، يا جدي، فزوجي ليس من هذا النوع! وهو لا يقدم على
تلك الحماقات. لأنه وديع كالحمل. إنه يبعث إلى القرية بكل ما له،

حتى آخر فلس فيه. كم كان سعيداً برؤية ابنته، من المستحيل التعبير عن ذلك!

أخذت الصبية التي كانت تصغي إلى الحديث دون أن تكفّ عن ترقيص ساقها وعن لَفْظ قشور بزر دوار الشمس الذي تقضمه، تنقل عينها الوديعتين، الزرقاوين، الذكيتين، من الشيخ إلى نيكليودوف، كأنها تريد أن تؤكد أقوال أمها.

وافق الشيخ:

— إن كان عاقلاً فذلك أحسن.

وسألها وهو يشير بعينه إلى زوجين من العمال جالسين في الجهة الأخرى من الممر.

— وهذا، ألا يحبّه؟

كان الزوج يعبّ، وقد رد رأسه إلى الخلف، زجاجة من الخمر، بجرعات كبيرة، في حين كانت امرأته تنظر إليه وهو يشرب، ممسكة بيدها الحقيية التي أخرجت منها الزجاجاة.

أكّدت الفلاحة، وقد أسعدها أن تتاح لها الفرصة لتمدح زوجها:

— لا إن زوجي لا يشرب بتاتاً. إن أمثاله قليلون على الأرض... لو كنتَ تعلم ما أكرم نفسه!

— وهذا أحسن.

قال الشيخ ذلك دون أن يستطيع الامتناع عن الالتفات إلى المشهد الذي كان يجري في الجهة الأخرى من الممر.

ذلك أن العامل بعد أن شرب، ناول امرأته الزجاجاة فأخذت تحتسي الخمر بدورها، وقد مלאها السرور. وفجأة التفت الزوج إلى الشيخ وإلى نيكليودوف، حين رأى تطلعهما إليه، وهو يصرخ:

— ما بك، أيها النبيل؟ ألا ننا نشرب؟ لا أحد ينظر إلينا كيف نعمل، فإذا شربنا نظر الجميع إلينا! اشتغلْتُ بأجرتي وها أنا ذا أشرب الآن. وامرأتي تفعل مثلي. أما ما يفكر فيه الآخرون فلستُ أبالي به!

قال نيكليودوف، وهو لا يدري ما يجيبه به:

— بلا شك، بلا شك.

— أليس صحيحاً، أيها النبيل؟ امرأتي قوية، وأنا مسرور منها، كما أنها مسرورة مني. أليس صحيحاً، يا ”مافرا“؟

أجابت المرأة:

— هيا، دونك الزجاجاة، شربْتُ ما يكفي. أما زِلْتُ تهرف بحماقاتك!

فقهقه العامل:

— أرايت إليها! إنها امرأة عنيدة، لكنها إذا أخذت تتأوه فإنها تصرّ صرير عربة لم تُشحَم عجلاتها. أليس صحيحاً، يا مافرا؟

هزّت المرأة كتفيها وهي تضحك ضحكاً عريضاً وتلوّح بيدها كالسكّري.

وأردف العامل:

- إنها طيبة إلى حد ما. لكنها إذا ما أثّرت أو ضيّق عليها، فمن المستحيل كبح جماحها. ما أقوله صحيح! أنت، أيها النبيل، أرى بوضوح أنك تظنني سكران. نعم، تجاوزت الحد قليلاً، وما حيلتي في ذلك؟

قال العامل ذلك، ومدد ساقيه، وأراح رأسه على كتف امرأته، وأغفى. ظل نيكليودوف بعض الوقت أيضاً قرب الشيخ الذي روى له قصته. كان صانع مدافئ. وهو يعمل منذ اثنتين وخمسين سنة: لقد أصلح ما لا يُحصى من المدافئ. وهو الآن يتمنى أن ينال شيئاً من الراحة. ولذلك جاء بأولاده إلى المدينة، للعمل، وعاد هو إلى القرية ليرى أسرته. وعندما فرغ من قصته، نهض نيكليودوف واتجه إلى المكان الذي احتفظ له به زوج فيدوسيا.

قال البستاني في مواجهة تاراس وهو يرفع إليه نظرة باسمة:

- أيها النبيل، ألا تريد أن تجلس؟ سنريح هذا الكيس لتجد راحتك.

وقال "تاراس" مازحاً بصوته الرخيم:

- في الضيق يصبح الناس أقرب بعضهم من بعض.

ورفع كيسه الضخم كما يرفع ريشة، ووضع بين ساقيه، على أرض القاطرة.

كان تاراس يقول عن نفسه: إنه عندما لا يشرب فإنه لا يعثر على الكلمات، لكن الكحول تحلّ عقدة لسانه، وحينذاك يستطيع أن يعبر عن كل شيء. والواقع أن تاراس كان سَكوتاً، لكنه ما إن يشرب، وهو لا يشرب إلا نادراً، حتى يتكلم بطلاقة، وبوداعة ساخرة، وهي وداعة كانت تُقرأ أيضاً في عينيه الجميلتين، الزرقاوين، وفي ابتسامته البريئة. وبما أنه شرب قليلاً، هذا اليوم، قبل السفر، فقد كان فياض القريحة. قطع قدوم نيكليودوف عليه حديثه في أول الأمر؛ لكنه تابع روايته بعد أن استقر، وكيسه بين ساقيه؛ كان يروي للبستاني جميع تفاصيل قصة امرأته، ولماذا حُكم عليها، ولماذا يذهب هو إلى سيبيريا. كانت قصته تثير اهتمام نيكليودوف بشدة، ولم يكن يعلم من هذه القصة إلا ما روته ماسلوفاً له. ومن المؤسف أن تاراس كان بعيداً جداً عن البداية فلم يجد نيكليودوف من اللياقة أن يدعوه إلى استئنافها من جديد. لكنه علم على الأقل أن الأمور جرت بعد التسميم عندما اكتشف أهل تاراس جريمة فيدوسيا.

أوضح له تاراس بمودة:

- إنني أروي له مصائبي. لقد روى لي هذا الرجل الطيب مصائبه، وجاء دوري الآن. كنتُ أقول إذن: إن كل شيء اكتُشف. حينئذ قالت أمي لأبي: "اذهب إلى رئيس الشرطة". لكن أبي كان رجلاً مُنصفاً، فقال لها: "يا عجوز، إنها مازال طفلة، وهي لا تعلم ما تفعل. ينبغي أن نشفق عليها، فلعلها تتوب". لكن أمي أثبت أن تصغي إليه، وقالت له: "حقاً، تريد أن نحفظ بها في البيت لتسممنا، نحن أيضاً، كالخنافس!" وإذا بها ترتدي ثيابها وتذهب على رئيس الشرطة.

وسرعان ما يشتهه بالقضية، فيصل إلى البيت ويقتاد فيدوسيا...

سأله البستاني:

— طيّب! وأنت؟

— أنا، كنت هناك مصاباً بالمغص والغثيان! كان بطني مقلوباً رأساً على عقب، من المستحيل أن أعبر عما أصابني بكلمات أخرى. وفي الحال ربطت الجياد لاقتياد فيدوسيا إلى مركز الشرطة. وسرعان ما اعترفت بكل شيء، يا صاحبي. قالت كيف حصلت على السم، وكيف أعددت الفطائر. وعندما سُئلت: "لكن لماذا فعلت ذلك؟" أجابت: "لكي أتخلص منه، وأنا أفضل سبيير يا على العيش معه!" وأضاف الفلاح وهو يتسم: "هي تعني: "معي أنا". اعترفت بكل شيء، واتفقت القضية، ولم يبق سوى السجن. ثم يأتي موسم الحصاد. وأمي وحيدة، عجوز، لا تكاد تقوم بشؤون الطبخ. حينئذ يذهب أبي إلى القاضي، فلا يُفلح؛ ويذهب إلى موظف آخر، ثم إلى خمسة موظفين واحداً بعد الآخر، فيرفضون الاستماع إليه. وأوشكنا أن ندع الأمر لولا أن وقعنا على موظف ماهر، لا يُدانيه أحد في المكر. قال لنا: "أعطوني خمسة روبلات، وأنا سأخرجها لكم من السجن". فاتفقنا على ثلاثة روبلات. ورهنتُ أمتعتها. ففعل ما قاله لنا. وكانت صحتي قد تحسنت، فذهبتُ بنفسني لأحضرها من المدينة. وضعت الجواد في النزل، وأخذت الأوراق، وجريتُ إلى السجن. "ماذا تريد؟" قلت: "أمرأتي محبوسة هنا!" سألوني - "أمعك أوراق؟" أعطيتهم الأوراق، فنظروا إليها، وقالوا لي: "هيا، ادخل!" جلستُ على مقعد. وإذا بالرئيس يدخل ويسألني: "أنت فارغوشوف؟" -

”أنا هو“ - ”طيب! انتظر قليلاً“ وفي ظرف ساعة، يُفتح الباب، ويؤتى بفيدوسيا، وهي بشابها التي لبستها من البيت. قالت لي:

- ”أجئتَ ماشياً؟“ ”لا، الجواد في المنزل“. ونذهب إلى المنزل، وأدفع ثمن العلف، وأضع في العربة ما بقي من الشوفان وتجلس هل ملتفة بخمارها الكبير، ونغضي في طريق العودة، فلا تقول شيئاً، ولا أقول شيئاً، حتى إذا اقتربت من المنزل، إذا بها تسأل: - ”وأملك، أما تزال حية؟“ فأجيبها: - ”نعم“ - ”وأبوك؟“ - ”نعم، إنه ما يزال حياً“. فتقول لي:

- أوه! ساحني، يا تاراس، فلم أكن أدري ماذا أفعل!

فأجيبها:

- لا داعي للكلام، لقد صفحتُ عن كل شيء، منذ زمن بعيد.

وبعد ذلك لم نجد ما نقوله، وحين نصل إلى المنزل، إذا بها ترمي على قدمي أمي، فتقول لهذا العجوز:

- ”ليسأحك الله!“.

ويُعانقها أبي قائلاً:

- ما مضى مضى. عيشي الآن كما ينبغي أن تعيشي. جئت الآن، في الوقت المناسب، لمساعدتنا. الحمد لله أن القمح قد نما نمواً حسناً الآن، ولا بد من حصاده. اذهبي غداً صباحاً مع تاراس لتحصدي معه“.

ومنذ هذا الوقت، أكبت على العمل، يا صاحبي. ليتك تراها وهي تعمل! كان عندنا إذ ذاك ثلاثة هكتارات من الأرض استأجرناها. وقد طلع القمح والشوفان بوفرة، والحمد لله. فأخذت أحصد وهي تربط حزم الحصيد. وإذا بها تمهر في هذا العمل حتى دهش كل مَنْ في البيت. وما كان أعظم اندفاعها! كنا نعود إلى البيت، وأصابنا متيعة، وأذرعنا متعبة؛ فلا أفكر إلا في شيء من الاستراحة، لكنها لا تلبث أن تجري إلى المستودع، قبل العشاء لتحضر ربطات الحصاد لليوم التالي. لو رأيته لصعب عليك أن تصدق!

سأله البستاني:

— وأصبحت أرقّ معك؟

— لا تسأل! تعلّقت بي تعلقاً شديداً حتى صرنا نفساً واحدة. فما يجول بخاطري يجول بخاطرهما. أُمّي ذاتها التي لم تكن متسامحة قالت: ”لقد بدّلوا لنا ابنتنا فيدوسيا، فلم تعد هي نفسها!“ وذات يوم سألتها ونحن ذاهبان لجمع الحزم:

— قولي لي، يا فيدوسيا، كيف عنّت لك تلك الفكرة؟

فقلت لي:

— كنتُ أحسب أنني لا أستطيع العيش معك، وأن الموت أفضل.

— والآن؟

— الآن، أنت الذي في قلبي.

توقف تاراس ليهز رأسه، وعلى وجهه ابتسامة مشرقة. لكنه تنهّد واستأنف:

— وأعود ذات يوم من الحقل، فأجد مفوّض الشرطة ينتظرنا أمام الباب. جاء ليأخذ فيدوسيا من أجل المحاكمة. ونحن لم يخطر لنا أنهم سيحاكمونها! لقد نسينا كل شيء!

وأبدى البستاني رأيه فيما فعلته فيدوسيا:

— من المؤكد أن الشيطان هو الذي أغواها. أيخطر ببال إنسان أن يهلك نفسه هكذا. وهذا شبيه بما جرى عندنا، ذلك أن رجلاً...

وبدأ البستاني قصة، لكن القطار خفّف سرعته، في هذه اللحظة نفسها. فأعلن البستاني:

— لقد توقف القطار، فهلّمّ نحتسِ جرعة.

هكذا انقطع الحديث. ولحق نيكليودوف تاراس والبستاني ليطمشي جيئة وذهاباً على أرضية المحطة الصغيرة، المبللة.

شاهد نيكليودوف في فناء المحطة، حتى قبل أن ينزل من القطار، عدداً من العربات الفخمة، المربوطة بجياد بديعة. وعندما نزل، رأى تجمعاً يتشكل أمام إحدى عربات الدرجة الأولى في وسط الجماعة، ظهرت سيدة طويلة القامة، جسيمة، ترتدي مشمعاً واقياً من المطر، وعلى رأسها قبعة مزدانة بالريش الثمين. وكان يصحبها شاب طويل، هزيل الساقين، يرتدي ثياب سائقي الدراجات، وقلب ضخيم يقوده الشاب. وحول السيدة العجوز والشاب خف خادم مقصورة يحمل على ذراعه معاطف، ووصيفة وحوذي. وكانت هذه الجماعة، من السيدة الضخمة إلى الحوذي، تكوّن مزيجاً غريباً من الثقة بالذات والرضا عنها. والناظر إلى هؤلاء الناس كان يحس أنه بإزاء أناس مرفّهين، صحيحي الأجسام، مسرورين من وجودهم في العالم. ولم تلبث أن تشكلت حول هذه الجماعة حلقة من الفضوليين الذين جذبهم منظر الثروة؛ وفي عدادها رئيس المحطة بعمرته الحمراء، ودركي، وفلاح شاب كان يبيع أرغفة صغيرة، ومستخدم البرق، ونحو عشرة مسافرين خرجوا عن عرباتهم.

عرف نيكليودوف في الشاب ذي الكلب، أخا ميسي. ولم تكن السيدة البدينة غريبة عنه، لأنها عمة ميسي التي يقصد آل كورتشاغن إلى بيتها لقضاء الصيف فيه. فتح حارس القطار باب المقصورة، وأمسك بالباب مفتوحاً، مبدئاً ضروب الاحترام، حتى فرغ الوصيف فيليب ومستخدم المحطة من إنزال الأميرة العجوز في كرسي المرضى. تعانقت الأختان، وسمعهما نيكليودوف تتبادلان عدة جمل بالفرنسية حول ما إذا كان ينبغي أن تصعد الأميرة في عربة مغلقة أو مكشوفة. وبدأ الموكب سيره، في مقدمته السيدتان، وفي مؤخرته الوصيفتان المحملتان بالمظلات والأخمرة والمشاجب.

خوفته فكرة لقاء آل كورتشاغن ووداعهم من جديد، فاستظل بعمود حتى خرج الموكب من المحطة. كانت الأميرة العجوز وابنها، وميسي والطبيب يسرون على رأس الموكب، وجاء الأمير وأخت زوجته في الصف الثاني. وبين نتف الجمل التي تناهت على سمع نيكليودوف واحدة أذهلته، دون أن يعرف لماذا، كما يقع ذلك كثيراً، وظلت ثابتة في ذاكرته، مع نبرة الصوت التي رافقتها. كانت الجملة جملة قالها الأمير وهو يحدث أخت زوجته عن أحد الناس:

— أوه! هو من أكابر الناس، من أكابر الناس حقاً.

قال الأمير العجوز كورتشاغن هذه الجملة بصوته الرنان المليء بالرضا عن الذات، في اللحظة التي كان يمر فيها أمام باب المخرج، وقد حياه باحترام صفان من المستخدمين، والعمال حملة الأمتعة.

وفي الوقت نفسه، ظهرت على الرصيف جماعة من العمال

بصنادلهم الخشبية، وأكياسهم على ظهورهم، يأتون من الطرف المقابل للمحطة. تقدّموا بخطاً ثابتة من أول عربية أمامهم، وهمّوا بدخولها. وعلى الفور هَرَعَ حارس القطار ليمنعهم من الدخول. فاستأنف العمال سيرهم واستطاعوا، مع شيء من التدافع، أن يتمكنوا من الصعود إلى عربية القطار الثانية. ولاشك أن هذه العربية لم يكن فيها أماكن لهم، ذلك لأنهم أمروا بالنزول، وقد صُبّت عليهم جميع أنواع الشتائم. حينئذ اتجه العمال إلى العربية الثالثة، وهي نفسها التي كان نيكليودوف فيها. ومرة أخرى، جاء الحارس ليأمرهم بالبحث في عربات أخرى. لكن نيكليودوف الذي حضر المشهد قال لهم: إنهم يستطيعون أن يجدوا لهم أماكن هنا. فصعدوا إذ ذاك وصعد نيكليودوف في إثرهم.

في العربية، تقدّم العمال على طول الممر، بحثاً عن الأماكن التي يمكنهم الجلوس فيها، فتصدّى لهم البرجوازي والمرأتان اللتان تصحبانه، واعتراضوا على قبولهم فيما بينهم، معتبرين، من دون شك، دخول هؤلاء العمال إهانة شخصية لهم، وأمروهم أن يخرجوا بأسرع وقت. وسرعان ما استأنف العمال سيرهم في الممر، صادمين بأكياسهم المقاعد والحواجز والأبواب. وكان واضحاً أنهم يحسّون بالضيق إحساساً صادقاً، وأنهم مستعدون للطواف من عربية إلى عربية حتى آخر العالم، بحثاً عن الأماكن التي يستطيعون أن يستقروا فيها. كانوا حوالي عشرين، بينهم الشيوخ والفتيان، لكنهم جميعاً قد جفّت وجوههم وسُفعت، وقد حملوا في نظرات عيونهم المجوّفة مزيجاً واحداً من التعب والإذعان.

صاح بهم الحارس الذي أقبل عليهم من الطرف الآخر من القطار:

- إلى اين تذهبون، أيها الأوغاد؟ صعدتم إلى هذه العربة، فدبروا أنفسكم لتظلّوا فيها!

هتفت الشابة وهي مقتنعة بأن فرنسيتها الأنيقة ستحمل نيكليودوف على الإنتباه :

- وهذا أيضاً من الطرائف.

أما السيدة العجوز ذات الأسورة، فقد اقتصرت على أن أبدت اشمئزازها، وسدت أنفها، وقطّبت حاجبيها، وأعربت بتعجب عما تجده من انزعاج حين تضطر إلى السفر برفقة مثل هؤلاء الفلاحين الفظيعين، الكريهي الرائحة.

في أثناء ذلك، توقّف العمال في الممر، من غير تردد، وهم يحسّون بالراحة، كمن يخرج من الخطر سليماً، معافى، وأخذوا يحتلون أماكنهم، وهم يهزّون بحركة أكتافهم الأكياس الثقيلة التي يحملونها على ظهورهم ليطحروها، فوق المقاعد.

ترك البستاني مكانه الذي كان يشغله في مواجهة تاراس، بعد أن وجد صديقة له في قطار آخر، فشغرت ثلاثة أمكنة بجانب تاراس وأمامه. فسارع ثلاثة من العمال إلى الجلوس فيها؛ لكن، عندما اقترب نيكليودوف منهم، اضطربوا المرأى ثيابه الجميلة اضطراباً شديداً حتى لقد نهضوا ليبحثوا عن أمكنة أخرى. واضطر نيكليودوف إلى أن يلح عليهم ليقبلوا بالجلوس: وظل هو نفسه واقفاً مستنداً إلى حافة أحد المقاعد.

تبادل أحد العمال، وكان رجلاً طويلاً وهزيلًا، في الخمسين من عمره، نظرة تنم على الحذر مع رفيق له، أصغر سنًا منه، جالس في مواجهته. لقد أصيبا، من غير شك، بالدهشة وبشيء من القلق من أن يتخلى نيكليودوف عن مكانه لهم، بدلًا من أن يطردهم ويهينهم، كما يجدر بالنبيل أن يفعل. لم يكن باستطاعتهما أن ينزعا من فكرهما أن شيئاً سيئاً سينجم عن ذلك. لكنهما عندما لاحظا أن ليس وراء ذلك نية إيذائهما، وأن نيكليودوف يتحدث مع تاراس بكل بساطة، اطمأنا. وأصر الذي يجلس بجانب تاراس على الانتقال إلى مقعد آخر، حتى يتيح لنيكليودوف أن يجلس. وفي بداية الأمر، أظهر العامل المسن كثيراً من الارتباك، فانقبض على مقعده جهده، مخفياً قدميه المحتذيتين حذاء خشبياً تحت المقعد، خوفاً من مضايقة النبيل. بيد أنه سرعان ما تشجع وأخذ يحدث نيكليودوف بكثير من الدالة حتى أنه شد بيده الخشنة على ركبة نيكليودوف عدة مرات، لينبّه إلى أهمية ما كان يقوله.

عرّف نيكليودوف باسمه وبقريته. وروى له أنه ورفاقه عائدون إلى قريتهم بعد أن اشتغلوا شهرين ونصف في مَربة. وقد أتاح له ذلك أن يعود بمبلغ عشرة روبلات، كما أنه قبض خمسة روبلات في الشهر السابق. وفي مقابل هذه الخمسة عشر روبلاً اشتغل في عمل قوامه دخول الماء حتى الركبتين، بدون انقطاع، من الصباح إلى ساعة الغداء. وأعلن:

— مَنْ لم يتعود ذلك العمل، يشق عليه، في بادئ الأمر، أن يألفه، فإذا تمرّس به زالت آلامه. لكن لست الطعام كان صالحاً للأكل! في

الأوقات الأولى لم نكن نستطيع أن نقر به، لكننا احتججنا فصار أفضل. وصار العمل أخف.

وروى أنه كان يشتغل بالمياومة هكذا منذ أكثر من ثمانية وعشرين عاماً. وكان دائماً يحمل المال الذي يكسبه إلى بيته: إلى أبيه أولاً، ثم إلى أخيه الأكبر. وهو الآن يعطيه ابن أخ له أصبح رب العائلة. أما هو فلم يكن يَسْتَبْقِي لنفسه من الستة والخمسين روبلاً التي يكسبها كل عام سوى روبلين أو ثلاثة «ليلهو بها»، ليشترى تبغاً وعلب كبريت.

وأضاف مازحاً وهو يتسم كالمذنب:

— ثم إنني خاطئ من الخطاة، وذلك عندما أشرب بما بقي معي قدحاً صغيراً من الخمر.

وتحدث العامل أيضاً عن رفاقه المتزوجين الذين بقيت نساؤهم في القرية يعيشون من المال الذي يرسلونه إليهن. وروى كيف أن رئيس العمال قدّم لهم، هذا اليوم، قبل أن يصرفهم، نصف سطل من الخمر، وكيف أن أحد رفاقه مات، وأنهم يحملون معهم رفيقاً آخر مريضاً.

كان هذا المريض جالساً في المقصورة المجاورة. كان شاباً نحيلاً وشاحباً، شفتاه زرقاوان. ولاشك أنه أصيب بحمى المستنقعات وهو يعمل في الماء. اقترب نيكليودوف منه. فرفع المريض إليه نظرة قلقة ومليئة بالألم في آن واحد، حتى أن نيكليودوف لم يجسر على إنهاكه بطرح الأسئلة عليه. واكتفى بأن طلب من العامل أن يشتري شيئاً من الكينين. وكتب اسم الدواء على ورقة صغيرة. وأراد أن يعطيه بعض

المال لكن العامل أبى ذلك بقوة، وقال لتاراس بينما كان نيكليودوف يدير ظهره:

— رأيتُ كثيراً من النبلاء، أما مثل هذا النبيل فيني لم ألق قط! إنه لا يتمتع فقط عن إزعاج الآخرين، بل إنه يقف ليتخلى لهم عن مكانه. وهذا يدل، يا صاحبي، على أن النبلاء أيضاً، أنواع شتى!

وفكر نيكليودوف في نفسه، وهو ينظر إلى أعضاء هؤلاء الرجال الهزيلة، القوية العضلات، وإلى ثيابهم الخشنة، وإلى وجوههم المتعبة: «نعم، إنه عالم مختلف، عالم جديد». كان يحس بنفسه مُحاطاً، من كل جانب، بإنسانية جديدة عليه، إنسانية لها مصالحها وأفراحها وآلامها. أحس أنه بحضرة حيوات إنسانية يعمل فيها كل واحد.

قال في نفسه، وهو يتذكر الجملة التي قالها الأمير كورتشاغين، ويفكر في ذلك العالم العاطل، الذي يحيا حياة مترفة، منصرفاً إلى ما في مصالحه من دناءة وتفاهة:

«هؤلاء هم أكابر الناس حقاً». (٤٢)

حينئذ أحس الإحساس الفرح لمسافر انفتح له عالم جديد، مجهول، عجيب.

٤٢ — هؤلاء نعم «أكابر الناس حقاً»: في هذه الفترة كان تولستوي يدعو الفلاحين أكابر الناس.

الجزء الثالث

قطعت القافلة التي كانت ماسلوفافيا حوالي ثلاثة آلاف ميل. وحتى «بيرم» سافرت كاتيوشا بالقطار وبالباخرة، بصحبة سجناء الحق العام. وبدءاً من بيرم فقط، أفلح نيكليودوف في نقلها إلى جماعة السجناء السياسيين، كما أشارت عليه بوغودوكوفسكايا، التي كانت ضمن القافلة، وفي الجماعة نفسها.

كانت الرحلة حتى «بيرم» شاقة جداً على ماسلوفافا، من الناحية الجسمية ومن الناحية النفسية على السواء. من الناحية الجسمية بسبب الإزدحام والقذارة، والحشرات الكريهة التي لم تكن تترك لها لحظة من الراحة. ومن الناحية النفسية، لأن الرجال الذين كانوا كريهين كالحشرات ذاتها، قد صبّوا عليها مضايقاتهم حيثما حلّت، بضراوة لا تتغير، وإن تغيروا هم من مرحلة إلى مرحلة، دون أن يدعوها وشأنها بسلام. ولقد قامت بين السجينات وبين السجناء والحراس والجنود صلات فاسدة، فاجرة إلى الحد الذي كان ينبغي فيه لكل امرأة أن تكون محترسة على الدوام، ولا سيما إذا كانت شابة. وكانت هذه الحالة من الخوف والصراع المستمر حالة يصعب احتمالها. وكانت

ماسلوفاً أكثر تعرضاً لها من غيرها جراء جسدها الجذاب وماضيها الذي يعرفه الجميع جيداً. وقد بدت المقاومة العنيدة التي كانت تواجه بها الرجال الآن وكأنها إهانة لهم، وحملته على أن يُضمرروا الشر لها. بيد أن كانت تجد سنداً عظيماً في جوار فيدوسيا وتاراس. ذلك أن تاراس عندما علم بالمضايقات التي تتعرض لها زوجته، آثر أن يدخل السجن ليُحسن الدفاع عنها. وسافر منذ نيحني نوفغورود بصفته سجيناً بين السجناء المُبْعدين.

إن نقل ماسلوفاً إلى زمرة السجناء السياسيين قد حسّن أحوالها من كل الوجوه. ففضلاً عن أن «السياسيين» كانوا أفضل مسكناً وغذاءً، وأقل عرضة للفظافات، لقد كان لهذا النقل فضل إنقاذها من إزعاج الآخرين. فهي تستطيع الآن أن تعيش دون أن تذكرها كل لحظة ماضيها الذي تمنى أن تنساه. بيد أن أعظم مزايا هذا النقل يكمن في الإحتكاك ببعض الأشخاص الذين أثروا فيها تأثيراً نافعاً وحاسماً.

سُمح لماسلوفاً أثناء الوقوف أن تبقى مع السجناء السياسيين، لكن، كان ينبغي لها أن تنضم إلى سجناء الحق العام، أثناء السير، باعتبارها امرأة صحيحة الجسم. وهكذا، فمنذ «تومسك» سائرت القافلة مشياً على قدميها، وبجنبها كان يسير، مشياً، على الأقدام، «سياسيان» هما «ماريا بافلوفنا ستيتينين» - الفتاة الجميلة البارزة العينين التي جذبت انتباه نيكليودوف، أثناء حديثه مع بوغودوفسكايا - ورجل يدعى سيمونسون. كان هذا المنفي إلى مقاطعة إياكوتسك ذلك الرجل ذا الشعر الأسود المشعث، والعينين اللتين نُزِّلتا بعمق تحت جبهة مقوّسة، الذي لاحظته نيكليودوف في المناسبة نفسها. كانت ماريا بافلوفنا

تمشي على قدميها لأنها تخلّت عن مكانها في العربة لامرأة حامل، من سجناء الحق العام. وكان سيمونسون يسير على قدميه أيضاً لأنه يرى أن من الظلم استغلال الامتياز الطبقي.

هكذا كان الوضع أثناء الوقفة الأخيرة قبل الوصول إلى المدينة الكبيرة. وفي هذه المرحلة تسلّم القافلة ضابط جديد.

كان ذلك في صبيحة باردة من أوائل أيام أيلول. كان الثلج يتساقط غزيراً تارة، والمطر يهطل مدراراً تارة أخرى، تصحبهما ريح جليدية. وقد دلف جميع سجناء القافلة -أربع مائة رجل وحوالي خمسين امرأة- إلى فناء المكان الذي توقّفوا فيه. كان بعضهم يتدافعون حول الضابط المرافق الذي انهمك في توزيع المال المخصص لشراء مؤنة يومين، على رؤساء المجموعات. وكان صياح البائعات الحاد يغطي أصوات السجناء الذين كانوا يعدّون المال ويشترون المؤن.

دخلت الفناء كاتيوشا وماريا بافلوفنا. كانت كل منهما تحتذي جزمة، وترتدي معطفاً من الفرو قصيراً، وتغطي رأسها بخمار. اقتربتا من البائعات اللواتي حللن في الجهة الشمالية من الفناء ليكنّ بمأمن من الريح، واللواتي كن يعرضن بضاعتهن الواحدة بعد الأخرى من فطائر بطحين الشيلم، وسمك، ومعكرونة، وبرغل الحنطة السوداء، وكبد، ولحم العجل، وبيض وحبّيب. وكانت إحدى البائعات تعرض خنزيراً صغيراً مشوياً.

كان سيمونسون ينتظر في الفناء ساعة ذهاب القافلة، مرتدياً سترة من القماش الشمّع، ومحتدياً حذاءً مطاطياً مربوطاً ببريم فوق الجورب

الصوفي. لقد كان يأبى أن يرتدي جلود الحيوانات المذبوحة، باعتباره نباتياً. كان واقفاً قرب المدخل، يسجل على دفتر صغير، فكرة عنت له وتمت على الشكل التالي: «لو أن جرثومة أمكنها أن تلاحظ وتحلل ظفر إنسان، لانتهدت إلى أنه مؤلف من مادة غير عضوية مثلنا بالضبط، عندما نفحص القشرة الأرضية ونحكم بأنها مصنوعة من مادة غير عضوية، إن ذلك خطأ».

اشترت ماسلوفاً بيضاً، ومشكاكاً من البسكويت وسمكاً، وخبراً أبيض طازجاً، ووضعت ذلك كله في كيس، بينما كانت ماريا بافلوفنا تدفع الثمن للبائعات. في هذه اللحظة، حدث هرج بين السجناء. ثم خيم الصمت؛ وأخذوا يصطفون. وخرج الضابط المرافق ليُصدر آخر تعليماته قبل السفر.

جرى كل شيء كالعادة: أحصى السجناء، وتم التحقق من السلاسل، ووُضعت الأغلال في أيدي الذين سيمشون مُقيدين اثنين اثنين. وفجأة سُمع صراخ الضابط وهو يلقي أمراً بصوت حاد، هائج. وتبع ذلك صوت صفعات، وبكاء طفل. ثم ساد الصمت الواجم في مدى لحظة، قبل أن يسري بين الجمهور همس مخنوق، فاتجهت ماسلوفاً وماريا بافلوفنا إلى المكان الذي انبعثت منه الضوضاء.

× × ×

عندما بلغت ماريّا بافلوفنا وماسلوفّا المكان، رأتا المشهد التالي: كان الضابط، وهو رجل قصير وسمين، ذو شارب كثيف وأشقر، قد بدا عليه الهياج، وهو يفرك بيده اليسرى راحة يده اليمنى التي صفع بها سجيناً حتى أدماه. وكان لا ينيي يجدف تجديفاً فظاً وبذيئاً. وأمامه وقف سجين نحيل وطويل، يمسح بيد وجهه المدمّى، ويمسك باليد الأخرى طفلة ملفوفة بخمار، تصرخ صراخاً شديداً. كان نصف رأسه حليقاً، وكان يرتدي سترة قصيرة مبطنة بالفرو، وبنظلاً أقصر. صرخ الضابط:

— سأعلّمك (هنا، تجديف وقح) كيف تحتج (تجديف آخر). ستذهب هذه مع النساء! قيّدوا يديه.

كان الضابط يطلب أن يُقيد محكوماً بالنّفي. لقد حمل هذا الرجل، طوال الطريق، الصغيرة التي ماتت أمها بالتيفوس في «تومسك». وقد أغضبت احتجاجات السجين الذي أعلن أنه لا يستطيع حمل الصغيرة إذ قيّد يده، أغضبت الضابط الذي كان سيء المزاج من قبل. وبما أن السجين تمرد فقد ضربه الضابط^(٤٣).

٤٣ - وصف هذا الحادث في كتاب «لينييف» على مراحل.

أمام الرجل المصفوع وقف جندي وسجين ذو لحية سوداء، في أحد معصميه قيدٌ، كان ينظر، وهو متجهّم الوجه إلى الضابط تارة، وإلى السجين المحمّل بالولد تارة أخرى. وكرر الضابط أمره بأن يأخذ الجندي الطفلة.

صاح صوت أبح من الصفوف الأخيرة.

— لقد جاء من «تومسك» بدون قيد!

— هذه ليست كلبة، إنها طفلة صغيرة.

— وأين سيضعها، هذه الصغيرة؟

واحتجّ أحدهم:

— ليس هذا منطبقاً مع الأنظمة.

انقضّ الضابط على الجمهور، كأن زنبوراً ألسعه، وصرخ:

— سأعطيك أنا، أنظمة! مَنْ هذا الذي احتجّ؟ أنت؟ أنت؟

فاعترض سجين ربعة، عريض الوجه:

— الجميع تكلموا، لأن...

ولم يستطع أن يتم جملة. لأن الضابط أخذ يضربه بكلتا يديه على وجهه.

— آه! أنتم تثورون؟ سأعلمكم أنا، كيف تتمردون! سأقتلكم كما تُقتل الكلاب. وسيشكرني رؤسائي على ذلك. أنت، خذ الطفلة.

صمت الجمهور. وانتزع جندي من ذراعي الأب الطفلة التي كانت تزعق، يائسة. ووضع جندي آخر القيد في يدي السجين الذي مد معصميه مدعناً.

صاح الضابط بالجندي وهو يعيد نطاقه إلى مكانه:

— خُذْهَا إِلَى قَافِلَةِ النِّسَاءِ.

حاولت الطفلة التي تضرّج وجهها لفرط البكاء، أن تخلص يديها الصغيرتين من الشال الذي يمسكها. فخرجت ماريّا إيفانوفنا من الجمع، ودنت من الضابط وقالت له:

— اسمح لي يا سيدي الضابط، أن آخذ الصغيرة...

وقف الجندي الذي يحمل الطفلة.

سألها الضابط:

— وَمَنْ أَنْتِ؟

— ((سياسية)).

والظاهر أن وجه ماريّا بافلوفنا الجميل، بعينيها البديعتين البارزتين، قد ترك أثراً قوياً في الضابط، وكان قد لاحظها أثناء تسلّمه القافلة. ففترّس فيها بصمت، كمن يجترّ شيئاً في داخله. وقال أخيراً:

— سَيِّانَ عِنْدِي، اَحْمِلِيهَا، إِذَا شِئْتَ. أَنَا أَدْرِكُ أَنَّ ذَلِكَ يَشِيرُ شَفَقَتَكَ،

لَكِنْ إِذَا هَرَبَ هَذَا الرَّجُلُ فَمَنْ الْمَسْئُولُ؟

أجابت ماريا بافلوفنا:

— كيف يستطيع أن يهرب ومعه الصغيرة؟

— ليس لدي متسع من الوقت الوقت لمناقشتك. خذوها إذ شئت.

سأله الجندي:

— أيجب أن أعطيها إياها

— أعطيها إياها.

قالت ماريا بافلوفنا برفق محاولة كسب رضا الطفلة:

— تعالي معي، يا صغيرتي...

لكن الطفلة التي مازالت بين ذراعي الجندي، أخذت تتطاوّل نحو والدها وهي تصرخ. لم تشأ أن تذهب مع ماريا بافلوفنا.

تدخلت ماسلوفافا وهي تخرج من كيسها بسكويتاً:

— انتظري، يا ماريا بافلوفنا، سوف ترضى بالمجيء معي.

اقتربت الطفلة، عند مرأى ماسلوفافا، وأيضاً عند مرأى الحلوى. واستتب الهدوء. وفُتحت الأبواب فخرجت القافلة من الفناء، وصدر الأمر بالمسير. أحصى السجناء مرة أخرى، ورُتبت الأكياس في العربات، وأُصعد أضعف السجناء إليها.

انضمت ماسلوفافا إلى النساء واختارت مكاناً لها قرب فيدوسيا. اقترب سيمونسون الذي تابع المشهد بانتباه، من الضابط بخطا ثابتة

وكان هذا الضابط يهم بالصعود إلى عربته، بعد أن أصدر آخر أوامره.
فأعلن له سيمونسون:

— لقد أسأت التصرف، سيدي الضابط.

— إمضِ إلى مكانك، فهذه القضية لا تعنيك.

— بل يعنيني أن أقول لك: إنك أسأت التصرف، وها أنا ذا أقول
لك ذلك.

هكذا أجاب سيمونسون وهو يحدد النظر في الضابط بعينه
الغارقتين تحت حاجبيه الكثيفين.

فأمر الضابط:

— مستعدون؟ إلى، الأمام سرّ!

واتكأ على كتف الجندي الذي كان يقوم بمهمة الحوذي وصعد إلى
عربته، ودون أن يأبه لسيمونسون.

تحرك الرتل، وامتد على طريق محفّرة تحيط بها حفر، ودلف إلى
غابة عميقة.

× × ×

بعد الحياة المنحلة التي عاشتها ماسلوفاً أثناء السنوات الست في المدينة، وسط مظاهر الترف والدعة، وبعد شهرين من السجن بصحبة سجناء الحق العام، بدت لها الحياة الحاضرة بين السجناء السياسيين رائعة بالرغم من قسوتها. فالمراحل التي كانت تقطعها مشياً على الأقدام، من عشرة كيلومترات إلى خمسة عشر كيلو متراً كل يوم، والغذاء الجيد، ويوم الراحة بعد يومين من السير، كل ذلك قد أعاد إليها قواها. ومن جهة أخرى، فإن الإحتكاك المستمر مع السياسيين فتح لها آفاقاً لم تكن تخطر لها على بال. إن أناساً «ممتازين» مثل هؤلاء، على حد قولها، لم تلقهم من قبل، بل لم تكن تتصور وجودهم.

وهتفت:

— العجيب أنني بكيت عندما حُكم علي! يجب أن أشكر السماء حتى آخر أيامي. تعلمت هنا أشياء ما كنت لأعرفها أبداً!

لقد اعتنقت المثل الأعلى الذي كان يحفزهم دون مشقة ولا جهد، وامتلات بالحماسة له، باعتبارها من أبناء الشعب. كانت تدرك أنهم يناضلون من أجل الفقراء ضد الأغنياء، وإذ كانت تعلم أنهم ينتمون

إلى الطبقة المسيطرة، فإن تخليهم لمصلحة الشعب عن امتيازاتهم وحريتهم وحياتهم المترفة، مع أنهم نبلاء أو بورجوازيون، قد حملها على تقديرهم والإعجاب بهم إعجاباً شديداً.

كانت تُعجب بجميع رفاقها الجدد، لكنها كانت تجلّ على الخصوص ماريّا بافلوفنا. لم يكن ذلك إعجاباً فقط؛ كانت تكنّ لها محبة مصنوعة من الاحترام والحماسة. لقد أذهل كاتيوشا أن هذه الفتاة الجميلة التي تتكلم ثلاث لغات، والتي هي ابنة جنرال ثري، كانت تصرف كأية عاملة. كانت ماريّا بافلوفنا تعطي الآخرين كل ما كان يرسله إليها أخوها الذي كان يملك ثروة طائلة. كانت تلبس وتحتذي ببساطة، بل بفقر، دون أن تُعنى أدنى عناية بجمالها. وكان يُدهش ماسلوفّا ويسحرها على الخصوص، عزوف ماريّا بافلوفنا عن الغنج والتأنق. لقد رأت كاتيوشا أن ماريّا بافلوفنا لم تكن تغتبط قط بجمالها. على العكس، لقد كانت تخاف من الأثر الذي يحدثه جمالها في الرجال، لأنها كانت تشعر أمام الحب بالرهبة، بالنفور الحقيقي. وكان رفاقها يعلمون ذلك، فمع إحساسهم بالانجذاب نحوها، بيد أنهم لم يكونوا يسمحون لأنفسهم بإظهار ذلك الانجذاب. كانوا يعاملونها معاملة الرفيق، كما لو كانت رجلاً. إلا الغرباء فكانوا يضايقونها كثيراً، وكانت تروي كيف أنها كانت تلجأ إلى قوة عضلاتها للتخلص منهم، وهي قوة لم تكن تخفي افتخارها بها.

روت وهي تضحك.

- في ذات يوم، تبعني رجل في الشارع، وأبى أن يتركني. فضربته ضربة قوية حتى هرب مذعوراً.

وكانت توضح أنها أصبحت ثورية لأنها كانت، منذ الصغر، لا تستسيغ حياة الأغنياء؛ وكانت تفضّل حياة البسطاء. ولقد وبّخها أهلها دائماً لملازمتها المطبخ أو الاصطبل بدلاً من أن تكون في قاعة الاستقبال.

وكانت تؤكد:

— لكنني أنا لم أكن أجد المتعة إلا مع الطاهيات والحوذيين؛ كان الضجر ينتابني مع السيدات الجميلات والرجال الذين كانوا يزوروننا. وفيما بعد، عندما بدأت أفهم، أدركتُ أن نمط حياتنا كان كريهاً. وتركتُ البيت وأنا في التاسعة عشرة، بصحبة رفيقة لي، واشتغلتُ عاملة في أحد المصانع.

بعد المصنع عاشت في الريف، ثم عادت إلى المدينة، فأوقفت في شقة كانت تختفي فيها مطبوعة سرية. وحكم عليها بالأشغال الشاقة. أما ما لم تكن ترويه ماريّا بافلوفنا لأحد، وما عرفته كاتيوشا من الآخرين، فهو أنها قد حُكم عليها لتحملها مسؤولية طلبة مسدس أطلقها ثوري، في الظلمة، أثناء التفتيش.

لم ترها كاتيوشا قط، منذ أن عرفتها، مشغولة بنفسها. لقد كان همّها الدائم، إنما كانت، وكيفما كان وضعها، أن تنفع الآخرين، أن تُساعدهم في كل شيء. وكان أحد رفاقها في القافلة، وهو «توفوغور ودوف»، يقول عنها ضاحكاً: إنها تمارس «رياضة البر والإحسان» نحو الآخرين. وكان ذلك حقاً.. فكما أن هدف الصياد أن يعثر على الطريدة، فكذلك كان هدف حياة ماريّا بافلوفنا ينحصر في البحث عن المناسبة التي تهب فيها إلى مساعدة الآخرين. ولقد

أصبحت تلك الرياضة عادة لها، وعلة لوجودها. كانت تفعل الخير بكثير من الصدق حتى إن جميع الذين كانوا يعرفونها اعتبروا طيبتها شيئاً طبيعياً، واستفادوا منها.

عندما نُقلت ماسلوفاً إلى جماعة ماريّا بافلوفنا، أحسّت هذه بالكره لها وبالاشمئزاز منها. وتبيّنت كاتيوشا ذلك. لكنها لاحظت فيما بعد، أنها تحاملت على نفسها وغدت شديدة اللطف والطيبة معها. إن هذا اللطف وتلك الطيبة من كائن فذّ مثل ماريّا بافلوفنا قد أثرا في ماسلوفاً تأثيراً عميقاً حتى أنها استسلمت لها بكل نفسها، دون أن تعي ذلك، فاعتنقت أفكارها، من دون قصد، وقلّدتها في كل شيء. هذه المحبة المخلصة انتهت بأن رَققت قلب ماريّا بافلوفنا عنها، فمحضتها صداقتها. وفضلاً عن ذلك، فقد كان يجمع هاتين المرأتين شعور مشترك: هو نفورهما من الحب الجسدي. كانت ماسلوفاً تمقت هذا الحب لأنها خبرت كل ما فيه من أهوال، أما الأخرى التي لم تخبره بعد فكانت تعتبره شيئاً عصياً على الفهم ومنقراً في الوقت نفسه، وإهانة للكرامة الإنسانية.

× × ×

جاء تأثير ماريا بافلوفنا في ماسلوفنا من الحب الذي حملته ماسلوفنا لها. أما تأثير سيمونسون فكان مختلفاً كل الاختلاف، وقد نتج هذا التأثير عن أن سيمونسون أحبها.

إن الناس يعيشون ويتصرفون جزئياً بحسب أفكارهم، أما الجزء الآخر فبحسب أفكار الآخرين. والفرق بينهم يقوم على الطريقة التي يفكرون بها: من تلقاء أنفسهم، أو تبعاً للآخرين. فبعضهم -وهؤلاء هم الأكثرية- يعتبرون أفكارهم الخاصة وكأنها عمل دماغي؛ إنهم يستخدمون محاسنتهم كما تُستخدم عجلة قيادة تحررت من السير الناقل للحركة. فهم يُخضعون أعمالهم لأفكار الآخرين، للأفكار، والتقاليد، والقانون القائم. وبعضهم الآخر، يعتبرون فكرتهم الفردية وكأنها المحرك الرئيسي لسلوكهم. إنهم يصغون دائماً، تقريباً، إلى صوت العقل وينقادون لمقتضياته ولا يتبعون قرارات الآخرين إلا نادراً، وبعد فحص دقيق. كان سيمونسون ينتمي إلى هذه الفئة الأخيرة؛ لقد كان يزن الحسنات والسيئات، ويقرر وفقاً للنتائج التي يتوصل إليها، فإذا اتخذ قراره، وضعه موضع التطبيق.

لقد قدّر، وهو ما يزال طالباً، أن ثروة أبيه، وهو معتمد عسكري سابق، كسب غير مشروع. فأعلن أن من واجبه إشراك الشعب في أمواله. ولما زجره أبوه، بدلاً من أن يستمع إليه، هجر المنزل، وأبى الاستفادة من المعونات الأبوية. واستخلص أن مصدر جميع الآلام يكمن في جهل الشعب، ولهذا السبب، ترك الجامعة وانتسب إلى «حزب الشعب الثوري». وبعد أن عُيّن معلّم مدرسة في إحدى القرى، قام بدعاية جريئة بين الطلاب والفلاحين، معلماً إياهم ما يبدو له عدلاً، ومبيناً لهم ما يعتبره خطأً. فأوقف وحوكم.

وخلال الجلسة، قدّر أن القضية لا يملكون الحق في محاكمته، فقال لهم ذلك. وبما أن القضية لم يكونوا يشاركونه هذا الرأي، فقد تابعوا الدعوى. حينئذ رفض سيمونسون أن يجيب عن أسئلة القضية. فنُفي على مقاطعة «آر كانجلسك»، حيث وضع مذهباً دينياً كان ينوي أن يطبّقه. تقول هذه النظرية: إن كل ما يوجد يحيا؛ والموت غير موجود، والمواد اللاعضوية التي نظنها ميتة جزء من عضوية هائلة لا يمكننا الإحاطة بها. ولهذا السبب كان سيمونسون يعتبر كل إبادة للحياة جريمة؛ وكان عدواً للحرب، وللحكم بالإعدام، ولكل طرائق القتل على العموم، لا قتل الناس فحسب، بل قتل الحيوانات أيضاً. وكان لسيمونسون أيضاً نظريته في الزواج. كان يرى أن التناسل هو أحقر وظائف الإنسان، في حين أن أسمى وظائفه هي مساعدة الأحياء. وهذا الرأي، كان يجد تأييداً له في وجود الهضامات في الدم؛ العزّاب، برأيه، هم الهضامات التي تنحصر مهمتها في مساعدة الأجزاء الضعيفة أو المريضة في العضوية. ومنذ أن وضع هذه النظرية تقيّد بها في كل

شيء، على الرغم من أنه عاش منذ مراهقته حياة متهتكة. لقد كان يعتبر نفسه الآن ويعتبر ماريًا بافلوفنا، شبيهين بالهضّامات في هذا العالم.

لم يدمّر حبه لكاتيوشا هذه النظرية، لأنه أحبها حباً أفلاطونياً؛ وكان يرى أن مثل هذا الحب، لا يمنع الناس من ممارسة نشاطهم، نشاط الهضّامات، في خدمة الضعاف، بل إنه يث فيهم، على العكس، قوة جديدة. وفضلاً عن طريقته في حل مشكلات الأخلاق، كان لسيمونسون أيضاً طريقته في حَسْم معظم المسائل العملية. وبصدد هذه المسائل وضع قواعد تتعلق بعدد ساعات العمل والراحة، وكيف ينبغي أن يتغذى، ويلبس، وكيف يُشعل المدفأة وينظّم الإضاءة.

ومع هذا كله، كان سيمونسون يتّصف بحياء وتواضع بالغين. لكنه إن عَزَم على أمرٍ، لم يثنه عن عزمه شيء.

لقد حظي هذا الرجل إذاً بتأثير غالب في ماسلوفاً لأنها أحبها. تبينت ذلك كاتيوشا على الفور بحدسها النسائي. وكونها قد استطاعت أن تُلهِم الحب رجلاً «غير عادي» مثله، رفَعها في عيني نفسها. إن نيكليودوف عرض عليها الزواج، بكرم نفسه، ولكي يُصلح ما فرط منه، أما سيمونسون فكان يحبّها كما هي، كان يحبها وكفى. ثم إن سيمونسون كان يراها امرأة غير عادية، مختلفة عن الأخريات، أوتيت صفات خُلُقِيّة رفيعة جداً. ولم تكن تعلم بالضبط ما عسى أن تكون تلك الصفات، لكنها كانت في كل الأحوال، ولكي لا تخيّب ظنّه، تحرّص على أن تحرّض في نفسها أعلى الفضائل التي يمكن أن تتصوّرّها. وكان هذا يضطرّها إلى أن تقوم بجهدٍ دائم بُغية تحسين ذاتها.

بدأ ذلك في السجن، في يوم مخصص لزيارة السجناء السياسيين. أحسّت كاتيوشا حينذاك بهاتين العينين العميقتي الزرقاء، البريئتين والمليئتي بالطيبة، تحت هذه الجبهة المقوسة وذنيك الحاجبين الكثيفين، أحسّت بهما تحطّان عليها. وعلى الفور أدركت ما في هذا الرجل من تفرّد. كان ينظر إليها نظرة مختلفة عن نظرة الآخرين، وقد لاحظت التناقض المدهش حقاً الذي شكّلته على وجهه قسوة الشعر المعقّد والحاجبين المقطبين في مقابلة العذوبة الطفولية والبريئة في نظره. ثم رأتَه بعد ذلك في «تومسك» عندما نُقلت إلى زمرة السجناء السياسيين. وعلى الرغم من أنهما لم يتبادلا كلمة واحدة بينهما، فإن نظراتهما قالتا إن كلا منهما يذكر الآخر، وباحثاً بالتقدير المتبادل بينهما. لم تجر بينهما أية مكاشفة، لكن ماسلوفا كانت تحس، في حضرته، أنه يوجه كلامه إليها، ويتكلم لأجلها، ويعبّر بطريقة يمكن أن تفهمها أحسن فهم. لقد بدأ تقاربهما الحقيقي منذ التاريخ الذي انضمّ فيه إلى سجناء الحق العام، ليسير بصحبتهما.

× × ×

من «نيجني نوفغورود» إلى «بيرم»، لم يتمكن نيكليودوف من أن يرى كاتيوشا سوى مرتين: مرة في «نيجني» قبل إبحار السجناء على باخرة مغطاة بشبكة كثيفة من الفضيان، ومرة ثانية في «بيرم» في مكتب مدير السجن. وفي المرتين وجدها منغلقة على ذاتها وعدائية. وعن سؤاله: «كيف صحتُها؟» و«ألا تحتاج إلى شيء؟» أجابت بطريقة، مرتبكة، وبلهجة الملامة التي تذكر بما أبدته من عدااء في مناسبات أخرى. إن هذا المزاج السيء الذي يرجع فقط إلى المضايقات التي كانت عُرضةً لها، في هذه البرهة، قد أفلقت نيكليودوف مع ذلك. كان يخشى ألا تعود كاتيوشا، بتأثير الحرمان والأجواء المشؤومة التي تعيش فيها، إلى السقوط في تلك الحالة من عدم الوئام الداخلي ومن اليأس الذي كان يؤجج حقدَها عليه ويدفعها إلى الشراب والتدخين لتنسى.

لم يستطع أن يساعدها في شيء، لأنه لم يحصل على الإذن برويتها، في المرحلة الأولى. بعد انتقالها إلى ما بين السجناء السياسيين فقط، لم يقتنع نيكليودوف فقط بأن مخاوفه كانت باطلة بل وأيضاً بأن التغير

الداخلي الذي تمنّاه بشدة، كان يتعاضم فيها عند كل مقابلة. ومنذ أول لقاء في «تومسك» وجدها كما كانت قبل السفر. فعندما رآته لم تعبس في وجهه؛ على العكس، لقد استقبلته بفرح صادق، وشكرته على أنه أتاح لها مرافقة هؤلاء الذين ترافقهم الآن.

وبعد شهرين من المسير على مراحل، تجلّى التغير الذي طرأ عليها حتى في مظهرها الخارجي. فنحفت، ولوّحتها الشمس، وبدا عليها الكبر، وتكونت التجاعيد على صدغيها وحول فمها. وكانت تلفّ رأسها بخمار، بدلاً من أن تغطي جبهتها بشعرها. ولم تحتفظ بأي أثر من غنجها السابق، لا في لباسها، ولا في زينة شعرها، ولا في قوامها. وكان هذا التغير المتعاضم يوفّر لنيكليودوف فرحاً عظيماً. أخذ يحس نحوها بشعور جديد، لا جامع يجمع بينه وبين اندفاعته الشعرية الأولى قديماً، ولا بينه وبين الغرام الجنسي الذي ساوره فيما بعد. وإنما كان إحساساً بالشفقة والحنان الذي انتابه لدى أول زيارة له للسجن، والذي اشتد بعد انتقالها إلى المشفى، وذلك عندما غالب اشمئزازه، وغفر لكاتيوشا مغامرتها الغرامية المفترضة مع الممرض، وهي قصة استطاع، فيما بعد، أن يكشف عن عدم صحتها. إحساس واحد، مع هذا الفرق الوحيد هو أنه غدا مستمراً بعد أن كان متقطّعاً. كان نيكليودوف يحس، مهما فُكّر أو فعل الآن، باندفاع الشفقة والحنان تتملّكه، لا نحوها فحسب بل نحو الإنسانية بأسرها. فكان نبعاً ثراً من الحب قد انبجس في نفسه، نبعاً لم يكن يجد مخرجاً في بادئ الأمر، لكنه أخذ يسيل الآن نحو جميع الذين يلقاهم. وأثناء هذه الرحلة كلها، ألفى نيكليودوف نفسه في حالة من التسامح نحو أمثاله من البشر. كان يهتم بكل الناس بدءاً

من الحوذيين والجنود المرافقين إلى مديري السجون والحكام الذين له بهم علاقة.

وعلى أثر انتقال ماسلوف إلى ما بين السجناء السياسيين، سنحت الفرصة لنيكليودوف أن يتعرف إلى الكثير من هؤلاء. سنحت هذه الفرصة أولاً في «إيكاتيرنبرج»^(٤٤) حيث كان «السياسيون» يتمتعون بحرية عظيمة لاجتماعهم في مَهْجَع واسع، واحد. وبعد ذلك، أثناء مراحل السير، أقام نيكليودوف علاقات مباشرة مع خمسة الرجال وأربع النساء من المجموعة التي كانت ماسلوف فيها. وهذه الصلات بالسجناء السياسيين بدّلت رأيه فيهم.

ففي بداية الحركة الثورية في روسيا، ولاسيما بعد الأول من آذار، كان نيكليودوف يشعر نحو الثوريين بالعداء والاحتقار. كان يستنكر قبل كل شيء قسوتهم وطرائقهم المتخفية التي يستخدمونها ضد الحكومة. وأسوأ من ذلك ما كان يستفظعه من وحشية الاغتيالات المرتكبة، كما كان مشمئزاً من اعتدادهم الذي لا حد له والذي كان يميزهم جميعاً، بلا استثناء. لكنه عندما ازداد معرفة بهم، وعندما علم كيف تُعاملهم الحكومة، أدرك أنه لم يكن من الممكن أن يكون غير ما كانوا عليه.

مهما تكن طائشة المعاملة السيئة التي يُعامل بها مَنْ يُزَعَم أنهم

٤٤ - إيكاتيرنبرج: مدينة في الأورال أسست في عهد كاترين الثانية، وهي تسمى اليوم «سفيردلوفسك» على شرف المفوض جاك سفيردلوفا الذي قضى فيها على العائلة الإمبراطورية في ١٨ تموز ١٩١٨.

بجرم الحق العام، فقد كانت الإجراءات معهم تتخذ مع ذلك مظهراً من مظاهر العدالة، بعد الحكم وقبله على حد سواء. أما القضايا السياسية فلم تكن تحظى بهذا المظهر من العدالة، كما تحقق نيكليودوف من ذلك أثناء محاكمة شوستوفا، وفيما بعد، وهو يصغي إلى ما كان يرويه له معارفه الجدد. أما الإجراءات نحو الثوريين فكانت شبيهة بصيد الشبكة، إذ يُلقى على حافة النهر كل ما تحمله الشبكة من سمك، ويُختار كبار السمك، ثم يُهمل صغارها ليتعفن في مكانه. وهكذا كان يلتقط مئات الأبرياء، العاجزين، بطبيعة الحال، عن إيذاء الحكومة. وهؤلاء الأبرياء، كان يُحتفظ بهم في السجن، لمدة سنوات أحياناً، فيصابون فيه بالسل، أو يفقدون عقولهم، أو ينتحرون. كانوا يحتفظون بهم، لعدم وجود الأسباب الموجبة لإخلاء سبيلهم، أو لأن بقاءهم تحت الطلب قد يفيد في توضيح نقطة غامضة في التحقيقات. ومصير جميع هؤلاء البائسين، وهم في كثير من الأحيان أبرياء حتى في نظر الحكومة، منوط بتعسف الدركي أو رئيس الشرطة، أو الواشي أو النائب العام، أو قاضي التحقيق أو الحاكم أو الوزير، ومنوط بأوقات فراغهم، وبأمزجتهم. فإذا انتاب الضجر أحد هؤلاء الموظفين، أو إذا شاء أن يبرز ذاته، أمر باعتقال الناس، واستبقاهم في السجن أو أخلى سبيلهم تبعاً لمزاجه أو مزاج رؤسائه. والرئيس الأعلى، هو أيضاً، يأمر بالنفي إلى الطرف الآخر من العالم، ويقرر الحبس الانفرادي أو يحكم بالنفي وبالأشغال الشاقة وبالإعدام، تبعاً لحاجته إلى البروز أو إلى تحسين علاقاته بالوزير، ما لم يفتح أبواب السجن لأن سيدة نبيلة قد رجته أن يفعل ذلك.

كان الثوريون الذين يُعاملون كما يُعامل العدو في أوقات الحرب

يتبنون بصورة طبيعية الأساليب نفسها التي استخدمت ضدهم. وكما أن الجنود يخضعون فيما يفعلونه لتأثير الرأي العام الذي لا يكفي أن يتستر على ما في أفعالهم من إجرام، بل إنه يعرضها عليهم بألوان بطولية، فكذلك الثوريون كانوا يتقيدون برأي من حولهم. فالجرائم الوحشية التي يرتكبونها، مجازفين بحريتهم وبحياتهم وبأعز ما يملك الإنسان، لا تبدو لهم جرائم وحشية، وغنما مآثر حقيقية.

بهذه الطريقة، كان نيكليودوف يفسر لنفسه تلك الظاهرة الخارقة للعادة إذ يُقدِّم أناس أوتوا طبعاً مسالماً، أناس لا يحجمون فقط عن إيلاام الآخرين، بل إنهم لا يقوون على احتمال منظر الآلام، يقدمون على القتل بهدوء. وكانوا جميعاً، تقريباً، يؤكدون أن القاتل صاحب حق، في بعض الحالات، مهما يكن سلاح جريمته، ومهما تكن الوسائل لبلوغ هدفه: أي لخير الإنسانية. إن هذا التصور العالي الذي يحمله الثوريون عن قضيتهم، وبالتالي عن أنفسهم، ناشئ، بصورة طبيعية، عن الأهمية التي تنسبها إليهم الحكومة، من جهة، ومن جهة ثانية، عن شدة العقاب الذي يتعرضون له. وينبغي أن يكون للمرء هذا الرأي العالي بنفسه ليقوى على احتمال ما يكابده هؤلاء الناس.

استطاع نيكليودوف أن يقتنع. من معاشرته لهم، أنهم لم يكونوا جميعاً مُسيئين، كما قد يتصور ذلك بعضهم، ولا أبطالاً كما يعتقد ذلك آخرون. وإنما كانوا أفراداً عاديين جداً، بينهما الصالح والطالح ومن هو بين بين، شأنهم شأن الناس في كل مكان. بعضهم صار ثورياً لأنه كان يعتقد بصدق أن من واجبه محاربة الشر المحدث. وبعضهم اختار هذه الطريق لدوافع أنانية، طموحة. أما الأكثرية العظمى فقد

جذبها إلى الثورة ميلها إلى الخطر والمجازفة، ولذة المغامرة بالحياة. هذه المشاعر التي خبرها نيكليودوف بنفسه في الحرب، مشاعر معهودة لدى الشباب المثقلين بطاقتهم. والفرق بين الثوريين وعامة الناس - وهو فرق يمتازون به من غيرهم - يكمن في أن تطلّباتهم الأخلاقية أعلى بالقياس إلى التطلّبات المقبولة في أوساط الناس العاديين. ومن بينها يجب ألا نعدّ فقط الزهد والتقشف الأخلاقي، والصراحة، والتجرّد من المصلحة الذاتية، بل وأيضاً تلك القدرة على التضحية بكل شيء في سبيل القضية، حتى بالحياة. وبما أن الثوريين الذين يتجاوزون المستوى العام إنما يتجاوزونه إلى آماذ بعيدة، فقد كانوا نموذجاً لسمو أخلاقي نادر. في حين أن الثوريين الذين كانوا دون الوسط لم تكن لهم قيمة تُذكر في الحقيقة. كانوا يبدون في الغالب كذابين، منافقين وفي الوقت نفسه ممتلئين بالغرور والكبرياء. ولهذا السبب، كان نيكليودوف يشعر بالاحترام، بل بالمودة لبعض معارفه الجدد؛ بينما لم يكن يحس تجاه غيرهم بغير اللامبالاة.

× × ×

تعلق نيكليودوف تعلقاً خاصاً بشاب مسلول يُدعى كريستوف، محكوم بالأشغال الشاقة، كان يسافر برفقة كاتيوشا. تعرّف به نيكليودوف في «ايكاتيرنبرج، وأثناء الطريق، أُتيح له، غير مرة، التحدث معه. وفي ذات يوم من أيام الصيف، أثناء التوقف، قضى معه النهار بأكمله تقريباً، فروى له كريستوف قصته، وأوضح له كيف أصبح ثورياً. وكانت قصته مقتضبة، على الأقل حتى فصل اعتقاله. كان أبوه ملاكاً ثرياً للأرض في إحدى مقاطعات الجنوب، وقد مات وهو ما يزال طفلاً. كان وحيداً، فرّبته أمه. وأنهى بسهولة دراسته في المعهد الثانوي، وفي الجامعة التي تخرّج منها الأول في كلية العلوم. وعُرض عليه السفر إلى الخارج على نفقة الجامعة، فتردد لأنه كان عاشقاً لفتاة كان يفكر في الزواج بها، كما كان ينوي دخول الإدارة الإقليمية، وكان، في أعماقه، يود الحصول على كل شيء، لكنه لم يكن يقرر شيئاً. في هذا الوقت، طلب إليه بعض رفاقه الجامعيين القدامى التبرع بمبلغ من المال في سبيل القضية العامة، وكان يعلم أنها قضية الثوريين التي لم يكن يهتم بها بتاتاً. ورضي بالتبرع مدفوعاً بروح الرفقة، وأيضاً بحب الذات كي لا يرى نفسه متهماً بالجن.

وبعد قليل، اعتُقل الرفاق. وبما أن الأوراق المكتوبة التي تثبت تبرع كريلتسوف عُثر عليها معهم، فقد أُوقف وسُجن، في مركز الشرطة أولاً، ثم في السجن.

روى كريلتسوف، وهو جالس على طاولة عالية، مقعر الصدر، متكئاً بمرفقيه على ركبتيه:

— في السجن الذي أرسلوني إليه، لم يكونوا شديدي القسوة.

كان يرمي نيكليودوف بين وقت وآخر بنظرة من عينيه الملتمعتين من الحمى، الذكيتين والوديعتين. وأردف:

— لم يكن بوسعنا فقط تبادل الرسائل بالدق على الجدران، لكننا كنا نستطيع التمشي في الأروقة، والمحادثة، واقتسام مؤننا والتبغ. وفي المساء، كانوا يسمحون لنا بالغناء الجماعي. كان صوتي جميلاً... نعم... ولولا أمي المسكينة التي أرهقها أساها، لكنتُ مرتاحاً في السجن، ولكنتُ اعتبرت سجني تجربة مثيرة وجديرة بالاهتمام. وفي السجن عرفتُ بيتروف الشهير الذي شق شرايينه، فيما بعد، بشظية زجاج. في سجن القلعة. وعرفت كثيرين غيره أيضاً. لكني لم أكن ثورياً. عرفت جارين من جيران الزنزانة حُبسا في قضية واحدة: في قصة بيانات بولونية، وكانا سيحاكمان بتهمة محاولة الفرار أثناء سوقهما إلى المحطة. كان أحدهما البولوني «لوزنسكي»، وكان الآخر يُدعى روزوفسكي. نعم... وروزوفسكي لم يكن بعد سوى صبي؛ كان يؤكد أن عمره سبعة عشر عاماً، له عيان سوداوان، متوقدتان، وكان موسيقياً جيداً. لم يكن صوته قد تشكّل بعد، لكن غناؤه كان

رائعاً. اقتيدا منذ الصباح الباكر فلما عادا في المساء، قالا لنا إنهما
حُكما بالإعدام. لم يكن أحد يتوقع هذا الحكم، لأن حالتهما لم تكن
خطيرة.... لقد حاولا أن يفرا من حرسهما، دون أن يجرحا أحداً.
كيف يجوز إعدام طفل مثل روزوفسكي! نحن جميعاً في السجن
حسبنا أنهم يحاولون تخويله فقط، وأن الحكم لن يثبت، بالتأكيد.
انفعلنا، في بادئ الأمر، لكن الحياة ما لبثت أن عادت إلى سابق
مجراها. نعم... بيد أن الحارس جاء ذات مساء إلى بابي، وأخبرني سراً
أن النجارين جاؤوا لينصبوا المشنقة. لم أفهم في البداية: عم يتحدث؟
أية مشنقة؟ لكن الحارس كان مضطرباً جداً حتى أنني أدركت حين
نظرت إليه أنها ستنصب لجاري. أحببت أن أدق على الجدار لأكلم
رفاقي، لكنني خشيت أن يتمكنوا من سماعنا. وقد صمت الآخرون
أيضاً، والظاهر أنهم كانوا على علم بالأمر. وخيم صمت الموت، في
هذا المساء، على الأروقة والزنايات. لم يتخاطب السجناء بالإشارات
ولم يغنوا. وفي الساعة العاشرة، عاد الحارس ليخبرني أن الجلاد
سيأتي من موسكو. قال هذا وانصرف فناديته ليعود. وفجأة سمعتُ
روزوفسكي يصيح بي من زنزانه، عبر الرواق:

— ماذا تريد؟ لماذا ناديته؟

فأجبتة بما عن لي من جواب، قلت له: إني طلبتُ إلى الحارس أن
يأتيني بتبغ. ولاشك أن الشكوك قد أخذت تراوده، لأنه سألني لماذا
انقطعنا عن الغناء، ولماذا لم نتبادل الإشارات المعهودة. ولا أذكر بماذا
أجبتة، لكنني سارعت إلى الابتعاد عن الكوة لكي لا أضطر إلى الكلام
معه.

كانت ليلة رهيبة. كنتُ أصيخُ السمع لألتقط أدنى نأمة. وفجأة، سمعتُ في الفجر أبواب الرواق تفتح. الآتون كُثُرٌ. وقفت قرب كوة الباب: في الممر، مصباح مضيء جاء المدير أولاً، وهو رجل بدين، يبدو واثقاً من نفسه. كان وجهه هذه المرة، شاحباً ممتعاً، كالمرعوب. وخلفه كان يسير نائب المدير، متجهماً، لكنه واثق الهيئة. وأخيراً الحراس. مروا أمام بابي ووقفوا أمام الزنزانة المجاورة. أصغيتُ: كان نائب المدير يصرخ: «لوزنسكي، انهض! والبس ثياباً داخلية نظيفة!» نعم... سمعتُ الباب يصرّ؛ لقد دخلوا إلى زنزانتة... وبعد ذلك، خطوات لوزنسكي. كان يمر من جهة الرواق المقابلة. لم أر سوى المدير. كان شاحباً لا يني يحل أزرار سترته، ثم يزرّرها بعصبية، وهو يهز كتفيه. وفجأة انتحي جانباً، كالمروّع: لقد تخطّاه لوزنسكي ودنا من بابي. كان فتى جميلاً، من ذلك النمط البولوني الجميل، كما تعلم، ذا جبهة عريضة وعالية، وشعر أشقر غزير، ناعم جداً ومجمّد، وعينين زرقاوين، بديعتين. كان شاباً في أوج تفتّحه، مليئاً بالحياة والصحة... وقف أمام كوّتي بحيث أمكنني أن أراه مواجهة. كان وجهه مُرعباً، منهوئاً، أدكن. سألني: «كريلتسوف، أمعك سيجارات؟».

أردتُ أن ألبّي طلبه، لكن النائب المدير خشي، من غير شك، أن يصل متأخراً، فأخرج من جيبيه علبة السجائر وناولها إياها أخذ لوزنسكي سيجارة، فأشعل نائب المدير عود ثقاب وقدمه له. ظل لوزنسكي واقفاً يدخن، كمن غاب في أفكاره. ثم صرخ، وكأن فكرة عنت له: «إن هذا لقاسٍ وظالم. إني لم أقترف إثماً. أنا...»

وعلى عنقه البيضاء، الفتية، التي لم أستطع أن أرفع بصري عنها،

أخذ شيء يرتعش. وتوقف... نعم... في هذه اللحظة، سمعتُ روزوفسكي يصرخ بشيء في الرواق، بصوته الرخيم. رمى لوزنسكي عقب سيجارته. ومن الفتحة ظهر وجه روزوفسكي المتصبب عرقاً. كانت عيناه مبللتين. وكان هو أيضاً يلبس ثياباً نظيفة؛ كان بنطاله مفرط الاتساع، فكان يرفعه بكلتا يديه وهو يرتجف. اقترب من كوتي: «أنا تولى بيتروفتش، ألم يصف لي الطبيب منقوع الأعشاب للسعال؟ أنا مريض، وأحب أن أشرب هذا المنقوع...» لم يُجبه أحد. وأخذ ينظر إلي تارة، وإلى المدير تارة أخرى، نظرة مستفهمة. ولم أتمكن من فهم ما أراد أن يقوله لي، نعم... وفجأة راح نائب المدير يصرخ بصوت ثاقب، وهو بادي الصرامة: «ما هذا المزاح؟ لنمش!» وكان واضحاً أن روزوفسكي لم يدرك ما ينتظره. فقد انطلق كالمتعجل، وهو يكاد يركض، سابقاً الجميع في الرواق. وفجأة توقف، وسمعتُ صوته الحاد، ونحيبه. واختلطت الأصوات، ثم سُمع وقع الأقدام. كان روزوفسكي يصرخ بصوت مثير للشفقة، كان يكي. وابتعد الصوت، ثم ابتعد... وأغلق باب الرواق بجلبّة. وعاد كل شيء إلى الصمت... نعم... وهكذا سُنقاً! خنقوهما بالحبّل كليهما. لقد رأى الحارس -وهو حارس آخر- كل شيء، وروى لي أن لوزنسكي لم يُبدِ مقاومة، بينما تخبّط روزوفسكي كثيراً بين أيديهم، وكان لابد لهم من أن يجروه جراً إلى المشنقة وأدخلوا رأسه في أنشودة الحبّل بالقوة... نعم.... كان هذا الحارس شاباً غيباً! «لقد قيل لي، يا سيدي، إن الشنق رهيب، لكنني لم أرفيه ما يرهّب. فما كادوا يشنقوهما حتى فعلا هكذا مرتين بكتفهما -وأراني كيف أن الكتفين ارتفعتا وانخفضتا بحركة

تشنجية-... ثم جذب الجلاد الحبل جذبة قوية، ليُحَكِّم شد العقدة، كما تعلم، وانتهى كل شيء، وكفّا عن الحركة. وليس في ذلك ما يُرهب!...». وختم كريلتسوف كلامه وهو يردد كلمات الحارس.

أراد أن يتسّم، لكنه أخذ يتحبّب. ولزم الصمت طويلاً وهو يتنفس بجهد، بالعا زفرااته التي كادت تخنقه.

وقال بعد أن هدأ:

- ومنذ ذلك الوقت، أصبحتُ ثورياً. نعم...

وروى حينئذٍ بإيجاز بقية قصته.

لقد انضم إلى حزب محرري الشعب ووُضع على رأس جماعة من المخربين الذين مهمتهم إرهاب الحكومة حتى يجبروها على التنازل عن السلطة لمصلحة الشعب. وعند خروجه من السجن، قصد تارة إلى بطرسبرج، وتارة أخرى إلى الخارج، أو إلى كييف، أو إلى أوديسا، فوَقَّع في مهمته حيثما ذهب. لكن رجلاً كان يثق به ثقة تامة باع نفسه ووشى به. فاعتُقل، وحوكم، وألزم السجن سنتين، ثم حُكِم عليه بالإعدام الذي خُفف إلى الأشغال الشاقة المؤبّدة.

في السجن أُصيب بالسل، ولعله لم يبق له، في هذه الظروف التي يعيش فيها، سوى أشهر معدودات يحياها. كان يعلم ذلك، لكنه لم يكن نادماً على ما فعل، مؤكّداً أنه لو وُهب حياة ثانية، لكان مستعداً أن يضحّي بها في سبيل القضية نفسها، لكي يَقلب النظام الذي تمّت فيه تلك الأحداث التي كان شاهداً عليها.

إن قصة هذا الرجل، ومصاحبه له، فتحتا عيني نيكليودوف
على كثير من الأشياء لم يستطع فهمها قبل ذلك.

× × ×

في اليوم الذي حدثت فيه المشادة بين الضابط المرافق والسجناء بشأن الطفلة الصغيرة، نام نيكليودوف في النزل، واستيقظ متأخراً. وتأخر أيضاً في كتابة الرسائل التي أراد أن يضعها في بريد مركز المقاطعة. ولذلك سافر متأخراً عن عادته، ولم يستطع أن يدرك القافلة في الطريق، كالمرات السابقة، ولكنه لحق بها في القرية حيث كانت القافلة تستريح استراحة نصف المرحلة. وأخذ النهار يؤذن بالانتهاء. فعرج على نزل تديره أرملة عجوز بدينة. ضخمة العنق إلى حد لا يصدق، وجفف ثيابه، وشرب الشاي في غرفة المسافرين، المزدانة بعدد من الأيقونات واللوحات، ثم أسرع في الذهاب إلى مكان توقف القافلة في تمام المرحلة، وذلك لكي يطلب من الضابط أن يسمح له بمقابلة ماسلوف.

في أثناء المراحل الست السابقة، لم يسمح أي من الضباط المرافقين لنيكليودوف بدخول فناء التجمع، ولذلك فهو لم ير كاتيوشا منذ ستة أسابيع. وقد جاءت هذه القسوة من أنهم كانوا ينتظرون زيارة موظف كبير، مرتبط بالسجون. أما الآن فإن هذا المسؤول مرّ، حتى دون أن

يلقي نظرة. وكان نيكليودوف يرجو أن يسمح له الضابط الذي تولّى إدارة القافلة في هذا الصباح، بمقابلة كاتيوشا.

عرضت عليه صاحبة النزل عربة تحمله إلى الطرف الآخر من القرية حيث توقفت القافلة، لكنه آثر أن يذهب مشياً على قدميه. وتقدّم عامل شاب، عملاق حقيقي، عريض المنكبين، يحتذي جزمة دُهنت حديثاً بشحم أسود نفاذ الرائحة، فعرض أن يقود الزائر. كان الضباب الكثيف قد تشكّل، وأظلم الجو حتى توارت أضواء المنازل على ثلاث خطوات. لم يكن نيكليودوف يميّز دليله، لكنه كان يسمع جزمته الثقيلة تخبط في الوحل السميك، اللزج.

بعد أن عبّر نيكليودوف ساحة الكنيسة، واجتاز شارعاً طويلاً تضيئه نوافذ البيوت، بلغ أطراف القرية، وهو غارق في الظلمة الخالكة. لكن ما لبثت أضواء المصابيح التي تنير مركز حراسة القافلة، أن بددت ظلمة الضباب. وشيئاً فشيئاً، أخذت تشتد بقع النيران الحمراء، وأمكن تمييز أوتاد السياج، وشبح الحارس المظلم، وعموداً مخدداً، وكوخ حراسة. صرخ الحارس صرخته المعتادة: «مَنْ الآتي؟»، ولما علم أنه بإزاء شخصين غريبين عن القافلة، أمرهما بمتابعة طريقهما، صائحاً بهما أن التوقف محظور في هذا المكان. فلم يكثرث له دليل نيكليودوف، وصاح به:

— مهلاً، يارجل، ولا تغضب! اذهب ونادِ رئيسك، وسوف ننتظر.

صرخ الحارس بشيء من خلال القضبان، دون أن يجيب. وظل

مكانه يحدق في العملاق الشاب الذي جهد في تنظيف حذاء نيكليودوف من الوحل العالق به، بقطعة من خشب، على ضوء المصابيح. وخلف الحباك كانت تُسمع ضوضاء أصوات النساء والرجال. ومضت ثلاث دقائق في الانتظار، ثم سُمع صرير قفل؛ فُتح الشباك، وظهر في النور عريف، ومعطفه مُلقى على كتفيه. سألهما ماذا يريدان. فمدّ نيكليودوف إليه بطاقته التي كتب عليها طلبه الإذن بمقابلة الضابط، من أجل قضية شخصية. بدا العريف أقل قسوة من الحارس، لكنه أظهر، بالمقابل، قدراً أكبر من الفضول. كان يريد أن يعلم. بأي ثمن، مَنْ نيكليودوف، ولماذا يريد أن يقابل الضابط. والظاهر أنه تحسس إمكان كسب مكافأة، ولم يشأ، أن يدع الفرصة تمر. فأنبأه نيكليودوف أن القضية قضية خاصة، وأنه سيكافئه. وكرر رجاءه بأن يسلم الضابط بطاقته. فقبل العريف ذلك مع إيماء من رأسه بالموافقة وابتعد. بعد قليل، صرّ القفل مرة أخرى، وعبرت العتبة نساء يحملن سلالاً، وطاسات من الخشب، وأباريق للحليب، وأكياساً. وتحدّثن حديثاً صاخباً بلهجة سييرية غريبة. كن جميعاً لابسات، لا كما تلبس الفلاحات، بل كما تلبس نساء المدن: من معاطف ومن ستر الفرو، وقد شمرن تنانيرهن حتى ركبهن، وغطين رؤوسهن بخمار. تفرّسن في نيكليودوف ودليله بفضول، على ضوء المصابيح. وقد سُرّت إحدهن سروراً ظاهراً برؤية هذا الدليل القوي البنية، فخاطبته باللهجة السييرية قائلة له:

— هيه! أيها الشيطان المريد، ماذا جئت تفعل هنا؟

أجاب الشاب:

– اصطحبتُ مسافراً. وأنتِ ماذا تحملين؟

– حليبا. قالوا لي أن آتي في الصباح.

فقال الفتى مازحاً:

– أ لم يحتفظوا بكِ ليلتهم؟

صاحت وهي تضحك:

– قطع الله لسانك، أيها المهذار! لنعد إلى القرية معاً، اصحبنا.

قال الدليل شيئاً دفع الجميع إلى الضحك الصاخب، النساء والحارس أيضاً، ثم التفت إلى نيكليودوف وسأله:

– تستطيع أن تهتدي إلى طريقك وحدك؟ ولن تضلّ فيه؟

– سأهتدي إليه، بدون شك.

وأضاف وهو يُعطي نيكليودوف العصا التي هي أطول منه والتي استخدمها في سيره:

– بعد مرورك بالكنيسة، البيت الثاني، على اليمين، بعد البيت الذي بطابقين.

وتوارى في الظلمات، بصحبة النساء، وهو يجر حذاءه الضخم جراً.

× × ×

هذه الوقفة، في نصف المرحلة، كانت شبيهة بجميع الوقفات الأخرى على طريق سيبريا: ففي الفناء الذي يحيط به حباك من الأوتاد المسننة، ثلاثة بيوت للسكن بطابق واحد. وإلى أحدها أوى السجناء؛ كان أكبر البيوت، وله نوافذ مسيجة بقضبان حديدية. وخُصص البيت الثاني للحراس. وفي الثالث أقام الضابط المشرف على القافلة ورجال الإدارة. وكانت نوافذ البيوت الحسنة الإضاءة توقع الناظر في وهم خادع، وهو أن في داخل هذه البيوت ضرباً من الرفاهية. كانت المصابيح تضيء درج المداخل، وكانت خمسة مشاعل مثبتة في الجدران تنشر النور في الفناء. قاد العريف نيكليدوف على طول الرصيف الخشبي حتى درج مدخل أصفر البيوت الثلاثة. وأدخله غرفة انتظار يضيئها مصباح صغير تنبعث منه رائحة كريهة من غاز الفحم. وقرب المدفأة، انحنى جندي بقميص خشن، وربطته العسكرية حول عنقه، وبنطال أسود، وفي قدميه فردة جزمة واحدة لها ساقية شقراء، ليسرّ جمر السماور بواسطة فردة الجزمة الأخرى^(٤٥).

٤٥ - ليسرّ جمر السماور بواسطة فردة الحذاء الأخرى: أي أن الجندي كان يستخدم ساقية جزمته كما يستخدم المنفاخ ليؤجج الجمر في أنبوب السماور.

عند مرأى نيكليودوف، ترك السماورَ مكانه، وساعد الزائر على خلع سترته الجلدية، ومضى إلى الغرفة المجاورة ليُعلن:

— لقد حضر، يا صاحب السيادة.

فدمدم صوت غاضب:

— حسناً! أدخله.

قال له الجندي الذي عاد في الحال إلى تسعير السماور.

— تفضل، من هنا.

في الغرفة المجاورة التي كان يُنيرها مصباح معلق بالسقف. كان الضباط جالسا إلى طاولة ماتزال مغطاة ببقايا الطعام وبزجاجتين، وكان وجهه محتقناً جداً، وقد ازدان بشاريين أشقرين كثيفين. وكان يرتدي سترة تبرز صدره الهائل الحجم وكتفيه العريضتين. وانتشر في الغرفة الدافئة، عطر واخز وسوقي، فضلاً عن رائحة التبغ. نهض الضابط نصف نهضة. عندما رأى نيكليودوف، وحدجه بنظرة تنمّ في آن واحد على الحذر وعلى السخرية، فيما يبدو. وسأله:

— فيمَ ترغب؟

ودون أن ينتظر الجواب، صرخ نحو الباب:

— بيرتوف! هذا السماور، إلامَ سيبقى؟

— في الحال، يا صاحب السيادة.

فأرعد الضابط وقد برقت عيناه:

— سأعطيك «في الحال» شيئاً لن تنساه!

صاح الجندي وهو يدخل حاملاً السماور:

— ها قد جئتُ به، يا صاحب السيادة!

انتصر نيكليودوف أن يضع الرجل السماور على الطاولة، في حين كان الضابط يلاحق مرؤوسه بنظرة، من عينيه الصغيرتين الشريرتين، وكأنه يريد أن يباغته متلبساً بجرمه. وعندما وُضع السماور في مكانه حضر الضابط الشاي. ثم تقدّم من الصوان فتناول منه زجاجة مربّعة ملأى بالكونياك، وبسكويت «ألبير»، وبعد أن وُضع كل ذلك على الطاولة، التفت إلى نيكليودوف وهو يسأله:

— إذن، فيم أستطيع أن أخدمك؟

أجاب نيكليودوف، دون أن يجلس:

— أود أن أرجوك أن تسمح لي بمقابلة سجينه.

أجاب الضابط:

— «سياسية»؟ النظام يحظر ذلك.

فأوضح نيكليودوف:

— هذه المرأة ليست سبجينة سياسية.

قطعه الضابط:

— أرجوك أن تجلس.

استأنف نيكليودوف وهو يتّخذ مكانه:

- إنها ليست سجيناً سياسية، لكن السلطات العليا سمحت لها،
على أثر الطلب الذي قدّمته، أن تنضمّ إلى زمرة السياسيين...

قاطعها الضابط:

- آه! أعلم! سمراء قصيرة؟ ولم لا، الأمر ممكن جداً. أتحب أن
تدخن؟

ومدّ نحو نيكليودوف علبة السجائر. ثم ملأ بأناءة فنجانين من
الشاي، وقدم لزائرهما أحدهما قائلاً:

- أرجوك.

- أشكرك. أود أن أراها...

- الليل طويل، وفي الوقت متّسع. سأستدعيها.

سأله نيكليودوف:

- أليس من الممكن السماح لي بالذهاب إليها، بدلاً من استدعائها.

- الذهاب إلى «السياسيين»؟ هذا مخالف للأنظمة.

- لقد سُمح لي بذلك عدة مرات. وإذا كنت تخشى أن أعطي
السجناء شيئاً، فأنا أستطيع أيضاً أن أفعل ذلك بواسطة...

أعلن الضابط بضحكة كريهة:

— إيه! لا، فنحن نفتّشها.

— في هذه الحالة، فتشوني.

قهقه الضابط وهو يقرب الزجاجاة التي نزع سداداتها من كأس نيكليودوف.

— يمكننا الاستغناء عن ذلك. أتريد شيئاً من الكونياك؟ لا؟ كما تشاء. عندما يعيش المرء في سيبيريا فإنّ مما يُثلج صدره أن يجد رجلاً حسن التربية. لا بد أنك تعلم إلى أي حد خدمتنا كتيبة. والأمر أسوأ إذا كان المرء قد تعود شيئاً آخر. الناس يتصورون أن الضابط المرافق وحش فظ، ولا يريد أحد أن يصدّق أنه خُلق لشيء آخر.

إن وجهه الأحمر، ورائحته، والخاتم الذي يحمله في إصبعه، وبخاصة ضحكته الكريهة، كل ذلك قد نفّر نيكليودوف على نحو غريب. لكنه كان في هذا المساء، كما كان في الرحلة كلها، في حالة عظيمة من التفهم والجدّ، بحيث أنه لم يكن بوسعه أن يعامل أحداً، أياً كان، باحتقار واستخفاف. وكان يرى من الضروري أن يكلم الناس «بعمق»، كما كان يدعو في نفسه طريقته في التدفّق.

خُيّل إليه، وهو يصغي إلى الضابط، أنه فهم حالته النفسية، ولاحظ بلهجة جادة:

— أرى أنك تستطيع، في قيامك بواجبك، أن تجتهد عزاء لك بتخفيفك من آلام هؤلاء المساكين.

— أية كلام؟ أنت تعلم جيداً أي صنف من الناس هم.

فسخّط نيكليودوف:

— كيف، أي صنف من الناس؟ إنهم بشر مثل بقية الناس. وفيهم أبرياء.

— هذا مفهوم، ففيهم من جميع الأنواع، وأنا أرثي لحالهم، بكل تأكيد! بعض الضباط لا يتهاونون في شيء، فإني أحاول أن ألطف من قسوة مصيرهم، كلما استطعتُ ذلك. الأفضل أن أتألم أنا، لا هم. من الضباط من يلجأ إلى الأنظمة، على الفور، عند أقل حماقة؛ وقد يطلقون النار، حقاً! أما أنا فأرثي لهم...

وأردف وهو يصب الشاي، من جديد، لنيكليودوف :

— هلاً شربت! لكن من هي بالضبط، تلك المرأة التي تحب أن تراها؟

فأوضح نيكليودوف:

— إنها بائسة، سقطت في منزل للدعارة، واتهمت ظلماً بأنها سمّت هناك رجلاً. إنها امرأة طيبة جداً.

هز الضابط رأسه، وقال:

— نعم، هذه أشياء تقع. دعني أقل لك إنني عرفتُ في «كازان» امرأة... تُدعى «إيمّا، هنغارية المولد، لكن عينيها كانتا حقاً عيني فارسية، وكان لها أناقة الكونتيسة...

لم يستطع الضابط أن يخفي ابتسامته عند هذه الذكرى. فقاطعه نيكليودوف ليعيده إلى بداية حديثه، ملاحظاً:

- أرى أنك تستطيع أن تخفف من وضع هؤلاء المساكين؛ على الأقل، ماداموا تحت إشرافك. وأنا مقتنع بأنك ستجد في ذلك سروراً عظيماً.

كان نيكليودوف يلفظ كلماته، وهو يقول ذلك، بالطريقة التي نخاطب بها الأجانب أو الأطفال. كان الضابط يتأمل زائره بعينين ملتفتين، وكان واضحاً أنه ينتظر بفارغ الصبر انتهاءه من كلامه ليستأنف قصة الهنغارية ذات العينين الفارسيتين التي شدّت ذكراها انتباهه كله.

وافق الضابط قائلاً:

- نعم، هذا صحيح، كما أعتقد. وأنا حقاً أرثي فهم. لكنني كنتُ أنوي أن أروي لك قصة «غيماء». اسمع ما فعلت...

فقاطعه نيكليودوف:

- هذه الأشياء لا تهمني. أنا معترف لك بصراحة أنني إن كنت كذلك فيما مضى، فأنا اليوم أستفزع مثل هذا الموقف من النساء.

صُعقَ الضابط، وحدّق في نيكليودوف. ثم عَرَضَ عليه:

- أتريد شيئاً، أيضاً؟

- لا، شكراً.

صاح الضابط:

- بيرنوف! رافق السيد إلى «باكولوف». قل له أن يسمح له بدخول الغرفة المنفصلة، غرفة «السياسيين». ويمكن أن يبقى فيها حتى ساعة التفقد.

x x x

خرج نيكليودوف، يقوده الحاجب، إلى الفناء المظلم الذي تُرسل فيه المصابيح نوراً أحمر باهتاً.

أقبل جندي حارس على دليل نيكليودوف وسأله:

- إلى أين تذهب؟

- إلى الغرفة المنفصلة رقم خمسة.

لا تستطيع أن تمرّ من هنا، فالباب مغلق. يجب أن تذهب إلى المدخل الآخر.

- ولماذا أغلق؟

- العريف هو الذي أغلقه؛ ذهب إلى القرية.

- طيب، تفضّل من هنا، يا سيدي.

قاد الجندي نيكليودوف إلى درج المدخل الآخر، ماشياً على طول الرّصيف الخشبيّ، وكان يسمع من الباحة دويّ مُبهم، وضوضاء

حركات مختلطة، كخلية توشك أن تُفرك، لكن، عندما اقترب نيكليودوف وفتح الباب، تحول هذا الدوي إلى صخب يصم الآذان. كانت الأصوات تتنادى وتتشائم، والقهقهات تتعالى مختلطة بقعقة السلاسل، وسط التناثرة الثقيلة المعروفة.

هذان الإحساسان، الإحساس بجلبة الأصوات مختلطة بقعقة السلاسل، والإحساس بتلك التناثرة الفظيعة، كانا يختلطان لدى نيكليودوف في إحساس من الغثيان النفسي الذي يتحول بعد ذلك إلى غثيان جسدي. كان الإحساسان يندمجان ويُدعم أحدهما الآخر.

أول شيء رآه نيكليودوف، لدى دخول منزل السجناء الذي وُضع عند مدخله حوض نتن ضخّم، امرأة جالسة على حافة ذلك الحوض. وأمامها رجل على رأسه طاقيّة بشكل فطيرة، أُمالها على رأسه الحليق. كانا يتحدثان بصوت منخفض. وعندما رأى السجين نيكليودوف غمز بعينه وهو يقول مازحاً:

— حتى القيصر نفسه ليس بوسعه أن يفعل غير ذلك...

غضت المرأة بصرها، وخفضت أطراف معطفها.

من المدخل كان يبدأ ممشي تنفتح عليه أبواب المهاجع. وكان المهجع الأول مخصصاً للأزواج. ثم يأتي بعده مهجع العزّاب. وفي نهاية الممشى غرفتان أصغر مخصصتان للسجناء السياسيين. إن هذا البناء الذي أعدّ لإيواء مائة وخمسين شخصاً، يحتوي على أربع مائة وخمسين. لقد ضاق المكان بالسجناء حتى أن الممشى كان يكتظ بمَن

لم يجد مكاناً له في الغرف. كان بعضهم يجلس أو ينبطح أرضاً. وبعضهم الآخر يروحون ويجيئون، وهم يحملون غلايات فارغة أو ملأى بالماء المغلي. وكان بينهم تاراس الذي لحق بنيكليودوف وحياه بحرارة. وقد تغطى وجهه الجميل بكدمات ومنها كدمة زرقاء عند أنفه، وأخرى تحت عينه المتورمة.

سأله نيكليودوف:

— ماذا فعلت بنفسك هنا؟

أوضح تاراس وهو يتسم:

— حدثت لي حادثة.

قال الجندي الحارس باحتقار:

— إنهم لا يتفؤون يتقاتلون.

وأضاف سجين كان يتبعهما:

— ومن أجل النساء. لقد تعاركوا مع «فيدكا» الأعور.

استخبر نيكليودوف:

— وكيف حال فيدوسيا

أجاب تاراس وهو يدخل مهجع العائلات:

— هي بخير، وها أنا أحمل إليها الماء للشاي.

ألقي نيكليودوف نظرة إلى الداخل. كانت الغرفة تعجّ بالرجال والنساء، فوق الأسرة وتحتها. وكانت تنبعث رائحة كثيفة من الثياب

المبللة، المعلّقة لتجف. وتعالّت أصوات النساء وهن يزعنن بدون توقف. كان الباب التالي باب مهجع العزّاب. كانت الحال هنا أسوأ. لقد تكّدد السجناء فيه حتى الباب، وحتى الممشى. وكان جمهور صاحب من السجناء بشياهم المبللة، يتقاسمون شيئاً وهم يتناقشون. وشرح الجندي نيكليودوف أن رئيس الجماعة يوزّع المال لشراء المؤن، وأن هذا المال قد قامر به السجناء أو اقترضوه مقابل وصل مكتوب على ورق اللعب. ولدى مرأى الجندي الحارس والسيد، صمّت أقرب السجناء إليهما، وهم يتفرّسون بعداء في الوافدين الجديدين. وفي هذه الجماعة، شاهد نيكليودوف المحكوم بالأشغال الشاقة «فيدوروف» ومعه ذلك الفتى الزري، الشاحب، المتفخ الوجه، المقوّس الحاجبين. كما رأى أيضاً متشرداً ذا وجه مجدور وخال من الأنف، منظره يثير الاشمئزاز. وقد عُرف بأنه قتل رفيقه، أثناء فراره في غابة سييريا العذراء، وبأنه أكل لحمه. كان هذا المتشرد يقف في الممشى، ومعطفه المبلل ملقى على كتفه. أخذ يتفرّس في نيكليودوف بهيئة ساخرة ووقحة، دون أن يحيد له عن الطريق. فاضطر نيكليودوف أن يدور حوله ليمر.

لم يكن هذا المشهد جديداً عليه. إذ طالما رأى خلال هذه الأشهر الثلاثة، هؤلاء السجناء في أشد الظروف تنوّعاً. رآهم خلال مسيراتهم، في القیظ، عندما كانوا يجزّون السلاسل في أقدامهم، فيثيرون سحابة من الغبار؛ رآهم أثناء الاستراحات في الطريق، أو أثناء المراحل، في الهواء الطلق، عندما يكون الجو جميلاً، رأى حينئذ مشاهد مرعبة من التحلل. ومع ذلك فكلما كان بينهم وأحس أنهم يلاحظونه، كما يلاحظونه الآن، انتابه شعور بالخجل والذنب، وهو شعور يزداد إيلاماً

لامتزاجه باشمئزاز لا سبيل إلى التغلب عليه. وكان يعلم أنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك، في الأحوال التي يكون فيها هؤلاء الناس، ومع ذلك، فهو لم يتمكن من التغلب على نفوره.

سمع السجناء يقولون عندما اقترب من باب السجناء السياسيين:

— إنهم هانئون بعيشهم، هؤلاء الحشرات!

هذه الكلمات قالها صوت أضاف تجديفاً سفيهاً.

وسمع قهقهة عالية، ساخرة وعدائية.

× × ×

بعد أن اجتاز الجندي الذي يقود نيكليودوف مهجع العزّاب، قال له، قبل أن يعود أدراجه، سأرجع لأخذك بعد التفقد. وما كاد الرجل يتعدّد، حتى اقترب من نيكليودوف سجين حافي القدمين، يرفع قيده بكلتا يديه، ناشراً رائحة التعرّق القوية والحادة، وأسرّ إليه:

- يجب أن تتدخل أيها النبيل، لقد لعبوا بعقل الفتى، وأسكروه، فادّعى اليوم، عند التفقد أنه كارمانوف.

وهمس السجين وهو يرمي بنظراته القلقة حوله، قبل أن يترك نيكليودوف:

- ساعده! نحن لا نستطيع أن نساعده؛ لو فعلنا لقتلونا!

كانت القضية هي التالية: إن المحكوم بالأشغال الشاقة «كارمانوف» أقنع فتى يشبهه، محكوماً بالنفي فقط، أن يتبادلا اسميهما. وهكذا يصبح كارامانوف منفياً، ويذهب الفتى المسكين إلى سجن المحكومين بالأشغال الشاقة. وكان نيكليودوف يعرف هذه القصة، لأن السجين نفسه رواها له، خلال الأسبوع الفائت.

أوما نيكليودوف برأسه ليريه أنه فهم وأنه سيذلل وسعه، ثم تابع طريقه، دون أن يرفع بصره. لقد عرف نيكليودوف هذا السجين في ايكاتيرنبرج حيث توّسل إليه هذا الرجل، راجياً منه أن يحصل له على الأذن بأخذ امرأته معه إلى سيبيريا. دهش نيكليودوف من هذه البادرة. كان رجلاً ربعةً، في الثلاثين من عمره. نموذجاً حقيقياً للفلاح، محكوماً بالأشغال الشاقة لمحاولة السرقة والقتل. كان يُدعى «ماكار ديفكين». كان جرمه شديد الغرابة، لأن الذنب لم يكن ذنبه «هو» ماكار ديفكين، وإنما كان ذنبه «هو»، ذنب الشيطان، ففي ذات يوم، حسب ما روى، جاء مسافر إلى أبيه، واستأجر بروبيلين زلاجة وجوادلًا لينتقل إلى قرية تبعد أربعين كيلومتراً. وأمر الوالد «ماكار» بمرافقة المسافر. فربط ماكار الجواد، وارتدى ثيابه، وشرب فنجاناً من الشاي مع الغريب. وقد روى هذا، وهو يشرب الشاي، أنه ذاهب ليتزوج، وأنه يحمل معه خمسمائة روبل كسبها في موسكو. وعندما سمع «ماكار» ذلك، خرج إلى الفناء ليخفي فأساً في الزلاجة، تحت القش. وقال:

— لست أدري أنا نفسي لماذا أخذت الفأس. سمعت صوتاً يقول لي: «خذ الفأس»... فأخذتها وجلسنا في الزلاجة، ومضينا. ونسيتُ الفأس. وكدنا نصل القرية، إذ لم يبق سوى ستة كيلومترات. وفي درب مختصرة للطريق الكبرى، درب شديدة الصعود نزلت، وأخذت أمشي خلف الزلاجة، وإذا «به» يهمس إلي: «فيم تفكر؟ إذا بلغت أعلى الدرب فستعود إلى الطريق، وهناك الناس والقرية. وسيحمل ماله معه. إذا أردت أن تفعل شيئاً فافعله الآن، ولا تضع الوقت». انحنيت على الزلاجة، كأني أريد أن أصلح موضع القش.

فكان الفأس وثبت إلى يدي. وملتفتُ إلى المسافر قائلاً: «ماذا تفعل؟» فأرفع الفأس لأهوى عليه بها، لكنه يثب من الزلاجة، وكان رجلاً سريع الحركة، ويقبض علي من ذراعي، ويصيح بي: «ماذا تفعل، أيها اللص؟» ويقلبني على الثلج، فلا أقاوم، وأستسلم على الفور. ثم يربط يدي بزناره ويقذف بي إلى الزلاجة، ويقودني رأساً إلى مركز الشرطة. فأحبس. وفي المحكمة، يشهد الناس أنني رجل صالح، وأنني لم أفعل شراً في حياتي. كما يشهد أيضاً صاحب العمل الذي كنت أشتغل عنده شهادة لمصلحتي.

وختم كلامه قائلاً:

- لكنني لم أكن أملك المال الذي أدفعه للمحامي، ولهذا السبب حكموا علي بأربع سنوات.

وهو الآن، ييوح لنيكليودوف بسر من أسرار السجناء. من أجل إنقاذ أحد أبناء قريته، وهو يعلم أنه يجازف بحياته حين يتكلم. فلو أن الآخرين علموا بذلك لخنقوه دون تردد.

× × ×

كان مأوى السجناء السياسيين يتألف من غرفتين يفتح باباهما على زاوية الممشى. وعندما دخله نيكليودوف، شاهد سيمونسون، مقرصاً عند المدفأة الموقدة مرتدياً سترة القماش المشمّع. كان يمسك بيده حطبة من الصنوبر، وباب المدفأة يرتجف من جرّاء حرارة اللهب. فلما رأى نيكليودوف مد إليه يده، دون أن ينهض، ونظر إليه من الأسفل، من تحت حاجبيه الكثيفين. وقال له:

— أنا سعيد بمجيئك. كنتُ بحاجة إلى رؤيتك:

كان ينظر إلى نيكليودوف نظرة ذات دلالة، نظرة مباشرة إلى عينيه.

استعلم نيكليودوف:

— ما الأمر؟

— فيما بعد، أنا الآن مشغول.

وعاد فصرف انتباهه إلى المدفأة التي كان يوقدها بحسب نظريته الشخصية حول الحد الأدنى لضياح الطاقة الحرارية.

هم نيكليودوف بدخول المهجع الأول، عندما خرجت منه
ماسلوفاً. كانت تتقدم منحنية، طاوية ظهرها على فرشاة تدفع بها
نحو المدفأة كومة كبيرة من الفضلات والغبار. كانت ترتدي قميصاً
أبيض، وتورة مشمرة وجورباً، وتلف رأسها بمنديل أبيض، مشدود
على حاجبيها. انتصبت، عند مرأى نيكليودوف، وقد احمر وجهها
وانتعشت. وضعت الفرشاة على الأرض، ووقفت أمامه، وهي تمسح
يديها بتنورتها.

سألها نيكليودوف الذي مديده إليها:

— أنتِ ترتبين المسكن؟

أجابت وهي تبتسم:

— نعم، هذا شغلي المعتاد. كان ثمة قذارة لا تُصدّق. ونحن ننظف،
وننظف!...

وسألت سيمونسون:

— وغطاء السفر، هل جف؟

أجابها هذا وهو يوجّه إليها نظرة أدهشت نيكليودوف:

— تقريباً.

— آه! جيد... في هذه الحالة سأعود لآخذه، وسأحمل معاطف

الفرو التي يجب تحفيفها.

وقالت لنيكليودوف، وهي تُريه أقرب باب، قبل أن تدخل هي

نفسها الغرفة الأخرى:

— جميع أصدقائنا في الداخل.

كان الباب مفتوحاً، والفى نيكليودوف نفسه في غرفة صغيرة يضيئها إضاءة ضعيفة مصباح معدني وُضع على أحد الأسرة. كان الجو بارداً في الداخل مع رائحة الغبار المثار، والرطوبة والتبغ. كان المصباح يضيء الذين هم على مقربة من أشعته. لكن الأسرة ظلت في الظلمة، في حين كانت تتراقص على الجدران ظلال متحركة.

كان الجميع حاضرين هنا، في هذه الغرفة الصغيرة ماعدا رجلين مكلفين بالتموين، وقد خرجا ليأتيا بالماء المغلي وبالطعام. كانت هنا فيرا ايفريموفنا، وهي صديقة لنيكليودوف، وقد غدت أكثر نحولاً وشحوباً، بعينيها الكبيرتين، ونظرتها الخائفة، وعرقها المنتفخ على جبهتها، وشعرها القصير. كانت ترتدي قميصاً رمادياً، وأمامها صفحة جريدة انتثر عليها التبغ الذي كانت تلف منه سجائر، بحركات نزقة.

وكانت هنا أيضاً سياسية من أقرب السجناء إلى قلب نيكليودوف هي: إيميليا رانتسيف التي كُلفت الأعمال المنزلية، والتي كانت تملك فن جعل الجو لطيفاً وودياً، حتى في أسوأ الظروف. كانت جالسة تحت المصباح، مشمّرة عن كميتها، تغسل يديها الجميلتين، الملوّحتين، الحاذقتين، القصاع والكؤوس ثم تضعها فوق منشفة ممدودة على الفراش. كانت رانتسيفا شابة؛ ومع أن وجهها لم يكن جميلاً، إلا أنه كان يستطيع أن يتحوّل وهو يتسم ليغدو حينئذ فرحاً وجذاباً. ولقد استقبلت نيكليودوف بإحدى هذه الابتسامات.

وهتفت:

— حسبناك عدت إلى روسيا!

وأبعد قليلاً، في ركن مظلم، جلست ماريا بافلوفنا. كانت تُعنى بطفلة شقراء لا تفتأ تُثَغِّغ بصوتها الطفولي العذب.

سألت نيكليودوف:

— هل رأيت كاتيا؟ ما أحسن ما فعلته إذ جئت!

وأضافت وهي تُريه الطفلة:

— أنظر إلى مدعوتنا الصغيرة.

كان هنا أيضاً أناتولي كريلتسوف، شاحباً مهزولاً، محتدياً جزمة من اللبد مطوية تحته، منكمشاً على نفسه، مرتجفاً من الحمى في زاوية من فراشه. حدّق في نيكليودوف بعينيه المحمومتين. أراد هذا أن يذهب إليه، لكنه وجد إلى يمين الباب رجلاً ذا شعر أحمر، قصير وجعد، وأنف ضُبِطت عليه نظارة؛ كان يرتدي سترة من القماش المشمع، ويفتش في كيسه وهو يحدث «غراييتز»، وهي فتاة جميلة مبتسمة دائماً. كان هذا الرجل هو الثوري الشهير «نوفودفوروف» وقد بادر نيكليودوف إلى السلام عليه، لهذا السبب الوجيه وهو أنه أكره الناس إلى قلبه، بين جميع السجناء السياسيين. تفرّس فيه نوفودفوروف بعينيه الزرقاوين اللتين كانتا تبرقان من خلف زجاجتي النظارة. مد يده الضيقة، وهو مقطب الحاجبين، وسأل بلهجة ساخرة:

— أكانت رحلتك موفقة؟

أجاب نيكليودوف وقد تظاهر بأنه لم يلحظ السخرية وبأنه يعتبر

السؤال ملاطفة منه؟

- نعم، كانت شائقة جداً.

ومضى نحو كريلتسوف مُظهراً لا مبالاة تامة كان بعيداً عن
استشعارها ذلك أن الكلمات التي قالها نوفود فوروف وهو يقصد
بوضوح إلى الإساءة، قد زعزعت استعدادات نيكليودوف الخيرة،
فأحس بالحزن يجتاحه.

سأل كريلتسوف وهو يشد على يده المثلّجة والمرتعشة:

- كيف الصحة؟

أجاب كريلتسوف وهو يسارع إلى دس يده تحت الفرو:

- حسنة. لكني لا أستطيع أن أجد الدفء. أنا مبلى، والبرد هنا
قارس.

وأضاف وهو يشير إلى لوحى زجاجي ناقصين خلف قضبان
الحديد:

- أنظر إلى هذا الزجاج المكسّر. وأنت؟ لم لم تأت قبل الآن؟

- لم يُسمَح لي بالمجيء. أظهرت السلطات تشدداً. اليوم فقط
أفلحت في العثور على ضابط أكثر تساهلاً.

فهتف كريلتسوف:

- أكثر تساهلاً، حقاً! اسأل ماشا إذن كيف تصرف هذا الصباح!

روت ماريا بافلوفنا، دون أن تترك مكانها، حادث الصباح، عند
انطلاق القافلة، بصدد الطفلة.

تدخلت فيرا ايفريموفنا بصوت حاسم، بينما كان نظرها يطوف بينهم:

— أما أنا فأرى أنه ينبغي تقديم طلب جماعي. لقد احتج فلاديمير، لكن هذا لا يكفي.

قال كريلتسوف بحق وحاجباه مقطبان:

— وكيف نحتج؟

كان واضحاً أن فقدان البساطة لدى فيرا ايفريموفنا، ولهجتها المصطنعة، وثورتها العصبية الدائمة، أن كل ذلك كان يضايقه منذ زمن بعيد.

وتابع كلامه مخاطباً نيكليودوف:

— أتبحث عن كاتيا! إنها تشتغل بلا انقطاع، إنها تنظف. في البداية نظّفت هنا، لدى الرجال؛ وهي الآن مشغولة بغرفة النساء. لكن لا حيلة لنا بالبراغيث، فهي تعضنا كالمسورة.

ثم استفهم وهو يومئ برأسه إلى المكان الذي جلست فيه ماريا بافلوفنا:

— لكن، ماذا تفعل «ماشيا» هناك؟

أجابت رانتسيفا:

— هي تمشط شعر ابنتها المتبناة.

قال كريلتسوف بقلق:

— لعلها ستُعدينا بقملها؟

فأكّدت ماريا بافلوفنا:

— لا، لا، أنا متنبهة لذلك. إنها الآن نظيفة تماماً.

وقالت مخاطبة رانتسيفا:

— خذيها. سأذهب لأساعد كاتيا. سأحمل إليها غطاء السفر.

أخذت رانتسيفا الطفلة، وأجلستها على ركبتيها، وهي تشد على ذراعيها العاريتين والسمينتين بحنان الأم، وأعطتها قطعة من السكر خرجت ماريا بافلوفنا، ودخل بعد ذلك سجينان يحملان غلايات مملأى بالماء الساخن، كما يحملان المؤن.

× × ×

كان أحد القادمين الجديدين شاباً، متوسط القامة، نحيلاً، يرتدي سترة من الفراء ويحتذي جزمة عالية. كان يسير بخطاً خفيفة وسريعة حاملاً غلايتين ممتلئتين بالماء المغلي، ويشد على رغيـف ملفوف بمنديل كبير، تحت إبطه. هتف هذا السجين:

— آه! ها إن أميرنا يعود!

وضع الغلايتين وسط الفناجين، وناول ماسلوفاً الرغيـف وأعلن وهو يخلع سترته ويرميها من فوق رأسه إلى زاوية أحد الأسرّة.

— اشترينا أشياء رائعة. اشترى ماركل الحليب والبيض. نستطيع أن نقيم حفلة حقيقية بذلك!

وأضاف وهو يتسم، وعيناه على رانتسيفا:

— وسوف تحضّر كيريلوفنا كل شيء بأناقتهـا الفنية. هيا، صبّي لنا الشاي، الآن.

كان كل شيء في المظهر الخارجي لهذا الرجل، حركاته، ورنين

صوته، ونظرته، كان كل ذلك ينم على القوة والبهجة. أما رفيقه فكان متجهّم الوجه، كئيبة. كان هو أيضاً متوسط القامة، لكن بنيته كانت أمتن عظاماً. كان ذا وجنتين بارزتين، وخدين غائرين، ولون رصاصي، وشفتين رقيقتين وعينين خضراوين، بديعتين، متباعدين جداً وكان يرتدي معطفاً مبطناً بالقطن وينتعل حذاء خشبياً فوق حذائه. وبعد أن وضع الغلايتين والسلتين أمام رانتسيفا، حيّا نيكليودوف بانحناءة من رأسه، دون أن يرفع بصره عنه، ومد إليه كارهاً يده الرطبة، قبل أن يبدأ بإخراج المون من السلة.

خرج هذان السجينان السياسيان من الشعب. كان الأول، ناباتوف، فلاحاً؛ وكان الثاني، ماركل كوندرايتيف، عاملاً. وبينما انضم ماركل إلى الحركة الثورية في الخامسة والثلاثين من عمره، أي في سن النضج، انتسب ناباتوف إليها في الثامنة عشرة. لقد برهن ناباتوف على كثير من الاستعدادات، وهو في مدرسة القرية، فأرسل إلى المعهد الثانوي، واستطاع أن يبقى فيه بما أعطاه من دروس خاصة. ومع أنه تخرج من المعهد الثانوي بميدالية ذهبية، إلا أنه لم يدخل الجامعة، لأنه صمم، منذ الصف السابع، أن يعود إلى وسط الشعب الذي خرج منه. وكان يرغب أن يكرّس نفسه لتعليم إخوانه المنسيين. وبدأ عمله كاتباً في قرية كبيرة سرعان ما أوقف فيها لأنه قرأ على الفلاحين أنواعاً شتى من النشرات. وفضلاً عن ذلك، فقد نظّم تعاونية إنتاجية واستهلاكية. بقي في السجن، أول مرة، مدة ثمانية أشهر، ثم وُضع بعد ذلك تحت الرقابة الخاصة. وعندما أُخلي سبيله انتقل إلى مقاطعة أخرى، وعمل معلماً في إحدى قراها حيث استأنف نشاطه السابقز فاعتُقل من جديد، وأودع السجن، هذه المرة، لمدة عام

وشهرين. وفي السجن توطدت قناعاته توطداً أعظم. ونُفي بعد سجنه الثاني إلى مقاطعة «بيرم» ونجح في القرار. وقُبضَ عليه وسُجن سبعة أشهر، ثم نُفي إلى مقاطعة «آركانجسك» وفر ثانية فقبض عليه أيضاً، وأبعد هذه المرة إلى مقاطعة «ياكوتسك». وهكذا قضى نصف شبابه في السجن أو المنفى. كل هذه المغامرات لم تزد طبعه حدة، بل زادت صلابته، بدلاً من أن تثبط عزيمته. كان رجلاً عظيم النشاط، يتمتع بمعدة ممتازة؛ كان مشغولاً دائماً، فرحاً، مفعماً بالقوة. لم يحسّ بالندم قط، ولم يشغل نفسه بالمستقبل قط؛ كان يكرّس كل طاقات ذكائه وقدراته، ومواهبه العملية ليحيا يومه. كان يتابع، وهو حر، الهدف الذي حدده لنفسه وهو: تعليم العمال والفلاحين على وجه الخصوص، وتوحيدهم. أما في السجن فكان يضع كل ما يملك من طاقة ومن حس عملي لتوثيق الصلة بالعالم الخارجي. وكان يسعى لا إلى تنظيم حياته الخاصة فحسب، بل وأيضاً إلى تنظيم حياة رفاقه، بأفضل طريقة ممكنة، وتبعاً لظروف اللحظة. كان قبل كل شيء غريباً. لم يكن يحتاج إلى شيء، كما كان يبدو، من أجل نفسه، بل إنه كان يرضى بالقليل القليل من الأشياء. أما من أجل رفاقه، فكان، بالمقابل، شديد التطلب.

كان قادراً على القيام بأية مهمة جسدية أو عقلية، دون أن ينام أو يأكل. وإذا كان فلاحاً فقد كان يحب العمل. وكان حاذقاً، خبيراً بما يعمل، رقيقاً بطبيعته، مُحترماً لِعواطف الآخرين وآرائهم. كانت أمه العجوز ماتزال حية، وهي فلاحه مسكينة لا تعرف القراءة والكتابة، أرملة، ملأى بالخرافات. وكان يزورها، وهو حر، ويبذل وسعه حينئذ في مساعدتها، ويهتم بها، حتى أصغر تفاصيل حياتها. وكان حين يساعدها، يخالط الفلاحين ويدخن معهم «التُّن» في لفائف يضعها بنفسه مع الفلاحين، ويلاكمهم،

ويُظهرهم على جميع الأضاليل التي كانوا ضحية لها. وعندما كان يفكر فيما ستحملة الثورة إلى الشعب، أو يتكلّم على ذلك فإنه كان يتصوّر هذا الشعب الذي خرج منه وهو يحيا منذ ذاك ظروف متماثلة تقريباً، لكنه يصبح سيداً للأرض. ولن يبقى إذ ذاك ملاّكون للأراضي ولا موظفون. والثورة، في نظره، لا ينبغي أن تغيّر أشكال حياة الشعب. كان يختلف في ذلك عن «نوفودوروف» وتلميذه ماركل كوندرايتيف. الثورة، بالنسبة إلى ناباتوف، لا ينبغي أن تقلب النظام القائم كله، لكن ينبغي لها فقط أن تعدل التنظيم الداخلي لهذا البناء القديم، المتين، الهائل والعجيب، الذي كان يحبه بحرارة.

ومن وجهة النظر الدينية، كان ناباتوف فلاحاً، على نحو نموذجي. لم يكن يفكر قط في المشكلات الميتافيزيقية، في أصل جميع المبادئ، في الحياة بعد الموت. لقد كان الله، بالنسبة إليه، كما كان بالنسبة إلى آراغو، فرضية لم تبين ضرورتها حتى الآن. لم يكن يهتم كثيراً أن يعلم كيف بدأ العالم، بحسب ما قال موسى أو بحسب ما قال داروين. ولم تكن الداروينية التي يعلق عليها كثير من رفاقه أهمية كبيرة، سوى ألهية من ألهيات الفكر بالنسبة إليه، شأنها شأن خلق الكون في سبعة أيام. لم يكن يهتم بأصل العالم لأنه كان مستغرقاً أبداً في المشكلة التالية: وهي أن يعلم كيف يستطيع الناس أن يحيا، في هذا العالم، حياة أفضل. ولم يكن يفكر أيضاً في الحياة الآتية لأنه كان، في أعماقه، على قناعة صلبة ومطمئنة، وهي قناعة موروثة من الأجداد وعامة بين جميع شغيلة الأرض، بأن الإنسان لا يموت بل يتحوّل. إنه يتحوّل تماماً كما هي الحال في العالم الحيواني والنباتي حيث لا يتلاشى شيء، ويتحوّل كل شيء: الزبل إلى حبّ، الحبة إلى دواجن، فرخ الضفدع إلى ضفدع، الشرنقة إلى فراشة، البلوطة إلى

سنديانه. وإذا كان مقتنعاً بهذا المبدأ، فقد كان يواجه الموت بشجاعة، بل بفرح. وكان يحتمل آلامه بثبات، لكن هذا الموضوع لم يكن يميل إلى الكلام عليه، بل قد كان عاجزاً عن الكلام عليه. كان يحب أن يعمل؛ كان مشغولاً أبداً بشيء ذي طابع عملي، حاثاً رفاقه على الاحتذاء به.

كان السجين الآخر من أبناء الشعب، ومن طينة أخرى، هو أيضاً. لقد دخل ماركل كوندرا تيف المصنع وهو في الخامسة عشرة ومالبت أن أخذ يدخن ويشرب، لكي يُنَوِّم شعوراً مبهماً من الحرمان. هذا الشعور، خالجه لأول مرة، خلال حفلة في عيد الميلاد دُعي إليها مع سائر أبناء العمال، ليتأملوا شجرة الصنوبر التي زُينت بإشراف زوجة المدير. ولقد قُدِّمَت لماركل ورفاقه صافرة بفلس، وتفاحة وجوزة مذهبة، وتينة مجففة. أما أولاد صاحب العمل فقد قُدِّمَت لهم لعب بدت أسطورية في نظر ماركل الصغير. وقد كلفت هذه اللعب، كما علم فيما بعد، أكثر من خمسين روبلاً. كان عمر ماركل كوندرا تيف ثلاثين عاماً، عندما شُغِلَت في المصنع عاملة معروفة بأنها ثورية. وقد لاحظت هذه العاملة ذكاء ماركل فأعارته الكتب والنشرات. وفي المناقشات الحامية، كانت تُظهر له بؤس وضعه، والأسباب التي دعت إلى هذا الوضع، والوسائل الكفيلة بتحسينه. وعندما أدرك إمكان تحرير نفسه وتحرير الآخرين من الاضطهاد الذي يعيشون تحت وطأته، بدا له الظلم شديداً، لا يطاق، أكثر من ذي قبل. وكان يتوق بشغف لا إلى التحرر فقط، بل وإلى معاقبة أولئك الذين أقاموا وثَّبَتُوا هذا الظلم الفادح. ولقد قيل له: إن إمكان بلوغ هذا الهدف يكمن في المعرفة. فأكب كوندرا تيف على الثقافة. ولم يكن يفهم، بينه وبين نفسه، بأية طريقة يستطيع المثل الأعلى الاشتراكي أن يتحقق من خلال المعرفة. بيد أنه بعد أن تأكد من أن المعرفة أتاحت له أن يدرك ما في

وضعه من ظلم، فقد رضي أن يؤمن أن الثقافة ستساعده على إزالة ذلك الجور. وفضلاً عن ذلك، كان العلم، برأيه، يرفعه إلى ما فوق الآخرين. ولذلك انقطع عن التدخين والشراب، ووقف جميع ساعات فراغه على الدراسة. وبما أنه رُفِعَ إلى مرتبة أمين مخزن، فقد حصل على قسط أكبر من الحرية.

قامت العاملة الثورية مقام الأستاذ له. ودهشت حين تبينت السهولة المذهلة التي يتوصل فيها إلى التمثيل، دون أن يشبع من التعلم. ففي مدى سنتين، تعلّم الجبر والهندسة والتاريخ الذي كان يحبه حباً خاصاً. وقرأ جميع المؤلفات الخيالية، والنقدية، ولاسيما الكتب التي تعالج الاشتراكية.

بيد أن الثورية أوقفت، ولقي كوندرا تيف مصير معلمته، إذ وجدت في حوزته كتباً محظورة. أودع السجن أولاً، ثم نُفي إلى مقاطعة «فولوغدا». وهناك تعرّف بنوفودفوروف. وقرأ هنا أيضاً كثيراً من المؤلفات الثورية، وتأثر تأثراً أكبر بالنظريات الاشتراكية. فلما انتهى النفسي، غدا المنظم لإضراب عمالي كبير انتهى إلى إحراق المعمل وقتل المدير. وعندما أوقف، حُكم عليه بالحرمان من الحقوق المدنية وبني جديد.

كان موقفه من الدين سلبياً كموقفه من النظام الاقتصادي. فقد تحرر من العقيدة التي كبر فيها، بخوف، أول الأمر، ثم بحماسة، وذلك بعد أن اقتنع من مخالفتها للعقل. وكان لا يكفّ عن السخرية من الكهنة ومن العقائد الدينية، بطريقة سامة وخبيثة، وكأنه يريد أن ينتقم، من إبقائه في

الضلال، هو ورفاقه. تعود الزهد ورضي بالحد الأدنى للمعيشة. لقد أوتي عضلات قوية، شأنه شأن جميع الرجال الذين تعودوا العمل منذ الطفولة، فكان قادراً على القيام بأي عمل يدوي، أثناء ساعات طويلة بلا انقطاع، محافظاً أبداً على مهارته. وكان يقدر أكثر من أي شيء آخر لحظات الإستراحة التي يمنحها، لأنه يستطيع أن ينصرف فيها إلى الدراسة، سواء أكان ذلك في السجن أم أثناء المراحل. وفي هذه اللحظة، كان منهمكاً في قراءة الجزء الأول من ماركس الذي كان يخفيه في كيسه، وكأنه كنز. كان يبدو متحفظاً، ولا مبالياً إزاء جميع رفاقه، ماعدا نوفودفوروف الذي أخلص له وقبل أحكامه في جميع القضايا وكأنها حقائق لا يتطرق إليها الخطأ.

أما النساء اللواتي كان يعتبرهن عقبة في وجه كل قضية مهمة، فكان يكنّ لهن احتقاراً لا يقهر. بيد أنه كان يرثي لماسلوف التي كان يعاملها برقة، لأنه رأى فيها مثلاً للإستغلال: إستغلال الطبقات العليا للطبقات الدنيا. ولهذا السبب، لم يكن يحب نيكليودوف، وكان يبدو قليل الكلام بصحبته، وكان يكتفي بأن يسمح له بشد يده، دون أن يشد هو يد الأمير.

× × ×

كانت المدفأة موقدة وكانت تدفئتها حسنة؛ وأُعدّ الشاي وصب في الكؤوس والقصاع، مضافاً إليه الحليب. وأُخرج من الأكياس البسكويت، والخبز الأبيض والخبز الأسود والبيض المسلوق والزبدة، ورأس العجل وقواده. دنا الجميع من السرير الذي قام مقام الطاولة وأخذوا يشربون ويأكلون. وكانت رانتسيفا جالسة على صندوق، تصبّ الشاي وتثرثر، وقد تحلّق الجميع حولها، ماعدا كريلتسوف الذي ظلّ متمدداً يحدث نيكليودوف، بعد أن خلع سترة الفراء المبللة، وتغطّى بغطاء السفر الجاف.

بعث فيهم الغذاء والشاي المغلي مرحاً منعشاً، بعد البرد والرطوبة اللذين كابدوهم خلال السير، وبعد القذارة والفوضى اللتين وجدوهم في هذا المكان، وبعد العذاب الذي تعذبوه ليرتّبوا كل شيء.

وكانت أصوات سجناء الحق العام، وصرخاتهم، وتجديفاتهم، من جانب الحاجز الآخر، تزيد من إحساسهم بالهناء، من جراء تناقضها مع ما هم فيه. كانت جماعة السجناء السياسيين، كجزيرة في المد،

تحسّ إحساساً موقتاً أنها في مأمن من الإهانات والآلام التي تحيط بها. وكان هذا الأمر يُقضي بالسجناء السياسيين إلى حالة من الحماسة، والنشوة النفسية. كانوا يتحدثون في كل شيء، إلا في وضعهم الحاضر وفيما ينتظرهم. وكما يحدث دائماً بين الرجال والنساء الشابات، ولاسيما عندما يُكرهون على العيش معاً، فقد قامت بينهم علاقات من المودة المتبادلة على نحو ما. كانوا جميعاً عاشقين. نوفودفوروف شُغف بغرابيتز الجميلة، المبتسمة أبداً. كانت طالبة، ومنذ أيام دراستها، لم تُعن كثيراً بالقضايا الثورية التي كانت تشعر إزاءها باللامبالاة التامة، لكنها خاطرت بنفسها، على نحو ما، بتأثير العصر. فُحُكم عليها بالنفي. وكان همها الرئيسي أن تحظى بقلوب الرجال. ولم يغير ذلك في شيء كونها في السجن. وإذا أُجبرت الآن على الاشتراك في هذه الرحلة، فقد وجدت العزاء عن ذلك في أن نوفودفوروف هام بها وهامت به.

أما فيرا ايفريموفنا، فقلّما كانت توحى بالحب، وإن وقعت فيه بسهولة، لكنها لم تفقد الأمل بسبب ذلك، فكانت مغرمة بناباتوف تارة، وبنوفودروف، تارة أخرى.

وكان كريلتسوف يشعر إزاء ماريا بافلوفنا بشعور شبيه بالحب. كان يحبها كما يحب الرجال النساء؛ لكن بما أنه كان يعرف موقف الفتاة من الحب. فقد كان يخفي بمهارة عواطفه تحت قناع الصداقة والعرفان بالجميل من أجل الرعاية المليئة بالعطف التي كانت تُغدها عليه.

وقامت بين ناباتوف و رانتسيفا علاقات غرامية غريبة. وكما أن ماريّا بافلوفنا كانت فتاة نقية، بكل معنى الكلمة، فكذلك كانت رانتسيفا نموذجاً للزوجة العفيفة. ففي السادسة عشرة من عمرها عندما كانت طالبة في المعهد الثانوي، وقعت في حب «رانتسيف» وكان طالباً إذ ذاك في جامعة بطرسبرج. وفي التاسعة عشرة تزوّجت به، مع أنه لم يكن قد ترك الجامعة بعد. كان في السنة الجامعية الرابعة، عندما اتّهم بالاشتراك في تمرد طلابي، ففُي من بطرسبرج، وأصبح ثورياً.

وكانت امرأته تدرس الطب، فتركت دروسها وتبعته، وأصبحت هي أيضاً، ثورية. ولولا أن زوجها أفضل الناس وأذكاهم، برأيها، لما أحبّته، وبالتالي لما تزوّجته. لكن بسبب حسن ظنها به، كانت تتصوّر الحياة والمثل الأعلى كما يتصورهما. لم يكن له، أول الأمر، سوى هدف واحد هو الدراسة، فشاركته حماسه. ثم غدا بعد ذلك ثورياً، فتبنّت آراءه، بتأثير منه. وكانت رانتسيفا من أقدر الناس حين تتصدى للبرهنة على أن النظام القائم غير مقبول، مؤكّدة أن من واجب الجميع محاربته، وإقامة نظام جديد، سياسي واقتصادي على حد سواء، يُتيح للفرد أن يتطور بحرية. وكانت لها نظريات أخرى كثيرة من هذا النمط. وكان يبدو لها أن هذه الأفكار والعواطف أفكارها وعواطفها، في حين أنها كانت، في الحقيقة، من عند زوجها. وكانت تعدّ هذه الآراء حقائق لا جدال فيها، ولا تهدف إلا إلى شيء واحد: أن تنسجم انسجاماً كلياً، تاماً معه. كان هذا هو سبيلها الوحيد إلى بلوغ السكينة الداخلية.

كان انفصالها عن زوجها وابنها الذي أخذته أمها إلى بيتها، شديداً عليها. ومع ذلك، فقد كانت تحتمل هذا الفراق بثبات وبهدوء، لعلمها أنها تضحّي بنفسها في سبيل زوجها، وفي سبيل قضية لا بد أن تكون عادلة لأنه يعمل من أجلها. كانت بفكرها معه أبداً، وكما أنها لم تحبّ أحداً قبله، فكذلك لم يكن ممكناً أن تحب أحداً غيره. بيد أن حب ناباتوف المخلص والعفيف لها، كان يثير انفعالها واضطرابها.

لقد كان هذا الرجل القوي جداً، ذو الأخلاق الرفيعة جداً، صديق زوجها، يجهد في أن يعاملها كأخت. لكن شيئاً ما، كان يُطلّ برأسه من خلال صلاتهما، شيئاً أخافهما وإن جمّل حياتهما الشاقة.

ومن ثم، فالشخصان اللذان كانا مستقلّين استقلالاً تاماً إزاء الحب، في هذه الجماعة، كانا ماريّا بافلوفنا وكودراتييف وحدهما.

× × ×

جلس نيكليودوف بجانب كريلتسوف يثرثر معه، وهو ينوي أن يبقى على انفراد مع كاتيوشا، كعادته، بعد الشاي والعشاء. فروى له، فيما روى، التقاءه ماكار، وقصة بادرته لينقذ رجلاً من قريته. كان كريلتسوف يصغي باهتمام، دون أن يحوّل نظره المحموم عن وجه محدّته. وقال بغتة:

- نعم. كثيراً ما أفكر في أننا نمشي معهم، بجانبهم. لكن مَنْ هم؟ هؤلاء ناس نُفينا من أجلهم، ونحن لا نعرفهم، بل إننا لا نريد أن نعرفهم. وهم أسوأ منا، إنهم يكرهوننا ويعدّوننا أعداء لهم. إن هذا الفظيع!

تدخل نوفودفوروب الذي كان يُصغي إلى الحديث:

- ليس في ذلك ما هو فظيع.

وأضاف مؤكّداً بصوته المرتعش:

- الجمهور يعبد دائماً السلطة وحدها. والسلطة في يد الحكومة،

وإذن فالجمهور يعبد الحكومة ويكرهنا. غداً سنصل إلى السلطة،
وحينذاك سيعبدنا الجمهور، وسوف...

في هذه اللحظة، تعالت في الجانب الآخر من الحاجز أصوات
مشاجرة مع قعقة السلاسل، وصدّات أجسام تُلقى على الجدار.
كان أحد السجناء يُضرب هناك. وصرخ صوت:

— النجدة!

سأل نوفودفوروف دون أن ينفعل:

— هؤلاء هم الوحوش المفترسة حقاً! ما الصلات التي يمكن أن
تكون بيننا وبينهم؟

فقال كريلتسوف محتداً:

— تقول إنهم وحوش مفترسة؟ لكن نيكليودوف روى لي قبل
هنيهة حادثاً...

ثم روى كيف أن ماكار خاطر بحياته لينقذ حياة فلاح من قريته
وختم كلامه بقوله:

— ليس هذا التصرف تصرّف وحش مفترس، بل إنه مأثرة بطولية.

فهمزى نوفودفوروف قائلاً:

— كل ذلك مظاهر عاطفية. ومن الصعب فهم الاندفاعات العاطفية

لدى هؤلاء الناس، ودوافع تصرفاتهم. أنت، ترى فيها شيئاً من عظمة النفس، في حين أنها يمكن ألا تكون سوى حسد للآخرين...

سألت ماريا بافلوفنا نوفودفوروف الذي كان يخاطب الجميع بضمير المفرد.

— لماذا تأبى أن ترى الخير في الإنسان؟

— لا يمكننا أن نرى ما ليس موجوداً.

— كيف ذلك، عندما يتعرّض امرؤ للموت الزؤام؟

أجاب نوفودفوروف:

— أعتقد أننا إذا شئنا خدمة قضيتنا، فالشرط الأول اللازم هو ألا ننساق وراء تخيلاتنا، بل أن ننظر إلى الأشياء مواجهة.

بينما كان يتكلّم، وضع كوندرا تييف الكتاب الذي كان يقرؤه، وكان جالساً قرب المصباح، وأخذ يصغي بانتباه إلى ما يقوله مُرشدَه الذي تابع كلامه وكأنه يُلقِي محاضرة:

— من واجبنا أن نعمل كل شيء من أجل الجماهير، دون أن ننتظر شيئاً لقاء ذلك. إن الجماهير تشكل غرض نشاطنا، لكنها لا يمكن أن تتعاون معنا، مادامت في جمودها الحالي. وبالتالي، فمن الوهم أن نتوقّع مساعدة من جانبها، قبل أن نُنضج مسيرة التطور التي نُعدّها.

سأله كريلتسوف وهو يحمرّ:

— أية مسيرة تطوّر؟ نحن نذهب إلى أننا أعداء للطغيان التعسفي،
لكن أليس هذا أسوأ أنواع الطغيان جميعاً؟
فأكّد نوفودفوروب وهو رابط الجأش:

— ليس ها هنا أي استبداد. إنني أبغي فقط معرفة الطريق الذي
يجب أن يسلكه الشعب والذي أستطيع أن أدّله عليه.

— كيف تستطيع أن تكون عليّ يقين من أن هذه الطريق هي الصالحة؟
أليس ذلك من نمط الطغيان الذي ولّد تفتيش الثورة الفرنسية وعقابها؟
هم أيضاً، كانوا واثقين من أنهم يسرون على الطريق الصحيحة.

— إذا كانوا هم قد أخطؤوا، فهذا لا يَسْتَتِيع أن أكون مخطئاً. ثم إن
الفرق عظيم بين سراب دعاة المذاهب الفكرية والوقائع الموضوعية
للعلم الاقتصادي.

كان صوت نوفودفوروب يملأ القاعة، وكان يتكلم وحده،
والآخرون صامتون. سأل نيكليودوف ماريا بافلوفنا:

— وأنتِ، ما رأيك الشخصي في ذلك؟

— أرى أن أنا تولي على حق؛ فنحن لا نستطيع أن نفرض أفكارنا
على الشعب.

وسأل نيكليودوف ماسلوف وهو يتسّم، خائفاً من أن تُجيب
بجواب في غير مكانه:

— وأنتِ، يا كاتيوشا؟

فردّت وهي تحمر:

— أنا، أرى أن الفقراء يُعاملون معاملة سيئة. إنهم يُعاملون معاملة سيئة، على نحو رهيب.

فصاح ناباتوف:

— صحيح تماماً، صحيح تماماً! الشعب يُعامل بطريقة فاضحة. ويجب أن يتغير ذلك. وتلك مهمتنا!

انتقده نوفودفوروف:

— يا له من تصور غريب لواجبات الثورة؟

وعاد إلى صمته، وأخذ يخن بحنق.

همس كرينتسوف:

— النقاش معه مستحيل!

ختم نيكليودوف الحديث:

— الأفضل ترك النقاش.

× × ×

بالرغم من أن نوفودفوروف يحظى باحترام جميع الثوريين، ومع أنه كان عظيم الثقافة وأنه يحسب نفسه عظيم الذكاء، فقد كان نيكليودوف يصنّفه في هذه الزمرة من الثوريين الذين يظلون دون الوسط، بموقفهم الأخلاقي. إن مواهب هذا الرجل العقلية، صورة الكسر إن صح القول، كانت عظيمة؛ لكن مخرج الكسر، أي رأيه بنفسه، كان عالياً جداً إلى درجة أنه تجاوز قدرات عقله منذ زمن بعيد.

كان، من الناحية الروحية، نقيض سيمونسون. لقد كان سيمونسون ينتمي إلى فئة الأفراد ذوي الطبع الرجولي الذين تصدر أعمالهم عن نشاط الفكر، وتحمل طابع هذا الفكر.

أما نوفودفوروف فكان ينتمي إلى زمرة الأفراد الذين أوتوا خصائص أنثوية قبل كل شيء. إن نشاط الفكر عند هؤلاء الأفراد يتّجه نحو أهداف عاطفية جداً، وأيضاً إلى تبرير الأفعال التي أثارها العاطفة.

إن نشاط نوفودفوروف الثوري بأسره، قائم، برأي نيكليودوف

على الغرور وعلى الرغبة في التفوق على الآخرين. هذا برغم أن نوفودفوروف قد بذل كثيراً من البلاغة في وصف نتائج سبّقه. في البداية، كانت موهبته في تمثيل أفكار الآخرين ونقلها إلى الآخرين مقدرة تقديرًا عالياً. ففي المعهد، والجامعة، وفي وقت تقديم الدكتوراه كان دائماً الأول، ولم يكن يتمنى شيئاً غير ذلك. لكنه ما إن حصل على شهادته، وأنهى دراسته، حتى غيّر رأيه تغييراً جذرياً، بهدف احتلال الأوليّة في ميدان آخر. لقد تحوّل فجأة من تحرّري تقدّمي إلى «محرّر للشعب» متعصب. وكان نيكليودوف. يعلم ذلك، عن طريق كريلتسوف الذي لم يكن يطبق نوفودفوروف. وإذا كان محروماً من هذه المبادئ الأخلاقية والجمالية التي تولّد الشك والتردد، فقد حصل بسرعة على مركز رئيس حزب الثوريين. وأرضى هذا النجاح طموحه. فلما اختار وجهته، لم يدع للشك منقذاً إلى نفسه، واثقاً من أنه لن يخطئ أبداً. كان كل شيء يبدو له. بسيطاً، واضحاً، بديهياً، إلى أبعد الحدود.

كان كل شيء بالفعل بسيطاً وواضحاً بسبب ضيق آرائه: يكفي المرء أن يكون منطقياً ليتكلّم مثله. وكان اعتداده بنفسه عظيماً، فإما أن يُقنع الآخرين وإما أن ينحّيه عن طريقه. وكان نشاطه يتم بين الشباب، الذين اعتبروا هذا الزهو الذي لا حدود له حكمة عظيمة. كان معظمهم يخضع له حتى أنه كان يلقي نجاحاً هائلاً في الحلقات الثورية. كان نشاطه ينحصر في الإعداد للثورة المسلحة التي سيستولي فيها على السلطة ويؤلف الجمعية التأسيسية. وقد وضع برنامجاً إصلاحياً سيقدّمه للجمعية المذكورة، وكان واثقاً من أن هذا البرنامج سيحلّ جميع المشكلات بحيث لا يُمكن ألا يُقبل.

كان رفاقه يقدّرونه لجرأته وصلابته؛ لكنهم لم يكونوا يحبونه. أما هو، فلم يكن يحب أحداً، معتبراً جميع الذين يیزغ نجمهم أعداء له. ولو استطاع لعاملهم راضياً كما تتصرف القروء الهرمة مع قروءها الفتية. كان بوّده أن يخنق كل ما لدى الآخرين من ذكاء ومن قدرة، حتى لا يحولوا دون نشر مواهبه الشخصية. لم يكن يتصرف تصرفاً لائقاً إلا مع الذين يكرّمونه. ولهذا السبب كان يهتم، أثناء الرحلة، بكوندرا تيف الذي تبني مذهبه، وبفيرا ايفراموفنا وغرايبنز الجميلة، وكانت مغرمين به كلتا هما. كان، نظرياً، من أنصار تحرير النساء. لكنه كان يراهن، في أعماقه، غيبات، دون الرجال، كلهن، ماعدا اللواتي يحبهن بطريقة عاطفية، وهو ما كان يقع له غالباً. في هذه المرة، وقع اختياره على غرايبتز. وفي هذه الحالة، كان يحكم على هؤلاء النسوة بأنهن غير عاديّات، ويعتقد أنه وحده القادر على تمييز صفاتهن. وكانت مسألة العلاقات الجنسية تبدو له، ككل المسائل، في أقصى البساطة الواضح: كان حلّه هو الحب بلا زواج. كانت له امرأة «صورية»^(٦٦)؛ وامرأة أخرى حقيقية انفصل عنها بعد أن استنتج أنه لم يكن بينهما حب حقيقي. وهو الآن ينوي أن يقيم مع غرايبتز علاقة بدون زواج.

كان يحتقر نيكليدوف لما كان يدعوه «تكشيراتة» مع ماسلوف، وعلى الخصوص، لأن الأمير كان يُبيح لنفسه أن يُفكر، بصدد عيوب

٤٦ كانت له امرأة صورية: زواج شكلي يعقد لأسباب سياسية، وذلك لتخليص الفتاة من سلطة أهلها، ولكي يتاح لها أن تكرر نفسها للنشاط الذي تختاره.

النظام الاجتماعي والوسائل الكفيلة بمعالجة هذه العيوب، تفكيراً لا يتلاءم مع أفكاره هو، نوفودفوروف، لكن على طريقته الأميرية، أي المخالفة للعقل. وكان نيكليودوف يعرف رأي نوفودفوروف فيه. ومع أن الأمير كان، في هذه الفترة، دائم الاستعداد للمعاملة بالحسنى، فقد أسف لأنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يرد على الإساءة بمثله، ولأنه لم يُفلح في التغلب على ذلك النفور العميق الذي شعر به نحو هذا الرجل.

× × ×

دوّت الأوامر في الغرفة المجاورة. وفي الصمت الذي خيّم من جديد، دخل القاعة عريف ومعه حارسان من حرّاس القافلة، لإجراء التفقّد. أحصى العريف الجميع مشيراً بإصبعه إلى كل سجين منهم. وعندما وصل إلى نيكليودوف قال له بلهجة لا كلفة فيها:

- لا تستطيع بعد الآن أن تبقى هنا، يا أمير. ويجب عليك أن تخرج مع انتهاء التفقّد.

اقترب منه نيكليودوف، وقد أدرك معنى هذه الكلمات، فدنّس في يده ثلاثة روبلات.

- طيّب... كيف نفعل معك؟ ابقَ لحظة أيضاً...

كان العريف يهّم بالخروج عندما أدخل ضابط صف آخر، يتبعه سجين طويل ونحيل، ذو لحية نادرة الشعر، وغين متورّمة.

أعلن السجين:

- جئت من أجل الصغيرة.

صرخ صوت طفولي حاد:

— هذا بابا!

وبدا خلف رانتسيفا رأس أشقر.

كانت رانتسيفا تخطط ثوباً للطفلة قصته من تنورة قديمة لها،
تساعدتها في ذلك ماريا بافلوفنا وكاتيوشا.

همس بوزوفكين بصوت مداعب:

— هذا أ، يا بنتي الصغيرة، هذا أنا.

اعترضت ماريا بافلوفنا التي نظرت بعطفٍ إلى وجه بوزوفكين
المكدوم:

— إنها مسرورة هنا، عندنا، فدعها عندنا...

فأعلنت الطفلة وهي تشير إلى عمل رانتسيفا:

— السيدات يخطن لي ثوباً جديداً، ثوباً جميلاً أحمر.

سألتها رانتسيفا وأرفقت سؤالها بمداعبة:

— أتحبين أن تظلي لثنامي معنا؟

— نعم. وبابا أيضاً....

فابتسمت رانتسيفا ابتسامتها العادية المشرقة، وقالت:

— بابا لا يستطيع أن يبقَى.

وأصرّت على بوزوفكين:

— دعها لنا.

وافق العريف الواقف قرب الباب:

- تستطيع أن تتركها إذا شئت.

وخرج مع ضابط الصف.

لم يكد الحارسان يخرجان حتى اتجه ناباتوف نحو بوزوفكين.
فسأله وهو يلمس كتفه:

- قل لي، أيها الأخ، أصحيح أن كارمانوف يريد أن يضع أحد
المساجين عندكم محلّه؟

حلّت الرصانة محل ذلك التعبير السمع والمتودد على وجه
بوزوفكين. وأغمض عينيه نصف إغماضة ليجيب:

- لسنا نعلم شيئاً عن ذلك. هذا لا يكاد يُصدّق!

ثم أضاف دون أن يرفع جفنيه:

- طيب! كسيوكا، ابقى هنا لتعذّبي هؤلاء السيدات، إذا شئت.

قال ذلك وبادر إلى الخروج.

صرّح ناباتوف:

- إنه يعرف كل شيء. الأمر إذن صحيح. لقد تبادلا اسميهما

إذن. وأنت ماذا تنوي أن تفعل؟

أجاب نيكليودوف:

- سأخبر السلطات بذلك إذا بلغنا المدينة. أنا أعرفهما كليهما

بالوجه.

صمت الجميع، وهم في خوف ظاهر من العودة إلى النقاش.

لم يفتح سيمونسون فمه، خلال هذا الوقت كله، وظل منكمشاً على نفسه، في زاوية من سريره، ويداه متصلبتان خلف رأسه.

ثم نهض، واثق الهيئة، ودار بحذر حول جماعة الجالسين، حتى إذا وصل إلى قرب نيكليودوف، سأله:

— أتستطيع أن تصغي إلي الآن؟

وافق نيكليودوف:

— بكل تأكيد.

ونفض ليتبعه.

وعندما رآته كاتيوشا ينفض، ولقيت نظرُها نظرته، هزّت رأسها وهي تتضرّج حمرة، وقد بدت الحيرة عليها.

بدأ سيمونسون كلامه عندما بلغا الممر الذي دوّت فيه جلبة لا توصف، وتعالّت صيحات المحكومين بالأشغال الشاقة.

— إليك ما أردت أن أقول لك...

قطّب نيكليودوف حاجبيه، لكن لم يبدُ على محدّثه أنه لحظ ذلك، فتابع كلامه، وعيناه مثبتتان في وجه نيكليودوف:

— بما أنني أعرف علاقاتك بكاترين ميخايلوفنا، فقد رأيتُ من واجبي...

واضطّر إلى أن يقطع كلامه، لأن صوتين وراء الباب أخذوا يصرخان معاً، في شجار عنيف. صرخ أحد الصوتين:

– قلتُ لك، يا غبي، إنها ليست لي!

فزق الصوت الآخر:

– اذهب واشتق نفسك:، يا شيطان؟

في هذا الوقت بالذات مرّت ماريا بافلوفنا في الممشى. فدهشت وقالت:

– كيف يمكنكما أن تتحدثا هنا؟ تعالا إلى هذه الغرفة، فليس فيها سوى فيرا ايفريموفنا.

وسبقتهما إلى غرفة مجاورة صغيرة، الظاهر أنها كانت سجنًا انفراديًا. وقد وُضعت هذه الزنزانة الآن تحت تصرف نساء زمرة السجناء السياسيين. كانت فيرا ايفريموفنا مستلقية على السرير، وهي مكشوفة الرأس.

أوضحت ماريا بافلوفنا:

– إن بها صداعاً. وهي نائمة ولن تسمع شيئاً. أنا ذاهبة.

احتج سيمونسون:

– على العكس، أرجوك أن تبقي. ليس عندي أسرار أكتُمها عن أحد، ولا سيما عنك.

فوافقت ماريا بافلوفنا:

– طيّب، كما تشاء.

وذهبت لتجلس بحركات تتم على رشاقة طفولية. هيأت نفسها
لسماع ما سيُقال، وعيناها البارزتان شاخصتان إلى الفراغ.

استأنف سيمونسون:

– قلتُ إذن: بما أنني أعرف علاقاتك بكاترين ميخيلوفنا، فقد
رأيت من واجبي أن أطلعك على عواطفني نحوها.

فسأل نيكليودوف الذي أعجب على الرغم منه بالبساطة
والصراحة اللتين عبّر بهما سيمونسون:

– ما معنى هذا؟

– معناه أنني أريد الزواج بكاترين ميخيلوفنا..

هتفت ماريا بافلوفنا وهي تحطّ عينيها على سيمونسون:

– حقاً؟

وتابع سيمونسون:

وقررتُ أن أطلب إليها الاقتراح بي.

فرد نيكليودوف:

– وما علاقتي بذلك؟ الأمر منوط بها.

– فعلاً لكنها لا تستطيع حل هذه المسألة بدونك.

– لماذا؟

– لأنها لا تستطيع أن تتخذ قراراً ما لم تتحدّد نهائياً علاقاتك بها.

– المسألة محلولة، من جانبي. لقد فعلتُ ما ظننت أن من واجبي فعله؛ وسعيت إلى التخفيف من وضعها، ولست أريد في أي حال من الأحوال أن أكون عائقاً...

– حسن جداً، لكنها لا تقبل بتضحيتك.

– ليس هناك أية تضحية.

– وأنا أعلم أيضاً أن قرارها لا رجوع عنه.

فثار نيكليودوف:

– إذن لماذا تكلمني في ذلك؟

– هي بحاجة إلى أن تراك مقتنعاً بذلك، أنت أيضاً.

– كيف تريدني أن أقتنع بالإمتناع عما اعتبره واجباً علي؟ ليس بوسعي أن أقول سوى شيء واحد: إنها حرة، أما أنا فلست حراً.

بدا سيمونسون كمن يفكر، بصمت، وقال في نهاية الأمر:

– طيب سأحدثها في ذلك. لا تظن أنني أغرمتُ بها. إني أحبها

كما يمكن أن نحب مخلوقاً رائعاً، غير عادي، تألم كثيراً. ولست أطلب شيئاً منها، وإنما تحفزني رغبة عارمة في مساعدتها، في التخفيف من وُضْء...

صُغِق نيكليودوف حين سمع تهذّج صوت سيمونسون الذي تابع كلامه:

... - في التخفيف من وضعها. إذا أرادت ألا تقبل بمساعدتك، فلتقبل، على الأقل، بمساعدتي. وإذا وافقت فسوف أطلب أن أرسل إلى المكان الذي سترسل إليه. أربعة أعوام ليست دهنراً؟ سأعيش بقربها، وربما كان بوسعي أن أجعل الحياة أقل قسوة عليها.

توقّف عن الكلام وقد غلبه الإنفعال. فقال نيكليودوف:

- بماذا أستطيع أن أُجيب عن ذلك؟ أنا سعيد لأنها وجدت من يشملها بحمايته مثلك...

أعلن سيمونسون:

- وعندي أيضاً سؤال أطرحه عليك. أود أن أعلم: هل تعتبر زواجها بي مناسباً لها، إذا كنتُ أحبُّها وأريد لها الخير.

فهتف نيكليودوف بلهجة المقتنع:

- بالتأكيد!

همس سيمونسون:

- كل شيء منوط بها. ولست أرغب إلا في شيء واحد: أن تجد هذه المرأة المسكينة شيئاً من الطمأنينة.

كان ينظر إلى نيكليودوف بحنان طفولي لا يصدق أحد أن مثل هذا الرجل ذا المظهر الرصين قادر عليه. ثم نهض وأمسك بيد نيكليودوف، ومد إليه خده بابتسامة خجلة، وعانقه.

وقال وهو يندفع خارج الغرفة:

- أنا ماضٍ لأخبرها بكل شيء.

× × ×

دهشت ماريا بافلوفنا، وقالت:

أرأيته؟ إنه عاشق، عاشق مجنون، ما كنتُ أتوقع قط أن يعشق فلاديمير
سيمونسون وكأنه طالب معهد.

وختمت كلامها وهي تنهد:

- هذا أمر غير عادي، وأمرٌ يُؤسّف له، في حقيقة الأمر.

سألها نيكليودوف:

- لكن هي، كاتيا؟ ما ردود فعلها، برأيك؟

- هي؟...

وتوقفت ماريا بافلوفنا. كان واضحاً أنها تريد إعطاء أدق جواب
ممكن:

- هي؟ إنها طبيعة من هذه الطبائع الأخلاقية بعمق، إن لها مشاعر
بالغة الرقة... وهي تحبك... حباً رقيقاً جداً؛ وستكون سعيدة لو أنها

وَقَرْتُ لَكَ سَعَادَةً سَلْبِيَّةً: وَهِيَ أَلَا تُضْطَرُّ إِلَى الْإِقْتِرَانِ بِهَا. وَسَيَكُونُ زَوَاجُهَا بِكَ زَلَّةً مَرُوءَةً، أَسْوَأَ مِنْ جَمِيعِ الزَّلَّاتِ السَّابِقَةِ. وَلِذَلِكَ فَهِيَ لَنْ تَقْبَلَ بِهِ. وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ، فَإِنْ وَجُودُكَ يَثِيرُ اضْطِرَابَهَا.

سَأَلَ نِيكَلِيُودُوفَ:

— وَمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ أَفْعَلَ؟ أَأَتَوَارَى؟

ابْتَسَمَتْ مَارِيَا بِأَفْلُوفُنَا ابْتِسَامَتَهَا الْعَذْبَةَ الْبَرِيَّةَ، وَقَالَتْ:

— نَعَمْ، جَزِيئاً.

— وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ أَتَوَارَى جَزِيئاً؟

— كُنْتُ أَمْزَحُ... أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَكَ إِنَّهَا، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، تَعْتَبَرُ حُبَّ سِيْمُونَسُونِ الْمَشْبُوبِ لَهَا حُبّاً غَيْرَ مَعْقُولٍ. وَنَظَرّاً لِأَنَّهُ لَمْ يَصْرَحْ بِحُبِّهِ، فَقَدْ كَانَتْ تَحْسَسُ بَوُجُودَ هَذَا الْحُبِّ، وَكَانَ ذَلِكَ يَرْضِي غُرُورَهَا وَيُرْعِبُهَا. أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّي لَسْتُ خَبِيرَةً فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، لَكِنْ يَلُوحُ لِي أَنْ عَوَاطِفَ سِيْمُونَسُونِ هِيَ الْعَوَاطِفُ الْمَشْتَرَكَةُ بَيْنَ جَمِيعِ الرِّجَالِ؛ لَكِنَّهُ يُقْنَعُهَا، وَيَزْعَمُ أَنْ حُبَّهُ أَفْلَاطُونِي، وَأَنَّهُ يَزِيدُهُ قُوَّةً، لَكِنِّي عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ هَذَا الْحُبَّ، فِي حَقِيقَتِهِ، يَحْمِلُ شَيْئاً مِثْلاً لِلْأَشْمُئِزَّازِ...

تَمَاماً مِثْلَ مَا فِي حُبِّ نُوْفُودُفُورُوفِ لِلْيُوبُوتَشْكَا.

مَا إِنْ وَقَعَتْ مَارِيَا بِأَفْلُوفُنَا عَلَى مَوْضُوعِهَا الْمَفْضَّلِ حَتَّى انْحَرَفَتْ عَنْ حَجَّتِهَا الرَّئِيسِيَّةِ.

فألح نيكليودوف عليها:

- لكن، ماذا ينبغي أن أفعل؟

- أظن أنك يجب أن تحدّث كاتيا. فمن الأفضل دائماً توضيح الأمور. حدّثها؛ سأدعوها إذا شئت؟

فقبل نيكليودوف:

- ادعها، أرجوك.

تملّكه إحساس غريب، عندما بقي وحده في المهبّج، وسمع تنفس فيرا ايفريموفنا المنتظم الذي كانت تقطّعه التّنّهّات، بين وقت وآخر. وكانت ضوضاء سجناء الحق العام ماتزال تُسمع عبر البابين.

أعتقت كلمات سيمونسون نيكليودوف من الإلتزام الذي فرضه على نفسه. وهو التّزام كان يُثقل كاهله، ويبدو له غريباً، في لحظات ضعفه. ومع ذلك فقد شعر الآن، لا بالاستياء فقط، بل وبألم حقيقي أيضاً. فبين الكثير من المشاعر المتناقضة تغلّب ذلك الشعور بأن عرض سيمونسون قد جرّد بادرته من طابعها الاستثنائي. ولسوف تتناقض قيمة التضحية التي ألزم بها نفسه، في نظره وفي نظر العالم. وإذا كان رجل طيب مثل سيمونسون يرغب في أن يوحد بين مصيره ومصير ماسلوف، في حين لا يُجبره شيء على ذلك، فإنّ تضحيته هو نفسه، نيكليودوف، ستغذو أقل بطولية من ذي قبل. ولعل في هذا الشعور شيئاً من الغيرة. فلقد تعود أن يرى كاتيوشا تحبه، ولم يكن يحتمل أن يراها تحبّ رجلاً آخر. وكان يأسف فوق ذلك على انهيار مشروعه في

العيش بقربها حتى نهاية عقوبتها. وإذا تزوجت سيمونسون فإن بقاءه سيغدو بلا فائدة، وسيتعين عليه أن ينظم حياته بطريقة أخرى.

كان يحلّل نفسه بلا جدوى، عندما انفتح الباب وسمح بدخول صخب يصم الآذان أحدثه سجناء الحق العام. فلا بد أن شيئاً غير عادي يجري هناك.

اقتربت كاتيوشا بخطأ سريعة، وهمست وهي تقف قرب نيكليودوف:

— أرسلتني ماريا بافلوفنا إليك.

— نعم، أنا بحاجة إلى أن أكلمك. لكن اجلسي... لقد أخبرني فلاديمير إيفانوفتش....

جلست، وحطت يديها على ركبتيها؛ كانت هادئة في الظاهر، لكن وجهها مع ذلك اصطبغ بالحمرة عندما ذكر نيكليودوف اسم سيمونسون. وسألت:

— ماذا قال لك؟

— إنه يريد الزواج بك.

تقلّص وجه كاتيوشا وبدأت عليه أمارات الألم، لكنها لم تفه بكلمة، واكتفت بأن غصّت بصرها.

وأعلن نيكليودوف:

— سألني الموافقة، أو بالأحرى سألني النصيحة. فقلت له: إن كل شيء منوط بك؛ ولك أن تقرري...

فهتفت، وهي تنظر إليه بعينيها الحولاءين نظرة شديدة الخصوصية. نظرة طالما هزّت نيكليودوف:

— آه! ماذا تقول؟ لماذا؟

تفرّس فيها وتفرّست فيه، خلال ثوان، وكانت نظرتهمما بليغة
الدلالة.

فردد نيكليودوف:

— لك أنت أن تقرري.

اعترضت قائلة:

— أقرّر ماذا؟ لقد تقرّر مصيري منذ زمن بعيد.

— ينبغي أن تقرري إن كنتِ تقبلين عرضَ فلاديمير إيفانوفتش.
فهتفت وهي متجهّمة:

— أية زوجة يمكن أن أكون له، أنا الحكومة بالأشغال الشاقة؟
ولماذا يُراد مني أن أحطّم أيضاً حياة فلاديمير إيفانوفتش.

— وإذا ووفقَ على طلب الإلتماس؟

— آه! دعني! الأفضل ألا أقول شيئاً!

قالت ذلك، ونهضت، وغادرت الغرفة.

× × ×

عندما عاد نيكليودوف إلى مهجع الرجال، بعد ذهاب كاتيوشا، وجد جميع الحاضرين في اضطراب. ذلك أن ناباتوف الذي كان يذهب إلى كل مكان، ويعرف كل شيء، ويلاحظ كل شيء، حمل النبأ التالي وهو أنه اكتشف على أحد الجدران كتابة بخط الثوري بيتلين، المحكوم بالأشغال الشاقة. وكان يُظن أنه في «كارا»، وها إن السجناء يملكون الآن الدليل على مروءة الحديث العهد، وحده في قافلة سجناء الحق العام.

تقول الكتابة:

« في ١٧ آب، أنا مسافر وحدي مع المجرمين. كان نيفيروف معي، لكنه شق نفسه في ملجأ المجانين في «كازان». صحتي جيدة، وأنا مفعم بالشجاعة، وكلي أمل بأن كل شيء سيكون أفضل... »

أخذ الجميع يعلقون على وضع بيتلين وعلى أسباب انتحار نيفيروف. فظل كريلتسوف صامتاً، غارقاً في أفكاره، محدّقاً في الفراغ بعينه المحمومتين.

صرّحت رانتسيفا:

- قال لي زوجي إن نيفيروف تراءت له الرؤى منذ أن كان في قلعة بيترو بافلوفسك.

وعلق نوفودفوروف:

- كان شاعراً، حالمًا. هؤلاء الناس لا يطيقون الوحدة. عندما وُضعتُ أنا في الزنزانة لم أطلق العنان لخيالي، ونظمتُ وقتي تنظيمًا دقيقًا. فأتاح لي ذلك احتمال السجن الانفرادي بشكل مناسب.

وأكد نابلوتوف بصوته القوي، وهو يقصد تبديد الغم الذي ألمّ بهم:

- ولماذا لا نحتمله؟ كم من مرة كنتُ سعيداً. بكل بساطة، لأنني حُبستُ وحدي! عندما يكون المرء خارج السجن، يخاف من كل شيء: يخاف من أن يُقبض عليه، من أن يُعرض رفاهه للخطر، من أن يُسيء إلى القضية. لكن ما إن يدخل السجن حتى تنتهي المسؤولية! حينئذ يستطيع أن يتنفس؛ لا يبقى عليه سوى الجلوس والتدخين.

سألت ماريا بافلوفنا كريلتسوف، وقد أقلقها أن ترى وجهه النحيل يتبدّل فجأة:

- هل عرفته معرفة عميقة؟

انفجر كريلتسوف وهو يلهث كمن صرخ أو غنّى طويلاً:

نيفيروف حالم؟ نيفيروف كان رجلاً «قلما تُطلع الأرض أمثاله»،
 إذا شئنا استخدام تعبير بوابنا... نعم... كان رجلاً... شفافاً تماماً.
 كنا نستطيع أن نرى من خلاله، إن صح التعبير، نعم... لم يكن فقط
 عاجزاً عن الكذب، بل عن التصنع أيضاً. كانت حساسيته خارقة
 للعادة، كانت أعصابه على سطح جلده، حيّة، بكل بساطة. نعم...
 طبيعة غنية، متعددة الجوانب، لا مثل... ما جدوى الكلام على ذلك؟
 صمت لحظة، ثم استأنف كلامه وهو مقطب الحاجبين، خبيث
 الهيئة:

- نحن نتعب أنفسنا لنعلم أيهما أفضل، أن نعلم الشعب أولاً
 ثم نغيّر النظام الاجتماعي بعد ذلك، أم أن نغيّر كل شيء أولاً وبعد
 ذلك.... وكيف نناضل: بالدعاية السلمية أم بالإرهاب؟ نحن
 نتخاصم، أما «هم» فلا يتخاصمون. إنهم يعلمون ما عليهم أن
 يفعلوه! لا يهمهم أبداً أن يهلك آلاف الرجال. وأي رجال!... على
 كل حال، هذا هو بالضبط ما يلزمهم. يجب أن يهلك أفضل الناس.
 نعم... «هرزن»^(٤٧) قال ذلك: عندما تخلصوا من «الديسمبريين»
 انخفض المستوى الاجتماعي. وكيف انخفض! ثم تخلصوا بعد ذلك
 من هرزن وأشياعه. والآن، جاء دور نيفيروف...

اعترض ناباتوف بصوته القوي:

٤٧ هرزن: الكسندر هرزن (١٨١٢ - ١٨٧٠) كاتب وصحفي
 ثوري عظيم الموهبة، هاجر منذ ١٨٤٦. نشر «الجلجل» في لندن.

- لن يستطيعوا أبداً القضاء على جميع الناس. وسوف يبقى منهم
أبداً من يحمل المشعل.

انفجر كريلتسوف رافعاً صوته لكي لا يقاطعه أحد:

- كلا، لن يبقى أحد، مادمنّا نوفرهم «هم»! أعطني سيجارة.

فاتحتت ماريا بافلوفنا:

- أنت تعلم أن التدخين يضرّك، يا أناتولي. لا تدخّن، أرجوك.

احتد كريلتسوف:

- أوه! أنت، دعيني وشأني!

أصابته نوبة سعال وبذل جهداً كأنه سيتقيأ. وبعد أن تنخّم وبصق،
استأنف كلامه:

- نحن لم نحسن التصرف، كان يجب ألا نضيّع وقتنا في النقاش.
بل أن نتحد ونستأصلهم.

اعترض نيكليودوف:

- مع ذلك، فهم بشرٌ مثلنا.

- لا، فالذين أقدموا على فعل ما فعلوه ليسوا بشراً... لا! يُقال إنهم
اخترعوا قنابل ومناطيد مُسيّرة. فلنبعث بهم إلى الهواء في مناطيدهم،
ولنبذهم بقنابلهم، كما يُباد القمل، حتى لا يبقى منهم أحد... نعم،
لأن...

لم يستطع أن يواصل كلامه. فقد غدا لونه قرمزيًا، وهزته نوبة سُعال أعنف من الأولى، واندفع الدم غزيراً من فمه.

أسرع ناباتوف إلى الخارج ليأتي بالثلج، ولقيت ماريا بافلوفنا قنينة الناردين فرضتها عليه، لكنه ردّها بيده الشاحبة الهزيلة، وعيناه مغمضتان. وحين هدأ بفضل الثلج والماء البارد. حُمِلَ إلى فراشه. استأذن نيكليودوف الجميع. وخرج بصحبة ضابط الصف الذي جاء يدعوه والذي كان ينتظره منذ برهة.

خمدت ضوضاء سجناء الحق العام؛ وكان أكثرهم ينام. ومع أن السجناء ناموا فوق الأسرة وتحتها، وعلى عتبات الأبواب، إلا أن الجميع لم يجدوا مكاناً يأوون إليه. فقد نام قسم منهم في الممشى، على الأرض، ورؤوسهم فوق أكياسهم، مستخدمين قمصانهم الرمادية غطاء لهم. في الممرات، كان يُسمع الشخير والأنين، والكلام بصوت عالٍ في الحلم. وأينما تطلّع الناظر رأى جماعات متراسة من الأشباح البشرية، مغطاة بقمصانها. في قاعة العزّاب لم ينم بعضهم، بل تجمّعوا حول بقايا شمعة أطفئوها عندما لمحوا ضابط الصف. في الممشى، جلس شيخ قصير تحت المصباح يفلي قميصه من البراغيث، وهو عار. كان هواء مهجع السجناء السياسيين العفن نقياً إذا قيس بالتنانة المخيّمة في هذا المكان. وكان المصباح المدخّن يضيء وكأنه يضيء من خلال البخار، وقد غدا التنفس شاقاً. وكان على من يريد اجتياز الممشى، دون أن يصدّم النائمين، أن يراقب قدّمه أين يضعها. فحتّى في المدخل، قرب الحوض النتن الذي يرشح منه سائل موبوء، استلقى ثلاثة سجناء لم يجدوا مكاناً لهم في الممشى. كان أحد

هؤلاء السجناء المجنون العجوز الذي كثيراً ما لاحظته نيكليودوف
أثناء المراحل السابقة، وكان الثاني صبيّاً ابن عشر سنوات، نائماً بين
الرجلين، ملقياً خده على راحته بين ساقَي أحد الرجلين.

عندما بلغ نيكليودوف خارج السجن وقّف ليتننّفس طويلاً، عملء
رئتيه، الهواء البارد والمنعش.

x x x

كانت النجوم تلمع فوق الفناء، وقد تجمّد الوحل تقريباً من جراء البرد. وعندما بلغ نيكليودوف النزل، قرع الزجاج المعتم فهبّ الفتى المتين القوى وفتح له الباب، وهو حافي القدمين. وسمع، في الجهة اليمنى من المدخل، شخيراً صاخباً هو شخير الحوذين النائمين في القاعة العامة. وفي مواجهة المدخل، وراء باب يطل على الفناء، بلغته أصوات الخيل وهي تلوّك شوفانها. وإلى اليسار، ينفّتح باب على غرفة المسافرين من ذوي المنزلّة الرفيعة، حيث انتشرت رائحة الأّبسنّ الجاف والعرق الزنخ. وخلف حاجزٍ، سمع غطيظاً منتظماً، مرتاحاً، لرجل قوي الرئتين، وأمام الأيقونات كانت تشتعل شمعة ضئيلة النور في زجاج أحمر.

خلع نيكليودوف ملابسه. كان غطاء السفر ممدوداً على الأريكة المغطاة بالفرو، فرتبّ وسادته الجلدية واضطجع. إن ما رآه وسمعه خلال هذه الأمسية كان يتردد على ذهنه. وحاصرته، على الخصوص صورة مؤلمة، هي صورة الصبي الذي رآه نائماً، مستنداً إلى ساق السجين، مستلقياً في الماء القذر الذي يرشح من مواصل الحوض.

لم يقف طويلاً عند أحاديثه مع سيمونسون وكاتيوشا ليفكر فيها. ومهما تكن مفاجئة ومهمة تلك الأحاديث فإن الدور الذي قام به أثناء هذه المحاورة كان مفرط التعقيد والغموض. ولذلك آثر أن يطرد هذه الفكرة. وبالمقابل، فقد استحوذت عليه بقوة أشد، ذكرى هؤلاء البائسين الذي كانوا يخنقون في هذا الجو الخانق، وهم مضطجعون وسط هذا السائل الموبوء الذي يسيل من ذلك الحوض المتن، ولاسيما ذكرى ذلك الصبي ذي الوجه البريء، النائم بين ساقبي السجين المحكوم بالأشغال الشاقة.

لأن نعرف أن ثمة أناساً، في مكان ناء من الأرض، يُعَذِّبون بتعريضهم لجميع أنواع الإذلال والآلام اللا بشرية، شيء مختلف عن مشاهدة ذلك كله، خلال ثلاثة أشهر متواصلة. إن نيكليودوف جرّب هذه التجربة بنفسه. فلقد تساءل غير مرة، أثناء هذه الأشهر الثلاثة: «أنا المجنون، أنا الذي يرى ما يبدو أن الآخرين لا يرونه، أم أن المجانين أولئك الذي يفعلون الشر أو يسمحون بفعله؟» لكن الآخرين - وهم كثر - كانوا يتصرفون، وهم على يقين مطمئن بأنهم لا يقومون بواجبهم فحسب، بل بأنهم يقومون بعمل عظيم الأهمية والنفع. كان نيكليودوف يتردد في اعتبارهم جميعهم مجانين. ومن جهة أخرى، فإنه لم يكن يستطيع أن يعتقد بجنونه هو نفسه، لأن أفكاره بدت له واضحة، ومنطقية تماماً. كان إذاً فريسة للشك.

من كل ما رآه خلال هذه الأشهر الثلاثة، أمكنه أن يستخلص النتائج التالية: أولاً، إن القضاء والهيئة الإدارية يختاران، من بين الأشخاص الأحرار، أشدهم حيوية واحتداماً وحماسة، وفي الوقت نفسه أقلهم

مكراً وحذراً، وإن كانوا أكثر موهبة وقوة. هؤلاء الأشخاص الذين ليسوا أكثر إجراماً وخطراً من الآخرين، يحبسانهم في السجون، ويرسلان بهم إلى الأشغال الشاقة، ويحكمان عليهم بالعطالة المطلقة سنين طوالاً. من الناحية المادية، هم يحصلون على قوتهم اليومي، لكنهم يُعَدُّون عن الحياة الحرة الطليقة، وعن عائلاتهم، وعملهم، وبالاختصار عن جميع شروط الحياة العادية. ثانياً، إن السجناء يلاقون، في هذه البيوت التأديبية. كثيراً من أصناف الإذلال التي لا فائدة منها، من مثل السلاسل، وحلق الرؤوس، والثياب المحقّرة، أصناف من الإذلال تهدف إلى حرمان الضعفاء مما يكوّن خصائص الحياة الشريفة: اهتمام الرأي العام، الاحترام الإنساني، الشعور بالكرامة الإنسانية.

ثالثاً، إن هؤلاء الأفراد مُعرّضون دائماً للأخطار المميتة، مثل الإنهاك، والجلد. هذا إذا لم نذكر الأخطار الاستثنائية، من مثل ضربة الشمس والغرق والحريق، والأمراض المعدية التي لا مفرّ منها في السجون. وبالتالي فإن أفضل هؤلاء الأفراد وأشرفهم يعيشون في حالة ذهنية تحمل أصحابها، مدفوعين بغريزة البقاء، على ارتكاب أبشع الدناءات، بل وعلى تسويغها.

رابعاً، إن الذين يُجَبَّرُون هكذا على العيش برفقة كائنات فاسدة كالقتلة والأشقياء، أي الكائنات التي أفسدت الحياة على العموم، وحياة السجون على الخصوص، ينتهون بالخضوع لتأثير هؤلاء. إن هذا الفساد لِيَفْعَلَ فعل الخميرة في العجين، إنه يفعل فعله في أفراد لم يفسدوا فساداً تاماً بعد، وهو يغدو أشدّ إيذاء حين يُصِيب أشخاصاً حُرِّموا حرّيتهم، وألزموا الشقاء، ورُمي بهم بين برائن اليأس.

وخامساً وأخيراً، إن الذين يعاملون أي شخص هذه المعاملة، يرسّخون في ذهنه، وبأشد الطرائق إقناعاً، أن مبدأ العنف والقسوة والوحشية بجميع أنواعها ليست مقبولة فحسب بل إن الحكومة تحث عليها، في حالة نفعها. وهذا المبدأ يُطبّق بواسطة سلسلة من التدابير غير الإنسانية، مثل تعذيب الأولاد والنساء والشيوخ: الجلد بالعصا وبالسوط، منح المكافآت لمن يُسلم هارباً، حياً أو ميتاً، الفصل بين الأزواج، المساكنة الإجبارية بين النساء وغير أزواجهن، الإعدام قتلاً وشنقاً.

فكان هذه التدابير جميعاً قد اخترعت خصيصاً لتبث، لباب الإنحلال والزائل في جميع طبقات السكان، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

وحدّث نيكليدوف نفسه، وهو يفكر فيما رآه خلال الرحلة إلى سجن الأشغال الشاقة: «تماماً، كما لو أنهم فرضوا على أنفسهم مهمة هي: كيف يمكن إفساد أكبر عدد من الناس، بأوثق الطرق وأنجعها». إذ إنّ مئات آلاف الأشخاص كانوا يُدفعون، في كل عام، إلى قمة الإنحلال. ثم يُخلى سبيلهم لكي ينقلوا إلى بلاد كلها وباء الفساد الذي أشبعوا به في السجن.

ففي سجون «تيومن» و«اكرنبرج» و«تومسك» أثناء الوقفات، استطاع نيكليدوف أن يتحقق من نجاح هذا المشروع الذي يبدو كأنه يتوافق مع خطة موضوعة. ذلك أن أناساً بسطاء جداً، عاديي جداً، من ذوي المبادئ الصلبة، الخاصة بالأخلاق الاجتماعية والمسيحية

لدى الفلاح الروسي وابن المدينة الروسي، كانوا يهجرون التعاليم ليتبنوا تعاليم غيرها، مطبوعة بطابع السجن. هذه «الأخلاق» الجديدة تنحصر في التسليم بأن جميع الإهانات، والتجاوزات، وصنوف الإذلال، مشروعة مادام بالإمكان جني النفع منها.

إن من يعيش في السجن ويشهد سوء المعاملة التي تنزل بالسجناء ينتهي إلى الاعتقاد بأن قوانين الإحترام الإنساني المقدسة، ومحبة القريب، والقوانين التي يدعو إليها أحرار الكنيسة وأساتذة الأخلاق، ليست سوى كذب نحن غير مُلزمين بطاعته.

رأى نيكليودوف تأكيداً لذلك لدى جميع معارفه من السجناء: لدى فيدوروف، لدى ماكار، وحتى لدى تاراس. ولقد أذهله هذا الأخير بلا أخلاقية أحكامه، بعد شهرين من مسيرة القافلة. وفي أثناء الطريق، علم نيكليودوف كيف أن بعض المتشردين كانوا يهربون إلى الغابة السييرية ويقودون رفيقاً لهم يقتلونه ليقفوا به بعد ذلك. وعرف نيكليودوف واحداً من هؤلاء، قُبض عليه من جديد وأقرّ بذنبه. والأدهى أن حالات أكل اللحم البشري هذه لم تكن حالات مفردة؛ بل كانت كثيراً ما تتكرر.

إن مزاولة الرذيلة على هذا النحو الكثيف، كما تُمارس في هذه المؤسسات الإصلاحية، يمكنها وحدها أن تقود الروس إلى هذه الدرجة من حقارة المتشردين. إن هذا التعليم الذين يُؤذن بمذهب نيتشه الحديث العهد، قبل وجوده، والذي يذهب إلى أن كل شيء مشروع ولا شيء ينبغي أن يُحظر، قد شاع أولاً بين السجناء، ثم في أوساط الشعب بأسره.

إن المسوّغ الوحيد لهذه التدابير يكمن في ضرورة عزل هؤلاء الأفراد الخطرين، وتخويفهم، وإصلاحهم، وفي ضرورة اللجوء إلى الانتقام الشرقي. ولم يُثبت أي من هذه التدابير نفعه، في الواقع. بدلاً من العزل، شاع الانحلال، وبدلاً من التخويف، تشجّع المجرمون. ومنهم مَنْ كانوا يذهبون، من تلقاء أنفسهم إلى السجن، مثل هؤلاء المشردين. وبدلاً من الإصلاح، انتشرت بذور جميع الرذائل انتشاراً منهجياً. أما الانتقام فإن العقوبات التي نص عليها القانون لم تكن لتحذ منه البتّة، بل لقد جعلت الشعب يألف هذا المبدأ الذي كان غريباً عليه حتى الآن.

وتساءل نيكليودوف دون أن يجد جواباً عن سؤاله: «لماذا يفعلون ذلك كله إذن؟»

لقد دهش بخاصة حين تأكد من أن ذلك لم يكن يجري مصادفة، أو خطأ، أو استثناء. بل إن ذلك قد جرى على هذا النحو منذ قرون، مع هذا الفرق وهو أنهم كانوا قديماً يقطعون أنف الإنسان وأذنيه، ثم أخذوا يحرقونه حياً ويَشمونه بالحديد المحمي. أما في الوقت الحاضر فهم يغلّون يديه ويرسلونه إلى سجن الأشغال الشاقة بالباخرة أو القطار بدلاً من العربات.

إن نظام الأشياء هذا الذي ملأ نيكليودوف سخطاً ناتج، بحسب ما قاله له موظفو السجون، عن نقص التنظيم الجزائي. ولو أمكن بناء سجون حديثة لتحسّن كل شيء. مثل هذه المحاكمة لم تكن ترضي نيكليودوف الذي كان يحسّ أن الشر لا يرتبط بتنظيم السجون

المتفاوت الحسن. فقد قرأ وصفاً لسجون نموذجية مجهزة بجهاز من الأجراس الكهربائية، والموت على الكرسي الكهربائي، والنظام الذي أشاد به تارد، لكن هذا الإتيان للعنف قد زاد من سخطه.

ولقد كانت تُثير سخط نيكليودوف على الخصوص هذه الفكرة: وهي أن القضاة والموظفين الوزاريين يتلقون مرتبات عالية تُبَنَز من الشعب نفسه، لكي يكتشفوا في الكتب التي كتبها موظفون آخرون من أجل كسب المال، ما مواد القوانين التي عنوا بتجميعها يمكن أن تُطبق على متتهكي القانون. هذه المواد كانت تتيح لهم إذن أن يتخلصوا من المضايقين بإرسالهم إلى أماكن نائية، بعيدة عن العيون، يقعون فيها تحت وطأة السلطة المطلقة للمديرين والسجّانين، وحراس القافلة، القساة. المتبلّدي الإحساس. وهكذا كانوا يموتون بالملايين، موتاً معنوياً إن لم يكن موتاً جسدياً مأساوياً.

بعد أن عرف نيكليودوف السجون وقوافل السجناء عن كثب، أدرك أن رذائل السجناء كالسكر والقمار والقسوة وسائر الجرائم بما فيها أكل اللحم البشري، لم تكن ظواهر متفرقة، كما أنها لم تكن مظهراً غير طبيعي من مظاهر المجرم النموذجي، كما ينادي بذلك علماء بلداء، لمصلحة حكوماتهم. بل يجب أن نرى فيها نتيجة حتمية لذلك الضلال الفظيع الذي يقضي بأن يملك بعض الأفراد حق الحكم على أمثالهم من البشر. لقد أدرك نيكليودوف أن أكل اللحم البشري لم يولد في غابات سيبيريا، بل في الوزارات، واللجان والأقسام الوزارية. إن صهره مثلاً، وجميع القضاة والموظفين من أصغر قاض حتى الوزير، قد نفذوا أيديهم من العدالة ومن رفاه الشعب الذي لا

ينفكون يتحدثون عنه. ولا هدف لهم إلا جمع الروبلات التي تُدفع لهم لإتقان العمل الذي ينتج عنه كل هذا الفساد وكل تلك الآلام. تساءل نيكليودوف: «أيمكن أن يكون ذلك كله نتيجة لنقص في المحاكمة؟ وكيف يمكن الإستمرار في تأمين مرتّبات هؤلاء الموظفين، وفي وعدهم بالمكافآت إذا امتنعوا عن فعل ما يفعلونه؟».

عند هذه التأمّلات، وبعد أن صاح الديك مرتين، وعلى الرغم من أن البراغيت كانت تهاجمه لدى أدنى حركة، شبيهة بقطرات صغيرة تفلّتت من فوّارة ماء، أغفى نيكليودوف واستغرق في نوم ثقيل.

× × ×

عندما استيقظ نيكليودوف، كان الحوذيون قد انصرفوا منذ زمن بعيد. شربت صاحبة النزل شايتها وجاءت تتنبأ نيكليودوف، وهي تمسح بمنديلها عنقها الغليظة المبللة بالعرق، أن جندياً حمل بطاقة إليه.

كانت البطاقة من ماريّا بافلوفنا. وقد كتبت إليه أن كريلتسوف أصيب بنوبة أشد مما توقّعوا. «خَطَرٌ لنا أن نبقية هنا، وأن نبقى، لكنهم لم يسمحوا بذلك. وها نحن نحمله معنا إذاً، متخوّفين مما هو أسوأ. لعلك تستطيع، إذا ما بلغنا المدينة، أن تحاول الحصول على إبقائه فيها، وعلى الإذن لأحدنا بالبقاء معه. وأنا مستعدة للزواج به، إذا كان ذلك ضرورياً».

بعد أن أرسل نيكليودوف الخادم إلى البريد لاستئجار الجياد، أسرع وتهياً للسفر. ولم يكد يُفرغ فنجان الشاي الثاني حتى سمع رنين الجلاجل وصرير العربّة على الوحل المتجلّد الذي غدا قاسياً وكأنه طريق مبلّطة. وقفت العربّة أمام درج المدخل.

دفع نيكليودوف بسرعة الحساب لصاحبة النزل ذات العنق الغليظة

وأمر الحوذني أن يحث جياده، لئدرك القافلة. وغير بعيد من أبواب القرية اصطدم بآخر عربات القافلة المحملة بالصُرر والمرضى. كانت العربات ترتج بصخب على الوحل المتجلد الذي بدأ يلين. سار الضابط في المقدمة. أما الجنود الذين ثملوا قليلاً وأخذوا يثرثرون بمرح، فقد حاذوا القافلة على حافتي الطريق. في عربات المقدمة، تكدّس في كل عربة ستة سجناء من أضعف سجناء الحق العام. بيد أن السياسيين لم يكونوا سوى ثلاثة في كل عربة. وكانوا يشكلون المؤخرة. العربية الأخيرة كانت تضمّ نوفودفوروف، غرايتز، وكوندرا تييف؛ وفي العربية قبل الأخيرة جلس ناباتوف ورائتسيفا والمريضة المصابة بداء المفاصل التي تنازلت لها ماريا بافلوفنا عن مكانها. وفي العربية الثالثة، وقد كريتسوف على القش والوسائد. وبقربه، على حافة العربية، جلست ماريا بافلوفنا. أوقف نيكليودوف حوذيّه، مع أن حارساً ثملاً أشار إليه بالانصراف. وضع نيكليودوف يده على حافة المركبة، دون أن يبالى بالحارس، وسار هكذا بحذائها.

كان كريتسوف مدثراً بمعطف فراء، ورأسه مغطى بقبعة من جلد الحمل، وعلى فمه منديل يغطّيه. لقد بدا أشد هزلاً وشحوباً من عادته، وبدت عيناه البديعتان كأنهما زادتاً اتساعاً واتقاداً إلى حد بعيد. أخذ يحدّق في نيكليودوف، وجسده الضعيف يهتز مع رجّات العربية، لكن عندما سأله نيكليودوف عن حالته، اكتفى بان أغمض عينيه وهزّ رأسه مغتاضاً. وكان واضحاً أنه بحاجة إلى أن يستجمع قواه ليحتمل مشقّات السفر. رَمَتْ ماريا بافلوفنا التي كانت جالسة في الجانب الآخر من العربية، نيكليودوف بنظرة لها دلالتها لتفهّمه قلَقَها بصدد حالة المريض.

صرخت بكل قواها ليُطغى صوتُها على قرقرة العجالات:

- لاشك أن الضابط أحسّ بالخرج. لقد أمر بفك قيد بوسوفكين،
فصار يمكنه الآن أن يحمل طفله. ومعه كاتيا وسيمونسون وفيروتشكا
التي حلّت مكاني.

لفظ كريلتسوف كلمات غير مفهومة. كان يشير بيده إلى ماريا
بافلوفنا، مقطباً حاجبيه من جراء الجهد الظاهر الذي يبذله لكي لا
يسعل، ثم هزّ رأسه. وقرب نيكليودوف أذنه من فم كريلتسوف الذي
أزاح المنديل الذي يغطّيه وهمس:

- حالتي أحسن بكثير. على شرط ألا يصيبني البرد...

وافق نيكليودوف بإمضاء من رأسه، وهو يُبادل ماريا بافلوفنا النظر.
واستعلم المريض أيضاً، وهو يتسم ابتسامة مقتسرة:

- حسناً! ومشكلة الأجرام الثلاثة، إلى أين وصلت؟ أما تزال
صعبة الحل، كما كانت من قبل؟

وبما أن نيكليودوف لم يفهم معنى هذا السؤال، فقد أوضحت له
ماريا بافلوفنا أن المقصود هو المشكلة الرياضية الشهيرة عن العلاقة
بين الأجرام السماوية الثلاثة: الشمس والقمر والأرض، وهي مشكلة
طبّقها نيكليودوف، على سبيل المزاح، على حالة نيكليودوف،
وكاتيشا، وسيمونسون. وأيد كريلتسوف أقوال ماريا بافلوفنا بهزّة
رأسه.

فأكّد نيكليودوف:

— الحل لا يتوقف عليّ.

سألت ماريا بافلوفنا:

— هل وصلتك بطاقتي؟ ستهتّم بها؟

فوعدها قائلاً:

— بكل تأكيد، سأهتّم بها.

وإذ لمح تعبيراً من الاستياء يمر على وجه كريلتسوف، عاد إلى عربته. وجلس فوق المقعد متشبّثاً بحافة العربة التي كانت تثب به لدى كل وعورة على الطريق المحفّرة الآن، ومضى ليلحق بذلك الصف الطويل الذي يمتد كيلومتراً، صف القمصان الرمادية ومعاطف الفراء التي يرتديها المحكومون بالأشغال الشاقة. كان هؤلاء يسرون مقيدي الأرجل مربوطين اثنين اثنين بواسطة الأغلال.

في الجانب الآخر من الطريق، تعرّف منديل كاتيوشا الأزرق، ومعطف فيرا ايفريموفنا الأسود، وسترة سيمونسون المشمّعة، وقبعته، وجوربه الصوفي الأبيض، وحذاءه الخشبي المشدود ببريم. وكان يمشي بين المرأتين يحدثهما بحيوية.

وجّهت المرأتان التحية إلى نيكليودوف، عندما رأتاه. ورفع سيمونسون قبعته وحركها، وقد بدا عليه التهلل. وبما أن نيكليودوف لم يجد ما يقوله لهم، فقد مردّون أن يوقف عربته. وعندما عاد

الحوذي إلى الطريق المطروقة، حثّ جياده، لكنه كان مضطراً في كل لحظة إلى أن ينتحى إلى جانب الطريق ليسمح بمروور العربات التي كانت تجري في كلا الاتجاهين.

تزايدت الحفر العميقة في الطريق، إذ أخذت تجتاز الآن غابة مظلمة من الأشجار الصنوبرية التي كانت تضيف إليها خضرة الأشجار الأرزية وأشجار البتولة ظلالاً فاتحة. وفي منتصف الطريق، حلتّ الحقول محل الغابة، وكانت تمتد على جانبي الطريق، فبرزت صلبان أحد الأديرة وقبابه المذهبة.

صحا الجو، وتبددت الغيوم، وألقت الشمس المرتفعة فوق الغابة لألأءها على الأوراق الرطبة والحقول والقباب التي تعلوها الصلبان. وأبعد منها، في الأفق البعيد تراءت رسوم الجبال البيضاء. دلفت العربّة إلى بلدة كبيرة هي ضاحية متقدمة للمدينة. كان الشارع الرئيسي يعجّ بالناس، منهم الروس ومنهم السكان المحليون الذين تسهل معرفتهم بقبعاتهم الجلدية ومعاطفهم القصيرة. وتدافع خلق من كلا الجنسين، كثير منهم ثمل، أمام الدكاكين والنزل والحانات والعربات. كان كل ذلك يشعر بأن المدينة قريبة.

سأط الحوذي جياده، وشدّ رسن الجواد الأيمن، وجلس منحرفاً، بحيث يظل العنان إلى يمينه، وهو ما يملؤه زهواً. اجتاز الشارع الرئيسي جرياً، وبلغ النهر دون أن يخفّف سرعته، وكان عليه أن يجتازه بالمُعديّة التي كانت في عرض مجرى النهر السريع، مقتربة ببطء من حافة النهر، حيث كانت تنتظرها نحو عشرين عربّة. لم يطل انتظار نيكليودوف،

ذلك أن المعدية ما لبثت أن بلغت الشاطئ، يدفعها التيار، منصبة بمقدمتها في المجرى الذي تشقه.

كان المعدّون رجالاً أشداء، عراض المناكب، مفتولي عضلات الأذرع، يرتدون معاطف من فرو، ألقوا حباكلهم بصمت، وبحركة حاذقة، آلية، ثم ربطوها بالأوتاد ربطاً محكماً. ثم سحبوا العارضة، وتركوا العربات تنزل قبل أن يسمحوا بصعود العربات الأخرى التي تجرها جياد نفرت لدى رؤية الماء. كان النهر عميقاً وهائجاً، يصل إلى حاجز السفينة، وكان مأوها يشد الحبال. فلما امتلأت المعدية، وحُشرت عربة نيكليودوف بين بقية العربات، في جانب من السفينة، وفُكّت الجياد، أعاد المعدّون العارضة إلى مكانها، دون أن يبالوا باحتجاجات الذين ظلّوا على الأرض. ثم أرخوا القلوس، ومضت المعدية إلى عرض النهر. كان كل شيء هادئاً على ظهر المعدية، ولم تكن تُسمع سوى خطوات النوتية، ووقع حوافر الخيل على السطح الخشبي.

x x x

كان نيكليودوف يتأمل النهر الكبير الجيَّاش، وهو يضع قدميه على حافة المعدية . وتناوبت ذهنه صورتان: رأس كريلتسوف المحتضر والمهتاج، الذي تهزّه رجّات العربة، وشبح كاتيوشا وهو يسير بخطا وثيقة على أطراف الطريق بجانب سيمونسون. هناك، من جهة، رؤيا محزنة، مؤلمة، هي رؤيا كريلتسوف المسكين الذي لم يوطن نفسه على الموت، والذي أشرف مع ذلك على نهايته؛ وهناك، من جهة أخرى، رؤيا كاتيوشا الشجاعة التي وجدت حب رجل مثل سيمونسون، والتي استقرّت أخيراً على الطريق المستقيم. وكان جديراً بهذه الصورة الأخيرة أن تحمل الفرّح إلى نفس نيكليودوف، لكنها، على العكس، أحزنته، وأثارت فيه ألماً لم يُفلح في التغلب عليه.

تناهى إليه قرع ناقوس كنيسة المدينة متموّجاً، رناناً، محمولاً على الماء. فنزع الخوذي وسائقو العربات قبعاتهم ورسموا إشارة الصليب. بيد أن شيخاً قصيراً، أشعث لم يحذُ حذوهم. وحتى هذه اللحظة، لم يكن نيكليودوف قد لاحظته؛ كان يقف قرب متراس السفينة وينظر إلى الأمير، رافعاً رأسه. كان يرتدي قفطاناً مرقّعاً، وبنطالاً مخملياً

مضلعاً، ويحتذي حذاء متهرئاً وموحلاً. ومن كتفه تدلى خرج؛ وقد غطى رأسه بقبعة عالية من الفرو الرث.

سأله حوذي نيكليودوف بعد أن أعاد قبّعته إلى رأسه:

— وأنت، يا شيخ، ألا تصلي؟ ألم تُعمّد؟

أجاب الشيخ بلهجة حازمة، وبإلقاء سريع:

— لمن ينبغي أن أصلي؟

هتف الحوذي ساخراً:

— معروف لمن نصلي... لله!

— أتريد أن تريني أين هو، الله؟

كان تعبير وجه الشيخ يدل على كثير من الصرامة الرزينة، فأحس الحوذي أنه يواجه إرادة لا تلين، فتحيّر قليلاً. لكنه بادر إلى الجواب، لكي لا يفقد ماء الوجه أمام الذين كانوا يصغون إليه:

— أين؟ كل الناس يعلمون ذلك: هو في السماء.

— أكنت، أنت، في السماء؟

— من جهة الذهاب إليها، لا، لم أذهب، لكن الجميع يعلمون أننا يجب أن نصلي لله.

أعلن الشيخ بلسانه الطلق والغاضب:

– الله، لم يره أحد. وقد شهد بذلك «ابنه الوحيد» الذي هو في أحضان الأب.

فقدر الخوذي:

– لست إذن بمسيحي! إنك تصلي في الفراغ.

ودس سوطه في زناره، وأصلح عدة أحد الجوادين الجانيين.

انفجر أحد الحضور ضاحكاً. واستفهم رجل متوسط العمر، يقف قرب عربته، على حافة المعدية.

– لكن أنت، يا شيخ، ما دينك؟

وكان جواب الشيخ واثقاً وسريعاً، على عادته:

– لا دين لي. لست أومن بأحد إلا بنفسي.

سأله نيكليودوف:

– كيف يمكن للإنسان أن يؤمن بنفسه؟ قد يخطئ.

ردّ الشيخ بحسم، وهو يهزّ رأسه:

– لن يخطئ، على الإطلاق!

فقال نيكليودوف بدهشة:

— كيف جرى إذن أن هناك كثيرٌ من الديانات.

— ذلك لأن الناس يؤمنون بغيرهم لا بأنفسهم. أنا أيضاً، آمنت بالإنسانية، وتهتُ، كما يتيه المرء في غابات سييريا العذراء. لقد ضللت سبيلي حتى حسبتي لن أهد إلى الطريق. عن المؤمنين القدامى، والمؤمنين الجدد، والسبتيين، وأصحاب مذهب الجلد، والكهنوتيين، واللاكهنوتيين، والنمساويين، والملكيين، والسكوبتسيين^(٤٨)، كل هذه الطوائف الدينية تزعم أنها تمتلك الحقيقة. وهي مشتتة مثل جِراء صغيرة عمياء. الديانات شتى، لكن الروح واحدة. والروح فيك وفيّ، وفينا جميعاً. ولو أن كل واحد آمن بالروح الذي فيه إذن لا تُحد الجميع. ليكن كل واحد هو نفسه، وسوف يصبح الجميع كالواحد.

كان الشيخ يتكلم بصوت عالٍ جداً؛ وكان ينظر حواليه كأنه يُحاول أن يُسمع أكبر عدد ممكن.

استفهم نيكليودوف:

— أأنت تبشّر بذلك منذ زمن بعيد؟

— أنا، منذ زمن بعيد جداً. لقد مضت أربع وعشرون سنة وهم يضطهدونني.

— كيف يضطهدونك؟

— كما اضطهدوا المسيح. هم يسوقونني إلى أمام المحاكم والكهنة

٤٨ — ... السكوبتسيين: هذه الأسماء أسماء طوائف دينية روسية.

والفرّيسين؛ بل لقد ألقوا بي في مصح للمجانين. ومع ذلك، فليس
بوسعهم أن يفعلوا شيئاً بي، لأنني حر. هم يسألونني: «ما اسمك؟» ظناً
منهم أن لي اسماً، لكن ليس لي اسم، لقد تخلّيت عن كل شيء. ليس لي
اسم ولا قرية ولا وطن ولا شيء. أنا أنا. يسألونني:

— ما اسمك؟

— إنسان.

— ما عمرك؟

— أنا لا أعدّ السنين، ولا أستطيع أن أحصيها، لأنني كنت منذ الأزل
وسأبقى إلى الأبد.

— مَنْ أمك وأبوك؟

— ليس لي أم ولا أب، سوى الله والأرض. الله أبي، والأرض أمي.

— والقيصر، ألا تعترف به؟

— ولم لا؟ هو قيصر لنفسه وأنا قيصر لنفسي.

فيقولون لي:

— عجباً! لا سبيل إلى مخاطبتك!

وأجيهم:

— لم أسألكم مخاطبتي.

هكذا يعذّبونني.

سأله نيكليودوف:

— إلى أين أنت ذاهب الآن؟

أجاب الشيخ:

- إلى حيث يرسلني الله. إنني أعمل، فإذا لم أجد عملاً سألت الإحسان.

وعندما رأى المعدية تدنو من الضفة الأخرى، نظر إلى مستمعيه بهيئة المنتصر.

رست المعدية. أخرج نيكليودوف محفظته وأراد أن يعطي الرجل شيئاً من المال. لكن الشيخ رفض قائلاً:

- لستُ أقبل المال. وأريد خبزاً فقط.

- اعذرني.

- أجاب الشيخ وهو يرد خرجه على كتفه.

- لا حاجة إلى الاعتذار. فأنت لم تُسِرْ إليّ. ولا يستطيع أحد أن يُسيء إليّ.

في هذه الأثناء، أنزلت العربية إلى اليابسة. ورُبطت الجياد بها. وبعد أن فتح نيكليودوف المعدين الأشداء مكافأة، صعد إلى العربية. فقال له الحوذي:

- أيطيب لك أن تحدث هذا الشيخ، أيها النبيل. ما هذا سوى مشرّد لا عقل له.

× × ×

عندما هبط الحوذي الطريق الذي يُقضي إلى المدينة، التفت وسأل:

- إلى أين - أي فندق ينبغي أن أوصولك؟

- أي الفنادق أفضل؟

- السيبري، لكن فندق ديوكوف حسن أيضاً.

- إلى حيث تشاء، إذن.

عاد الحوذي إلى جلسته الجانبية وأجرى جياده خبياً. كانت هذه المدينة تشبه جميع المدن الأخرى؛ المنازل ذاتها بطوابقها الأرضية المنخفضة وسطوحها الخضراء؛ الكنائس ذاتها، والدكاكين ذاتها، وهي تغدو مخازن في الشارع الرئيسي، حتى عناصر الشرطة البلدية هم ذاتهم. بيد أن معظم البيوت كانت من الخشب، ولم تكن الشوارع مبلّطة. أوقف الحوذي عربته في شارع من أكثر الشوارع حركة، لكن بما أنه لم يجد محلاً في الفندق، فقد وجب أن يبحث في مكان آخر. وأخيراً وجد غرفة فارغة، واستطاع نيكليودوف، لأول مرة منذ

شهرين، أن يسترجع شيئاً من عاداته القديمة، عادات الراحة والنظافة. ومع أن الغرفة لم تكن فخمة، فقد أحس بالارتياح العظيم، بعد هذه الرحلات على مقاعد العربات، وبعد الأنزال والمراحل. كان يتوق بخاصة إلى التخلص من الحشرات التي لم يستطع أن يتخلص منها كلياً بعد زيارته للسجناء.

ما إن وضع متاعه، حتى استحسّ مباشرة وارتدى ثياب المدينة: قميصاً منشئاً، بنطالاً لا غبار علي طيّته، السترة الرسمية والمعطف. وعندما فرغ من ذلك قصد إلى مقرّ حاكم المنطقة.

دعاه بواب الفندق عربية يجرها جواد «قرغيزي» فاره، فحملته مصحوباً بالجلال إلى بناية مهيبة يحرسها حراس وأفراد من شرطة البلدية. كان بيت الحاكم تحيط به حديقة ظهرت منها، بين أغصان الحور والبتولة العارية، خضرة الصنوبر والتنوب القائمة والكثيفة.

كان الجنرال مريضاً لا يستطيع أن يستقبل أحداً. بيد أن نيكليودوف رجا الخادم أن يحمل إليه بطاقته، فعاد الأخير برّدٍ إيجابي قائلاً:

— أنت مدعو إلى الدخول.

كان غرفة الانتظار، والخادم، والنظام السائد في كل مكان، والدرج، وقاعة الاستقبال بأرضيتها الملمّعة بالشمع، كان كل ذلك يذكّر ببطرسبرج، مع قدر أقل من النظافة، وقدر أكبر من تحرّي العظمة. أدخل نيكليودوف إلى مكتب المدير.

كان الجنرال، وهو رجل دموي، متنفخ الوجه، ضخم الأنف،

أصلع الرأس مع حذبات جبهية وجبين تحت العينين، جالساً وراء مكتبه، مرتدياً مبذلاً تترياً من الحرير، وبين أصابعه سيجارة، يشرب الشاي في فنجان مؤطر بالفضة.

قال وهو يرفع قبة مبذله على قذاله ذي التجاعيد الدهنية:

— طاب يومك، يا أمير، اعذرني على استقبالك بالمبذل. استقبالك هكذا أفضل من عدم استقبالك، أليس كذلك؟ أنا منحرف الصحة ولذلك لا أخرج. ما المناسبة السعيدة التي جاءت بك إلى هذه الأراضي البعيدة؟

أجاب نيكليودوف:

— تبعثُ قافلة السجناء لأن فيها شخصاً عزيزاً علي. وقد جئتُ أرجو سيادتكم أن تمنح هذا الشخص معروفك. وفضلاً عن ذلك، فإن لي قضية أخرى أودّ أن أكلّمك بشأنها.

نفث الجنرال نفساً من الدخان، وشرب جرعة من الشاي، وأطفأ سيجارته في منفضة من الملكيت، وتهياً للإصغاء بانتباه إلى نيكليودوف، دون أن يرفع عن وجهه عينيه المغمضتين نصف إغماضه، المبلّتين واللامعتين. ولم يقاطعه إلا ليعرض عليه سيجارة.

كان الجنرال ينتمي إلى هذه الفئة من العسكريين التي تظن أنها تستطيع التوفيق بين النزعة التحررية والأفكار الإنسانية وبين مهنتهم. وبما أنه كان ذكياً وطيباً فقد أدرك بسرعة عدم الجدوى من جهوده. ولكي يتخلص من التناقضات التي كان يجد نفسه فيها باستمرار،

تعاطى الشراب شيئاً فشيئاً، وتلك رذيلة منتشرة بين العسكريين. ولقد ترسّخت فيه هذه العادة حتى غدا ما يسميه الأطباء مدمناً. كان متشبعاً بماء الحياة، تكفي أقل قطرة من الكحول لتسكره. كان الشراب ضرورة حيوية له، فكان يسكر كل مساء سكرّاً تاماً. بيد أنه لم يُر قط مترنحاً، أو ناطقاً بحماقات. ولو نطق بها لعدّت حماقاته حصافة بسبب من مركزه الرفيع. في الصباح فقط، في مثل الساعة التي جاءه فيها بالضبط نيكليودوف، كان يبدو راجح العقل، قادراً على فهم ما يقال له. حينذاك كان يطبّق، بكثير أو قليل من التوفيق، المثل الذي كان يحلو له أن يردده: سكران وذكي، فضيلة يتحلّى بها قلة من الناس. وكانت السلطات العليا تعلم أنه سكير. لكن بما أنه كان أكثر ثقافة من كثيرين غيره، - مع أن ثقافته توقفت حيث بدأ سكره - وبما أنه كان جريئاً وحاذقاً ومهيباً ومليئاً باللباقة، حتى في حالة السكر، فقد أوكلت إليه هذه الوظيفة الهامة وتُركت له.

روى له نيكليودوف أن الشخص الذي يهتم به امرأة حُكمت ظلماً. وحّدته عن التماس العفو.

فاستعلم الجنرال:

- ممتاز، وماذا بعد ذلك؟

- وعدوني في بطرسبرج أنهم سيرسلون إلي، خلال هذا الشهر، أنباء بصدد مصيرها. وسوف يرأسلوني، إلى هذا المكان...

قدّم الجنرال يده القصيرة الأصابع نحو الطاولة، دون أن يحوّل

نظره عن نيكليودوف وقرع الجرس، وأصغى إلى نيكليودوف بصمت، صاحباً من سيجارته أنفاساً، وساعلاً بصخب.

تابع نيكليودوف كلامه:

— أود أن أرجوك السماح بإبقاء هذه المرأة هنا، إن أمكن، ريثما يصل الردّ على طلب التماسها.

في هذه اللحظة دخل المكتب خادم بيزة الحاجب العسكرية فقال له الجنرال:

— اسأل إذا كانت آنا فاسيلييفنا قد نهضت، وهات لي مزيداً من الشاي.

انصرف الخادم فالتفت الجنرال إلى زائره وسأله:

— وفيّمَ ترغب أيضاً؟

— طلبتي الآخر يتعلق بسجين سياسي في القافلة نفسها.

فاعترض الجنرال وهو يهزّ رأسه هزة لها دلالتها:

— هكذا، هكذا!...

— وهو مُدَنَّفٌ، موشك على الموت... وربما تركوه هنا في المستشفى. وهناك سجينّة سياسية ترغب في أن تظلّ بجنبه.

— أهي من ذويه؟

— لا، لكنها مستعدة للزواج به، إذا منحها الزواج حق البقاء.

حدّق الجنرال الذي ظل يدخن في نيكليودوف، بعينه الملتمعتين. وعندما توقف نيكليودوف عن الكلام، تناول كتاباً عن الطاولة، وقلب بسرعة صفحاته بأصابع مبللة بلعابه، وعثر على المقطع الذي ينصّ على الزواج وأخذ يقرؤه.

واستخبر وهو يرفع عينيه عن الكتاب:

— ما العقوبة التي حُكمتُ بها؟

— هي؟ بالأشغال الشاقة.

— الواقع، أن ظروف المحكوم بالأشغال الشاقة لا يمكن أن تتحسن بالزواج.

— لكن، مع ذلك...

— عفواً. وإذا تزوجت رجلاً طليقاً فينبغي عليها مع ذلك أن تنفّذ عقوبتها. والمسألة هي إذن معرفة من الذي يخضع لأشد العقوبتين، هو أم هي؟

— كلاهما محكوم بالأشغال الشاقة.

قال الجنرال وهو يضحك.

— في هذه الحالة، هما متخالسان، لا فضل لأحدهما على الآخر. يمكنه، هو، أن يبقى هنا بسبب المرض، وسنعمل، بالطبع، كل ما هو

ممكن للتخفيف من مصيره. أما هي، فلا يمكنها البقاء هنا، حتى لو تزوّجت به...

دخل الخادم وأعلن:

— السيدة الجنرالة تتناول القهوة.

أوما الحاكم برأسه إيماءة الموافقة. قبل أن يتابع:

— على كل حال، سأفكر في هذه المسألة. ما أسماءهم؟ سجّل لي أسماءهم هنا، أرجوك.

سجّل نيكليودوف الأسماء، لكن عندما طلب الإذن بزيارة المريض، رفض الحاكم رفضاً قاطعاً، وأكد قائلاً:

— ليس معنى هذا، بالطبع، أنني أشتبه بك. لكنك تهتم بهؤلاء السجناء وبغيرهم أيضاً. وأنت تملك المال وعندنا، في سييريا، كل الناس يمكن أن يرتشوا. وقد كُلِّفْتُ أن أضع حداً لإمكان الرشوة هذه. وكيف أستطيع أن أفعل ذلك إذا كان الجميع يقبلون بالرشوة، ولاسيما ذوي المراتب الدنيا؟ وكيف تُراقب منطقة تمتد خمسة آلاف «فرست»؟ كل موظف قيصر على أرضه... كما أني قيصر هنا.

قال هذه الجملة وهو يضحك، وأضاف:

— لا بد أنك قابلت سجناء سياسيين، ومن أجل ذلك لا بد أنك بذلت الرشوات.

وسأله الحاكم وهو يتسم:

— ألم يسمحوا لك بمقابلتهم؟

— بلى، بالتأكيد.

— أنا أدرك بوضوح لماذا تصرّفتُ على هذا النحو. أنت تريد أن ترى «سياسياً» تعطفُ عليه. فيقبل مدير السجن والضابط المرافق مالك، لأن تلك الكوبيكات الحقيبة التي تشكل راتبهم لا تكفي لإعالتهم هم وأسرهم. ولو كنت مكانهم أو مكانك، لفعلتُ ما فعلتم. لكني لا أستطيع، في الوضع الذي أنا فيه، أن أُجيزَ لنفسي تجاوز المراجعة الدقيقة للأنظمة، وذلك بالضبط لأنني لست سوى إنسان ويمكن أن أستسلم للشفقة. لستُ سوى مجرد موظف، أنا. لقد عهد إلي بمنصبٍ خطير، ثقة بي، في شروط محددة، ويجب أن أبرهن أنني جدير بتلك الثقة. هذه مسألة انتهينا منها. والآن قل لي شيئاً مما يجري عندكم في العاصمة؟

أخذ الجنرال يطرح طائفة من الأسئلة، ويروي جملة من القصص تحدوه رغبة واضحة في معرفة الأخبار، وفي التفاخر بأهميته، وفي إبراز عواطفه الإنسانية.

× × ×

سأل الحاكم:

- حسناً! قل لي أين نزلت؟ في فندق ديوكوف؟ لعنه الله، يبدو أنه شديد السوء. تعال إلى تناول العشاء، في الساعة الخامسة. أتتكلم الإنجليزية؟ نعم؟ ممتاز إذن. عندنا هنا زائر إنجليزي جاء يدرس السجون والحبوس المنفردة في سيبريا. سيتعشى عندنا، فتعال أنت أيضاً. سيبدأ الطعام في الخامسة، وزوجتي تصرّ على دقة المواعيد. وسأعطيك الجواب إذ ذاك بصدد المرأة وبصدد المريض أيضاً. فلعل بإمكاننا أن نترك أحداً بقربه.

بعد أن حيا نيكليودوف الحاكم، قصد إلى مكتب البريد. أحس بالاضطراب، لكنه أحس بفيض من القوة.

كان مكتب البريد غرفة منخفضة ومقوَّسة. وكان المستخدمون الجالسون وراء الكوى، يوزعون البريد على الجمهور الواقف في الصف، وقد حنى أحدهم رأسه على عمله، وأخذ يختم المغلفات بسرعة مذهلة. لم يطل الانتظار بنيكليودوف. وعندما طلع اسمه،

سلّمه المستخدم ظرفاً بريدياً كبيراً يحتوي إرسالية مالية، وعدداً من الرسائل، وكتاباً، والعدد الأخير من «حوليات باريس»^(٤٩). بعد تسلّمه بريده اتّجه إلى مقعد خشبي، جلس عليه جندي يحمل بيده كُتيباً وكأنه ينتظر شيئاً. فجلس قربه، وفحص المغلفات أولاً. كان أحدها رسالة مضمونة حسنة المظهر بختم الشمع الأحمر الكبير عليها. فتحتها، وحين رأى أنها رسالة من سيلينين، مرفقة بوثيقة رسمية، أحس بالدم يتدفّق إلى جبهته، في حين كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً. كان هذا إذن هو الجواب المتعلق بكاتيوشا. فما القرار المتخذ؟ هل رُفض الإلتماس يا ترى؟ ومرّ نيكليدوف بسرعة على الخط الصغير، الذي يكاد يكون غير مقروء بسطوره غير المنتظمة. فأرسل زفرة العزاء: لقد كان الرد إيجابياً.

كتب سيلينين إليه:

«أيها الصديق العزيز، لقد ترك فيّ حديثنا الأخير أثراً عميقاً. كنت على حق بصدد ماسلوفنا. فلقد اقتنعت، بعد فحص القضية فحصاً عميقاً، أنها كانت ضحية ظلم فادح. وأن لجنة التماس العفو التي تقدّمت بالتماسك إليها، هي وحدها القادرة على تدارك ذلك الظلم. وبعد أن أسهمت في الوصول إلى النتيجة المرجوة مع تلك اللجنة، فإني أرسل إليك طيّة نسخة عن قرار العفو، على العنوان الذي أعطتني إياه كاترين إيفانوفنا. أما الوثيقة فقد أرسلت إلى المدينة التي جرت فيها المحاكمة. والأرجح أنها سترسل مباشرة من هناك إلى الإدارة المركزية

٤٩ - حوليات باريس: مجلة تحررية، ظهرت من ١٨٥٩ إلى ١٨٨٤.

في سيبريا. وأنا أبادر إلى اطلاعك على هذا النبأ السعيد وأشدّ على يدك بحرارة».

المخلص سيلينين.

وكان نصّ الوثيقة كمايلي:

«ديوان صاحب الجلالة الإمبراطورية، لجنة العفو، القسم كذا، المكتب كذا، التاريخ كذا. بأمر المدير العام لديوان صاحب الجلالة الإمبراطورية الموكل بالتماسات العفو المقدمة إلى صاحب الجلالة الإمبراطورية، تُبلّغ كاترين ماسلوف عاملة في المدينة، أن صاحب الجلالة الإمبراطورية قد شاء، بعد النظر في التقرير، أن ينظر بعين العطف إلى التماس المرأة المذكورة. فتفضّل بتحويل الحكم بالأشغال الشاقة إلى عقوبة الإبعاد إلى مكان غير ناء من سيبريا».

كان النبأ سعيداً وذا أهمية عظيمة. فكل ما كان نيكليودوف يرجوه لكاتيوشا ولنفسه على حد سواء، قد تحقّق. بيد أن هذا التغير سيعقّد علاقاتهما. ذلك أن الزواج الذي عرضه نيكليودوف عليها ما كان يمكن أن يكون سوى زواج صوري، مادامت في السجن، ولم يكن له هدف إلا التخفيف من وضع الحكومة. أما الآن فلا شيء يقف في وجه حياتهما المشتركة، وهو أمر لم يكن نيكليودوف قد هيأ نفسه له على الإطلاق. وعلاقات كاتيوشا بسيمونسون؟ ما المعنى الذي يصح أن أنسبه إلي ما قالت أمس؟ لم يستطع أن يهتدي إلى الحقيقة في متاهة أفكاره. وفكر في نفسه: «سأأخذ قراراً فيما بعد. أما الآن فينبغي أن أذهب بأسرع وقت لأراها ولأبلغها النبأ السعيد، ولأخرجها من هذا المكان».

كان يتصور أن النسخة التي في حوزته تكفي لإطلاق سراح كاتيوشا. وإذ خرج من مكتب البريد أمرَ حوذيّه بأن يوصله إلى السجن.

ومع أن الحاكم قد أبى عليه، في هذا الصباح بالذات، دخول السجن، فإنه كان يعلم بتجربته أن ما لا يمكن الحصول عليه من السلطات العليا، يستطيع أن يحصل عليه في الغالب من المأمورين. وقرر أن يُقدم على هذه المحاولة. ففضلاً عن النبأ السعيد الذي سينقله إلى كاتيوشا، كان يرغب في أن يستعلم عن حالة كريلتسوف وأن يخبره هو وماريا بافلوفنا بما قاله له الحاكم بصددهما.

تبين أن مدير السجن شخص مهيب الطلعة، طويل القامة، بدين جداً، يلتقي شارباه وسالفاه عند زاويتي الفم. استقبل نيكليودوف بهيئة صارمة، وأعلن له بلا مواربة، أن الأشخاص الغرباء عن المؤسسة لا يمكنهم دخولها دون إذن رؤسائه. وعندما بين له نيكليودوف أنه قد حصل دائماً على هذا الإذن، حتى في المدن الكبرى، أجاب الموظف:

— هذا ممكن، لكني، أنا أمنحك هذا الإذن.

كانت لهجة صوته تقول ضمناً وبوضوح: «أنتم، كبار نبلاء العاصمة، تظنون أنكم تخدعوننا؛ لكننا نحن في سيبيريا الشرقية، نعرف النظام معرفة ممتازة، بل قد نستطيع تلقينكم درساً فيه».

حتى نسخة قرار ديوان جلالته الإمبراطورية لم تستطع أن تحدث أثراً فيه. ورفض المدير رفضاً قاطعاً أن يدع نيكليودوف يدخل حرم

السجن. وعندما سأله الأمير بسذاجة إن كانت نسخة القرار كافية لإخراج ماسلوف من السجن، ابتسم المدير بازدراء. وأنبأه أنه لا يطلق سراح أي سجين إلا بأمر من رئيسه. بيد أنه قَبْلَ إبلاغ ماسلوف مضمون الوثيقة. ولسوف يُخلي سبيلها مباشرة إذا ما تلقى أمراً بذلك. ورفض أن يخبره بشيء عن صحة كريلتسوف، مؤكداً أنه لا يعلم حتى إن كان في السجن سجين بهذا الاسم. وبما أن نيكليودوف لم يحصل على شيء، فقد اضطر إلى ركوب عربته والتوجه إلى الفندق.

جاءت صرامة المدير بخاصة من أن وباء التيفوس انتشر في السجن الذي تضاعف نازلوه. ولقد علم نيكليودوف ذلك من الحوذي الذي أخبره بهذا النبأ، أثناء الطريق.

— الناس يموتون في السجن، كالذباب. لقد حلّ بهم مرض خطير لا أدري ما هو. وفي كل يوم يُدفن نحو عشرين سجيناً.

× × ×

بالرغم من الفشل الذي لقيه نيكليودوف في السجن، فإنه لم يفقد شجاعته، فلقد توجه إلى مقر الحاكم، مفعماً بالحماسة وبروح المبادرة، ليعلم إن كان العفو عن ماسلوف قد وصل. لكنه وجد أن قرار العفو لم يصل بعد. ولما عاد إلى الفندق، أسرع بالكتابة إلى سيلينين وإلى المحامي، حتى إذا فرغ من ذلك، تطلع إلى ساعته: لقد حان موعد العشاء لدى الحاكم. وفي الطريق، تساءل كيف ستستقبل كاتوشا نبأ العفو عنها. وأين سيرسلونها الآن؟ وسيمونسون، ما العواطف التي تخالج كاتوشا نحوه؟ فكر في التغير الذي طرأ عليها، وفي ماضي هذه المرأة المسكينة.

قال في نفسه: «يجب نسيان ذلك كله، يجب محوه»، ثم حاول جاهداً طرد هذه الأفكار، فقال، وهو يؤثر أن يفكر فيما سيقوله للحاكم: «سأرى ذلك فيما بعد.

إن العشاء الذي أُعدَّ بكل البذخ الذي تعودته نيكليودوف، والذي هو سمة مميزة للأغنياء ولكبار الموظفين، قد طاب له كثيراً، بعد ذلك الحرمان الطويل من أسباب الترف، بل مما هو ضروري.

كانت ربة المنزل، وهي سيدة راقية من بطرسبرج، ووصيفة شرف قديمة في بلاط الامبراطور نيقولا الأول، امرأة من العهد القديم؛ كانت تُتقن الفرنسية، ولا تحسن الروسية. كانت تقف دائماً منتصبة القامة، ولا تُبعد أبداً مرفقيها عن خصرها، حتى عندما تلوّح بيديها. وكانت تعامل زوجها باحترام تشوبّه الكآبة، وتُبدي تجاه مدعوّيها رقة بالغة، متنوعة الدرجات ومتناسبة مع أشخاصهم. استقبلت نيكليودوف استقبالها للذين يتردّدون على بيتها، وآثرته بشيء من الإطراء المرهف، الخفي، الذي جعله يشعر بمزاياه الخاصة، والذي ملأه رضاءً وغبطة.

أشعرته الجنرالة بأنها تعرف سبب مجيئه إلى سيبيريا، وهو سبب على شيء من الطرافة، بكل تأكيد، لكنه سبب مُشرّف. وأظهرت له أنها تعتبره رجلاً فذاً. إن هذا الثناء الخفي، وجوّ الأناقة المرفهة التي تسود منزل الجنرال، إن ذلك كله قد حمل نيكليودوف على الاستسلام إلى لذة هذا الجو المحبب، وذلك العشاء اللذيذ، وتلك العلاقة السهلة، اللطيفة، بأشخاص مهذّبين من عالمه. وبدا له أن الحياة التي عاشها، في هذه الأشهر الأخيرة، لم تكن سوى حلم أفاق منه بغتة، ليجد نفسه في هذا الواقع الحاضر.

حضر العشاء، ماعدا المتردّدين على المنزل - ابنة الجنرال يصحبها زوجها، ومساعد الحاكم العسكري - الزائر الإنجليزي، وصاحب منجم للذهب، وحاكم مدينة نائية في سيبيريا، هو في طريقه منها. استأنس نيكليودوف بجميع الحاضرين. كان الإنكليزي أحمر الوجه، وافر الصحة، يكسّر الفرنسية تكسيراً بشعاً، لكنه كان يتكلم

لغته الأصلية بإتقان فريد، ويُعبّر ببلاغة أخاذة. وكان يسترعي الانتباه العام وهو يروي رحلاته إلى أمريكا والهند واليابان وسيبيريا.

كان مالك منجم الذهب، الشاب، وهو ابن فلاح، يرتدي ثياباً مصنوعة في لندن. وكان مقدّم قميصه مزداناً بالماس. وكان يملك مكتبة واسعة، ويتبرّع بسخاء لأعمال البر، ويظهر بآراء متحررة على الطريقة الأوروبية. وقد وجدته نيكليودوف قريباً من النفس ومثيراً للاهتمام. رأى فيه نموذجاً جديداً، ناجحاً أحسن نجاح: نتيجة التطعيم الأوروبي لجذع صلب، جذع الأصل الفلاحي.

أما حاكم المدينة السييرية النائية فكان ذلك الرئيس السابق لأحد دوائر الوزارة، وهو بعينه الذي كثر اللغط حوله عندما كان نيكليودوف في بطرسبرج. كان منتفخ الوجه، مُكرشاً، قصير الشعر جعده، له عيانان زرقاوان وديعتا التعبير، ويدان بالغتا النظافة، محمّلتان بالخواتم، وعلى فمه ابتسامة متكلّفة اللطف. كان ربّ البيت يقدره لأنه شدّ عن أولئك الناس الذين تسهل رشوتهم. أما ربة المنزل المولعة بالموسيقى والعازفة الماهرة على البيانو، فكانت تقدّر الحاكم السييري لمزاياه الموسيقية، لأنها كانت تعزف معه على البيانو عزفاً مزدوجاً. ارتاح نيكليودوف إلى هؤلاء الناس جميعاً، حتى أنه لم يجد هذا الرجل كريهاً إلى قلبه.

وكان المساعد العسكري، وهو رجل مرح، قوي خدوم، قادراً على أن يغدو جذاباً بطيب مزاجه. لكن نيكليودوف أحس بانجذاب أكبر نحو الزوجين الشابين ابنه الجنرال وزوجها. ولقد كانت هذه

الزوجة عظيمة البساطة، دون أن تكون جميلة، تعبد أولادها. وكان زوجها الذي تزوجته بعد مقاومة أهلها الطويلة، تحرّراً، تخرّج من جامعة موسكو، متواضعاً وذكياً، معيناً بالإحصائيات، ولاسيما إحصاء العروق المحلية التي كان يدرسها بشغف، آملاً أن يساعد في إنقاذ العروق التي توشك أن تندثر.

لم يَئِدْ هؤلاء الناس مُلاطفين، محبّين إلى النفس فحسب، بل لقد كان واضحاً أنهم مغتبطون لأنهم وجدوا في نيكليودوف شخصاً مشيراً للاهتمام. فقد حياة الحاكم الذي أقبل على المائدة بالبزة الرسمية، وبالصليب الأبيض في قبة سترته، وكأنه صديق قديم. وقاده على الفور إلى مائدة المقبلات التي كانت تُقدّم مع الفودكا. ورداً على سؤال الحاكم حول استخدامه ليومه، روى نيكليودوف أنّه مرّ على مكتب البريد حيث وجد نبأ العفو عن الشخص الذي حدّثه عنه. وكرّر رجاءه في أن يُسمح له بدخول السجن.

قطّب الجنرال حاجبيه، دون أن يجيب، وبدأ عليه الإنزعاج من إقحام شؤون الخدمة أثناء الطعام.

عَرَضَ بالفرنسية على المدعو الإنكليزي الذي دنا منهما:

— أتريد شيئاً من الفودكا؟

أفرغ الإنكليزي قدحاً صغيراً وروى أنه زار الكنيسة ومصنعاً وأعرب عن رغبته في زيارة السجن الكبير أيضاً.

قال الجنرال وهو يلتفت إلى نيكليودوف:

— إنها لمصادفة رائعة. تستطيعان أن تذهبا معاً.

وقال لمساعده العسكري:

– أعط هذين السيدين إذناً مكتوباً.

سأل نيكليودوف الإنكليزي:

– متى تنوي أن تذهب إلى السجن؟

أجاب هذا:

– أفضل أن أزور السجن مساء. ففي المساء، يكون جميع السجناء حاضرين، ولا يكون فيه استعداد للسفر، وهكذا نحصل على انطباع حقيقي عن الواقع.

أعلن الجنرال وهو يتّجه إلى المائدة الكبرى حيث عيّنت امرأته لكل من المدعويين المكان الذي يجب أن يجلس فيه:

– آه! تُريد أن تراهم في كامل أبهتهم؟ كما تشاء! لقد طالبت، فلم يُصغ أحد إلي. لعل من الأفضل أن يعلموا ذلك بصوت الصحافة الأجنبية.

كان مكان نيكليودوف بين ربة الدار والإنكليزي. وفي مقابلتهم جلست ابنة الجنرال بجانب رئيس دائرة الوزارة القديم.

دار الحديث، أثناء الطعام، على الهند التي كان الإنكليزي يتحدث عنها، وعلى حملة «تونكين»^(٥٠) التي دأبها الجنرال بقسوة. ثم انتقل الحديث إلى الفساد وغياب النزاهة العامين في سيبريا، وهو حديث لم يكن يشد نيكليودوف إليه إلا قليلاً. لكن حديثاً شائقاً جداً نشب بين

٥٠ - حملة «تونكين»: الحملة الفرنسية التي أخضعت تونكين سنة ١٨٤٨.

الجنرالة والإنكليزي، بصدد غلادستون^(٥١)، بعد الغداء، أثناء تناول القهوة في قاعة الاستقبال. وبدأ نيكليودوف أن الإنكليزي يتكلم عن معرفة بالوقائع، وهو يتلقى ردوداً باهرة سريعة من محدّثيه.

أحس نيكليودوف، بعد الغداء الفاخر، والخمر، والقهوة، وهو جالس على مقعد مريح، بصحبة أشخاص لطيفين ومثقفين، أنه أكثر ارتياحاً، وبناءً على طلب الإنكليزي، جلست الجنرالة إلى البيانو، بجانب رئيس الدائرة السابق، وأخذا يعزفان بحماسة السمفونية الخامسة لبيتهوفن، فأحس نيكليودوف بالوثام مع نفسه، وهو أمر لم يقع له منذ زمن بعيد، حتى لاح له أنه يتبين الآن فقط إلى أي حد كان رجلاً شهماً.

كان البيانو آلة موسيقية ممتازة، وكان عزف السمفونية بريئاً من العيب، على الأقل كذلك كان انطباع نيكليودوف، الذي كان يحب السمفونية الخامسة ويعرفها معرفة عميقة. وأحس وهو يسمع القطعة الرائعة المعتدلة البطء بوخزٍ في أنفه، لفرط ما تحنن على نفسه وعلى فضائله.

بعد أن شكر نيكليودوف ربة البيت على تلك المتعة التي وفّرتها له والتي لم يكن يتوقعها أراد أن يستأذن، لكن ابنة الجنرال تقدمت نحوه بهيئة واثقة، وقالت له، في شيء من الخجل:

— سألتني عن أولادي، أتحب أن تأتي لتراهم؟

٥١ - غلادستون: (١٨٠٩ - ١٨٩٨): سياسي إنكليزي، رئيس وزراء من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٥. وعاد إلى السلطة سنة ١٨٨٠.

قالت الأم وهي تبتسم، معذرة عن انعدام الذوق لدى ابنتها:

- إنها تظن أن جميع الناس يتحرقون شوقاً لرؤية صغيرها. دعي هذا، فذلك لا يُهمّ الأمير في شيء.

فاكد نيكليودوف، وقد تأثر بهذا الحب الأمومي الفاض:

- على العكس، إن هذا ليهمني كثيراً. أرجوك أريني ولديك.

قهقه الجنرال الذي كان جالساً إلى طاولة اللعب مع صهره، ومع مالك مناجم الذهب والمساعد، وقال:

- ابنتي تريد أن تُري الأمير صغيرها! ادفع، ادفع ضريبتك، يا عزيزي!

سبقت المرأة الشابة نيكليودوف، بخطوات، سريعة على داخل المنزل، وهي ظاهرة التأثر لأن نيكليودوف سيصدر حكمه على ولديها. كان في الغرفة التي في الصدر، والمغطاة بورق أبيض، والمضاء بمصباح له كمة قائمة اللون، سريران من أسرة الأطفال جلست بينهما مربية الولدين التي غطت كتفيها بوشاح أبيض، وكانت فلاحه طيبة سمحة الوجه، بارزة الوجنتين، كنساء سيبيريا. نهضت لتحيي سيدة البيت والزائر. انحنت الأم على السرير الأول الذي اضطجعت عليه طفلة صغيرة ابنة عامين، فاتحة فمها، ذات شعر طويل، جعد، مُنتثر على الوسادة.

قالت الأم وهي تكفّ الغطاء الصوفي المسرود، والمخطط باللون الأزرق، الذي برزت منه قدم بيضاء:

- هذه كاتيا. أتراها جميلة! ليس لها سوى عامين.

— إنها فاتنة.

— وهذا فاسيوك، كما يسميه جدّه. هذا نموذج آخر، سييري حقاً،
أليس كذلك؟

فقال نيكليودوف، بعد أن شاهد صبيّاً ضخماً ينام مضطجعاً على
صدره، مثنياً عليه.

صبي رائع!

فألحّت الأم ببسمتها المشرقة:

— حقاً؟

تذكّر نيكليودوف السلاسل والرؤوس الحليقة، والمشاجرات،
والفساد، وكريلتسوف محتضراً، وكاتيوشا وماضيها... فأصابه ضرب
من الغيرة. هو أيضاً، كان يحس بالحاجة إلى سعادة عائلية. يمثل هذا
الكمال.

بعد أن ردد مدحَه للأولاد، وأرضى، ولو جزئياً، نهم الأم التي
كانت تحب مدحه، عاد معها إلى القاعة. كان الإنكليزي ينتظره
ليذهب معه إلى السجن كما اتّفقا.

ودّع نيكليودوف ورفيقه صاحبي البيت، وهبطا درج المدخل.
كان الجو قد تغيّر. وأخذ الثلج يتساقط بندف كبيرة، فغطى الشارع
والسطح وأشجار الحديقة، والبوابة. وغطاء العربة وظهر الجواد.
كانت للإنكليزي عربته، فأمر نيكليودوف حوذيّه بأن يوصله إلى

السجن. وتهادى وحيداً في عربته على الثلج الرخو الذي كان يعيق سير الجواد. كان نيكليودوف يحس إحساساً مزعجاً بأنه يؤدي واجباً شاقاً.

x x x

بدأت بناية السجن السوداء بحارسها ومصباحه تحت البوابة، أشد دكنة منها في الصباح، بالرغم من الكفن الأبيض الذي غطى كل شيء، المدخل والسطح والجدران. وعلى الواجهة كلها، كانت النوافذ مضيئة.

جاء المدير المهيب إلى عتبة الباب ليفحص إذن المرور لنيكليودوف والإنجليزي. هز كتفيه العريضتين. وهو بادي الدهشة، لكنه انصاع لأوامر رئيسه ودعا الزائرين إلى أن يتبعاه. وبعد أن اجتازوا الفناء وعبروا من أحد الأبواب، صعدوا الدرج ودخلوا المكتب. قدّم المدير لهما مقعداً وسأل فيم يمكنه أن يخدمهما. وعندما أعلمه نيكليودوف برغبته في مقابلة ماسلوف، أرسل حارساً يدعوها. وفي غضون ذلك، تهيأ للإجابة عن الأسئلة التي يريد أن يطرحها الإنكليزي بواسطة نيكليودوف.

- ما عدد الأشخاص الذين بُني هذا السجن من أجلهم؟ وما عدد السجناء فيه الآن؟؟ ما عدد الرجال، وعدد النساء، وعدد الأطفال؟

ما عدد المحكومين بالأشغال الشاقة، وما عدد المنفيين، وما عدد الأشخاص الذين تطوعوا لمرافقة السجناء؟ وما عدد المرضى؟

كان نيكليودوف يترجم هذه الأسئلة وأجوبة المدير، دون أن يتعمق في معناها. كان يحس باضطراب فريد لترقبه الحديث الذي سيكون بينه وبين كاتيوشا. وعندما سمع، وسط جملة كان مشغولاً بترجمتها، وَقَعَ خطوات وسمع الباب يُفتح ليدخل منه - كما كان يحدث من قبل على الأغلب - الحارس تتبعه كاتيوشا مغطّية رأسها بخمار، مرتدية ثياب السجناء، خالَجَ نيكليودوف شعور بالقلق الحقيقي. وحدث نفسه بلمح البرق: «أريد أن أعيش! أريد أن تكون لي أسرة، وأن يكون لي أولاد، وأن أحيا حياة طبيعية!» دخلت بخطوات سريعة، خافضة رأسها، غاضّة بصرها. هبَّ نيكليودوف لملاقاتها. بدا له وجه كاتيوشا مُشرباً بالقسوة، عدائياً، مطبوعاً بذاك التعبير الذي طُبِعَ به يوم أن وجّهت إليه اللوم. كانت تحمّرّ وتشحب تباعاً، وتدعك بين أصابعها بحركة تشنجية أهداب قميصها. وكانت ترفع بصرها إليه تارة، وتارة أخرى تغضّه.

سألها نيكليودوف:

- أتعلمين أنك مُنحتِ العفو؟

- نعم، أخبرني الحارس بذلك.

- في الوقت الذي تصل فيه الوثيقة إلى هنا، سيكون بإمكانك أن تخرجي، وأن تحددي إقامتك حيث تشائين وسوف نفكر في ذلك...

فقطعت كلامه هاتفة:

- ما الحاجة إلى التفكير؟ حيثما يذهب فلاديمير ايفانوفتش فسأذهب أنا أيضاً.

على الرغم من اضطرابها الذي لا يوصف، رفعت عينيها إلى نيكليودوف وهي تنطق بهذه الكلمات التي ألقته بسرعة، وهي تقطع المقاطع، وكأن هذه الجمل قد أُعدت من قبل.

فقال نيكليودوف:

- آه! هكذا...

- وماذا أفعل، يا دميتري ايفانوفتش، بما أنه يرغب في أن أعيش معه...

لكنها توقفت كالخائفة لتصحح كلامها:

- في أن أكون بجانبه. هل بوسعي أن أتمنى خيراً من ذلك؟ ينبغي أن أرى في ذلك سعادة لي... وماذا أستطيع أن أفعل. غير ذلك؟..

قال نيكليودوف في نفسه: «أحد أمرين: إما أنها تحب سيمونسون ولا ترغب بتاتاً في التضحية التي أظهرت استعدادي لتقديمها لها، وإما أنها ماتزال تحبني وهي تتخلى عني من أجل مصلحتي... إنها تقطع على نفسها خط الرجعة إذ تربط مصيرها بمصير سيمونسون».

شعر نيكليودوف بالخجل وهو يفكر هكذا. وأحس أنه يحمّر. وقال متردداً.

- إذا أحببته...

- أحب أو لا أحب، لا معنى لذلك! لقد أقلعتُ عن الحب الآن.
ثم إني أرى فلاديمير ايفانوفتش رجلاً غير عادي حقاً، أليس كذلك.
وافق نيكليودوف:

- بالتأكيد. وهو رجل رائع وأظن...

فقاطعته مرة أخرى، وكأنها كانت تخشى ان يقول أكثر من اللازم،
أو كأنها كانت تخاف ألا تستطيع مصارحته بكل شيء. وقالت وهي
تنظر إليه في عينيه، بنظراتها الحولاء المحملة بالمعاني الخفية:

- لا، يجب أن تغفر لي، يا دميتري ايفانوفتش، إذا لم أفعل ما تريد.
يجب أن تكون الأمور هكذا، وهذا واضح! أنت أيضاً، يجب أن
تعيش...

كررت له ما فكر فيه قبل هنيهة. لكنه كفّ عن التفكير في ذلك
الآن، لأن أفكاراً أخرى ومشاعر أخرى كانت تشغله. لم يخالجه
الخنجل فحسب، بل أسف على ما سيفقده معها.

وهمس:

- ما كنتُ أتوقع ذلك...

فاعلنت وهي تبتسم

- لماذا تريد أن تعيش هناك معذباً نفسك؟ كفاك ما لقيته من آلام.

- لم ألقِ آلاماً، وكنتُ مرتاحاً، وأود لو أكون نافعاً لك، إن أمكن.

- نحن - ولفظتُ «نحن» وهي تحدّق في نيكليودوف - نحن لا

نحتاج إلى شيء. لقد فعلت الكثير من أجلي. ولو أنك لم تكن هنا...
أرادت أن تتابع، لكن صوتها تهدّج.
قال نيكليودوف:

– ليس لك في الحقيقة، أن تشكريني.
فأجابت، وعيناها السوداوان ملتصقتان بالدموع:
– ولم الحساب بيننا؟ الله هو الذي يتولّى الحساب بيننا.
فقال بصوت خفيض:

– ما أكرم نفسك!

ابتسمت بحزن عبر دموعها وقالت:

– أنا، كريمة النفس؟

في هذه اللحظة سأله الإنكليزي بالإنكليزية:

– أنت جاهز؟

أجاب نيكليودوف الذي كان يسأل كاتيوشا عن أخبار
كريلتسوف:

– في الحال.

سيطرت على انفعالها، وروت له بصوت أهدأ ما تعرفه: لقد توجّع
كريلتسوف كثيراً من الطريق. فوُضع مباشرة في المشفى. وكانت ماريا
بافلونا شديدة القلق، ذلك أنها طلبت الإذن بالإشراف عليه، لكن
طلبها رُفض.

سألته حين رأت الإنكليزي ينتظره:

- أنصرف؟

قال نيكليودوف وهو يمد يده إليها:

- لن أودّعك. لأنني سأراك أيضاً.

فهمست بصوت خفيض لم يكن يسمعه:

- اغفر لي...

تلاقت عيونهما. وفي النظرة الغريبة لهاتين العينين غير المتساويتين، وفي هذه الإبتسامة المتألّة التي قالت من خلالها «اغفر لي» لا «وداعاً» أدرك نيكليودوف أن الفرضية الحقيقية بين الفرضيتين المتعلقتين بقرار كاتيوشا، هي الثانية. إنها تُحبه، لكنها ترى أنها إن اقترنت به أفسدت حياته. وهي حين تذهب مع سيمونسون ترد لنيكليودوف حريته. وهي الآن مغتبطة لأنها نفذت المهمة التي فرضتها على نفسها. وفي الوقت نفسه، كانت تتألم لفراقه. شدّت يده، واستدارت وخرجت من الغرفة.

نظر نيكليودوف إلى الإنكليزي، وهو مستعد للحاق به. لكن الإنكليزي كان مشغولاً بتسجيل بعض الملاحظات على دفتر صغير. جلس نيكليودوف على مقعد من الخشب مستنداً إلى الجدار، دون أن يزعجه. وفجأة، أحس أنه منهوك القوى. ولم يكن تعبُهُ ناجماً عن أرق ليلته، ولا عن السفر، ولا عن الإنفعال: لقد كان متعباً حتى الموت من الحياة ذاتها. استند إلى ظهر المقعد، وأغمض عينيه، ونام لحظة نوماً ثقيلاً محطّماً.

سأل المدير:

— حسناً؟ أتريد أن تزور المهاجع، الآن؟

هب نيكليودوف مدهوشاً من أن يجد نفسه هنا. فرغ الإنكليزي من تسجيل تعليقاته وأعرب عن رغباته في رؤية المهاجع. وتبعه نيكليودوف كالإنسان الآلي المُسير، وهو متلاشي القوى.

x x x

بعد أن اجتاز الزائران بهواً وممشى منتنين إلى حد إثارة الغثيان، حيث رأيا ما أذهلهما: سجينين ييولان على الأرض، أدخلهما المدير إلى المهجع الأول، المخصص للمحكومين بالأشغال الشاقة.

كانت الأسرة المنضدة تشغل وسط المهجع؛ وكان السجناء الذين يبلغ عددهم السبعين، مضطجعين، كلهم في اتجاه واحد. وعندما دخل الزائران، نهضوا مع قعقة السلاسل. وكانت رؤوسهم التي حُلقت حديثاً في نصف منها تلمع في الغبش. وظل رجالان ممددين: شاب قرمزي الوجه، بدا عليه أنه فريسة للحمى، وشيخ لم يكف عن الأنين.

سأل الإنجليزي إن كان الشاب مريضاً منذ زمن بعيد. فقليل له إن ذلك قد أصابه منذ الصباح؛ أما الشيخ فكان يشكو من ألم في معدته منذ زمن بعيد، لكنهم لم يعلموا إلى أين ينقلونه إذ كان المشفى مלאً. هزّ الإنكليزي رأسه مستنكراً، ورجا نيكليودوف أن يترجم له بعض الأقوال التي يحب أن يوجهها إلى السجناء. وتبين أن للإنجليزي هدفاً آخر غير دراسة نظام السجون في سيبيريا، وهو أن يدعو إلى الخلاص بواسطة الإيمان والفداء.

— قُلْ لَهُمْ إِنْ الْمَسِيحُ يَشْفِقُ عَلَيْهِمْ وَأَنْهُ يَحِبُّهُمْ وَأَنْهُ مَاتَ لِيُفْتَدِيَهُمْ.
فَإِذَا آمَنُوا نَجَوْا.

بَيْنَمَا كَانَ الْإِنْكَلِيزِي يَتَكَلَّمُ هَكَذَا، ظَلَّ السَّجْنَاءُ وَاقِفِينَ قَرَبَ
أَسْرَتِهِمْ، صَامَتِينَ، وَأَيْدِيَهُمْ مَتَدَلِيَةً.
وَأَرْدَفَ:

— قُلْ لَهُمْ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ مَشْرُوحٌ فِي هَذَا الْكِتَابِ. هَلْ بَيْنَهُمْ مَنْ
يُحَسِّنُ الْقِرَاءَةَ؟

تَبَيَّنَ أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْنَهُمْ مَتَعَلِّمُونَ. أَخْرَجَ الْإِنْكَلِيزِي مِنْ
حَقِيقَتِهِ عِدَّةً مِنَ الْكُتُبِ الْمَجْلَدَةِ هِيَ نَسْخٌ مِنْ «الْعَهْدِ الْجَدِيدِ».
فَامْتَدَّتْ أَيْدِيَهُمُ الْقَوِيَّةُ ذَاتُ الْأَظْفَارِ السَّمِيكَةِ السُّودَاءِ خَارِجَ أَكْمَامِ
قِمَاصَانِهِمُ الْقَطْنِيَّةِ، مَتَزَاحِمَةً، مُتَدَافِعَةً. تَرَكَ لَهُمُ الْإِنْكَلِيزِي نَسْخَتَيْنِ
مِنَ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. وَانْتَقَلَ إِلَى الْمَهْجَعِ الَّذِي يَلِي حَيْثُ تَكَرَّرَ الْمَشْهَدُ،
مَعَ انْعِدَامِ الْهَوَاءِ وَالتَّنَانَةِ ذَاتَهُمَا. فِي هَذَا الْمَهْجَعِ وَفِي الَّذِي قَبْلَهُ كَانَتْ
تَتَدَلَّى صُورَةٌ مَقْدَّسَةٌ بَيْنَ النَّافِذَتَيْنِ؛ وَإِلَى يَسَارِ الْبَابِ وَضَعَ الْحَوْضَ
النَّتْنِ. وَهُنَا أَيْضاً، كَانَ السَّجْنَاءُ يَنَامُونَ فِي صَفُوفٍ، وَالرُّؤُوسُ
جَمِيعُهَا فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ؛ هَبَّ الْجَمِيعُ مَا عِدَا ثَلَاثَةَ مَرْضَى. اثْنَانِ مِنْهُمَا
نَهَضَا قَلِيلاً، أَمَّا الثَّلَاثُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ لِيَرَى مَنْ الدَّخَلِ. أَعَادَ الْإِنْكَلِيزِي
مَوْعِظَتَهُ وَوَزَّعَ نَسْخَتَيْنِ مِنَ الْإِنْجِيلِ.

فِي الْمَهْجَعِ الثَّلَاثِ، وَجَدَا أَرْبَعَةَ مَرْضَى. وَرَدَّ أَعْلَى سُؤَالِ الْإِنْكَلِيزِي
الَّذِي أَبْدَى دَهْشَتَهُ مِنْ أَنَّ الْمَرْضَى لَا يُجْمَعُونَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، أَجَابَ

المدير أن المرضى يرفضون ذلك، وأن مرضهم غير مُعدٍ، وأن ممرضاً يزورهم ليقدم لهم العناية الضرورية.

فصاح صوت:

— ها قد مضى خمسة عشر يوماً دون أن نرى وجهه.

انتقل المدير إلى المهجع التالي، دون أن يجيب. فُتح الباب مرة أخرى، ونهض الجميع بصمت، ووزَّع الإنكليزي الأناجيل. وتكرر المشهد في المهجع الخامس والسادس، وعلى يمين الممشى وعلى يساره، وفي كل مكان. ومن المحكومين بالأشغال الشاقة، انتقلوا إلى المنفيين، ثم إلى سجناء الحق العام، ثم إلى الأشخاص الذين رافقوا السجناء بمحض إرادتهم. كان كل شيء متشابهاً، فحيثما ذهبوا وجدوا أناساً آذاهم البرد والجوع والفراغ، وحُبِسوا كما تُحبس الحيوانات المتوحشة.

بعد أن وزَّع الإنكليزي عدداً من نسخ العهد الجديد، لم يقل كلمة واحدة. لأنَّ ذلك المنظر المحزن، وذلك الهواء الفاسد، على الخصوص، قد استنفدا طاقته بوضوح. وكان يكتفي بأن يقول «حسناً» عند كل إيضاح من المدير عن السجناء في كل قاعة.

× × ×

في أحد مهاجع المنفيين، ذهل نيكليودوف حين وجد ذلك الشيخ الغريب الذي لقيه على المعدية. كان جالساً قرب سريره، على الأرض، حافي القدمين، مغضّض الوجه، أشعث الشعر، في قميص وسخ بلون الرماد، ممزق عند الكتف، وفي بنطال مثقوب. نظر إلى القادمين وقد بدت عليه الحيرة، وقطّب حاجبيه. كان جسده المهزول الذي تراءى من خلال مزق الثياب، يثير الشفقة، لفرط ما هو مُضني؛ لكن وجهه كان أكثر رصانة وقسوة منه أثناء عبور المعدية. وقف السجّناء في هذا المهجع وقفة الاستعداد، كما وقفوا في المهاجع الأخرى، لدى رؤية المسؤولين، لكن الشيخ ظل جالساً. وأخذت عيناه تبرقان، تحت الحاجبين الغاضبين.

صاح به المدير:

- قف!

ابتسم الشيخ بازدراء، ولم يتحرّك. ثم قال وهو يشير إلى جبهة المدير:

— خُدامُك يقفون أمامك، لكنني لستُ خادماً لك. أنت تحمل ختم...

اغتاظ المدير، وخطا نحوه خطوة، مهدداً:

— كيف... كيف؟

بادر نيكليودوف إلى التدخل قائلاً:

— إني أعرف هذا الرجل. لماذا أوقفتموه؟

فأوضح المدير الذي كان يرشق الشيخ بنظرته الصاعقة:

— أرسلته الشرطة إلينا لأنه لا يحمل أوراقاً. ونحن نرجوهم ألا يرسلوا إلينا أمثاله، لكن بدون جدوى.

خاطب الشيخ نيكليودوف وسأله:

— وأنت أيضاً في جيش المسيح الدجال؟

أجاب نيكليودوف:

— لا، وإنما جئت زائراً.

— إذن، جئت تتأمل الطريقة التي يُعذبُ بها المسيح الدجال الناس؟ طيب؟ انظر. لقد قبض على جيش كامل ووضعه في قفص. يجب على الناس أن يكسبوا خبزهم بعرق جبينهم، أما هو فإنه يحبسهم كالخنازير، ويطعمهم دون أن يسمح لهم بالعمل، ليغدوا مسعورين.

استعلم الإنكليزي:

— ماذا يقول؟

أوضح له نيكليودوف أن الشيخ يتّهم المدير بإبقاء السجناء في السجن.

سأل الإنكليزي:

— أسأله إذن كيف ينبغي أن يُعامل مخالفو القانون.

عندما ترجم نيكليودوف هذا السؤال، ابتسم الرجل ابتسامة غريبة، كشف من خلالها عن صف من الأسنان المتراسة. وردد باحتقار:

— القانون! لقد بدؤوا بحرمان الناس جميعاً، انتزعوا منهم أراضيهم وأموالهم، وضربوا الذين عارضوهم في ذلك، ثم عملوا القانون الذي لا يجوز بموجبه القتل والسرقة! كان يجب عليهم أن يعملوا القانون قبل ذلك!

— لكن في الوقت الحاضر، كيف يجب أن يكون التصرف إزاء اللصوص والقتلة؟ أسأله، أرجوك!

ترجم نيكليودوف من جديد؛ فازداد الشيخ تجهّماً، وزجر:

— قلْ له لِيُمنَحَ خَتَمُ المسيح الدجال، ولن يكون هناك قتلة ولا سارقون. قلْ له ذلك.

هتف الإنكليزي عندما ترجم له نيكليودوف كلام الشيخ:

— إنه معتوه!

ثم هز كتفيه وخرج من القاعة. بيد أن الشيخ ثار على نيكليودوف صارخاً:

— اعتنِ بشؤونك ودع الآخرين وشأنهم. الله أدرى بمن يعاقب ومن يعفو عنهم. وليس لنا أن نعلم ذلك. كن سيداً لنفسك، ولن تكون بحاجة إلى الأسياذ.

وأضاف وهو يرشق نيكليودوف الذي ظل واقفاً بنظرته الصاعقة:

— انصرف، انصرف! لقد رأيت كيف يجعل المسيح الدجال الناس طعمة للقمّل. انصرف، انصرف!

عندما خرج نيكليودوف إلى الممشى، وجد الإنكليزي يسأل المدير عن فائدة الغرفة المقابلة، غرفة الموتى.

فهتف الإنكليزي عندما فهم:

— أوه!

وأبدى رغبته في زيارة غرفة الموتى هذه.

كانت غرفة صغيرة ليس فيها شيء خاص، بُنيت في جدارها مصباح يضيء إضاءة باهتة أكياساً وخشباً مكّدساً في الزاوية. وإلى اليمين مُدّت أربع جثث على ألواح خشبية. كان الأول الذي يرتدي قميصاً وبنطالاً قطنياً، رجلاً فارغ الطول، له عثنون على شكل قرن، ونصف رأسه حليق؛ وتراخت يدها البنفسجيتان المضمومتان إلى صدره، وكذلك قدماه العاريتان. وإلى جنبه رقدت امرأة عجوز، تلبس قميصاً وتنورة بيضاء، وهي حافية القدمين، مكشوفة الرأس.

كانت لها ضفيرة رقيقة من شعرها القصير، وكان وجهها
نحيلاً أصفر، مجمّداً، ذلّق الأنف، ووراء العجوز مُدّت جثة رجل
مغطى بشيء لونه بنفسجي. فأيقظ هذا السكون الذكرى في نفس
نيكليودوف، واقترب من الجثة لينظر إليها.

كان عثنونه مقرّناً، قصيراً، متّجهاً إلى الأعلى، وأنفة كبير قليلاً لكنه
حسن التكوين، وجهته العريضة عاجية، وشعره نادر لكنه جعد: لقد
تعرف نيكليودوف هذه الملامح المألوفة وهو لا يصدّق عينيه. أمس
بالذات، تأمل هذا الوجه الذي شتّجه الاحتقار والألم. وهو الآن
يرقد هنا بسلام، لا حراك فيه، بجماله المرعب. نعم كان هذا هو
كريلتسوف، أو، على كل حال، جثمان كريلتسوف.

تساءل نيكليودوف: «لماذا تألم؟ ولماذا عاش؟ أيكون قد أدرك
ذلك، الآن؟» وبداله أن هذه الأسئلة لا جواب لها، وأنه لا يوجد
شيء خارج الموت، فألمته هذه الفكرة.

رجا الحارس أن يوصله إلى خارج السجن، دون أن يستأذن
الإنكليزي. أحس بالحاجة إلى أن يكون وحده كي يفكر في كل ما
عاشه، هذا المساء. فقفّل راجعاً إلى الفندق.

× × ×

لم ينم نيكليودوف. وذرع غرفته زمناً طويلاً. لقد انتهت قصته مع كاتيوشا، فهي لم تعد بحاجة إليه، وأحزنته هذه الفكرة ملأته خجلاً. سؤال آخر كان يعذبه أيضاً، وهو سؤال أخذ يلحّ عليه أكثر من أي وقت مضى، دون أن يجد حلاً. ذلك أن الشر المخيف الذي كان شاهداً عليه، ولاسيما أثناء زيارته الأخيرة للسجن، هذا الشر الذي قتل كريلتسوف المسكين، ينتصر في كل مكان ولم يكن نيكليودوف يتبين وسيلة للتغلب عليه. كان يرى بخياله هذه المئات والآلاف من الكائنات البشرية مُدلة، مهانة، محبوسة في جو موبوء، بمشيئة كل أولئك الجنرالات والنواب العامين، وهؤلاء المدراء اللامبالين. وخطر بباله الشيخ الغريب، المتعطّش إلى الحرية، الذي ندّد بالسلطة في هذا المساء، والذي يعتبره الناس مجنوناً. رأى بخياله مرة أخرى غرفة الموتى، ورأى، بين الجثث، وجه كريلتسوف الجميل وكأنه من الشمع، ميتاً في غيظه. فشرع بهجمة الشك عليه أقوى من ذي قبل: مَنْ المجنون، هو أم أولئك الذين يحسبون أنفسهم عقلاء، ويتصرفون على هذا النحو؟

أعياءه المشي والتفكير، فجلس على مقعد، تحت المصباح، وفتح بحركة آلية الإنجيل الذي أهده إياه الإنكليزي، والذي ألقى به على الطاولة، عندما دخل وأفرغ جيبه.

قال في نفسه: «يقولون: إن من الممكن أن نجد فيه جواباً عن كل شيء». وفتح الكتاب على غير هدى، وقرأ:

متى الإصحاح الثامن عشر - ١ - في تلك الساعة تقدّم التلاميذ إلى يسوع قائلين: «فمن هو أعظم في ملكوت السموات؟».

٢ - فدعا يسوع إليه ولداً، وأقامه في وسطهم.

٣ - وقال: «الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد، فلن تدخلوا ملكوت السموات».

٤ - «فمن وضع نفسه مثل هذا الولد، فهو الأعظم في ملكوت السموات».

حدث نيكليودوف نفسه: «نعم، نعم، وهو كذلك»، متذكراً أنه قد ذاق لذة السكينة والفرح بالحياة عندما تواضع فقط.

٥ - «ومن قبل ولداً واحداً مثل هذا باسمي، فقد قبلني».

٦ - «ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي، فخير له أن يُعلق في عنقه حجر الرحي ويُغرق في لجة البحر».

وتساءل نيكليودوف: ما معنى «من قبل بي»؟ وأين يقبل به؟ وما معنى «باسمي»؟. وإنما تساءل إذ أحس أن هذه الكلمات لم تكن تعني

شيئاً عنده. ولماذا «(في عنقه حجر الرحي)»، و«لجة البحر»؟ لا، إن ها هنا خللاً. ليس ذلك واضحاً، ولم يُشرَح ذلك شرحاً حسناً. وتذكّر حينئذ أنه عكف، غير مرة، خلال حياته، على قراءة الإنجيل، فنَفَر دائماً من هذا المقطع. بيد أنه قرأ أيضاً الآيات الأربع التالية، تلك التي تتناول العثرات التي تقع في هذا العالم، وعقاب نار جهنم، والصغار الملائكيين الذين ينظرون وجه الأب السماوي. وفكّر: «من المؤسف أنه قد عُبرَ عن ذلك كله هذا التعبير الضعيف. وإن كنا نحس أن في صميم هذه الآيات شيئاً حسناً». واستأنف قراءته:

١٢- «ماذا تظنون، إن كان لإنسان مائة خروف و ضلَّ واحد منها، أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال، ويذهب يطلب الضال».

١٣- «وإن اتفق أن يجده فالحق أقول لكم: إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تضل».

١٤- «هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذي في السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار».

فكّر نيكليودوف «نعم، ليست مشيئة الأب أن يهلكوا، ومع ذلك فهم يهلكون بالمئات، وبآلاف. ولا سبيل إلى إنقاذهم. وتابع قراءته:

٢١- «حينئذٍ تقدم إليه بطرس وقال: يارب، كم مرة يُخطئ إلي أخي وأنا أغفر له. هل إلى سبع مرات؟»

٢٢- «قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات».

٢٣- لذلك يُشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً أراد أن يحاسب عبّيده».

٢٤- «فلما ابتدأ في المحاسبة قُدّم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة».

٢٥- وإذا لم يكن له ما يُوفي، أمر سيده أن يُباع هو وامراته وأولاده وكل ماله ويُوفى الدين».

٢٦- «فخرّ العبد وسجد له قائلاً: يا سيد تمهل علي، فأوفيك الجميع».

٢٧- «فتحزن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدين».

٢٨- «ولما خرج ذلك العبد، وجد واحداً من رُفقائه كان مديوناً له بمائة دينار. فأمسكه وأخذه بعنقه قائلاً: أوْفني مالي عليك».

٢٩- «فخرّ العبد رفيقه على قدميه، وطلب إليه قائلاً: تمهل علي فأوفيك الجميع».

٣٠- «فلم يُرد: بل مضى وألقاه في سجن حتى يوفي الدين».

٣١- «فلما رأى العبيد رفقاؤه ما كان، حزنوا جداً، وأتوا وقصّوا على سيدهم كل ما جرى».

٣٢- «فدعاه حينئذ سيده، وقال له: أيها العبد الشرير، كل ذلك الدين تركته لك، لأنك طلبت إلي».

٣٣- أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا؟»

هتف نيكليودوف فجأة، بعد أن قرأ هذه الكلمات الأخيرة: «أ يكون هذا هو الجواب؟». فأجابه صوت داخلي. «نعم، هذا هو الجواب، ليس غير».

حينئذ حدث لنيكليودوف ما يحدث غالباً للذين لهم حياتهم الداخلية والفكرة التي كانت تبدو له، في البداية، غريبة، متناقضة، بل ومخالفة للعقل، والتي أخذت الحياة تؤيدها على نحو متزايد، هذه الفكرة تجلّت له، بغتة، على أنها حقيقة من أبسط الحقائق، لكنها حقيقة لا سبيل إلى دحضها.

لقد رأى بجلاء أن العلاج الوحيد للشر الفظيع الذي يتألم منه الناس، يكمن في اعترافنا، أمام الله، بأننا مذنبون، وبأننا غير مؤهلين، من جراء ذلك، للحكم على الآخرين ومعاقبتهم. لقد أدرك فجأة، أن ذلك الشر الذي كان شاهداً عليه في السجون، وعدم اكتراث الذين يرتكبون هذا الشر، ينجمان عن أن الناس يريدون أن يقوموا بمشروع مستحيل. إنهم يسعون إلى إصلاح الشر، في حين أنهم هم أنفسهم شريريون. إن إناساً فاسدين يتغنون إصلاح أناس آخرين فاسدين، ويحسبون أنهم يبلغون هدفهم بحركات فارغة من المعنى. والنتيجة الوحيدة هو أن هؤلاء الرجال العاطلين والجشعين الذي جعلوا من تطبيق العقاب مهنة لهم، كانوا هم أنفسهم فاسدين حتى مخ العظم. إنهم يجعلون أولئك الذين يخضعونهم لسوء المعاملة أسوأ مما كانوا عليه.

لقد أخذ نيكليودوف يرى بوضوح كل هذه الفظاعات التي تُرتكب، وأخذ يعلم ماذا ينبغي أن نفعل لاستئصالها. إن الجواب الذي بحث عنه عبثاً هو جواب المسيح لبطرس: يجب أن نغفر دائماً، أن نغفر للجميع، أن نغفر عدداً لا يُحصى من المرات، لأنه لا يوجد بشر بلا خطيئة، ولأنه لا يوجد إنسان جدير بأن يعاقب ويؤدّب.

وقال نيكليودوف في نفسه: «كلا، ذلك غير ممكن، لا يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة». قال ذلك وهو يحسّ بيقين أن هذا هو الحل الوحيد، هو الطريقة الوحيدة لحل المشكلة من الوجهة النظرية والعملية على حد سواء، وإن بدا ذلك شديد الغرابة في بداية الأمر، لأنه تعود التفكير بطريقة متعارضة كلياً. ولم يعد يُقلقه الاعتراض المعتاد: «ماذا نفعل بالمجرمين؟ أتركهم بلا عقاب؟». فهذا الاعتراض يمكن أن يكون له معنى لو استطعنا البرهنة على أن العقوبات تقلل من عدد الجرائم، وتُصلح المجرمين. لكن بما أن العكس هو الثابت، وبما أن من الجليّ أن ليس في مقدور البعض معاقبة الآخرين، فإن الشيء الوحيد المعقول هو الإقلاع عن أعمال ليست عديمة الفائدة فحسب، بل إنها مضرّة ولا أخلاقية، وفضة. ومنذ قرون يُعاقب الذين يُعدّون مسيئين، فهل أدّى ذلك إلى استئصالهم؟ على العكس، إن عددهم لا يني يتزايد، لأن الذين أفسدهم العقاب قد انضاف إليهم، وكذلك انضاف إليهم كل هؤلاء القضاة وهؤلاء النواب العامين وهؤلاء القضاة المحققين وهؤلاء السّجّانين المكلفين بالحكم والقصاص.

لقد أدرك نيكليودوف الآن أن المجتمع والنظام القائم موجودان، لا بسبب وجود هؤلاء المسيئين الشرعيين الذين يحاكمون أمثالهم

من البشر ويحكمون عليهم، بل لأن الناس، بالرغم من هذا الفساد، يتعاطفون فيما بينهم، ويتحاطون بالرغم من كل شيء.

أخذ نيكليودوف يقرأ الإنجيل أملاً بالعثور على تأييد لهذه الفكرة فيه. فقرأ الموعظة على الجبل التي طالما هزّته. ولأول مرة اكتشف فيها، لا الأفكار المجردة الرائعة الصعبة التحقيق، وإنما اكتشاف تعاليم بسيطة، واضحة، ممكنة التطبيق، جديدة، إذا ما طبقت - وهو شيء غير مستحيل البتة - أن تخلق مجتمعاً جديداً حقاً، مجتمعاً يزول فيه العنف الذي يأباه نيكليودوف، من ذاته. إذ ذاك تزهّر على الأرض مملكة الله، الخير الأسمى التي طمحت إليه الإنسانية. وهذه التعاليم خمسة:

التعليم الأول (متى ٥ : ٢١ - ٢٦). يجب على الإنسان ألا يمتنع فقط عن قتل الإنسان، بل يجب ألا يغضب على أخيه؛ يجب ألا يحتقره، وألا يقول له «راقا»^(٥٢). وإذا خاصم أحداً فيجب أن يصالحه قبل أن يقدم قربانه للرب، أي قبل أن يصلي.

التعليم الثاني (متى ٥ : ٢٧ - ٣٢). يجب على الإنسان ألا يمتنع فقط عن الزنى، بل يجب عليه ألا ينظر إلى امرأة بشهوة. وإذا تزوّج فيجب أن يظل وفياً لزوجته طوال حياته.

التعليم الثالث (متى ٥ : ٣٣ - ٣٧) يجب على الإنسان ألا يحلف البتة.

٥٢ - راقا: كلمة آرامية معناها «رأس فارغ».

التعليم الرابع (متى ٥ : ٣٨ - ٤٢). يجب على الإنسان ألا يرد السيئة بمثلها: العين بالعين والسن بالسن؛ بل يجب عليه أن يُحوّل الخد الآخر لمن لطمه على أحد الخدين. يجب أن يغفر السيئات، وأن يحتملها بخضوع، وألا يرفض شيئاً مما يُطلب منه.

التعليم الخامس (متى ٥ : ٤٣ - ٤٨) يجب على الإنسان ألا يمتنع فقط عن بغض أعدائه، بل يجب أن يحبهم ويساعدهم ويخدمهم.

حدّق نيكليودوف في ضوء المصباح، وشرّدت به أفكاره فعندما تذكر ما في هذه الحياة من أهوال، تصوّر جيداً ما يمكن أن تكون عليه الحياة على الأرض لو رُبّي الإنسان على مثل هذه التعاليم. وأحس بموجة من الحماسة تحتاجه، لم يشعر بمثلها منذ زمن بعيد. فكأنما عثر فجأة على السكينة والحرية، بعد جهود مضنية، وآلام شتى.

لم ينم ليلته. وكما يقع للكثيرين ممن يقرؤون الإنجيل، فهم لأول مرة، المعنى الحقيقي لهذه الكلمات التي قرأها ولم يفهمها حتى الآن. وكما يتلّ الاسفنج بالماء، كذلك تشرب هو التعاليم المفيدة والهامة والمضيئة التي كشفها له هذا الكتاب. بدالـه كل ما قرأه مألوفاً، وكأنما حمل إلى شعوره أشياء يعرفها منذ زمن بعيد، لكنه قبلها يتحفّظ ودون أن يؤمن بها.

لقد آمن من الآن إيماناً راسخاً أن الإنسانية، إذا اتّبعت هذه التعاليم استطاعت أن تبلغ الخير الأسمى الذي هي قادرة عليه. لقد آمن إيماناً قاطعاً أن من واجب كل إنسان أن يطبّق عملياً هذه التعاليم

التي تجسّد علّة الحياة، العلّة الوحيدة والصّحيحة. فإذا انتهك الإنسان هذه التعاليم ارتكب خطأ وجرّه ذلك إلى عقابه ذاته.

هذه النتائج تتبع من تعاليم الكتاب المقدس كله؛ لكن قد عبّر عنها بقوة خاصة في مثل الكرامين. لقد ظنّ الكرامون الذين أرسلهم رب الأسرة ليعملوا في كرمه، أن الكرم وما فيه ملك لهم. وما عليهم إلا الإستماع بالحياة، دون أن ييالوا بصاحب الكرم، قاتلين كل من يذكرهم بالالتزامات المستحقة له.

فكّر نيكليودوف: هذا هو ما نفعله، نحن أيضاً. نحن نعيش مقتنعين بأننا أسياد وجودنا، وأن هذه الحياة قد وُهبّت لنا من أجل أن ننعم بها. لكن هذا غير معقول. ذلك أن الإنسان إن وُجد على الأرض فبمشيئة غير مشيئته، ولسبب ما، أيّاً كان ذلك السبب. أما نحن فقد قررنا أننا ما جئنا إلى هذا العالم إلا من أجل لذتنا. وبالطبع فنحن نعاني ضيقاً، كالضيق الذي يعانيه عامل يأبى أن ينفذ مشيئة سيده. ومشية سيدنا عبّر عنها في هذه الصفحة. فإذا راعى الناس هذه التعاليم أقاموا مملكة الله على الأرض، وبلغوا أسمى درجة من الغبطة يمكن أن يبلغها البشر.

«اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، وهذه كلها تُزاد لكم».

وبدلاً من ذلك، ترانا نبحث عما «يُزاد»، ثم ندهش من أننا لا نجده. هو ذا هدف حياتي. ما كدت أبلغ هدفاً حتى تكشف لي هدف آخر!

منذ هذه الليلة، بدأت حياة جديدة، بالنسبة إلى نيكليودوف، لا لأن شروط حياته قد تحوّلت فحسب، بل لأن كل ما جرى في هذه اللحظة بالذات قد اتخذ في عينيه دلالة أخرى.

أما كيف ستنتهي هذه المرحلة الجديدة من حياته، فسوف يكشف المستقبل عن ذلك.

موسكو في ١٧ كانون الأول ١٨٩٩



تعود بذرة هذا العمل إلى عام ١٨٨٧. وهي تُولد من حدث واقعي. كان لتولستوي آنذاك علاقات ممتازة مع النائب العام «أناتول فيدوروفتش كوني» (١٨٤٠-١٩١٨). وهو حقوقي شهير، ذو فكر متحرر، ونزاهة خلقية عظيمة، وأفضل ممثل للحقوقيين الروس من جيل ١٨٦٠. ولقد أوتي موهبة أدبية حقيقية، فشر مرافعاته كما نشر مذكراته، ولاقت نجاحاً كبيراً. وهو الذي قصّ ذات يوم على تولستوي واقعة مؤثرة من حياته القانونية: زاره شاب من المجتمع الراقي أراد أن يسلم ظرفاً مختوماً إلى إحدى السجينات. وأبت الإدارة عليه ذلك، فقصد النائب العام «كوني» يطلب عونه. اهتم كوني بالأمر وعلم أن تلك السجينة مومس اسمها «روزالي أوني»، وأنها محكومة بسبب سرقتها مائة روبل. لكن كان وراء ذلك قصة طويلة: لقد كانت «روزالي» فلاحاً صغيرة يتيمت اشتغلت خادمة لدى سيدة ثرية دلتها. فأغراها ابن تلك السيدة - وهو الشاب الذي قصد النائب العام - وحملت منه، وما لبثت أن طردت من البيت وغرقت شيئاً فشيئاً في الدعارة. وإذا اتهمّت ذات يوم بالسرقة، أحيلت إلى المحكمة التي كان بين محلفيها ذلك العشيق القديم، فحكم عليها بالسجن. وعندما تعرّف العشيق تلك الفتاة التي أغواها قديماً، عضّه الندم لأنه دفعها على طريق الهلاك، وعرض عليها الزواج ليكفر عن خطيئته. لكن البائسة أصيبت بالتيفوس الذي كان يفتك بالسجن حينئذ، وماتت في المشفى، قبل أن يتم الزواج.

ISBN 978-2-843090-60-8



مكتبة بغداد

9 782843 090608